

يوسف السباعي

نادية

الجزء الأول

المؤلف

أطياف	(قصص قصيرة ١٩٤٧)
نائب عزرائيل	(رواية ..... ١٩٤٧)
اثنتا عشرة امرأة	(قصص قصيرة ١٩٤٨)
خبايا الصدور	(» » ١٩٤٨)
يا أمة ضحكت	(» » ١٩٤٨)
اثنا عشر رجلا	(» » ١٩٤٩)
أرض النفاق	(رواية ..... ١٩٤٩)
فى موكب الهوى	(قصص قصيرة ١٩٤٩)
من العالم المجهول	(» » ١٩٤٩)
هذه النفوس	(» » ١٩٥٠)
إنى راحلة	(رواية ..... ١٩٥٠)
ميكى العشاق	(قصص قصيرة ١٩٥٠)
بين أبو الريش وجنينة ناميش	(» » ١٩٥١)
أغنيات	(» » ١٩٥١)
أم رتيبة	(مسرحية .... ١٩٥١)
هذا هو الحب	(قصص قصيرة ١٩٥١)
صور طبق الأصل	(» » ١٩٥١)
بين الأطلال	(رواية ..... ١٩٥٢)
السقا مات	(» » ١٩٥٢)
سمار الليالى	(قصص قصيرة ١٩٥٢)
الشيخ زعرب	(» » ١٩٥٢)
نفحة من الإيمان	(» » ١٩٥٢)
وراء الستار	(مسرحية .... ١٩٥٢)
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
هذه الحياة	(» » ١٩٥٣)

البحث عن جسد	(روايـة ٠٠٠٠٠ ١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية ٠٠٠٠ ١٩٥٣)
فديتك ياليلى	(روايـة ٠٠٠٠٠ ١٩٥٣)
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
همسة عابرة	(» » ١٩٥٣)
رد قلبي	(رواية فى جزأين ١٩٥٤)
ليال ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)
طريق العودة	(روايـة ٠٠٠٠٠ ١٩٥٦)
أيام تمر	(مقالات ٠٠٠٠ ١٩٥٧)
من حياتى	(» ٠٠٠٠٠٠ ١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(» ٠٠٠٠٠ ١٩٥٩)
نادية	(رواية فى جزأين ١٩٦٠)
جفت الدموع	(» » » ١٩٦١)
أيام مشرقة	(مقالات ٠٠٠٠ ١٩٦١)
أيام وذكريات	(» ٠٠٠٠٠ ١٩٦١)
أيام من عمرى	(» ٠٠٠٠٠ ١٩٦٢)
ليل له آخر	(رواية فى جزأين ١٩٦٤)
أقوى من الزمن	(مسرحية ٠٠٠٠ ١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزأين ١٩٦٩)
لست وحدك	(روايـة ٠٠٠٠٠ ١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقالات ٠٠٠٠ ١٩٧٠)
أيام عبد الناصر	(» ٠٠٠٠٠ ١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(روايـة ٠٠٠٠٠٠ ١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحلات ٠٠٠٠ ١٩٧١)
العمر لحظة	(قصة ٠٠٠٠٠٠ ١٩٧٣)

إهداء

إلى « نادية » الملهمة ...

أهدى « ناديه » القصة ...

مع كل ما أملك من مشاعر طيبة .

« يوسف السباعى »

مقدمة

مرة أخرى أشعر بمسئوليتى ككاتب يعيش فى فترة مليئة بالأحداث التى تغير مجرى التاريخ فى وطنه ..

ولست أظن الكاتب يمكنه أن يفصل نفسه عما يحيط به .. فإنتاج الفنان عملية استقبال وإرسال .. أو امتصاص وإفراز .. وهو يأخذ مما حوله ليؤثر فيمن حوله .

وعندما كتبت « أرض النفاق » و « وراء الستار » و « البحث عن جسد » و « يا أمة ضحكت » .. كنت أعكس بها ما استقبلت من انفعالات سببها إحساسنا بالفساد والفوضى التى كانت تدمغ حياتنا وتتركنا فى حنق وضيق ولهفة تملأ نفوسنا على شيء يخلصنا من حالة الضياع التى كنا نعيش فيها .

وعاصر جيلنا هذا الشىء الذى كنا نتلهف عليه .. وحدثت الثورة التى أعادت لنا أحساسنا بالكرامة .. ووضعتنا حيث كنا نتمنى دائماً أن نكون .

وأحسست بمسئوليتى ككاتب وضابط عاش فى تلك الفترة التى انتهت بالثورة ، وعانى كل التجارب التى مرت بها وأحس بالانفعالات التى أحس بها أصحابها .. أحسست بمسئوليتى التى تدفعنى إلى تسجيل كل هذه الحوادث والتجارب والانفعالات التى سبقت الثورة وأدت إليها .

وكتبت « رد قلبى » بقدر ما أملك من جهد وقدرة وأمانة ، وقد أكون متعجلا فى كتابتها .. وقد يكون البعد الزمنى الذى يبرز لنا الحوادث بطريقة أوضح وشكل أعم .. لم يتوفر لى أثناء الكتابة .. ولكنى مع ذلك أقدمت على كتابتها .. يدفعنى إلى ذلك إحساس بمسئولية الكاتب .. تاركاً لغيرى ممن قد يتأثر بعدى وممن يتوفر له البعد الزمنى الذى يمكنه من تسجيل صورة أدق ، ورسم شكل أشمل وأوضح . ولعلى أكون قد وفرت له ما يعينه على عمله .

ويبدو لى أن جيلنا من الكتاب قد منحه الله من الأحداث الضخام ما هيأ له زاداً من مصادر الإلهام والانفعال .. فلم تكد تنتهى أحداث الثورة حتى بدأت أحداث التأميم والعدوان والانتصار فى بور سعيد .

ومرة أخرى أحسست بمسئوليتى إزاء الأحداث الكبار التى جعلتنا فى التاريخ شيئاً مذكوراً .. والتى جعلت من الأيام التى نعيش فيها أياماً لها على الزمن قيمة .

وكتبت هذه القصة التى جرت حوادثها فى الفترة التى تلت الثورة ، والتى امتلأت بالحوادث الضخمة التى انتهت ببور سعيد .. مستعيناً على كتابتها بملهمة .. كان لها الفضل الأكبر فى كتابة هذه القصة .

تلك الملهمة هى « نادية » التى لقيتها فى قمم الألب العليا .. والتى لولاها ما عرفت الكثير من تلك المعالم الإنسانية والطبيعية التى سجلتها فى هذه القصة .. والتى كانت بالنسبة لى الدعائم الكبرى التى حملت هذه الأحداث التاريخية التى حاولت تسجيلها.

وبعد . أرجو أن أكون قد حققت بها بعض ما يعوّض علىّ جهدى فى كتابتها ، وما يعوّض جهد القارئ فى قراءتها .. وما يعوّض الملهمة .. عن عرض بعض حياتها .

والسلام عليكم ورحمة الله .

« يوسف السباعى »

(١)

توأمتان

دقت الساعة أربع دقات .. وقفزت « منى » من فراشها فى وثبة بهلوانية قاذفة المجلة من يدها وهتفت بنادية :

ـــ هيا بنا .

وتمطت « نادية » وتثاءبت وأراحت أطرافها فى استرخاء وأجابت وعيناها مسبلتان :

ـــ دعينى أسترح .

ـــ ألن تشاهدى المباراة ؟

ـــ لا .

ـــ ألن تذهبى إلى النادى ؟

ـــ سأذهب بعد الإفطار مع ماما وبابا .

ـــ غبية !! أتعتبرين هذا ذهاباً إلى النادى .. تحشرين نفسك وسط العجائز .. هيا .. قومى .

ومدت « منى » يدها تحاول أن تجذبها من الفراش فصاحت « نادية » :

ـــ قلت لك إنى متعبة .

ـــ أتظلين راقدة هكذا حتى المدفع ؟

ـــ أجل .

ـــ إنك تضيعين عمرك بهذا الصيام .. لماذا لا تفطرين ؟

ـــ ولماذا أفطر ؟

ـــ لأنك عاجزة عن الصيام .

ــ أنا لم أشك إليك .

ــ ولكنك تقضين نصف نهارك راقدة بلا حراك .

ــ كذابة .. هذا أول يوم منذ بدء رمضان .. أرقد فيه .. لأننا تعبنا فى المدرسة طول اليوم .

ــ ولماذا لم أتعب أنا ؟

ــ لأنك مفطرة .

ــ ولماذا لا تفطرين مثلى ؟ أيرضيك أن تدخلى الجنة وحدك ؟

وضحكت « نادية » وأجابت :

ــ سأتوسط لك .. لكى تدخلى معى .

ــ أتقبل وساطتك ؟

ــ ربما .

ــ إذاً لنأخذ معنا « عصام » .. إنى لا أستطيع دخول الجنة بدونه .

ــ ومن أدراك أنه فى حاجة إلى وساطة !

ــ لأنه لا يصوم أيضاً .

ــ ولماذا .. وهو كالعجل ؟

ــ لأنهم يدوخونه فى الكلية الحربية .. هل رأيته بعد أن حلقوا له رأسه ؟

ــ حلقوا لعصام .. لابد أن شكله قد أصبح مضحكا جداً .. لم يكن به شىء سوى شعره .. لست أدرى ماذا دفع هذا الغبى إلى دخول الحربية بعد أن أخذ ليسانس الحقوق ؟

ــ أنا .

ــ أنت ! ولمه ؟

ــ لأنى أريد أن أراه بالبذلة الرسمية .. إنى أحب الضباط جداً .

ــ لأنك هايفة .. وهو أهيف منك لأنه سمع كلامك .

ــ لماذا ؟! إنه سيصبح نائب أحكام .. على سن ورمح .. هل رأيته ببذلة

الكلية ، و « الكاب » ؟

ـــ لم أره .

ـــ فاتك نصف عمرك .

ـــ لمه ؟ .. من يكون ؟ .. جمال عبد الناصر .. أمال لو كان بشعره ؟

ـــ كان فاتك عمرك كله .

وقذفت « منى » ببنطلون البيجامة .. وتناولت البنطلون البلوجينز من الشماعة ، ووضعت ساقيها فيه بوثبة راقصة ، ثم حشرت ردفيها فيه وضغطت على « الكبسولة » .. وجذبت « السوستة » ثم أردفت قائلة :

ـــ على أية حال تستطيعين أن تريه اليوم .. إن لديه فسحة وسيحضر لمشاهدتى أثناء اللعب ، ثم تتناول الشاى معاً .

ولم يلق قول « منى » ارتياحاً لدى « نادية » وردت محذّرة :

ـــ لا داعى لهذا الشاى .

والتفتت إليها « منى » متسائلة :

ـــ ولمه ؟

وهزّت « نادية » كتفيها وأجابت :

ـــ أولا .. لأننا فى رمضان .

وقاطعتها « منى » بسرعة :

ـــ لا يهمنى رمضان .

واستمرت « نادية » تقول فى لهجتها المحذرة :

ـــ وثانياً .. لأن الناس ..

وعادت « منى » تقاطع فى حدة :

ـــ ولا يهمنى الناس ..

ـــ إن تصرفاتك يجب ...

ـــ إنى أتصرف بما يرضينى .. لا ما يرضى الناس .. إنى لا أستطيع أن أعذب

نفسى ، من أجل أن أنافقهم وأريحهم . إن تصرفاتى من شأنى وحدى . وأنا أستطيع أن أتحمل نتائجها .

ـــ أنت كاذبة .

ـــ كيف ؟

ـــ لأنك لا تتحملين شيئاً ولأنك تعرفين من الذى يتحمل .

ـــ ماذا تقصدين ؟

ـــ أقصد أنك تعملين العملة ، وتلقين عبئها على غيرك .. إنك تسيئين التصرف .. و « ماما » المسكينة تتحمل النتائج .

ـــ نعم ؟ .. من الذى طلب منها أن تتحمل النتائج .. أنا لست عاجزة عن مواجهة الناس .. إنى أستطيع أن أتحمل لومهم .. وأتحداهم جميعاً .

ـــ إن أحداً لن يلومك .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنك طفلة .. ولأنهم يرجعون كل عبثك الصبيانى .. إلى سوء تربيتك .. ولأن أمك الفرنسية .. قد نضحت عليك . لقد سمعت عمتى تقول عنك فى النادى « اكفى الجره على فمها تطلع البت لأمها » .

ـــ لو قالت أمامى هذا .. لشتمتها .. أنا لا يهمنى عمتى ولا أبوها ولا أمها .

ـــ ولكن يهمك أمنا .. لماذا تظلمينها بحماقتك ؟! لماذا تساعدينهم على التشنيع بها والحملة عليها .. أنت تعرفين .. كم هى طيبة .. وتعرفين أنها تصوم معنا رمضان،ولماذا تتركينهم يأخذونها بطيشك ويلومونها من أجلك .

ـــ وماذا يهمها منهم .. لماذا لا تقاطعهم جميعاً ؟

ـــ لأنها قد أصبحت جزءاً من أسرتهم .. وهى لا تستطيع أن تفصل أبى عن أخواته وأمه وأبيه .

ـــ إذن لتتحمل شرورهم .

ـــ ولماذا لا تتعقلين أنت . وتتزنين فى تصرفاتك وتقطعين عليهم سبل اللوم ؟

ـــ وماذا فعلت حتى أستحق لومهم ؟

ـــ ألا تعرفين ماذا فعلت ؟

ـــ لا .

ـــ مثلا .. مصاحبتك الدائمة لعصام .

ـــ إنه my boy friend .

ـــ ليس فى تقاليدنا شيء اسمه boy friend هذه صفة لم نعترف بها بعد فى أسرتنا .

ـــ فى الدول المتمدينة يعترفون بها .

ـــ وعندنا نعتبرها انحلالا .. ليس للفتاة الحق فى أن تصاحب مخلوقاً .. يقل عن درجة خطيب .

ـــ وعصام سيخطبنى .

ـــ عندما يخطبك تستطيعين أن تصاحبيه إلى السينما .. وتشربى معه الشاى .

ـــ سأجعله اليوم يخطبنى .. ماذا عندك غير هذا من أدلة طيشى ؟

وقذفت « منى » بجاكتة البيجامة ووضعت ذراعيها فى قميص حريرى خفيف ، وأخذت تشد أزراره على كرتى صدرها الممتلئتين .

وأجابت « نادية » وهى تنظر إلى حلمتيها البارزتين من وراء القميص الخفيف :

ـــ هذا اللبس الذى ترتدينه !

ـــ ما به ؟

ـــ ألا تعرفين ما به !! ألا ترين آثاره فى أعين الناس التى تريد أن تلتهمك وأنت سائرة فى الطريق !! ألا ترين انعكاسه فى وجوه الشبان المحيطين بك فى النادى !

وهزت « منى » كتفيها فى استخفاف .. محاولة أن تخفى ابتسامة رضاء شاعت فى وجهها .. وقالت محتجة :

ـــ وماذا أفعل . إذا كان جسدى هكذا .. وكانت عيون الناس فارغة .

وأجابت نادية :

ـــ لمى جسدك .. وهم يغمضون عيونهم .

ـــ ألمه أكثر من هذا ؟

ووضعت منى كفيها على ردفيها اللتين شدهما البنطلون الضيق ثم سارت تهز وسطها فى حركة راقصة وقالت وهى تضحك :

ـــ أمال لو مشيت كده .. يقولوا إيه ؟

ـــ إنت بنت مايعه .

وانحنت « منى » تفتح أحد أدراج « الشيفونيره » وتساءلت وهى تقلب الثياب التى بها :

ـــ أين الشورت ؟

ـــ ألا يوجد عندك ؟

ـــ لا أثر له .

ـــ لا بد أنه لم يأت من عند « المكوجى » .

ـــ الله يخرب بيته .. دائماً يؤخر « المكوة » .. كيف أستطيع اللعب ؟

ـــ يوجد فى درجى « شورت » .. خذيه .

وفتحت « منى » درجاً آخر وأخذت تبحث فى محتوياته حتى أخرجت الشورت ثم نشرته بين يديها وقالت وهى تزوى ما بين عينيها :

ـــ هذا ليس « شورت » .

ـــ ماذا يكون إذن ؟

ـــ إنه « لونج » .. إنه طويل جداً .. يكاد يغطى الركبتين

ـــ أحسن .

ـــ أحسن إذا ارتدته ماما .

ـــ ولكنى أرتديه فى ألعاب المدرسة .

ـــ ومن قال إنك لست خيراً من ماما !

ـــ ألا بد أن يكشف عن فخذيك حتى يصلح للارتداء ؟

ـــ طبعاً .

ــ أتنوين اللعب أم الاستعراض ؟

ــ كليهما .

ــ يامنى اعقلى . هل تعلمين أن « الشورت » الذى ترتدينه محل تعليق النادى كله .

وضحكت منى قائلة : ولهذا أرتديه .

وعادت تقلب « الشورت » بين يديها ثم قالت :

ــ على أية حال .. لابد من ارتدائه .. وأعتقد أنى لو ثنيت ساقيه فسيصبح معقولا .

ثم صاحت منادية بصوت مرتفع : ماما .

وأجابتها أمها من الحجرة المجاورة :

ــ نعم يا منى .

ــ أريد إبرة وفتلة .

ــ لم ؟

ــ لكى أثنى رجلى الشورت .

ــ الإبرة والفتلة فى درج « ماكينة » الخياطة .

وكانت إجابة الأم خليطاً من الفرنسية والعربية المكسرة.وبعد لحظة كانت « منى » قد أتمت تقصير « الشورت » ووقفت تستعرضه أمام المرآة .

وأدارت ظهرها للمرآة وقلبت شفتها السفلى قائلة :

ــ مش بطال .. ما رأيك يا نادية ؟

ــ فضيحة .

وأجابت منى متخابثة :

ــ معك حق .. إنه يحتاج لثنية أخرى .

ــ ولماذا لا تخلعينه .. وتلعبين عارية ؟!

ــ ياريت .. إن سكرتير النادى يطردنى .

ـــ أتخشين فقط سكرتير النادى ؟

وواجهت « منى » المرآة وشبت على أطراف أصابعها .. ووضعت ذراعيها فى وسطها ، وأخذت تستعرض جسدها فى إعجاب أمام المرآة قائلة :

ـــ أرأيت أجمل من هذا جسداً !! أليس حراماً أن يخفى الإنسان مواهبه ؟

ـــ مغرورة وعبيطة .

وأخذت « منى » تتمشى أمام المرآة .. ثم قفزت إلى الفراش بجوار « نادية » واحتضنتها وقبلتها وهى تقول ضاحكة :

ـــ يا ستى العجوز .. أنا لست مغرورة .. إنما أحب أن أغيظك .. لأنى ..

وقطع حديثها .. كحة خفيفة متقطعة .. وبدا القلق على وجه « نادية » وقالت ناهرة :

ـــ منى .. البسى فانلة .

ـــ الدنيا حر .

ـــ البسى الفانلة بالتى هى أحسن .. لأن ماما لن تتركك تخرجين هكذا .

ـــ اسكتى أنت .. إنها لن ترانى وأنا خارجة .

ـــ ولماذا لا تلبسين الفانلة ؟ إنك تعرقين بسهولة .. وإذا هبت عليك أية نسمة .. سيصيبك البرد .. وأنت تعرفين أن صدرك لا يحتمل .

ـــ لقد شفيت تماماً .

ـــ لا تكونى عنيدة يامنى .

ـــ إنى أكره الفانلة .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنها تضغط صدرى .. « وتبططه » .

ـــ أفى سبيل العياقة .. تعرّضين نفسك للبرد ؟

ـــ أولا .. ليس هناك برد .. وثانياً لا أستطيع أن أبدو أمام الناس وكأنى طفلة بلا صدر .

ــ البسى تحتها « السوتيان » .

ــ لن ألبس شيئاً . اسكتى أنت ولا تتدخلى فيما لا يعنيك .

ــ إذا لم تلبسى الفانلة .. سأخبر ماما .

ونهضت « نادية » من الفراش وفتحت درج « منى » .. وأخرجت الفانلة .. وقذفت بها إليها .. قائلة : ــ ألبسى .

وأمسكت « منى » بالفانلة فى ضيق وقالت :

ــ أتظنين نفسك وصية على .. أنت لست أكبر منى .

وضحكت « نادية »قائلة : ــ بل أكبر منك .

ــ لقد نزلنا سوياً .

ــ بل نزلت قبلك .

ــ ببضع ثوان .

ــ بضع ثوان .. أو بضع سنين .. مادمت قد نزلت قبلك .. فأكون أكبر منك.

ــ ومن أدراك أنك نزلت قبلى ؟

ــ اسألى ماما .

ــ ومن أدرى ماما .. إنها قطعاً كانت فى غير وعيها .

ــ لا بد أنهم قالوا لها .

وكيف استطاعوا أن يميزوا بيننا .. إنهم حتى الآن يخطئون فينا .. لقد شكرتنى مدرّسة الفرنساوى بالأمس على ما فعلته أنت .

ــ على العموم . أنا أكبر .. أو أنت أكبر . المهم أن تلبسى الفانلة .

ــ سألبسها بشرط .

ــ ما هو ؟

ــ أن تذهبى معى إلى النادى .

ــ أنا متعبة يا « منى » وصائمة .

ــ سلى صيامك .

ــ ليس هناك ما يسلى .

ــ حتى مشاهدة الكروكيه ؟

وبدا الاضطراب على « نادية » وأجابت :

ــ ماذا تعنين ؟

ــ أبداً .. فقط خيّل إلىّ أنك بدأت تهوين مشاهدة الكروكيه .

ــ وماذا فى ذلك ؟! إنها لعبة مسلية .

ــ مفهوم .. مفهوم .. ولا سيما إذا لعبها بعضهم .

ــ لا تدعي النباهة .

ــ ولا تدعى أنت العبط .. هيا بنا .

ــ وشردت « نادية » برهة .. وما لبثت حتى تناولت « البلوزة » و « الجيب » .. وبعد لحظات كانت التوءمتان تغادران دارهما فى « منشية البكرى » إلى نادى « مصر الجديدة » .

ــ البسى تحتها « السوتيان » .

ــ لن ألبس شيئاً . اسكتى أنت ولا تتدخلى فيما لا يعنيك .

ــ إذا لم تلبسى الفانلة .. سأخبر ماما .

ونهضت « نادية » من الفراش وفتحت درج « منى » .. وأخرجت الفانلة .. وقذفت بها إليها .. قائلة : ــ ألبسى .

وأمسكت « منى » بالفانلة فى ضيق وقالت :

ــ أتظنين نفسك وصية على .. أنت لست أكبر منى .

وضحكت « نادية »قائلة : ــ بل أكبر منك .

ــ لقد نزلنا سوياً .

ــ بل نزلت قبلك .

ــ ببضع ثوان .

ــ بضع ثوان .. أو بضع سنين .. مادمت قد نزلت قبلك .. فأكون أكبرمنك.

ــ ومن أدراك أنك نزلت قبلى ؟

ــ اسألى ماما .

ــ ومن أدرى ماما .. إنها قطعاً كانت فى غير وعيها .

ــ لا بد أنهم قالوا لها .

وكيف استطاعوا أن يميزوا بيننا .. إنهم حتى الآن يخطئون فينا .. لقد شكرتنى مدرّسة الفرنساوى بالأمس على ما فعلته أنت .

ــ على العموم . أنا أكبر .. أو أنت أكبر . المهم أن تلبسى الفانلة .

ــ سألبسها بشرط .

ــ ما هو ؟

ــ أن تذهبى معى إلى النادى .

ــ أنا متعبة يا « منى » وصائمة .

ــ سلى صيامك .

يشربون الشاى أو يرقبون الأجساد العائمة أو المستلقية .

لم يكن هناك ما يوحى « بشهر رمضان » سوى بضعة الضباط والموظفين الذين التفوا حول مائدة فى مدخل الحمام وقد ارتدوا القمصان « والبطلونات » .. وبدت عليهم مظاهر الاسترخاء والملل ، وأخذوا يتبادلون حديث السياسة وآخر النكت .. وقد مدوا سيقانهم وأرخوا أجسادهم فى مقاعد القماش .

وفى الحديقة الخلفية المتسعة بدت ملاعب « الكروكيه » خضراً مستوية ناعمة كالبساط ، وقد أخذ اللاعبون يتحركون فيها الهوينى وينحنون على الكرات الكبيرة الملوّنة ليضربوها بتؤدة واتزان .

وفى آخر الحديقة بدا ملعب الفولى .. وقد أخذت الفتيات يتواثبن فيه ويتقاذفن الكرة قبل بدء المباراة .

ولم تكد إحداهن تبصر « منى » تعبر الباب حتى صاحت بها :

— منى .. ألم تلبسى بعد ؟

وأجابتها « منى » وهى تعدو منطلقة إلى قاعة الحمام :

— حالا .. ثانية واحدة .

واقتربت «نادية» وحدها من الملعب.. وأقبلت الفتيات عليها يحيينها فى مرح وخفة.. واتخذت «نادية» مجلسها على أحد المقاعد المرصوصة خارج الملعب وقد أمسكت بيدها كتاب «الأيام لطة حسين» وقد ثنت حرف آخر ورقة وصلت إليها.

واكتمل عدد الفريقين المتباريين .. فريق النادى .. وفريق المدرسة الإنجليزية . ونجحت « الشورتات » والسيقان العارية فى جذب أنظار أكبر عدد من روّاد النادى ، فالتفوا حول الملعب لمشاهدة المباراة .

وأقبلت حكم المباراة .. ومدربة النادى .. « مدموازيل حكيم » إحدى عوانس النادى .. وشخصياته المحببة .. وقد ارتدت نظارتها وعقصت شعرها وحشرت نصفها السفلى فى شورت كحلى وصل إلى ركبتيها .. وحشرت

نصفها العلوى فى « سوتيان » كاد يقسم شحم ظهرها سنامين .

وقبل أن تنفخ الحكم فى صفارتها .. وقع بصرها على « نادية » .. فهتفت بها فى دهشة :

— منى !! لماذا لم تغيرى ملابسك ؟

وضحكت االفتيات .. وصاحت إحداهن متخابثة وهى تجذب « نادية » من ذراعها :

— قومى« يامنى » البسى .

— وابتسمت « نادية » وأجابت فى رقة :

— لقد ذهبت « منى » لتبدل ملابسها .. أنا نادية يامدموازيل حكيم .

وقالت الحكم وهى تهز رأسها فى يأس :

— عبثاً أحاول التمييز بينكما .

وجذبت «نادية» ضفيرتها المدلاة على ظهرها ولوّحت بها وهى تقول ضاحكة:

— أنا بضفيرة يا مدموازيل حكيم .

وكانت «منى» قد أقبلت تعدو فى خفة بالشورت المثنى والقميص الخفيف .

ولم تكد تراها « مدموازيل حكيم » حتى هزت رأسها هزّة المعرفة وقالت :

— ومنى .. بلا ضفيرة .. وبلا ثياب !!

وقبل أن تدخل « منى » الملعب .. رفعت ذراعها ملوّحة لثلاثة أرباع الفتيان الذين اصطفوا لمشاهدة المباراة .. قائلة فى دلال : — هاللو .

ورفع الفتية أيديهم وهتفوا لها :

— « وِل » منى .. « وِل » منى .

وانحنت « منى » فى تهريج كما تفعل الممثلات على خشبة المسرح .. وقالت الحكم وهى تنفخ فى صفارتها ناهرة « منى » :

— أسرعى يامنى . كفى عبثاً .

وبدأت المباراة .. وجلست « نادية » ترقبها وقد وضعت الكتاب

فى حجرها .

لم يكن خطأ الحكم فى تمييز « نادية » من « منى » بالشيء المستغرب .. فقد كان بينهما من الشبه الظاهرى فى القسمات ما يجعل تمييز كل منهما عسيراً إلا على من يعرفهما معرفة وثيقة ويعرف الفوارق الدقيقة التى تميز كلا منهما عن الأخرى .

كانت الملامح الجامعة فى كل منهما .. شقرة فى الشعر .. واتساع وخضرة فى العينين .. وامتلاء فى الشفة السفلى .. وغمازتان فى جانبى الفم تظهران واضحتين مع كل بسمة .

وكانت ملامح الجسد تكاد تتطابق .. إلا فى وحمة فى إحدى أصابع قدم « منى » اليسرى .

وكانت أوجه الخلاف بين التوءمتين — غير وحمة القدم — تكاد تكون كلها مصنوعة من اختلاف الطباع .. عدا سنة فى فم « نادية » ضغط عليها الناب عند النمو فبرزت بروزاً خفيفاً ، جعل طبيب الأسنان يحشر فى فمها سلكاً حتى يعيد السنة إلى موضعها .

وفيما عدا ذلك .. كان التمييز بين التوءمتين يقوم على فوارق الخُلُق .. أو انعكاسه على التصرف والمظهر

كانت « منى » خفيفة مرحة ، وكانت « نادية » رزينة متئدة وقد يكون هذا ناتجاً عن طبيعة التكوين ، وقد يكون أكثر من ذلك .. ناتجاً عن إصابة « منى » .. تلك الإصابة التى جعلتها بين ذويها كالهشيم ، يخشى عليه من التفتت .

لقد بدت الأعراض عليها .. قبيل العاشرة .. كانت تعدو فى المدرسة ، وعندما عادت إلى البيت سعلت وبصقت دماً !

وكانت صدمة مروعة لأبيها وأمها . ولم تفهمها « نادية » فى أول الأمر ، ظنت أن المسألة لا تعدو أن تكون فصداً أو جرحاً .

ولكن مظاهر الارتياع حولها ، وفرط الجزع والاهتمام والوحشة التى خيمت على البيت ، جعلتها تدرك أن هناك خطراً حاق بأختها .

ولكن الخطر لم يطل .. فقد كانت سرعة إدراكه وفرط العناية المبذولة فى دفعه ، كفيلان باجتثاثه .

وزال الخطر عن الصبية الشقراء ، الحلوة المرحة ، ولكنه خلف وراءه إحساساً دائما بوجوده .. وخوفاً مستمراً من رجعته .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الإحساس ، هو إفراط فى العناية بـ « منى » والخشية عليها ، والتدليل لها .

و لم تكن توءمتها « نادية » أقل من أبويها إحساساً بهذا .

كانت بطبيعة خلقها .. أميل إلى الهدوء والرزانة .. أكثر إحساساً بشعور الأمومة واحتمالا للمسئولية .

وزادها الخطر الجديد الذى حاق بأختها .. إحساساً بالحب لها والخوف عليها ، وتملكها نحوها شعور أشبه بشعور الأم ، منه بشعور الند أو التوأم .

ويبدو أن فرط العنابة ، والخوف والتدليل ، قد دفع فى نفس « منى » إحساساً بأن خطراً خفياً يتربص لها .. وشكاً فى أن ذلك الذى أصابها ، وروّع ذويها ، لم ينجل تماماً ، بل هو جاثم فوقها ليطبق عليها بين آونة وأخرى .

وقاومت « منى » إحساسها بمزيد من المرح ، ومزيد من الضحك .. وبدت — عن غير قصد منها — متشبثة بالحياة . مستغلة لساعاتها .. مقتنصة لمتعها .. وكأنها تنشد ، بلا وعى ، مع الخيام : « ويلتا إن ضاع يومى من يدى » .

كانت « منى » إذن — بحكم خلقها الطبيعى المرح ، وبحكم إحساسها بالخطر الجاثم — منا فعة ، نزقة ، طائشة ، مستخفة .

و لم يحاول أحد ، أن يوقفها ، إلا بما يمنع تعرضها للخطر أو الانزلاق .

و لم تكن هى بطبيعة إدراكها للخطر .. تندفع إلى الحد الذى يعرضها له ..

ولم تكن كذلك — بطبيعة خلقها القويم المستقر فى باطنها — لتندفع إلى حد الانزلاق فيما يمكن أن يشينها .

وانهمكت « منى » فى المباراة ، حتى حانت فترة الراحة الأولى .. ونادتها نادية آمرة : — منى .

ونظرت إليها « منى » وهى تهز رأسها مستفسرة . وقالت « نادية » فى لهجة حاسمة : — كفى يا منى .

واستعدت صديقتها « كاميليا » للدخول بدلها وقالت :

— سألعب بدلك يا منى .. لقد تعبت .

ونظرت « منى » إلى المتفرجين .. فلمحت « عصام » وقد أقبل مع صديقه « صبرى » الطالب بالطب ، فرفعت له يدها محيية ، قائلة بلهجتها المرحة : — هالو .

وأشار لها « عصام » ثم اتخذ وصاحبه مقعدين مجاورين لنادية ، وحيياها بإشارة من رأسيهما .

وأجابت « منى » على « كاميليا » فى إصرار :

— انتظرى . سألعب فترة أخرى . إنى لم أتعب بعد .

ولم تحاول « نادية » أن تعيد طلبها ، فقد أدركت أن « منى » لا بد أن تلعب للاستعراض أمام « عصام » .

واستمرت المباراة . وقد بدا القلق على « نادية » وأخذت ترقب « منى » فى قذفها للكرة .. وعَدْوها وراءها .

وحانت منها التفاتة إلى ملعب « الكروكيه » المجاور .. وقد تغير جميع اللاعبين به .. وأقبل عليه أربعة لاعبين جدد .. ثلاثة رجال وسيدة .

ولمحت أحد الرجال ، فدق قلبها بعنف .. وأعادت بصرها سريعاً إلى ملعب «الفولى».. ثم أخذت تعبث فى كتاب «الأيام» بأصبعها فى حركة عصبية مضطربة ومرّت برهة ، قبل أن تتمالك نفسها ، وتستعيد جأشها .. وتلفتت خلسة إلى

من حولها لتتأكد أن أحداً لا يعنيه أمرها وأن المتفرجين .. قد ركزوا كل اهتمامهم لمباراة « الفولى » وليس لمراقبتها .

ومرة أخرى أدارت رأسها ببطء نحو ملعب « الكروكيه » وبدأت تفحص اللاعبين .. واستقر بصرها هذه المرة على السيدة التى صحبت الرجال الثلاثة .

وعرفت فيها إحدى زبائن ملاعب « الكروكيه » الدائمين أو أحد عناصر الجاذبية فيه .

كانت « جاذبية عبد الحميد » إحدى الأرستقراطيات المطلقات وكانت رشيقة فى حركاتها ، جذابة فى إيماءاتها ولفتاتها .

وكانت جاذبيتها العامة أغلب على جمالها التفصيلى . وكانت دائماً تذكر « نادية » بالمعيز .. لا تدرى لم .. قد يكون لبوزها الممدود .. أو لأذنيها « المطرطقتين » .. أو لجسدها الرفيع .. وحركتها الرشيقة ، وتواثبها فى الملعب بين آونة وأخرى .

ومع ذلك .. ورغم اقترانها دائماً فى ذهن « نادية » بالمعيز كانت أنيقة جذابة ، من النوع الذى « يعف » عليه الرجال .

ولم تحس « نادية » أبداً بضيق منها ، بل كانت أميل إلى استلطافها .. حتى أبصرتها الآن فى الملعب وأبصرت الرجال الثلاثة الذين يلعبون معها .. أو على وجه أدق .. أبصرت زميلها فى اللعب .

وأعادت « نادية » بصرها هنيهة إلى ملعب الفولى حتى لا يحس أحد بتحولها التام من مراقبة الفولى إلى مراقبة الكروكيه .

وقبل أن تعيد بصرها إلى ملعب الكروكيه لترقب اللاعب الذى سبب لها كل هذا الاضطراب ، والذى سبب لها السخط على معزة الكروكيه ، الجميلة الجذابة . التى يعف عليها الرجال . أحست بصبرى زميل « عصام » يلتفت إلى الملعب ثم يدفع عصام بمرفقه قائلا : — الله !! الدكتور مدحت .

والتفت عصام إلى الملعب ، ثم هز رأسه دون اهتمام قائلا :

ـــ آه .

وعاد « صبرى » يزغد « عصام » قائلا :

ـــ إنه يلعب مع جاذبية .

و لم يبد « عصام » كثير دهشة ، وهز رأسه وهو يرقب ملعب الفولى ويبتسم لـ « منى » قائلا : ـــ طيب .

واستمر صبرى فى تعليقه المنفرد : ـــ إنها تشتغل عليه .

وأجاب عصام بطريقته غير المكترثة وهو منهمك فى مراقبة منى : ـــ دعها تشتغل .

ـــ مغفلة . « جه نقبها على شونة » .

و لم يرد « عصام » .. لم يكن مهتما ألبتة بحديث صبرى . ولا كان يهمه أبداً نقب « جاذبية » الذى ، أتى على شونة الدكتور مدحت .. ولكن شخصاً آخر كان شديد الاهتمام بالحديث .. كانت « نادية » تتمنى لو استطاعت أن تجيب على صبرى لتحصل على المزيد من تعليقاته .

ويبدو أن صبرى كان مصرّاً على أن يقول كل ما بنفسه رغم عدم اهتمام عصام به .

تساءل صبرى وهو يرقب « جاذبية » تنحنى بجذعها ثم ترفع المضرب الشبيه بالدقماق لتطرق به الكرة البيضاء :

ـــ أتدرى لماذا ؟

ودون أن يعرف عصام ما هو هذا الذى يريده أن يدريه لماذا . قال ببساطة وهو يصفق لمنى :

ـــ لماذا ؟

لأنه يكره النساء .

وأجاب عصام بلا وعى ، دون أن يعرف من هو هذا الذى يكره النساء : ـــ مغفل .

ـ إنه عبقرى .. هل تصدق أنه أجرى بالأمس أمامنا عملية لمدة ثلاث ساعات أزال بها المثانة لأحد المرضى . وأول أمس رأيته بعينى يزيل معدة مريض آخر .. وفى الأسبوع الماضى قطع أربعة أزوار .

وهنا التفت عصام فى دهشة إلى صاحبه .. وتساءل قائلا : أيشتغل جزّاراً ؟!

ولم تتمالك « نادية » نفسها من الضحك ..

وأجاب صبرى فى غيظ :

ـ جزّار يا غبى !. إنه جرّاح .. أكبر جرّاح عندنا فى السرطان ..

ـ اللهم احفظنا .

ـ إنه يبدو عنيفاً .. ولا يجيد المجاملة .. ولذلك يكرهه معظم الأطباء عندنا .. ويسمونه الجزّار .

ـ معهم حق !

ـ ماذا أفهمك أنت بالجراحة ؟

ـ مادام قد قطع فى الأسبوع الماضى أربعة أزوار .. ومعدة .. وطحالا .. لماذا لا يسمونه جزاراً ؟

ـ إنه أحياناً يقطع أكثر من هذا .. إن آخر ما قيل فيه .. هو أنه بعد انتهائه من العملية قال للممرض : « شيل المريض » .. ونظر الممرض إلى ما أزيل من المريض وما تبقى منه وسأله حائراً : « أشيل مين فيهم ؟ » !

ـ وبعد هذا الا يسمى جزارا ؟!.

ـ بل يسمى عبقرياً .. لقد أنقذ ما يقرب مائة حالة مستعصية .. كان مصيرها إلى الموت .

وملأ « نادية » إحساس بالتفاخر والغبطة ، كأنها هى التى أنقذت مائة روح . وعادت تنظر إلى ملعب الكروكيه ، لترقب العبقرى الجزار ، بجسده الطويل ، وكتفيه العريضتين . ووجهه الأسمر وعينيه الخضراوين .. وأنفه الأميل إلى الضخامة .. وفكه العريض .. وشعره الذى دبت فيه مبادىء صلع ..

ورأت المعزة الجذابة تقفز حوله ضاحكة .
وأبصرته يضرب الكرة .. ولا يضحك ..
وسمعت صبرى يردد مرة أخرى فى سخرية :
— « جه نقبها على شونة » ..
وأحست « نادية » بشىء من الطمأنينة ..

(٣)

من بعيد

انتهت مباراة الفولى .. وأقبلت « منى » تحيى عصام ، وقاطعتها « نادية » محذرة :

ـــ أنت عرقانة .. أسرعى لإبدال ملابسك قبل أن يلفحك الهواء .

وشدت « منى » على يد عصام ثم انطلقت تعدو تجاه قاعة الملابس وهى تهتف :

ـــ خمس دقائق .

وأجاب عصام :

ـــ سأنتظرك عند حوض السباحة .

والتفت إلى نادية متسائلا :

ـــ أتشربين معنا الشاى ؟!

وأجابت نادية :

ـــ إنى صائمة .

ـــ أنا متأسف .. لقد نسيت أننا فى رمضان .. أقصد أنى ....

وقاطعته نادية ضاحكة :

ـــ لا بأس .. سأشاهد « الكروكيه » .. وألحق بكما عند الحمام .

والتفت عصام إلى صاحبه قائلا :

ـــ هيا بنا .

وأجاب صبرى وهو يرقب نادية :

ـــ سأبقى أنا أيضاً لمشاهدة الكروكيه .

والتفت عصام إلى الدكتور مدحت وقد انحنى يضرب الكرة فى الملعب وقال

لصبرى ضاحكا :

ـــ خذ باللك من صاحبك .. وإلا قطع زور واحد أو نزع معدة آخر .

واتجه عصام إلى الحمام وجلست نادية أمام إحدى المناضد المحيطة بملعب الكروكيه واتخذ صبرى مقعده على المقعد المقابل .

وبدا صبرى بالقميص الأبيض المشمر الأكمام والبنطلون الفانلة ، نحيلا طويلا كالعصا السمراء .. بارز عظام الوجنتين صغير الذقن يغطى عينيه السوداوين الضيقتين منظار أسود للشمس والنظر .

وسادت فترة صمت كانت « نادية » تتشاغل خلالها بمراقبة اللعب ، وكان صبرى ينقل بصره بين اللعب وبين جانب وجهها ..

وبدا على صبرى أنه يحس بنادية أكثر مما يحس باللعب وأنه يبحث فى ذهنه عن نقطة ملائمة يبدأ بها الحديث .

لم تكن المرة الأولى التى جلس فيها إلى « نادية » .. فقد سبق أن ضمتهما بعض جلسات النادى حول الحمام ، أو فى « التراس » المستدير المطل على الحديقة والملعب ، أو داخل البهو فى أمسيات الشتاء .. ولكن الجلسات كانت تضم خليطاً من فتيات النادى وإخوتهن أو أقاربهن أو أصدقائهن ، وكان الحديث عن الرياضة أو السياسة وتبادل النكتة والمزاح هو كل ما يشغل الجلسات الصبيانية المرحة .

ولكن صبرى كان ينظر إلى « نادية » .. بشىء لا يلائم كثيراً هذه الجلسات الصبيانية المرحة . كان لها فى قرارة نفسه بوضع أكثر جدية من غيرها من الفتيات .. كان يملأ نفسه شعور بالتقدير وإحساس بالرغبة فى أن يكون بينهما أكثر مما بين « الشلة » من صلات .. وعندما كان يرسم خطوط مستقبله العريضة .. ويؤثث بيته وينظم عيادته .. كان يضعها ..أو يضع شيئاً شبيهاً بها فى صدر حياته وعلى قمة أمانيه .

ذلك كان وضع نادية .. فى نفس الفتى النحيل الطويل .. الجالس يسترق إليها

البصر فى قلق .. مجهداً نفسه فى التقاط طرف حديث يثير به اهتمامها .

وكانت « نادية » تعرفه كمخلوق مميز .. عن بقية فتيان « الشلة » مميز بأدبه وذوقه وخلقه وبعده عن الصبيانية والتهريج .

ولكن تمييزه لم يصل إلى حد اعتباره مطمحاً لآمالها .. أو موضوعاً لتفكيرها .

كانت تستريح إليه .. ولا شىء أكثر من ذلك .

مخلوق آخر .. هو الذى وضعته فى الموضع الذى وضعها هو فيه .. موضع الصدارة من الأمانى والأحلام والمستقبل الوردى المزدهر .. موضع المحتل لقلب خال ، الداعى لذهن متلهف ، الساقى لنفس عطشى ، المؤنس لروح موحشة .

هذا المخلوق .. هو الذى جلست ترقبه فى صمت دون أن يحس بها .. وهو يتنقل وراء الكرة . و « جاذبية » — أو معزة « الكروكيه » تقفز حوله ضاحكة متثنية .

كان الدكتور مدحت .. أو « العبقرى الجزّار » هو أمنيتها السرابية البعيدة .. بعد الشمس فى الأفق .

كانت ترقبه من بعيد .. دون أن يعرفها أو يحس بها ودون أن يعرف مخلوق سوى أختها « منى » التى استطاعت التخمين — أنه لديها شيئاً .. وأنه ملء أوهامها وأحلامها .. الملتصق بكل آمانيها .

كانت تتبعه بعينيها خفية .. وترقبه فى استراق وصمت .. واستطاعت خلال عام أن تعرف كل حركاته وسكناته فى النادى ماذا يلعب ، وأين يجلس .. ومن يصاحب .. ومتى يأتى .

بدأت معرفتها له .. بنوع من النفور والكراهية .. سببه إحساسها بأنه مخلوق أنانى قاس .. عند ما أبصرته — وقد أغمى على « هدى » إحدى فتيات النادى — ينتقل إليها فى تراخ وبطء ويلقى عليها نظرة خاطفة ثم يقول فى

استخفاف :

ـــ اتركوها .. ستفيق وحدها .

وعندما قالت له إحدى الفتيات :

ـــ إنها مغمى عليها .

ـــ وماذا أفعل لها ! ! شمموها نشادر .. طسوها بجفنة ماء .

وانفلت عائداً إلى مكانه فى هدوء وهو يتمتم :

ـــ مياعة بنات .

وأدهشها استخفافه وبروده وعجرفته وسألت عنه من حولها فأجابها « عبدالله » مدرّب التنس :

ـــ الدكتور مدحت .

ولم تستطع أن تمنع تأففها منه وسخطها عليه :

ـــ ولماذا كل هذه الكبرياء والعجرفة !

وأجابها المدرّب مؤمناً على قولها وهو يهمن .

ـــ راجل أليط .. ليس عنده مروءة .. هل تصدقين بعد كل هذا التمرين له .. ذهبت إليه ذات مرة فى العيادة لآخذ شهادة بأنى مريض .. حتى أستطيع السفر إلى بلدنا .. فرفض إعطاءها لى .. قائلا إنى « زى البمب » وأنه لا يستطيع أن يعطى شهادات مزوّرة .. فذهبت إلى الدكتور جادالله .. فأعطاها لى وأنا واقف .

ـــ الدكتور جادالله ؟!!

ـــ أجل .. زميله الذى يجلس معه دائما .. رجل أمير . لا يرد لأحد طلبا .

وأمن على قوله إبراهيم مراقب الحمام وهو يهز رأسه :

ـــ الله يعمّر بيته .. لقد أخذت له زوجتى بالأمس فأعطاها مزيجاً نفعها جداً .

وأجابه :

ـــ لو أخذتها إلى الدكتور مدحت .. لطردها ؟

ـــ طبعاً .. لقد رفض أن يتولى معالجة عمال النادى .. فى الوقت الذى قبل الدكتور جادالله أن يعالجهم مجاناً .

و لم يكد إبراهيم ينتهى من كلامه حتى أبصرت « نادية » رجلا أنيقاً وسيما يندفع بين الفتيات إلى حيث رقدت « هدى » ثم ينحنى عليها فاحصاً ويحملها بين يديه .. ثم يسير بها متجهاً إلى « الجراج » ليضعها فى عربته ويحملها إلى عيادته .

وهز إبراهيم رأسه معجباً وقال :

ـــ هذه هى الشهامة .. أرأيت يا ست نادية !!

وهزت « نادية » رأسها متسائلة :

ـــ من يكون ؟!!

ـــ الدكتور جادالله .. رجل شهم .

وانفض الحشد .. والدكتور مدحت باق فى مقعده لا يعبأ بمن حوله .

وتعجبت « نادية » من تصرفه العجيب .

تراخيه..واستخفافه..وكبرياؤه..ثم..الاكتفاء بأن يصف لإغماء الفتاة.. نشادر .. أو .. طسة ماء فى وجهها .. ثم يصف إغماءها « مياعة بنات » .

لا يمكن أن يكون هذا طبيباً فأى إنسان يمكن أن يعالج الإغماء بالنشادر .. وطسة الماء .. وأن يصفه بالمياعة .. إنه حيوان .. فقط .. غليظ القلب .. متعجرف .

وهو رجل بلا مروءة .. لأنه رفض أن يعطى الشهادة لإبراهيم المدّرب ، ولأنه رفض أيضاً .. أن يعالج العمال .

ودب فى أعماقها إحساس بالنفور والبغضاء .. من الطبيب القاسى المتعجرف ، العريض المنكبين ، الطويل القامة ، الذى يغلب تجهمه ابتسامه .

وفى ذات يوم اختفى إبراهيم مدّرب التنس ، وعندما سألت عليه بعد أن افتقدته بضع مرات خلال لعبها للتنس أو مشاهدتها له .. أنبأها أحد زملائه وهو

يهز رأسه ويمصمص بشفتيه .. بأنه :

ــ مسكين .. لا أمل فيه .

ــ كيف ؟

ــ لقد أصابه ــ أبعد الله عنا الشر جميعا ــ المرض الخبيث الذى يسمونه السرطان .

وأحست « نادية » برجفة وهى تسمع قول الرجل وتساءلت قائلة :

ــ وبعدين ؟

ــ ولا قبلين .. لا فائدة منه .

ــ مسكين !!

ــ المسكينة امرأته .. وأولاده .. لديه من الأولاد أربعة .. غير الذى فى بطن أمه .

ومضت بضعة أسابيع .. و « نادية » لا تكاد تقرب ملعب التنس حتى يصيبها ما يشبه الغثيان عندما تتذكر المدرّب الميئوس من حياته .. والزوجة الحبلى .. والأولاد اليتامى .

وفى ذات يوم فوجئت به ، وقد جلس على الدكة الخشبية أمام كشك التنس الأخضر عند مدخل قاعة الملابس .. كان يرتدى البنطلون والقميص ويلبس على رأسه « البرنيطة » البيضاء .

وكان سليما معافى .. وكان يضحك ويشاكس من حوله ، ولم يك به أثر لمرض .. ولا كان ينقصه شىء .. مما تعوّدت أن تراه به .

اللهم إلا شيئاً واحدا .. هو ذراعه .

لقد كان إبراهيم مدرّب التنس ... بلا ذراع .

ولم يكد يراها .. حتى قفز من مكانه وأقبل عليها مرحبا وهو يقول ضاحكا :

ـــ أهلا .. ست نادية .

وأحست « نادية » بغصة فى حلقها وهى ترى الرجل .. قد فقد ذراعه .. اليمنى .. وسيلته الوحيدة للرزق .. ومع ذلك لم يبد عليه أنه فقد شيئاً .. وتمالكت « نادية » نفسها وأجابته بنفس روحه المرحة :

ـــ أهلا .. إبراهيم .. كيف حالك ؟!

ـــ الحمد الله . لقد أصبحت سليما أربعة وعشرين قيراطاً .

ـــ أشفيت تماماً ؟!

ـــ تماماً .. لم يعد بى شيء . لقد طار المرض مع الذراع الطائرة

ثم أشار إلى ذراعه .. وأردف ضاحكا :

ـــ راح .. الله لا يرجعه .. لقد دوّخنى .. لقد أرانى نجوم الظهر .. لقد أرانى أياماً ، لا أرها الله لعدو ولا حبيب !

وأخذت « نادية » ترقب الرجل الضاحك وهى تسترق النظر إلى ذراعه .. وقالت وهى تحاول أن تزدرد دموعها :

ـــ الحمد الله على سلامتك .

ـــ الحمد الله .. والدكتور مدحت .. لم ينقذنى من براثن الموت سواه .

ودهشت نادية .. وردت متسائلة :

ـــ الدكتور مدحت ؟

ـــ أجل .. لقد أنقذنى .. رغم أنفى .. هل تصدقين ؟

ـــ كيف ؟

ـــ عرف بمرضى.. وعندما كشف على.. قال بمنتهى البساطة.. وبطريقته المستخفة المتعجرفة .. إنه لا بد من قطع ذراعى .. تصورّى .. قطع ذراعى اليمنى سبب رزقى .. وحياتى .. وحياة أولادى .

ـــ وماذا فعلت ؟!

ـــ تركته بالطبع .. وقلت عنه : مجنون .. وعدت لأستسلم لآلامى ..

ولطمأنة الدكتور جادالله وابتساماته .. ومزيجه .. ولزقاته ..

ــ ثم عدت إليه ؟!

ــ أبداً .. لقد عاد هو إلىّ .. عندما استغيبني . وعندما رفضت أن أذهب إلى المستشفى لأقطع ذراعي .. عندما ولولت امرأتي . ضربها . ثم حملني برغمي إلى المستشفى . وبرك على أنفاسي .. وخدرّني .. ثم قطع ذراعي .

ولم تستطع « نادية » أن تغالب ضحكتها .. رغم ما في قول الرجل من مأساة .. ولكنها لم تكن تتصورّ قط .. طبيبا متمديناً .. يهجم على مريض .. ويبرك على أنفاسه .. ثم يحقنه بالبنج ويقطع ذراعه رغم أنفه .

وتساءلت « نادية » خلال ضحكتها :

ــ هذا ليس طباً إنها جزارة .

ــ إي والله ياست نادية .. لو ترين كيف هجم علىّ وكيف صاح بامرأتي « أنت حيوانة .. تريدين أن تقتليه .. من أجل القرشين اللذين يأخذهما من النادي ؟ » .

وعندما أجابته امرأتي باكية : « لن يشتغل إذا قطعت ذراعه » أجابها « ولن يعيش إذا لم تقطع » .

ــ لا بد أنه كان على حق !

ــ طبعاً .. على حق .. لقد شفيت تماماً .. أصبحت كالجن الأزرق .. ولكن بلا ذراع ..

ــ لن يصعب عليك إيجاد عمل بغيرها .

ــ لقد وجدت فعلا .. إني أعمل كما أنا .. إن مجلس الإدارة وافق على أن أبقى مشرفاً على المدرّبين .. بناء على رجاء الدكتور مدحت .

ــ إنه يبدو رجلا ذا مروءة .. لقد أسأنا به الظنّ .

ــ جدا . إنه إنسان . لقد تولى أمر امرأتي وأولادي ، طيلة مرضي . إنه مخلوق ممتاز في كل شيء .. عدا شيء واحد .

ــ ماهو ؟

ــ إنه مزوّر ؟

ــ أجل ...

ــ كيف ؟

ــ إنه لم يكن يستطيع أن يجرى لى عملية بتر الذراع .. إلا إذا أخذ « منى » إقراراً كتابياً بالموافقة .. ولما كنت أرفض إجراء العملية .. فقد قطع ذراعى .. ثم أخذها .. وبصم بها الإقرار .

واندفع إبراهيم مقهقهاً وهو يقول :

ــ هذا تزوير .. إنها لم تكن ذراعى حين بصم بها .. لقد كانت شيئاً لا صلة لى به .

وصمت إبراهيم برهة ، وأحست « نادية » أنها لا تستطيع أن تغالب دموعها ، ونظر إليها الرجل ... ذو الذراع المبتورة وهو يتساءل فى دهشة :

ــ لماذا تبكين يا ست نادية ؟! لقد سامحته .

ومنذ ذلك الحين .. تبدد شعور الكراهية والنفور .. وحل محلهما إحساس بالاحترام والتقدير .. ثم تطور رويدا رويداً .. إلى حب .. أخذ يعمق ويزداد كلما جلست لتراقب الرجل الطويل العريض المنكبين .. الذى يغلب تجهمه بسمته والذى لا يحفل كثيراً .. بمجاملة الغير .. ولكنه يحمل فى رأسه ذهناً عبقرياً .. وفى صدره قلباً يفيض بالحنان والمحبة . وانتهت لعبة الكروكيه .. و« نادية » مستغرقة فى شرودها وهى ترقب مدحت يتجه فى تؤدة إلى خارج الملعب .

ونهض صبرى وهو يسألها :

ــ أستلحقين بهم عند حوض السباحة ؟

وأجابت نادية :

ــ أجل ...

وتحرك الاثنان فى صمت تجاه الحمام .. وصبرى مازال يجهد ذهنه فى إيجاد نقطة يبدأ منها الحديث !!.

(٤)

حديث السلام

ــ جلس « عصام » على إحدى المناضد فى الشرفة « تحت » السقف المنحدر » المستطيلة المجاورة لحوض السباحة .. وأقبل عليه بعض الأصدقاء والصديقات يحيونه فى ترحيب ويعلقون مازحين على شعره المحلوق ، ويسألونه هل تعلم السلاح والتنشين .

وجرى الحديث بينهم فى خفة ومرح حتى أقبلت « منى » بعد أن ارتدت ملابسها .. وبدأت الشلة تنفض رويداً رويداً حتى خلت المائدة إلا من الاثنين .

وأقبل عليهما الساقى النوبى يحمل صينية الشاى .. فوضع الإبريق والسكرية والفنجانين بينهما .. وقبل أن ينصرف سأل عصام منى :

ــ أتريدين شيئاً يؤكل . كيك ؟ أو جاتوه ؟ أو سندوتش ؟

ــ لا داعى .. إنى سأفطر معهم فى البيت .

ــ وأنا أيضاً .. لست أدرى ما الداعى إلى إصرار البيوت على تغيير مواعيد الطعام .. إذا كان ثلاثة أرباع أهلها مفطرين . ليس فى بيتنا صائم غير أمى والخادمة .. ومع ذلك نجلس جميعاً على مائدة حافلة فى وقت الإفطار .

ــ نحن أيضاً . لا يوجد صائم فى البيت غير أمى ، ونادية .

ــ أمك صائمة ؟

ــ أجل ...

ــ ولماذا !؟.

ــ لقد نذرت عندما أصيب أبى بالذبحة بعد أن أخرجوه من الجامعة .. أن تصوم رمضان .

وضحك عصام وقال :

ـــ ولماذا لاتصلى ؟!

ـــ لقد حاولت نادية أن تعلمها .. ولكن لم تستطيع أن تحفظ الفاتحة أو التحيات .. لم أر فرنسية أخيب منها .

ـــ إنها طيبة جداً .. يخيّل إلىّ أحياناً .. وأنا أبصر طيبتها وهدوءها وصمتها .. أنها جدتى أم أبي .. حتى إنى أشك كثيراً فى أنها ولدت فى جبال الألب ، وأكاد أجزم بأنها من مواليد تحت الربع .

ـــ ربع فى عينك .

ـــ طيب اسأليها .. وإذا لم تقل لك إنها من مواليد تحت ربع .. جبال الألب .

ـــ لن تفهم معنى .. تحت الربع .. إنها لا تستطيع أن تتكلم جملة عربية متماسكة .. بعد وجودها فى مصر خمسة عشر عاماً .

ـــ من غباوتها ! عندما تصبح حماتى سأعلمها الرّدح .

ـــ على فكرة .. لقد قلت لنادية إنك ستخطبنى اليوم . ورفع عصام عينيه عن فنجان الشاى ونظر إليها فى دهشة متسائلا :

ـــ ولماذا قلت لها هذا ؟

ـــ لقد أنبتنى على كثرة ملازمتك لى .

ـــ ومالها هى .. أقد جعلت نفسها وصية عليك ؟

ـــ لقد قالت إن أهل أبى كلهم ثائرون على تصرفاتى وإنهم يتهمون أمى بأنها أساءت تربيتى فلما قلت لها إنك My Boyfriend قالت : إن عائلتنا لا تعترف بأقل من خطيب فقلت لها : سأجعلك تخطبنى اليوم .

ـــ أنت مجنونة !

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنى لا أستطيع أن أخطبك وأنا مجرد تلميذ لا هنا ولا هناك !

ـــ ألم تحصل على الليسانس ؟

ـــ أجل .

ــــ أجل .

ــــ ألم تكن تستطيع أن تتوظف أو تصبح محامياً ؟

ــــ أجل .

ــــ انتهينا .

ــــ لم ننته .. لأنك ظللت تلحين عليّ حتى دخلت الكلية الحربيـــة .. فأصبحت تلميذاً من جديد .. وأى تلميذ ؟.. تلميذ غلبان .. كحيان .. ليس هناك واحد من صف ضباط الكلية إلا ويتأمر ويبيع فيه ويشترى .

وضحكت « منى » وسألته فى حنان :

ــــ أنادم أنت ؟

ــــ أبداً .. على العكس .. إنى نادم لأنى لم آخذها من قصيرها .. وأدخل الحربية من الأول .

ــــ لا .. لا .. هذا أحسن .. إنى أفضل أن تكون ضابطاً وشيئاً آخر .

ــــ تعنين .. مثل تاجر وترزى ؟!

ــــ بالضبط .

ورشفت « منى » رشفة أخيرة من فنجانها ، ثم أردفت متسائلة :

ــــ ومتى ستنتهى من هذه التلمذة .. حتى تصبح إنساناً محترماً يستطيع أن يخطب ؟!

ونظر « عصام » فى عينيها الخضراوين الضاحكتين . وتساءل :

ــــ أحقاً .. تتعجلين الخطبة ؟

وهزت كتفيها فى استخفاف قائلة :

ــــ أبداً .. أنا لا يهمنى شيء .. إنما نقلت إليك حديث نادية عما تقوله عمتى .. وإن كنت شخصياً لا أعبأ بها ولا بكل أهلها .

ــــ إن أمامنا وقتاً طويلا . أنت لم تبلغى السادسة عشرة بعد .

ــــ فى يونية القادم سأبلغها .

ــ وأنا مازال أمامى طريق طويل حتى أستقر ، وأصبح رجلا جديراً بالزواج وبإنشاء أسرة وتعمير بيت .. من يعلم أين سيقذفون بى بعد التخرّج ؟!

ــ وأين يحتمل أن يقذفوا بك ؟

ــ من يدرى !

ــ ألم تقل لى إنك ستتخرّج لتكون نائب أحكام فى إدارة الجيش ؟

ــ ليس بعد التخرّج مباشرة . إنهم سيلحقوننا بالأسلحة للتدّرب على عمل القوات المسلحة .. حتى نستطيع أن نخدم فى الميدان كبقية الضباط ..

ــ وأى سلاح سيلحقونك به ؟

ــ الله أعلم .. لن يستطيع أحد أن يعرف مصيره إلا عند التخرّج بعد بضعة أشهر .

ونظرت إليه « منى » فى إعجاب .. وقالت :

ــ إنى أريدك أن تذهب إلى السلاح الذى يضع سلسلة على كتفيه .

ــ لا أظن .. لأن أركان حرب المدرسة من المدفعية .. وهو يريد أن يلحقنى بسلاحه حتى أنفعهم فى ألعاب القوى .

ــ لا .. لا .. سيكون منظرك هائلا بالسلسلة .

وضحك عصام قائلا :

ــ يا منى . كفى عن هذا العبط .. إنك تعاملينني كأنى .. حصان .. يمكن أن يكون منظره أجمل بالسلسة منه بدونها .

وابتسمت « منى » وقالت فى إصرار :

ــ سأخبر عمى سليمان .. لكى يرشحك للفرسان .. إنه سيتناول الفطور معنا اليوم .

ــ لا تتعبى نفسك .. مازال الوقت مبكراً .. إننا لن نتخرّج قبل أغسطس .

وبدت « نادية » مقبلة مع صبرى .. يسيران الهوينى تجاه الشرفة ، ورمقهما عصام قائلا :

— يبدو أن هناك إعجاباً متبادلا بين صبرى و نادية ؟!

— لا أظن .

— لماذا ؟

— لأنه ليس هناك إعجاب متبادل بينها وبين أى إنسان .

— ماذا تقصدين ؟!

— أقصد أن المخلوق الوحيد الذى تعجب به لا يعجب بها .

— ولماذا ؟

— لأنه لا يحس بها .

— من هو ؟!

— الدكتور مدحت .

— الذى كان يلعب الكروكيه الآن ؟

— أجل .

— وما الداعى لإعجابها به !! إنه لا يجيد لعبة الكروكيه .

— ليست المسألة مسألة « كروكيه » .

— مسألة ماذا إذاً ؟

— الله أعلم .. أما الذى أعلمه .. فهى أنها تحب دائماً أن ترقبه ويصيبها الارتباك والاضطراب عندما تراه أو تسمع عنه .

ووصلت « نادية » وصبرى .. وكان صبرى قد منّ الله عليه أخيراً بنقطة يبدأ منها الحديث . فسأل « نادية » قائلا :

— ما رأيك فى مؤتمر باندونج ؟

وكانت « نادية » تتمنى طول الطريق أن يبدأها صبرى بالحديث .. وأن يصل معها ما انقطع من حديثه عن الدكتور مدحت مع عصام .

كانت تتمنى أن يواصل حديثه عن عبقرية مدحت .. وعن عملياته وعما يفعل وعما يقول .. ولكن صبرى أصيب بالبكم ، و لم تدر هى كيف تدفعه إلى

الحديث .

كانت تخشى أن تقول شيئاً يشتم منه اهتمامها بمدحت .. أو رغبتها فى الحديث عنه .

وعندما منّ الله على صبرى بالحديث .. تكلم عن مؤتمر باندونج .. و لم يكن فى ذهن « نادية » صورة واضحة عن باندونج .. إلا ما تقرؤه من عناوين الصحف العريضة .

واتخذ كل منهما مقعده على المنضدة بجوار « منى » وعصام .

وأخذ صبرى يسترق النظر إلى جانب وجه « نادية » .. ولمح ضفيرتها الذهبية المدلاة على ظهرها .. والزغب الأصفر الذى يبدو على صفحة خدها أسفل سالفتها بمحاذاة أذنها .

وأحست « نادية » أنها لا بد أن تجيب بشيء عن سؤال صبرى عن رأيها عن مؤتمر باندونج ، فهزت رأسها متسائلة :

ـــ رأيى فى أى شيء فيه ؟

ـــ مبادئه وأهدافه .

ورفع عصام وجهه متسائلا :

ـــ ما هو ؟

ـــ مؤتمر باندونج .

وضحك عصام قائلا :

ـــ طبعاً يعجبك أنت لأنك شيوعى .

وهز صبرى رأسه ثانياًبشدة :

ـــ أنا لست شيوعياً .. أنا من أنصار السلام .

ـــ أنصار السلام .. يعنى شيوعى .

ـــ الذين ينادون الآن بالسلام ، ليسوا الشيوعيين وحدهم . لقد كوّن المؤتمر كتلة جديدة محايدة تنادى بالسلام .. وتقر مبدأ التعايش السلمى !

ـــ الشيوعيون أيضاً يقرّون هذا .. لأنهم لا ينشرون مذهبهم بالعنف .. ولكن بالتسلل .

ـــ أنت أمريكانى .

ـــ وأنت شيوعى .

ـــ أنا مع جمال عبد الناصر .

ـــ وأنا أيضاً مع جمال عبد الناصر .

وتدخلت « منى » صائحة :

ـــ وأنا لست مع جمال عبد الناصر .. لأنه طرد أبى من الجامعة .. وأصابه بذبحة .

وتدخلت « نادية » قائلة .

ـــ جمال عبد الناصر ليس له دخل بخروج أبيك .

ـــ من الذى طرده إذن ؟

ـــ الغيرة والوشايات والنمائم .. هل تظنين أن جمال مسئول عن خطايانا جميعاً .. وأن عليه أن يحتمل وزر كل واش نمام ؟!

ـــ إنه مسئول عن كل ظلم يقع علينا .. إنه مسئول عن إقامة العدل بيننا .

ونظر عصام حوله فى حرج وقال :

ـــ دعونا من هذا الحديث الآن .

ونظرت إليه « منى » قائلة فى سخرية :

ـــ لا مؤاخذة .. نسيت أنك لبست البذلة الكاكية !!

ونظر إليها عصام نظرة رادعة قائلا :

ـــ منى .. تأدّبى .

وضحكت « منى » ورفعت يدها بالتحية العسكرية قائلة :

ـــ حاضر يا فندم .

وعاد صبرى من جديد يدير دفة الحديث إلى مؤتمر باندونج قائلا :

— على أية حال أنا أعتبر مؤتمر باندونج نقطة تحوّل فى تاريخ العالم .. وخطوة إيجابية فى سبيل إقرار السلام .. وأعتبره كذلك قد وضع مصر موضعاً مشرفاً بين شعوب العالم .. لقد حددنا به شخصيتنا المستقلة .. وأزلنا به التبعية التقليدية .. للغرب .

وهز عصام رأسه وقال مصدقاً :

— فى هذا .. معك حق .

ثم رفع سبابته وهزّها مؤكداً وقال فى إصرار :

— ولكنى مع ذلك ما زلت أصر .. على أن أنصار السلام شيوعيون .. وأنهم منفعلون بمؤتمر باندونج أكثر مما هم منفعلون بالثورة .. وأنهم لم ينفعلوا بجمال إلا بعد مؤتمر باندونج .

— ليكن .. شيوعيون .. شيوعيون .. إن السلام هو السلام .. وغير معقول أن نكره السلام لأن الشيوعيين ينادون به ؟

وسدت « منى » أذنيها قائلة فى احتجاج :

— دعونا من السلام والشيوعيين لقد سببتم لى صداعاً ! تحدثوا فى أى شيء آخر .

ونظرت إلى مياه الحمام الفيروزية الصافية وقالت فى شوق :

— وددت لو أخذت غطسة .. ما رأيك يا عصام ؟.

ونظرت إليها نادية فى غيظ وقالت :

— أنت مجنونة ؟.. ألم يكف الجهد الذى بذلته اليوم ؟!

وهزت « منى » كتفيها قائلة :

— ليس هذا من شأنك .

ونهرها عصام قائلا :

— معها حق يا منى . لم يكن هناك ضرورة أبداً للعب الذى لعبته اليوم .. بل ليس هناك أية ضرورة لأن تفعلى ما يجهدك .

وبدا الضيق على وجه « منى » وأجابت :

ــ أنا سليمة مائة فى المائة .. أسلم منك ومنها .

وأجاب صبرى فى رقة :

ــ طبعاً ... إنك أسلم منا جميعاً .. فقط .. لا ضرورة للإجهاد . نحن أيضاً لا نجهد أنفسنا . اكتفى دائماً بالفرجة على اللاعبين ، إن هذا أسلم موقف يمكن للإنسان أن يقفه فى الملعب .

وضحكت « منى » قائلة :

ــ ولكنى لا أستطيع أن أشاهد المياه دون أن أقذف بنفسى فيها .. إنى لا أكاد أرى البحر ..

وقاطعها عصام متسائلا :

ــ هل تنوون الذهاب هذا العام إلى الإسكندرية ؟

وهزت نادية رأسها قائلة :

ــ لا أظن .. إن أبى يصر على أن نذهب إلى فرنسا هذا العام .

وقالت منى :

ــ كل عام يقول هذا .

ــ هذا العام يبدو جاداً .. إنه يريد أن نقيم هناك فى « جرينوبل » .. وهو ينتظر خطاباً بالموافقة على تعيينه فى جامعة « جرينوبل » .. وأمى طبعاً تشجعه .

وتساءل عصام فى دهشة :

ــ أحقاً هذا يامنى ؟

ــ لا تصدقها .. قلت لك كل عام يقول هذا .

وأردفت نادية :

ــ إن صدره قد ضاق .. بعد خروجه من الجامعة .. وحالته المعنوية سيئة .. وماما تريد الذهاب لزيارة أهلها .. فقد مضى علينا خمسة أعوام بعد آخر زيارة .

وقاطعتها منى :

ـــ إن أقصى ما سنفعله هو أن نذهب لقضاء بضعة أشهر كما فعلنا آخر مرة .لا تصدق أن إلى سيتعين فى « جرينوبل » . كلام فارغ .

ونظرت « نادية » إلى الساعة فوجدتها قد قاربت السادسة والنصف .. فهبت قائلة :

ـــ هيا بنا .. لقد أوشك المدفع على الضرب .

وسأل عصام مني :

ـــ أتحضرين غداً للعوم !؟

وهزت مني رأسها هزة إيجابية .

وسأل صبرى نادية مردداً :

ـــ وأنت يا نادية أستحضرين ؟

وأجابت نادية :

ـــ يمكن .

وتحركت التوءمتان فى طريقهما إلى البيت .. واحدة بشعرها المقصوص وخطواتها الخفيفة ولفتاتها المرحة ، والأخرى بضفيرتها المدلاة وخطواتها المتزنة وسيرها المتئد .

(٥)

صدمة تطهير

كانت الشمس قد بدأت تنحدر نحو الأفق الغربى عندما غادرت « نادية » و « منى » النادى متجهتين إلى الدار و لم تكن الدار تبعد كثيراً عن النادى .. كانت إحدى « الفيلات » المتوسطة ذات الطابق الواحد التى يمتلىء بها حى منشية البكرى .. وكانت تقع على شريط « المترو » ، وتحيط بها حديقة متوسطة تناثرت بها أشجار البرتقال والمنجة والجوافة والأحواض التى ما زالت بها بقايا زهور الشتاء الجافة المعشوشبة ، والنخيل قد تكاثف حولها فى إهمال وغزارة ..وخرطوم ممزق .. تنساب مياهه وسط النجيل ، وتتسرّب إلى الأحواض ، ويحد الحديقة سور حديدى قديم متوازى القضبان قد تخللته أغصان الجهنمية من ناحية الشارع المطل على المترو ، ويحدها من الناحية الخلفية سور من الحجر تشقق بياضه وتفتتت مونته من نشع الحديقة .

والبيت يبدو ، وقد لوَّحت الشمس لونه ، فأحالت طرطشته الحمراء إلى لون بنى كالح . وفى مواجهة الباب الحديدى العريض يقوم الدرج الرخامى الذى حددت حافتيه أحواض الجارونيا ورصت على جانبيه قصارى اللاتانيا .. وينتهى الدرج بشرفة متسعة قامت على أعمدة تسلق على أحدها عود من الياسمين ظلل بأوراقه المتكاثفة أحد جوانب الشرفة .

ويفضى باب الشرفة إلى قاعة مربعة رص بها طقم جلدى ضخم عتيق ، وشيدت على جانبها الأيمن مدفأة من الصولناجة وعلقت فوق المدفأة صورة كبيرة ملونة لقبطان فرنسى تتأبط ذراعه سيدة بدينة غطت القبعة نصف وجهها . وكانت الصورة مع صورة أخرى خشبية بارزة لكوخ فوق جبال

الجليد هى كل بقايا ذكريات الأم الفرنسية من وطنها القديم .

وفى القاعة تناثر من الأثاث كل ما يحتمل أن نراه فى قاعتنا ، منضدة عليها زهرية .. ومشجب فى الحائط علقت عليه عصا الأب .. «وشبشب» الخادمة وراء الباب .. وصحف ومجلات ملقاة على أحد المقاعد .

وعلى يمين القاعة حجرة استقبال .. يملأ نصفها بيانو .. عريض ورثته الأم عن أمها السمينة المعلقة صورتها فوق المدفأة بجوار القضبان والنصف الآخر من الحجرة رصت فيه المقاعد والأرائك التى ترص شبيهاتها من الحجرات فى بيوتنا .

وعلى يسار القاعة حجرة مكتب .. هى فى الوقت نفسه حجرة نوم للأب .. بعد أن تحوّلت الأريكة الموضوعة فى الركن إلى فراش بمضى الاستعمال .. والحجرة بعد هذا لا تزيد على حجرة أى أستاذ فى الجامعة .. كتب فى رفوف معلقة على الجدران .. أو مرصوصة فى دولاب .. او مبعثرة على مكتب ..وملابس ملقاة هنا وهناك .. فردة حذاء مقلوبة وشراب أسفل أريكة .. وجرنال يطارده الهواء في أرض الحجرة عابثا بأوراقه .. وساحة الحجرة ميدان مستمر لمباراة بين رب البيت وأهله .. فى النكش والتسوية، واللخبطة والترتيب .. وهو يبعثر وهم يلمون ، وهو يفركش وهم يساوون ..وهو يدّعى أن تسويتهم لخبطة .. وأنهم يجب ألا يمسوا ممتلكاته .. والأم تؤكد له أن الحجرة جزء من البيت ، وأنها لابد أن تخضع لنظام النظافة والترتيب فيه .

وأخيرا استطاع أن يخرج من المكتب بمحتوياته من دائرة نفوذ أهل البيت ، وأن يحصل على ضمان بعدم مس كل ما يدخل فى نطاقه مهما بدا قذراً مبعثراً، بعد أن أقنع الأم بأن أى تغيير فى نظام المكتب أو نقل لما به من أوراق وكتب .. يعتبر عبثاً خطيراً بكل ما يعدّه من محاضرات ودراسات .. وتشتيتاً لأفكاره ، وأن ما تراه هى بعثرة إنما يراه هو أجدى طريقة فى التنظيم .. وأن يجد كل شىء

مبعثراً فى المكان الذى تركه فيه ، من أن يفقده منظماً فى مكان لا يعرفه .

وفى مواجهة القاعة باب زجاجى يؤدى إلى دهليز يقع فى نهايته السلم الخلفى المؤدى إلى الحديقة والسطح ، وعلى يمينه المطبخ والحمام وحجرة تستعمل للطعام وللجلوس والخياطة والثلاثة أرباع الأعمال التى يعملها أهل الدار ، وقد وضعت بها أريكتان وتوسطتها منضدة فرش عليها مشمع ، وفى ركن منها ماكينة خياطة ودولاب به كل ما يمكن أن يخطر على البال مما يلزم الأسرة ومالا يلزمها ، من جرائد قديمة إلى زجاجات فارغة إلى ملابس إلى علب ألوان ، إلى حبوب عصافير، إلى عرايس قديمة ، إلى ألبومات صور ، إلى كل ما يخطر أو لا يخطر على بال .

وتواجه الحجرة المختلطة حجرة التوأمتين ذات الفراش المشترك ، والدولاب ، والشفونيرة ، والمكتبين الصغيرين .. أحدهما نظيف مرتب ، والآخر قد بعثرت فوقه الكتب . وتناثرت الأوراق ، واختلطت المحبرة بعلبة البوردة ، والقلم بإصبع الأحمر ، وألقى على مقعده منشفة ، و « سوتيان » صغير .

وبجوار حجرة التوءمتين تستقر حجرة الأم بباب يفضى إلى حجرة المكتب التى يستقر فيها الأب .. ويبين الباب طبيعة العلاقات بين الأم والأب ، إذا كان مفتوحاً فالعلاقات طيبة ، وإذا أغلق فسوء تفاهم مستحكم .

وحجرة الأم .. تكاد تكون مستقلة عن جميع حجرات البيت فى طابعها .. وهى تعبر تعبيراً جيداً عن طبيعة الأم .

كانت الأم « مدام لورا » ، أو « مدام فاضل » مخلوقة منطوية ، طيبة القلب .. التقت بالأب ، وهو يدرس فى جامعة « جرينوبل » فى جنوب فرنسا ، وكان لقاؤهما خلال عام ١٩٣٨ .

وكانت تعمل وقتذاك فى سكرتارية المدرسة ، وقد جمع بينهما القرب فى المدرسة والقرْب فى السكن حيث كانا يقطنان فى حجرتين متجاورتين فى بيت امرأة عجوز فى أحد أطراف المدينة .

وكان موطن « لورا » فى جاب .. إحدى البلاد الصغيرة فى منطقة الألب

العليا جنوب جرينوبل .. وكانت تذهب لزيارة أمها خلال العطلة الأسبوعية فى أيام الدراسة .

وأنشات الغربة والجيرة بين الاثنين نوعاً من الألفة . وطدت الصداقة بينهما ، وتطورت الصداقة إلى حب .

وتردد « فاضل » فى اتخاذ خطوة إيجابية لتحديد علاقتهما فقد كان هناك شبه ارتباط بينه وبين « ابنة عمه » فى مصر .. وكانت الأسرة تأمل عند عودته أن يتم الزواج .

ولكن نشوب الحرب ، وزيادة فترة البعد ، والإحساس باليأس من العودة فى هذه الظروف القائمة ، وعدم ظهور أية بارقة تنبىء بحالة سلام .. وازدياد علاقة الحب .. وتطورها إلى علاقة أكثر من مجرد تبادل شعور .. جعله يتخذ قرارا بتحديد العلاقة على ضوء الواقع .. وانتهى الأمر بهما إلى الزواج .

وقضى الاثنان الأشهر الأولى من زواجهما فى بيت « لورا » فى جاب .. وأمضيا فى البيت الصغير المقام وسط المزارع على سفح الجبل .. أسعد أيامهما .. كان كل شىء حولهما ممتعاً .. رغم ظروف الحرب التى لم تستطع أن تمنع الثلوج من الذوبان ، ومياه الشلالات من التدفق على سطح الجبل ، ومياه البحيرة من الانسياب حول شواطئها .. ولا استطاعت أن تمنع البراعم من التفتح ، والزهور من أن تغطى هام الشجر .

ووضعت « لورا » التوءمتين .. ومضت بضع سنين والأربعة يعيشون بين « جرينوبل » و « جاب » فى جبال الألب العليا ، حتى سنحت فرصة للعودة إلى أرض الوطن ، فحمل الأب زوجته وابنتيه .. وعاد إلى القاهرة .

وفوجئت الأسرة بعودته ، وفوجئت أكثر بحمله .. وعندما خفت مظاهر الفرحة بعودته برزت مظاهر التبرم بحمله والثورة على فعلته الحمقاء ، وأخذ الوجوم يحيط بالأسرة الصغيرة ، والتجهم يزداد حولها .

ولم تستطع الأسرة الكبيرة أن تخفى خيبة أملها فيه ..

وتطور الأمر إلى شبه مقاطعة ، وقادت الحملة عليه أخته « زكية » صديقة « ابنة عمه » .. التى كانت الأسرة قد وطدت أمرها على زواجه بها .

وأحست « لورا » بنفور الأسرة منها ، وهى بطبعها مخلوقة سلبية صامتة .. فانطوت فى بيتها تعيش فى شبه عزلة مع زوجها وتوءمتيها .

ومرت الأيام ، ونمت التوءمتان ، تكاد كل منهما تكون صورة من الأخرى ، وتكاد الاثنتان تكونان صورتين مصغرتين لأمهما .. نفس الشعر والأعين المتسعة الخضر ، والحواجب الكثة المقرونة والأهداب الطويلة والشفاه الممتلئة.

ولم تستطع الأم أن تؤثر فى ابنتيها ، كما تفعل كل أم أجنبية .. فقد كانت شخصية الأب أقوى وأطغى .. وكانت « لورا » شديدة الحب له والتأثر به .. فبدت هى الفرنسية الوحيدة فى البيت ، عدا أثاث حجرتها ، والصورة المعلقة فوق المدفأة والبيانو الذى يملأ حجرة الاستقبال .

وخلال تلك المدة لم تعد إلى « جاب » سوى مرة واحدة لزيارة أمها .. وقضت هناك عطلة الصيف هى زوجها وابنتاها ، ثم عادوا جميعاً مع بدء الدراسة ، وأحست فى قرارة نفسها أن موطنها لم يعد « جاب » ، وأن موطنها هنا .. فى البيت الصغير المقام عند شريط المترو .. وأن كيانها أصبح مرتبطاً .. بالمخلوقات الثلاثة التى تعيش من أجلها ، زوجها وابنتيها .

مرت السنون ، ونمت طفلتاها ، وترهل جسدها .. ووخط الشيب شعر زوجها ، وعمقت التجاعيد حول عينيه .

ولا شىء أكثر من ذلك .

لاتغيير عميقاً فى جوهر حياتها .

نفس النفور والقطيعة والخصومة من الأسرة ، ونفس الانطواء فى بيتها ، ونفس السلبية .. إزاء أقرب الناس إليها وإزاء نفسها .

وحدثت الثورة ، وتبدلت أوضاع كثيرة فى مصر ولكنها لم تحس بشىء .

وكان يمكن أن تستمر حياتها على نفس الرتابة والبساطة حتى حدثت لها أول

صدمة .. عندما خرج « فاضل » من الجامعة .

ولم يكن خروجه فى حد ذاته .. يعنى صدمة بالنسبة لها ، ولكن صدمته هو بالخروج ، هو الذى هد كيانها .

كان وقع الخروج على « فاضل » شديداً .. فقد كان يحس أنه يحب عمله ، وأنه قد كرّس له حياته ، ووضع فيه كل أمله . ولم يحس قط أنه قصر ، أو أخطأ .. وكان شديد التحمس للثورة والترحيب بكل أعمالها .. من خلع ملك ، إلى إلغاء ألقاب ، إلى تحديد ملكية ، إلى .. إلى ...

حتى خرج من الجامعة !

وكيف !!فى التطهير !

وبعد كل هذا التحمس للثورة ، والإخلاص فى عمله ..

وجد نفسه على قارعة الطريق ، كأنه مذنب .. لابد للثورة أن تطهر البلد منه ، حتى تستقيم أمورها .

كانت آماله كثيرة ضخمة .. كان مساعد أستاذ .

وكان كرسى الأستاذية أمامه خالياً يوشك أن يتربع عليه .

ولكنه بدلاً من أن يتربع عليه تربع على الرصيف .

ولم يستطع أن يتحمل الصدمة ، فأصابته ذبحة صدرية .

ورقد فى الفراش . وساد البيت وجوم وكآبة .. وأحست الزوجة الفرنسية الطيبة بخطورة حالته ، وأحست أن سندها فى هذه الدنيا الفارغة الواسعة .. يوشك أن يتخلى عنها ، ليتركها عزلاء مع ابنتين « زغب الحواصل ، لا ماء ولا شجر » .

وبدت فى الدار تائهة .. تصلى بكل لغة . ولكل إله .

حتى منّ الله عليه بالشفاء .

وشفى من علته ، ولكنه لم يشف من سخطه .

وفى هذه الساعة كان يجلس فى حجرته .. وقد تمدد فوق الأريكة بالبيجامة ، وانهمك فى القراءة .

وبدا جسده نحيلاً ، ورأسه قد خف شعره .. وبدت ملامحه التى تعودت على الابتسام ، وقد كستها مسحة مرارة لا تكاد تفارقها .

وسمع وقع اقدام تصعد السلم الرخامى ، وعرف من خفة وقعها .. أقدام أخيه « سليمان » .. وأكدها له العربة الكاكية التى لمحها من النافذة تقف أمام باب الحديقة .

ووضع « فاضل » الكتاب الذى فى يده جانباً .. ورفع يده فخلع منظاره .

وسمع وقع أقدام زوجته تتجه إلى باب الشرفة الخارجية .

وعلا صوت سليمان يقول ضاحكاً :

ـــ كيف حالك ؟ أما زلت صائمة ؟

وهزت « لورا » رأسها مؤكدة فى لهجتها الفرنسية :

ـــ طبعاً صايمة .. إنه نذر .

ـــ أول فرنسية أراها تنذر الصيام .. إنه صيام مسلمين ، وربنا لن يقبله منك ، إذا لم تسلمى .

ـــ إنه ربنا جميعاً ، وأنا أومن به كما تؤمن به أنت ، ولست أحس أن هناك أى خلاف بيننا .

ـــ مضبوط .. معك حق .. أين فاضل ؟!

ـــ فى حجرته .

ـــ والبنات ؟.!

ـــ فى النادى .

ـــ نادى ؟!

فنظر إلى ساعته وأردف متسائلاً :

ــ ألسن صائمات ؟

ــ نادية فقط .

ــ ومنى ؟!

ــ تصوم يوم ، وتفطر عشرة .

ــ ولكن نادية تأخرت .. إن موعد الإفطار قد قرب !

ــ لابد أنهما فى الطريق .. لقد كان لدى « منى » مباراة فى « الفولى » .

ــ فولى !! ألم نقل إنها يجب أن تكف عن كل ما فيه إجهاد لها !

ــ لقد قلت لها هذا .. ولا أريد أن أكثر عليها بالتحذير فإنى أحس أنه يؤثر عليها تأثيراً عكسياً .

ــ كيف ؟

ــ إنه يخفض من روحها المعنوية .. ويجعلها تحس أنها مريضة دائماً . إنى أنصحها من آن لآخر .. بألا تجهد نفسها ، لأن قدرتها محدودة .

ــ مسكينة هذه البنت !

وقبل أن يدخل إلى القاعة بدت الفتاتان على الباب .. ولم تكد « منى » ترى سليمان حتى اندفعت تعدو من الباب صائحة فى فرح :

ــ « أنكل » سليمان !

وفتح سليمان ذراعيه قائلا ، وهو يضحك :

ــ بالحضن .

ووقفت « منى » أمامه وهى ترفع إصبعها محذرة :

ــ عيب يا أنكل سليمان .. لقد كبرت .

وجذبها سليمان من ذراعها وضمها إليه .. وقبلها فى خدها وهو يقول :

ــ كبرت علىّ .. سأظل أحضنك حتى بعد أن تتزوجى .

ووصلت « نادية » فمد سليمان يده إليها وضمها إليه وقبلها كما فعل مع « منى » . ثم قال :

ــ وأنت أيضاً. حتى بعد أن تتزوجى .

وضحكت « نادية » وهى تستسلم إلى ضمته .. وقالت وهى تتساءل محذرة :

ــ وحتى بعد أن تتزوج أنت ؟

وضحك سليمان وقال :

ــ إذا كنت سأتزوج امرأة طيبة كأمك فسأحضن نساء الأرض جميعاً أمامها .

وضحكت الأم قائلة :

ــ هيا بنا .

واتجه سليمان إلى حجرة أخيه وتصافح الأخوان فى شوق ومحبة ، وسأل سليمان :

ــ كيف الحال ؟

وهزّ « فاضل » كتفيه وكست ملامحه نظرة الضيق والسخط واليأس وقال :

ــ الحمد لله .. الذى لا يحمد على مكروه سواه .

ــ لماذا كل هذا السخط يا أخى ؟ !

وقبل أن يجيب « فاضل » سمع دوى مدفع الإفطار وأقبلت « نادية » تنادى :

ــ تفضلــوا .

(٦)

مصرية

جلست الأسرة إلى مائدة الإفطار ، ووقفت الخادمة تنتظر فى قلق بعد أن رصت آخر صحاف الطعام . وقبل أن يمد أحدهم يداً إلى المائدة قالت الأم للخادمة :

ــ اذهبى يا عطيات لتفطرى مع دادة فاطمة .

وكانت « فاطمة » خادمة لازمت الأسرة الكبيرة منذ طفولتها ، ثم تزوجت وطلقت فعادت مرة أخرى للخدمة فى بيت « فاضل » بعد عودته من فرنسا ، وتولت تربية التوءمتين وخدمة الأسرة كل هذه السنين فى رضاء وإخلاص . وكانت مجدة دءوباً لا يكاد يعيبها شىء إلا حبها للباعة المتجولين والمكوجية والبقالين وجميع أصناف الرجال الذين يفدون على الدار .

ولم يكن على المائدة أى أثر من آثار الأم .. كانت مائدة إفطار مصرية مائة فى المائة .. بما فيها من دورق « قمر الدين » وأطباق « الكشك بالفراخ » .. وصينية « البطاطس » وأطباق الخشاف وطبق القطايف ..

وتناول سليمان كوب « قمر الدين » ومصمص بشفتيه فى استطعام وقال للأم :

ــ قمر الدين لذيذ جداً ، لا يعقل أن تعمله ربة دار فرنسية !

وضحكت « منى » قائلة :

ــ « فرنسية إيه يا أنكل سليمان ؟ » . إنها لم تعد فرنسية .لقد قال عنها عصام .. إنها فرنسية من تحت الربع .

ورد فاضل وهو ينظر إلى « لورا » ضاحكاً :

ــ معه حق .. لولا لكنتها لما صدق أحد أنها فرنسية .

واعترض سليمان قائلا :

ــ وشعرها الأصفر وعيناها الخضراوان ؟!

— لدينا من هذا الكثير .. فى المنصورة .

وأحست الأم بعض الارتباك وهى تجد نفسها محل فحص وتعليق وردت معترضة :

— إذا كان هذا من أجل « قمر الدين » فأنا لم أصنعه .. إن التى صنعته نادية .

ورد سليمان :

— برافو نادية .. ست بيت مدهشة .

وأجابت « نادية » فى تواضع :

— إنه ليس عملية عسيرة .

— ولكنها تحتاج إلى ضبط .

وتدخلت « منى » قائلة فى سخرية :

— هى كيميا ؟ ..

وأجابها سليمان فى تحد :

— أتستطعين أن تعملى مثله ! ؟

— لو أردت لعملت .

— ولماذا لا تجرّبين ؟ !

— ليس لدىّ وقت .

— ماذا يشغلك ؟ !

— أشياء أخرى أهم كثيراً من « قمر الدين » ..

— مثل ؟

— مؤتمر باندونج .

وضحك سليمان وتساءل فى سخرية وهو يغرس الشوكة فى قطعة من اللحم :

— هل اشتركتِ فيه ؟!

— طبعاً ..

— وما رأيك فى التعايش السلمى ؟

ونظرت « منى » إلى « نادية » وسألتها ضاحكة :

— ما رأيك أنت يا نادية .. ماذا قال صبرى عنه ؟..

وضحكت « نادية » وأجابت :

— التعايش السلمى هو ما أفعله أنا .. وأنت .. نرقد فى فراش واحد ، ونجلس متجاورتين على المائدة ، وفى الفصل ، وفى كل مكان نحل به .. ولكل منا مذهبها فى الحياة .. لا تفعل إحدانا ما تفعله الأخرى .. ولا تحب ما تحبه .. ولكن بلا عراك .. ولا قتال ولا جدال .

وعلق الأب وهو يهز رأسه :

— ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم .. ولا أنتم عابدون ما أعبد .. لكم دينكم ولىَ دين ﴾ .

وتساءلت نادية :

— كما تفعل أنت مع ماما ؟

— بالضبط ..

— إن بيننا إذن مثل للتعايش السلمى .

وتساءلت منى :

— وما دخل التعايش السلمى فى مؤتمر باندونج ؟!

وأجاب سليمان :

— إنه أهم مبادئه .

— آه .. قلت لى ..

— أعرفت إذن أنك لا تفهمين فى « قمر الدين » .. ولا فى مؤتمر باندونج .. وأن نادية تفهم فى كليهما !

وأجابت « منى » ضاحكة :

ـــ ومع ذلك سأخطب قبلها .

ورفع الأب رأسه المطرق المحدق فى الطبق الذى أمامه . ونظر إلى « منى » فى شيء من الدهشة .. وكست وجه « منى » لمحة من الحياء ، ولكنها سرعان ما بددتها وقالت فى جرأة :

ـــ أجل .. إن عصام قرر أن يخطبنى .

وتدخلت الأم فى الحديث قائلة فى شبه زجر :

ـــ « منى » .. هذه الأشياء لا يمزح الناس فيها .

ـــ أنا لا أمزح .. لقد قال لى عصام إنه سيخطبنى إذا ما تخرّج .

وصمتت برهة ثم وجهت بصرها إلى سليمان وأردفت قائلة :

ـــ بشرط .

وتساءل سليمان ضاحكا :

ـــ ما هو ؟!!

ـــ أن تلحقه بسلاح الفرسان ..

ـــ وما دخله هو بالفرسان ؟!

ـــ لقد التحق بالكلية الحربية .

ـــ عصام ابن الست « أسما » جارتكم ؟!

ـــ أجل ..

ـــ ألم يكن يدرس فى الحقوق ؟!

ـــ لقد تخرّج والتحق بالكلية الحربية .. وسيتخرّج قريباً .. ليصبح نائب أحكام ، وهم يلحقونهم أولا بمختلف الأسلحة وهو يريد أن يكون فى الفرسان ..

وهز سليمان رأسه قائلا :

ـــ فهمت .. إذا كانت المسألة هكذا .. فبسيطة .. لقد ضمنا لك خطيباً ، والدور على نادية ..

وأجابت نادية :

ـــ إنى سأتمم دراستى ..

وقال الأب وهو يلوك لقمة فى شدقيه :

ـــ ومنى أيضاً ستتم دراستها .

وأجابت منى :

ـــ لقد زهقت من الدراسة .

ورد الأب فى لهجة جادة :

ـــ ستتمان الدراسة سوياً فى « جرينوبل » .

وضحكت « منى » وصاحت فى مرح :

ـــ إذا كان الأمر كذلك .. فأنا مستعدة أن أتمم دراستى .

ونظر إليها سليمان وتساءل ضاحكا :

ـــ والعريس !؟

ـــ ينتظر حتى أعود .. لقد قال لى إن أمامه وقتاً طويلا حتى يستقر أمره ويصبح له مرتب معقول يؤهله لفتح بيت .. فحتى يجتاز وقت المرمطة .. أكون قد عدت إليه .

ـــ وتتركينه يتمرمط وحده ؟!

ـــ إذا كان يجب أن يذهب معنا إلى جرينوبل .. فليس لدّى مانع .. أما أن ألاحقه فى العريش ورفح وغزة .. فيفتح الله .

وضحك سليمان وهو يقول :

ـــ طول عمرك .. بلا صاحب .. لا تؤمَنين .

ـــ لماذا ..؟ إذا كان هو يرضى بذلك .. فما شأنك أنت !!

وكانت « نادية » تبدو شاردة الذهن .. وهى تقلب قــول الأب فى

رأسها .. و لم تكد « منى » تنتهى من قولها حتى تساءلت « نادية » فى صوت خافت :

ـــ ولماذا لا نتم دراستنا هنا .. فى الجامعة ؟!

وأجاب الأب فى كلمات مقتضبة :

ـــ لأننا سنذهب لنعيش هناك .

وتبادل الجميع النظرات .. وسألت « منى » أمها :

ـــ حقيقة يا ماما ؟

وهزت الأم كتفيها قائلة فى استسلام :

ـــ كما يريد أبوك ..

ونظر سليمان إلى أخيه نظرة فاحصة وسأله :

ـــ أتقول حقاً يا فاضل ؟!

ـــ أجل ...

ـــ ولِمَه ؟!.

ـــ لأنى سأعمل هناك .. لقد أرسلت إلى مدير الجامعة هناك .. وكان أستاذى .. وأتوقع الرد بين حين وآخر ..

ـــ هب أنه أتى بالرفض ؟!

ـــ لا أعتقد .

ـــ على أية حال نرجو نحن أن يكون بالرفض .

ـــ ولماذا ؟!

ـــ لأنه ليس هناك أبداً مبرر لسفركم .

ـــ وهل هناك مبرر لبقائنا ؟!

ـــ طبعاً .. إنه بلدك .

ـــ لا أحد يريدنى فيه .

ـــ من قال هذا ؟!

ـ قالته الجامعة التى فصلتنى .

ـ هذا ليس معناه أن البلد لا يريدك !

ـ أتظن البلد الذى يرانى غير صالح فى مهنتى الأصلية .. ولا يأتمننى على عملى .. وعلى طلبتى .. أتظنه يريدنى ؟!

ـ لماذا تقول البلد .. ولا تقول عميد الكلية .. أو بعض الأساتذة !! لماذا تجمع البلد كله فى شخص هؤلاء ؟!

ـ لأن البلد لم ينصفنى منهم .. أتستطيع أن تذكر لى لماذا أخرجونى فى التطهير ؟! أأنا غير منتج ؟ لقد ألفت من الكتب ما يعلو هامتك .

ـ لم يقل أحد هذا .

ـ ألأن زوجتى فرنسية ؟ لماذا إذن لم يخرجوا كل الذين زوجاتهم فرنسيات ؟! ألأننى أعطى دروسا خاصة .. لماذا لم يرفدوا كل الذين يعطون دروساً خاصة .. ألأننى ..

ـ أنت تعرف لماذا خرجت .. وتعرف الذين وشوا بك ، والذين كانوا ينافسونك على كرسى الأستاذية .. أنت تعرف كيف كالوا لك التهم ..

ـ ولماذا أوخذ بتهمهم ؟!

ـ لأن من العسير تبيان الحقائق من الأكاذيب .. لقد اختلط الباطل بالحق فى عمليات التطهير .. ووجدت النفوس الدنيئة مرتعاً لها ترتع فيه بالو شايات والنمائم والمكائد .. وكان من المستحيل .. منع عمليات الظلم أن تحدث .. أو عزل البرىء عن أكوام المذنبين .

ـ لماذا لم تحاول أنت أن توضح لهم .. أنت ضابط .. وصديق لمعظمهم ؟!

ـ من قال لك إنى لم أحاول .. لقد حاولت .. واقتنع بعضهم .. ولكن التراجع فى حالة واحدة .. يجر وراءه الحالات الباقية .. وتصبح عملية التطهير كلها عبثا فى عبث .. . ومع ذلك . لماذا تستمر على هذا السخط ، وأنت قد

عوّضت عن حالتك .. إنك الآن تربح أكثر مما كنت تربح فى الجامعة .. لقد عينت فى شركة إير فرانس .. وأنت تعطى دروساً فى الليسيه .. وتعطى دروساً خاصة .. ومجموع مرتبك من كل هذا .. أكبر من مرتبك فى الجامعة .

ـــ ليست المسألة مسألة مرتب يا سليمان

ـــ ماذا يضايقك إذن ؟!

ـــ مرارة التهمة الباطلة .. ألم الظلم .. هل تظنها هينة على نفسى أن أظل حياتى مدموغاً بوصمة التطهير ؟! أتظنه سهلا على نفسى أن أترك بناتى يقال عن أبيهن إنه مطرود فى التطهير ! ماذا أمام الناس عندما يسألوننى لماذا طردت ؟ حرامى .. أم فاسق .. كيف يكون ردّى !؟

ـــ يا أخى الذى يعرفك .. يعرف حقاً من أنت . ولن يتساءل لماذا خرجت .. لأنه واثق أنك لست حرامياً ولست فاسقاً .. والذى لا يعرفك لن يهمه لماذا خرجت .. أما الذين يكوهونك .. فسيقولون عنك .. لص وفاسق .. سواء

أطردت من الجامعة .. أم وليت على إدارتها .

ـــ إنك تقول هذا لأنك لم تجرّب !

ـــ وماذا سيفيدك السفر !

ـــ سأعيش فى جو آخر .. لا يقابلنى فيه كل يوم إنسان يسألنى .. لماذا خرجت .. ولا ألقى فى كل يوم شامتاً أو معزياً .

ـــ أمن أجل هذا تترك بلدك .. وتفضل عليه الغربة ؟!

ـــ ليست غربة بالنسبة لى .. لقد عشت فيها خمس سنوات .. وهى بلد امرأتى .. أم بناتى .. وسأحصل فيها على مركز محترم ومرتب ضخم . سأكون أستاذاً . لا طريد تطهير .

ـــ والبنات ؟.

ـــ مالهن ؟ .. ستدخلان جامعة من خير الجامعات .

ــ وتعيشان بعيداً عن أهلهما .. ووطنهما ؟!

ــ هب أنهما فى بعثة دراسية .

ــ وبعد الدراسة ؟!

ــ يفرجها ربنا .

ــ إن حياتهما .. هنا فى بلدهما ، إنهما ستتزوجان هنا !!

ــ لم يزل الوقت مبكراً .. على الزواج .

ــ ولكن فرصتهما تبدأ من الآن !!

ــ الفرصة لن تضيع منهما .. ستجدان حظهما فى أى مكان .

ــ ولكن فارقاً بين أن تجداه فى وطنهما .. وأن تجداه خارجه .. إنهما فوق كل اعتبار مصريتان ، ولا بد أن تتزوجا مصريين .

ووجه سليمان القول إلى الأم متسائلا :

ــ أليس كذلك يا لورا ؟!

وهزت « لورا » رأسها وقالت مؤكدة :

ــ أجل .. أنا أعرف هذا تماماً .. وما حاولت قط أن أحوّلهما عن هذا .

وضحكت « منى » قائلة :

ــ لقد حوّلناها نحن عن فرنسيتها ، لقد أضحت مصرية ، من تحت الربع أيضاً .

وتساءل سليمان :

ــ إذن لماذا تتركينه يقول هذا ؟!

ــ ولماذا أناقشه !! والرد لم يصل بعد من الجامعة .. ألا يحتمل أن يكون بالرفض .. فأوفر على نفسى المناقشة .

وضحك سليمان وقال :

ــ معك حق .. وفرى مناقشتك إلى حينها .

وقبل أن ينهض عن المائدة ، وهو يلتقط آخر « زبيبة » فى طبق الخشاف قالت

له « منى » :

ـــ لا تنس أن تطلب « عصام » فى الفرسان !؟

وضحك سليمان قائلا :

ـــ « تانى » !

وتفرّق الجميع من حول المائدة .. ما عدا « نادية » فقد جلست مطرقة شاردة .. وقول سليمان يدور فى رأسها :

ـــ « فارق بين أن تجده فى وطنها وأن تجده خارجه .. إنها فوق كل اعتبار مصرية .. ولا بد أن تتزوج مصرياً » .

وتخيلت المصرى .. الطويل القامة ، العريض المنكبين الأسمر الوجـه . وأحست أنها لا تستطيع أن تحيا فى أرض .. لا تطؤها قدماه .

(٧)

بصيص يخبو ..!

بعد بضعة أسابيع ، كان الدكتور « مدحت » يغادر غرفة العمليات بمستشفى الدمرداش .. عقب إحدى عمليات الجراحة ، أو « الجزارة » كما كان زملاؤه يسمونها .

واستلقى « مدحت » على « فوتيل » فى حجرة مكتبه .. مرخياً أعصابه بعد ثلاث ساعات من الشد والتوتر .. وكانت الحجرة الصغيرة تطل على الشارع الجانبى للمستشفى المقاطع لشارع رمسيس .. وبين آونة وأخرى كانت تقطع استرخاءته أصوات الباعة وزوّار المرضى الذين تدفقت زرافاتهم متجهة إلى الباب الخلفى للمستشفى .

ـــ وأغمض « مدحت » عينيه برهة ليفتحهما على أقدام تطرق أرض الغرفة وصفير يعلو فى أرجائها .. وصوت زميله « جاد الله » يصيح به :

ـــ صح النوم .

ونظر إليه « مدحت » فى غيظ ، وتساءل :

ـــ ماذا تريد ؟ ..

ـــ الساعة قد قاربت الثانية !

ـــ لتقارب الثانية ! أو الثالثة :

ـــ والذين ينتظروننا فى النادى !

ـــ من هم ؟

ـــ لا تحاول أن تدعى ضعف الذاكرة كالعباقرة .

ـــ لست عبقرياً .. ولا أذكر شيئاً من هذيانك .

ـــ هذيانى أنا .. ألم تدع « ميرفت » وخالتها للغداء معنا اليوم فى

النادى .. ثم نشاهد حفلة السباحة ؟!

ــ اليوم ؟!

ــ أجل .. اليوم

وضغط « مدحت » جبينه يا بهامه وسبابته كأنه يحاول طرد الإعياء الذى حل به .. وأجاب فى غير اكتراث :

ــ أظننى دعوتهما .. لكنى ...

ــ ماذا؟!

ــ متعب .. لماذا لا تصحبهما أنت ؟!

ــ أنا لا أدعو أحداً للغداء .. إنى أستطيع أن أصحبهما فقط لحفلة السباحة .

ــ سأدفع لك حساب الغداء .

ــ معقول .. لولا أنى أعرف أنهما يريدانك أنت، .. أو على الأقل .. واحدة منهما .

واعتدل « مدحت » فى مقعده وقال فى لهجة جادة :

ــ اسمع يا جادالله .. إنى لا أريد أن أعبث بأحد أو أخدع أحداً ..

ــ ومن قال إنك تعبث أو تخدع !.

ــ أنت تعرف أنها من أسرة طيبة .. وتعرف أن صلتى بأسرتها نشأت بعد أن أجريت لأمها عملية المرارة ، وأجريت لها عملية الأعور .

ــ وماذا فى ذلك !؟

ــ وتعرف أيضاً أن ثمة استلطافاً نشأ بينى وبينها .

ــ الحمد لله .. لقد اعترفت أنت بنفسك .

ــ ولكنه لم يكن من جانبى أكثر من استلطاف .

ــ يكفى هذا .

ــ ولكنه كان .. من جانبها .. مشروع حب .. ومن جانب الأسرة .. مشروع زواج .

ــ ولِمَ لا !!

ــ لأنى لا أريد الزواج .

ــ يا غبى .. ترفس النعمة بقدمك .. ترفض ثلاثمائة فدان وعمارتين وأبوها يستطيع أن ينفعك فى مستقبلك .. إنه قد يصبح فى أى وقت عميد كلي مدير جامعة أو وزير صحة !

ــ لا يهمنى أبوها .

ــ ومع ذلك فالفتاة نفسها ليس بها عيب .. وأنت نفسك قلت إ تستلطفها فلماذا تترك الفرصة تفلت منك ؟!

ــ لأنى أكره أن أقيد نفسى .. أنت تعرف أنى أمضى ثلاثة أرباع يومى هن المستشفى .

ــ ومن أجل هذا يجب أن تجد ما ينقذك من هذا الهوس الذى تعيش فيه .. حياتك أضحت عملية سرطان مستمرة . ولا أحد يسأل عنك أو يسمع منك إلا بضعة « الغلابة » الذين تمزق أجسامهم وتتركهم أنصاف آدميين .

ــ ولكنهم أحياء .

ــ حياة مزعجة .. أنا أفضل الموت على حياة بلا مرىء أو معدة .

ــ أنت مغفل .

ــ وأنت مجنون .. لماذا لا تريح نفسك .. وتريح المرضى .. وتفعل كما أفعل

ــ لأنى جرّاح .. ولست محتالا .

ــ يا أخى .. هناك جرّاحون كثيرون مثلك .. ولكنهم لا يفعلون ما تفعل الجراحة تقول لك .. افتح . وانظر .. ولا تقول لك .. افتح ، ومزّق .

ــ اسمع .. أنا لا أريد أن أناقشك .. أنت إنسان جاهل .. وتجيد الابت والمعاملة أكثر مما تجيد الطب

ــ كل الناس عندك جهلة !!

ــ فعلا .

ـــ إذن قم بنا يا حضرة العالم .. لأن الموعد أوشك أن يحل ، ولا داعى لأن تدع الفتاة تنتظرك .

ـــ قلت لك إنى متعب .. ثلاث ساعات .. وأنا واقف على قدمى .

ـــ ستستريح فى النادى .. ستتغدى .. وتشاهد حفلة السباحة .. وتلعب لك دورين « كروكيه » ثم تواصل جهادك فى تمزيق أعضاء الخلق وتقطيع أوصالهم .. قم بنا .

وجذبه « جادالله » من ذراعه .. فنهض « مدحت » من المقعد وذهب إلى استراحة الأطباء فغسل وجهه وأبدل ملابسه ثم هبط إلى حديقة المستشفى، وبعد لحظات كانت عربة « جادالله » تنهب بهما الأرض فى شارع الخليفة المأمون متجهة إلى النادى .

وكانت الساعة قد بلغت الثانية والنصف عندما وصل الصديقان إلى النادى وأقبلا على مدخله الرئيسى ليجدا المقاعد قد رصت حول حوض السباحة ، ومنصة الحكام قد أعدت ، والميكروفون قد علا صوته منادياً أحد المتسابقين أو الحكام .

وتلفت « جادالله » حوله ثم اتجه إلى القاعة الشتوية المواجهة للمدخل يتبعه « مدحت » ثم دلف إلى الطرقة الزجاجية المحيطة بالنافورة .. فوجد الضيفتين تنتظران على إحدى الموائد المجاورة للحاجز الزجاجى ، ولم يبد هناك فارق كبير فى السن بين الفتاة والخالة ، وبدت الفتاة ـــ فى جملتها ـــ لطيفة .. أهم ما يميزها عينان سوداوان واسعتان ، وفم انفرجت شفتاه عن ضب خفيف ، وشعر أميل إلى الخشونة ، والخالة تقريباً من نفس النوع مع امتلاء فى الجسد ، واكتناز فى الصدر والردفين .

وجلس الجميع حول المنضدة ، وواجه « مدحت » النافذة الزجاجية المتسعة .وقد انفرجت عن النافورة وسط الحوض المستدير وقد أحاطت بها أوراق الكلة الخضر ، وزهورها النفيرية البيض ، وانبسط حولها بساط من النجيل تظلله

الكافورة العجوز الضخمة الجذع الممتدة الفروع .

وأقبل « الجرسون » ، فانشغل « مدحت » بانتقاء أصناف الغداء ، وبد شاحباً ، شارد الذهن ، ساهم البصر .

وحاولت « ميرفت » أن تستدعيه من شروده قائلة :

ـــ الحر اليوم شديد .

وأطرق « مدحت » وهو ينظر إلى أوراق شجر الكافور التى تهتز فى خفا كأنما تحركها أنفاس هادئة وأجاب فى اقتضاب :

ـــ أجل .

ـــ ألا تنوى السفر إلى الإسكندرية ؟

ـــ لم أقرر بعد .

ـــ ومتى تنوى أن تقرر ؟!

ـــ المسألة تتوقف على المرضى والعمليات .

وتدخل « جادالله » ضاحكا :

ـــ لن تسافر فى سنتك .. لأن المرضى لا يشفون .. والعمليات لا تنتهى .

وقالت « الخالة » وهى تتناول بطرف الشوكة قطعة من « الخس » الذى امتلأ به طبق السلطة :

ـــ سنسافر إن شاء الله خلال أسبوع .. لقد كنا ننوى السفر إلى أوروبا .. لكن الرجل الكبير غير رأيه واكتفى بسيدى بشر .

وقالت ميرفت :

ـــ وماله سيدى بشر !! إنى أحبه جداً .

ـــ لأنك لم ترى غيره .

ووجهت « الخالة » قولها إلى مدحت :

ـــ لقد سألنى الدكتور عبد الفتاح أن ندعوك للشاى غداً

ورفع « مدحت » عينيه المحملقتين فى أوراق الكافور .

ونظر إليها متسائلا :

ــ غداً ؟!

ــ أجل .

ــ ولكنى .. سأكون مشغولا .

ــ بعملية ؟!

ــ بعمليتين .

ــ أجلهما .

ــ العمليات لا تنتظر .

ــ من أجل مريضتك العزيزة ميرفت .

وبدا من قولها كأن « ميرفت » تعنى لديه شيئاً .. ونظرت إليه « ميرفت » نظرة راجية مستعطفة .

وأجاب مدحت قائلا :

ــ ولماذا الإصرار على أن يكون الشاى غداً .. لماذا لا يكون بعد غد مثلا ؟!

وأسرعت ميرفت تقول :

ــ ليكن .. كما تريد .

وأردفت « الخالة » مؤكدة :

ــ اتفقنا ؟!

وهزمدحت رأسه موافقاً .

وقالت ميرفت :

ــ بعد غد أفضل .. ستكون أختى « نايلة » أتت مع زوجها من السويس .. وستكون فرصة أعرفكما ببعض .

ولم يعلق « مدحت » .. ونظرت إليه « ميرفت » نظرة لم تستطع أن تخفى ما بها من إعجاب .. وأحس « مدحت » بشىء من الارتباك .

واستمرت الفتاة تقول ببساطة :

— لا تدرى كيف يقدّرك أبى .. وكيف يمتدحك .. إن الأسرة كلها باتت تعرفك .. بعد أن أنقذت حياتى .

وضحك « مدحت » مجيباً :

— أنا لم أنقذ حياتك .. إن المسألة لا تستدعى كل هذا . إنها عملية أعور .. لا راحت .. ولا جت .

— ولكن لو لم تنقذنى فى الوقت المناسب لا نفجر وأودى بحياتى .

— من قال لك هذا ؟

— كلهم .

— لا تصدقيهم ، ولا تصدقى أن أحداً يموت بالأعور أبدا .

— أنت دائما تحاول إنكار ذاتك !

— بالعكس .. إنهم يقولون عنى إنى مغرور كبير .

— لست أرى ذلك .

— وتدخل « جادالله » قائلا :

— أنت مخطئة .. إنه أكبر مغرور رأيته فى حياتى .

وأقبل « الجرسون » بصحاف الطعام .. وانهمك الجميع فى تناوله .

ودار خلال الطعام حديث عن الجو ، والإسكندرية ، والعمليات . وروى « جادالله » بضع نكات ، وتبادلت ميرفت مع مدحت بعض كلمات عن المستقبل والبيت والأولاد .. وأحس « مدحت » كأن الفتاة تطرق باب حياته .. وتستأذن فى الدخول .. وأحس بباطنه نوعاً من التردد .. فلا هو يصدّها .. ولا هو يفتح لها بابه ويأذن بالدخول .

إنه يجد فيها شيئاً لطيفاً .. ولكنه ليس لطيفاً بالقدر الذى يقيد به نفسه .. ويرضخ له مستقبله .. وحياته .. وحريته ..

والزواج فى نظره .. عملية كبرى .. لا يجد فى نفسه القدرة عليها .. فهو يبعدها دائما عن دائرة تفكيره .

وانتهى الطعام .. وقاموا متجهين إلى حمام السباحة لمشاهدة الحفلة .

وكان الحمام قد احتشد بالنظارة ، والحكام والمتسابقين ، والأجساد المرنة الملفوفة تتواثب فى الماء .. والرذاذ يتطاير .. والميكروفون يضج .. والصفير يتعالى .. وصيحات التشجيع تنطلق من جانب لآخر .

ودلف « مدحت » وأصحابه بين الصفوف واستقروا على بضعة مقاعد من ناحية حجرة الملابس تكاد تكون ملاصقة لحافة الحوض .

وفى مواجهته أسفل المظلة الكبيرة .. استقرت « نادية » وقد أحاطت بها « شلة » النادى من الصبيان والفتيات .. وبدا « صبرى » ملاصقاً لها .

ولم يكد « صبرى » يلمح الدكتور « مدحت » حتى هتف :

ـــ الله !! الدكتور مدحت . ومعاه ميرفت .

وبلا وعى سألت نادية :

ـــ ميرفت مين ؟!

ـــ بنت الدكتور عبدالحميد .. أستاذ الأشعة فى الكلية .

وصمت برهة .. ثم قال كأنما يحدث نفسه :

ـــ إذن فالإشاعة لا بد أن تكون صحيحة .

ومرة أخرى سألت « نادية » .. بلا تردد ولا تفكير :

ـــ أية إشاعة ؟

ـــ إشاعة خطبتهما .. لقد ترددت الإشاعة منذ أن أجرى لها عملية الأعور .. وكنت أنا أول من استنتجها .. منذ أن لاحظنا جميعاً اهتمامه الزائد بها .

وأحست « نادية » كأن عبئاً يطبق على أنفاسها .. ويقبض بقسوة على جوفها .

وبدا لها كأن جانباً جميلا مريحاً .. يوشك أن يُقْتَلَعَ من حياتها .

لم تكن تطمع فى شىء محدود .. وإنما كانت تبصر أملا هادياً مضيئاً يلوح لها

من بعد .. كما تلوح أضواء المرفأ للسفينة الضالة .

هذا البصيص البعيد .. الغامض .. من الأمل .. قد أخذ يبهت ، ويهتز ويتراقص .. لقد عصفت به كلمات الفتى التى ألقاها فى غير اكتراث .. حتى كادت تخمده .

ونظرت « نادية » إلى الفتاة نظرة فاحصة .. واستمر « صبرى » يردد فى لهجته غير المكترثة :

ـــ تبدو فتاة طيبة وأبوها رجل عظيم .. إنه من خير أساتذتنا .. لا شك أنه سيكون زواجاً موفقاً .. بالنسبة له ، وإن كنت أشك فى أنه هو نفسه سيكون زوجاً مريحاً .

وتساءلت « نادية » فى حدة .. كأنما الأمر يعنيها هى .. وكأنها هى التى توشك أن تكون زوجته :

ـــ ولم ؟

ـــ لأنه .. عبقرى ..والعباقرة .. لا يكونون أزواجاً صالحين .. إنه أحياناً يبدو جافاً خشن الطبع ، وأنا لا أتصور زوجة تحتمل أن زوجها يفضل عملياته ومرضاه عليها .

ـــ ومن أدراك أنه سيفضلها عليها ؟!

ـــ لأنه الآن يفضلها على نفسه وعلى راحته .

وتعالى « الميكروفون » .. فغطى على صوتيهما ، وأخذ يردد أسماء المتسابقين فى المسابقة التالية :

« تتابع » مائة متر سباحة حرة .. تيم الهليوليدو .. إبراهيم خورشيد .. صوفى تادرس .. إميليا .. محمود نازى .. تيم الأهلى ..

واستمر « الميكروفون » يردد الأسماء .. حتى وصل إلى فريق النادى ، وسمعت « نادية »اسم عصام ، وتلاه اسمان .. ثم سمعت « الميكروفون » يردد .. « منى فاضل » ستنزل بدل « تونا عبد السميع » لمرضها .

وقفزت « نادية » من مقعدها .. قائلة :

ــ غير معقول .

واندفعت « نادية » من بين الصفوف و « صبرى » يتبعها متسائلا :

ــ ما هذا غير المعقول ؟

ــ غير معقول أن تنزل المسابقة .. إنها لا تستطيع .. إنها مجنونة .. ستجهد نفسها فى المسابقة ، والدكتور حرّم عليها الإجهاد .

وأسرعت « نادية » تخوض بين الصفوف لكى تصل إلى « منى » التى وقفت فى صف المتسابقين الذين استعد أولهم على حافة الحمام .

ووصلت « نادية » إلى قرب حجرة الملابس .. عندما وجدت الطريق قد سد أمامها ، واضطرت أن تسير على الحافة الضيقة التى بين حرف الحمام والصف الأول من المقاعد .. وحتى هذه الحافة قد سدت أمامها .. بمنضدة وضعت عليها الجوائز .

وبدا على « نادية » الضيق وهى تحاول أن تصل إلى « منى » لتمنعها من النزول .

وحانت منها التفاتة إلى يسارها فأبصرت « مدحت » يجلس على قيد خطوة منها .

وأحست بارتباك شديد وهى تجد نفسها على مثل هذا القرب منه ، وزادها الارتباك ضيقاً حتى أحست بأنها توشك على البكاء .

ونظر إليها « مدحت » .. وأحس بأنها فى مأزق وأنها تريد الانتقال إلى الناحية الأخرى .

ودون أن ينطق بكلمة واحدة .. مد ذراعيه فحملها من ذراعيها كما يحمل الطفل ورفعها فوق المنضدة وهبط بها إلى الناحية الأخرى ثم جلس .. معاوداً النظر إلى المتسابقين والحديث مع « ميرفت » وكأنه لم يفعل شيئاً .

ووقفت برهة .. مشدوهة حيرى .. كأنها بها مس .

وعندما أفاقت اندفعت لتصل إلى « منى » .. وكانت « منى » قد قفزت في الماء ، وأخذت تضرب بيديها بعنف حتى تحافظ على مكان فريقها في التتابع .

(٨)

اعرفهـــا جيـــدا

كانت « منى » ترقد فى فراشها ، وقد جلست « نادية » بجوارها تقلب إحدى المجلات .. وكانت الشمس قد أوشكت على المغيب ، وبشائر نسمات الليل الرطبة قد أخذت تهب من النافذة البحرية المواجهة للفراش فتحرّك ستائرها « الأورجاندى » برفق وخفة ، وعبق الياسمينة المتسلقة على حافة الشرفة الشرقية المجاورة للفراش يتصاعد إلى الغرفة فى موجات خفيفة متباعدة .

ومدت « منى » يدها فسحبت المجلة من حجر « نادية » قائلة :

ـــ أتقرئين .. أم تسرحين ؟!

ـــ الاثنين .

ـــ أراهن أنك لم تقرئى حرفاً واحداً .

ورفعت « منى » المجلة من أمامها وأردفت قائلة :

ـــ سأسألك فى الصفحة التى كنت تقرئينها .

وضحكت « نادية » وردت قائلة :

ـــ لا داعى للاختبار .. فتكسبين الرهان .

ـــ فيمَ كنت سارحة ؟

ـــ فى أشياء كثيرة .

ـــ أولها ؟!

ـــ سفرنا إلى « جرينوبل » .. الذى يصر أبى عليه .

ـــ وماذا يضايقك فيه ؟!

ـــ هل تظنين من السهل أن نترك بيتنا وأهلنا ووطننا ، ونرحل كالمهاجرين ..

إلى غير رجعة .. أو إلى رجعة بغير موعد ؟

ـــ من قال هذا ؟!

ـــ أبى .

ـــ كلام .. هو نفسه لن يحتمل أكثر من بضع سنوات . نكون قد أنهينا فيها دراستنا فى « جرينوبل » .. ويكون سخطه قد خف .. وأصابه الملل من فرنسا وعاوده الحنين إلى مصر .

ـــ وإذا استمرأ العيش هناك ؟!

ـــ غير معقول .

ـــ هبيه فعل ؟!

ـــ عن نفسى .. سأترككم عند ما أملّ .. وأعود بأول باخرة ؛ للزواج من « عصام » .. إذا لم يحضر هو قبل ذلك ليختطفنى ويعود بى .. لقد صمم على ذلك .. عند ما أنبأته بعزم أبى على السفر بنا إلى فرنسا .

وأطرقت « نادية » وبدا الحزن على وجهها ، واستطردت « منى » قائلة :

ـــ لست أدرى لماذا تحملين همّ السفر هكذا .. إننا سنغير حياتنا إلى أفضل .. هل تذكرين بضعة الأشهر .. التى أمضيناها فى « جاب ».. الفسحة والمرح ، وتسلق الجبل .. بين المياه المنحدرة .. والأشجار ؟! هل تذكرين البحيرة فى أعلى الجبل ،والبرقوق .. الذى كنا نقطعه من الشجر !! كانت حياتنا لذيذة .

ـــ إلى حين ، وليس إلى الأبد .

ـــ ومن قال إلى الأبد ؟

ـــ إذا كنت قد وجدت من يجىء ليختطفك ويعودبك ، فإنى لم أجد .

ـــ لماذا ؟أيعجزعن اختطافك .. وقد رفعك كالريشة فوق المنضدة ؟

واحمر وجه « نادية » وأحست بقلبها يدق فى عنف .. وضحكت « منى » قائلة :

ـــ لماذا يحمر وجهك هكذا كالأطفال ؟ ولماذا تحاولين إخفاء مشاعرك

عني .. إني أذكر لك كل تافهة عن حركاتي وسكناتي ، ومشاعري وأحزاني .. وأنت تكتمين عني كل شيء في صدرك وفي رأسك .. ألا تثقين بي ؟!

وهزت « نادية » رأسها في اضطراب وحيرة وأجابت :

ـــ ليست مسألة ثقة .. إني لا أجد هناك ما يستحق الذكر .

ـــ كيف ؟ .. ألا تحبينه ؟!

وصمتت « نادية » برهة وبدا عليها الشرود ، وأردفت « منى »تتساءل في إصرار :

ـــ لماذا لا تجيبين ؟ .. إنك تحبينه !

وترددت « نادية » وهزت رأسها في حيرة ثم قالت :

ـــ ليست المسألة بمثل هذه السهولة .

ـــ كيف ؟!

ـــ لا أستطيع ببساطة أن أجمع بضع أحاسيس في نفسي . لأحدد لها هذه الصفة .. لست أجرؤ على هذا .

ـــ تجرئين ؟ .. أيحتاج اعترافك بالحب .. مع كل هذا الذى تحسينه .. إلى جرأة !!

ـــ طبعاً يحتاج .. لأني لا أعرف ماهو الحب .. حتى أقول إن ما بي حب .. هل يمكن أن نسمي .. أوهامنا .. وتمنياتنا .. التي نختزنها في صدورنا ، وننفعل بها وحدنا .. دون أن يحس بها أحد .. حباً ؟

ـــ أنتِ معقدة يا نادية .. تتحدثين عن المسألة .. كأنها درس طبيعة .. أو تمرين هندسة .. لماذا لا تجيبين ببساطة : أتحبينه أم لا تحبينه ؟!

ـــ لست أدري .

ـــ قولي لي .. كل ما تحسين به ، وسأخبرك أنا .. هل تحبين رؤيته ؟ إياك أن تقولي لا .. فأنا أعرف جيداً شغفك الفجائي .. بمشاهدة « الكروكيه » .

وضحكت « نادية »وهزت رأسها بالموافقة .. واستمرت « منى » تقول :

ـــ هل تفكرين فيه ؟!

ـــ أجل .

ـــ كثيراً ؟!!

ـــ كلما سنحت لى فرصة للتفكير .

ـــ هل يدخل بينك وبين صفحات الكتب .. أعنى هل يمنعك من المذاكرة ؟

ـــ ليس دائما .

ـــ كان يجب أن يمنعك .. فأنا عندما أكون فى حالة حب لا أستطيع المذاكرة .. ما علينا .. أنت إنسانة غير طبيعية .. تحبين المذاكرة أكثر من اللازم . لنكمل الأسئلة : هل تعجبين بكل شيء فيه ؟!

ـــ تقريباً .

ـــ ما معنى تقريباً !! هل هناك أشياء لا تعجبك فيه ؟.

ـــ لا .. إنما لست أعرف كل شيء فيه .

ـــ هل هناك أشخاص .. يعجبونك أكثر منه ؟!

ـــ لا أعتقد .

ـــ أجيبيى إجابة قاطعة ، لا أو نعم ؟

وضحكت « نادية » وأجابت قائلة :

ـــ لا ...

وصمتت « منى » برهة وبدا عليها التفكير ثم قالت فجأة :

ـــ هل تتمنين أن يقبلك ؟!

وبدا الارتباك على « نادية » واحمر وجهها وأجابت كأنها تنفى عن نفسها جرماً :

ـــ بالطبع لا ...

وبسطت « منى » كفيها وهزّت رأسها فى أسف قائلة :

ـــ واحد من اثنين .. إما أنك لا تحبينه .. أو أنك مغفلة ، والأخير هو الأرجح .

ــ إنى لم أفكر قط فى أمر كهذا . لم يخطر لى ببال . إن ..

ــ إذن فأنت كما قلت .. مغفلة .. إنى أتمنى لو يقبلنى عصام ، ولولا بقية من خجل لم أستطع التخلص منها بعد ..لقبلته أنا .. على أية حال ، إذا وضعنا تغفيلك جانباً ، وجمعنا كل إجاباتك فإننا نستطيع أن نصل إلى نتيجة حاسمة .. مؤكدة .. وهى أنك تحبينه ؟!

وشردت « نادية » بعينيها من الشرفة وعبرت ببصرها أوراق الياسمينة الرقيقة المهتزة إلى السماء التى أخذت زرقتها تبهت وخيوط الغسق الرمادية تنتشر خلالها .

وقبل أن تعاود « منى » حديثها قالت « نادية » فى صوت خافت وكأنما تحدث نفسها :

ــ أنا أكره أن يكون الأمر كذلك .

ــ لماذا ؟!

ــ وددت لو أنه مجرد إعجاب بشخصيته .. وخلقه . ونبوغه ، وأغلب ظنى أن هذا هو حقيقة ما بى .

ــ ولماذا تكرهين أن تحبيه ؟!

ــ ليس هناك مبرر لهذا ، ولا نتيجة له .

ــ مبرر ؟.. ونتيجة ؟.. أتظنينه موضوع إنشاء ؟

ــ لماذا أحبه ؟!

ــ لأنك تحبينه .

ــ إنه لا يحس بى ، ولا يحتمل أن يحس بى .

ــ كيف .. ألم يحملك بين ذراعيه .. فى حفلة السباحة ؟

ــ حملنى كأنى طفلة أعجز عن العبور إلى الجانب الآخر .

ــ هذا ذنبك أنت .

ــ كيف ؟!

ـــ لأنك تتركين هذه الضفيرة السخيفة .. تتدلى حتى تصل إلى ردفيك ، وتلبسين « الفانلة » التى تمسح صدرك ، وهذا الفستان الذى يبديك كطفلة فى مدرسة .. لماذا تصرّين على هذا المظهر الصبيانى السخيف ؟! لماذا لا تفعلين مثلى ؟! إن لك صدرا أكبر من صدرى ، وردفين أملأ من ردفيّ .

ـــ ما هذه السخافة ؟! هل تظنين الحب يكتسب بإبراز الصدر والأرداف ؟!

ـــ لست أقصد هذا ، وإنما فقط أريد أن تظهرى كفتاة يمكن أن تلفت نظر رجل .. لا كصبية تضيع فى غمار صبية النادى الذين يتحتم عليهم الرحيل عندما يدق جرس السابعة ، والذى يمنعهم « هنرى » من دخول القاعة . أفهمت ؟!

ـــ لست أريد أن أجذب نظر أحد .

ـــ انفلقى .. ذنبك على جنبك .. ستظلين .. تحملقين فيه كالبلهاء وهو يلعب « الكروكيه » حتى تلطشه منك « معزة » « الكروكيه » .

ولم تطف بذهن « نادية » معزة « الكروكيه » ولكن طافت بذهنها « ميرفت » وقد جلست بجوار « مدحت » أمام حوض السباحة ، وتذكرت قول « صبرى » إنها شبه مخطوبة له .. وإنها تعتبر بالنسبة إليه « زواجة رابحة » ، وأحست مرة ثانية بذلك العبء الثقيل الذى يطبق على أنفاسها ويعتصر جوفها ، وبدا لها بصيص الأمل يهتز ويترنح ويلفظ آخر أنفاسه .

وبلا وعى أطلقت زفرة حارة وقالت فى شىء من المرارة :

ـــ لا فائدة .. إن الإنسان لا يخشى على ضياع ما لا يملك .

ـــ ولماذا لا يحاول أن يملكه ؟!

ـــ لأنه ملك لغيره .

ـــ لست أفهم !!

ـــ إنه خاطب .

ـــ من أنباك ؟

ـــ صبرى ..

— ومن تكون ؟!

— الفتاة التى كانت تجلس معه فى حفلة السباحة .

وهتفت « منى » فى دهشة :

— هذه المعزة الكرتاء .. خطيبته ؟

— كل الناس عندك معيز ؟!

— هذه حقيقة . معزة . ألم ترى ضبها وشعرها الأكرت ؟

— إنها فتاة لطيفة .

— ألم أقل لك إنك مغفلة .. هذه الفتاة تفلح فى « لطشه » وأنت قاعدة تحملقين فيه فى بله .. بضفيرتك ، و « مريلتك » وصدرك المبطط .

ولم تجب « نادية » وعادت تحملق ببصرها من خلال الشرفة فى فراغ السماء الذى تكاثفت الخيوط الرمادية فى نسيجه الأزرق .

واستطردت « منى » تقول فى حماس :

— لو كنت مكانك لما احتمل منى أكثر من بضعة أسابيع .

التفتت « نادية » إليها وتساءلت فى لهجة يائسة ساخرة :

— ماذا كنت ترينك فاعلة ؟!

— أولا .. أكف عن الجلوس خارج الملعب واستراق النظر إليه ، وأنزل إلى الملعب لألعب معه .

— بلا معرفة !!

— هل تظنين كل الذين يلعبون فى معلب « الكروكيه » لهم معرفة .. إنهم ينزلون للعب ثم يتعارفون ويصبحون أصدقاء .. فلماذا لا تفعلين مثلهم ؟

وتساءلت « نادية » فى لهجة حالمة :

— ألعب معه « الكروكيه » ؟

— ولِمَ لا ؟ جزّى هذه الضفيرة ، والبسى البلوزة الديكولتيه اللبنى ، والجيب الرمادى الضيق ، وانزلى الملعب .

ومضت فترة صمت .. تخيلت « نادية » خلالها نفسها وقد وقفت بجوار « مدحت » فى ملعب الكروكيه ، وسارا معاً يتحدثان بلا كلفة ، وهى تضرب الكرة وهو يعجب بضرباتها .

وفجأة هتفت يمنى فى خذلان شديد :

ـــ ولكنى لا أعرف لعب الكروكيه ؟

وصاحت « منى » فى دهشة :

ـــ يا غبية .. إن ثلاثة أرباع الذين يلعبون الكروكيه لا يعرفون كيف يلعبونه . بل ثلاثة أرباع الذين يعملون أى شيء لا يعرفون كيف يعملونه .. انزلى والعبى ، ولا تخشى شيئاً .

ومضت فترة سرحان بنادية ، قبل أن تسألها « منى » قائلة :

ـــ ها .. اتفقنا ؟

وأطلقت « نادية » زفرة يأس أخرى وأجابت :

ـــ أنا لا أحب هذه الطريقة ، ولا أجيدها ؟

ـــ إية طريقة ؟!

ـــ طريقة لفت الأنظار .. ووضع الخطط .. ومطاردةالغير .. ثم .. هبى أنى أفلحت فى أن ألعب معه الكروكيه .. هل تظنين كل الذيين يلعبون معه إحباءه ؟

ـــ أنت وشانك .. ابقى عاجزة كما أنت .. هل تستطيعين أن تخبربنى كيف استطاعت هذه « المعزة » الكرتاء .. أن تجذبه أليها ، وتجعله يخطبها ؟ة

ـــ لقد عمل لها عملية أعور .

وأجابت « منى » ضاحكة :

ـــ انتهينا .. دعيه يعمل لك عملية أعور أنت الأخرى ، ما دام لا يطب إلا بالعمليات .

وردت عليها نادية مؤنبة :

ـــ أنت عابثة .

وأجابت « منى » فى لهجة جادة :

ــ أبداً والله .. لو كنت مكانك .. لما تركته يفلت منى أبداً ، ولو أدى الأمر .. إلى العملية .

وصمتت « منى » برهة كأنها تفكر فى شىء ثم هتفت فى ثقة :

ــ هل تحبين أن أحضره لك الآن ؟!

ــ كيف ؟!

ــ هاتى التليفون وابحثى عن رقمه فى الدليل .

ــ ماذا ستفعلين ؟

ــ ألست مريضة ؟..

ــ أجل .

ــ سأستدعيه للكشف علىّ .

ــ أمجنونة أنت ؟! إن لك طبيباً يعالجك ، وما حدث لك من تعب نتيجة إجهاد نفسك فى السباحة ، وقد سبق أن حذرك من هذا .. فبأى حجة تطلبين طبيباً آخر ، وجرّاحاً .. للكشف عليك ؟!

ــ سأقول إنى شعرت بمغص شديد .. وخفت أن تكون نوبة أعور .. فطلبت الدكتور مدحت الذى نعرفه فى النادى .

ــ ولماذا لم ننتظر حتى يحضر بابا أو ماما ؟!

ــ أنتظر حتى ينفجر الأعور ؟! هاتى التليفون بسرعة ، قبل أن يحضر أحد .

ــ وعندما يأتى ولا يجد بك شيئاً ؟!

ــ أقول إن المغص انتهى .. أهى مشكلة !

ــ وإذا وجد بك شيئاً ، وأصر على حملك إلى المستشفى ، وأجرى لك عملية ، وأطار نصف ما فى جوفك كما يفعل بمرضاه ؟

وصمتت « منى » وبدا عليها الوجوم وقالت :

ــ هذه هى المشكلة .

ولكنها ما لبثت أن أردفت ضاحكة :

ـــ إذا نوى هذه النية السوداء .. فتذهبين أنت .. ألست تحبينه ؟! ألا تضحين فى سبيله . بأعور ؟! إنها ستكون فرصة العمر .. تصوّرى نفسك راقدة ، وهو يجس نبضك ، ويكشف على صدرك ، ويضع كفه على جبينك ، وتصورى أنه يروح ويغدو حولك ، ولا عمل له إلا الغيار لك والسؤال عنك والاطمئنان عليك .. ماذا تريدين أكثر من ذلك ؟! ستغادرين المستشفى وفى إصبعك خاتم الخطوبة ، ورحم الله « المعزة » الكرتاء .

وصمتت لحظة تمالكت خلالها أنفاسها ثم أردفت فى نصيحة الأم :

ـــ أسرعى بالتليفون .. قبل أن يطير منا .

ولم تتحرك « نادية » وإنما تحرك ذهنها .. ليتخيل كل ما قالته « منى » .. هى راقدة .. فى فراشها ، ومدحت يقف بجوارها .. يمسك رسغها ويتحسس جبينها بكفه الكبيرة .

أى رقدة .. يمكن أن تكون أحب إليها من هذا !؟ لماذا لا تمرض ، حتى تستمتع بجواره ، وتمسك يده !؟ إنها أحست أنها تطير عندما رفعها بين يديه !. لماذا يبخل عليها الله بنعمة المرض .. الذى يهيئ لها السبيل إليه .

وصاحت بها منى :

ـــ لماذا لا تتحركين ؟! إذا لم تأتى بالتليفون سأنهض أنا لآتى به .

وأفاقت « نادية » من أحلامها ، ونظرت إلى « منى » وقالت فى لهجة خليط من اليأس والمرارة .. والسكينة والقناعة :

ـــ لا يا منى ، كونى عاقلة ، ليس هذا مجال عبث ولهو .

وهزت « منى » رأسها وقالت :

ـــ أنا مالى . لقد حاولت أن أمنحك الفرصة ، فرفضتها .

ـــ نحن لا نستطيع أن نتيح لأنفسنا فرصاً .. إنها تتاح لنا ، ونحن نقتنصها .

ـــ أنت عاجزة ؟!

ـــ ربما .

وسمع وقع أقدام مزدوجة فى الخارج .. استطاعت كل منهما أن تميز فيها أقدام بيهما وأمهما .

ودخل الاثنان الحجرة ، وجلست الأم بجوار « منى » على الفراش . وضمتها ليها فى حنو ، وجلس « الأب » على مقعد بجوار « التسريحة » قائلا :

ـــ كيف حالك يا منى ؟!

ـــ الحمد لله .

ـــ نريدك أن تشدّى حيلك . حتى لا تؤخرينا عن السفر !

وسألت نادية :

ـــ هل تقرر السفر ؟

وأجاب الأب :

ـــ أجل .. لقد وصل الرد من « جرينوبل » بالموافقة وسنسافر فى أقرب فرصة .. غداً سأعد جوازات السفر .. وأسأل عن مواعيد البواخر .

ومن جديد .. عادت « نادية » تحس بذلك الشىء الثقيل يطبق على أنفاسها ويعتصر جوفها .. وبدت لها الذبالة التى كانت تتراقص .. قد خبت تماماً .

لم يعد هناك من أمل ..

حتى تلك الوسائل العابثة الصبيانية التى اقترحتها « منى » ، لم يعد إليها من سبيل .

إن « منى » تأمل فى العودة .. لأن هناك من ينتظرها .. ويعدها لو تأخرت أن يذهب ليختطفها .

أما هى فستذهب .. بلا أمل .. لأن أحداً .. لا يحس بها .. ولا يأبه لها .. ولا يعدها باختطاف .. أو حتى بتذكر ..

(٩)

ملك للغير ...

كان اليوم الأخير « لمنى ... ونادية » قبل الرحيل عن مصر ، وكانت التوءمتان قد وصلتا إلى النادى قبيل الظهر .. لتلقيا تحية وداع على الأصدقاء .

وانطلقت « منى » إلى الحمام حيث تزاحم الأعضاء .. وتعالى صياحهم حتى جعلوا من الحمام ما يشبه السوق ، وبدت « نادية » تسير الهوينى بين ممرات الملاعب الخضر فى الحديقة الكبيرة .

كانت تحس بحزن مشوب باليأس والخوف ، ولم يكن بنفسها أى إحساس بفرحة السفر التى تحس بها « منى » .

كان ألم الفرقة أغلب على نفسها ، وكانت تمعن البصر فى كل ما حولها .. كأنما تحاول تثبيته فى ذهنها .. حتى لا تبهت الفرقة صورته ، ولا يمحو البعد ذكراه .

كانت تحب كل هذه الأشياء التى تحيط بها .. هذه الأرض الخضراء ، ومجموعات الزهور ، والأشجار المتناثرة هنا وهناك ، و « الكشك » الأخضر الذى أحاطت به أدوات « الجمنزيم » ، وبوابات الشجر التى تسلقت عليها أعواد الجهنمية ، والشرفات المستديرة العريضة التى تحيط بأبنية النادى ، وملاعب « التنس » التى يعدو حولها صبية « التنس » لجمع الكرات ، وملاعب الاسكواش بلاعبيها الذين تلاحقت أنفاسهم وتصبب عرقهم، وبرج الحمام القائم فى الطريق إلى جانب الجراج الكبير .. بحمامه الأبيض الذى يقف على حافة حوض المياه الصغير ليرتشف الماء فى سلام وسكينة .

كانت تحس بكل هذا ، كأنه قطعة من طفولتها .. ومن صباها .

وكانت تحب كل من به .. عماله .. وموظفيه ..وأعضاءه .. كانوا يمثلون فى نظرها كل مظاهر الحياة .. من كد وجد ، ومرح واستمتاع ، وإحساس بالحياة .

ووسط كل هذه الأشياء والمخلوقات .. يبرز مخلوق بذاته .. ليمنح كل ما حوله قيمة ، ويجعل له معنى .

كان العبقرى .. الطويل القامة ، العريض المنكبين .. بملامحه الجادة ، ووجهه الأسمر ، وعينيه الخضراوين .. يقف وسط كل هذا .. ليخلع عليه هالة من الإشراق ، ويغمره فى فيض من الضوء .

ومرّت بملعب « الكروكيه » ، وأشار لها بالتحية الصبى الأسمر الجالس تحت الشمسية .. فردّت عليه التحية مبتسمة فى رقة .

وافتر ثغر الصبى عن ابتسامة كشفت عن أسنانه الفلجاء ، وقال وهو يقذف إحدى الكرات فى الهواء ويلقفها :

ـــ ألا تنوين أن تلعبى معنا يا ست نادية ؟

وأجابت « نادية » ضاحكة :

ـــ أنا لا أعرف كيف ألعبها .

ـــ إنها سهلة جدًا .. ستتعلمينها وحدك بمجرد النزول إلى الملعب .. ألا تلعبين اليوم ؟

وهزّت « نادية » رأسها وأجابت وهى تستمر فى سيرها المتمهل :

ـــ إن شاء الله .

وبرز العبقرى مرة أخرى .. فى ذهنها .. وقد انحنى يضرب الكرة فى دقة وإحكام .

وتذكرت قول منى : « لماذا تكتفين بالفرجة !! انزلى والعبى ولا تخشى شيئاً » !

أجل كان يجب أن تنزل للعب .. تسلم عليه ، وتتحدث إليه ، وتتناول

معه الشاى .

لمَ لا ! كل الفتيات يفعلن هذا !

أشياء كثيرة كان يمكن أن تفعلها معه ، لو لم تكتف بمجرد الجلوس والفرجة .

كان يمكن أن تمرض ، ويعودها .

كان يمكن أن تشاغله فى التليفون .

ولكن لا .. هذا عبث لا تطيقه ، ولا تقدر عليه .

ثم .. ما الفائدة فى كل هذا الآن ، والرحيل قد أوشك والفرقة قد تأكدت ؟!

وأى رحيل !! وأية فرقة !!

رحيل بلا عودة ، وفرقة بلا أمل فى لقاء .

إن « منى » تجزم بأنهم عائدون ، ولكن « منى » شديدة التفاؤل ، وهى تجد فى حياتها أملا واضحاً يبعثها على هذا التفاؤل ، ويجعل عودتهم مؤكدة .

أما هى ، فماذا يدفعها إلى التفاؤل ؟

أى أمل يمكن أن يحتم عليها ضرورة العودة ؟

حتى الأمل الوهمى .. الذى كان يجعل أمنيتها محتملة التحقيق ، قد تبدد .. بعد أن عرفت أنه غير خال ، وأن مخلوقة أخرى قد تأبطت ذراعه وانطلقت به كى تشاركه حياته .

وعادت أحاسيس اليأس والحزن تتسرّب إلى أعماقها ، ولم يخرجها من أوهامها الحزينة إلا هتاف بلغ سمعها منادياً :

ـــ هالو نادية .

وتلفتت حولها ، فأبصرت صبرى بقامته الطويلة النحيلة ومنظاره السميك وشعره القصير الجعد .

وأجابته فى رفق :

ـــ هالو صبرى .

ـــ مالك تسيرين وحدك .. أين منى ؟

ـــ أظنها ذهبت إلى الحمام .

ـــ كان يجب أن أعرف ذلك .. فقد أبصرت عصام منذ لحظة يسرع إلى هناك .

ومضت فترة صمت .. كان صبرى يسترق البصر إلى وجهها ، وهو يسير الهوينى بجوارها ، وقد أحس فى قرارته بشعور ممتع .. وبدت له الفرصة سانحة لأن يقول أشياء كثيرة .. طالما حدث بها نفسه ، وهمّ بضع مرات أن ينطق ، ولكنه لم يعرف من أين يبدأ .

ووصلا إلى الشرفة المستديرة التى تتوسطها الكافورة وبدت لهما النافورة تحيط بها زهور الكلة .. وتمهل صبرى قائلا :

ـــ أتودين الاستمرار فى السير .. أم تفضلين الجلوس ؟

ورنت « نادية » ببصرها إلى الشرفة الخالية ذات السور المنخفض الذى غرست فيه الجارونيا الحمراء .. ثم جاوزت الشرفة إلى سور الياسمين الذى يفصل الحمام عن الملاعب .. وترامى إلى مسامعها الصخب والضجيج ، وأحست أنها أميل إلى الوحدة والهدوء ، ولم تجد فى « صبرى » الرفيق المقلق الذى يمكن أن يزعج وحدتها أو يقطع الهدوء من حولها ، ووجدت فى عينيه شبه رجاء بالجلوس .. فهزت رأسها قائلة :

ـــ لنجلس هنا قليلا .. إذا شئت .

وصعد الاثنان إلى الشرفة المتسعة الخالية ، وجلسا حول المنضدة فى ظلال الكافورة العجوز .

ومرة أخرى ساد الصمت ، وتذكرت « نادية » حديث « صبرى » عن « مدحت » ، ووصفه له بالجزّار العبقرى ، وتمنت لو عاود الحديث عنه .. فقص عنه كل ما يعرفه .. لماذا لا تسأله عنه ؟

حتى السؤال لا تجرؤ عليه ؟

وانطلق « صبرى » .. ليقول شيئاً يقطع به الصمت . ويغطى

به عجزه عن الإفصاح بما يدور فى خلده ويراود أحلامه :

— لقد انتهيت من الامتحان بالأمس فقط .

— حقيقة !؟ وماذا فعلت ؟

— لا بأس ، ولو أنها ضربت لخمة فى الجراحة .. كدت أضيع .. لولا ستر من الله ، ومن الدكتور مدحت .

وتيقظت حواس « نادية » وتحوّل تراخيها فى الإنصات إلى اهتمام شديد ، ورفعت إليه عينيها كأنما تطلب منه الشرح .

ولما صمت « صبرى » عادت تستحثه قائلة :

— ماذا فعل الدكتور مدحتَ ؟

— لقد عاوننى كثيراً .. إنه يبدو شرساً قاسياً ، وكل الطلبة كانوا يخشون الوقوع فى يديه ، ولكنى لم أجد بين الممتحنين من هو أرق منه إحساساً وأشد عطفاً .

— ولكنه يبدو شديد التجهم .

— إنها قشرة زائفة يكسو بها رقته وفرط إحساسه .. هل تصدقين أننى ضبطته مرة فى حجرته ، وهو يغنى .

وضحكت « نادية » .. وأحست بمتعة فى السماع عنه .. وتساءلت فى دهشة كأنما سمعت نبأ عجيباً :

— يغنى ! .. ماذا كان يقول ؟

— أظن الجندول .. أو الكرنك .. أو شيئاً من هذا القبيل .

— و كيف يقضى أوقاته فى المستشفى ؟

وأحست « نادية » كأنما قد كشفت بسؤالها عن نفسها ، فأسرعت تقول :

— أعنى كيف تقضون أوقاتكم فى المستشفى ؟

— بين فصول الدراسة .. وغرف العمليات ، وعنابر المرضى .. تصوّرى أنى منذ يومين حضرت عملية مع الدكتور رمزى ، وأنى ....

وأحست « نادية » أن الحديث قد بدأ يضل الطريق ، وأنه قد ابتعد عن محوره الرئيسى .. فانتظرت حتى سنحت لحظة وقف ، وقالت وكأنها تسأل سؤالا عابراً :

— وخطيبة الدكتور مدحت .. كيف حالها ؟

— خطيبته ؟!

— أجل .. الفتاة التى كانت تجلس معه فى حفلة السباحة .

— ميرفت .. بنت الدكتور عبد الفتاح ؟

— أظنها هى .. ألم تقل لى إنها « خطيبته » .

— قلت إن هناك مشروعا فى خطبة ، وإنها زواجة « لقطة » بالنسبة له .

— وماذا تم فى المشروع ؟

— لا أحد يعلم .. إننا لا نراه إلا فى العمليات .. أوفى النادى ، وقد تكون المسألة مجرد إشاعة .

وأحست « نادية » بشىء من الراحة ، وبدا لها بصيص الأمل ، وقد عاد يتراقص .

ولكن ما فائدته ؟! اشتعل أم خبا ، وهى على وشك الرحيل !

إنه مجرد إحساس مريح .. أليس لها الحق فيه ؟ أم يتحتم عليها أن ترحل وملء نفسها الأسى واليأس ؟

وعاود « صبرى » محاولاته فى طرق باب الحديث الذى لم يفلح بعد فى طرقه .

قال متسائلا :

— متى تسافرون إلى الإسكندرية ؟

ورفعت « نادية » حاجبيها فى دهشة وقالت :

— إسكندرية !؟ . سنسافر غداً إلى فرنسا .

وفغر « صبرى » فاه ، وصاح فى يأس :

ـــ غداً !! غداً !!

ـــ أجل .. غداً .

وأطرق « صبرى » برأسه فى حزن ،وتمتم قائلا :

ـــ هذه إذن زيارة وداع ؟!

ـــ أجل ، وداع .. لكل الأعزاء الذين عرفتهم .

وأحس « صبرى» بشىء من العزاء ، وهو يحس أن الوادع قد شمله ، وأنه من بين الأعزاء .

وتساءل فى صوت خافت :

ـــ وأنا بينهم ؟

ـــ طبعاً

ـــ ومتى تعودين ؟

ـــ من يدرى .

ـــ بعد انتهاء الدراسة ؟

ـــ ربما .

وران السكون .. إلا من حفيف أوراق الكافورة وزقزقة عصفور يتواثب على فروعها .

وشرد « صبرى » ببصره فى الملاعب الخضر المترامية وعاد يقول كأنما يحدث نفسه :

ـــ وربما لا تعودين ؟!

وشردت « نادية » ببصرها فى نفس الناحية ، ولكن فى اتجاه أكثر تحديداً .. وبدا لها الشبح الطويل ، العريض المنكبين ، يتحرك فى أحد ملاعب « الكروكيه » ، وأجابت على سؤال « صبرى » فى لهجة ملؤها الأسى :

ـــ أجل ..

وعاد « صبرى » يقول فى همس المحدث نفسه :

— حتى هذا البصيص من الأمل .. الذى كنا نحوم حوله .. ولا نعرف كيف نقربه .. قد نأت به ريح الفرقة إلى غير رجعة .

وبدت الكلمات التى نطق بها « صبرى » غير غريبة على نفسها ، ورفعت إليه عينيها تستعيد ما قال .

وهزّ « صبرى » رأسه وقال فى لهجته الخافتة :

— هذه أشياء أظنك لم تعرفيها بعد .

وهمت « نادية » بأن تقول : « بل أعرفها جيداً » .. عندما أبصرت « منى » تندفع من باب الممر المؤدى إلى القاعة الشتوية وقد تبعها « عصام » بثيابه الكاكية .

وصاحت بهما « منى » ضاحكة :

— ما شاء الله .. أنتما هنا فى مناجاة حارة .. وأنا أبحث عنك فى كل أنحاء النادى !!

وقال عصام معقبًا :

— مناجاة مع صبرى ؟. غير معقول .. قيس ينطق ؟

ورفعت « منى» يديها مطبقة فى وضع مناجاة .. وهتفت قائلة :

— بربك هل ضممت إليك ليلى .. قبيل الصبح ؟

وقاطعتها « نادية » ناهرة :

— منى .. كفى عبثاً .

ثم نظرت إلى الساعة فوجدتها جاوزت الثانية عشرة .. فتساءلت :

— متى تنوين العودة إلى البيت ؟!

— مازال الوقت مبكرا . ماذا يغريك بالعودة إلى البيت ؟!

— أشياء كثيرة لا بد أن ننهيها .

— مثل ؟!!

— حزم بقية الحقائب .

— لقد حزمت كل حقائبى .

ـــ ومساعدة ماما فى إعداد الأثاث .

ـــ ولماذا نعدّه .. مادمنا سنتركه لعمتى كى تؤجره ؟

ـــ على أية حال لا بد لنا من العودة للغداء .

ـــ مازال الوقت مبكراً على الغداء .. ثم لماذا لا نتغدى فى النادى !.. إن عصام .. يدعونا للغداء !.

وعقب عصام مؤكداً :

ـــ أجل .. ونذهب بعد ذلك إلى سينما ريفولى .

ـــ فكرة مدهشة .

ونظرت إليهما « نادية » فى دهشة :

ـــ ما هذا الهذيان!.. غداء.. وسينما !! أنت تعرفين أننا سنبحر غداً .. فى الظهر ، وأننا سنظل طول اليوم والغد فى الاستعداد للسفر ، وأن عمتك وبقية أقاربنا سيتناولون الغداء معنا اليوم .. وبعد هذا تقولين نتغدى فى النادى ونذهب إلى السينما ؟..

ـــ دائماً تعقدينها .

ـــ وأنت دائماً ..

وقاطعها عصام قائلا :

ـــ انتهينا لا داعى للعراك . سنجلس سوياً حتى الغداء . ثم أوصلكما إلى البيت .. وغداً سأذهب إلى الإسكندرية لتوديعكما على الباخرة .. ما رأيك . ياصبرى .. هل تأتى معى ؟

ونظر صبرى إلى نادية قائلا :

ـــ إذا لم أضايق نادية .

وردت نادية :

ـــ بالعكس .. إنى أحب أن أراكما دائما .. وسأشعر أن هناك من يهتم بنا .. عند الرحيل .

ومرة أخرى .. شرد بصرها فى الملاعب الخضر .. وبدا لها الشبح الطويل لعريض المنكبين .. وكأنه يلوح لها بيده مبتسما ويهتف بها :

ـــ سنأنتظرك دائماً .

حمداً لله .. على أوهامنا .. إنها لا تحرمنا بقية أمل .. وبقية عزاء ..

(١٠)

قبيل الرحيل ...

كانت الساعة قد بلغت الثانية عند ما أقبلت « نادية ومنى» من النادى .

وكان البيت يبدو أجرد عارياً .. وقد طويت سجاجيده ، ونزعت فرشه ، وبدت « الأم » فى حركة دائبة بين الحقائب و « الدولاب » .

وعلى مقربة منها جلست العمة « زكية » .. وقد شردت كل منهما فى وادى أفكارها .. لا يجمع بينهما إلا بضع كلمات تتبادلانها بين آونة وأخرى .

وقالت « العمة » وهى تنظر إلى الحقائب التى كدست بها الملابس والمفروشات :

— ما هذا كله ؟! ما الداعى لأخذ كل هذه الأشياء ؟

ونظرت إليها « لورا » وأجابت وهى منهمكة فى ترتيب « البطانيات » :

— وما الداعى لتركها ؟

— لأجل السكان الذين سيستأجرون البيت .

— لا بد أن تكون معهم أغطيتهم .

— إذا كنت تخشين عليها ، فلماذا لا تغلقين عليها أحد الدواليب بدل أن تحملوا أنفسكم كل هذه الأثقال .. إنكم تبدون كأنكم راحلون بلا عودة !

— جائز .

— فال الله .. ولا فالك .. لماذا تقولين هذا ؟

— لست أنا التى تقول .. إنه أخوك .

— لاتصدقيه .. هل تظنين أنه يستطيع أن يهجر أهله وبلده إلى الأبد ؟

— لماذا لا تسألينه ؟

ــ هل تحبين له أنت هذا !

ــ أنا أحب له كل ما يحب .. وعلى استعداد لأن أفعل كلما يريد ، وأن أتبعه إلى حيث يشاء .

ــ وأنا لا أظن سفركم إلا انفعال غضب .. وما أظنكم إلا عائدين عما قريب بمجرد أن تهدأ حالته ، وتستقر نفسه .

ــ أرجو هذا .. أنا شخصياً لا يهمنى البقاء هنا أو هناك ما دمت مع زوجي وأولاوى .

ودخلت « نادية ومنى» ..وأقبلت نادية على عمتها تصافحها .. فضمتها « العمة » وقبلتها قائلة :

ــ أهلا نادية .. ستوحشينا يا حبيبتى !

ومرت « منى » بالعمة فهزت رأسها قائلة :

ــ « بونجور تنت » .

وهزّت «العمة» رأسها ومصمصت بشفتيها .. مستنكرة طريقة « منى » فى التحية .

ونظرت الأم إلى « منى » مؤنبة وقالت :

ــ سلّمى على عمتك .

ــ سلمت .

ــ سلمى جيداً .. كما سلمت نادية .

ومدت « منى » يدها بنفور إلى عمتها ، فهزتها « العمة » قائلة :

ــ نحن لسنا قدر المقام يا ست منى .. أنت لا تحبيننا لأ ننا بلدى !

ــ أنا لا أحب .. من لا يحبنى .

ــ ومن قال إنى لا أحبك ؟

ــ لقد قلت عنى إننى بنت « فاسدة » .

وضربت « العمة » بيدها على صدرها قائلة فى دهشة :

ـــ أنا؟! أنا قلت هذا عنك ؟!

ـــ وقلت أيضاً .. إن تربية أمي أفسدتني .. وقلت « اكفى القدر على فمها » .

ـــ أنا قلت هذا !! أعدم عينى .

والتفتت الأم إلى « منى » ناهرة وصاحت بها :

ـــ ما هذا الذى تهرفين .. أمجنونة أنت !؟

وأجابت « منى » فى إصرار :

ـــ وأنا مالى .. إن كانت قد قالت هذا .

وهزت « منى » كتفيها واتجهت إلى حجرتها .. واستمرت الأم تقول معتذرة :

ـــ لا يضايقك كلامها .. إنها بنت مجنونة .. إنها ... وقاطعتها العمة قائلة :

ـــ لا تحدثينى عنها .. إنى أعرفها جيداً .. إن نادية هى بنتنا .

وردت نادية معلقة :

ـــ إن منى طيبة يا عمتى .. إنها تحبك ، ولكن لا تستطيع التحكم فى لسانها .

وتبعت نادية منى إلى حجرتها وهى تقول لها مؤنبة :

ـــ ما هذه السخافة .. التى قلتها !

وأدارت « منى » وجهها إلى « نادية » ونظرت إليها متحدية وهى تقول :

ـــ ألم تقولى لى أنت ذلك ؟!

ـــ طبعاً قلته .. ولكنى لم أتوقع قط أن تقوليه لها .

ـــ ولماذا .؟ لماذا لا أواجهها به حتى تكف عنه . إنى لا أحبها لأنها مخلوقة مرائية .. إنها تكره أمى .. رغم ما تحاول إظهاره لها من المودة .

ـــ يا منى .. نحن لا نستطيع أن نواجه كل الناس بمساوئهم ، يجب أن نتغاضى عنها .. وإلا تحتم علينا أن نعيش بمعزل من الناس .

ـــ انتهينا .. سنسافر من الغد ، ولن نرى لها وجهاً .. لعدة سنوات .. هذه

إحدى محاسن السفر .

وجذبت « منى » حقيبتها من أسفل الفراش .. وأخذت تقلب فيها قائلة :

ـــ لقد نسيت مضرب « الاسكواش » فى النادى .

ـــ لا يهم .

ـــ وكذلك « الشورت » !

ـــ « الشورت » مغسول ومنشور فى شرفة حجرة السفرة .

ـــ ما زال هناك الكثير من ملابسى لم أضعه ، والحقيبة قد أتخمت وهى تكاد لا تغلق .

ـــ لا تحملى هماً .. إنى أستطيع أن آخذها فى حقيبتى .. فمازال بها متسع .

وجلست « منى » على حافة الفراش وقد واجهت مرآة التسريحة، وأخذت تنظر إلى وجهها وجسدها وهى تخلع حذاءها بطرف أصابع قدميها .

ووضعت يدها عند معدتها وهى تحس بقرصة الجوع .. وصاحت بأمها فى الحجرة الأخرى :

ـــ الأكل يا ماما .. جعانة .

ووصل صوت أمها من الحجرة الأخرى يجيب :

ـــ اصبرى قليلا حتى يحضر عمك سليمان وأبوك وسنأكل كلنا سوياً .

وعادت منى تتساءل :

ـــ ماذا سنأكل ؟

ـــ بطاطس .

ـــ فقط ؟!

ـــ اذهبى إلى المطبخ . وانظرى بعينيك ما به . وكفى عن هذا الصياح .

ووثبت « منى »من مكانها على حافة الفراش واندفعت إلى المطبخ ووقفت على بابه ترقب « فاطمة» وهى تقطع الطماطم فى طبق السلاطة وتساءلت قائلة :

ـــ ماذا صنعت لنا يا « داده » ؟!

— صينية بطاطس فى الفرن .
— وماذا أيضاً ؟!
— صينية مكرونة بالباشامل .
— فى الفرن ؟
— أجل .
— وماذا أيضاً ؟
— صينية قرع عسلى .
— ما شاء الله .. هذا يعنى أنى لن أتغدى اليوم .. إنى أكره أكل الفرن .

وأشارت « فاطمة » إلى الفرن البوتاجاز وقد أغلق على الصينيات الثلاث وقالت معتذرة :

— أنت تعرفين أن عمتك وعمك سيتناولان الغداء معنا اليوم ، وتعرفين أيضاً أننا حتى الحادية عشرة كنا مشغولين فى ترتيب الحقائب .. ولم يكن هناك ماينقذنا سوى الصينيات .

— تقصدين .. لم يكن هناك ما ينقذكم سوى « التصلقة .. والكروتة » !

— الصينيات ستعجبك يا ست منى .. وخصوصاً صينية المكرونة .. لقد صنعتها ...

— وحياة أبيك « لا تتفلسفى » ... مهما عملت بها فإنى لا أحبها ، ولا آكلها .. ماذا عندك أستطيع أن آكله ؟

— عندى مخ .. أأقلى لك قطعتين ؟
— أجل .
— حالا . سأوقد « وابو الجاز » حتى يسعفنى .. لابركة لى إلا أنت ياست منى .

وكانت نادية قد وصلت إلى باب المطبخ ووقفت وراء منى تسأل فاطمة :

— من أخذالسويتر البنى من حقيبتى يا « داده » ؟

— أخذته ماما وأعطته « لأم محمد » لتغسله .

— وأين أم محمد ؟

— فى الحجرة الصغيرة تغسل بدل بابا .

وتركت « نادية » باب المطبخ وسارت فى الدهليز حتى وصلت إلى باب الغرفة الصغيرة التى تعوّدت الأسرة تناول الطعام والحلوى فيها .

وكانت « أم محمد الغسالة » قد وقفت أمام المنضدة ووضعت أمامها طشتاً صغيراً امتلأ بالبنزين ووضعت فيه إحدى بدل الأب ، وأخذت تدعك ياقتها بكفيها .

ووضعت نادية أصبعها على طاقتى أنفها وهتفت بأم محمد :

— أف .. أنا أكره رائحة البنزين هذه .. لماذا لم ترسلوها إلى « المكوجى » لينظفها ؟

— لقد عادت من عنده كما هى .

— لماذا لم ترسلوها إلى التنتلرى ؟

— ليس هناك وقت يا ست نادية .. وقد طلبت منى « ماما » أن أغسلها ، وسأنتهى حالا .

— لقد ملأت رائحة الحجرة بنزيناً .. وسنأكل الآن ..

— حالا يا ست نادية .. دقيقة واحدة .

— لست أدرى لماذا لم تغسليها فى الحمام ؟

— الحمام ملىء بالطشوت والغسيل المعصور .

وأمسكت « أم محمد » بالجاكتة ورفعتها بين يديها وأخذت فى عصرها .

وأقبلت الخادم الصغيرة « عطيات » تحمل الشوكات والسكاكين وأخذت ترصها على المنضدة قائلة :

— عن إذنك يا أم محمد .. نريد أن نجهز الترابيزة .

— سأعصر البنطلون ، وأرفع الطشت حالا .

وعادت «عطيات» إلى المطبخ لتأتى بالأطباق، وبدت آثار أقدامهاواضحة فى الأرض بعد أن ابتلت بقطرات البنزين المتساقطة حول المنضدة من رذاذ عصر الجاكتة.

وتساءلت نادية عن السويتر قائلة :

ـــ هل غسلت السويتر البنى ؟

ـــ من الصبح .

ـــ وأين هو ؟

ـــ منشور فى الشرفة .. ولا بد أنه قد جف .. لأن الشمس تضرب فيها من الصباح .

ودخلت « نادية » إلى الشرفة لإحضار السويتر .. عندما عادت « عطيات » لتحمل الأطباق لرصها على المائدة .

وكانت « منى » قد عادت إلى حجرتها بعد أن أعلنت ثورتها على الصينيات ، وبعد أن اطمأنت إلى وعد « فاطمة » بعمل المخ .. وبعد أن رأت فعلا المخ بعينيها .

ووقفت « فاطمة » أمام وابور الجاز تدفع فيه بالكباس . حتى أخرج بعض الجاز من ثقبه ، وأمسكت بعلبة الكبريت وأخرجت منها عوداً فأوقدته ، ثم أشعلت به الموقد ، وقذفت به إلى الأرض .

ولم تحس « الدادة » بما فعلت ، ولم تبصر عود الثقاب ، وهو يقع على آثار أقدام الخادمة الصغيرة الملوثة بالبنزين ، ولم تشعر بالنار تسرى وراءها كالأفعوان .. متتبعة خطى عطيات .

لم يشعر أحد بذلك التسلل الخاطف ، ولكنهم أحسوا بالحجرة الصغيرة التى كانت تسطع بها الشمس ، والتى امتلأ جوها ببخار البنزين قد هبت بها النيران فجأة فى شدة وعنف . حتى بدت الحجرة كأنها كرة ملتهبة تتأجج بالسعير .

وصرخت « أم محمد » صرخة حادة واندفعت من باب الحجرة .. وقد أحست بالنار تهب حولها .. فارتطمت بالخادمة الصغيرة التى كانت تقف بباب

الحجرة مذهولة .. وتعثرت الاثنتان على الأرض وعلا صراخهما .

واندفعت « نادية» من الشرفة على صوت الصراخ لتواجه اللهب .. وفوجئت أمامها بسد من النيران يحول بينها وبين الصرخات المتعالية من وراء النيران .

ولم تستطع « نادية» أن تدرك حقيقة ما حدث .. وبدا لها البيت كله ، وقد تأججت به النيران .. واندفعت بلا وعى تحاول اجتياز النيران لتنقذ أمها وأختها .. وهى تصيح كالمجنونية :

ـــ ماما .. منى .. ماما .. منى .

ولفحها الوهج .. وأحست بلسعته تلهب وجهها وذراعيها فتراجعت متأوهة .. ولكنها عادت مرة أخرى تحاول اجتياز النيران ، وهى تسمع صرخة أمها الحادة ، وهى تصيح : ـــ نادية ؟

واندفعت إلى النيران تحاول اجتيارها .. ومرة أخرى ،لفح وجهها الوهج وأحست بلسعته أكثر حرقة ، وأشد إيلاماً .

ومن وراء حاجز النيران سمعت صوت أمها تصيح بها فى لهفة ·

ـــ نادية .. أين أنت ؟

وأجابت نادية فى صوت مختنق :

ـــ ماذا حدث لكم ؟ أين منى ؟!

ـــ لا شيء يا نادية نحن بخير .

ـــ إنى أريد أن آتى إليكم .

ـــ قلت لك إننا بخير .. اقفزى أنت من الشرفة .

وترددت نادية برهة ، ولكنها أحست بلهب من النيران يلفحها .. وبدا لها كأن جسدها قد احترق ، وسمعت صوت « منى » يصيح بها من وراء النيران :

ـــ اقفزى يا نادية من الشرفة .. سألف لآخذك .. نحن جميعاً بخير .. إن النار لم تتعد الحجرة الصغيرة .

واستدارت « نادية» مندفعة إلى الشرفة ، لتجد « منى » تصيح بها ، وقد وقفت بجوار أمها المشدوهة وعمتها المولوله :

ــ اقفزى يا نادية .

وأحست باللهيب يطاردها .. وبالدخان يكاد يخنقها .. وأبصرت وجوه الجيران ، وقد أطلت من النوافذ تصيح بها « اقفزى» ووجدت البوابين والخدم والبقال ، وقد اندفعوا إلى الحديقة يمدون أيديهم إليها .

ولم تكن المسافة بعيدة .. فلم تتردد « نادية » فى القفز ولا سيما بعد أن أبصرت أمها وأختها أمامها بعيدتين عن النيران . وبعد أن أحست بلفح اللهيب يلسع جسدها .

وهبطت « نادية » إلى الأرض بعد أن تمزق ثوبها الذى اشتبك فى حديد الشرفة .. وتلقفتها أمها بين أحضانها .. وخرّت معها راكعة إلى الأرض ، وقد انهارت أعصابها ووهنت قواها .. وأخذت تتحسس وجهها وجسدها .. وهى تئن هامسة فى بكاء مختنق :ــ نادية .. حبيبتى ماذا بك ؟!

وضمت « نادية » أمها إليها ودموعها تنهمر من مآقيها :

ــ لا شىء .. إنى سليمة .. لقد خفت عليكم .. خفت أن يكون الحريق قد أصابكم .

وركعت « منى » بجوارها وأخذت ترقبها فى جزع ، وقد احتقن وجهها وعنقها واحترقت أطراف شعرها ومؤخر ضفيرتها ، ومدت ساقها اليمنى ، وقد بدت قدمها متورمة من التواء أصابها عند سقوطها إلى الأرض وهتفت لها مشفقة :

ــ لماذا اقتربت من النيران يا نادية ؟! لماذا لم تقفزى من الشرفة بمجرد أن أحسست بها ؟

وأجابت نادية باكية : ــ ظننت أن النيران قد أتت على البيت كله .. وخشيت عليكما أنت وأمى .. الحمد لله .. الحمد لله .

وكان الناس قد ازدحموا حول البيت واندفعوا إلى الحديقة ، و كانت النار قد استشرت وسرت من الحجرة إلى المطبخ والممر .. وكانت ألسنة اللهب قد تعالت من النوافذ وأعمدت الدخان الأسود قد أخذت تتصاعد فوق البيت .

وسمع رنين جرس المطافىء ، وأعقبه رنين عربة الإسعاف وأخذ الضجيج يتعالى والازدحام يشتد .

وفى تلك اللحظة أقبلت عربة البكباشى « سليمان » التى أفسح سائقها الطريق لعربتى المطافىء والإسعاف دون أن يدرى سليمان أين تقصد العربتان .. ولم يخطر بباله عندما رأى بوادر الزحام فى أول الشارع أن شيئاً حدث فى بيت أخيه ، ولكنه لم يكد يشق طريقه فى الشارع ويبصر أعمدة الدخان المتصاعدة من البيت حتى ندت عنه صرخة دهشة وصاح بالسائق :

ــ الله .. أسرع .. أسرع .. إن الحريق فى بيت أخى .

وهبط سليمان من العربة .. ليجد رجال الإسعاف يحملون نادية إلى داخل العربة .. فاندفع إليها صائحاً :

ــ نادية ؟! مالك يا نادية ؟

وأجابت ، وهى تهز رأسها فى استسلام :

ــ لاشىء .. الحمد لله .. لم يصب منا أحد .

ــ وأنت .. ماذا بك ؟

ــ لست أدرى .. أحس أن وجهى مشدود .. ملتهب .

واندفعت « منى » إلى أحضان عمها ، وهى تبكى :

ــ عمى سليمان .. نادية احترقت .

وربت سليمان على ظهرها :

ــ نادية لم تحترق .. إنها بخير .

ــ وكان رجال الإسعاف قد أقبلوا حاملين « أم محمد » التى أصاب الحريق ساقيها .. وتعالى صياحها .

وقبل أن تغلق عربة الإسعاف بابها قفزت إليها منى .. وهى تصيح باكية : — نادية .. حبيبتى .

وأقبلت الأم تنشج ، وهى تتعثر ، وأمسك بها سليمان قائلا :

— تعالى فى عربتى .. سنسير وراءهما .

والتفت إلى أخته زكية قائلا :

— خذى بالك من البيت .. وعند ما يأتى فاضل أخبريه أننا فى مستشفى الدمرداش .. لا تهوّلى عليه الأمر .. الحكاية بسيطة .. وقولى له إن نادية بها بعض الرضوض .

وجلست الأم بجواره فى العربة .. وقبل أن يتحرك السائق ... صاح سليمان بأخته :

— خذى بالك من فاضل جيداً .. لا تدعيه يصدم .. أنت تعرفين أنه لا يحتمل صدمات .

وأجابت العمة ، وهى تكفكف دمعها :

— حاضر .. ربنا يستر .

واندفعت عربه « فاضل » وراء عربة الإسعاف ، واندفعت المياه من خرطوم الحريق إلى باب الشرقة الذى تعالت منه .

(١١)

أمنية مطرودة

اندفعت عربة الإسعاف تشق طريقها يسبقها رنينها المنذر المتواصل ، وعندما وصلت مستشفى « الدمرادش » انحرفت يمينا فى الشارع الجانبى المفضى إلى باب الاستقبال .. تتبعها عربة « سليمان » الذى بدا عليه الوجوم والشرود ، وهو يربت على كتف الأم .. كلما تعالت أناتها .. قائلا :

ــ الحمد لله .. ربنا لطف .

وكررت الأم قولها فى لكنتها الأجنبية :

ــ الحمد لله .

وصمتت لحظة ، ثم عاودها الأنين ، وهتفت منشجة :

ــ نادية .. بنتى .

ــ إنها بخير .. ليس بها غير التواء فى قدمها .. والتهاب فى وجهها وعنقها .. سيضيع بالمراهم ، أو بالكمادات .. كل شىء سليم إن شاء الله .

واجتازت عربة الإسعاف البوابة الحديدية .

ووقفت أمام حجرة استقبال الحوادث ، وهبط عاملا الإسعاف ليحملا « المصابتين » إلى الداخل .. واندفعت « منى وأمها » وسليمان فى إثرهما .

وأجريت للمصابتين الإسعافات الأولية .. بالمراهم والضمادات ، ورقدت « نادية » فى النقالة المتحركة ، وقد غطت وجهها الأربطة البيض فلم يبدو منه سوى عينيها اللتين بدت منهما نظرة هادئة مستسلمة .

وهمس طبيب الاستقبال الشاب الذى لم يمض على تخرّجه أكثر من بضعة أشهر :

— أعتقد أنه لا بد من إجراء عملية قص لجلد الوجه .

وجزع « سليمان » من قول الطبيب .. إذ لم يخطر بباله .. من منظر وجه « نادية » ، أن الإصابة تستدعى شيئاً من هذا . لقد بدا له أن الوجه مجرد احتقان من الصهد .. لا يحتاج إلى أكثر من مرهم مهدىء .

ورد على الطبيب متسائلا :

— أترى هذا ضرورياً ؟!

— إذا كنتم حريصين على ألا يشوّه الحريق وجهها .

وأحس سليمان بشىء يلتوى فى باطنه ، وهو يحاول ألا يدع جزعه يبدو على قسمات وجهه :

— طبعاً .. طبعاً .. لا تريد أن يمسها أى سوء .. افعل كل شىء أرجوك .

— لست أنا الذى سيفعل ، سأسأل لك مَنْ من الجراحين مازال هنا . أظن الدكتور مدحت لم يغادر المستشفى بعد ، فقد كان مشغولا فى إحدى العمليات . انتظر لحظة ، سأسأل لك عنه .

وكان « سليمان » والطبيب يقفان بجوار النافذة بعيداً عن نادية الرافدة فى استسلام على النقالة ، وكان الحديث يدور بين الاثنين فى صوت خفيض لم يبلغ مسامع نادية أو منى أو أمهما .

ولم تكن واحدة منهن يدور بخلدها أن المسألة ستحتاج إلى عملية ، وكانت « الأم » تقف بجوار ابنتها ، وقد أمسكت بيدها وكأنما تنتظر أوامر الطبيب بالعودة إلى البيت .

واتجه الطبيب إلى التليفون الموضوع على منضدة فى ركن الحجرة ورفع السماعة قائلا :

— آلو .. محمود ؟ أنا حلمى .. أعطنى الجراحة .

وبعد لحظة أجابه العامل :

— الجراحة معك .

وتساءل الدكتور حلمى قائلا :

— مَنْ ؟ .. اسمع يا عباس .. من من الأطباء موجود عندك ؟! .. الدكتور مدحت .. فى حجرة العمليات . متشكر . ووضع حلمى السماعة والتفت إلى سليمان :

— الدكتور مدحت موجود فى غرفة العمليات .. أظننا نستطيع اصطياده بعد انتهائه من العيلية .

وأثارت كلمة العمليات .. فى الجو .. نذير الخطر .. وأحست الأم أن ساقيها لم تعودا قادرتين على حملها . وتشبثت بقائم النقالة حتى لا تقع

وتساءلت « منى » وقد فغرت فاها وبدا الجزع فى عينيها :

— ماذا هناك يا « أنكل » سليمان .. لماذا تريدون الدكتور مدحت ؟!

أما « نادية » ، فلم يعلق بذهنها شيء من كل ما قيل ، غير لفظين هما « الدكتور مدحت » !

لقد بدد اسمه سحابة الاستسلام التى خيمت عليها منذ بداية الحادث .. وأحست بأعصابها تشتد .. وحواسها ترهف .. و لم يعد فى جفنيها ذلك التثاقل الذى كان يطبقهما .

الدكتور مدحت .. موجود .. ؟

أجل .. محتمل جداً . أليس هذا هو مستشفى الدمرداش الذى يعمل به !!

— إن ذلك لم يطف بذهنها قط ، منذ أن أقبلت على المستشفى . إن الصدمة لم تترك لها فرصة التفكير فى هذه الحقيقة .

ومع ذلك فقد برزت أمامها فجأة .. لتنبئها أنه موجود وأنه يحتمل أن يقبل عليها بين لحظة وأخرى ، ليفعل بها شيئاً ، تحتمه إصابتها .

و لم تفكر فى طبيعة ذلك الشيء الذى يمكن أن يقوم لها به ، ولا فى مدى خطورة الإصابة التى حتمت استدعاءه ، وإنما فكرت فى الكائن ذاته .. وفى خطورة إقباله عليها .. وتوليه أمرها .

تلك أمنية طالما طافت بذهنها ، فقد كانت طريقها الوحيد إليه .. كانت

بهدوئها وانطوائها وعزلتها .. لا تجد فى أحلامها طريقا إليه سوى المرض ، والرقاد . كانت لاتجسر على الاقتراب منه إلا كمريضة ،يجس نبضها .. ويتحسس جبينها ، ويجلس إذا أمكن على طرف فراشها يحادثها فى رقة ، وينظر إليها فى حنان .

ورقدتها على النقالة . فى حاجة إلى إسعافه .. وهو على بعد خطوات منها .. وكل من حولها فى انتظار معونته .. لقد باتت الأمنية على وشك التحقيق .

ورغم ذلك .. لم تحس لها الفرحة المنتظرة .

— لم يصفق قلبها لا ستقباله كما صفق فى الأوهام .. لقد كان به شىء يثقله .

لم تكن الصورة مطابقة لما رسمته فى أوهامها .. لم يكن هناك من شبه بها .. من قريب أو بعيد .

كانت تتخيل المكان مليئاً بالزهور ، وكانت تتصور السماء من وراء النافذة الزجاجية زرقاء صافية ، تتحرك فيها الأوراق الخضر وتزقزق العصافير ، وكانت تتخيل نفسها على فراش أبيض نظيف وقد أخفت الأغطية البيض ساقيها وبدا نصفها الأعلى فى ثوبها « اللبنى » وقد أسندت رأسها إلى الوسادة وبدا وجهها نظيفاً يحيط به شعرها الذهبى المسدل على كتفيها .

والحجرة البيضاء النظيفة قد خلت إلا منه . وزهور الزنبق والداليا ، وهمساته الحلوة الحنون .. لا يقطعها سوى صوصوة العصافير المتوأثبة خارج النافذة على الفروع الخضر .

تلك هى صورة أوهامها ، كما رسمتها فى دقة وإتقان ، وكما منحتها من ألوانها الزاهية وأنطقتها بأصواتها السعيدة . وذلك هو الطريق كما خطته أحلامها ، تحيطه الزهور وتتواثب به العصافير .

فأين هى من واقعها ، الأليم المريض فى رقدتها على النقالة .. وأصوات المرضى الواردين .. على الاستقبال .. وسباب الممرضين .. وحدة الأطباء !

أين من زهور أحلامها .. قطع القطن الملوّثة بالدماء والميركيروكروم التى

كوّمت فى ركن الحجرة وعلاها الذباب ، المتواثب على أسفل الجدران السود .

وهى بقميصها الممزق الملّوث بطين الحديقة .. وهباب الحريق .. ووجهها الذى غطاه المرهم وحجبته الضمادات .

والطنين الذى يملأ رأسها ، والصراخ الذى يدرى فى مسامعها . أتلك هى صورة أحلامها !!

أذلك هو طريقها .. الذى طالما سلكته إليه فى أوهامها !

ماذا يمكن أن يرى منها ، أكثر من كتلة ضمادات وأتربة وهباب وثياب ممزقة ؟

وعندما يرفع تلك الضمادات ماذا يمكن أن يواجهه منها .

ابتسامة عذبة تكشف عن أسنانها الحلوة المنضدة البيض وعينين ضاحكتين تبرقان فى بشرتها الصافية .

وأحست برجفة تسرى فى جسدها .. وهى تسائل نفسها فى جزع :

ماذا يمكن أن يجد فى وجهها ؟

كيف أصبح وجهها بعد الحريق ؟

إنها لم تشعر بأكثر من التهاب شد جلده .. بعد أن لسعه وهج الحريق .

ولكن أيمكن أن تكون اللسعة قد تركته على حاله ؟!

لماذا إذن يطلبون عونه .. إذا لم يكن أصابها شىء !!

ومرة ثانية أحست بالرجفة تشتد . وأطبقت على أسنانها حتى تمنع صرخة كادت تنطلق من شفتيها .

أيمكن أن يكون الحريق قد شوّه وجهها .. وأن يكون القدر قد فتح لها الطريق إلى مدحت لكى تواجهه لأول مرة بوجه مشوّه !

أبعد طول التمنى .. يلقى لها القدر بأمنيتها .. فتجزع من مواجهتها ؟

إنها تجزع من أن يقبل عليها مدحت . وهى فى رقدتها تلك ، لينزع الضمادات .. ويبصر وجهها المشوّه المحترق . ليتهم لا يستدعونه .

ليتهم يعيدونها إلى البيت .. لتختبىء فى حجرتها .

وأحست « نادية » بعربة النقالة تدفع بها .. وتوالت على ناظريها أسقف الممرات الضيقة .. وسمعت وقع الأقدام تهرول وراءها . ثم أحست بالعربة تدفع فى المصعد . وبدا لها المصعد بجدرانه الحديدية ونافذته ذات القضبان المتقاطعة أشبه بسجن . وتمنت لو استطاعت أن تصيح بهم متوسلة أن يطلقوا سراحها .. ويعيدوها إلى البيت .

وسمعت صوت الطبيب يقول للممرض الذى يدفع العربة :

ـــ حجرة ٧٥ .

وعادت العربة تسير بهامرة أخرى فى ممرات المستشفى ، حتى توقفت أمام الحجرة . وفتح الباب ودفع بالعربة إلى داخل الحجرة حتى حاذت الفراش الذى توسطها ، وأحست « نادية » بسليمان ينحنى عليها ثم يرفعها بين ذراعيه ليضعها على الفراش .

ثم سمعت صوت نشيج أمها .. وأبصرت وجه « منى » ينظر إليها فى إشفاق وجزع وقد ملأت الدموع عينيه .

و لم يروعها ذلك الجزع بقدر ما روعها صوت الطبيب وهو يقول لسليمان :

ـــ سأذهب لكى أرى الدكتور مدحت لعله يكون قد انتهى من عمليته .

وسمعت سليمان يرد عليه وهو يتبعه قائلا :

ـــ آسفين لما سببناه لك من إزعاج .

ـــ لا إزعاج هناك .. كل ما أرجوه أن أعثر لكم على الدكتور مدحت .. حتى لا يترك الحريق أثراً فى وجهها .

وسار الطبيب الصغير فى الطرقة متجهاً إلى غرفة العمليات وعاد سليمان إلى الحجرة وهو يحاول أن يكسو وجهه ابتسامة يمنح بها من حوله بعض الطمأنينة .

ونهضت الأم تواجهه باكية متلهفة :

ـــ ماذا قال ؟!

— لا شيء .. لا داعى لكل هذا الانزعاج . إن المسألة بسيطة جداً .

ونظرت إليه « منى » نظرة متسائلة فى تحد :

— و لماذا يريدون إحضار الدكتور مدحت ؟ إنه جرّاح .

وهز سليمان كتفيه محاولا التخفيف من أمر الإصابة قائلا :

— من المستحسن أن يكشف على جلد الوجه .. من باب الطمأنينة .. إنها مسألة فى غاية البساطة

و لم يستطع أن يقنع أحداً بكلامه حتى هو نفسه . كان الجزع يملأ القلوب الأربعة .. الثلاثة المتحركون فى قلق ، والرابعة الراقدة فى استسلام ظاهر .. وجوفها يغلى بشتى الانفعالات .

لقد كانت أمنيتها الدائمة .. أن ترى مدحت .

فباتت أمنيتها الوحيدة .. هى ألا تراه .

وكان الدكتور « حلمى » قد بلغ باب حجرة العمليات . وأبصرت الباب يفتح على مصراعيه .. ومدحت يخرج منه بقامته الطويلة و « مريلته » البيضاء .. وقد بدا وجهه متجهماً . والعرق يتصبب من جبينه وسار بخطوات متثاقلة تنبىء عما به من كلال وإرهاق .

واقترب منه حلمى محيياً وهو يقول :

— دكتور مدحت .

— نعم !

وتردد « حلمى » برهة قبل أن يعاود النطق .. كان يحس بحالة « مدحت » المرهقة وكان يعرف استهتار مدحت بمثل هذه العمليات وضيقه بها . وكان يعرف ردوده القاسية ، ولكن خوفه على الفتاة الرقيقة الشقراء .. وإشفاقه من أن يشوّه الحريق وجهها جعله يصر على الاستنجاد به . فقال فى شبه استعطاف :

— هناك حالة عاجلة .

ونظر إليه « مدحت » فى غيظ قائلا :

ــ لقد مضت على ثلاث ساعات فى غرفة العمليات .. إنى لا أكاد أقف على قدمى .

ــ إنها حالة مهمة .

ــ ما هى ؟

ــ فتاة قد احترق وجهها .. ويخشى أن يشوّه .

ونظر إليه مدحت فى غيظ قائلا :

ــ ليشوّه يا أخى .. وأنا مالى .

ــ لا يوجد جرّاح غيرك فى المستشفى .

ــ لقد عملت أربع عمليات.اذهب إلى أحد العاطلين ، الذين يلعبون الشطرنج . ليس لدى وقت لمثل هذه العمليات التافهة .

ــ ولكنك ستنقذ بها حياة إنسانة مسكينة .. يوشك أن يشوّه وجهها .

ــ أنا لست طبيب تجميل .

ــ ولكنك تستطيع أن تنقذها .. إنها فتاة صغيرة جميلة وحرام أن يقضى على مستقبلها .

وتوقف مدحت ونظر إليه وأصداغه تلعب .. وقال فى نوع من الاستسلام :

ــ أين هى ؟

ــ فى حجرة ٧٥ .. سأدلك عليها .

ــ مالك مهتما بها كل هذا الاهتمام .. أتعرفها ؟!

ــ أبداً .. رأيتها فقط الآن فى الاستقبال وأجريت لها الإسعافات الأولية .

وتقدم «حلمى» يسبق « مدحت » إلى الحجرة التى استقرت بها نادية .. ودفع الباب يفسح له الطريق .

واقترب مدحت من الفراش بملامحه الصارمة التى بدا عليها الإرهاق .. ومد كفه الضخم فأمسك برسغ نادية يجس نبضها وهو ينظر فى ساعة استقرت فى معصمه .

وخيل لنادية أن قلبها قد تعالت دقاته حتى أوشك أن يقفز من بين أضلعها .. وتلاحقت أنفاسها وأحست أن المرئيات أمامها قد بدأت تطول وتتشابك .

وترك مدحت كفها بغير اكتراث . ولم تصدر من شفتيه لفظة أكثر من حرفين لم يعرف أحد ماذا يعنى بهما وهما « ها » .

ونظر فى امتعاض إلى كل ما حوله .. وقال لحلمى :

ـــ فك الرباط .

وأمسكت « نادية » بحديد الفراش وهى تحس بشىء يثقل جوفها ويسد حلقها .. وكادت تصيح به :

ـــ لا أريد شيئاً من أحد .. اذهبوا إلى البيت لا تكشفوا وجهى .

وتقدم حلمى ومد يده إلى الضمادات التى غطت وجه نادية .. وهـمّ بفكها .. عندما فتح باب الحجرة فجأة وأطل منه أحد الممرضين ثم قال لشخص يقف خارج الباب :

ـــ أجل .. إنه هنا .

واختفى وجه الممرض . واندفع بدله وجه آخر يهتف بمدحت :

ـــ دكتور مدحت .. المريض المصاب بمعدته قد حدث له نزيف .

وبدا الضيق على وجه مدحت . ونفخ نفخة انزعاج من أنفه وقال كأنه يحدث نفسه :

ـــ « حاجة تقرف » .

وكان حلمى قد توقف عن فك الأربطة .. وانتقلت عينا مدحت بين حلمى وبين الطارق الجديد وأخيرا قال له :

ـــ سآتى حالا .

وبدا الامتعاض على وجه « حلمى » وبقية الواقفين حول الطبيب .

وقبل أن ينسحب الطارق قال له مدحت :

ـــ اسمع يا عبد الوهاب ابق هنا .. وسأذهب أنا إلى هناك .

وأشار إلى « نادية » فى غير اكتراث قائلا :

ـــ افحص وجهها . وإذا وجدت المسألة تحتاج لعملية قص الجلد .. فقم بعملها .

وتحرك مدحت إلى الخارج بوجهه المتجهم وملامحه الممتعضة ، وأقبل الدكتور عبد الوهاب على نادية ، وهو يهز رأسه متسائلا :

ـــ أرينى وجهك .. لا تخشى شيئا .

وبدأ حلمي يفك الضمادات .. وأحست نادية .. وهى ترى كتفى مدحت العريضتين تختفيان وراء الباب .. وشبحه يغيب عن عينيها .. كأن حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهلها .

(١٢)

يوم أغبر ...

فك الدكتور حلمي الضمادات التي أحاطت بوجه « نادية » وأخذ الدكتور عبد الوهاب يفحصه .. وكان الجلد قد بدا مشدوداً منتفخاً ، والشفتان متورّمتان .. وفقاقيع بيض مليئة بالمياه قد تناثرت فى الخدين والجبين جعلت الجلد يبدو أشبه بورقة السيجارة أو البالون ، وكان لون الوجه محتقنا عدا جزء من جانب العنق أسفل الأذن اليمنى يمتد حتى الذقن ، قد بدا أسود كأنما لفحته هبة دخان .

و لم يطل فحص الدكتور عبد الوهاب حتى هزّ رأسه قائلا :

ـــ بسيطة .. أحضروها إلى حجرة العمليات .

وانهارت الأم متهاوية على أحد المقاعد وأجهشت بالبكاء .. و لم تستطع « منى » أن تطيل النظر إلى وجه « نادية » المحتقن المنتفخ ، بل أدارت عنقها ودفنت رأسها بين كفيها تحاول أن تكتم صيحات الجزع وأنات الألم .

وحاول سليمان أن يتماسك بأطراف الشجاعة والجلد فنظر إلى الأم وابنتها وقال ناهراً :

ـــ وبعدين ؟! قلنا لكم إن المسألة بسيطة .. هذا لا يصح .. عيب .

ثم هرول وراء الدكتور عبد الوهاب إلى الممر يسأله فى لهفة :

ـــ ماذا بها دكتور ؟

وتوقف الدكتور عبد الوهاب وأجابه فى لهجة مطمئنة :

ـــ الوجه ليس به ما يبعث على القلق .

ـــ ولكنه يبدو منتفخاً مبقعاً .

ـــ لا يهم .. إن ما به حرق من الدرجة الأولى ، وسأنزع عنه هذه الجلدة الرقيقة البيضاء التى كوّنتها الفقاقيع حتى تظهر له جلدة جديدة ، وحتى لا تبدو فى وجهها رقع مشوّهة .

ـــ هل سيؤلمها هذا ؟ هل ستبنجها ؟

ـــ أبداً .. لا ضرورة ألبتة .. لن تتألم كثيراً .

ـــ وهل سيعود وجهها كما كان ؟

ـــ وجهها .. أجل .. أما عنقها فأعتقد أن الحريق لا بد أن يترك به أثراً .. لقد مسته النار مساً مباشراً .. فأصابته بحرق من الدرجة الثانية .. على أية حال .. يجب أن نحمد الله أن النار لم تصبها بحرق من الدرجة الثالثة .. كان يمكن أن يقضى على حياتها .

و لم يستطع سليمان أن يقاوم تجلده وتماسكه ، فعض على شفته السفلى محاولا كبت دمعة فى مقلتيه ، واختلجت طاقتا أنفه وطرفا شفتيه .. وأحس الطبيب بانفعاله .. فربت على ذراعه وقال مطمئناً :

ـــ لا داعي للجزع .. إن المسألة خفيفة بسيطة .. وسأبذل كل جهدى لكيلا تترك أثراً فى وجهها .

ـــ متشكر يا دكتور .. متشكر جداً .

وبعد لحظة كانت النقالة تسير « بنادية » مرة أخرى متجهة إلى حجرة العمليات وقد غطى وجهها بالضمادات .. وبدت عيناها تحملقان فى سقف الطرقة .. فى استسلام ، وقد ملأ قلبها شعور بالخوف والجزع واليأس ، وهى تحس من حولها نذر الخطر .

واجتازت العربة غرفة العمليات ، وشعور الخوف يزداد بنادية .. وسليمان بجوارها محاولا أن يبتسم فى وجهها وهو يقول :

ـــ بسيطة يا نادية .. الدكتور يقول إنها عملية أشبه بقص الأظافر .. إنه يقول إنها عملية تجميلية .. ستخرجين منها بوجه رائع .. سيزول التمش الذى به .

ولم تستطع « نادية » أن تلتقط شيئاً من كلماته المطمئنة .. كانت فى حالة من الذهول جعلتها لا تكاد تحس إلا بالمنظر المخيف المحيط بها ، منظر المناضد البيض والمشارط والمقصات والمصابيح المشعة المطلة عليها من السقف كأنها أفواه مكشرة .

ومرة أخرى أزيلت الضمادات عن وجهها ، وداخلها إحساس جديد بالإضافة إلى أحاسيس الجزع والخوف واليأس.. وهو الإحساس ببشاعة منظرها وهى لا تستطيع أن تحرك شفتيها المتورّمتين المطبقتين .. وتمنت لو انتهى الطبيب بسرعة من عمله حتى يعيد ستر وجهها وإخفاءه عن العيون المتطلعة .. وكانت تحس برجفة كلما سمعت وقع أقدام مقبلة خشية أن يكون « مدحت » قد انتهى من مريضه وعاد ليجرى لها العملية .

وبدأ الدكتور عبد الوهاب العملية ، ولم تكن بالعملية السهلة .. فقد كانت أشبه بعملية السلخ ، أزال بها طبقة الجلد التى أحرقها الوهج والتى انفصلت عن الجلد فى بعض المواضع فى صورة فقاقيع امتلأت المياه .. وانزلقت عنها فى مواضع أخر كما ينزلق طبع الأطفال عن ورقته .

واستسلمت «نادية» لمبضع الجراح.. يسرى فى وجهها، بلا مخدر، إلا تخدير الصدمة المفاجئة التى تركتها ذاهلة .. مأخوذة مروّعة .

وانتهت العملية بعد أن أزيل جلد الوجه كله .. وغطى الطبيب الوجه بالمرهم ، وامتد به حتى جزء العنق الذى أصابه اللهب والذى قال عنه إنه يخشى أن يظل به أثر الحريق .. ثم أحاط الوجه والعنق بالضمادات وألصقها بالبلاستيك .

وتنفس الطبيب الصعداء وارتسمت على شفتيه ابتسامة رقيقة وهو ينظر إلى نادية قائلا :

— انتهينا يا قمورة .

وحاولت « نادية » أن تحرك شفتيها لترد شاكرة ، ولكن النطق

تعذّر عليها فربت الطبيب يدها قائلا :

ـــ لا داعى للكلام .. ستتناولين الطعام سائلا بالإبريق لمدة بضعة أيام حتى يخف الورم .. ويعود وجهك كما كان.

وابتسم الطبيب وهو يردف قائلا :

ـــ وأجمل مما كان .

ومرة أخرى عادت النقالة تشق طريقها « بنادية » إلى الحجرة وقد أخذت الأم و « منى » تهرولان وراءها فى لهفة وجزع .

وقال الطبيب لسليمان وهو يغادر غرفة العمليات :

ـــ اطمئن جداً .. لا شيء سيصيب الوجه كما قلت لك .

ـــ والعنق ؟!

ـــ لا أستطيع أن أجزم .. قد تبقى به بعض الآثار .. ولكنها على أية حال بعيدة عن الوجه .. الحمد لله أن الوجه لم يصبه الحريق مباشرة .

ـــ الحمد لله .. وماذا ستفعل لها بعد ذلك ؟

ـــ لا شيء .. غيار بعد أربعة أيام .. وغيار آخر ، ثم نزيل الضمادات ، ويعود الوجه إلى حالته .. على ألا يعرّض للشمس والهواء إلا بعد بضعة أسابيع .

ـــ هل ستبقى هنا هذه المدّة ؟

ـــ أبداً لا ضرورة ألبتة ، يمكنها أن تعود الآن للبيت إذا أردتم ، وفى موعد الغيار أحضرها لى .. أو أذهب إليها أنا .

ـــ متشكر يا دكتور .. لا ضرورة لأن تتعب نفسك . سأحضرها إليك .. فى الموعد الذى تحدده .. إنى عاجز عن شكرك .. لست أدرى ماذا كنا فعلنا لولا وجودك ومروءتك ؟

وودّع سليمان الطبيب وعاد إلى الغرفة .. فوجد « منى » والأم قد أحاطتا « بنادية » وقد خيم عليهما صمت الكآبة ووجوم الحزن والفجيعة .. وقد بدت « نادية » مغمضة عينيها وكأنها فى سبات أو غيبوبة .

ولم يجد سليمان صعوبة هذه المرة فى تكلف الشجاعة والجلد .. فقد كان يحس فى نفسه نوعاً من الطمأنينة على « نادية » .. أدخلها فى نفسه حديث الطبيب وطمأنته .

وربت سليمان كتف الأم مستضحكاً وهو يقول :

ـــ لا داعى أبداً للحزن .. إنها سليمة .. ليس بها شىء ، وسيعود وجهها كما كان .. بل لقد قال الطبيب وأجمل مما كان .

ثم نظر إلى « منى » التى بدت فى عينيها آثار الدموع .. وأردف قائلا :

ـــ وأنت يا منى .. كفى عن هذا الوجوم .. إنها عملية تجميل لا أكثر ولا أقل .. وعندما تصحو نادية .. وتعجبك العملية فلا بأس من أن تجرى لك مثلها .. لإزالة هذا النمش الذى يبدو فى أنفك .

ونظر سليمان إلى الساعة وكانت قد قاربت الخامسة وتلفت حوله فى قلق قائلا :

ـــ ألم يأت فاضل ؟!

وأجابت « الأم » وكأنما تذكرت زوجها وأقلقها عدم مجيئه حتى هـذا الوقت :

ـــ لا .. لم يأت .

ـــ عجيبة !! ولا سأل فى التليفون ؟!

وهزت الأم رأسها بالنفى .

وعاد سليمان يتساءل :

ـــ وما الذى أخره ؟! لعله لم يعرف ..

وأجابت منى :

ـــ غير معقول .. إذا كان قد عاد إلى البيت فلابد أن يعرف . أتظن كل هذا الحريق والضجيج الذى حدث يخفى عليه .

وأردفت « الأم » قائلة وقد بدا عليها الشرود والجزع :

ـــ والمفروض أنه قد عاد ليتناول الغداء كعادته .

وحاول سليمان رغم قلقه أن يبعث الطمأنينة كعادته فى نفوسهم فقال فى ثقة :

ـــ لا بد أن شيئاً ما قد شغله .. إن هناك بعض أوراق للسفر لم يتم استخراجها بعد .. فلا بد أنها أخرته .

ولم يستطع حديثه المطمئن أن يزيل القلق من نفس الأم التى عــاودت التساؤل :

ـــ إنه لم يعتد التأخر أبداً .. ترى ماذا حدث ؟

وعاد سليمان يرد محاولا إسكات قلقها .. الذى بدأ يثير فى نفسه القلق :

ـــ لا شىء .. لا شىء مطلقاً .. قد يكون مشغولا بما حدث فى البيت .

ـــ غير معقول أن ينشغل بالبيت عنا . غير معقول أبداً .

ووجد سليمان أن عذره غير معقول فعلا وصمت برهة ثم قال :

ـــ على أية حال سأعود الآن إلى البيت .

وتساءلت منى :

ـــ ونحن ؟

ـــ لقد قال الدكتور إن « نادية » تستطيع العودة الآن إلى البيت ، ولكنى أعتقد أن الأفضل أن تبقى فى المستشفى بضعة أيام حتى تتحسن قليلا ، وحتى يعمل لها الغيار الأول .

وفتحت « نادية » عينيها لأول مرة خلال المناقشة وهزت رأسها فى ضيق وبدت كأنها لا تود البقاء فى المستشفى .

وتساءل سليمان قائلا :

ـــ لماذا يا نادية لا تريدين البقاء فى المستشفى !! إنه أفضل كثيراً من البيت !

وعادت « نادية » تهز رأسها فى إصرار .. لقد كانت تريد الفرار خشية أن يعود « مدحت » ليراها .. إن الصدفة وحدها أنقذتها عندما أقبل الممرض يخبره

أن مريضه قد نزف .

فماذا ينقذها إذا عاد مرة أخرى ليراها ؟

لا .. لا .. يجب أن تغادر المستشفى فى أقرب فرصة .. وما دام الطبيب قد قال إنها تستطيع أن تغادره الآن فماذا يبقيها !

وقالت الأم وهى ترى رفض نادية البقاء :

ـــ إذا كان الطبيب لا يرى ضرورة لبقائها .. فلماذا لا نعود كلنا الآن ؟!

وأجاب سليمان فى ضيق ودهشة :

ـــ كيف نعود بها الآن ؟ هل نعرف ماذا حدث بالبيت ؟

وفغرت « الأم » فاها وصاحت فى جزع :

ـــ ماذا حدث ؟! هل احترق ؟! وفاضل ؟!

ـــ لا أقصد هذا .. لقد تركنا به رجال المطافىء .. وقد أوشكوا على إخماد الحريق .

ـــ ومن يدريك ؟!

ـــ لأنه لم يتعد الحجرة الصغيرة .. وأنا لم أقصد أننا لا نستطيع أن نعود إلى البيت لأنه احترق .. بل لأننا لا بد أن نجد هناك ضجيجاًوزحاماً .. ثم إنه ليس من المستحب أن نعود بها الآن إلى نفس المكان الذى حدثت فيه الحادثة . إن ذلك يؤثر على نفسيتها تأثيراً سيئاً .

وعادت « نادية » تهز رأسها فى ضيق .

وقالت الأم :

ـــ ولكنها تريد العودة .

ـــ وأنا أنصح بعدم العودة .. إن من رأيى أن تبقى هنا ولو هذه الليلة حتى يستقر الحال فى البيت .. لا داعى أبداً لإعادتها ، ومنظر الحادث وآثار الحريق لم تمح بعد .

ـــ إذا سأبقى أنا معها ؟!

وأردفت « منى » قائلة :

ـــ وأنا أيضاً ؟!

وأجاب سليمان :

ـــ كما تشاءان . سأعود أنا الآن إلى البيت لأرى فاضل . وأرى ماذا تم فى البيت ثم أعود إلى هنا .

وقالت الأم :

ـــ حدثنى فى التليفون بمجرد وصولك وطمئننى على « فاضل » .. أخشى أن يكون قد أصابه مكروه .

وأحس سليمان برجفة ولكنه عاد يقاوم قلقه قائلا :

ـــ يا شيخه .. لابد أنه تناول الغداء مع أحد أصدقائه .. وعندما يعود سألقاه وأطمئنه وأعود به إليكم .

ونظر سليمان إلى « نادية » وربت على يدها فى حنان قائلا :

ـــ سأذهب الآن .. هل تريدين شيئاً من البيت ؟

وأجابت الأم :

ـــ غيار لنادية .. دع فاطمة تحضره لك .. وإذا أمكن تحضر لى ثوباً وآخر لمنى .

ـــ حاضر .. لن أتأخر عليكم .

وهبط سليمان إلى الطريق ليعود بعربته إلى البيت . وفى العربة أحس كأنه قد ترك كل شجاعته وجلده بجوار الأم وابنتها فى حجرة المستشفى ، وحل به التعب الذى حاول جهده أن يشد أعصابه ويحشد قواه لمقاومته .

ـــ وبدأت الوساوس تنفذ إلى رأسه .

لماذا لم يأت فاضل ؟!

لماذا لم يسأل عن ابنته ولو فى التليفون ؟

أترى قد أصابته الصدمة بنوبة جديدة من نوبات الذبحة ؟ ربنا يستر .

ليته يكون قد دعى حقاً إلى الغداء مع أحد أصحابه .. وليته لا يعود قبل أن يعود هو إلى البيت ليلقاه .. ويخفف عليه وقع الحادث .

إن هذا يوم أغبر مشئوم .. ترى بمن اصطبح ؟ .. بأى وجه منحوس !

وتذكر « نادية » الطيبة الجميلة .. جالسة فى ارتياح أسفل الشرفة ، وقد أحاطت بها أمها وأختها .. وتذكرها راقدة فى استسلام ويأس على فراشها ، وقد غطت وجهها الضمادات فلم يبد منها سوى عينيها ، وشفتيها .

وتذكر وجهها المحتقن .. المسلوخ .

وساءل نفسه : « أحقاً .. سيعود كما كان !! »

وبدأ الشك يداخل نفسه .. وعاودته الرغبة فى البكاء من أجل الصبية المسكينة .

كيف تعيش بوجه مشوّه .. محروق !

ولكن الطبيب قد طمأنه .. لقد قال إنه سيعود كما كان .. وإلا .. فلماذا أجرى عملية القص التى أجراها !!

لا .. لا .. إنها ستشفى ، وتعود كما كانت .. إنها مخلوقة طيبة رقيقة .. والله لا يمكن أن ينزل بها هذاالعقاب .

وأدار عجلة القيادة فجأة بعد أن كاد يصطدم بعربة واقفة على جانب الطريق .

ومرة أخرى أحس برجفة .

هذا اليوم يأبى أن يمر على خير .

ليته فقط يجد فاضل سليما .

وانحرف بالعربة من الطريق الرئيسى فى شارع الخليفة المأمون .. إلى الشارع الفرعى الذى يؤدى إلى البيت .

وبدا له الطريق خاليًا.. لقد انفض الحشد الذى ازدحم فيه فى الظهيرة ، ولم يعد هناك أثر لعربة المطافىء ، ولا بدت من البيت ألسنة لهب ولا أعمدة دخان .

كان كل شيء يوحي بالهدوء والسكينة .. كأن لم يكن هناك حريق منذ بضع ساعات .

وبدا له باب البيت عندما بلغ منتصف الطريق .. لم يكن هناك شيء يوحي بشر أو ينذر بخطر ، لا شيء أبداً .. إلا عربة « فيات » صغيرة سوداء تقف أمام البيت .

ترى عربة من ؟

لعله صاحب فاضل الذى دعاه للغداء قد عاد به إلى البيت ؟

ووقف سليمان بجوار العربة .

وفجأة تذكر !

وأحس بشيء ثقيل يطبق على أنفاسه ويفرى معدته .

إنها عربة الدكتور شافعى .

الدكتور الذى أشرف على علاج فاضل عندما أصابته نوبة الذبحة الأولى .

واندفع سليمان يقفز السلم ، وهو يلهث .

يارب رحمتك .

يارب .. رفقاً بهم جميعاً .

ولم يكن الباب مغلقاً فدفعه سليمان ليجد « فاطمة الدادة » تقف على باب القاعة ، وقد بدا عليها الوجوم .

ولم تكد تراه حتى اندفعت إليه باكية كالأطفال ، وهى تصيح :

ـــ سيدى سليمان .. أين ست نادية !! كيف حالها ؟!

ولم يجب سليمان ، ووقف فى منتصف القاعة يدور بعينيه فى الأبواب وتساءل فى لهفة :

ـــ أين فاضل ؟!

وعادت فاطمة تبكى .. وأشارت له إلى باب حجرة المكتب قائلة :

ـــ إنه يرقد هنا .. إن عنده الدكتور والست زكية .

ودلف سليمان من باب الحجرة .. ليجد أخاه راقداً على الأريكة التى تعوّد النوم عليها ، وقد بدا شاحب الوجه .. مغمض العينين وقد أخذ يحرك رأسه يمنة ويسرة فى ضيق وملل .

وهتف سليمان بأخته قائلا :

ـــ ماذا به ؟ ماذا أصابه ؟

وأجابت زكية بصوت مختنق ، وهى تقاوم انفجار البكاء :

لم يكد يعلم بالحادث الذى أصاب نادية .. حتى أصابته النوبة .. وتلاحقت أنفاسه .. وصرخ ، وهو يحس أن شيئاً يتمزّق فى صدره .. وأرقدناه على الأريكة ، وأسرعنا فى طلب الدكتور .. ومنذ ذاك الوقت ، وهو على حاله تلك .

ونظر سليمان إلى الدكتور متسائلا فى جزع :

ـــ كيف حاله يا دكتور ؟!

ـــ ربنا يسلم .. لقد أعطيته إبرة منذ أن حضرت .. وأرجو أن تمر بنا الأربع والعشرون ساعة القادمة على خير .

ـــ هل هناك خطورة ؟!

ـــ إن الضغط منخفض قليلا .. ولكن الله يسلم .

وفتح فاضل عينيه ، ولم يكد بصره يقع على سليمان حتى هم بالنهوض .. لكن الدكتور أمسك به قائلا :

ـــ وبعدين .. لقد قلنا .. إنك يجب أن تستريح .. إن حياتك متوقفة على عدم الحركة والانفعال .

وتكلم فاضل قائلا فى صوت خافت :

ـــ كيف حالهم ؟! كيف حال نادية ؟

ـــ الحمد لله .. بخير .

ـــ أين هم ؟!

ـــ فى مستشفى الدمرداش .

ـــ لماذا ؟!

وتدخل الدكتور قائلا :

ـــ قلنا إنه لا داعى هناك للكلام .

وأجاب سليمان :

ـــ صدقنى إنهم بخير .. إن نادية قد لسع الوهج وجهها وقد وضع لها الدكتور مرهم .. وكان المفروض أن أحضرهم الآن معى .. ولكن كرهت أن أواجهها بمنظر الحريق ثانية وفضلت أن تبقى هناك هذه الليلة .. وقد ....

وقبل أن يتم حديثه دق جرس التليفون فى القاعة .. وأحس سليمان بمن المتحدث .. فاسرع إلى القاعة وخطف السماعة من يد « فاطمة » قبل أن تجيب :

ووصل إليه صوت الأم يتساءل :

ـــ سليمان .. أين فاضل ؟!

ـــ فاضل .. إنه .. إنه .. لقد أصابه تعب بسيط .

وقبل أن يتم حديثه سمع صرخة فى السماعة ثم أقفل الخط .

ووضع سليمان السماعة ووقف حائراً ، وقد بدت عليه أمارات الضيق والجزع .

إن خير ما يفعله هو أن يسرع إلى المستشفى ليحضرهم جميعاً .

فلعل وجودهم فى البيت بجوار بعضهم يكون على ما فيه من إزعاج .. أقدر على منحهم نوعاً نسبياً من الطمأنينة .

(١٣)

وجه غريب

مرت بضعة أيام بعد ذلك اليوم الأغبر المشئوم والبيت بمريضيه كأنـه المستشفى .. الأب راقد على الأريكة فى حجرة مكتبه يتململ فى ضيق وبجواره الأسطوانة الحديدية الطويلة التى امتد منها الخرطوم ذو القنـاع يمد المريض بالأكسجين كلما ضاق نفسه .

وفوق المكتب اختلطت زجاجات الأدوية بالكتب و« بالروشتات » . وأمام الأريكة جلست الأم على مقعد صغير ترقب المريض فى جزع وقد علق بصرها برأسه القلق وأنفاسه المضطربة .

وفى حجرة أخرى رقدت « نادية » على فراشها . وقد غطت الضمادات وجهها وبدا من خلالها طرف أنفها وقد أصابه احمرار الجلد المقشور وذهب الورم من شفتيها فلم تعد عاجزة عن النطق وتناول الطعام . ولم يكن هناك ما يؤلمها سوى الجزء الملتهب فى رقبتها وأسفل أذنها .

وكان يبدو فى عيني « نادية »استسلام اليائس .. كانت تتصاعد من شفتيها بين آونة وأخرى زفرة ألم ، تحاول جهدها كتمانها .. ولكنها تفلت منها برغمها . كانت تتمتم بشفتيها دعوات ، لا من أجل نفسها .. فقد سلمت بأمر بلواها وروّضت نفسها على قبول مصابها .. ولم تعد تملك من أجل نفسها إلا دموعاً صامتة تذرفها كلما خلت الحجرة من روّادها .. ولكن الدعوات كانت من أجل أبيها الراقد فى الحجرة المجاورة .. التائه فى غيبوبة دائمة .. لا تفيقه منها إلا صرخة حادة ، تمزق سكون البيت .. وتشق صيحته .. وتصيب أهله المتحـركين كالأشباح برجفة تهز أبدانهم ، وتشيع العجلة والاضطراب فى حركتهم الوئيدة

وخطواتهم المتسللة وأصواتهم الهامسة .

وكانت « نادية » .. ترقد مشدودة الأعصاب ، تنصت إلى كل همسة .. وتصغى إلى كل حركة .. وتحاول أن تستنتج ما يحدث .. وكانت صرخات الأب التى تتعالى عندما تصيبه النوبة .. تصل إليها ، كطعنات المدى ، أو ضربات السياط .

وعندما كانت تهدأ الصيحات .. ويسود الصمت ، كانت « نادية » تشرئب بعينيها محاولة أن تعرف ، طبيعة هذا الصمت .

وعندما يطول بها الانتظار دون أن يطمئنها أحد من أهل الدار كانت تهتف صائحة فى جزع ..

— « منى » ماذا حدث ؟!

وتقبل عليها « منى » وقد علا وجهها الشحوب وأصابها الهزال ، وتقول لها مطمئنة :

— لا شيء يا نادية .. لقد أعطاه الطبيب حقنة ، وقد نام .

وتجلس « منى » بجوارها منهارة وقد دفنت وجهها فى كفيها ، وتتمتم « نادية » وهى تحدق بعينيها فى سقف الحجرة كأنما تحاول أن تخترقه لتوصل دعواتها إلى الله :

— يارب .. يارب رحمتك .

وكان سليمان يبدو حائراً فى البيت فى جيئته وذهابه .. وهمساته مع الأطباء .. وكان يحاول أن يبدو مطمئناً .. وإن كانت أعصابه تخونه فى كل نوبة فتضطرب حركته ويحتد صوته .. ويخرج همه فى أخته زكية آمراً إياها بأن تكف عن جزعها وتوقف نهنهتها

— وبين آونة وأخرى كان سليمان يدخل حجرة « نادية » ، ليجلس بجوارها ويربت يدها فى رفق ، محاولا إدخال السكينة على نفسها ، وقد حدثها فى آخر جلسة معها قائلا فى ثقة وطمأنينة :

— كل شيء سينتهى على خير بإذن الله .. لقد أكد لى الدكتور عبد الوهاب ،

بعد أن أجرى لك الغيار بالأمس أن وجهك سيعود كما كان .. بل خيراً مما كان .

وهزت « نادية » كتفيها فى استخفاف وأجابت :

— لا يهمنى وجهى .. ليحدث به ما يحدث المهم هو أن ينجو بابا .

— سينجو إن شاء الله .. إن حالته مطمئنة .. وقد قال الدكتور إنه خلال أيام يستطيع أن يجلس فى الفراش ويتحرك فى الحجرة .

— أحقاً قال هذا ؟!

— إى والله .. وكلها بضعة أيام أخر .. ويستطيع الخروج .

— ربنا يسمع منك .

— ربنا كريم يا نادية .. وأنا واثق أنه لن يضير أحداً منكما .. لا أنت ولا فاضل .

وفى اليوم التالى أقبل الدكتور عبد الوهاب ليقوم بالغيار لنادية . واجتاز الرجل القاعة فى خطى متسللة حتى لا يزعج المريض الراقد . واستقبلته « منى » على باب الحجرة محيية وهى تقول :

— بونجور دكتور .

— بونجور منى . كيف حال نادية ؟

وهزت « منى » كتفيها قائلة :

— أنت أدرى .. كيف نعرف حالها وهى محتجبة وراء هذا الكوم من الضمادات !

وضحك عبد الوهاب وأجاب :

— صدقت .. إنها بخير .. اليوم سأزيل هذا الكوم الذى يزعجك .. لترى بنفسك أنها بخير ، ولتصدق أنى قمت بعملية تجميل .

— إذا كان الأمر كذلك .. فسأشعل فى البيت حريقاً آخر .. من أجلى هذه المرة .

— إياك .. ليست كل الحرائق مجملة .

وجذب الطبيب مقعداً وجلس بجوار « نادية » .. وقد أمسك يدها فى رفق قائلا :

— كيف الحال ؟

وبسكينتها المعتادة واستسلامها الطبيعى أجابت نادية :

— الحمد لله .

وضحك الطبيب قائلا :

— إنك تقولينها من تحت الضرس .. كأنها الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

ورفعت إليه « نادية » عينيها وتساءلت وهى تطلق زفرة حارة :

— أليس الأمر كذلك ؟

— لا أعتقد .. إنك بخير .. وسأريك الآن .

— أنا لا أقصد نفسى .

— وأبوك سيشفى بإذن الله . إن سليمان أخبرنى أن حالته لم تسؤ .. وإنه إذا لم تحدث مضاعفات .. فسيشفى بإذن الله .

وبدأ عبد الوهاب فى رفع الضمادات عن وجهها .. وبدت على وجهه علامات الرضا ، وهو يقول :

— عال .. عال .. ليس هناك أى أثر فى الوجه ، إنه سليم أربعة وعشرين قيراطاً .

ثم أخذ فى فك ضمادات العنق . وأحست « نادية » بالألم وهو ينزع عنها الضمادات .

ولم تبد على وجه الطبيب نفس علامات الارتياح التى بدت عليه عندما فك ضمادات الوجه ، وقال وهو يفحص الجلد الذى ما زالت به قروح الحريق :

— هذا الجزء سيحتاج إلى بعض الوقت .. إن إصابته كما قلت ، من الدرجة الثانية .. وقد تترك بعض الآثار .. على أية حال الحمد لله أنها لم تمتد إلى الوجه ..

سأضع عليه هذا المسحوق .. ومن الخير أن نستمر فى رباطه .

ومدت « نادية » أصابعها لتتحسس وجهها .. وأحست ببشرتها ملساء مشدودة .. ثم مدت يدها تتحسس جروح عنقها من أسفل الأذن حتى أسفل الذقن .

وقال الطبيب متضاحكاً :

ــ ها ؟! ما رأيك ، أظنها قد أضحت أنعم مما كانت ؟

والتفت الطبيب إلى « منى » التى وقفت تحدق فى أختها فى صمت وكأنما تحاول أن تتمالك وتتجلد وقال مازحاً :

ــ ما رأيك يا« منى » ؟!هل لك غرض !

ورفعت « نادية » عينيها إلى « منى » وقالت فى غير اكتراث :

ــ أرينى المرآة يا منى .

ــ لا تجهدى نفسك الآن يا نادية .. إن وجهك لم يحدث به شىء .

وقالت نادية فى إصرار :

ــ هاتى المرآة .. إنى لا أخشى شيئاً .

ورد الطبيب قائلا :

ــ ولكن ليس هناك ما تخشينه .. هاتى لها المرآة يا منى ، إن هذا أفضل نتيجة يمكن انتظارها من إصابة كهذه ، لن يكون هناك أثر للحريق إلا فى العنق كما قلت لك .

وقبل أن تتحرك « منى » لتحضر المرآة الصغيرة ، نهضت « نادية » من فراشها واتجهت إلى مرآة التسريحة .. ووقفت تفحص وجهها .

وبدا لها وجهها أحمر .. بلون الجرح الملتئم الذى أذيلت عنه قشرته .. وأحست فى أول الأمر أنها تنظر إلى مخلوقة أخرى .. وأن هذا الوجه الذى يبدو أمامها ، ليس وجهها .

ورفعت ذقنها ولوت عنقها لتفحص القروح التى به .. وأحست بالغثيان ،

وهى ترقب الجلد اللين المقروح .. وعادت مرة أخرى ترقب وجهها .. ثم أغمضت عينيها وعضت على نواجذها كأنما تكتم آهة .. ثم استدارت لتبعد عن ناظريها .. ذلك الوجه الغريب الذى بدا لها فى المرآة .

ونظرت إلى الطبيب الذى وقف يرقبها فى ألم ، وهو يقول مطمئناً :

ـــ هذه الحمرة ستزول بالطبع .. والجروح التى فى العنق ستخف .. على أية حال يمكن تغطيتها بإيشارب أو بياقة عالية .. إن هذا خير ما يمكن الوصول إليه .. الحمد لله أن لم تتعد الجروح إلى الوجه .

وتهاوت « نادية » على فراشها ، وهى تقول

ـــ الحمد لله .

ونهض الطبيب ، وقد بدا عليه الأسى وقال مؤكداً :

ـــ أؤكد لك أن البشرة ستتحسن مع الأيام... وأنها ستعود تماماً إلى حالتها الطبيعية .. فقط لا تعرضيها الآن للشمس ، أو الهواء . واجتهدى أن تغطى وجهك دائما .. بقطعة من « الشاش » أو « الفوال »

وأجابت نادية :

ـــ حاضر يا دكتور .

وأحست « نادية » أنها خذلت الرجل الذى فعل من أجلها ماوسعه .. وأنها رغم ادعائها عدم الاكترات بوجهها .. قد تركت ليأسها العنان .. فرفعت رأسها وهتفت بالطبيب :

ـــ أنا متأسفة يا دكتور .. أنا .. أنا ...

وربت الطبيب على رأسها فى حنان قائلا :

ـــ إنى أقدر شعورك .. لا داعى للأسف .. لم يكن يجب أن ترى وجهك فى المرآة .. إنه لا شك قد أزعجك .. ولكن أؤكد لك أن البشرة ستعود إلى حالتها .

ـــ وحتى إذا لم تعد إلى حالتها .. أؤكد لك أنى لن أنزعج . كل ما أريده أن

يشفى الله أبى ، هذا كل ما أرجوه .

— سيشفيه بإذن الله .. لا تنسى أن تضعى غطاء على وجهك .

— إلى متى ؟!

— أسبوع على الأكثر حتى يشتد الجلد .. وضعى هذا المرهم والمسحوق على جروح العنق .. وسأحاول أن أراك بعد بضعة أيام .

— متشكرة يا دكتور .. مع السلامة .

وقبل أن يغادر باب الغرفة التفت قائلا :

— على فكرة .. لقد سأل عنك الدكتور مدحت .

وانتفضت « نادية » وهتفت مذهولة :

— الدكتور مدحت ؟!

— أجل .. الذى كان يوشك أن يجرى لك العملية .

— سأل عنى أنا ؟!

— أجل .. لقد سأل عنك عندما علم أنى ذاهب للغيار لك .. وطلب منى أن أعتذر إليكم .. حتى لا تتهموه كما يتهمه الناس بالفظاظة .. لقد قال إنه لولا النزيف الذى حدث لأحد مرضاه .. لما تأخر عن القيام بالعملية .

وبدت « نادية » كالشاردة ، وهى تقول كأنما تحدث نفسها :

— هل قال هذا حقاً ؟!

ودهش الطبيب وأجاب :

— طبعاً قاله .. إنه ليس قاسياً كما يبدو.

واستمرت « نادية » فى سؤالها الشارد :

— وهل يعرف من أنا ؟!

وهز الطبيب كتفيه قائلا :

— لا أظن .. إنه لا يهتم بمعرفة الناس ، ولا بما يقولونه عنه ، وإنما فقط كره أن يبدو خاذلا للغير هارباً من غوثه ونجدته .

وأحست « نادية » بشيء من الخيبة .. لقد سرّها أن يسأل عنها .. ولكنها كرهت أن يسأل عنها كمجهولة .. لا يعرف عنها إلا أنها مريضة بين آلاف المرضى .. لا يعرف لها سمة ولا يذكر شكلا .

ولكن .. ماذا يحزن فى ذلك !! ألم تهرب منه ؟

ألم تخش أن تقع عيناه على وجهها المحترق وملامحها المشوّهة !! أمن الخير أن يعرفها كمجهولة !! أم يذكرها .. كوجه مشوّه .. وملامح منفرة !

ثم ماذا تأمل هى منه .. لكى تفرح لذكره لها وسؤاله عنها .. وتحزن .. لعدم تمييزه لها ومعرفته إياها .

ماذا يفرحها منه أو يخذلها فيه ، بعد أن أبصرت وجهها المسلوخ .. وعنقها المقروح .. أليس من الخير .. أن تطرده من أوهامها .. وتعفى خيالها من تصوّره والتفكير فيه ؟

أجل .. يجب أن تكون أكثر من هذا سيطرة على أحلامها .

ونظرت إليها « منى » وقد استغرقت فى شرودها الحزين وهتفت بها :

ــ نادية .. ماذا بك ؟!

وهزت « نادية » رأسها وأجابت فى يأس :

ــ لا شيء .

ــ لا يجب أن تيئسى أبداً يا نادية .. ليس هناك شيء مستحيل فى هذه الدنيا .. لا تحرمى خيالك من بقية أوهامه ، فقد تتحقق فى يوم من الأيام .

وردت « نادية » فى سخرية ومرارة :

ــ تتحقق ؟! بعد كل ما حدث ؟

ــ أجل .. إن وجهك سيعود كما كان .. وحتى إذا لم يعد .. فالحب لا يتقيد أبداً بسمات معينة.. نحن لا نحب نماذج مرسومة.. وإنما نحب سمات موجودة كما هى..نحبها لذاتها.. لا أنها تشابه شكلا معيناً.. وأنت يا «نادية».. لا يمكن أن يشوّهك شيء.. ستظلين دائماً محبوبة.. لأن الناس يحبونك أنت.. لا

ملامحك .. ولو كانوا يحبون ملامحك .. لما فضلك عنى أحد .. لأن ملامحى لا تختلف عن ملامحك .. ومع كل ذلك .. فإن ملامحك كما هى .. لم يصبها شيء .. فلماذا تثقلين على نفسك بهذا اليأس المخيف !! لماذا تسلبين نفسك فرصة الأمل !؟

ــ أى أمل يا منى ؟!

ــ أمل فى أشياء كثيرة .. ألم تذكرى قول الكاتب « إن فى بقية الزهر عزاء عن النرجس » فلماذا تحاولين أن تتمسكى بالنرجس .

وهزت « نادية » رأسها فى ضيق ويأس وأجابت :

ــ أنا لا أحاول أن أتمسك بشيء .. إن كل ما أرجوه الآن هو أن يشفى أبى .

ــ سيشفى بإذن الله .. ولكن يجب أن تشفى تماماً من يأسك .. أم تراك قد اعتدت العجز والاستسلام !

ودخل سليمان وهو يقول متضاحكا :

ــ أجل .. معك حق يا « منى » .. لقد تعوّدت العجز والاستسلام .. مع أن كل شيء يدعو إلى التفاؤل .. لقد أفاق أبو كما .. وهو يريد أن يرا كما .

وقفزت « نادية » من فراشها هاتفة :

ــ حقاً !! أهو يتحدث ؟!

ــ أجل .

واندفعت « منى » إلى القاعة وهى تهتف :

ــ بابا ..

ــ لا تصيحى هكذا أيتها المجنونة .. ادخلى على مهلك . يجب علينا ألا نعرضه لأى حركة ، أو انفعال .

وأجابت « منى » وهى تسير على أطراف أصابعها :

ــ حاضر .. لن أزعجه أبداً .

وقبل أن تغادر « نادية » الحجرة .. اتجهت إلى التسريحة وأخذت ترقب وجهها فى المرآة .

وأخذ سليمان يرقبها وهو يحاول أن يخفى تأثره قائلا :

ــ الحمد لله لم يصبك مكروه .. إن أباك يلح فى رؤيتك أنت بالذات .. ولست أدرى ماذا كنا فاعلين لو لم يرفع الطبيب الضمادات عن وجهك .. إن وجهك يبدو طبيعياً تقريباً .. وأعتقد أن من الخير لو لففت وجهك بايشارب يغطى شعرك وعنقك .

ومرة أخرى أدارت « نادية » عنقها المقروح عن الوجه الغريب الأحمر الذى يبدو لها فى المرآة .. وقالت وهى تحاول أن تكبت دمعها :

ــ هل تظن أن وجهى لن يفزعه ؟!

وأجاب سليمان وهو يغالب ألمه ويحاول التضاحك :

ــ يفزعه !! ما تظنين نفسك ؟! غولة ، أم عفريتة !! إن وجهك مازال جميلا كما هو !

واقتربت منه « نادية » فأبصر عن قرب عنقها المقروح

وأحس بشىء يعتصر جوفه ، وأردف يقول وهو يحاول التماسك :

ــ أجل .. لن يلحظ أى تغيير بك .. ولا سيما إذا لبست الإيشارب كما قلت لك .

ونظر إلى بشرتها التى تبدو حمراء مشدودة .. كالجلد المسلوخ وأردف قائلا :

ــ وضوء الحجرة الضعيف سيبدى لون وجهك على حقيقته .. أجل .. أجل .. لن يلحظ شيئاً .

وأحست « نادية » بالمرارة تسرى فى نفسها وهى تحس أنها قد باتت تحتاج إلى الظلمة حتى تبدو مخلوقة غير مزعجة ، وأنها تحتاج إلى « إيشارب » يلف وجهها .. حتى تخفى ما به من تشويه .

ومدت يدها فى سكون إلى درج التسريحة وأخرجت « إيشارب » أزرق

لفت به رأسها وأحاطت به عنقها وضمت ياقة القميص حول عنقها حتى لم يعد يبدو من وجهها إلا صفحته المواجهة .

وبخطى وئيدة متسللة .. سارت تسترق الخطى خلف عمها .. الذى دفع الباب ببطء وسكون .. ودلف إلى حجرة الأب المريض .

(١٤)

صرخات فى الليل

اقتربت «نادية » فى سكون من أبيها الراقد على الأريكة .. وكان شباك الغرفة قد أغلق فلم يسمح إلا لخيوط رفيعة من أشعة الشمس الغاربة بالتسلل إلى الحجرة ، محددة طريقها بذرات بيض ترتجف على امتداد الأشعة .

وعلت شفتى الأب ابتسامة حنون وانطلقت من صدره تنهيدة راحة وهو يرى « نادية » مقبلة عليه وهمّ فى لهفته عليها بأن ينهض بنصفه العلوى فهتف به سليمان :

ـــ وبعدين .. قلنا لا حركة .

ومالت « نادية » تقبل وجهه الهزيل الشاحب وتضمه فى حنان .. ومد ذراعه يضمها إليه ويتحسس رأسها ويتمتم فى شبه همس :

ـــ ماذا حدث لك ياحبيبتى !؟

ـــ لا شىء يا أبتى .. لا شىء أبداً .. إنى بخير .. المهم هو أنت .

وأسندت « الأم » رأسها بكفها وهى تقبع على مقعد فى ركن الحجرة وقد أحست أن الدمع يوشك أن يطفر من مقلتيها وهى ترى « نادية » وقد أحاطت وجهها بالإيشارب لتخفى قروح عنقها .. وحاولت أن تمنح صوتها لهجة الطمأنينة .

وتحدث سليمان محاولا أن يذهب عن الموقف رهبته ويمنحه بعض المرح فتضاحك قائلا :

ـــ كفى سلبطة .. أنتما الاثنان بخير ، وبعد بضعة أيام ستصبحون جميعاً

كالجن وترحلون عنا .. وتريحوننا من حوادثكم .

وهزّ الأب رأسه وهو مازال يطبق بيده على كف « نادية » وقال فى صوت مستضعف :

ـــ لا أظن أنى سأستطيع الرحيل .

وأجابت الأم فى لهجة داعية :

ـــ لا داعى للرحيل . يمنحك الله الصحة . ويحفظك لنا .

وربت سليمان على كتف نادية وقال مطمئناً :

ـــ هذه نادية أمامك .. كالحصان .. لم يكن هناك ما يدعو أبداً .. لهذه الخضة التى صرعتك .

وتهد الأب وأجاب فى صوت خافت :

ـــ لو أبصرتم ما رأيت .. لعذرتمونى .. ذلك الزحام حول البيت والدخان المتصاعد وعربة الحريق .. والبواب يهتف بى أن نادية احترقت وحملتها عربة الإسعاف .

وبدا الألم على وجه الأب .. وخشى سليمان عليه انفعال الذكرى فصاح به :

ـــ انتهينا .. لا داعى لإثارة الآلام ..إنها أمامك .. سليمة أربعة وعشرين قيراطاً .. أنت تعرف تهويل الناس .

واطلق الأب تنهيدة عميقة وقال :

ـــ الحمد لله .. الحمد لله ..

ثم نظر إلى وجه «نادية » فاحصاً وأردف يتساءل :

ـــ هل ترك الحريق أثراً بوجهك ؟

وأسرعت « نادية » تنفى قائلة :

ـــ أبداً .. أبداً لقد كانت لفحة الوهج .. أزال أثرها المرهم .

ـــ مالك إذن تتشحين بالإيشارب ؟!

وضحكت « منى » وقالت تحاول أن تجيب عن « نادية » التى بدا عليها الاضطراب :

ـــ عياقة يا بابا .. فرحانة بالإيشارب .

وقبل أن يعاود الأب تساؤله قال سليمان :

ـــ كفى هذا الآن . لقد أقلقناك . ويجب أن تستريح .. هيا بنا يا بنات . أظن أن موعد الأقراص قد حل يا « لورا » ؟

ونهضت « لورا » وهى تتنهد مجيبة :

ـــ أجل .

ومدت يدها إلى أنبوبة على المكتب فأخرجت منها قرصين وضغط الأب على كف نادية قائلا :

ـــ خذى بالك من نفسك يا حبيبتى .

ـــ أنا بخير يا بابا .. إننا نريدك أنت سليما بيننا .. ليس هنا قط ما يساويك ، ويساوى سلامتك .

ونظرت « نادية » إلى أبيها نظرة ملؤها الحنان ، وأحست بفرط حبها له .. وتمنت لو انحنت عليه لتضمه ضمة أخرى .

ولكن سليمان جذبها قائلا :

ـــ هيا بنا .. يجب أن ندعه يستريح .

وأجاب الأب :

ـــ إنى أستريح أكثر لوجودكم . لماذا تتركوننى وحدى ؟

ـــ أنت لست وحدك .. إننا معك دائما ، ولكن يجب ألا تكثر الأنفاس فى الحجرة ، وأن تريح نفسك من الكلام .

وأجاب الأب فى عصبية :

ـــ إلى متى كل هذا ؟! لقد ضقت بحياتى ذرعاً !

ـــ هانت .. لا داعى للانفعال .. كلها يوم أو يومان وتستطيع أن تجلس فى

الحجرة .. يجب عليك أن تصبر يا فاضل .. إن مرضك علاجه الراحة .. والهدوء .. هكذا قال الأطباء جميعاً .

ورد الأب فى ضيق شديد :

ـــ الراحة والهدوء !! إنى أكرههما .. إن هذه الرقدة ستقتلنى .

وحرّك ساقيه فى عصبية وضيق ، فصاح سليمان :

ـــ وبعدين .. إنك تؤخر شفاءك بنفسك .. أنت لست صغيراً يا فاضل .

وعضت « نادية » على شفتيها وهى تحس بمدى ضيق أبيها وألمه وقالت له فى حنان ورقة :

ـــ تحمل يا بابا يوماً أو يومين .. أو بضعة أيام فى سبيل شفائك .. ليتنى أستطيع أن أرقد بدلا منك .

وجذبها سليمان من ذراعها وهو يضحك قائلا :

ـــ هيا .. ستنهضون جميعاً .. ترحلون عنا ونكسر وراءكم مائة قلة .

وتساءلت منى ضاحكة :

ـــ إلى هذا الحد زهقت منا ؟

ـــ زهقت من حوادثكم .. لقد مضى علىّ أكثر من أسبوع .. لم أذق النوم الذى أغمض فيه عينى من العاشرة فلا أفتحها إلا السادسة .

ـــ عندما نرحل .. ستشبع نوماً .

وغادرت منى الحجرة تتبعها نادية ونظر سليمان إليها قائلا :

ـــ ها . استرحت ؟ اطمأننت عليه ؟ أعرفت أن المسألة لم تكن تستدعى كل هذا الانزعاج الذى أصابك !

وكان الأب قد أغمض عينيه .. وكانت خيوط أشعة المغرب التى تسللت من شقوق « الشيش » قد انسحبت تاركة الغرفة فى شبه ظلمة ، ومدت الأم يدها إلى مفتاح « الأباجورة » الموضوعة على المكتب وهى تتساءل :

ـــ هل أوقد النور ، أم يضايق عينيك ؟

وهزّ الأب رأسه فى ملل قائلا فى صوت خافت :

ـــ افعلى ما تشائين .. لم يعد يضايقنى شىء أكثر من الضيق الذى أنا فيه .

وأجاب سليمان فى نوع من الزجر :

ـــ قلت لك هانت .. إن الدكتور سيأمر بالحركة داخل الحجرة قريباً .

و لم يجب الأب .. وبدت أصابعه تشد على حافة الفراش فى عصبية وفتح فاه وازدادت هزة رأسه المتململة ، وتوترت عضلات وجهه ، فأسرعت الأم إلى أسطوانه الأكسجين وجذبت الخرطوم ووضعت القناع على وجهه ، ومد سليمان يده إلى مفتاح الأسطوانة فأداره .. وبعد برهة استرخت عضلات الأب المشدودة وبدا على ملامحه هدوء نسبى .

وأقبلت « زكية » من الباب ، فلم تكد ترى القناع على وجهه حتى صاحت فى جزع :

ـــ ماذا حدث ثانية ؟

وهتف سليمان بها :

ـــ كفى عن هذا الصياح .

ـــ لماذا وضعت هذا الخرطوم على وجهه ؟

ـــ لأن نفسه قد ضاق .

ـــ ولكنك لم ترفعه عنه إلا منذ وقت قريب .. فلماذا وضعته ثانية ؟

وأجاب سليمان فى ضيق :

ـــ لأن نفسه ضاق ثانية .

ـــ ولكن ....

ـــ زكية ... كفى عن هذه الأسئلة وتفضلى اجلسى فى القاعة .. لأننا لا نريد ازدحاماً فى الحجرة .

وأدارت « زكية » عنقها وهتفت فى غضب :

ـــ ألا أجلس مع أخى !! أأتركه وهو فى هذه الحالة !! ألست أخته ؟! كل ما أقبلت عليه تطردونى !!

وضغط سليمان على ضروسة وهو يكظم غيظه .. وقال فى حدة :

ــ زكية .. اجلسى فى القاعة وكفى عن هذه السخافات .

ــ كلكم علىّ .. ألست أولى من هذه الأجنبية برعايته ؟

ــ إنها ليست أجنبية .. إنها زوجته .

ــ إنها أجنبية مهما فعلت .. إنها هى تثيركم علىّ .

ــ إنها لم تتحدث عنك أبداً .. إن لديها من متاعبها ما يجعلها لا تحس بك .

ــ طبعاً لا تحس بى.. من يوم أن رقد.. وهى لا تنظر إلىّ إلا شزرا كأنى عدوتها.

ودفعها سليمان من الباب إلى القاعة قائلا :

ــ ليس هذا وقته يا زكية .. اعقلى .. دعيها فى مصائبها .

ــ إنها هى السبب فى كل هذه المصائب .. ماذا دعاها إلى غسيل البدلة ؟

ــ هذا قضاء الله .

ــ لو لم تغسل البدلة لما حدث الحريق .. ولو لم يحدث الحريق لما أصيب فاضل بهذه النوبة .

ــ قلت لك إن هذا قضاء الله .. ولو لم تصبه النوبة لهذا السبب لأصابته لغيره .. يا شيخة .. ليكن عندك إيمان بالله .. ادعى الله أن يشفيه .. واتركى هذا الصياح الذى لامبرر له .

وهبطت العمة على أحد كراسى القاعة وأخذت تتمتم قائلة :

ــ كانت جوازة نحس .. لو أنه تزوج رشيدة .. أو ثريا لما أصابه هذا .

سمعت « منى » حديثها وهى تجلس فى حجرتها على حرف الفراش أمام « نادية » فوثبت من مكانها قائلة فى ضيق :

ــ أتسمعين يا نادية ما تقول ! إنى لن أسكت لها هذه المرة .

وأجابت « نادية » بصوت خفيض وهى تجذب « منى » من يدها محاولة إعادتها إلى مكانها :

ــ إياك أن تقولى لها شيئاً .

— أيعجبك ما تقول ؟ إنها تكرهنا !

— إن أعصابها متوترة ، مثلنا جميعاً ؛ وهى لا تعى ما تقول .

— بل تعيه . إنها نكره أمنا ، وتود لو لم يتزوجها أبى .

— يا منى يا حبيبتى .. دعيها تود ما تشاء .. إنه تزوجها وانتهى ، ولن تغير أمانيها من الأمر الواقع شيئاً .

— ولكنها تهيننا !

— يجب أن نتحملها .. إنها عمتنا أخت أبينا .. وهى لا يمكن أن تضمر لنا شراً .. حتى إذا فلت لسانها .

— إنه يفلت دائما .. إن لها لساناً كالمبرد ..

— اعذريها .. إنها فى غير وعيها .. إنها فى حالة جزع على أخيها .

— إنها مدعية .

— حرام يا منى .. إنه أخوها .

— إنها تدعى أنها لم تذق الأكل منذ يومين . وبالأمس وجدتها تشتم الدادة .. لأن اللحمة كانت مشوية ، ولم تكن محمرة .. وفى عز النهنهة ، والتأثر .. ترفع رأسها وتسأل عن علبة « المارون » تخشى أن يكون قد أكل منها أحد .

— يا منى لا تعلقى على هذه الأشياء . كل ذلك لا يمنع جزعها .

— أنا لا أحبها .

— لا ضرورة لأن تحبيها .. دعيها وشأنها .. وإياك أن تتصدى لها .. فليس هذا وقت مشاكل . يجب أن نحترمها ونكرمها على الأقل من أجل أبى .

— احترميها أنت كما تشائين .. أنا لن أكلمها مطلقاً .

— هذا أفضل ، ولست أظنها هى الأخرى تحب كلامك .

وقبل أن تجيب « منى » سمعت فى القاعة حركة مفاجئة .. وخطوات تتحرك فى عجلة ... وألفاظ تتبادل بسرعة .. وسماعة التليفون ترفع وأرقام تدار .

وفجأة وقبل أن تنهض « منى » لتستطلع الأمر دوّت فى أرجاء البيت صرخة

حادة .. تلتها صرخات مختلطة مستمرة واندفعت « منى » من الباب صائحة :

ــ بابا .

ولم تنطق « نادية » بل تشبثت بكفيها تشد فى أغطية الفراش ، وأحست كأن شيئاً يشدها إلى هاوية عميقة .. ولم تستطع الحركة أو النطق .. لقد التصق زورها ، وتصلبت أعضاؤها .. وفقدت كل مقدرة على الحس والإدراك .. ولم تع من حولها شيئاً إلا هزّة الأصوات الحادة التى تتقاذفها كأنها أكف تتبادل لطمها فى قسوة وعنف .

وزاد الضجيج فى البيت وكثرت الأصوات ، واستمرت الصرخات الحادة تشق الفضاء ، و « نادية » عاجزة عن التفكير ، مشلولة عن الحركة .

وقبل أن يبدأ وعيها بإدراك الكارثة .. وقبل أن يتبين أحساسها حقيقة المصاب .. توقف الصراخ وخفتت الضجة ، وسرت بدلها همسات وزفرات .. واندفعت « منى » عائدة إلى الحجرة ، وهى تقول فى لهجة هستيرية :

ــ بابا بخير يا نادية .. لم يحدث له شىء .

واسترخت « نادية » وتلاحقت أنفاسها لاهثة كأنها سقطت بعد طول عدو ، وأحست كأن أعصابها المشدودة قد فكت .. وصوتها الحبيس قد انطلق ، ودموعها المتحجرة قد انصهرت .. فاندفعت فى نوبة حادة من البكاء .

وأخذت « منى » تربت جسدها المهتز وتضمها إليها قائلة فى حنان :

ــ كفى يا نادية .. إن بابا بخير .. لقد كان ما به مجرد إغماء .. إن الدكتور عنده الآن .. وقد أكد لنا أنه بخير .. لا تبكى يا نادية .

ولكن نادية استمرت فى البكاء .. فقد أحست أنها فى حاجة إليه ليعيدها إلى وعيها وإدراكها من الصدمة التى كادت تتركها عاجزة مشلولة .

ومرة أخرى عاد السكون إلى البيت .. إلا من خطوات تسير متسللة .. أو أصوات ترتفع مبحوحة هامسة .

وأخذ الأقرباء يتوافدون على البيت ، واكتظت بهم القاعة والبهو ، ولم تحس

« نادية » رغبة فى الخروج للقائهم .. كان بنفسها ميل إلى الوحدة والانطواء .. كانت تكره تحياتهم وثرثرتهم ...

وكانت تعتقد أن وجهها سيصدمهم ، ويثير شفقتهم ورثاءهم .. وكانت تكره الرثاء وتخشى الشفقة .

وظلت « نادية » راقدة فى فراشها .. تتلقى الأقرباء مستعينة بظلمة الحجرة على حجب وجهها ، وإخفاء ما تتوهمه من تشويه يثير الشفقة ويبعث على الرثاء ، ولفت عنقها جيداً بالإيشارب ورفعت الغطاء حتى أسفل ذقنها .

ورويداً رويداً .. بدأت أقدام الزوار تخف .. وخفتت الهمسات ، وساد البيت سكون شامل .. لا يكاد يقطعه إلا زفرات حارة تتصاعد من صدر الأم .

ولم تستطع نادية النوم .. كانت ترقد فى فراشها .. مفتحة العينين تحملق من خلال النافذة المواجهة لفراشها .. وقد أخذت النجوم المتناثرة فى صفحة السماء الداكنة التى بدت من النافذة تهتز مرتجفة ، وهبت نسمات خفيفة تحرك فروع الياسمين المتسلقة على حافة النافذة ، ومن الحديقة علا صفير متقطع لدنيبة استقرت أسفل الشرفة .

كانت الدهشة تجثم على الدار ، وإحساس بالخوف يرسب فى أعماق « نادية » .. كانت ترتجف لكل صوت .. وتجزع من كل حركة .. كانت تتوقع أن يعود الصراخ الحاد ليشق أجواء الفضاء مرة أخرى ، وكما تجسد العين أشباحاً للمذعور . كانت أذنا « نادية » تجسدان لها الصراخ فى كل صوت ، بل وفى كل سكون .. كانت تنتقض بين آونة وأخرى .. من الأصوات الموهومة التى تنطلق من داخل البيت .

وأخيراً غلبها النعاس ، وهى تحدق فى الفراغ ، وتنصت إلى الصرخات الموهومة ، وحملتها أحلام الغفوة ، إلى أحضان أبيها .. تضاحكه وتدلله ، ويضاحكها ويدللها .. مبدياً لها إعجابه بوجهها ونضارتها بعد عملية التجميل التى سببها لها الحريق .

وفجأة .. انطلق الصراخ .. مرة أخرى .

بدأ هذه المرة .. بصرخة حادة .. من أعماق جريحة .. وانتفضت « نادية » من أحلامها جالسة فى الفراش وهى تحس بقشعريرة تهزها من قمة راسها إلى أخمص قدميها .

وبدت لها الصرخة فى أول الأمر .. بقايا حلم .. أو أثراً من آثار الوهم ، ولكن الصرخة تلتها أخرى .. استطاعت « نادية » أن تميز فيها صوت أمها .. فى نحيب يشق صدرها .

وفى هذه المرة قفزت « نادية » ، وفى أعقابها « منى » تهرول صائحة ، وهى نصف نائمة :

ـــ إيه يا نادية !. ماذا حدث لبابا ؟

وانطلقت الصرخات مرة أخرى ، حادة ملحة متوالية . وبدا البيت فى حركة مجنونة صاخبة .. كل يتحرك صائحاً بلا هدف ولا قصد ، وبدا كل إنسان فى البيت لا يستطيع أن يحدد ما يجب أن يفعل .. حتى سليمان جثا على ركبتيه أمام الجسد المسجى باكياً كالطفل ، وهو يصيح فى نشيج مرتفع :

ـــ آه .. يا خويا .. آه يا فاضل .

وبدت « نادية » مشدوهة تائهة ، واندفعت إلى باب الحجرة صارخة ، وفى أعقابها « منى ».

وتلقتها إحدى القريبات فى صدرها ، وضمتها إليها باكية ، وحاولت أن تبعد بها عن الحجرة ، ولكن « نادية » صاحت متشنجة :

ـــ بابا .. أريد أن أراه .. بابا .

واندفعت « نادية » إلى الحجرة واجتازت بابها لتجد أباها فى رقدته كما رأته آخر مرة .. لا يكاد يبدو للموت به أثر .

ووقفت برهة مشدوهة ، ثم خرّت على الأرض ، وهى تحس بقدميها لا تكادان تحملانها ، وأحست بصوت يصيح :

ــ يا جماعة .. أخرجوا البنت .. حرام .

وأحست بذراعين تحملانها ، واجتازت القاعة ، وهى تحس بالضجيج والصخب ، ورقدت على فراشها ، وهي فى شبه غيبوبة ، ووسط الصخب والضجيج بلغ مسامعها .. صوت يبدو كأنه يتحدث فى التليفون يقول فى نبرات هادئة :

ــ بمزيد الأسف ننعى فقيد العلم الأستاذ محمد فاضل أستاذ اللغة الفرنسية بالجامعة والد نادية ومنى فاضل بالليسيه و ...

ولم تسمع « نادية » بقية الحديث فقد أطبقت بأسنانها على الوسادة تمزقها ، وهى تحس أن أباها قد أضحى مجرد نعى .

(١٥)

مشكلة تحل ..!

انتهت الجنازة .. ومرّ اليوم الصاخب « بنادية » وهى مأخوذة ذاهلة .. وانصرف المعزون الواحد بعد الآخر .. حتى خلا البيت إلا من بعض الأقارب .. يقطعون سكون البيت بأصواتهم المبحوحة ، وتنهداتهم المجهدة .

وآوت « نادية » إلى حجرتها .. وصرخات الليل الحادة ما زالت تدوى فى أذنيها .. وأحداث اليوم تتكأكأ مختلطة متشابكة فى مخيلتها . وكلها صور بغيضة مقيتة مروعة . الرجال ذوو العمائم الذين أقبلوا يتهامسون . ويتفاوضون .. والنعش المستطيل الأجرد .. والكبش الذبيح أمام الباب ، وأمها الصارخة فى ارتياع كأنها كلب يعوى ، وعمتها المنهنهة المثرثرة . وعمها السائر فى انهيار المتحرك كالشبح .

والعربة السوداء تتحرك بالنعش .. والعربات الأخرى تلاحقها وهى قد قبعت فى إحداها تحلق فى ذهول من وراء الايشارب الأزرق الذى لفت به رأسها وغطت وجهها .

وزحام المعزين حول الجامع المقام فى العباسية والذى كانت تسميه « جامع الأموات » لفرط ما شاهدت حوله من جنازات .. والنعش محمول الأعناق .. وصراخ أمها ينطلق من داخل العربة التى وقفت ترقبه عند تقا الطرق . وعربات تنطلق .. تثير وراءها سحابة من الغبار فى طرق المقابر ووقفة أخيرة عند المقابر .. وهى قابعة فى العربة .. ترقب وترقب .. وترقب وفم فاغر ، وأعصاب مشدودة .. وأحاسيس أرهفت كحد السيف .. ون يهبط من العربة ، والأم تندفع وراءه صارخة .. تريد أن تحتضنه .. و يشمدها بعيدا .. يحاول مواساتها وهو أجدر بالمواساة .

ورجال يغدون ويروحون ، وصبية يتزاحمون ويتصايحون وقرب ترش المياه على الأرض .. وآيات تتلى .. والنعش يخرج خالياً ، والأصوات تهدأ والأيادى تشد على بعضها ، والناس يحشدون فى العربات مرة أخرى ، والقافلة تعود .. فى سحابة من الغبار جديدة .. و .. وينتهى الامر .

وزادت السكينة فى البيت ، وخفتت الأصوات المبحوحة والتنهدات المجهدة .. ولم يعد هناك من صوت .. إلا صفير « الدنيبية » التى كانت تقبع أسفل الشرفة منذ ليلة أمس .

وتثاقلت أجفان « نادية » وما لبثت أن استسلمت لنوم مضطرب لم يستطع أن ينزعها من آلام يقظتها ، بل أغرقها فى نفس الخليط المشوش من صور الفاجعة التى هدت قواها وحطمت أعصابها .. وقضت « نادية » نومها .. بين نعوش تحمل . وكباش تذبح .. ومقابر تفتح .. وصياح يشق أجواز الفضاء .

ومضت الأيام الأولى من الوفاة فى صورة قاتمة .. خليط من الأنين والنواح .. والقرآن يتلى فى أنحاء الدار .. يملأ الجو .. مهابة ورهبة .

ورويداً رويداً .. بدأت أقدام المعزين تخف .. ويخف معها النواح .. وقلت الثرثرة ، ولم يعد فى البيت سوى قلة من الأقارب ما لبثت أن اقتصرت فى النهاية على العمة « زكية »، والعم « سليمان » وقريبة فقيرة .. جاءت تساعد فى خدمة البيت وضيافة المعزين .

بدأ موضوع الحديث يتطور .. لم يعد يدور كله حول المرحوم .. ومرضه ، وأيامه الأخيرة .. بل أخذ يتعداه إلى موضوعات أخر .. عن معاش ، ونقود صرفت ، وديون ، ومجلس حسبى .. وأشياء أخر .. كانت كلها تطرق طرقاً عابراً خفيفاً .. أخذ يزداد مع الأيام تمهلا .. وإلحاحاً .. حتى اتخذ مكانه كموضوع رئيسى .. لا يشغل بال الأسرة سواه .

وكان على « الأم » أن تواجه الأمر ، إذ لم يكن مفروضاً على العم سليمان أن يستمر فى الإنفاق على كل مشكلات الوفاة .

وفى جلسة غداء .. وقد ضمت المائدة الجميع .. مع بعض الأقارب

الآخرين .. بدأ الحديث بصورة واضحة .

قالت العمة « زكية » وهى تلوك لقمة بين شدقيها :

— وصل اليوم إعلان من القسم .. يطلب من « لورا » الذهاب إلى المحكمة ومعها بعض الأقارب القريبين لإثبات صحة الوراثة .. من أجل تقسيم التركة .

وهز سليمان كتفيه قائلا فى استخفاف :

— أى تركة ؟

— البيت .. والأرض .. و ....

— إنى لا أجد هناك ما يستحق التقسيم . يجب أن يبقى كل شىء على ما هو .. وبمجرد أن تنتهى الضرائب من خصم ضريبة التركات .. نكتب كل شىء باسم البنات .. وتتولى « لورا » الوصاية عليهن أمام المجلس الحسبى . ما رأيك يا لورا ؟

وأشارت الأم برأسها موافقة فى إطراق وهى تقول فى لهجة مقتضبة :

— كما تشاءون .

— وإنى على استعداد أن أتنازل للبنات عن نصيبى فى الأرض . إنها ما زالت بيننا على المشاع . وأعتقد أن « زكية » لن تمانع فى التنازل أيضاً عن نصيبها ، حتى نتركها كلها للبنات . إنها كلها لا تتجاوز عشرة الأفدنة ، ولا أظن تجزئتها ستغنينا كثيراً .

وكانت « زكية » قد توقفت عن المضغ .. وأخذت تنقل بصرها بين « لورا وسليمان » فى دهشة مغيظة .. وبدا لها الاثنان كأنهما قد اتفقا على التآمر عليها ، ولم يكد سليمان ينتهى من تساؤله حتى هبت فيه صائحة :

— ما هذا الهذيان ؟! إن الأرض كلها ملكى عدا فدانين يخصانك .. سأدفع لك ثمنهما فى أى وقت تريد .

ورفع سليمان عينيه فى دهشة ، وحملقت « لورا » فى وجهها متسائلة :

— ونصيب فاضل ؟!

— لقد باعه لى .

— متى ؟!

— بعد أن فصل من الجامعة مباشرة ، كان محتاجاً إلى نقود ، فأعطيته مبلغاً وراء الآخر . كيف كنت تظنينه يصرف عليك وعلى بناتك .. بمعاشه الذى لا يتجاوز البضعة عشر جنيهاً ؟

— ودروسه فى الليسيه ؟

— عشرة أخرى ؟ خمسة عشر ؟ كم تصرفين أنت على البيت ؟ هل تصرفين أقل من سبعين جنيهاً ؟. من أين له كل هذا ؟.

— منك أنت ؟

— طبعاً .. أعطيته مائة فى مائة .. حتى ازداد الدين . و لم يجد أمامه أى وسيلة لسداده ، فاقترحت عليه أن أشترى منه نصيبه فى الأرض فقبل .

واندفعت « منى » بين الحاضرين تصيح :

— كذابة .

وهبت فيها العمة صائحة فى حنق :

— اخرسى .. بنت قليلة الأدب .. لم تعرف أمك كيف تربيك ..

— أنت كذابة .. إن أبى لم يقترض منك شيئا .

وصاحت « لورا » فى « منى » ناهرة :

— منى .. ليس هذا شأنك .. اذهبى إلى حجرتك .. ابقى هناك مع نادية ، وتناولى معها الطعام .

وكانت « نادية » قابعة فى حجرتها وقد أحاطت رأسها بالإيشارب الأزرق ، وكفت عن الطعام الذى كانت تتناوله فى حجرتها وحدها .. وأنصتت مرهفة سمعها إلى المعركة الدائرة فى حجرة المائدة .

وقفزت « منى » من مقعدها تصيح باكية وهى تجيب على نهر أمها التى أمرتها بمغادرة الحجرة :

ــ بل سأغادر البيت كله .. لن أبقى فيه .. ما دامت هى فيه .. إنها تكرهنى .. وتكذب على أبى .. إن أبى لم يكن محتاجاً إلى أحد .

وصاحت « العمة » وهى تنظر إليها فى حنق :

ــ طبعاً .. كان يأتى إليكم بالنقود .. يملأ بطونكم .. لماذا تحسون أنه محتاج !! لماذا تحسون أنه يريق ماء وجهه للاقتراض ، مادمتم متنعمين هانئين .

ووجهت القول إلى « لورا » وصاحت فى لهجة أشد :

ــ ماذا كنت تظنين سبب إصراره على الرحيل والتغرّب ؟!

تمتم سليمان قائلا :

ــ لأنه كان يرى أن كرامته قد مست فى بلده .

ــ كلام فارغ ، وكذب .. إنه أصرّ على الرحيل لأن موارده لا تكفى مصاريفكم .. ولم يجد معى من النقود ما يمكننى من إقراضه ، ولو وجد لما أقرضته .. ليستمر فى دفعه فى بالوعة .. لا تشبع .

وصمتت لحظة ثم أردفت تقول لنفسها :

ــ والآن ، وبعد هذا كله .. مطلوب منى أن أتنازل عن نصيبى فى الأرض .. من أجل امرأة غريبة حمقاء ، وبنتين لم تتربيا .. ماذا تظنوننى ؟ مجنونة !! إنى لن أتنازل عن قرش واحد من نصيبى فى التركة .

ونظر إليها سليمان فى حنق وأجاب وهو يحاول ألا يفقد أعصابه :

ــ ما هذا الذى تقولين يا زكية ؟

ــ إنى أقول ما أعنى .. قرش واحد ، لن أتنازل عنه سآخذ حتى نصيبى فى هذا البيت .. وفى المعاش .. مفهوم !!

وأحس سليمان أنه يجب أن يبذل جهداً لكى يمنع نفسه من صفعها ، وقال وهو يضغط على ضروسه :

ــ على أية حال .. ليس هذا وقته الآن .. سنبحث هذا الموضوع مرة أخرى .. فى هدوء .

ــ لن أبحث شيئا .. إن لى نصيباً شرعياً فى التركة ، وسآخذه .. والأرض

كلها أرضى .

ــ والبنات ؟!

ــ عندهما المعاش .

ــ هل تظنين المعاش يكفيهما للمعيشة والدراسة ؟!

ــ لقد تعلمتا ما فيه الكفاية .

ــ هل تظنين أنه يمكنهما من مجرد العيش العادى ؟!

ــ ليعيشا على قدره .

ــ هل تعتقدين أن بضعة الجنيهات المتبقية من المعاش بعد أن تأخذ الحكومة نصيبها منه ، وبعد أن تأخذى نصيبك . يكفيهما .. لمجرد أكل ؟!

ــ لماذا لا تشتغلان .. هل هما صغيرتان .. يمكنهما أن تشتغلا فى أى عمل ، وإلا فما فائدة المدارس والتعليم .. إن أصغر منهما يعملن .

وكانت « نادية » قد أسدلت الإيشارب على وجهها وأسرعت تجذب « منى » التى اتجهت إلى باب البيت تحاول الخروج .

وأحس سليمان أن المناقشة مع زكية قد باتت غير مجدية ، فهز رأسه وهو يبذل جهده حتى لا ينفجر فيها وتساءل فى هدوء :

ــ أتريدين حقاً أن تشتغل بنات أخينا ، ونحن على قيد الحياة ؟!

ــ ولم لا ؟! إن أمهما كانت تشتغل .. اسألها .. ماذا كانت تعمل عندما اقتنصته !

واحمر وجه « لورا » وبدت طاقتا أنفها ترتجفان وهى تحاول كظم غيظها وأجابت وهى تنهض عن المائدة :

ــ إنى حقاً كنت أشتغل .. ولكنى لم أقتنصه ، وأظننى أستطيع أن أعود للعمل من جديد لأعول ابنتىّ دون حاجة إلى إحسان من أحد .. حتى ولو كان عمتهما ، وأظننا نستطيع أن نجد فى بلدى قوتاً ، إذا عزّ القوت هنا .. إنه ما زال لدينا بيت نأوى إليه هناك .

وهزت زكية كتفها تقول ساخرة :

ـــ بلدها !! لو كان لديك شيء فى بلدك .. ما رضيت أن تتزوجى غريباً .. أن التى ترضى بالاغتراب لا يمكن أن يكون لديها ما تتشبث به .

ولم تسمع « لورا » بقية الجملة . وهى تتجه إلى حجرتها وكل عضلة فى جسدها تنتفض ، وغشاوة من الدمع قد حجبت عينها .

وصاح سليمان بزكية :

ـــ أنت مجرمة .

ـــ أنت قليل الأدب .

ـــ أنت سافلة .. سأتكفل أنا بهن .

ـــ تتكفل بهن بمرتبك الذى لا يكاد يكفيك .. المفروض أن تتزوج وتتكفل بنفسك .

ـــ أنت جاحدة .. أنانية .. طول عمرك بلا قلب ..

ـــ وأنت مغفل .. وستبقى طول عمرك حماراً .

ونهضت زكية تاركة المائدة وهى تتجه مندفعة إلى الخارج قائلة فى لهجتها الحانقة :

ـــ لن أدخل هذا البيت بعد الآن .. أنا لم أحضر إلى هنا لكى أهان .. ليس لأجد عندى شيء ، وعندما أمرض أو أحتاج ، لن يتكفلنى أحد .. كل واحد يقول: ياالله نفسى .

وغادرت البيت ، وساد بعدها سكون مطبق ، وانفض الباقون حول المائدة متسللين واحداً بعد واحد .. حتى لم يبق عليها سوى سليمان وقد جلس متكئاً على المائدة بمرفقيه سانداً رأسه على كفيه .. مستغرقاً فى تفكير عميق .

إنه مسئول عن بنات أخيه وزوجته .. والمعاش الذى يستحقونه لا يكاد يتجاوز بضعة عشر جنيهاً ، والأرض التى اعتقد أنها تعين بإيرادها فى معيشتهن قد استولت عليها زكية ، وهو يعرف عنادها وأنانيتها .. ويعرف أنها لن تقبل أن تعينهن بمليم واحد بعد كل ما قالته .

وهو يستطيع أن يعينهن بجزء من مرتبه .. ولكن إلى متى ؟ لقد كان يفكر تفكيراً جدياً فى الزواج قبل أن يموت أخوه .. بل لقد أقدم على مشروع خطبة .. من أخت زوجة زميل له فى السلاح .

على أيه حال .. ليس أمامه سوى تأجيل المشروع .. وأظنهم سيقدرون السبب .. ولكن هل يمكن أن تنتظره الخطيبة ؟!

وتنتظر إلى متى ؟

إلى أجل غير محدد !

وهل يستطيع بمرتبه أن يفتح بيتاً .. يعول زوجة ، ويتوقع أولاداً .. وهو فى الوقت نفسه يعين أسرة أخيه !! هل يستطيع أن يهىء لها ولنفسه .. الحياة اللائقة !!

لا يظن .. إنه قطعاً يجب أن يصرف النظر الآن عن الزواج .. حتى ..حتى ..

حتى يحلها ربنا ؟

كيف ؟ كيف يحلها ؟

بزواج البنتين ! .. أجل هذا هو خير حل .. وتستطيع « لورا » بعد ذلك أن تدبر أمر نفسها بما يبقى من معاش بعد قطع معاش البنتين ، وإن لم تستطع أن تدبره .. فهى تستطيع العيش مع إحدى بناتها .. وإذا استعصى عليها ذلك .. فيمكنها أن ترحل إلى بلدها .. إن لها بيتاً كما قالت .. وأظنها ستفضل العيش فى بلدها .. بعد أن تتزوج ابنتاها .

أجل هذا هو الحل المعقول ، وزواج البنتين ليس بالأمر المستبعد .. بل إن « منى » تكاد تكون مخطوبة .. ألم تقل ذلك منذ بضعة أشهر ؟ ألم تطلب إليه السعى فى إلحاق خطيبها بسلاح الفرسان .. إنه سيحاول ذلك جهده .. وسيسعى إلى إبقائه فى القاهرة .. حتى ييسر له فرصة الزواج .

هذا نصف المشكلة قد انفرجت .. بقى النصف الآخر .. وهو لا يظن أن

حله يمكن أن يكون بنفس السهولة .

إن « نادية » مخلوقة منطوية .. وقد ازدادت انطواء بعد حادث الحريق .. وباتت لا تكاد تغادر حجرتها .. وازداد نفورها من الناس .. كأنها الحيوان النافر .. و لم تعد تقدر على لقاء أحد إلا وقد لفت وجهها بخمارها الأزرق .. كأنما تخشى أن ينفر الناس منها أو يرثون لها .

وهو قد حاول مراراً أن يرفع عنها النقاب .. حتى يزيل عن نفسها ذلك الوهم المسيطر عليها ، والذى يدخل فى روعها أنها قد باتت مخلوقة مشوّهة منفرة قائلا لها :

ــ يا نادية يا حبيبتى .. كفى عن هذا البله .. إن وجهك بخير ، وليس به أى أثر للحريق .. هذه الحمرة سرعان ما تزول كما يزول أثر الخدش .. ارفعى عن وجهك هذا الحّجاب .

ــ إن الطبيب قد أمرنى بوضعه .

ــ لقد أمرك بوضعه لبضعة أيام .. وقد انتهت هذه الأيام .

ــ إنه لا يضايقنى .

ــ ولكنه يضايقنا نحن .

ــ لماذا ؟!

ــ لأننا نريد أن نرى وحهك .

ــ ولماذا تريدون أن تروه !؟

ــ لأنه جميل ، ونحب أن نراه دائماً .

ــ لم يعد جميلا .. لقد أضحى شيئاً منفراً .

ــ أنت موهومة .. إنه لم يتغير به شىء .. لقد أصبحت بشرته أجمل مما كانت .. صارت أشد ضوءاً .. وأنعم ملمساً .

ــ والجبوب التى ظهرت به ؟!

ــ سرعان ما ستزول .

ــ والقروح التى حول العنق ؟!

— مالها !!

— أيعجبك منظرها المنكمش المبقع ؟

— ولماذا لا يعجبنى ؟!

— لا تقاوح يا عمى !!

— ليكن ! لماذا لا تغطين عنقك فقط ! لماذا تخفين كل وجهك ؟! بل لماذا تسجنين نفسك داخل حجرتك ؟! يجب أن تكفى عن هذا الانطواء .. يجب أن تستعيدى ثقتك بالناس وبنفسك .

وهزّت « منى » كتفها ، معلنة فى يأس :

— منذ متى كان عندها ثقة بنفسها .. أو بالناس .. إنك تطلب منها المستحيل .

أجل .. لقد كان يطلب منها المستحيل ، وهى تجلس قابعة فى حجرتها .. عاصبة وجهها .. لا تكاد تكشف عنه إلا وقت الأكل أو الاستحمام .. وبعد أن تتأكد أن أحداً لا يراها .

أيمكنها بهذا الانطواء والاحتجاب .. أن تتزوج ؟!

أيمكن لنصف المشكلة الآخر أن يحل .. وهو معقد كل هذا التعقيد ؟!

لا يظن .

إنها تحتاج لوقت طويل ؛ وهو فى حاجة إلى هذا الوقت . لأن مشكلته لا تحتمل التأجيل . اللهم إلا إذا عدل عنها نهائياً .

وأحس بشىء من الخذلان .. فالمرء لا يستطيع بسهولة أن يجد فرصته الملائمة للزواج ، وهو لم يعد صغيراً .. لقد جاوز الخامسة والثلاثين ، وليس عليه أن ينتظر طويلا .

وأطلق زفرة حارة .. ورفع رأسه عن كفيه ، ووجد« فاطمة » ترفع بقايا الطعام عن المائدة ، وهى ترمقه بنظرة عطف ، وتتمتم قائلة :

— ربنا لا ينسى أحداً .. لا تحمل لهن هماً يا سيدى .. إن لهن رباً كريماً .

أجاب سليمان ، وهو يغادر المائدة :

ـــ أجل يا فاطمة .. ربنا موجود .

واتجه فى خطوات متثاقلة إلى القاعة .. فسمع صوت نشيج خافت يأتى من حجرة الأم .

وطرق الباب .. فهدأ النشيج ، ومضت برهة قبل أن تجيب الأم بصوت خافت :

ـــ ادخل .

ودخل سليمان فوجد الأم تقبع فى أحد المقاعد الجلدية وقد احمرت عيناها .

وانحنى عليها وربت كتفها قائلا فى رفق :

ـــ لا تحملى هماً .. إنى سأتكفل بكل شىء .

ونظرت إليه الأم وهزت رأسها فى يأس وأجابت :

ـــ أنت طيب القلب .. ولن أنسى جمائلك أبداً .. ولكنى لا أريد أن أحملك عبئاً لا طاقة لك به .. إن لك حياتك ، ولك مستقبلك .

ـــ ولكنى ..

ـــ أرجوك يا سليمان .. دعنى أتمم حديثى .. أنا لا أريد أن أفقد عطفك علينا وحبك لنا ، وعندما ما تمر الأيام وتحس أننا أضعنا حياتك ، وألقينا بأعبائنا عليك .. ستكرهنا .

ـــ أنت واهمة .. إنى لن أضيق بكم قط .

ـــ هذا كلام يقال الآن ، والعاطفة مرهفة ..والعبء لم يثقل كاهلك بعد .

ن لى رجاء عندك ، هو كل ما أطلبه منك .

ـــ ما هو ؟!

ـــ أن تساعدنى على الرحيل بابنتىّ .

ـــ غير معقول .

ـــ أرجوك يا سليمان .. إنى لست على استعداد للدخول فى مشكلات

وراثة ، ومعاش ، وتركات ، ولست على استعداد لأن أتحمل مزيداً من إهانات أختك .

— لن تريها بعد الآن .

— ولست على استعداد لأن أحمل نفسي وابنتيّ جمائل غريب .

— أنا لست غريباً .

— إنك كأخي تماماً ، ولكنى مع ذلك .. لن أقبل أن أثقل عليك .. إن كل ما أرجوه منك هو أن تساعدنا على السفر .. أنا لا أعرف شيئاً من إجراءاته ، ولا أظنك تتركنى أستعين بالغرباء .

— إنى على استعداد لأن أفعل كل شيء ، ولكن لا أوافقك أبداً على السفر .

— دعنى أسافر على الأقل الآن ، لكى أغير هذه المناظر التى تحيط بى . إننى لم أنم ليلة واحدة .. بعد موته .

— إذن سافرى أنت ، ودعى البنتين .

— أهذا معقول ؟!

— ومعقول أن تبعديهما عن بلدهما ، وعن أهلهما !.

— ستعودان فى ظروف أفضل .. دعنا نهرب الآن من هذا الجو الذى رأيته اليوم .. جو البغضاء والضغينة .. إنى لست فى حالة تعاوننى على الاحتمال ، ولست أريد أن أفقد أعصابى أبداً .. ساعدنى أرجوك .

— والبنتان راضيتان ؟!

— أعتقد ذلك .. إنهما سيغيران ذلك الجو القاتم الذى أحاط بالكارثة التى حلت بنا .

وأطرف سليمان ، وأحس أن المشكلة المستعصية قد حلها الله بأسرع مما كان يظن .

ورفع بصره إلى « لورا » وتساءل :

— وهل ستجدين هناك مايعينك على عيشة لائقة ؟

ـــ أجل إن لنا بيتاً فى « جاب » وأمى ما زالت تعيش فيه .. وتحيط به مزرعة طيبة ، وأنا أستطيع أن أعمل فى المدرسة هناك .. لا تقلق علينا .. إنى واثقة أنى أستطيع أن أدبر أمرى .. كل ما أريده منك أن تعاوننى على السفر .

ـــ حاضر .. سأفعل لك ما تريدين .. بشرط .

ـــ ما هو ؟!

ـــ أن تعدينى أن سفرك ليس إلا رحلة لتغيير الجو حولك ، وحول البنتين ، وأن تعودى ثانية فى أقرب فرصة .

ـــ سأحاول .

---

(١٦)

حنين إلى وداع

مضت بضعة أسابيع وسليمان يحاول أن يحل مشكلات الأسرة التى فقدت عائلها .. ولكن المشكلات ازدادت تعقيداً .. وتكشفت مع الأيام ديون جديدة كان فاضل قد استدانها و لم يسدد سوى جزء ضئيل .

و لم يستطع سليمان أن يلين من حدة « زكية ».. ويغير من موقفها العدائى الأنانى .. و لم يجد بداً فى النهاية من التسليم بسفر الأم وابنتيها ، كحل مؤقت للمشكلات .. وراحة لهن من جو ملىء بالمتاعب ، مشحون بالنكد والهموم .

و لم تستغرق إجراءات السفر وقتاً طويلا . كانت جوازات السفر معدة .. و لم يكن أمام سليمان إلا السؤال عن مواعيد السفن وحجز التذاكر .

ومرة أخرى بدأت فى البيت حركة التجهيز للسفر .. وفى هذه المرة كانت الأحمال أثقل والحقائب أكثر عدداً ، وكان البيت يسوده الاكتئاب ، وتخيم عليه الوحشة .

كانت الأم تعد العدة لسفر بلا عودة .. كانت تحس بعد ما لاقت من عنت أنه لم يعد لها مقام فى مصر .. و لم تجد فى الرحيل مشقة بالنسبة لنفسها .. فقد تملكها بعد وفاة فاضل إحساس باليأس جعلها تسلم بكل شىء ، وكانت تجد فى العودة لبلدها خاتمة طبيعية لحياتها .

أما بالنسبة لابنتيها . فقد كان الأمر يختلف كل الاختلاف .. كانت تحس أن تلك البلدة الكائنة فى جنوب فرنسا على قمم الألب العليا .. والتى لم هناك مفر من أن تكون بالنسبة إليها خاتمة المطاف .. ونهاية المستقر .. هذه البلده النائية لا يمكن أن تكون يالنسبة للصبيتين .. مقراً أخيراً .. وموطناً نهائياً ..

كانت تحس بمصريتهما تسرى فى دمائهما .. كان كل مابهما مصرى أصيل .. طباعهما .. وحديثهما .. ومشاعرهما . كان ثمة شيء أعمق منها ومن أمومتها .. يسيطر على البنتين ويشدهما لهذه الأرض بأهلها .. وأبنيتها .. وشوارعها .

و لم تستطع الأم أن تقنع نفسها .. أن هذا الرحيل يمكن أن يكون بالنسبة لابنتيها رحيلا أخيراً .. كانت تعرف أن إحداهما ، قد ربطت نفسها فعلا بمخلوق .. من هذه الارض ، ومن بين هؤلاء الناس .. وأنها قد وطدت عزمها على العودة إليها .. ومشاركته حياته .

والثانية .. من يدرى ؟.. لعلها قد شدّت قلبها هى الأخرى بمخلوق آخر .. لاتفصح عنه .

ومع ذلك فهى لا تجد بدأ من الرحيل .. فأعصابها لم تعد تطيق البقاء ثانية . وهى إن لم تسرع بالرحيل .. فقد تصاب بالجنون ، والإقامة كذلك من الناحية المادية تكاد تكون منعذرة بطريقة لائقة إلا على أكتاف سليمان .. وهى تكره أن تكون بابنتيها عبئاً على أحد .. أو أن تقيم حياتها على شقاء الآخرين .

فالرحيل إذن لابد منه الآن ، أما العودة فعلمها عند الله ، هو وحده الذى يقرر مصير البنتين .

ومن يدرى ! ألا يحتمل .. أن يكون أرتباطهما بهذه الأرض .. مجرد وهم !! ألا يحتمل .. أن يتعوّدا الإقامة هناك .. ويستسيغا العيش .. وتصبح هذه الأرض وهؤلاء الناس .. بالنسبة لهما مجرد ذكرى ؟

من يدرى ؟!

واستمرت الأم تطوى الملابس وتضعها فى الحقائب .. وكانت « منى و نادية » تقومان بنفس المهمة فى حجرتهما .. ووقفت « منى » بقدميها على حقيبتها وأخذت تقفز محاولة دك الحقيبة المنبعجة .

ونظرت إليها « نادية » وتساءلت فى دهشة :

ــ ما هذا !! أجننت ؟

ــ إنها لا تريد أن تغلق .

ــ طبعاً .. ما دمت قد حشرت بها كل هذه الملابس .

وعادت « منى » تقفز فوق الحقيبة فصاحت بها « نادية » :

ــ كفّى عن هذا .. وإلا حطمت الحقيبة .

ــ كيف أغلقها إذن ؟!

ــ خففى ما بها .

ــ هل تأخذينه أنت فى حقيبتك ؟!

ــ بعد كل ما أخذت .. غير معقول .. لقد أضحت حقيبتى شراً من حقيبتك .

ــ إذن ماذا أفعل ؟! إنى لم أضع بها شيئاً لا ضرورة له .

ــ إذن أعيدى ترتيب الملابس ثانية .

ــ يا نهار اسود .. لقد أمضيت ساعتين فى رصها !

ــ أمضى ساعتين أخريين . ماذا وراءك !

ــ ماذا ورائى ؟! سأذهب إلى النادى .

ــ لماذا ؟!

ــ لأرى عصام .

ــ ألم تريه بالأمس .

ــ أجل .. رأيته .. وسأراه اليوم . هل لديك مانع ؟!

ــ المانع لديك أنت .. وهو أنه يجب أن ننتهى الليلة من تجهيز كل لوازم السفر لأننا سنرحل فى الفجر إلى الإسكندرية لأننا يجب أن ....

وقاطعتها « منى » فى ملل قائلة :

ــ أعرف كل هذا .. أعرفه .. ومع ذلك .. لا بد أن أذهب لأرى عصام .

ــ اتفلقى .. افعلى ما تشائين .. ولكن تأكدى أنى لن أمد يدى إلى

حقيبتك .

واقتربت « منى » من « نادية » وأحاطتها بذراعيها محاولة أن تلين من إصرارها ، ودفعتها نادية قائلة :

ــ ابتعدى عنى .. لم أعد آكل من هذه الحركات .

ــ يا نادية يا حبيبتى .. لم تعاملينني بهذه القسوة ؟!

ــ اذهبى أولا وأعدى حقيبتك .

ــ وأترك عصام دون أن أودعه ؟!

ــ لقد ودعته بالأمس .

ــ ولكنه اليوم شيء آخر غير الأمس .

ــ ماذا به !! على رأسه ريشة ؟!

ــ بل على كتفه نجمة .. وأنت الصادقة .

ورفعت « نادية » حاجبيها متسائلة فى دهشة :

ــ متى وضعها ؟

ــ اليوم .. الآن فى هذه الساعة .

وصمتت « منى » برهة .. ثم وثبت إلى الراديو قائلة :

ــ يا نهار أبيض .. لقد كدت أنسى .. إن حفلة تخرّجه تذاع من الراديو !!

ــ حفلة تخرّجه تذاع ؟!

وأمسكت « منى » بمفتاح الجهاز تديره يمنة ويسرة محاولة تغيير الموجة وهى تقول فى غيظ :

ــ لقد قال لى إنها ستذاع .. لست أدرى أين .

وردت نادية قائلة :

ــ ربما فى ركن الأطفال .

ونظرت إليها « منى » فى غيظ قائلة :

ــ دمك خفيف يا شاطرة .

وهزت نادية رأسها متسائلة :

ـــ لست أدرى لماذا يذيعون حفلة تخرّج سى عصام .. ماذا يمكن أن يذاع منها ؟!

ـــ خطبة الرئيس جمال عبد الناصر .

ـــ الرئيس جمال عبد الناصر سيخطب فى حفلة تخرّج عصام ؟!

ـــ أجل..

ـــ لماذا ؟

ـــ لأجل خاطر عصام . إنه صديقه الروح بالروح .. لقد ذهب إلى الحفلة خصيصاً لأجله .

ـــ يا دمك .. أتظنين الرئيس جمال عبد الناصر فاضى ، لكى يحضر حفلة تخرّج سى عصام ؟

وكان الحديث يدور وأصابع « منى » لا تكف عن إدارة مفتاح الراديو .. حتى علا صوته فجأة يقول :

« وقف الرئيس جمال عبد الناصر على المنصة وعلى يمينه القائد العام اللواء عبد الحكيم عامر .. وعلى يساره قائد الكلية الحربية ، وقد أخذ حماة الوطن يمرون رافعى الرءوس ».

وسمعت صوت الخطوات العسكرية تدق الأرض فى قوة .. على دقات الموسيقى .

والتفتت « منى » إلى نادية فى شماتة :

ـــ سمعت .. أصدقت أن الرئيس جمال عبد الناصر . ذهب لحضور حفلة تخرجه ؟!

وضحكت نادية قائلة :

ـــ لقد ذهب حقاً .. ولكن ليس من أجله .

وردت « منى » فى عناد :

ـــ بل من أجله وحده .. ليس هناك من يستحق أن يذهب إليه الرئيس جمال عبد الناصر سواه .

وتعالت النداءات العسكرية .. وسمع صوت يهتف ..

« السرية الثالثة لليمين انظر .. »

وقفت « منى » صائحة :

ـــ هل تسمعين .. السرية الثالثة .. إنها سريته .. إن هذا صوته .. إنى أميزه من آلاف الأصوات . هل سمعته ؟!.

وضحكت نادية قائلة :

ـــ اهدئ يا منى .. وكفّى عن هذا الصراخ .

ـــ قولى .. هل سمعته ؟!

ـــ أجل سمعته .

ـــ إياك أن تكذبينى مرة ثانية .. عندما أقول لك إن الرئيس « جمال عبد الناصر » سيحضر الحفل .. يعنى سيحضره .

ـــ وعندما تقولين إنه ذهب من أجل سى عصام .. يعنى من أجله .

ـــ أتهزئين .. لماذا ذهب إذن ؟

وكانت الموسيقى العسكرية قد خفتت .. وعلا صوت المذيع يقول فى حماس :

« أيها المواطنون الرئيس جمال عبد الناصر يقف أمام الميكروفون ليلقى خطبته فى جنود الوطن وحماة المستقبل ».

ومضت فترة قصيرة .. علا بعدها صوت الرئيس جمال عبد الناصر يقول فى هدوء :

« أيها الجنود .

« أشعر اليوم وأنا أقف بينكم فى هذا المعهد أن مصر تمر بنقطة تحوّل فى تاريخها الحديث .

« لقد كنا حين نقف بين أرجاء هذا المعهد .. فى أيام خلت .. نشعر أن مصر غنية بالرجال ، وأن رجالها لا تنقصهم الشجاعة .. ولا تعوزهم القدرة على التضحية .. ولا الإيمان بأوطانهم والثقة فى أنفسهم .. ومع ذلك .. ورغم شعور الثقة الذى كان يملؤنا بأنفسنا وبأوطاننا .. كان ثمة إحساس بالمرارة .. يرسب فى أعماقنا .. وشعور بالحسرة يفعم قلوبنا .. لأننا كنا نعلم أن كل ما نملك من رجال وتضحية وشجاعة وإيمان .. ينقصه الدعامة التى يمكن أن تجعل لكل ما نملك قوة ومضاء .. كان ينقصه السلاح .

« ولم تكن حاجتنا أيها الإخوان إلى السلاح .. عن فقر ، لا .. ولا كانت عن تهاون .. وإنما كانت نتيجة التحكم الأجنبى فينا .. وسيطرة المستعمر علينا .

« وعندما أقف اليوم بينكم .. »

ومدت « منى » يدها إلى الراديو تحوّل المؤشر إلى محطة أخرى وقفزت نادية إلى الراديو هاتفة :

ــ أيتها الغبية .. إن هذا هو ما أتى من أجله .. اتركى الراديو .

وضحكت « منى » قائلة :

ــ ما شاء الله .. منذ متى أصبحت سياسية ؟!

ــ هذه ليست سياسة .. هذا هو مصيرنا .. إنه سيتحدث عن صفقة الأسلحة .

ومرة أخرى علا صوت الرئيس « جمال » فى الراديو يقول :

« .. مصر التى كانت تملؤها المرارة .. وتفعمها الحسرة ، تستطيع اليوم أن تتنفس فى حرية .. تستطيع أن تحس بالطمأنينة والأمن .. لأنه لم يعد .. يعوزها السلاح .. لقد كنا فيما مضى أغنياء بالرجال والشجاعة والتضحية والإيمان .. واليوم نشعر أننا أغنياء بكل هذا .. وبالسلاح أيضاً ! هذه يا إخوانى .. هى نقطة التحوّل التى نمر بها .. »

ونظرت « منى » إلى علائم الاهتمام والإصغاء البادية على وجه نادية وتساءلت ضاحكة :

— هل اطمأننت إلى السلاح ؟!

وأشارت « نادية » برأسها بالإيجاب ، واستمرت فى إصغائها .. وعادت « منى » تتساءل ساخرة :

— هل ستأخذينه معك إلى « جاب » للدفاع عنا ؟

وجثمت سحابة تجهم على وجه « نادية » وعادت « منى » تقول :

— لماذا لا تجيبين ؟!

وصمتت « نادية » برهة ثم أجابت فى صوت خافت :

— إن وصولنا إلى « جاب » لا يعنى انقطاع إحساسنا بمصر . لا شىء يا « منى » يستطيع أن يقطع صلتنا بها .. هل تكرهين أن تكون مصر حرّة .. آمنة !؟

— كيف أكره هذا .

— أن هذا السلاح سيحقق لها الحرية والأمن .

وصمتت « منى » .. وارتفع صوت الرئيس « جمال » فى الراديو يردد :

« لقد كانت يا إخوانى حادثة ٢٨ فبراير الماضى ، حادثة الاعتداء اليهودى المدبر الذى وصفه مجلس الأمن بأنه اعتداء مدبر وحشى على جنود آمنين مطمئنين ، لقد كان هذا الاعتداء الذى دبره بن جوريون والذى شكر من أجل تنفيذه رجالا من الجيش الإسرائيلى . كان هذا الاعتداء هو ناقوس الخطر ، ونحن نحمد الله عليه .. فقد استطاع .. أن ينبهنا إلى مواطن الشر .. وكان مصاب ٢٨ فبراير رغم فداحته .. نعمة علينا لأنه كان لنا بمثابه نذير استطعنا به أن نتلافى مصائب أكبر وندفع أخطاراً أشد » .

ونظرت « منى » إلى نادية .. فى إصغائها إلى الراديو وهزت كتفيها .. ثم أمسكت بحقيبتها .. وقلبتها رأساً على عقب قائلة :

— اسمعى .. سأعيد ترتيبها .. كما طلبت .. ولكن عندما يحل الموعد .. لن يستطيع شىء منعى من الذهاب إلى النادى .

ـــ إنه لن يذهب إلى النادى قبل أن تنتهى الخطبة وينفض الاحتفال .. وستكونين خلال ذلك قد استطعت أن ترتبى الحقيبة .

ـــ استطعت أو لم أستطع .. سأذهب إلى النادى فى موعدى .. ولو أدى الأمر إلى السفر بالحقيبة مفتوحة وملابسى فى يدى .

وضحكت « نادية » .. قائلة :

ـــ سأتمم أنا ترتيبها .. فقط أرجوك أن تدعينى أسمع .

ـــ خلاص .. أصبحت وطنية .. إن شاء الله سيدخلونك فى مجلس قيادة الثورة .

ولم تجب « نادية » وعادت تنصت إلى صوت الرئيس « جمال » يقول :

« منذ ذلك اليوم بدأنا ندقق فى معنى السلام ، وفى معنى توازن القوى فى هذه المنطقة .. فماذا وجدنا أيها الإخوان ! وجدنا التوازن يعنى تسليح إسرائيل ، ومنع السلاح عنا . إننا استطعنا أن نحصل على معلومات أكيدة تثبت أنهم فى الوقت الذى يمنعون عنا السلاح .. يعملون على تموين إسرائيل به .

« إنهم يريدون أن يرونا عزلاً مستضعفين .. يريدون أن نبقى دائماً تحت رحمتهم .. لكى نطلب نجدتهم إذا ما اعتدى علينا .

« تلك هى الخدعة الكبرى التى ينادون بها فى أنحاء العالم . تلك هى أسطورة السلام فى الشرق الأوسط ومهزلة التوازن ».

وعلا صوت الأم من حجرتها منادية :

ـــ نادية ..

وتركت « نادية » الراديو واتجهت إلى أمها تجيب :

ـــ نعم يا ماما .

ـــ هل أخذت العلبة المستديرة التى بها العقد والأسورة ؟

ـــ لا .. لم آخذها .. لقد كانت فى درج « الشفونيرة ».

ـــ إنها غير موجودة .

ـــ قد تكون موجودة فى درج آخر .. سأبحث عنها .

وتركت نادية الحجرة .. وأخذت « منى » ترص الملابس فى حقيبتها .. وقد بدأ عليها القلق ، وهى تسمع صوت الرئيس « جمال » ينهى خطبته قائلا :

«بهذا ـــ أيها الإخوان ـــ ستسير مصر فى خطها قدما إلى الأمام.. لا ضعف ولا استسلام بل تصميم وعزم .. إننا سنسلح جيش مصر حتى نتمكن جميعاً من أن ندافع عن حدود مصر ونرد العدوان بالعدوان .. »

ودوت بعد ذلك عاصفة من التصفيق والهتاف .. ولم تحاول « منى » أن تسمع تعليق المذيع .. بل قذفت بقية الملابس التى امتلأت بها أرض الغرفة .. وخرجت من القاعة إلى خارج البيت دون أن يراها أحد .. وسارت تحث الخطى فى طريقها إلى النادى .

وبقيت « نادية » فى حجرة أمها تبحث عن العلبة المنشودة حتى وجدتها ، ثم أخذت تعاونها فى حزم الأمتعة ورص الملابس حتى انتهت من كل ما بحجرة أمها .

وعادت إلى حجرتها مرة أخرى ، فوجدت ملابس « منى » ما زالت مكدّسة فى الحقيبة .. فانهمكت فى ترتيبها حتى انتهت منها ، وأحست بالتعب يتملكها ، فخرجت إلى الشرفة تستنشق نسمات الليل ، المشبعة بعبير الياسمينة التى تسلقت الشرفة .

ودقت الساعة الثامنة والنصف وأحست أن غيبة « منى » قد طالت .. وتملكتها رغبة فى أن تلحق بها لتحضرها من النادى .. ورفعت أصابعها تتحسس وجهها وعنقها ، وتملكتها الرهبة .

إنها لا تجسر على مواجهة الناس ، بوجهها هذا .. لقد باتت تخشى لقاءهم جميعاً ، فكيف تغامر بالذهاب إلى النادى لعرض نفسها .. للقائه .. هو .

كيف تجسر أن تواجهه .. بوجهها المسلوخ .. وعنقها المقروح ؟!

لا ..لا .. يجب أن تأوى إلى فراشها .. يجب أن تدع الليلة الأخيرة تمر بها على خير .. ومع ذلك أحست بالحنين يزداد بها إلى وداع أخير .. ولم تستطع مقاومة

الرغبة الجارفة التى تدفعها إلى أن تطوف بالنادى .. طوفة أخيرة .

ومدت يدها إلى القناع الأزرق فلفت به رأسها وأحكمته على عنقها ثم رفعت « ياقة البلوزة » وضمتها إلى رقبتها . وبخطاً وئيدة تسللت من الباب ، واندفعت فى الطريق تتلفت حولها ، فى خشية وذعر .

(١٧)

دعها للقدر ..!

وصلت نادية إلى النادى ، ودلفت إلى الحديقة المتسعة من الباب الخلفى ، وكانت الظلمة قد خيمت فى أرجاء الحديقة ، فترامت أطرافها وبدت ملاعبها بلا حدود إلا من أطراف الجازورينا الشاحبة المهتزة أمام هبات النسيم .

وتطلعت « نادية » إلى الشرفة المستديرة التى تضم النافورة والكافورة الضخمة وقد تناثرت فيها المناضد واحتشد الأعضاء يتبادلون الأحاديث والضحكات ، وتملكها خوف من الضوء وخشية من نظرات الناس ، وتمهلت فى سيرها مستترة بالظلمة وراء أسوار التنس العالية ، وأخذت تتطلع فى رهبة ووجل إلى ملعب « الكروكيه » الذى بدت رقعته المستطيلة الخضراء مضيئة وسط الحديقة المظلمة وقد علتها مصابيح النيون المعلقة فى الأسلاك المشدودة من أطراف الملعب .

وفجأة ارتعدت أطرافها وتلاحقت أنفاسها ، وتعالت دقات قلبها متتابعة فى عنف .. عندما أبصرت الشبح الطويل .. يسير الهوينى فى الرقعة الخضراء ، ثم ينحنى بمنكبيه العريضتين ليضرب الكرة الملوّنة فى الضوء الأبيض .

وقفت فى مكانها برهة ، وقد علقت به عيناها تتبعانه فى حركته الوئيدة وراء الكرة بجوار زملائه فى الملعب ، وتمنت لو استطاعت أن تعدو إليه لتودعه وتنبئه أنها ستسافر غداً .. وأنها قد لا تعود .. وتمنت لو استطاعت مجرد الاقتراب .. لتلقى عليه نظرة وداع قبل الرحيل ، ولتختزن من مرآة ما يملأ ذكرياتها .

ولكن يدها امتدت بلا وعى لتجس عنقها وتتحسس صفحة وجهها .

وارتجفت أصابعها ، وضغطت بأسنانها على شفتها السفلى وهى تحس بصرخة

تجيب توشك أن تنطلق من أعماقها .

كيف تجرؤ على هذا التفكير !!

كيف يخطر ببالها أن تقدم على هذه المغامرة !!

بل كيف جرؤت على مجرد الاقتراب من النادى !!

أى رغبة حمقاء دفعتها إلى المجىء هنا ؟!

وأى وداع هذا الذى ترجوه ؟!

وأحست برغبة فى أن تطلق ساقيها للريح ، وتنجو بنفسها قبل أن يبصرها أحد .

ولكنها لم تكد تستدير لتعود من حيث أتت حتى أحست بوقع أقدام تقترب وراءها من الممر ثم سمعت صوتاً يهتف بها :

ـــ نادية .

وتلفتت فى خوف لتجد « منى » وقد وضعت ذراعها فى ذراع عصام ، وسار بجوارهما .. شبح نحيل طويل .. استطاعت « نادية » أن تميز فيه صبرى برأسه الصغير ومنظاره السميك الذى أخذ يلمع فى الظلمة .

وبحركة لا إرادية ارتفعت يدها لتضم الإيشارب حول رأسها وتحكم ياقة البلوزة حول عنقها .

وهتف صبرى فى لهفة :

ـــ نادية ؟!! كنت هنا فى النادى ؟

وترددت « نادية » برهة قبل أن تجيب ، ثم هزت رأسها وقالت :

ـــ أجل .

ـــ لماذا لم نرك إذن ؟

ـــ لقد .. كنت أتمشى فى الحديقة .

ـــ تتمشين فى الحديقة !.. ولماذا لم تأتى لتجلسى معنا ! هيا بنا نعد .

وبدا القلق على « نادية » ونظرت إلى الشرفة المزدحمة وإلى أنوارها المتألقة ،

وأجابت وهى تحاول الاتجاه بهم إلى الباب الخلفى للحديقة :

ــ لم يعد هناك وقت .. لا بد أن نعود الآن إلى البيت .

وقال عصام :

ــ لا فائدة من نادية .. إنها لم تعد تحبنا .. ألا تجلسين معنا بضع دقائق .. على سبيل الوداع ؟

وقال صبرى راجياً :

ــ أجل بضع دقائق فقط .. ألن يوحشك فراقنا !! ألن يوحشك البعد عن نادينا ؟!

وأحست نادية بالخناق يضيق عليها ، ولم تجد ما تستطيع الاعتذار به عن الجلوس معهم بضع الدقائق التى يطلبونها ، وتملكها الذعر عندما وجدت أنها توشك أن تظهر بوجهها وعنقها فى الضوء أمام الناس ، وبطريقتها اللاإرادية مدت يدها إلى عنقها ونظرت إلى « منى » متوسلة .. قائلة فى ارتباك :

ــ طبعاً سيوحشنى الفراق .. إنى أود أن أجلس معكم ، ولكن ...

وقاطعها صبرى قائلا :

ــ ولكن ماذا !؟ لا يمكن أن تبخلى علينا ببضع دقائق ، نودعك بها .

وقالت « منى » وهى تنظر إلى يد « نادية » التى أخذت تتحسس عنقها فى الظلمة ، وقد بدا الخوف على ملامحها :

ــ دعونا نتمشى .. إن جلسة النادى أصبحت مزعجة .

ثم جذبت عصام من يده وسارت تجاه الباب وهى تردف قائلة :

ــ هيا بنا إن الطريق هادئ ويمكنكما أن توصلانا إلى البيت فنستطيع التحدث دون أن نضيع وقتاً .

وهزّ صبرى رأسه قائلا وهو يضحك :

ــ موافق بشرط ألا نسير بسرعة .

وسار الأربعة فى الشارع الخلفى للنادى متجهين إلى شارع الخليفة المأمون ،

وكانت « منى » ما زالت تتأبط ذراع عصام ، وسار صبرى مجاوراً لنادية وهو ينظر إليها بطرف عينيه وهى تحس بخوف من نظراته وتضم الياقة حول عنقها كلما اقتربوا من أحد مصابيح الطريق .

ومضت برهة صمت كان صبرى يحاول خلالها كعادته أن ينتقى شيئاً يحدث به نادية ، وكانت نادية شاردة فى مدحت التى لم تستطع فى وداعها له إلا أن تطوف به طواف الأشباح ، وكانت « منى » تفكر فى « نادية » وخوفها من الناس وإحساسها بالتشويه ، وكانت تحس أن فى سفرهم خير علاج لتلك العقد التى أصابتها بعد الحريق ، وكان عصام يفكر فى يومه الحافل وفى غده المجهول .. يفكر فى « منى » ، وفى بذلة الضابط التى ستنتهى غداً من عند « الترزى » ، وفى سلاح المشاة الذى ألحق به ، وفى خطبة « جمال عبد الناصر » عن صفقة الأسلحة ، وفى أشياء كثيرة مختلطة مضطربة .

وكانت « منى » أول من أحس بطول الصمت ، فقالت ضاحكة :

ـــ ما شاء الله ، أتنوون أن تقضوا المسافة هكذا صامتين ؟

ثم وجهت الحديث إلى صبرى ساخرة :

ـــ إيه يا صبرى !! لقد كدنا نصل ، وأنت لم تنطق بحرف .. أهذا هو الوداع الحار الذى تنوى أن تودعنا به ؟!

ونظر صبرى إلى نادية وأجاب قائلا :

ـــ لقد كنت أود أن أقول لنادية أشياء كثيرة ، ولكنى أجد الوقت لا يكاد يسمح إلا بالصمت .. لقد حاولت أن أراها من قبل ، وانتظرتها فى النادى كثيراً ، وسألت عنها « مني » فى كل مرة أراها .. فكانت تقول لى : إنها لا تخرج من البيت ، ولا تلقى أحداً .. حتى الحديث فى التليفون لم أفلح فيه ، واليوم لا أكاد ألتقى بها .. حتى أجدها تبخل علينا ببضع دقائق وداع .. فماذا أقول لها ؟!

وأجاب عصام قائلا :

ـــ قل أى شىء .. حدثها عن صفقة الأسلحة التى قلبت رأسنا بها .

وضحك صبرى قائلا :

ـــ تقصد الأسلحة التى جعلت منك ضابطاً بحق ؟

ـــ أنا لا تهمنى الأسلحة .. أنا نائب أحكام .

ـــ ليكن .. لقد جعلت منك نائب أحكام ، فى جيش به أسلحة .. هل تعلم نه لولا صفقة الأسلحة هذه ...

وقاطعته « منى » وهى تضحك قائلة :

ـــ عجيبة !! إن صبرى متحمس للأسلحة ، أكثر منك ؟

وأجاب عصام قائلا :

ـــ لأنها أسلحة روسية ، لو كانت أسلحة أمريكية ، لما ..

ـــ كلام فارغ .. إنى متحمس .. لأننا لم نعد بعد عزلا ، لقد أضحى عندنا السلاح الذى نستطيع أن ندافع به عن أنفسنا .. إنى أتصور نفسى على إحدى طائرات الميج .. أو داخل دبابة ستالين ...

وقاطعته نادية ضاحكة :

ـــ لماذا إذاً لم تدخل الحربية ؟!

ورفع صبرى سبابته وأشار إلى منظاره السميك قائلا :

ـــ أدخل الحربية بهذه ؟

وقال عصام ضاحكا :

ـــ ولِمَ لا ؟! تستطيع أن تحسس على التخت .

ـــ على أية حال إنى على استعداد للتطوع فى أية معركة .. إذا أحسست أنى سأكون ذا فائدة .. أقل فائدة .

وتساءل عصام :

ـــ حتى ولو كانت معركة مع روسيا .

ـــ ولماذا نتعارك مع روسيا .. إن عدونا هو إسرائيل ، وإنجلترا .

ـــ لماذا تتهرّب من السؤال أيها الشيوعى ؟ إنى أسألك . هل أنت على استعداد

للتطوع فى أى معركة ، حتى ولو كانت ضد روسيا ؟

وتوقف صبرى وتساءل غاضباً :

ـــ هل لديك شك فى هذا ؟! هل تظننى خائفاً ؟! إنى أحب روسيا .. لأنها تعاوننا ، وليس هناك عاقل يقول لك اكره من يعاونك .

وضحكت نادية وقالت وهى تجذب صبرى من ذراعه قائلة :

ـــ لا تغضب يا صبرى .. إنه يضحك معك .

ـــ لا .. إنه لا يضحك .. إنه دائماً يتهمنى بأنى شيوعى .

وقال عصام :

ـــ ألم تقل لى أنت إنك تحب الشيوعية ؟

وقالت « منى » وهى تضحك :

ـــ انتهينا .. فضوها سيرة .. بلا شيوعى بلا أمريكانى . لقد أتيتما لتودعانا .. لا لتتعاركا .

وعبر الأربعة شارع الخليفة المأمون إلى منشية البكرى ، وساروا فى الطريق المؤدى إلى البيت وقد أطرق كل منهم وانطلق فى سرحانه .

وكان صبرى أول من أفاق من شروده وهو يحس أن البيت يقرب دون أن يقول شيئاً .. لقد كان يود لو استطاع أن يخلو « بنادية » ليحدثها عن أشياء كثيرة .. ليقول لها إنه يضعها فى خطط مستقبله كنواة لهذه الخطط ، وإنه يعتبرها دعامة أحلامه ، ومبعث آماله ومنبع أمانيه .

كان يود أن يقول لها ما عجز طوال السنين الماضية عن قوله ، ولكنه كان يحس أن الفرصة قد فاتت ، وأن بضع الدقائق الباقية ، لن تسمح له بأكثر من أن يقول لها وداعاً .

وكان يعلم أيضاً .. أنه ـــ حتى لو واتته الفرصة ـــ فلن يقول شيئاً ، بل سيضيعها كما أضاع غيرها .. لشد ما يحس بالعجز أمامها .

وأحس أنه يجب أن يقول شيئاً ، فمن غير المعقول أن يتركها تسافر .. دون أن

ـعر أن ثمة خيطاً يربط بينهما .

وأخيراً قال فيما يشبه الهمس :

ـــ هل أستطيع أن أكتب إليك ؟

وأفاقت « نادية » من شرودها ، فى الشبح الطويل القامة ، العريض ـنكبين ، الذى ما زال يسير الهوينى وينحنى على السكرة فى الرقعة الخضراء تحت ـضوء الأبيض .

أفاقت « نادية » من شرودها قائلة :

ـــ طبعاً .. طبعاً .. يسعدنى أن تكتب إلىّ .

ـــ هل أستطيع أن أعرف العنوان ؟!

وأجاب عصام :

ـــ إنه معى سأعطيه لك عندما نعود إلى النادى .

وكانوا قد اقتربوا من البيت فتمهلوا فى السير .. حتى توقفوا على بعد خطوات ـن باب الحديقة .

ومدت « منى » يدها إلى عصام فأبقاها فى كفه برهة وقال وهو يشد عليها :

ـــ لن تتأخرى .

ـــ سأعود بمجرد أن تطلب عودتى .

ـــ أنا أطلب عودتك من الآن .. إنى لا أريد أن تسافرى .. إنى على أتم ـستعداد لأن نتزوج الآن إذا قررت البقاء .

وخيمت على وجه « منى » الضاحك .. سحابة حزن .. لم تستطع طبيعتها ـلمرحة أن تبددها ، وحاولت جهدها أن تكسو وجهها ابتسامة ، وقالت ، وهى ـشد على يد عصام :

ـــ يجب أن نسافر الآن يا عصام . إن أمى فى حالة معنوية سيئة جداً ، وهى فى ـشد الحاجة لأن تغير المكان والجو ، وأنا لا أستطيع أن أتخلى عنها فى هذه ـلظروف .. يجب أن نسافر سوياً ، وسنعود كلنا عندما تنصلح الأحوال .

ــ أى أحوال ؟

ــ أحوالنا جميعاً .. أنت لا تدرى الظروف القاسية التى مررنا بها خلال المدة التى أعقبت موت أبى .

ــ إذن دعى ماما تسافر وحدها لتستجم .

وضحكت « منى » فى مرارة قائلة :

ــ إن المسألة ليست مجرد استجمام يا عصام .. إن بقاءنا هنا الآن يكاد يكون مستحيلا .. إن حياتنا أضحت سلسلة من المشكلات .

وهزّ عصام رأسه كأنه لا يصدق وقال فى يأس :

ــ أعتقد أنك تستطيعين البقاء على الأقل أنت ونادية .

ــ إن نادية فى حاجة إلى السفر أكثر من أمى .

ثم همست بصوت خفيض :

ــ إنها لا تجسر أن تلقى الناس منذ الحريق .

وتساءل عصام فى دهشة :

ــ ولم ؟

ــ لأنها تعتقد أن وجهها قد شوّه .

ــ وهل شوّه حقيقة ؟ هل ترك الحريق به أثراً ؟

ــ ألم تلحظه ؟

ــ لم أحقق فيها .. لقد وقفت طوال المدة فى الظلام .

ــ لأنها تخشى أن يراها أحد .

ــ ولهذا رفضت الدخول فى النادى ؟

ــ طبعاً .

ــ ولكن هل أصابها التشويه حقاً ؟

وهزت « منى » رأسها فى حيرة وحزن وأجابت هامسة :

ــ لا أظن .. أنا لا أستطيع أن أحكم بالضبط عما أصابها .. أنت تعرف أن

'نسان لا يحس كثيراً بما يصيب القريبين منه من تغيير .. إنى أراها كما هى ..
ميلة ، رقيقة ، حبيبة .. قد يكون لون وجهها أضحى أكثر احمراراً .. وأشد
ماناً ، كالجرح حين يقشر .. ولكننى لا أرى فى ذلك تشويهاً ، والطبيب قد أكد
'ن هذا سيزول مع الزمن .

ــ أهذا هو ما يجعلها تهرب من الناس ؟

وهزت « منى » رأسها وقالت فى تردد حزين :

ــ و .. وعنقها .. لقد ترك فيه الحريق أثراً واضحاً .. ولكننى لا أحس أبداً
نه شوّهها .. إن « نادية » لا يمكن أن تشوّه ..

وأطرق عصام فى حزن وتمتم قائلا :

ــ مسكينة .. نادية .

ــ ولكنها تستطيع إخفاءه .. أؤكد أنك لو رأيتها فى النور ، وهى تلف رأسها
بالإيشارب وتحكم الياقة حول عنقها . لما لاحظت بها أى تغيير .

ــ إنها تحتاج إلى الكثير من الحب ، والحنان .. لكى تعاودها الثقة بنفسها ،
ولكى تقتنع أن ما أصابها لا يمكن أن يترك أثراً فى نفوس الغير .. ليتنى أستطيع أن
أفعل لها شيئاً .

ــ لا فائدة .. إن الرحيل خير علاج لها .. يجب أن ترى أناساً جدداً .. لا
تخشى مواجهتهم .

ــ على العكس .. إنها ستستمر فى انطوائها .. ليتها تبقى .

ثم نظر إلى صبرى ، وقد وقف مع نادية على مقربة من باب الحديقة ، وقد أخ
يرقبها فى إعجاب ويتحدث إليها فى وله ، وهمس عصام فى ثقة :

ــ إنه يستطيع أن يفعل لها شيئاً كثيراً .. لا تتصورى كم يحبها ؟

وهزّت « منى » رأسها هزة الشك وقالت فى مرارة :

ــ لا أظن .. ليس هو .. إن الذى يستطيع .. لا يكاد يحس بها ، ولا أظ
باتت تجرؤ على الاقتراب منه .

وهز عصام رأسه فى يأس هامساً :

ـــ مسكينة !

وحاولت « منى » أن تنفض عنهما سحابة الحزن التى لفتهما فقالت ضاحكة :

ـــ دعها للقدر .

وأجاب عصام فى مرارة :

ـــ وماذا نملك غير ذلك !

وأجابت « منى » فى إيمان :

ـــ إنى واثقة أن الله لن يخذلها .. إنها طيبة .

وكانت « نادية » قد بدأت تقلق ، ولم يكن صبرى قد استطاع فى تلك الفرصة التى انفرد بها أن يحدثها عن شيء . أكثر من صفقة الأسلحة وفائدتها ، وعدم تقييدها مصر بأى قيد .. وعما يمكن أن تجنيه .. من الحياد الإيجابى .. وعن موقف الغرب الموالى لإسرائيل ، وعن الفضيحة التى كشفها « جمال عبد الناصر » عندما قرأ الوثيقة الرسمية التى حصلت عليها المخابرات المصرية ، والتى تكشف الأسلحة التى سلمتها بريطانيا لإسرائيل.

واندفع صبرى يردد عن ظهر قلب :

ـــ تصوّرى : ٢٠ متيور و ٥٠ يوسناغ و ٢٠ موسكيتو .. وتسعين طائرة .. يعطونها لإسرائيل .. عدا ١٠٠ شيرمان والستاج هاون ؟!

وكان يمكن أن يستمر صبرى فى سرد أرقام الأسلحة .. لولا أن بدأت « نادية » تتحرك فى قلق ، وأحس صبرى أن الهنيهات التى منحها الوداع .. قد قضاها فى السياسة والحرب ، وكره من نفسه هذا العجز الذى يشل لسانه عن أن يحدثها عما يفيض به صدره .

مدت « نادية » يدها مودعة .. وهى تهتف بمنى :

ـــ هيا يا منى لقد تأخرنا .

وهمس صبرى فى لهجة ذائبة :

ـــ ألن يضايقك أن أكتب إليك ؟

وأجابت نادية مؤكدة ؟

ـــ إننى أحب أن تكتب إلىّ .

ثم أردفت ضاحكة :

ـــ ولكن .. لا تكتب عن صفقة الأسلحة والحياد الإيجابى .. فقد قلت لى ما الكفاية .

وقال صبرى معتذراً :

ـــ هل ضايقتك ؟!

وهزت « نادية » رأسها مؤكدة :

ـــ أبداً .. إنى أمزح .

وكان عصام و « منى » قد اقتربا منهما ، وقال عصام وهو ينظر إلى نادية فى لف :

ـــ سيوحشنا فراقك يا نادية .

وأجابت نادية :

ـــ وأنتم أيضاً .. سيوحشنى فراق كل شىء فى مصر .

ـــ عسى إذن .. ألا تطول غيبتكم ؟!

ـــ تقصد غيبة منى ؟

ـــ بل غيبتكم جميعاً .. إننا نحبكم كلكم .

ومنّ الله على صبرى .. بأن ينطق شيئاً .. مما فى صدره فقال مؤكداً :

ـــ وأنا أيضاً ؟

وتصافح الجميع ، واختفت الفتاتان داخل البيت ، ووقف صبرى يحملق فى للمة التى ضمت « نادية » وقد فغرفاه فى ذهول .

وجذبه عصام من ذراعه قائلا :

— هاى .. أتنوى أن تقف هكذا إلى الصباح ؟!

وأجاب صبرى فى وله :

— ليتني أستطيع .

— ماذا قلت لها ؟

— قلت لها .. قلت لها .. لقد حدثتها عن صفقة الأسلحة .. عن العشرين متيور ، والخمسين ..

— يخرب بيتك .. أهذا كل ما استطعت أن تقول ؟! أهذا حديث يقوله المحبون ساعة الوداع ؟

وهز صبرى رأسه الصغير فى يأس وحيرة وقال :

— لست أدرى يا عصام كيف تنطقون أحاديث الحب ، لا أعرف .. إنى أحس بالخجل يشل لسانى عندما أحاول أن أنطق بكلمة حب .

وجرّه عصام من ذراعه قائلا فى سخرية :

— شاطر .

— على أية حال .. سأكتب لها .. سأكتب لها ما عجزت عن قوله .. إنها هى نفسها حذرتنى من الكتابة عن صفقة الأسلحة .. سأقول لها .. إنها أعز وأجمل .. ما فى حياتى ..

(١٨)

نحن لا نصنع السراب !

كانت الساعة الرابعة عندما وقفت عربة الأجرة التى تحمل الأسرة الراحلة أمام كشك تفتيش الجمرك فى ميناء الإسكندرية وهبط منها سليمان متجهاً إلى داخل البناء المزدحم بالمسافرين يتبعه أحد الحمالين بالحقائب ، وما لبث أن خرج يستدعى الأم وابنتيها ، ووقف الثلاثة أمام موظف الجمرك يسألهن الأسئلة التقليدية عما يحملن وهل معهن نقود أو ذهب .

ومضت فترة فى إجراءات لم تدر « نادية » كنهها .. وقدم سليمان إحدى الأوراق للأم فوقعت عليها دون أن تعرف ما بها ، وبعد تفتيش شكلى على الحقائب ، تحرك الثلاثة بحقائبهن إلى الخارج متجهات مع سليمان إلى الباخرة .

وكان اليوم أحد أيام أكتوبر الخانقة .. التى يحاول الحر أن يؤكد فى عناد سمج أنه لم يذهب بعد ، وأنه يستطيع أن يعاود هجماته المحرقة رغم حلول الخريف .

ورغم وجود البحر على قيد خطوات .. لم تحس « نادية » بنسمة تندى وجهها الذى كشفت عنه لأول مرة بعد أن أحاطته « بالإيشارب » إحاطة محكمة فلم يبد منه سوى صفحته المواجهة ، وحجبت الأذنين والسالفتين والجزء الأكبر من جانب الخدين .. وربطت الإيشارب أسفل الذقن فغطى العنق ومعظم الذقن وارتفعت ياقة البلوزة .. المستديرة المغلقة .. لتحكم الحصار حول الوجه .. وتحجب كل أثر مما ترك الحريق .

وبدت البواخر متراصة على الميناء .. بأحجامها المختلفة ، وأعلامها المتباينة .. وتوقف ركب الأسرة بحقائبها على أحد الأرصفة .. حيث وقفت الباخرة « محمد على » بعلمها الأخضر المتهدّل الذى لم تقو الريح الراكدة على

نشره فاسترخى فى سكون وكسل .

وتوقفت الأسرة مرة ثانية أمام حاجز خشبى .. وضع على الرصيف أمام سلم السفينة ، وأحست « نادية » بالضيق والقلق ، وهى ترى احتشاد الناس من حولها ، وخيل إليها أن العيون كلها ترمقها وتفحص وجهها .. وتمنت لو استطاعت أن تعدو إلى الباخرة لتختفى نفسها فى إحدى قمراتها هاربة من العيون المتطلعة ، والنظرات الفاحصة التى تلاحقها .

وأخيراً عبرن الحاجز متجهات إلى السلم الخشبى الممتد من الرصيف إلى باب السفينة ، وعندما انتهى سليمان من الإجابات والاستفسارات ، ومن إبراز الجوازات وتسليمها .. اتجهن إلى حجرتهن يتبعهن الحمالون بالحقائب .

وتنفست « نادية » الصعداء .. وهى تحس بنفسها مرة أخرى بين جدران أربعة بعيدة عن زحمة الناس وضجيجهم وعيونهم المتطلعة .. وتمنت لو استطاعت أن ترتمى على الفراش ، وتلتف بالأغطية وتظل راقدة طوال الرحلة .

ولكنها كانت تعلم أنه مازال وراءها المزيد من المتاعب ، والمزيد من الاختلاط بالناس فى الباخرة .

ورفعت حقيبتها على أحد الأسرّة الأربعة التى ضمتها القمرة .. والتى وضع كل اثنين منهما واحد فوق الآخر .

وقالت « منى » ، وهى تقذف بحقيبتها فوق أحد الفراشين العاليين :

ــ سأسكن فى أحد أسرّة الدور الثانى .

وأجابت نادية :

ــ اسكنيهما معاً فلن يشاركك فيهما أحد .

وضحك سليمان معلقاً :

ــ معك حق .. إنها البهلوانة الوحيدة فى سكان الغرفة . ولا أظن « ماما » على استعداد لأن تتشعلق فى أحد هذه الأسرّة .

وأجابت « لورا » باسمة :

— إنى أفضل النوم على الأرض .. فهذا أسلم عاقبة .

وسادت برهة صمت .. أحس الجميع خلالها أن الوداع قد حان .. وداخل الثلاثة شعور عميق بالأسى .. وهن ينظرن إلى سليمان وهو على وشك أن يفارقهن .. وشعرن أى سند كان لهن .

وتمنى الثلاثة فى وقت واحد .. لو بقى سليمان معهن .. فقد كن يشعرن بالضياع من غيره .. إنه لم يتركهن فى الأيام الأخيرة لحظة واحدة .. ويخيل إليهن أنهن لولاه لما استطعن مجرد قطع تذاكر السفر إلى الإسكندرية .

وكانت « منى » أول من قطع حبل الصمت فقالت بطريقتها العابثة :

— لقد خطر لى خاطر .

وتساءل سليمان :

— ما هو ؟

— أن نغلق عليك باب الحجرة حتى ترحل السفينة .. ونأخذك معنا .. إننا نشعر أننا لا نستطيع الرحيل بدونك .

وأجاب سليمان فى تأثر :

— أن أيضاً أحس أنى سأفقد أعز ما عندى .

وقالت نادية :

— إذاً عدنا بأن تزورنا فى أول فرصة .. فى الصيف القادم إن استطعت .

— إنى أرجو أن تعدن أنتن قبل الصيف القادم .. كل شىء سيكون قد سوى وأصبح على ما يرام .

ثم نظر إلى الأم متسائلا :

— أليس كذلك يالورا ؟! ألم نتفق على هذا ؟

وهزت الأم رأسها فى يأس وأجابت :

— أرجو هذا .

وأردفت نادية تقول :

— وإذا لم نعد .. فلا بد أن تأتى إلينا أنت .. إياك أن تنسانا ؟
— أنا لا أنسى أحبائى أبداً .
ونظر فى ساعته ثم خطا إلى خارج الحجرة قائلا :
— أظن من الخير أن أترككن الآن .. حتى لا يتحقق خاطر « منى » .. فتخطفنى معها إلى فرنسا .

وسار الثلاثة فى الممر الضيق ، ثم صعدن بضع درجات إلى القاعة التى تؤدى إلى مدخل الباخرة.

وكانت الحركة قد اشتدت إيذاناً ببدء الرحيل .. والمسافرون جميعاً قد اصطفوا على سور السفينة المواجه للرصيف .. وفى الجانب الآخر .. تزاحم المودعون وراء الحاجز الخشبى الذى يفصلهم عن السفينة .

وصافح سليمان الأم .. وضم البنتين وهو يحاول جهده ألا يدع التأثر يغلبه .. وأن يتجلد على انفعال الوداع .. بمظاهر الضحك والمرح .. والمزاح .. وهبط السلم ليتخذ موقفه وراء الحاجز الخشبى بين المودعين .

وارتفعت الأيادى ملوّحة ، واختلطت الدموع بالضحكات .. وأطلقت التحيات من السفينة وإليها ، وذابت فى الطريق مختلطة ببعضها البعض .. ولم يصل منها إلى الطرفين سوى لغط وهمهمة .. لا تميز فيه حروف ولا نبرات .

وبدأت السفينة سيرها البطىء عن الرصيف .. ونظرت « نادية » إلى الرصيف المتباعد من خلال سحابة دمع خيمت على عينيها .. وبدأت مخيلتها ترسم بين الوجوه المحتشدة .. وجهاً حبيباً .. وتخيلت صاحبه بقامته الطويلة .. وكتفيه العريضتين .. وقد رفع يديه ملوّحاً .. ثم أحست به يتباعد مع بقية الوجوه .

وخرجت السفينة من الميناء .. وتفرّق ركابها .. بين الحجرات والأبهاء وحول حوض السباحة الصغير .. وبدا البحر ساكن الأديم .. مشلول الموج .. كأنه صفحة ملساء جرداء .. وبدا الجو مختنقاً .. كأن يداً ثقيلة أطبقت على عنقه

وكتمت أنفاسه .. وذرّات الضباب الرمادية الخفيفة معلقة فى الهواء .. ما قال الشاعر :

« ممسكات بعضها من الذعر بعضاً » .. لا نجد من النسيم هبة تنفخ فيها الحياة .. وترفع ثقلها عن كاهل الهواء .

وعادت « نادية » إلى الحجرة الصغيرة ذات الأسرّة المعلقة .. والطاقة المستديرة .. المطلة على صفحة الماء .. وأحست بنوع من الطمأنينة وهى تنطوى بين الجدران الضيقة ، التى تحجبها عن الناس ، وتحجب وجهها عن عيونهم .

وفتحت « نادية » الحقيبة ، وبدأت تتشاغل فى إخراج بعض ملابسها لتضعها فى الدولاب الخشبى .

ونظرت إليها « منى » متسائلة :

ــ ألا تنوين الصعود لنشاهد أعلى السفينة ؟

وهزت « نادية » رأسها بالنفى .

وعادت « منى » تتساءل فى إصرار :

ــ ستظلين جالسة هنا ؟

وأجابت « نادية » فى لهجة مقتضبة :

ــ أجل .

ــ لِمَه !

ــ سأرتب الملابس فى الدولاب .

ــ وما الداعى لترتيبها ؟! كلها خمسة أيام .. وننزل من السفينة .

ــ عندما ننزل نعيدها إلى الحقيبة .

ــ « تانى » !

ــ أتظنين أنك تستطيعين ارتداء فساتينك وهى مطوية فى الحقيبة أم أنك لن تبدلى الفستان الذى ترتدينه طوال الأيام الخمسة ؟

ــ معك حق .. لا بد من تعليقها على المشاجب .

وانحنت « منى » على « نادية » تربت ظهرها قائلة :

ـــ طول عمرك ناصحة .. هل تسمحين أن تخرجى لى ملابسى من الحقيبة ؟

وقبل أن تجيب « نادية » انطلقت تعدو إلى ظهر السفينة .

وتشاغلت « نادية » بإخراج ما يلزم من الملابس خلال السفر من داخل الحقائب وترتيبها فى الدولاب .. وكانت « الأم » قد التقت فى السفينة بصديقة فرنسية عائدة من بيروت إلى فرنسا .. فصعدت إليها فى البهو بعد أن اغتسلت واستراحت .

وبقيت « نادية » وحدها فى « الكابينة » الضيقة واستلقت على الفراش محدقة ببصرها فى السماء من خلال الطاقة المستديرة ، وقد تملكها خليط من مختلف المشاعر وشتى الانفعالات .

كان بها طمأنينة الهارب بعد أن أفلت من مطارديه .. كانت تشعر أنه لم يعد هناك خوف من أن تمسك بوجهها المشوّه وعنقها المحترق .. لقد نجت بجلدها .. جلدها الذى لم ينج من وهج النيران .. وأضحت فى مأمن من العيون التى لا تنال منها غير الشفقة والرثاء .

وكان بها يأس طويل عريض .. لا حدود له .. ولا بارقة لأمل فى أفقه .. يأس الهارب الذى لا يعرف ما بعد هربه .. الضائع فى صحراء جدباء قاحلة .

وطالت رقدتها وهى محدقة من الطاقة الزرقاء .. وأنبوبة الهواء فى سقف الحجرة تدفع إليها بريح ساخنة .. وضربات آلات رتيبة تصل إلى أذنيها خافتة متواصلة .

ووصلت إلى مسامعها دقات ذات رنين .. كأنها دق مطرقة على آنية نحاسية وتذكرت أنها دقات الطعام ، وملأها إحساس بالضيق .. فقد كرهت أن تخرج لتجلس على المائدة بين الناس .. وعاودها النفور من التجمع والأضواء والعيون المسلطة .

وتباعدت الدقات فعاودها الاسترخاء ... وطمأنت نفسها بأنها .. تفضل

لا تتناول العشاء .. لأنها لا تشعر بالجوع .

ولكن لم تكد تمضى لحظة حتى فتح الباب بعنف واندفعت منه « منى » صائحة :

ـــ نادية !

ومدت يدها وأضاءت النور .

وضايق النور « نادية » .. فأغمضت عينيها وأجابت فى ضيق :

ـــ ماذا تريدين ؟!

ـــ العشاء .. انهضى .

وهتفت بها « نادية » قائلة :

ـــ أطفئى النور .. واذهبى .. لن أتناول العشاء .

ـــ أنت مجنونة ؟! إن خير ما فى السفينة طعامها .. هل تذكرين آخر رحلة لنا .. والطعام الذى تناولناه فى السفينة ؟!

ـــ أطفئى النور قلت لك .

ولم تطفىء « منى » النور ، بل أمسكت بحقيبتها وأخذت تفتش محتوياتها بسرعة قائلة :

ـــ أين فستانى الدانتلا ؟

وأجابت « نادية » وهى تضع رأسها تحت الوسادة :

ـــ معلق عندك فى الدولاب .

وفتحت « منى » الدولاب واختطفت الفستان الدانتلا ثم قذفت بأحد فساتين « نادية » على فراشها صائحة :

ـــ خذى .. أبدلى ملابسك بسرعة .

وأخرجت « نادية » رأسها من أسفل الوسادة ، نظرت إلى « منى » فى غيظ وأجابت :

ـــ ضعى الفستان مكانه ، وكفى سخفاً .

ـــ لا بد أن ترتدى هذا .. إنهم هنا يحضرون العشاء بثياب السهرة .

ـــ ولهذا لن أتعشى .

ـــ لم يا نادية !! إنها ستكون جلسة لطيفة. إن قاعة الطعام فى منتهى الأناقة .. ستجلسين للعشاء والبحر يحيط بك ويتلاطم حولك .. و « الجرسونات » الأنيقات ينحنين أمامك .. وستشاهدين حولك مختلف أنواع الناس .

ـــ لا أريد أن أرى أحداً من هؤلاء الناس .. وليس لى قابلية للأكل .. وأفضل الراحة هنا .

ـــ وسيعرض فيلم جسر ووترلو .. بعد العشاء .. إنهم يعدون آلة العرض فى البهو الكبير .. هيا بنا يا نادية .. لا تكونى كسولة !

وأجابت « نادية » فى ضيق وملل :

ـــ قلت لك دعينى واذهبى أنت .. إنى أحس براحة أكثر وأنا هنا وحدى فى الحجرة .

ـــ هل تنوين أن تخزنى نفسك فى الحجرة طوال أيام السفر ؟

ـــ أجل .

ـــ ولن تتناولى الإفطار أو الغداء ؟

ـــ سأطلب منهم أن يحضروه إلىّ فى الحجرة .

ـــ الأيام الخمسة ؟

ـــ ولِمَ لا ؟

ـــ ولَمَ نعم ؟.. لماذا تحكمين على نفسك بهذا السجن !! أمن أجل هذا الوهم الكاذب عن وجهك !! لقد قلنا إنك ستغادرين مصر .. وتكفين عن هذا الانطواء والخوف من الناس .. كنت تخشين أن يراك أحد من أصدقائك ومعارفك فيشفق عليك ويرثى لك .. كنت تكرهين أن تلقى من ينكر عليك شكلك .. فماذا تخشين الآن ؟! ليس هناك من يعرفك على هذه السفينة .. ولن يكتشف أحد ما تتوهمين من تشويه فى وجهك .. ومع ذلك أنت تستطيعين

باستعمال الإيشارب أن تخفى كل أثر حول وجهك .. فلماذا لا ترتدينه .. كما فعلت فى طريقنا إلى السفينة ؟

ونظرت إليها « نادية » وتساءلت فى مرارة :

— هل تريديننى أن أذهب للعشاء بالإيشارب .. وأنت تقولين إنهم يحضرون بثياب السهرة ؟

وترددت « منى » برهة ، ثم قالت ، وهى تحاول أن تتراجع فيما قالته :

— لم أقل إنه حتم على كل إنسان أن يرتدى ثياب السهرة ، ولكن البعض يفعل كما قال لى السفرجى .. ولكن لن يمنعك أحد بالطبع من ارتداء الإيشارب .

— وهل من اللائق أن أظل أطوف بركاب السفينة وأدس نفسى بينهم وأنا معصوبة الوجه .. كالمبلية .. ماذا تريهم يظنون بمخلوقة .. تخنق نفسها بالعصابات حول وجهها وعنقها فى هذا الحر الخانق ؟!

وقالت « منى » مكابرة :

— لا شىء .

— بل سيظنونى إما مجنونة .. أو جرباء .

— ليظنوا كما يشاءون .. أنت حرّة فى أن ترتدى ما تشائين .. ومن غير المعقول أن تسجنى نفسك من أجل ما يمكن أن يظنه فيك بعض السخفاء .. ممن لا يعنيك أمرهم ولا يعنيهم أمرك .. ثم .. إنه لم يعد هناك .. من تخشين رؤيته لك .

واقتربت « منى » من أختها ، وهى تشد الفستان حول جسدها وجلست على حرف الفراش ومالت عليها تقبلها فى حنو قائلة :

— قومى يا نادية .. من أجل خاطرى .. دعينا نسلى أنفسنا .. ويكفى ما لقيناه من شقاء .. دعينا نتمتع برحلتنا فى البحر .. فيعلم الله ما يمكن أن نلقاه فى غدنا .. قومى .. وكفاك حملا للهموم .

وأحست « منى » برطوبة الدموع على خدى « نادية » ، فزادت من ضمتها

لها واستمرت تقول :

ـــ لا تبكى يا نادية .. وحدثينى .. إنى على استعداد لأن أخلع ملابسى وأمكث معك .. قولى .. ماذا يحزنك ؟!

وهزت « نادية » رأسها ، وهى تقول :

ـــ أبداً .. ليس هناك من شىء .

وعادت تتساءل ، وهى تضمها :

ـــ أأحزنك رحيلنا عن مصر ؟

ـــ ألم يحزنك أنت ؟

ـــ طبعاً .. ولكن ليس إلى حد اليأس والنحيب .. قولى .. ماذا يبكيك حقاً ؟

و لم تجب « نادية » .. وأرادت « منى » أن تصوّب سؤالا إلى الهدف مباشرة فتساءلت :

ـــ أأحزنك .. أنه لم يعد هناك .. من تخشين رؤيته لك ؟! قولى .

وأطرقت « نادية » وساد صمت حزين رهيب .. وأحست « منى » بالندم على قولها فعادت تقول فى أسف :

ـــ هل آلمتك يا نادية ؟!

ـــ أبداً .. ما لجرح بميت إيلام .

ـــ ولكن يجب أن تكفى عن التفكير فيه .. والحزن على فقده .. إنى أراه من أول يوم سراباً كاذباً .

ـــ معك حق .. ولكن السراب .. خير من لا سراب ، إنه يعللنا بالأمل .. وفى فسحة الأمل .. فسحة للحياة .

ـــ إذن اصنعى سراباً غيره .

ـــ نحن لا نصنع السراب يا منى .. وإنما تصنعه السماء .

وأطرقت « منى » وبدا عليها الحزن وتمتمت فى صوت خفيض :

ــ أجل .. معك حق .. حتى السراب الذى نخدع به أنفسنا .. لا نملك نحن صنعه ، وإنما يفرض علينا .

ونهضت « منى » من حرف الفراش وجذبت « نادية » من يدها قائلة :

ــ ومن أجل هذا يجب أن تقومى معى .. يجب أن نصنع ما نستطيع صنعه من أجل أنفسنا .. قومى يا حبيبتى وانفضى عنك كل أحزانك ، لا تقبعى تحتها .. تستسيغ الرقاد فوقك . ولكن تملصى منها .. هيا .. اغسلى وجهك وارتدى فستانك .

وبعد لحظات كانت « نادية » تقف أمام المرآة تعصب الإيشارب حول وجهها وتحكم ربطه أسفل ذقنها .. وترفع باقة البلوزة بحيث تتصل بالإيشارب وتكون معه وحدة متصلة لا تظهر من وجهها إلا رقعة تبدو مستديرة عند المواجهة .

ونظرت « منى » إلى « نادية » فى المرآة . وقالت بإعجاب :

ــ هايلة .. والله .. ولا « منى » فاضل .

ثم مدت سبابتها إلى شفتى « نادية » ودلكتهما بشدة .. فصاحت نادية متألمة :

ــ ما هذا ؟

ــ اسكتى .. هل تريدين أن تخرجى إلى الناس بشفتيك باهتتين !

وجذبتها من يدها ، ثم اتجهت بها إلى الخارج قائلة :

ــ هيا نستدعى « ماما » من البهو .. إنه بهو مدهش . لقد عزفت على البيانو الذى به .. و لم أعدم .. بضعة حمير .. صفقوا لى .. وكان من بينهم صحفى مصرى هجم علىّ فى حماس وشدّ على يدى مهنئاً .. وعرّفنى بنفسه قائلا إنه ذاهب إلى سويسرا .. ليتسلم عمله فى السفارة المصرية كملحق صحفى .. وقد قلت له إننا فى طريقنا للاصطياف فى « جبال الألب » لأن أمى فى حاجة إلى الاستشفاء فى فيشى وإفيان .. وقد دعانا للنزول عنده فى سويسرا إذا فكرنا فى

الذهاب إلى هناك .. فخذى بالك .. إياك أن تخطئى أمامه .. لقد حذرت « ماما » قبل أن أنزل إلى هنا .. إنه « قنزوح » جداً .. ولكنى كنت أشد منه « قنزحة » .

ونظرت « نادية » إلى « منى » من طرف عينيها وتساءلت :

— وماذا يهمك إذا كان « قنزوحاً » أو غير « قنزوح » .. هل تنوين أن تنشيء معه علاقة ؟!

وأشارت « منى » برأسها فى اقتضاب وأجابت :

— أجل .. مدة السفر فقط .. على سبيل « الونس » .

— وعصام ؟!

وبنفس البساطة أجابت « منى » :

— إنى أحب عصام .. ولا يمكن أن يكون هذا منافساً لعصام .. لأن عصام لا منافس له فى قلبى .. ولكن هذا مجرد زميل رحلة .. لقد قلت لك .. إنه أنيس .

— أنا لا أفهم هذا الأنيس الذى تدعينه .. أنا لا أعرف إلا الصرامة فى الإخلاص .

— اسمعى .. هبى أنك تسيرين وحدك فى طريق موحش ، ورأيت على الرصيف الآخر مخلوقاً يسير وحده مثلك .. أهناك مانع من تبادل الحديث على سبيل « الونس » وقطع وحشة الطريق ؟

— أبداً .. ولكنى شخصياً أفضل أن أمضى فى الطريق وحدى .. حتى لا أضل هدفى فيه .

وأجابت « منى » ساخرة :

— أنت مالك .. إنك تفضلين السير وحدك .. حتى ولو لم يكن لك هدف .

وكانت الأم قد بدأت الهبوط من البهو .. فصادفاها مع صديقتها « هنريت » فى منتصف السلم فهتفت بمنى :

ـــ لماذا تأخرت كل هذا التأخير ؟

ـــ لم تكن نادية تريد العشاء .. وكان علىّ أن أقنعها .

وعرّفت « الأم » صاحبتها بابنتيها .. وهبط الأربع إلى حجرة الطعام ، وأخذت « نادية » .. بفخامة الحجرة .. ومن ريح الأناقة التى تسرى فى جوانبها .. واتجهت بها « هنريت » إلى منضدة خالية فى جانب القاعة بجوار النافذة الزجاجية العريضة .

وكانت المنضدة تتسع لستة أفراد ، وترددت السيدة أمامها برهة ثم جرت أحد المقاعد قائلة :

ـــ اجلسوا .. فلا أظن أحداً ينوى أن يشاركنا فيها .

واتخذت « نادية » مكانها عند طرف المائدة ، وأقبل « الجرسون » ينحنى فى أدب شديد .. واتخذت « هنريت » موقف المضيفة بعد أن وجدت الخجل يلجم الأم وابنتيها .

وقبل أن يقبل « الجرسون » بالحساء .. لاح بباب القاعة شاب أنيق قد انعكس الضوء على لمعة شعره .. وأخذ يتلفت يمنه ويسرة بين مختلف المناضد .. ولمحته « نادية » فزغدت « منى » هامسة :

ـــ أهذا هو صاحبك « القنزوح » الذى يقف بالباب ؟!

وتلفتت « منى » إلى الباب ، ولم يكد يلتقى بصرها ببصره حتى أشار بيده فى حماس ، ثم أقبل عليهن كأنه لقى صديقاً حميما ، ثم وقف أمام المنضدة وانحنى محيياً وقال معرّفا الأسرة بنفسه « جمال عبد السلام الملحق الصحفى فى سويسرا » .. ثم أردف فى حماس :

ـــ لقد كنت أبحث عنك يا منى .. أين كنت ؟!

وبغير كلفة جذب أحد الكراسى الخالية ثم اتخذ مكانه بجوارهن على المائدة قائلا :

ـــ لقد خشيت أن تكونى تناولت العشاء .

ثم نظر إلى نادية وقال ضاحكا :

ـــ هذه لا شك أختك ؟

ثم أشار إلى الأم قائلا :

ـــ وهذه ماما ؟!

و لم تملك « منى » إلا أن تسايره فى عدم كلفته فأجابت ضاحكة :

ـــ أهذا ذكاء طبيعى .. أم خبرة صحفية ؟!

ـــ الاثنان .

ثم أشار إلى هنريت قائلا :

ـــ وهذه خالتك ؟!

وأجابت « منى » ضاحكة :

ـــ لا .. « هذه طلعت آوت » .

وأقبل الجرسون بالحساء .. وانهمك الجميع فى الطعام وتبودلت بينهم أحاديث عامة .. ثم مالبث الحديث أن انقسم إلى جانبين .. الأم وصاحبتها فى جانب .. والأختان والصحفى فى جانب آخر .

وكان « جمال » ـــ على قنزحته ـــ ثرثاراً لطيفاً .. استطاع بسهولة أن يزيل حجاب الكلفة .. فلم يكد ينتهى العشاء حتى بدا وكأنه صديق قديم للعائلة .

ووقف ينحنى أمام « نادية » .. وهو يقول :

ـــ أظننا نسرع الآن إلى البهو.قبل أن يبدأ عرض الفيلم .

ونظرت « منى » إلى أمها متسائلة :

ـــ هل تشاهدين معنا الفيلم ياماما ؟!

وأجابت الأم .

ـــ لا .. إنى فى حاجة إلى الراحة .

وكان « جمال » قد سبقهما إلى أعلى ليحجز الأمكنة .

ونظرت « منى » إلى « نادية » وهى تتبع « جمال » ببصرها قائلة :

ـ ما رأيك .. فى هذا الأنيس ؟

وضحكت نادية .. وأجابت :

ـ إنه معقول .

ثم أردفت هامسة وهى تتأبط ذراع منى :

ـ إن هيافته .. لا تجعل فى ونسه خطراً .

(١٩)

إنسان كريم !

استيقظت « نادية» عقب سبات عميق من نوم ليلة السفر الأولى فى السفينة وأحست بجسدها مستريحاً وذهنها صافياً ، وألقت ببصرها من الطاقة المستديرة ، فراعتها زرقة البحر الفيروزية تترامى على طول امتداد البصر ، وكانت الريح قد أخذت تتحرك .. ومرّت بكفها القلقة على سطح الماء فجعدته وقلبت انبساطه قلقلة وسكينته رجرجة ، ونفخت فى ذرات الضباب الرمادية العالقة فى الهواء ، فصيرتها هباء ، وصفا الجو وشفت السماء ، ولم تعد تحس العين أن هناك ما يحد مدى إبصارها ، وأنها تستطيع أن تنفذ إلى السماوات السبع .

وضغطت « نادية » بأنفها على زجاج النافذة .. فكوّنت حرارة أنفاسها طبقة رقيقة من البخار حجبت عنها البحر والسماء ، فمدت كفها تمسحه فى اغتباط .. كما كانت تفعل ، وهى لم تزل بعد طفلة .

ونظرت إلى الساعة فى رسغها ، فإذا بها لم تتجاوز السادسة وأحست برغبة جارفة فى أن تقفز من فراشها وتعدو إلى سطح السفينة .. لتتمتع بهذا الصباح المشرق الصافى .

وكانت تحس أن تلك هى فرصتها للاستمتاع بالبحر ، وظهر السفينة خال ، والركاب ما زالوا يقبعون فى حجراتهم يغطون فى نومهم أو يتثاءبون فى أسرتهم ، ونظرت إلى « منى » فإذا بها مستغرقة فى سباتها ، وقد انكفأت على وجهها فى فراشها العلوى وتدلت ذراعها فى الهواء .

ومدّت « نادية » يدها فجذبت كفها المدلاة .. محاولة إيقاظها دون أن تقلق أمها ، ورفعت « منى » كفها وانقلبت على جنبها الآخر .

ووقفت « نادية » بجوار الفراش تهزها من كتفها هامسة :

— منى .. منى .

وأجابت « منى » دون أن تفتح عينيها :

— ها .

— انهضى .

ولم تجب « منى » .. فقد كانت النعاس يثقل جفونها .. وعادت « نادية » تهزها قائلة :

— منى .. انهضى .. لكى نصعد إلى ظهر السفينة .

واستدارت « منى » وفتحت عينيها بصعوبة متسائلة :

— نصعد إلى ظهر السفينة ؟

— أجل .. إن البحر رائع ، ونسيم الصباح عجيب .

ونظرت إليها « منى » فى غيظ ، وهى تدعك عينيها وأجابت :

— البحر ، والنسيم .. نامى .. نامى .. بلا عبط ، سنظل خمسة أيام بلياليها .. لا نرى شيئاً غير البحر ، ولا نشم شيئاً غير النسيم .. إياك أن توقظينى من أجل هذه التفاهات .

وأغضمت عينيها ، وعادت إلى سباتها .

وبعد برهة .. كانت « نادية » تنطلق وحدها إلى أعلى السفينة ، وقد أحكمت الإيشارب حول وجهها .

وكانت السفينة قد خلت إلا من البحارة منتشرين على سطحها ، وفى ممراتها .. يغسلون الأرض وينظفون الجدران والأبواب ويلمعون المقابض النحاسية .

وكانت الشمس قد بدأت تتصاعد من الأفق باسطة أشعتها الصفراء على سطح السفينة متسللة من النوافذ الزجاجية إلى الحجرات .

ولمحت « نادية » عجوزين يتربضان بالسير فى نشاط على سطح السفينة ، وقد

كشف « الشورت » عن سيقانهما العجفاء . وصبياً قد تسلل من حجرة أبويه .. ليلهو بلعبة الطوق .

ولم تشعر « نادية » برهبة الأمس .. وملأها خلو السفينة من ركابها بالطمأنينة .. وسارت تطوف بأرجائها ومرافقها ، شاهدت الحمام ، وحجرة الآلات ، ومخزن البضائع . وصعدت إلى حجرة القيادة .. ثم انتهى المطاف بها أخيراً .. إلى مقدم السفينة ، ووقفت ترقب الماء الأزرق ومقدم السفينة يمخر عبابه .

واستقر بها المقام على سور السفينة تسبح ببصرها فى الفراغ الأزرق العريض ، وترقب ارتطام الماء بمقدم السفينة وانديا حه فى خط من الزبد الأبيض .

وأحست بوقع أقدام تقترب منها .. وظنت صاحبها أحد البحارة يباشر عملية النظافة .. ولكن الخطوات تمهلت حتى توقفت بجوارها .. ثم سمعت صوتاً يهتف بحماس :

ـــ هالو منى .

والتفت « نادية » فإذا به « جمال عبد السلام » بأساريره المتهللة وابتسامته التى لا تبهت ، وقبل أن ترد « نادية » لتصحح له ظنه بأنها ليست « منى » .. اندفع يقول :

ـــ أما مفاجأة هائلة .. لم يخطر ببالى قط أنك استيقظت فى هذه الساعة المبكرة .. وكنت أود أن أذهب لإيقاظك حتى ترى هذا المنظر الجميل .. ولكن خشيت أن أزعجك ، وخشيت أكثر أن تتهمنى أختك بالجنون .. إنها تبدو عاقلة جداً .. عاقلة أكثر مما يجب .. وعندما كنا نتعشى بالأمس ...

وكان على « نادية » أن تقاطعه لتبين له حقيقة الأمر حتى لا يتورّط فى أكثر من ذلك .. إن تهمة العقل محتملة .. أما أكثر من ذلك .. فيجب أن يحذر منه .

وقالت نادية :

ـــ يا أستاذ جمال .

— قلنا جمال فقط .. يا منى .

— أنا لست « منى » يا أستاذ « جمال » أنا نادية .. نادية العاقلة أكثر مما يجب .

ورفع « جمال » حاجبيه فى دهشة وتساءل فى شك :

— غير معقول .. أنت تضحكين علىّ يا منى .

ولم تملك « نادية » إلا الضحك من إصراره على الخطأ وأجابت :

— أنت وشأنك .. إذا كنت تصر على اعتبار أنى « منى » فليكن ، ولكن أرجوك أن تكف عن شتيمة « نادية » .. لأن طاقة المرء فى سماع نقائصه محدودة .

وهز جمال رأسه فى دهشة قائلا :

— عجيبة !! الظاهر أنك « نادية » فعلا .. أنا متأسف .. كا يجب أن أعرف ذلك ، ولكن الشبه قريب جداً .. وأنا لم أجلس معكما الوقت الكافى للتمييز بينكما ، ولم أكن كذلك أتصوّر أنك أنت التى ستستيقظين مبكرة ... وتقفين هكذا لترقبى البحر والشمس .. كنت أظنك أعقل من هذا !

— وهل هذا جنون ؟!

وضحك جمال قائلا :

— ليس بالضبط .

— بالتقريب ؟!

— إنه عند بعض الناس تأمل وعند الآخرين جنون . فماذا ترينه أنت ؟

— أنا أعتبره تأملا .

— وأنا أراه مقدمات جنون .

— والجنون .. فنون ؟!

وقهقه جمال .. ثم قال :

— زدت المسألة صعوبة .. كنت أظن أنى أستطيع أن أميز « منى » بروحها المرحة .. ولكن يبدو لى أنه حتى هذا تتشاركان فيه .

ــ ليس دائماً .. إن حالة المرح عندى حالة عارضة .

ــ تصيبك من البحر والشروق والنسيم ؟!

ــ ربما .

ونظر جمال إلى وجهها محدقاً .. وأحست « نادية » لأول مرّة بالاضطراب .. وضياع الثقة ، وهى تجد وجهها قد أضحى موضع فحص ، ومدت يدها بالطريقة اللاشعورية لتتحسسه ولتحكم الإيشارب حوله ولتشد الياقة حول عنقها .

وتساءل جمال ، وهو مستمر فى التحديق فيها :

ــ لست أدرى إذا كيف يستطيع المرء التمييز بينكما .

وساد الصمت برهة وأشاحت « نادية » بوجهها حتى تبعده عن زاوية الفحص ومجال المراقبة . وأجابت وهى تحاول التمالك :

ــ لن يصعب عليك الأمر بعد ذلك .. إن وجه « منى » جميل لا يمكن أن يخطئه المرء .

وأجاب جمال وهو يتكئ بذراعيه على سور السفينة :

ــ وجه « منى » فقط ؟ .. لو كان ذلك لهان الأمر .. إن المشكلة .. هى أن وجه كل منكما أجمل من الآخر .

ــ هذا من ذوقك .

وتحركت « نادية » مغادرة مقدم السفينة وهى تحس بالرغبة فى الهروب ، وسار جمال بجوارها وهو يتمتم قائلا :

ــ على أية حال .. لا أظننى سأخطئ بعد الآن .. إن بك شيئاً مميزا .

ــ بى أنا ؟!

ــ أجل شيئاً فى وجهك .

ــ وأحست « نادية » بضربات قلبها تتلاحق ، وزادت من سرعة خطاها وهى تحس أنها قد باتت فى حاجة إلى أربعة جدران تقيها شر العين الفاحصة .. و لم

تحاول أن تسأله عن الشيء الذى رآه فى وجهها .. كانت تخشى أن تكون بعض آثار الحريق قد أفلتت من الإيشارب .

ولم يدعها جمال تسأل .. فقد أردف يقول مفسراً :

— شيء فى وجهك .. لا أعرفه .. شيء مريح .

ولم تستطع « نادية » أن تكتم تنهيدة راحة انطلقت من شفتيها ، وهتفت تتساءل فى دهشة :

— مريح ؟!

— أجل .. شيء يبعث على الثقة والطمأنينة .

وكانا قد وصلا إلى أولى درجات السلم المؤدى إلى الصالون ، وكانت حركة الركاب قد أخذت تزداد ، ودبيب أقدامهم ينتشر .. وأحست « نادية » من قول جمال كأن التهديد الذى سلط عليها قد رفع ، والخطر الذى أحدق بها قد زال ، وأن مغامرتها التى أقدمت عليها بالظهور أمام الناس .. والخروج من الجحر .. لم تنته — كما كانت تتوقع — بكارثة .

إذاً فوجهها مازال به شيء .. شيء مريح يبعث على الثقة والطمأنينة ، وليس شيئاً كريهاً يبعث على النفور والاشمئزاز ، وهذا الشيء — كما يجزم صاحبها — شيء مميز .. يميزها عن « منى » .

ولكن أتراه يقول هذا .. لو رفعت الإيشارب ، وأنزلت الياقة ؟!

وأفزعها الخاطر ، ومدت يدها بسرعة لتتأكد من وجود الدرع الواقية ، ولتثبته فى موضعه جيداً .. حتى لا يبدى من آثار التشويه .. ما يقضى قضاء مبرماً على ذلك الشيء المريح المطمئن .

وقبل أن تنزل يدها من الإيشارب .. تساءل جمال ببساطة :

— يبدو أنك معجبة جداً بهذا الإيشارب .. إنك لم تخلعيه منذ أمس !

وأحست « نادية » بالاضطراب يعاودها ، وتمنت مرة أخرى لو أطلقت للريح ساقيها ، وهبطت إلى الحجرة لتختفى بين جدرانها .. لقد كان الحديث عن

الإيشارب اقتراباً من منطقة الخطر ، وكانت تحس أنه عورة .. لا يجب التكلم عنه ، ولكنها لم تملك إلا أن تردد متسائلة .. وهى تسرع الخطا :

— هل يعجبك ؟!

— لطيف .. أحب لونه الأزرق .. والزهور البيض التى به ، ولكن مع ذلك .. أحس أنك بدونه .. أجمل منك به .

ومرة أخرى مدت يدها لتطبق على ربطة الإيشارب .. لقد بدا لها .. أن ذلك الأحمق قد سلط عليها ، وأنه سيكرهها فى النهاية على خلع الإيشارب .

وعاد جمال يقول :

— لقد دهشت من لف رأسك ووجهك به خلال العشاء .. ولكنى ظننت أنك قد استحممت ، وأنك تخشين على رأسك من لفحة الهواء .. رغم أنه لم تكن بالأمس نسمة هواء ، وقلت لنفسى إنك فتاة « موسوسة » .. وعزمت أن أعلمك فى هذه الرحلة كيف تخرجين إلى الهواء .. برأسك عارياً .. وصدرك مفتوحاً .. كما تفعل أختك « منى » .

وازداد الاضطراب بنادية .. وبدت لها خطورة هذا الأحمق ، وأخذت تتمتم قائلة ، وهى تحاول أن تتجنب نظراته إلى وجهها :

— لقد تعوّدت ارتداءه .. لأنى أصبت بنزلة برد .. وأخشى إن خلعته أن تعاودنى النزلة مرة أخرى .

وقال جمال فى حماس :

— هذا بالضبط ما ظننت .. ولذلك يجب أن تخلعيه .. لا برد فى البحر أبداً .. افعلى كما يفعل البحارة .

وقبل أن تجيب « نادية » .. لمحت « منى » مقبلة وأحست نادية فى رؤيتها منجاة لها من مطاردة « جمال » وإلحاحه ، والخلاص من مناقشته فى خلع الإيشارب .

ولم يكد « جمال » يلمح « منى » حتى هتف بها :

ـــ هاى منى .. تصوّرى أنى ظننت أن نادية هى أنت !!
وأجابت منى :
ـــ لست أول من يخطىء فينا .. لقد كانت المدرّسات يخلطن بيننا دائماً فى المدرسة ، وكانت المسكينة تتحمل كل مساوئى ، وكنت أكافأ عن كل حسناتها .
وضحك جمال قائلا :
ـــ تماماً كما حدث هذا الصباح .. لقد تحمّلت مساوئك فى شخصى .. لقد قطعت عليها خلوتها .
ـــ تستاهل .. إنها أقلقت نومى .. إذ حاولت أن توقظنى لأتمتع بالبحر والنسيم ولكنى نهرتها .. ثم حاولت النوم فلم أفلح ، ولم أجد خيراً من أن أرتدى ملابسى ثم ألحق بكما .
ـــ كنت أظن أنك أنشط منها ؟
ـــ أنا أنشط منها عندما تكون هناك فائدة للنشاط .. أعنى فائدة أهم من مراقبة البحر وشم النسيم .
وكان الثلاثة قد وصلوا إلى البهو ، وهمت « نادية » بالانسحاب لتعود إلى حجرتها عندما استرسل جمال قائلا :
ـــ كنا نتناقش أنا ونادية حول موضوع الإيشارب .
وبهتت « منى » وفغرت فاها من الدهشة ثم هتفت مستفسرة :
ـــ موضوع إيه ؟
وأجاب جمال وكأنه يتحدث فى موضوع مسلّ :
ـــ الإيشارب الذى تلف به رأسها .. لقد أدهشنى أن ترتديه خلال العشاء أمس .. ثم علمت منها الآن أنها أصيبت بنزلة برد .. وأنها تخشى خلعه . ولكنى أكدت لها أنها يجب أن تطرد عن نفسها هذا الوهم .
ونظرت « منى » إلى « نادية » وأحست بالاضطراب والخوف اللذين

تعانيهما .. وتبينت الخطورة التى تحس بها ، فهزت رأسها بشدة قائلة :

ـــ لا .. لا .. مستحيل . إنها لا تستطيع خلعه .. لقد حذّرها الأطباء من أى هبة هواء . وإلا انتكست .. إياك أن تخلعيه يا نادية .. لا تكونى مجنونة .. إياك أن تستمعى إلى أحد .. وإلا ..

وبدت الدهشة على وجه « جمال » من حماس « منى » وتمتم معتذراً :

ـــ أنا متأسف .. أنا .. أنا لم أقصد أبداً .

وأجابت نادية :

ـــ لا داعى للأسف .. إنك لم تكن تعرف بالطبع .

ـــ كنت أظنها مسألة « وسوسة » .. لا تحذير طبيب .. ومع ذلك فإنى ...

وقبل أن يسترسل فى حديثه قاطعته « نادية » قائلة وهى تحاول الاستئذان :

ـــ أتسمحان لى .. سأعود إلى الحجرة وسألحق بكما على الإفطار .

وهتفت بها « منى » وهى تتجه إلى حجرتها :

ـــ إياك أن تخلعى الإيشارب .

وأحست « نادية » ببعض الطمأنينة .. بعد أن وجدت عذراً يقيها الفضول طول مدة الرحلة .. بحيث لا تضطر مرة أخرى إلى الانطواء كالسجينة داخل الحجرة .

ولم يعاود « جمال » بعد ذلك الحديث فى موضوع الإيشارب ، وكانت الألفة تزداد بينه وبين الأختين يوماً بعد يوم .. كان مخلوقاً طيب القلب .. ودوداً أليفاً ، وكان كما وصفته « نادية » ثرثاراً لطيفاً .. أو كما قالت عنه « منى » فى أول لقاء لها به .. أنيس طريق ، وصديق رحلة .

وكانت « نادية » تحس فى جلساتهم .. أن عينى « جمال » كثيرة التسلل إلى وجهها .. وكان يصيبها إحساس بالخوف والاضطراب ، وكأنما كانت تخشى أن يكتشف أمر وجهها المعصوب ويعرف ما وراء عصابة « الإيشارب » من تشويه .

ولكن « منى » كانت تعرف ما وراء النظرات .. كانت تدرك بحساسيتها ، أن جمال قد تعلق بنادية ، وأن إحساسه بها لم يعد مجرد إحساس صديق .. بل تعداه أكثر من هذا . وعندما كانت « نادية » تضيق بنظراته كانت « منى » تهمس بها :

ــ لا تخشى شيئاً ، ألم يقل لك إنه رأى فى وجهك شيئاً مميزاً .. شيئاً مريحا .

وتهز « نادية » رأسها موافقة فتقول « منى » ضاحكة :

ــ إذن دعيه .. ينظر إليه .. لعله يستريح .

ثم تصمت برهة وتردف قائلة :

ــ إنه يحبك يا غبية .

وتهز « نادية » رأسها وتقول فى غير اكتراث :

ــ يحبنى أنا ؟!

ــ أجل أنت .

ــ دعيه يحب .

ــ لماذا تستخفين به ؟! إنه إنسان ممتاز .. لطيف ، ووجيه ، وله مركز محترم ومستقبل مرموق .

وتنظر إليها « نادية » فى دهشة وتتساءل :

ــ ما هذا كله ؟! ماذا يهمنى أنا من مركزه ومستقبله ؟!

ــ لكيلا تستخفى به .

ــ ومالى أنا به .. أستخف أو لا أستخف .

ــ لا تكونى بلهاء .. لو كنت منك لشجعته .

ــ على ماذا ؟!

ــ على التقدم لخطبتى .

ــ ما هذه السخافة يا منى ؟!

ــ سخافتى أنا !! والله .. ما أسخف على الأرض منك .. رغم ما تبدين به من عقل ورزانة .. هل تظنين أنك ستبقين عانساً ؟! هل تنوين الترهب من أجل هذا « الجزار » الذى لا يحس بوجودك على ظهر الأرض ، الذى رفض نجدتك يوم الحريق ؟!

ــ رفض نجدتى ؟. من قال لك هذا ؟

ــ ألم يتركك دون أن يجرى لك العملية .

ــ أنت تعرفين أنه ذهب لإنقاذ مريض من الموت ، فلا تحاولى تشويه سمعته بالافتراء . ثم إنى لم أكن أعنى لديه شيئاً .

ــ ولن تعنى لديه شيئاً أبداً .

ــ لست أريد أن أعنى لديه .. أو لدى غيره شيئاً .

ــ ولكنك ستتزوجين يوماً ما .. فلا تحاولى أن تجعلى من حبه عقبة تضيع منك الفرص ، وتبعد عنك الناس .

ــ أين هذه الفرص ؟! وأين هؤلاء الناس ؟! أكل هذا تقولينه لمجرد نظرة تطلع من صاحبنا هذا ؟! هل تعتقدين أن نظراته ستستمر لو نزعت عن وجهى الإيشارب ؟.

ــ إذا كان يحبك فلن يضيره أى شيء .

ــ أنت بلهاء .. أؤكد لك أن اليوم الذى سيبصرنى فيه بلا إيشارب .. لن يجد فى وجهى أثراً لذلك الشيء الذى يريحه ويجذبه .

* * *

وبعد بضعة أيام .. أقبل « جمال » على الأختين بعد الغداء وهما فى طريقهما إلى الحجرة وصاح بهما :

ــ لا .. لا .. لا نوم اليوم .. سنبقى مستيقظين .. حتى نشاهد البركان .. سنمر به فى الساعة الثالثة والربع .. أى بعد ساعة وربع .. فهيا بنا نجلس هناك حتى نرقبه .

وأجابت نادية :

ــ بشرط أن تنتقى لنا ركناً هادئاً لا يزعجنا فيه أحد ؟!

ــ لكما علىّ ذلك .

وذهب الثلاثة إلى مقدمة السفينة واضطجعوا على مقاعد القماش الطويلة .. وبدأ « جمال » ثرثرته عن رحلاته السابقة .. وعن أول مرة عبر فيها مضيق مسينا ، ورأى بركان فيزوف .

وهب الهواء رطبا .. كأنه الأكف الندية تربت الوجوه .

وأسبلت « نادية » عينيها وأرخت أطرافها ، وبعد لحظة أحست بالهواء .. كالمخدر ، وتثاقلت أجفانها .. وبدأت أفكارها تختلط اختلاط المقبل على النوم ، ولم تعد تلتقط سوى فقرات متقطعة من حديث جمال .. حتى خفت صوته تماماً .

ومضت برهة و « نادية » مستغرقة فى سباتها على المقعد المريح الطويل .. وجمال مسترسل فى حديثه .. و « منى » تتأرجح بين الإنصات والسرحان .

وقال جمال ضمن أحاديثه عن رحلاته :

ــ وأعجب ما رأيت فى إيطاليا .. مقابر جنوا .. هل رأيتها ؟

وكانت « منى » شاردة فلم تجب والتفت جمال إلى « نادية » يستحث ردّها فإذا بها نائمة .

وتشبثت عيناه بوجهها ، وظل ينظر إليه كالمأخوذ .

كان الإيشارب قد انزلق من رأسها وبدا أسفل صدغها ، وقد ظهرت به آثار الحريق .. وبدت به النقط البيض التى بدت بالجلد عقب شفائه من الحريق .

وأصابت جمال رجفة ، وأحس بألم يثقل جوفه .. وهو يكشف سر إصراره على عصابة وجهها .. وبغير وعى وجد نفسه يميل فى مقعده ويمد ذراعه .. يمسك طرف الإيشارب بإبهامه وسبابته ، ويشده على رأسها فى سكون .

وأحست « منى » بصمته ، وتلفتت إليه . لتجده يشد الإيشارب على وجا

« نادية » بعد أن اكتشف آثار الحريق .

وخيل إلى « منى » أن المقعد يغوص بها فى خشب السفينة ومضت بها برهة ، وهى تلهث كأنما تقف على شفا هاوية .. وأخذت ترقب عينى « نادية » ، وهى تدعو الله أن يثقل أجفانها فلا يجعلها تحس بما حدث .

والتقت عينا « منى » بعينى جمال .. وأخذ كل منهما يحدق فى الآخر دون أن ينطق بكلمة .

وأخيراً قالت « منى » فى رجاء حازم :

ــ لن تذكر لها شيئاً .

وهز جمال رأسه بالنفى دون أن ينطق .. فقد كان يخشى أن يخونه صوته وتخذله عبراته .

وعادت « منى » تتساءل هامسة :

ــ ولن تغير معاملتك لها ؟!

وعاد جمال يهز رأسه فى تأكيد وهمس قائلا :

ــ سأغيرها .. إلى أفضل .

ونظرت « مني » هامسة :

ــ متشكرة .. متشكرة جداً .. أنت إنسان كريم .

(٢٠)

وهم وحقيقة

اقتربت السفينة من مرسيليا .. وبدا الميناء الفرنسى من بعيد بأسقفه الحمر المنحدرة ، وبيوته المكدسة على الشاطئ ، كحائط ممتد .. وكان الجو قد تلبد بالغيوم ، والمطر قد أخذ يتساقط فى غزارة .. و « جمال » قد وقف بجوار الأختين يتكئون على حرف السور فى أحد الممرات يرقبون المرشد وهو يصعد من القارب البخارى إلى السفينة ليقودها إلى الميناء .

وأحست « منى » بشىء من الأسف على فراق « جمال » فقد وجدت فيه خير مؤنس لوحشة « نادية » ولا سيما بعد أن أدرك سر انطوائها وعرف ما وراء العصابة التى تشد بها وجهها .. فازداد إقبالا عليها .. وعناية بها .

ولم تشك « منى » أن ازدياد إقبال « جمال » على « نادية » قد سببه الإحساس بالرثاء والشفقة .. وكانت شديدة الحذر من أن يساور « نادية » أقل شك فى حقيقة مشاعر « جمال » ، فقد أحست أن هذه المشاعر ، رغم عدم نفاذها إلى نفسها .. إلا أنها منحتها بعض الثقة .. وأبعدت عنها الاعتقاد بأنها أضحت مخلوقة مشوّهة ينفر منها الناس .

وكان « جمال » قد بدا عليه السرور وأخذ يسترق النظر بين آونة وأخرى إلى « نادية » وقد بدا جانب وجهها مشدوداً بالإيشارب ، وأحس برغبة شديدة فى أن يتحسس رأسها ويضمها إليه فى رفق .

لقد أحس أن الفتاة الشقراء الهادئة المعصوبة الرأس .. لم تعد مجرد عابر سبيل .. عبرت طريقه . بل أضحت بعد بضعة أيام السفر .. وكأنها جزء من كيانه .

وحوّل بصره إلى « منى » .. وبدا فى عينيه .. كمن نوى أمراً .. ومد يده .. فمس كتفها .. والتفتت إليه « منى » متسائلة بعينيها عما يريد .

وبدا عليه الارتباك .. ثم أشار برأسه إلى داخل السفينة فهزت « منى » رأسها تطلب مزيداً من الشرح .. ولكن « نادية » التفتت قائلة وهى تجد المطر يزداد انهماراً :

ــ تصوّروا الفارق بين الجو الذى صعدنا فيه إلى السفينة والجو الذى سنغادرها فيه ؟ من النقيض إلى النقيض !

وعلقت « منى » قائلة :

ــ أنا أفضل هذا الجو .. مهما هطلت السماء .. فهو خير . من الجو الراكد الذى يحس فيه المرء بالاختناق .

ونظر « جمال » إلى « منى » وهو يقول :

ــ عن إذنكما .. سأذهب لأخرج حقائبى من الحجرة .

وقبل أن يستدير مغادراً قال « لمنى » :

ــ ألا تريدين المجلات التى طلبتها يا منى ؟!

وأجابت منى :

ــ أجل .. سآتى معك لآخذها .

وسارت « منى » لاحقة به وهو يتجه إلى الداخل . وقبل أن يصلا إلى حجرته هتفت منى :

ــ أحقاً تريدنى من أجل المجلات ؟!

وتوقف « جمال » وقد بدا على سيمائه التفكير وأجاب فى شرود :

ــ بل أريدك لشىء أهم من هذا كثيراً .

ــ ما هو ؟!

ــ هل تجلسين فى حجرتى ؟!

ــ يتوقف على نوع حديثك .

ثم أردفت مازحة :

ــ فإذا كان غزلا .. فمن الخير أن نجلس على الأريكة .. أو على حافة الحمام .

ــ بل هو حديث جاد .

ــ وهل الغزل حديث غير جاد ، طبعاً لسنا قدر المقام !

ولم يكن يبدو على « جمال » أى ميل للمزاح .. فقد مدّ يده وجذب « منى » إلى داخل الحجرة قائلا :

ــ اسمعى يا منى .. ليس لدينا وقت للمزاح .. أريد أن أطلب منك شيئاً هاماً .

ــ ما هو ؟!

ــ إنى أريد أن أخطب نادية .

وكانت « منى » تتوقع أن يحدثها عن « نادية » .. ولكن لم يطف بذهنها أن يصل حديثه إلى حد الخطبة .

كانت تتوقع أن يحدثها عن ألمه لإصابة « نادية » .. وعن استعداده لأن يكتب إليها .

كانت تتوقع .. كل أنواع المساعدة التى يمكن أن يقدمها إنسان كريم أثيرت شفقته .. ولكنها لم تنتظر أبداً أن تصل المساعدة إلى حد الخطبة .

وعقدت الدهشة لسانها فلم تنبس بكلمة .. وطال الترقب « بجمال » .. وهو يحدق فى قسماتها المذهولة وتساءل مستحثاً :

ــ لماذا لا تجيبين ؟!

وأجابت « منى » مترددة :

ــ لأنى .. لأنى .. مندهشة .. هذه مفاجأة لم أكن أتوقعها .

ــ لماذا ؟!

ــ لأنى لم أظن الشفقة تبلغ بك هذا الحد من الاندفاع .

ــ شفقة .. واندفاع ؟! ما هذا الذى تقولين !

ــ أليس ما دفعك إلى خطبتها .. إحساسك بالشفقة عليها ؟

ــ طبعا لا .

ــ هل قرأت قصة « حذار من الشفقة .. لزفيج » ؟!

ــ طبعاً .. لا .

ــ إذاً فاقرأها أولا .

ونظر إليها « جمال » وتساءل فى غيظ :

ــ أهذا كلام !! أقول إنى أود أن أخطب « نادية» .. فتقولين لى اقرأ قصة ؟!

ــ أجل .. إنك سترى نفسك فى هذه القصة .. ستجد البطل الذى دفعته الشفقة إلى خطبة مشلولة مقعدة .. ثم يندم بعدها .. ويهجرها .. فتنتحر .

ونظر إليها « جمال » وهتف قائلا :

ــ ما هذا الذى تقولين ! من قال إنى أشفق عليها ؟!

ــ ما الذى يدفعك إذاً لخطبتها بمثل هذا الحماس !؟ إنك لم ترها سوى بضعة أيام .. فلماذا كل هذا الاندفاع ؟

ــ لأننا نوشك أن نفترق .. بعد بضع ساعات . ومن يعرف متى نلتقى بعد ذلك ؟.

ــ أتظنك لو لم ترها ساعة مرورنا بالبركان وقد كشف الهواء عن وجهها .. أكنت مقدماً على خطبتها الآن ؟!

وأجاب « جمال » مؤكداً :

ــ طبعاً .. إنى أعرف مشاعرى جيداً !

وأطرقت « منى » برهة .. وبدا عليها التفكير .

هذه فرصة العمر قد أتاحها القدر لنادية .. هذا المخلوق الذى لا يعيبه شىء يتقدم لخطبتها .. تدفعه أحاسيسه لكى يرفعها من هوة يأسها .. إن القدر لم

يقذف إليها بأنيس رحلة . ولكن بشريك عمر !

ترى ماذا سيكون رأى « نادية » ؟! أتراها ، ستشكر القدر على منحته .. وتقنع نفسها بهبته ؟! أم ستظل فى عنادها .. متعلقة بخيوط واهيـة .. مـن الأوهام .. والأشباح .. والسراب الكاذب !!

ونظر « جمال » إلى « منى » وعاد يتساءل :

ـــ ما رأيك يا منى ؟!

ـــ رأيى .. رأيى ؟!!

ورفعت رأسها وسألته فجأة :

ـــ ولماذا لا تسألها هى ؟! ما قيمة رأيى أنا فى موضوع يخصها وحدها !

ـــ أنت أقرب الناس إليها .. وأدرى الناس بها .. ماذا تظنين سيكون رأيها ؟!

وبدت على « منى » الحيرة وصمتت برهة ثم أجابت :

ـــ يبدو لى أنك أدرى منى بموقعك من نفسها !!

ـــ لست واثقاً منه .. أو على الأصح لا أستطيع أن أعرفه بالتحديد .. إنها تقبل علىّ .. وتعاملنى برفق .. ورقـة .. وتشعرنى بشـقتها فـىّ وترحـيبها بصداقتى .

ـــ فقط ؟!

ـــ أظن هذا .

ـــ وأنت ؟! ما هو موقعها فى نفسك ؟!

ـــ أكثر كثيراً .. إنى يا منى .. باختصار .. أحبها .

ـــ وهل تحس هى بذلك ؟!

ـــ لا أعلم .

ـــ ألم تحاول أن تشعرها ؟

ـــ لم أدر كيف .. لم تمنحنى فرصة واحدة لذلك . بالرغم من جلستنا معاً .. حتى الساعات التى جلسناها سوياً على ظهر السفينة .. والليـل ..

والقمر .. والنسيم .. والموج . وما هيأته حولنا كل عناصر الشاعرية والحب .. لم تستطع أن تخرج من شفتى كلمة حب .. كنا نتكلم فى السياسة والوطنية والأدب والفلسفة .. وفى كل شىء عدا ذلك الشىء الذى أحس لها به فى صدرى .

وصمت « جمال » .. ونظرت إليه « منى » متسائلة :

— وماذا أستطيع أنا أن أفعل ؟!

— تستطيعين أن تفعلى شيئاً كثيراً ، تستطيعين أن تدركى مدى استعدادها لقبول مطلبى .. إنك تعرفين مشاعرها جيداً وهى لاشك حدثتك عنى .. فما رأيك ؟!

وأحست « منى » بالحرج . وترددت برهة قبل أن تقول :

— رأيى .. إنى فى الواقع لا أعرف خبايا صدرها .. وإن كنت أحس أن بها ميلا إليك .

— ميلا من أى نوع ؟!

— ليس شيئا أكثر من ذلك الذى تشعر به .. صداقة .. وود .

— ولا شىء أكثر من ذلك ؟!

— لست أدرى .

وبدت خيبة الأمل على وجه « جمال » .. ولكنه مالبث حتى هز كتفيه قائلا :

— على أية حال .. لا أظن ذلك يعنى أنها ترفض .

ولم تعرف « منى » كيف تجيب .. إنها لم تستطع أن تحدد لنفسها ، ماذا يمكن أن يكون رأى نادية فى عرضه .

ولم يطل الصمت بجمال حتى سألها فى رجاء :

— هل تستطيعين أن تسأليها ؟! أعنى أن تجسى نبضها ؟!

وأطرقت « منى » .. ومرة أخرى بدت عليها الحيرة . لقد كانت تحس فى قرارة نفسها أن « نادية » سترفض .. ولكنها كانت تحب أن تسوق إليها

الفرصة .. لتعرف أن هناك من يحبها .. وأنه على استعداد لخطبتها .. وأن ذلك التشويه الموهوم فى وجهها .. لا أثر له .

ومن أجل ذلك كانت تحب أن يتقدم إليها « جمال » بنفسه لأنها كانت تعلم أن « نادية » قد لا تأخذ عرضها مأخذ الجد .. بل ستظن حديثها من بنات أوهامها ومبتكرات أفكارها .

ولكنها كانت تعرف أيضاً .. أن « نادية » ستعتقد أن « جمال » سيتقدم لخطبتها .. لأنه لا يعرف سوى شكلها الظاهر .. وأنه لو عرف ما تحت الإيشارب .. لانصرف عنها .. ولما فكر فى التقدم إليها .

ومن غير المعقول أن ينبئها « جمال » .. أنه يعرف أن بعنقها آثار حريق ، وأنه يحبها رغم ذلك .

إذاً فعليها أن تتركه يتقدم إليها .. لتتأكد أن المسألة حقيقة واقعة .. وأنها ليست من تأليف « منى » .

وعلى « منى » بعد ذلك ، أن تنبئها أنه يعرف الحقيقة .. وأنه رآها بلا إيشارب ، وأنه يحبها رغم ذلك .

كل هذه الفروض .. قد افترضتها « منى » .. على أساس استبعاد الوهم المعلق فى رأس « نادية » .. والسراب الكاذب الذى يلوح أمامها .

وقال « جمال » يستحث « منى » ويخرجها من أفكارها :

— لماذا لا تجيبين ؟! أتستطيعين أن تجسى نبضها ؟!

— إنى .. إنى أفضل .. أن تتحدث إليها بنفسك .. إن ذلك أفضل كثيراً .

— ولكن .. أخشى .. أن ..

— تخشى ماذا ؟!

— أعنى .. ربما كان فى قلبها .. إنسان .. آخر!

وعادت « منى » تطرق .. وأردف جمال يقول :

— وأنت طبعاً . تستطيعين أن تعرفى ؟!

ورفعت « منى » رأسها .. وقالت فى صوت خافت :

ـــ أجل .. إن فى قلبها شيئاً .. ولكنه ليس إنساناً .. إنه وهم .. ولذلك أسألك أنت أن تتقدم إليها ، فلعلك تقضى عليه .. لعل واقعك يقهر أحلامها .. تقدّم .. وليفعل الله ما يشاء .

وقبل أن تستدير « منى » لتنصرف من الحجرة .. عادت تقول مؤكدة :

ـــ ولكن أرجوك قبل أن تقدم على أى شىء ، أن تتأكد من حقيقة مشاعرك .. تأكد من أنها ليست شفقة .. لأنى أكره أن أعرض « نادية » لمصير بطلة زفيج ؟!

ـــ قلت لك إنى أعرف مشاعرى جيداً .

ـــ إذاً هيا بنا .. إنى ألمح أبنية الميناء تقترب .. هيا بنا نخرج الحقائب .. إن أمامنا مشكلات كثيرة حتى نصل إلى « جاب ».لقد وفر عمى سليمان علينا كل هذه المتاعب فى مصر .

ـــ وأنا هنا سأحل محل عمك سليمان .. دعى لى كل شىء .

وكانت السفينة قد أخذت تتهادى داخل الميناء حتى توقفت على الرصيف .. وتعالت من أسفل صيحات رجال الميناء والحمالين . وصعد البوليس الفرنسى .. وجلس مع رجال السفينة يفحص الأوراق .. ووقفت « نادية ومنى » مع أمهما يفحصان الوجوه المتراصة على الرصيف .. وكان يبدو على وجه الأم سيماء الحزن والأسى .. وهى تشعر بوحدتها .. وتتخيل بين آونة وأخرى أن فاضل سيقبل من ورائها لينبئها أن الجوازات قد ختمت وأنهم يستطيعون النزول .. وتتلفت حولها فلا تجد سوى ابنتيها تقفان متطلعتين إلى الرصيف كأنهما تتوقعان أحداً يلقاهما كما يحدث لبقية المسافرين .

وأخيراً أقبل « جمال » يهتف بهن قائلا :

ـــ هيا بنا .. لقد انتهى كل شىء .

وأخذوا يهبطون السلم المعلق بين السفينة والرصيف ، وقد تعالى الضجيج ،

من حولهم ، واشتد الصياح ، وأقبل عليهم أصحاب عربات الأجرة والحمالون وهم يتبادلون الصياح والسباب .

وقال « جمال » ، وهو يدفعهم بيده :

— لابد أن نحذر هؤلاء الأفاقين إنهم شر رجال الموانى .

ووقف الأربعة مرة أخرى تحت سقيفة الجمرك .. ورصت الحقائب على منصة طويلة .. و لم يطل بهم الأمر حتى كانت إحدى عربات الأجرة تحملهم خارج الميناء وقال « جمال » للسائق :

— إلى القنصلية المصرية .

واعترضت الأم قائلة :

— لماذا لا نذهب إلى المحطة رأساً .

— إن لى صلة بالقنصل .. ويمكنه أن يعاوننا فى إبدال العملة بالسعر الرسمى .. ونستطيع كذلك أن نعرف مواعيد القطارات بدل أن نذهب لننتظر فى المحطة .

وهزت الأم رأسها قائلة :

— كما تشاءون .

ووقفت العربة بعد فترة أمام القنصلية المصرية ، وكان المطر ما زال يتساقط بشدة . والمارة يعدون فى عجلة حاملين المظلات مرتدين معاطف المشمع . وهزت « نادية » رأسها متعجبة :

— لم أتصوّر قط أننا سنقابل فجأة بمثل هذا المطر والبرد .

ثم نظرت إلى « منى » ، وقد أحست أنها تنتفض .. وتساءلت فى قلق :

— هل تشعرين بالبرد يا منى ؟! أتأخذين سترتى ؟!

— لا .. لا .. إنى أشعر بانتعاش فى هذا الجو .

وكان « جمال » قد صعد إلى القنصلية ، وبعد لحظات أقبل يناديهم :

— تفضلوا .. إن القنصل يصر على أن نشرب فنجاناً من القهوة .

ودخل الثلاثة يتبعون « جمال » إلى داخل القنصلية ، وقال « جمال » للسائق :

— لن نغيب أكثر من خمس دقائق .

ورحب القنصل بهم .. وكان شاباً وسيما لطيفاً .. وسألهم أن يصرفوا العربة لأن موعد القطار لم يحن بعد .. وأصرّ على أن يوصلهم بعربته ، وأكد لهم أنه سيقوم بكل إجراءات السفر وتغيير العملة .

وجرى الحديث عاماً عن الجو وعن السياسة .. وقال القنصل وهو يهز رأسه مؤكداً :

— إن صفقة الأسلحة .. أطارت صوابهم .. إنهم يشيعون هنا أن مصر قد أصبحت دولة شيوعية .

وأجاب جمال :

— ليشيعوا ما يشاءون . المهم أننا قد أصبحنا نملك السلاح .

وقالت نادية :

— هل سمعتم عن الوثيقة الفرنسية التى كشفها « الرئيس جمال عبد الناصر » والتى توضح كميات الأسلحة التى سلموها لإسرائيل .. ماذا يقولون عنها هنا ؟!

— الشعب هنا لا يهمه إلا الضرائب التى تفرض عليه .. أما فيما عدا ذلك فلا يهمه شيء .. والساسة .. يكرهوننا لأننا نحارب الاستعمار .. إنهم يكرهون تأييدنا للجزائريين ومساعدتنا فى ثورتهم ضد الفرنسيين .

ولم يرق الحديث منى . ونظرت إلى الساعة فى قلق وقالت :

— أظن الوقت قد حان للرحيل ؟

ونهض « جمال » قائلا :

— أجل .. هيا بنا .

وحملتهم عربة القنصل إلى المحطة ، وكانت « منى » تحس بقلق جمال وهو يجد

أن فرصته الوحيدة قد باتت معلقة برحلة القطار .

وقالت الأم وهم يغادرون العربة :

ــ سنأخذ القطار الذاهب إلى « جرينويل » وسننزل فى « فين » ثم نأخذ من هناك القطار المتجه إلى « جاب » .

وأجاب جمال :

ــ سآخذ معكم نفس القطار ، وسأواصل السفر به إلى جنيف .. سيغادر القطار مرسيليا فى الساعة السابعة وسيصل إلى « فين » حوالى العاشرة ؟ وسيتحرك القطار المتجه إلى « جاب » فى العاشرة والنصف .. فلن يطول انتظاركم فى محطة « فين » .

ووصلوا إلى القطار .. وكانت المحطة على اتساعها قد امتلأت أرصفتها بالقطارات وقالت « منى » على سبيل المزاح :

ــ خذ بالك .. حتى لا تذهب بنا إلى باريس ؟

وأجاب جمال ضاحكا : ــ يا ليت !

وأخيراً استقر المقام بهم فى مقاعد القطار .. وتعمدت « منى » أن تجلس بجوار أمها حتى تمنح « جمال » فرصة الجلوس بجوار « نادية » .

وتحرك القطار .. واتكأت الأم بظهرها إلى مسند مقعدها .. وأغمضت عينيها ، وقد بدا عليها التعب والإرهاق .

وألقت « منى » ببصرها من النافذة . وكان ضوء النهار ما زال منتشراً .. وقد كف المطر عن التساقط .. وانكمشت السحب .. مفسحة لأشعة الشمس التى أخذت تتسلل لتلقى ضوءها الأحمر الخافت على قمم الشجر وأعالى البيوت .

وبدت الأسقف المنحدرة لامعة .. وقد أخذت مياه المطر تتساقط من جوانبها .. وبدت تربة الطريق بجوار شريط سكة الحديد حمراء قانية .. كأن ترابها قد اختلط بالدماء .

وأسندت « منى » رأسها إلى زجاج النافذة .. وأخذت ترقب المرئيات تتتابع

على النافذة .. وأحس « جمال » أن الجو قد خلا له .. وأصابه الارتباك .. وهو يشعر أنه قد بات يواجه نادية وحده .. ولم يعرف .. من أين يبدأ ، ولا كيف .

وكان لابد له أن يبدأ بشيء عام فقال :

— بعد برهة سنبدأ الصعود .. وستختفى هذه السهول ، وتبدو لنا المساقط الجبلية الرائعة .. وقد كستها الخضرة وهبطت منها شلالات المياه .

— ليت الضوء ينتظر حتى نستمتع بمشاهداتها .

— طبعاً سينتظر الضوء .. إن الشمس لن تغيب قبل الساعة الثامنة ، وكلها نصف ساعة وندخل فى المنطقة الجبلية ؛ إن أجمل ما فيها .. القمم البيض تعلوها الثلوج .

— أجل .. إنها أكثر ما يعلق بذهنى من رحلتنا الأولى إلى « جاب » .

وأحس « جمال » كأن دورات عجل القطار .. تقطع من فرصته .. وأنه يجب عليه أن يبدأ .. وكره من نفسه هذا الارتباك .. أمام الصبية الهادئة المعصوبة الرأس .

وقال وهو يلم بأطراف ذكائه ويرمقها بطرف عينيه وهى تحدق من النافذة :

— ستكون رحلتى هذه أكثر رحلاتى رسوخاً فى نفسى .

وأحست « نادية » بقوله نوعاً من المجاملة .. ولم تعرف كيف تجيب فقالت ببساطة :

— لقد كانت رحلة لطيفة .

— كان ألطف ما فيها لقائى بك .

— متشكرة .

— إنى أعنى ما أقول .. لقد أحسست عندما لقيتك أنى لقيت شيئاً كنت أفتقده .

وحارت « نادية » .. فيما يقصد إليه « جمال » .. أهى مجاملة أخرى .. أم تراه يقصد من ورائها شيئاً ؟! ولم تجد أمامها إلا أن تفترض حسن النية .. وقالت

ترد المجاملة :

ـــ إنك فى الواقع .. هيأت لنا صحبة لطيفة .. ولسنا ندرى كيف كان يمكن أن تكون الرحلة .. لو لم نقابلك !! إن « منى » قالت عنك فى أول الأمر إنك تصلح أنيساً لرحلة ، ولكنى وجدتك تصلح صديقاً دائماً .

وأحس « جمال » أن « نادية » تدفعه فى الطريق الصحيح ، فصمم أن يتخذ فيه خطوة طويلة .. فقال وهو يحوّل وجهه إلى النافذة حيث أخذت تحدق ببصرها :

ـــ ليت معرفتنا تدوم حقاً ؟!

ـــ ولِمَ لا !! إنى سأكتب إليك .

ـــ أقصد دواماً أقوى من الكتابة .

ـــ عندما تتاح الفرصة لأحدنا .. فلا أرى هناك شكا فى أننا سنتزاور .. إننا نرحب بك دائماً فى « جاب » .

وصمت « جمال » .. ثم هتف قائلا :

ـــ نادية !

وأحست « نادية » من لهجته .. بدقة خطر .. كانت تحس أنه يوشك أن يقول شيئاً أكثر من مجرد مجاملة .. و لم يكذب إحساسها . وسرعان ما أعقب « جمال » هتافه بقوله :

ـــ نادية .. إنى أحس أنك لست مجرد صديقة سفر .. ولا أنيسة رحلة .. إنى أحس بك أكثر من هذا .. أحس أنك غدوت شيئاً لا غنى لى عنه .. إنى أشعر أن هناك رباطاً خفيّاً يشد أحدنا إلى الآخر .

وأحست « نادية » بارتباك شديد ، وألجم لسانها ، وجمدت شفتاها .. كانت تجد « جمال » قد اندفع فى اعترافه بحبه ، و لم تجد فى نفسها أى استعداد لقبول اعترافه أو للرد عليه .. و لم تستطع أن تفعل أكثر من الاستمرار فى التحديق من النافذة .

واستمر « جمال » يقول :

— إنى لا أعرف كيف أشرح ما أحسه لك ولا أدرى كيف أصف لك قيمتك عندى .. ولكن كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أعرض عليك نفسى .. وحياتى .. ومستقبلى .. أنا لا أريد أن أمتدح نفسى .. ولكنى أعتقد أنى سأكون زوجاً طيباً .. لك أنت ..

وأحست « نادية » برجفة . وبدا لها العرض .. مفاجأة ضخمة لم تخطر لها ببال .. لقد تحوّلت ظنون « منى » إلى حقيقة واقعة ، إنه يطلب زواجها بمنتهى الإخلاص والحرارة .

وفجأة مدت يدها إلى عنقها ، وتحسست أصابعها المتشنجة جلد عنقها من فوق الإيشارب .

إنه يطلبها باعتبار الوجه البادى له .. إنه لا يعرف حقيقة ما وراء هذا الحجاب .. من تشويه .

إنها خدعته وغررت به .. يجب أن تذكر له الحقيقة .. يجب أن تنتزع عن وجهها هذا الحجاب .

ولكن لماذا تفعل ؟ هل هى تقبل زواجه ؟!

وأحست بالرد الأكيد ينبع من صدرها : لا .. لا ..

إنها لا تريد الزواج .. لا تريد أن تقطع بيدها حبل الأوهام التى تتعلق بها .

حقيقة إنها حبال من الوهم .. تعلقها بآمال من السراب ، ولكنها مع ذلك .. لا تريد أن تقطعها .

إذاً فأى مبرر لأن تقول له .. إنها مشوّهة ؟!

يكفى أن تعتذر برقة .. وينتهى الموضوع .

ورفعت يدها عن عنقها .. وهمت بالرد .. ولكن قبل أن تنطق كلمة .. سمعت جمال يقول بلهجة ملؤها الحنان :

— لا يهم هذا يا نادية .. إنى أحبك كما أنت .

وذهلت نادية ونظرت إليه فى ارتياع وهى تهتف :

— كما أنا ؟ .. هل تعرف ؟

— أجل .. لقد انزاح الإيشارب عن رأسك عندما غفوت على المقعد ونحن نمر بالبركان فأعدته إلى رأسك .

— بعد أن رأيت الحرق ؟

— أجل .. ولم أحس بأى فارق بينك وأنت بالإيشارب وأنت بدونه .

— حقا ؟!

— أجل .. لقد صممت منذ ذاك الوقت أن أخطبك .

— شفقة بى ؟!

— أبداً .. إنى أحبك يا نادية .

وأطرقت « نادية » ثم أسندت جبينها إلى كفها .

وهتف جمال متسائلا : — ما رأيك يا نادية ؟! أجيبى !

ورفعت « نادية » رأسها وقد ترقرقت دمعتان فى عينيها ، وهى تتطلع إلى الوجه الذى يرقبها فى لهفة :

— إنى آسفة .. لا أستطيع أن أرتبط بأحد .. الآن .

— وبعد الآن ؟!

— من يدرى .. ولكن أؤكد أنك ستكون أول من ألجأ إليه عندما أفكر فى الارتباط .

وعادت تحدق من النافذة .. وأخذت مرتفعات « الألب » تظهر .. بسفوحها الخضر .. وهاماتها التى يعلوها البياض ومساقطها التى تنحدر منها المياه .

ونظرت « منى » إلى « جمال » وقد أغمض عينيه وبدا الأسى فى ملامحه .

لقد كانت تعرف النتيجة سلفاً . كانت تعرف مدى تسلط الوهم الذى يحل قلب « نادية » ومدى قدرته على هزيمة كل حقيقة .

(٢١)

لا ندم ...

وصل القطار إلى بلدة « فين » الواقعة على مفترق الطريق المتجه غرباً إلى جاب وشمالا إلى « جرينوبل » ثم جنيف .. وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة والنصف ، والمحطة قد بدت خالية إلا من بضعة حمالين ، وناظر المحطة بمنظاره السميك ، ووجهه الأحمر المنتفخ ، وجسده الأكرش المترهل .

وكانت برودة الليل قد اشتدت .. والضباب قد تكاثف ، وبدت مصابيح المحطة المتناثرة وقد أحيطت بهالة بيضاء من ذرّات الضباب ، وبقايا المطر تتساقط من حواف الأسقف فى قطرات ثقيلة تقرع أرض المحطة فى طرقات منتظمة .

وفتح « جمال » النافذة ليدفع بالحقائب إلى أحد الحمالين الذى وقف بجوار القطار يفرك يديه وينفخ الضباب من منخريه ، وصاح به « جمال » وهو يناوله إحدى الحقائب :

— إلى القطار الذاهب إلى « جاب » .

وأجاب الحمّال وهو يضع الحقيبة بجوار قدميه :

— سيحضر بعد نصف ساعة .. لقد تأخر قطاركم .. ولكن القطار التالى سيتأخر أكثر .

وأجابت « منى » :

— ونصف ساعة محتملة .. كان يمكن أن ننتظر أكثر من ذلك .

وأحست الأم بلفحة البرد التى هبت من النافذة فصاحت بمنى :

— أخرجى الجاكتة الصوف من حقيبتك .. نحن لا نعرف متى يحضر القطار .

وألقت « منى » نظرة سريعة على الحقائب فوجدت حقيبتها فى يد « جمال » يوشك أن يناولها للحمال فهتفت به :

— لحظة واحدة حتى أخرج منها الجاكت .

وتناولت « نادية » الحقيبة من « جمال » قائلة :

— هاتها .. وإلا قلبت « منى » كل ما بها .. أنا أعرف أين وضعت الجاكت وسأخرجها فى ثانية .

وفتحت « نادية » الحقيبة ومدت يدها وأخرجت الجاكت . فتناولتها « منى » ودفعت ذراعيها فى أكمامها وضمتها إلى صدرها ثم دفعت برأسها من النافذة وهى تقول :

— ليس الجو بمثل هذه البرودة التى تدعونها .. إنه محتمل جداً .. ماذا تقولون إذن عندما يقبل علينا الشتاء الحقيقى فى « جاب » .. هل تذكرين يا نادية ؟!

وجذبتها « نادية » من ذراعها وهى تتجه نحو الباب قائلة فى عجلة :

— هيا بنا .. ليس هذا وقت ذكريات .. إن القطار أوشك على المسير .

وقال « جمال » للحمال وهو يسلمه الحقيبة الأخيرة من حقائب الأسرة :

— على أى رصيف سيقف للقطار ؟

وصاح الحمّال :

— نفس الرصيف .

— انتظرنى إذاً .. حتى آتى إليك .

— وبقية الحقائب ؟!

— ستبقى فى القطار .. لأنى مستمر حتى جنيف .

وأسرع « جمال » يهبط من القطار وراء « نادية » .. وبعد أن منح الحمال أجره ، وقف يودع الأسرة .. وقد أخذ يرمق « نادية » فى حنين وأسى .

وصاحت « منى » تستحثه على العودة إلى القطار :

— أسرع إلى القطار .. وإلا سار وتركك .

— أتخشين أن أبقى معك ؟!

— أبداً .. إنى أخشى أن يسير بحقائبك .. ليتك تجىء معنا .

— لو كان لدىّ فسحة من الوقت ، لصحبتكن إلى « جاب » .

وقالت الأم :

— إذن عدنا أن تزورنا عندما يسمح لك وقتك .. إننا لن ننسى جمائلك .

— العفو يا مدام .. إنى لم أفعل شيئاً .. لقد جعلتنى أشعر أنى واحد من أسرتكن .

وكانت « نادية » صامتة شاردة ، وعاد « جمال » يرمقها بنظراته اللهفى قائلا :

— سأحاول أن أعود إليكن .

ثم أخفض من نبراته وقال بصوت هامس لا تكاد تسمعه سوى نادية :

— إذا لم تضايق زيارتى نادية !

وهزت « نادية » رأسها كأنها تفيق من غيبوبة وأجابت :

— إنى أرحب دائماً بزيارتك .. وسأنتظرك دائماً ،

وأجاب « جمال » بنفس الطريقة الهامسة :

— شىء فى داخلى يؤكد لى أنى سأراك ثانية .. أنا لا أصدق أن هذا يمكن أن يكون اللقاء الأوّل والأخير .. لقد تركت فى نفسى أثراً عميقاً .

وآذن القطار بالمسير ، فشد « جمال » على أيديهن ثم أسرع إلى القطار .

ووقف « جمال » فى نافذته يلوّح بيده .. وانساب القطار ببطء من المحطة .. ثم اندفع مسرعاً ليلقى بنفسه فى ظلمات الليل والضباب .

وأخذت « منى » ترقب القطار وهو يختفى ثم هزت كتفيها وهمست لنادية :

— كأنى به وميض أمل قد ابتلعته الظلمات .. لست أدرى لماذا تركته ينساب منك ؟

وهزت « نادية » رأسها وأجابت فى هدوء :

— أنا أيضاً لست أدرى .

وصمتت برهة ثم أردفت قائلة :

— أنا لا أدرى إلا أنى فعلت ما يريحنى .. ولست أشعر بندم على فعله .

— قد تشعرين بالندم بعد ذلك .

— من يدرى ؟ .. إننا لا نستطيع أن نقيد أفعالنا .. باحتمالات الندم .. يكفى أن نفعل ما يريحنا الآن .

وكانت « الأم » قد اتجهت إلى مظلة بجوار حجرة ناظر المحطة وجلست على مقعد خشبى طويل أسفلها .. وصاحت تنادى ابنتيها :

— اجلسا .. فما زال أمامنا نصف ساعة انتظاراً حتى يأتى قطار « جاب » .

وقالت « منى » وهى تتجه مع أختها إلى المظلة :

— لست أدرى ما الذى لم يعجبك فيه .. إنه حقيقة مخلوق ممتاز .. رغم ما يبدو منه من خفة .. توهم الناس بأنه .. كما وصفته فى أول لقاء — إنسان هايف .

— لست أظنه كما وصفته .. إنه خير بكثير .

— ألم يترك فى نفسك أثراً ؟!

— أعتقد أنه ترك .

— إلى أى حد ؟!

وترددت « نادية » برهة قبل أن تقول :

— إلى أى حد ؟ .. لست أدرى .. ولكنى أحس بأنه يذكرنى .. بصبرى .

وقالت منى :

— صبرى ما زال تلميذاً .

— أنا لا أقارن بين مركزيهما ، وإنما أقارن بين أثر كل منهما فى نفسى .

— ولكن جمال .. يستطيع أن يتزوجك .. وأن يكوّن لك بيتاً .

— ومن قال إنى أريد بيتاً ؟!

ــ ماذا تريدين إذاً ! . هل تظلين قابعة فى « جاب » ؟

وجلست « نادية » بجوار أمها وهى تجيب قائلة :

ــ دعينا الآن من هذا .. المهم أن نصل إلى « جاب » .

ثم وجهت حديثها إلى الأم متسائلة :

ــ ترى هل سنجد أحداً ينتظرنا فى محطة « جاب » ؟!

وأجابت الأم :

ــ لقد أرسل عمك سليمان تلغرافاً إلى أمى .. ولاشك أنها سترسل من ينتظرنا ، وعلى أية حال نحن نستطيع أن نأخذ إحدى عربات الأجرة ، ونفاجئها بوصولنا .

وتساءلت « منى » وهى تهز ركبتيها :

ــ ماذا ننوى أن نفعل فى جاب !؟

والتفتت الأم إلى « منى » مستفسرة :

ــ ماذا ننوى أن نفعل ؟ نعيش .

ــ أعنى كيف سنعيش ؟!

ــ كما يعيش الناس فى « جاب » .. لدينا البيت والمزرعة ، وأستطيع أنا أن أعمل فى المدرسة .

وقاطعتها « نادية » قائلة :

ــ بل أنا التى سأعمل .

ورفعت « منى » كتفيها قائلة :

ــ اعملا أنتما الاثنتان .. أما أنا فلا أريد أن أعمل شيئاً . سأتسلق الجبل .. وآكل الكريز ، وأجلس على شاطئ البحيرة .. حتى يرسل عصام فى طلبى .

وقالت الأم :

ــ افعلى ما يحلو لك . ولكن احذرى البرد ، والإجهاد . إنى لا أريد مزيداً من المتاعب .

وكأنما أعطى إنذار « الأم » إيحاء « لمنى » بصدرها المريض ، فسعلت بضع سعلات قصار .

وبدا القلق على وجه الأم .. ونظرت « نادية » إلى « منى » فاحصة .. لترى هل تتصنع السعال .. أم أنها تسعل حقيقة ، وتساءلت فى خوف :

— ماذا بك ؟

وردت « منى » ، وهى تزدرد ريقها :

— لا شىء .

وقالت الأم محذرة :

— ارفعى الياقة حول عنقك .. وعندما نصل إلى البيت لا تغادرى الفراش .. حتى يراك الطبيب .

وأدارت « منى » رأسها فى دهشة ، وقالت فى غيظ :

— ما هذا ؟! أمحرَّم علىّ أن أسعل ؟!

وقالت الأم مترفقة :

— نحن نخشى عليك يا منى .. لا تدرين كم يزعجنى صوت السعال الذى سمعته منك .. إنه يذكرنى بأيام مرضك .

— لا تنزعجى .. لن أسعل بعد الآن .

وسادت فترة صمت انطلقت كل منهن بأفكارها فى ميدان أوهامها .

الأم فى ذكرياتها الأليمة عن الأب .. ومرضه ووفاته . وخوفها من المستقبل المجهول الذى لا تبدو له سمات محددة .

و« منى » فى آمالها المزدهرة وأمانيها المورقة الناضرة .. فى الانزلاق على الجليد .. والانطلاق فى المزارع .. فى حاضرها الجميل فى « جاب » ، ومستقبلها الباهر .. فى القاهرة . تضع ذراعها فى ذراع « عصام » يعدوان إلى بيتهما الصغير .. وحديقته الأنيقة .. وتستمر فى الانطلاق لترى طفلا يحبو لتحمله بين ذراعيها ويناديها ماما .. و .. و .. أشياء كثيرة جميلة .. تزخر بها

الحياة .. ويمتلئ بها المستقبل .

و« نادية » فى خضم من اليأس يتكاثف فيه ضباب لا تبين منه سمات ولا تبدو ملامح .. خضم تبدو فيه أشباح . جمال ، وصبرى .. ومنى .. والأم .. والأب الراحل .. والعمة القاسية .. والعم الحنون الطيب ، ووراء كل هذه الأشباح التى يلفها الضباب .. يجثم شىء لا يرى ، ولا يكاد يبدو منه حتى مجرد شبح .. تقصر عن رؤيته العين ، ويعجز الذهن عن التسليم بوجوده .. ولكنه رغم ذلك كائن .. موجود .. يؤكد وجوده .. عن إيمان وثقة .. قلب يخفق بين الضلوع يستقبل إرسالاته ، ويلتقط إشاراته .

وتتجاوز « نادية » فى انطلاقة أفكارها .. كل هذه المرئيات الملموسة .. لتستقر فى سكينة على هذا شىء .. الذى لا وجود له ، ولا أحساس به ، إلا من نبضات القلب ، والذى تنكره عليها ، كل أدوات الحس ووسائل المنطق والإقناع .

وخيم على المحطة السكون .. وسادها الصمت .. إلا من طرقات أقدام ، وهمهمة ، ونحنحة .

وبدأ الثلاثة يحسسن بوطأة البرد .. فازددن تلاصقاً ، وقالت « منى » ، وهى تضع كفيها تحت ساقيها وتهز ركبتيها بطريقة عصبية :

ـــ لقد بدأت أغير رأيى .. إنى أفضل الحر الخانق .

وقبل أن يجيبها أحد .. بدت فى المحطة حركة نشاط .. ثم سمع ضجيج قطار مقبل ، وانتفض الحمّال الذى وقف واضعاً كفيه فى جيبيه ، ورأسه بين كتفيه يقول فى تكاسل :

ـــ قطار « جاب » .

وبعد لحظات كان القطار يقف على الرصيف ، وأسرعت « منى ونادية » ووراءهما الأم إلى داخله ، ولم يصعب عليهن العثور على الأماكن فقد كانت العربة شبه خالية ، وأخذ الحمّال يرص الحقائب على الأرفف .

و لم تطل وقفة القطار حتى عاد ينساب مرة أخرى بين مرتفعات « الألب » فى طريقه إلى « جاب »، وكانت الظلمات قد طوت الجبال .. فلم يعد يبدو على جانبى الطريق من معالم سوى أضواء خافتة مرتجفة لا تكاد تميز العين أبعادها .. أو دلائلها .

وأخذ النعاس يتسلل إلى جفون الثلاثة ، والتعب يرخى أعصابهن ، وبدأ التثاؤب يمضغ الكلمات والغفوة تطوى الأحاديث ، وتثاقلت الرؤوس ، وتراخت الأعناق ، وألقت بحملها على الصدور تارة ، وعلى الأكتاف تارة .

ومدت كل منهن ساقيها على المقعد أمامها .. وأخذت الأجساد تشكل أوضاعها بحيث تمنح أعضاءها أقصى ما تستطيع من الراحة .. وبعد بضع حركات قليلة .. انتهى الثلاثة إلى سكينة النوم التى لا ترى معها إلا اضطراب الصدور ، ولا تسمع فيها سوى حفيف الأنفاس .

ولا يقطع ملل السفر ويطوى ساعاته كسلطان النوم .. أو حديث الهوى .. و لم تحس المسافرات الثلاث بالطريق إلى « جاب ».. إلا بقدر غمضة عين وانتباهتها .. فقد أمسك النوم بتلابيبهن .. فلم يتركهن إلا عند وقوف القطار فى « جاب »، وضجيج المحطة .. واختلاط أصوات الركاب بالحمالين .

وحاولت « منى » أن تستسلم مرّة أخرى للنعاس .. وهى تتوهم وقفة القطار فى إحدى محطات الطريق ، ولكن « نادية » جذبتها من ذراعها قائلة ، وهى تنفض الكرى عن أجفانها :

— هيا يا منى .. لقد وصلنا .

ونظرت « منى » محملقة من النافذة إلى فناء المحطة .. وهزّت رأسها وتساءلت متشككة :

— وصلنا ؟! إلى أين ؟!

— إلى « جاب ».. انهضى حتى ننزل حقائبنا .

وقامت « منى » وهى تتمطى وتقول فى دهشة :

— غير معقول !! إنى لم أنم أكثر من بضع دقائق .

وأجابتها « نادية » فى غيظ :

— يا غبية .. الساعة الآن الثانية عشرة والنصف.. هيا أنزلى حقيبتك.. ليس أمامنا وقت للتمطى والتثاؤب .

وكانت الأم قد أخذت تتناول الحقائب وتقذف بها من النافذة إلى أحد الحمالين ، وهى تفحص الواقفين على الرصيف وتعبر بعينيها سور المحطة باحثة عن إحدى عربات الأجرة .

ولم تكد تقذف بآخر حقيبة حتى لمحت عجوزاً أعجف يقف على باب المحطة ، وقد تدثر بمعطف رث وكبس قبعة رمادية إلى أذنه .

وهتفت الأم فى فرحة تنادى العجوز :

— بول .. بول .

ثم وجهت الحديث إلى ابنتيها مشيرة إلى الرجل :

— إنه بول .. خادم أمى .. لا شك أنه ينتظرنا .. نادى عليه يا منى .

وصاحت « منى » تنادى الرجل .. ولكن الأم أسكتتها قائلة :

— لا فائدة .. إن صممه لا شك قد ازداد .. انتظرى حتى نهبط إليه .

واتجه الثلاثة إلى باب القاطرة وهبطن إلى الرصيف ، وهرعت « منى » إلى العجوز المنكمش فى معطفه وصاحت به :

— بول ؟!

والتفت إليها الرجل فى دهشة .

وعادت « منى » تصيح به :

— بول .. ألا تعرفنى !! إنى « منى »! ألا تذكرنى ؟ لقد زرتكم مرّة وأنا صغيرة .. مع أبى وأمى وأختى ؟!

وفغر الرجل فاه وعلت وجهه أمارات التأثر والفرحة ومد ذراعيه يضم إليه « منى » وهو يهتف :

ــ أخيراً وصلتن .. لقد كبرت جداً .. إنى لم أعرفك ، لقد ظللت أنتظركن منذ أول أمس ، وكنت أرقب كل قطار يصل إلى « جاب ».. وأعود إلى سيدتى خائب الرجاء .. أين ماما وأختك ؟!

وأشارت « منى » إلى أمها وقد وقفت بجوار الحقائب .. وقالت :

ــ إنها هناك تنقد الحمال أجره .

ــ حمال .. وماذا جئت أفعل ؟! مازال عندى ساعدان قويتان .. إنى أفعل كل شىء فى المزرعة .

واندفع الرجل إلى الأم صائحاً وقد اختلجت شفتاه بالبكاء :

ــ مدام لورا .

ومدت الأم يدها .. تشد على يد العجوز قائلة فى تأثر :

ــ كيف حالكم يا بول ؟! كيف حال ماما ؟!

ــ إنها لا تكاد تسير .. منذ عام والروماتزم يقعدها ، ولا تكاد تبل منه إلا بضعة أسابيع فى الصيف .. ولكن الحادث قد هدّها هذا العام .. لقد هدّنا كلنا يا سيدتى . لقد كنا نحب سيدى « فاضل » كثيراً .. كنا دائماً نذكره بالخير .

وجذبت « منى » الرجل من ذراعه بعد أن أحست أنه يوشك أن يقلب المحطة إلى « محزنة ».. وقالت وهى تحمل إحدى الحقائب :

ــ هيا يا بول .. دع الحديث الآن .. لدينا فى البيت وقت كاف .

وقال الرجل وهو يحمل بقية الحقائب ويتجه إلى الباب :

ــ كم فرحنا لمجيئكن .. إن سيدتى الكبيرة .. ظلت تبكى طوال الليل .

فسألت « الأم » وهى تتبع الرجل :

ــ من يعيش معها الآن يا بول ؟!.

ــ السيدة جانيت .. لقد انتقلت للإقامة معنا بعد أن مات زوجها فى حادث الطائرة .. إنها تقيم معنا معظم العام ولا تتركنا إلا بضعة أشهر فى أول الصيف لتذهب إلى أولاد أخيها فى « جرينوبل ».

والتفتت « منى » إلى أمها متسائلة :

ـــ من تكون جانيت هذه ؟! هل رأيتها أنا ؟؟

وأجابت الأم :

ـــ إنها جانى .. ابنة ابن عم أمى .. لقد كانت صديقة الصبا وزميلة الدراسة .

وقاطعتها نادية قائلة :

ـــ جانى .. التى كنت دائماً تحكى لنا عنها .. والتى أصيب زوجها فى حادث الطائرة ؟!

ـــ أجل .. إنها هى .

وتساءلت منى :

ـــ وهل ستعيش معنا ؟

وأجابت الأم وهى تقف أمام عربة الأجرة ، وقد نادى بول سائقها :

ـــ سنرحب بها إذا أرادت البقاء معنا ؟

وقال « بول »:

ـــ لقد كانت تخدم السيدة الكبيرة ، وترعاها .. إنها سيدة كريمة لطيفة ، وقد أحببناها جميعاً .

وأجابت الأم :

ـــ وأنا أيضاً أحبها ،

وقالت نادية :

ـــ لماذا لا تبقى إذاً ؟!

وتساءلت منى :

ـــ ربما لا يسعنا البيت .

وقال بول :

ـــ إن نصف البيت خال .

وركب الثلاثة العربة .. وجلس بول بجوار السائق وهو يقول له :

— إلى « بلاش ».

وانطلقت العربة ، وكانت المدينة قد سادها السكون ، وبدت طرقاتها خالية لا أثر فيها لحياة ، والفندق المجاور للمحطة قد أطفأ أنواره ، وامتدت يد صاحبته السمينة لتغلق بابه الخشبى المطل على فناء المحطة .

واجتازت العربة الطريق المؤدى إلى الميدان ، وكانت أرض الطريق تلمع بمياه الأمطار ، وأضواء المصابيح الخافتة تنعكس مرتجفة على الأرض اللامعة ، والضباب يلف البيوت والأشجار ، وعجل العربة يصدر صفيراً وهو يطوى أرض الطريق .. ولم تكد المسافرات الثلاث يحسسن دفء العربة وراحة الجلسة حتى عاودهن استرخاء النوم ، وبدأ النعاس يثقل أجفانهن .

ولكن الخادم العجوز القابع بجوار السائق .. لم يكن قد انتهى بعد من إفراغ كل ما بصدره من ترحيب ، فعاد يطرد النوم عن أعينهن بقوله :

— ستملأن علينا البيت .. لشد ما أصبحت السيدة الكبيرة تضيق بالوحدة .. إن أعصابها باتت متوترة ، وباتت تفزع من كل شىء .

وتركته الأم يثرثر .. وأغمضت « منى » عينيها ، وأسندت « نادية » رأسها على ظهر المقعد وشردت ببصرها فى استرخاء من نافذة العربة .

واستمر العجوز فى ثرثرته قائلا :

— إن السيدة « جانيت » كانت تريد أن تأتى لتنتظركن ، ولكنها أصيبت أول أمس بنزلة برد جعلتها لا تقوى على الخروج .. لقد أعدت لكن حجرتين فى الطابق العلوى ، وهى تنام مع السيدة الكبيرة فى الطابق السفلى .. مكان حجرة الأكل القديمة لأنها لا تقوى على صعود السلم .. والشمس تسطع فى الحجرة ، وقد تشفيها من الروماتزم .

ولم يجد أحد من الثلاثة القدرة على أن يتتبع أنباء الروماتزم ، ولم يجدن ضرورة لتتبع حديث الرجل ما دام كل حديثه أخبار .. لا تتطلب رداً .. ولكن الرجل بدا

له أن يشركهن فى الحديث فتساءل قائلا :

ــ هل تعجبكن الحجرتان المطلتان على الحديقة .. أم تفضلن الحجرة المطلة على الفناء الخلفى ؟!

و لم تكلف « منى » نفسها مشقة الرد فقد استغرقت فى سباتها ، و لم تحاول « نادية » الرد لأنها لم تكن تذكر فارقاً بين الحجرات الثلاث .. كل ما كانت تذكره هو المنظر العام للبيت بسقفه الأحمر الشديد الانحدار ، ومدخنته الخارجة من السقف ، وحجرتها ذات الشرفة التى تتسلل إليها فروع التفاح الأحمر ، ودجاج يملأ البيت ، وكرنبات ضخمة تملأ الحديقة .

و كان على الأم أن تجيب على ثرثرة العجوز فطردت عنها النوم وأجابت قائلة :

ــ سنرى كل ذلك عندما نصل ، وعندما يأتى النهار .

ودارت العربة فى الطريق الرئيسى الذى قامت الحوانيت المغلقة على جوانبه ثم أخذت تصعد فى طريق جانبى متجه إلى أعلى الجبل بعد أن عبرت شريط سكة الحديد ، وأخذ الطريق يزداد ارتفاعاً ، والدور تختفى من جوانبه ، وقلت المصابيح المنعكسة عليه .

وقالت الأم :

ــ لا أظن أن هناك فارقاً بين الحجرتين .

وأجاب العجوز فى ثقة :

ــ بل هناك فارق كبير .. إن الشمس لا تقرب واجهةالبيت .. وإن الحجرة ....

وقاطعته الأم قائلة :

ــ عندما نصل سننتقى ما نريد .

وكانت العربة تقطع الطريق .. وقد ازداد تكاثف الظلمات .. وتثاقل الضباب ، وخفت سرعة العربة .. وأخذ بول يرشد السائق بقوله :

ــ الزم يمينك .. ولف يميناً بعد هذه الشجرة .. حذار من حفرة على جانب

الطريق بعد الشجرة .

وبعد فترة وجيزة صاح بول :

ـــ هناك هدىء والزم يمينك ، ثم قف أمام هذه البوابة الخشبية .. أجل هنا .

ووقف السائق .. وقفز العجوز من جواره صائحاً :

ـــ تفضلن .. أنسيتن البيت ؟! هيا بنا .

وصاح السائق :

ـــ هيا أنزل معى الحقائب .

ودفع « بول » البوابة فأحدثت مفاصلها صريراً .. سمع على أثره نباح من الداخل .. وقال بول ، وهو يفرك يديه :

ـــ إنه بيتر العجوز .. هل تذكرنه ؟!

ولم يجبه أحد .. فقد كان الثلاثة يرزحن تحت وطأة النعاس ، ولفحهن الصقيع ، ولسعتهن رطوبة الضباب .. فانكمشن فى ثيابهن وهن يسرن بخطوات متعثرة نحو بوابة البيت .

وكانت مياه المطر .. قد أغرقت الأرض ، وأحس الثلاثة بزلق الطريق تحت أقدامهن ، واندفع « بول » أمامهن يشق طريقه فى وحل الحديقة ، وقبل أن يطرق الباب الخشبى أضىء النور .. وسمع صوت يصيح من الداخل :

ـــ من ؟!

وصاح بول :

ـــ افتحى يا سيدتى .. لقد وصلن .

وفتح الباب وبدا فى الضوء شبح امرأة متوسطة العمر .. تهتف فى انفعال وتأثر :

ـــ لورا !! أهلا وسهلا .. تفضلى .

ودلفت الأم من الباب ، وهى تضم المرأة فى شوق قائلة :

ـــ كيف حالك يا جانى ؟!

ـــ كيف حالك أنت ؟! لقد تأثرنا من أجلك .

ـــ وأنا أيضاً .. أين ماما ؟!

ـــ إنها تنتظركن فى الداخل .

وعلا صوت الجدة يصيح هاتفاً :

ـــ لورا .. حبيبتى .. تعالى .. أين ابنتاك ؟

وأقبلت « الأم » وابنتاها على الجدة المضطجعة فى فراشها ، وأخذت الجدة تضمهن إلى صدرها ودموعها تنحدر على أخاديد وجهها ، وهى تنشج باكية .

وأخذت الجدة تتحسس وجه الأم فى حنان قائلة :

ـــ أخيراً أراك يا « لورا »!! كنت أود أن أراكم جميعاً .. فى خير وسعادة .. ولكن الله أراد أن أضمكن إلىّ فى مصابكم .

وقالت « جانيت »، وهى تجد الإرهاق والجهد قد أخذ منهن مأخذه :

ـــ أظنكن فى حاجة إلى العشاء .. إنى أستطيع بسرعة أن أعده لكن .

وقالت الأم :

ـــ أنا لا أريد شيئاً .

وقالت نادية :

ـــ ولا أنا .. لقد تناولنا طعاماً خفيفاً فى القطار .

وقالت منى :

ـــ وأنا لا أريد شيئاً إلا أن ألقى بنفسى على أقرب فراش .. وأنام مدة أسبوع .

وصعد الثلاثة إلى حجراتهن .. وبعد برهة كانت كل منهن قد رقدت فى فراشها .

وجذبت « نادية » الأغطية على رأسها وأخرجت أنفها من تحت « الباطنية ».. وقبل أن تغمض عينيها .. تذكرت نومها فى القاهرة .. وتذكرت الشرفة التى يتسلقها الياسمين فى منشية البكرى .. والنادى .. وتكعيبات الجهنمية ، وأرض « الكروكيه » الخضراء المنبسطة .. والشبح الطويل القامة ..

العريض المنكبين .. وأحست ببعد الشقة ونأى المزار ، وأحست باليأس الجاثم يكاد يخنقها .. و لم تستطع أن توقف عبرتين انسابتا على الوسادة .. ثم استغرقت فى سباتها ...

(٢٢)

هاوية !!

استيقظت « نادية » لتستقبل أول صباح فى « جاب »، وكانت السحب قد انقشعت ، والشمس قد أشرقت .. وترامت على الأسقف الحمر المنحدرة المبتلة ببقايا المطر .

ووقف « نادية » وراء زجاج الشرفة ترقب من مربعاته القمم الشاهقة التى ترامت فى الأفق ، وقد غطى هاماتها بياض يكاد يختلط ببياض السحب ، وانحدرت سفوحها الخضر التى تكدست فيها الأشجار حتى حافة الوادى .

وبدت المزارع منبسطة حول الدار ، وقد تناثرت فيها أشجار الفاكة تتخللها قطاعات من الكرنب والبنجر وغيرها من الخضر ، وعلى مقربة من الدار بدت حظيرة المواشى والدواجن وقد تعالت أصواتها وأخذت تتواثب فى خفة ونشاط .

وأحست « نادية » بالحياة تدب من حولها .. وسرى إلى نفسها شعور بالنشاط وتمنت لو انطلقت تعدو إلى المزارع وتتسلق الجبال .

ولم يطل بها التفكير حتى سمعت « منى » تهتف بها وقد أقبلت من حجرتها المجاورة :

ـــ هيا بنا .

ـــ إلى أين ؟

ـــ نصعد الجبل .

ـــ الآن ؟

ـــ ولم لا ؟

ـــ غير معقول .. يجب أن نجلس مع جدتنا .. ونرتب حجرتنا .. ليس من

الذوق .. أن نترك البيت من أول لحظة .

ــ سنجلس مع جدتنا قليلا .. ثم نستأذن منها ، ولست أجد حجراتنا تحتاج إلى ترتيب .. إنها على خير ما يرام .

ــ من الذوق أن نبقى اليوم فى البيت ، والوقت أمامنا طويل نتسلق فيه الجبل كما نشاء .

ــ لن يكون الجو صحواً كما هو اليوم ..هيا بنا .

وتعالى صوت الأم من الدور السفلى يصيح :

ــ نادية .. منى .. ألن تهبطا لتتناول الإفطار ؟

وأجابت منى :

ــ حالاً يا ماما . هيا يا نادية . ارتدى بنطلونك والحقى بى .

وهبطت « منى » السلم الخشبى لتجد المنضدة العتيقة قد صفت عليها فناجين الشاى ، وبجوار كل فنجان سلطانية كبيرة مليئة باللبن وصحاف الجبن والبيض والأرغفة الطويلة البيض قد توسطت المائدة .

وسألت الأم « منى »:

ــ أين نادية ؟!

ــ ستبدل ملابسها وتهبط حالا .. إننا سنذهب لنصعد الجبل .

وتساءلت الأم فى دهشة :

ــ جبل ؟

ــ أجل يا ماما .. ماذا فى ذلك ؟!

ــ ألا تستريحان من عناء السفر .

ــ أنا شخصياً قد استرحت تماماً .. أما إذا كانت نادية تريد الراحة فلتسترح .

ــ بل أنت التى يجب أن تستريحى .

وصمتت برهة وبدا عليها التفكير ثم قالت محذرة :

— اسمعي يا منى .. لا أريد هنا مناكفة .. لا أريد وجع قلب .. إنى أحذرك الشقاوة فأنت لا تتحملين الإجهاد ، ولست أرى معنى أبداً لصعود الجبل الآن .. ونحن لم نلتقط أنفاسنا من السفر بعد .

وأجابت « منى » محتجة :

— إنك لم تأتى بنا إلى هنا لتخزيننا .. وأنا لا أشعر بأى إجهاد .. كنت أصعد الجبل بسهولة وأنا طفلة صغيرة . ولم يكن شيئاً مجهداً أو مخيفاً .. فلماذا لا أصعده الآن ؟

— يا منى يا حبيبتى . إنك لم تكونى مريضة .

— وأنا لست مريضة الآن .

— أجل .. ولكنى أخشى أن تنتكسى من الإجهاد .

واقتربت « منى » من أمها ومدت يدها تعانقها فى عطف قائلة :

— يا ماما .. كفى عن هذه الوساوس إنى أنشط وأقوى من أى واحدة منكن .. وأنا أشد تحملا للتعب .. فلماذا تزعجين نفسك بى ؟!

وكانت « نادية » قد بدت فى أعلى السلم وأخذت تهبط مرتدية البنطلون والسويتر وقد شدت الإيشارب حول وجهها .

وقالت « منى » وهى تشير إلى الإيشارب :

— أتنوين الاستمرار على ارتداء الإيشارب هنا أيضاً ؟

وأجابت نادية :

— وماذا يضايقك منه ؟

— إنه يضايقك أنت .

— لقد تعوّدت عليه .

— يجب أن تتعوّدى على خلعه ، إنها فرصة لأن تخلصى نفسك من خناقه .

— إنى لا أريد أن أضايق الناس بمنظرى .

وتدخلت الأم قائلة :

— ليس بك ما ينفر الناس يا « نادية ».. وسيتعوّدون عليك كما أنت .

وبدا الضيق على نادية واحمر وجهها وأجابت :

— لماذا لا تتركوننى أفعل ما أحب .. أنا لا أتدخل أبداً فى شئون أحد .

وأجابت الأم فى رفق :

— لا تتضايقى يا حبيبتى .. افعلى ما تشائين .. وارتدى ما يحلو لك .

وجذبت « منى » مقعداً وهمت بأن تجلس أمام المائدة عندما دخلت الأم قائلة :

— ألن تحييا جدتكما ؟

وسار الثلاثة إلى حجرة الجدة .. وكانت العجوز قد جلست بهيكلها الضامر على مقعد ، ومدت ساقيها على بعض الوسائد وبدت عيناها غائرتين وجلدها معروقاً وقد أحاطت كتفيها بشال من الصوف الأسود .. وعلت شفتيها ابتسامة رقيقة وهى تبصر الأم وابنتيها مقبلات عليها .

وقالت وهى تضم الفتاتين إليها ضاحكة :

— أهلا بحفيدتى المصريتين .. لشد ما أوحشنى بعدكما .. لقد كدت أيئس من رؤيتكما .. من كان يصدق أنى سأنجب نسلا من أبناء الفراعنة ؟.. كنت أريد أن تكون إحداكما شبيهة بكليوبترة .

وأجابت « منى » متسائلة :

— شكلا أم موضوعاً ؟!

وضحكت الجدة قائلة :

— شكلا .. فقط .. فأنا أتمنى لكما عمراً طويلا وحياة سعيدة .

وقالت « منى » مستغلة الفرصة :

— إذن هل تسمحين لنا أن نبدأ حياتنا السعيدة بصعود الجبل ؟!

وضحكت الجدة قائلة :

— يا منى .. لقد سمعت مناقشتك مع أمك .. هل يسعدك حقاً صعود الجبل ؟!

— جداً .. سأصعد حتى شاطىء البحيرة .. إنى ما زلت أذكرها وأذكر البيت المقام على حافتها .. كان به إسطبل للخيول .. وكان به شجرة تفاح كبيرة .. وكان به فتاة جميلة تركب الحصان .

وهزت الجدة رأسها وبدا عليها الشرود وهى تقول :

— أجل .. كان به .. كان .. وكان .. ولكن لم يعد به الآن .. سوى قفر وخراب .. الفتاة الجميلة .. جمح بها الحصان ذات مرة .. فأوقعها من حافة الجرف المستند عليه البيت .. فسقطت فى الهاوية .. وهاجر من البيت ، وقضى من قضى ، ولم يبق فيه سوى رب البيت الذى هبط إلينا فى النهاية ليقطن بجوارنا .. يشيد مدرسة لليتامى يقضى بها بقية عمره .. إنه رجل طيب يزورنا بين آونة وأخرى .

وكانت « نادية » تنصت إلى حديث الجدة وقد شرد ذهنها فى البيت الأنيق على حافة البحيرة .. والفارسة الجميلة على ظهر الحصان .. ثم .. الحصان يجمح بها إلى حافة الجرف ويلقى بها إلى أعماق الهاوية .

وأردفت الجدة تقول وهى تتناول كوب اللبن من جانيت :

— أظنه سيزورنا اليوم .. وستسره رؤيتكن كثيراً .. طالما حدثته عن صغيرتى المصريتين ، أليس كذلك يا جانيت ؟! أظن موعد زيارته اليوم ؟!

وتساءلت جانيت :

— من ؟

— مسيو رينو :

— أجل .. أجل .. لقد لقيته أمس فى الميدان أمام المكتبة ، وسأل عنك .. وأنبأنى أنه سيزورنا اليوم :

وبدا القلق على وجه « منى » كأنما خشيت أن يحكم عليها بانتظار الرجل ، ومدت يدها تجذب « نادية » من ذراعها قائلة :

— هيا يا نادية نتناول الإفطار ، حتى نذهب إلى الجبل .

وغادرت الفتاتان حجرة الجدة إلى حجرة المائدة ، واتخذت كل منهما مجلسها على مقعدين متجاورين ، وجلست الأم وجانيت على المقعدين المواجهين ، وأقبل بول يحمل وعاء مليئاً باللبن ، وألقى عليهن تحية الصباح ، متهلل الأسارير ، ضاحك الوجه ، تتبعه امرأة بدينة قد أمسكت بيديها دجاجتين وقدمها لهن قائلا :

ــ ابنتى مارى .. لقد أتت للترحيب بكن .. وأصرّت على أن تذبح لكن أكبر دجاجتين لديها .. وستبقى لطهوهما .. وقد أبدت استعدادها لكى تقوم لكن بأعمال الطهو .. إذا كنتن فى حاجة إليها .

وأجابت الأم :

ــ أهلا يا مارى .. لماذا كل هذا التعب ؟! إننا نرحب بوجودك معنا دائماً .. ويسرنى أن تعاودى الطهو لنا .. إذا كنت لم تنسى صنع الفطائر التى كنت تصنعينها فيما مضى .

وضحكت المرأة السمينة حتى اهتزت أطرافها وأجابت :

ــ بل تعلمت أشياء خيراً منها .

ــ انتهينا إذن .. سنذوقها اليوم .

وازدردت « منى » إفطارها بسرعة وشربت اللبن ، ثم نظرت إلى « نادية » تستحثها .. وهى تنهض عن المائدة .

و لم يطل الأمر بنادية حتى تبعتها إلى الحديقة .

ونظرت « نادية » إلى زهور القرنفل الحمر النابتة فى أحد الأحواض وهتفت فى إعجاب قائلة :

ــ انتظرى يا « منى » حتى نقطف بعض القرنفل ونضعه فى الزهريات .

ــ يا نادية .. كفى تلكؤاً .. هيا بنا قبل أن يأتى مسيو رينو .. ونضطر أن

نقضى الصباح فى تحيته .

ــ أتستطيعين مقاومة إغراء هذه القرنفلات ؟!

ــ وأقاوم أباها .. هيا بنا وكفى شاعرية سخيفة .. إن القرنفلات لن تطير .

ــ اسمعى يا منى .. لقد خرجنا للتنزه ، وليس للسباق فى الجبل .. فدعينا نتمتع .

وقطفت « نادية » إحدى الزهور .. ورفعتها إلى أنفها فى نشوة وإعجاب قائلة :

ــ هائلة .. يجب أن نرفع هذه الزهور الصناعية التى كدّسوها فى الزهريات .. وتراكمت على أوراقها الأتربة .

ــ عندما نعود افعلى كل هذا .

ــ أجل .. أجل .. سأفعل .. وسأغير كل نظام البيت ..

سأرفع هذه الستائر العتيقة التى تملأ البيت كآبة ووحشة .

وأجابت « منى » وهى تعبر البوابة الخشبية :

ــ إنها تناسب كل ما فى البيت . لا تنسى أنه بيت جدتنا ، وهو بستائره وأثاثه الثقيل .. وزهوره الورقية المكدسة فى الزهريات مناسب جداً لها .

ــ ولكن يجب أن نغير كل هذا .

ــ لا يهمنى كثيراً .. إننا لن نعيش فيه إلى الأبد .. إننا سنعود إلى مصر .

وهزت « نادية » رأسها فى شك .. وأجابت :

ــ من يدرى !!

ــ عن نفسى .. أنا أدرى .. فى الصيف القادم سأكون فى مصر مع عصام .. سيكون لى بيت .. وعربة .. وأشياء أخرى .. كثيرة .

ومدت « نادية » يدها تحكم رباط الإيشارب حوله عنقها وأجابت ، وقد شرد فكرها :

ــ إن شاء الله .

— وأنت أيضاً ستعودين ؟

وعادت « نادية » تهز رأسها ، وهى تجيب فى صوت خافت :

— لا أظن .. إن من الخير أن أوطن النفس على العيش هنا ، ولا أظن المسألة ستكون بمثل ما توقعت من مشقة .

وعبرت الفتاتان حقل « الكرنب » الذى تكدّست فيه الكرنبات الرمادية الخضر ، وقد تلألأت حبات المطر والندى على سطحها المتفخ . ووصلتا إلى الطريق . ونظرت « نادية » إلى المرتقى المتجه إلى الجبل وتساءلت .

— أتظنيننا سنعرف الطريق إلى البحيرة ؟

— سنظل صاعدين إلى أعلى حتى نصل .

— ألا تخشين أن نضل ؟!

— إذا ضللنا نعود ، ولا أظننا ، سنضل الطريق إلى البيت .

وبدأت الفتاتان فى الصعود .. سائرتين على الطريق .

وكان الانحدار يسيراً فى أول الأمر .. ولكنه أخذ يزداد كلما ابتعدتا عن السهل ، وأخذت الأشجار تتكاثف حولهما ، والمياه تنحدر من أخاديد السفح متخذة طريقها بين الحصى والطمى والصخر .. تسير تارة فى هدوء ، ثم تنحدر تارة أخرى فى عنف وصخب .. وفى هدوئها وصخبها .. تملأ النفس إحساساً بالحياة والنضرة والأمل .

وطال بهما السير والطريق لا ينتهى ، وكلما أحست إحداهما بطول الطريق ، وتعجلت الوصول رفعت بصرها إلى أعلى .. فإذا بالقمة ما زالت بعيدة .. بعيدة .

وأخذ الطريق ينحنى يمنة ، ثم يسرة ، متبعا المسلك السهل ، متجنباً الانحدار الحاد .

ونظرت « منى » إلى الطريق فى ضيق وهتفت « بنادية » :

— اسمعى يا نادية .. إذا اتبعنا هذا الطريق المزعج الملتوى فلن نصل فى يومنا .

— ماذا تريدين إذن ؟!

— هيا نشق طريقنا إلى أعلى بين الأشجار والصخور .. إننا سنوفر نصف المسافة .

— ولكن الصعود سيكون مرهقاً !

— لا تكونى كالعجائز .. إنك تخشين من كل شيء .

— يا منى .. أنا لا أخشى على نفسى ولكن أخشى عليك .

— اسمعى .. إياك أن تكررى ما قالته أمك اليوم .. لقد ضقت بهذه الوساوس .. إنكما أنتما اللتان ستجلبان إلىّ المرض .. إنى أسلم من أية واحدة منكما .. وسأريك كيف أستطيع تسلق الجبل .

وقفزت « منى » من الطريق الرئيسى المتجه يميناً .. وصعدت من حافته إلى أعلى الجبل .. ولم تملك « نادية » إلا أن تتبعها صائحة :

— أيتها العنيدة .. الغبية !!

واندفعت الفتاتان بين الأشجار المتكاثفة .. تشقان طريقهما إلى أعلى الصخور بين الحصى والأعشاب .. وخرير المياه .. يفد إلى مسامعهما فى شدو جميل .

ونظرت « منى » إلى أعلى ، ثم هتفت بنادية :

— انظرى .. لقد وصلنا .

ونظرت « منى » .. فإذا بقمة أحد أبراج البيت قد بدت فى أعلى السفح .. واندفعت « منى » تعدو .. ووراءها « نادية » تصيح بها :

— مهلا يا منى .. لقد قطعت أنفاسى .

— اجرى ... « يا مقطوعة النفس » .. تقولون عنى مريضة .. إنى أستطيع أن أتسلق عشرة جبال .

وأخيرا وصلت الفتاتان إلى قمة الجبل .

ووقفت « نادية » تنظر إلى الأفق البعيد .. فإذا بقمم أخر .. ما زالت تتعالى

فى الأفق .. بتيجانها البيض الثلجية ، وإذا بهما ما زالتا تبدوان كأنهما فى بطن الوادى .

وقالت « منى » ، وهى تهز رأسها فى عزم :

— فى يوم من الأيام .. سأصل إلى هذه القمة العالية .

وضحكت « نادية » قائلة :

— أنا شخصياً .. لن أحاول الوصول إليها .. عن طريق الأرض .. فإن الهبوط إليها من السماء أسهل كثيراً .

وأجابت « منى » :

— وهل تظنينهم يسمحون لنا بالهبوط إليها .. بعد أن أمسكوا بخناقنا فى السماء .. أسهل علىّ أن أصعد منها إلى السماء .. من أن أهبط من السماء إليها .

وضحكت نادية وأجابت :

— على أية حال .. دعينا الآن منها .. ومن السماء .. يكفينا ما وصلنا إليه .. هيا بنا إلى شاطئ البحيرة .

وسارت الفتاتان بين الأشجار المتكاثفة .. وعبرتا قنطرة خشبية قائمة فوق مجرى تنحدر منه المياه .. وتكاثفت حوله الأعشاب والشجيرات .. وبعد برهة .. بدا لهما .. سطح البحيرة يلمع فى ضوء الشمس .. وأخذ الجزء البادى من قمة البرج يزداد رويداً رويداً .. حتى بدا البيت المقام على شاطئ البحيرة كاملا .. بأبراجه القائمة فى أركانه الأربعة وسقفه الضخم الشديد الانحدار الذى علت شقفاته الحمر خضرة الطحالب .. ونوافذه الصغيرة التى عصفت الريح بضلفاته وهشمت زجاجها الملوّن ، وشرفاته الخشبية التى سقطت قوائمها .. وبابه الحديدى الذى تراكمت الأتربة على حافتيه .. وتشابكت الأعشاب والحشائش على درجاته الحجرية .

وبدا السور المحيط بالبيت حائل اللون محطم الدعائم ، وإسطبل الخيول المقام فى طرف الحديقة قد انفصل بابه وسقط سقفه .

وفى البحيرة .. بدا خيال البيت الخالى .. يهتز ويرتجف ، كلما هبت نسمة على سطح البحيرة .

ووقفت « نادية » ترقب البيت فى صمت .. وقد علت وجهها علامات الأسى .. وذكرى البيت تطوف بذهنها .. كأنها صورة فى حلم .. بفارسته الجميلة على صهوة جوادها .. والحياة تملأ رحاب البيت .

ودارت « نادية » حول السور .. وانتهت إلى الجانب الآخر من البيت المطل على الجرف .. وبدا الوادى ممتداً أسفله .. والبيوت كالدمى .. والأشجار كالحشائش .. والمزارع مقسمة فى خطوط مستقيمة كأنها رقع الشطرنج .

واقتربت « نادية » من حافة الجرف .. وقد بدا شديد الانحدار .. وتراءت فى أسفله .. على حافة السطح .. بقع بيض قد انتظمت فى خطوط متوازية .. استطاعت أن تميز فيها مقابر البلدة .

ومرة أخرى طافت بذهنها الفارسة الأنيقة .. يلقى بها الجواد من قمة الجرف لتهوى إلى قاع الهاوية .. حيث البقع البيض المنتظمة فى الخطوط .

وتملكتها رجفة .. وأصابها غثيان .. وتراجعت لتتكىء على حافة كوخ خشبى وراء البيت .

وسمعت صوت « منى » يهتف بها :

— نادية .. أين أنت ؟

ورجع الصدى بصوت منى . وازدادت الرجفة « بنادية » وهى تهتف مجيبة « منى » لتسمع صوتها يردده الصدى .

وأسرعت تاركة المكان ، وهى تحس كأن شيئاً خفياً يجذبها نحو الهاوية .

(٢٣)

حفيف ونغم !

عادت « نادية ومنى » من رحلتهما الأولى إلى الجبل قبيل الظهر .. لتجدا الضيف المنتظر صاحب الدار الخربه الذى هبط من الجبل لينشىء معهد الأيتام قد أقبل على الدار .. وكان الرجل قد جلس على مقعد مواجه للجدة ، وقد بدا ضئيل الجسد ، محنى الظهر ، سمح الوجه ، رقيق الملامح .

ولم تكد تقبل الفتاتان على « الجدة » حتى هتفت ضاحكة :

— ها هما قد أقبلتا .. حفيدتاى المصريتان .. ليست بهما ملامح الفراعنة ، ولكنهما مصريتان لحماً ودماً .

ونهض مسيو « رينو » ليلقى الفتاتين مرحباً وهو يقول :

— إنهما تبدوان فرنسيتين أصيلتين .. لقد ورثتا شكل جدتهما .

وأجابت الجدة ضاحكة :

— الشكل فقط .. فهما شديدتا التعلق بمصريتهما .

وعاد العجوز إلى مقعده وهو يقول :

— أرجو أن تطيب لهما الإقامة بيننا .

وأجابت منى :

— إن « جاب » جميلة .. لقد صعدنا الآن إلى الجبل ، وطفنا حول البحيرة .

وقال العجوز :

— لعلها أعجبتكما !! لقد مضى بى وقت طويل لم أصعد إلى هناك .

وخيمت على الرجل سحابة حزن ثم أردف قائلا :

— إنى لم أعد أطيق منظر البيت بعد الحادث .. وفوق ذلك فإنى لا أكاد أجد

فسحة من وقتى .. فهؤلا الصغار قد استولوا على كل دقيقة منه .. إن مشكلاتهم لا تنتهى .

وردت الجدة قائلة :

ـــ أنت تنهك نفسك كثيراً يا رينو .. لم تعد سنك تحتمل كل هذا الجهد .

ثم وجهت الحديث إلى الفتاتين متسائلة :

ـــ ما رأيكما فى أن تعملا مع مسيو رينو فى المعهد .. إنه فى الواقع يحتاج إلى مزيد من المدرّسات .. لقد عرضت عليه أمكما معاونته .. ولكننى قلت لها إنها لم تعد صغيرة ، وإن واحدة منكما .. قد تكون أقدر منها على حمل متاعب الصبية . ما رأيك يا نادية ؟!

وتساءلت « منى » فى دهشة :

ـــ ولماذا نادية !. ولست أنا ؟!

وردت الجدة :

ـــ لقد قالت أمك إن نادية .. أكثر جلداً ، وإنها ترغب فعلا فى العمل .

ـــ هذه إحدى تشنيعات أمى ، لن يعمل مع مسيو رينو سواى .

وضحك العجوز وربت كتف « منى » قائلا :

ـــ ستعملان أنتما الاثنتان .. إنى فى حاجة إليكما معا .. واحدة تعاوننى فى المكتب ، والأخرى تعمل فى أحد الفصول .

وأجابت منى :

ـــ سأعمل أنا فى أحد الفصول . إنى أحب مناكفة الصغار .

وسأل رينو نادية قائلا :

ـــ وأنت تعملين معى فى المكتب ؟

وأجابت نادية :

ـــ سأعمل فى أى شيء تريد .

ـــ سأضع لك مكتباً فى الغرفة الصغيرة التى تطل على المحطة . وستتعاونين مع

« مدام كلود » فى كل أعمال المكتب . الواقع أنى قد أثقلت عليها بالعمل ، وقدآن الأوان .. لكى تأخذ بعض الراحة .

وبدت الأم تقبل من القاعة .. فقالت لها الجدة :

ــ لورا .. لقد وظفت لك الصغيرتين .. كلتيهما .. إن « رينو » رحب باستخدامهما فى معهده .

ــ الاثنتين !؟

وأجاب رينو :

ــ أجل الاثنتين .. إنى فى حاجة إليهما .

ــ ولكن منى . قالت إنها ...

وقاطعتها « منى » قائلة :

ــ لم أقل شيئاً .. إنى سأعمل مع مسيو رينو .

ــ إنى لا أريدك أن تجهدى نفسك .

وأجابت « منى » متحدية :

ــ ارأيتم .. إنها هى التى تريدنى ألا أجهد نفسى .. إنها تابى إلا أن تتهمنى بالمرض ، وإنى سليمة « كالجن ». لقد سبقت « نادية » فى صعود الجبل .

وصمتت الأم برهة ثم قالت موجهة الحديث إلى مسيو رينو

ــ إذا كنت مصرّا على العمل .. فأرجو ألا يكون عملها مجهداً لو أمكن أن توكل إليها عملا مكتبياً .

وهز « رينو » كتفه قائلا :

ــ لقد حاولت . ولكنها تصر على أن تعمل مع الصبية وقالت « منى » محتجة ..

ــ ليس العمل مع التلاميذ بالأمر الشاق .. إنى أعرف كيف أتعامل معهم .

وتدخلت الجدة قائلة :

ــ دعيها يا لورا تعمل ما تريد .. إنها أدرى بنفسها .. لا تخشى عليها .

وأقبلت « جانيت » من المطبخ تقول :

— الغداء جاهز .. هل أعد المائدة ؟

وأجابت منى :

— إنى أكاد أموت جوعا .

وردت الأم :

— من فرط ما عدوت .. هذه آخر مرة تصعدين الجبل على قدميك .

— كيف أصعده إذن ؟!.. على يدىّ وقدمىّ ؟!

— تصعدين فى عربة .

— ومن أين لى العربة ؟!

فقال مسيو رينو :

— عربتى تحت أمركما .

— ولكن قيمة الرحلة فى الصعود على القدمين .. فى تسليق الجبل .. مافائدة الرحلة .. إذا كانت العربة تحملنى إلى أعلى الجبل فى بضع دقائق !؟

وتدخلت « الجدة »قائلة :

— ليس هذا وقته .. انهضوا للغداء .. قلت لك لا تدققى معها يا لورا .. دعيها تفعل ما تشاء .. وعندما تتعب ستضطر إلى الرجوع .. لقد كنت مثلها من قبل .. لقد حفيت قدماى من صعود الجبل ، وعندما كلت ساقاى ، وأجهدنى الزمن .. لم أجد بدأ .. من الرقاد فى سكينة وهدوء .

ونظرت « الجدة » إلى « رينو » وتساءلت :

— أليس كذلك يا رينو !! أتذكر أيام صبانا ؟!

وهزّ الرجل رأسه وأجاب :

— كانت أياماً جميلة . كنت أرى الشجر أكثر ازدهاراً ، ومياه الشلال أكثر صفاء ، وقمم الجبال أنصع بياضاً .

وأقبلت جانيت مرة أخرى تدعوهم إلى المائدة ، وسألت الجدة قائلة :

ـــ أأحضر إليك الطعام الآن ؟
وهزت العجوز رأسها وقالت :
ـــ بل ساعدينى على الجلوس إلى المائدة .. إنى أريد أن أجلس اليوم بينكم .. أريد أن أحس بأحفادى من حولى ، بعد طول الوحدة .
وانتقل الجميع إلى المائدة .. وقد اتكأت الجدة على كتفى الأم وجانيت ، واتخذت مكانها فى صدر المائدة .. وقد بدا على وجهها الجذل والحيوية وهى تقول :
ـــ جميل أن يحس الإنسان بالأحباء من حوله .. إننا لا نحس .. بقيمة أحبائنا .. إلا بعد أن تقعدنا الحياة ، ونعجز عن ملاحقتها .. ونرى ركبها يمر بنا ليخلفنا فى فراغ ووحشة ، ونتوق إلى أن يتمهل البعض من حولنا .. يمنحونا فى قعدتنا العاجزة .. بعض الأنس .. وبعض الحنان .
وقالت جانيت :
ـــ تلك هى الأسرة .. فائدة أن يكون للإنسان أبناء وأحفاد .. يتمهلون معه فى قعدته .. لكى يمنحوه محبتهم وحنانهم .. ويريدون له ثمن وجودهم فى الحياة .
وهز رينو رأسه وطافت به موجة حزن وهو يقول فى صوت خافت :
ـــ وعندما نفقد هؤلاء الأحباء الذين يتمهلون معنا .. لكى يمنحونا عطفهم ومحبتهم .. نضطر نحن إلى أن نترك .. قعدتنا العاجزة .. ونعدو وراء المحبة ، والحنان .. نضطر نحن إلى أن نجرى للحاق بالركب .. حتى لا تقتلنا الوحدة ، ويزهق أنفاسنا الفراغ .
وأحست « نادية ».. بآلام العجوز .. وطافت بذهنها الفارسة الجميلة على ظهر حصانها .. والهاوية الفاغرة فاها .. والبيت الموحش الخرب .. تقرع الريح أبوابه ، وتصفر الوحشة بين جدرانه .. وتمنت لو استطاعت أن تتمهل تملأ عليه وحشته وتمنحه العطف الذى يرجوه ، والحنان الذى يفتقده .
وانتهى الغداء ، ومرّ اليوم والجميع منهمكون فى العمل بالدار أو التجول فى الحديقة .

وفى صبيحة اليوم التالى .. كانت « نادية ومنى » تهبطان المنحدر الموصل من الضاحية إلى البلدة فى طريقهما إلى المدرسة ليلتقيا بمسيو « رينو ».. حيث عملهما بالمدرسة .

ولم تكن المسافة بالقصيرة ، ولكن برودة الصباح حببت إليهما المسير .. وكانت كل منهما قد تدثرت بمعطفها ودست كفيها فى جيبيه وأخذت تحث الخطا هابطة من المنحدر .

وكانت « منى » قد ارتدت على رأسها « طرطوراً » من الصوف الأخضر .. قد « كسته » حتى غطى أذنيها ، وكانت « نادية » قد أحاطت رأسها بإيشارب من الصوف ربطته حسب عادتها حول عنقها ، ورفعت ياقة المعطف حتى غطت الجزء الباقى من العنق .

وبدا وضع الإيشارب حول رأس « نادية » طبيعياً .. ولم يبدُ هناك فارق ظاهر بين طريقة تغطية رأسها وعنقها والطريقة التى فعلتها « منى » بالطرطور الصوفى .

ووصلت الفتاتان إلى البيوت القائمة على المنحدر والتى تحدد مدخل البلدة من ناحية الضاحية واستمرتا فى الانحدار إلى الطريق العمومى حتى عبرتا شريط سكة الحديد ، وهمت « نادية » بالاتجاه يسرة فى الطريق المجاور لسكة الحديد والذى تقوم المدرسة على جانبه .. ولكن « منى » جذبتها من ذراعها قائلة :

ـ هيا بنا ندخل من الشارع الرئيسى .

ـ لمه ؟!

ـ لأن هذا الطريق فارغ مهجور .. ليس به ناس ولا حوانيت .

ـ وماذا تريدين من الناس والحوانيت ؟!

ـ نتفرّج . نشاهد البلدة وأهلها . نرى واجهات المحلات .

ـ هيا يا منى ..ليس هناك وقت .

ـ وقت ؟.. ليس عندنا هنا أكثر من الوقت .

ــ والمدرسة ؟

ــ لتنتظر .. ماذا تظنينها ؟! بضعة يتامى .. يلهون مع العجوز . والعمة كلود .

ــ إنها مدرسة يا منى ، وأنت لديك فصل ، وأنا لدىّ مكتب .

ــ هوّنى عليك .. يا نادية .. هوّنى .. ماذا تظنينهم كانوا فاعلين .. بدوننا .. هيا نشاهد « الفترينات » ونتفرّج على الناس .. دعينا نتمتع بصباحنا .

ونظرت « نادية » إلى الساعة وأجابت :

ــ اسمعى . الساعة الآن الثامنة والربع .. وموعدنا الثامنة والنصف .. لن أسمح لك بالتلكؤ أكثر من ربع ساعة .. نحن لا نريد أن نبدأ عملنا مع الرجل بالتأخر عن الموعد . عمل يعنى عمل .

ــ يا باى .. كأنى بك عينت فى أكسفورد !!

ــ إنها تتساوى عندى بأكسفورد .

وجذبتها من ذراعها وهى تقول :

ــ سميها كما تشائين ، ولكن هيا بنا نشاهد البلدة .

وسارت الفتاتان فى الطريق الرئيسى . وكانت الحوانيت قد فتحت أبوابها وامتلأت الأرصفة بصبية المدارس يتلاحقون بحقائبهم ومرايلهم السود .. أو ستراتهم الكحلية ، وبدت حوانيت الفاكهة والخضر والزهور . ندية .. ناضرة .

وحست « نادية » لأول مرة بالحياة تجيش من حولها ، وملأ نفسها إحساس بالارتياح والأمل .. بدد تلك الرواسب التى خلفها البيت المهجور ، والهاوية ، وصفوف المقابر المتراصة فى سفحها .

ووصلت فى النهاية إلى الميدان الرئيسى ، وتلكأت « منى » أمام حانوت ملابس فى ناصية الميدان ، وأخذت تشاهد فاترينة رصت بها مجموعة من « الكرافتات » . وتنقل بصرها من واحدة إلى أخرى .. فاحصة ثمن كل منها ،

وجذبتها « نادية » قائلة :

ـــ هيا بنا يا منى .. لقد بلغت الساعة الثامنة والنصف .

ـــ انتظرى لحظة حتى أشاهد مجموعة « الكرافتات ».

ـــ ماذا تريدين من الكرافتات ؟!

ـــ أريد واحدة لعصام .

ـــ بمناسبة ؟

ـــ عيد ميلاده .

ـــ متى ؟!

ـــ فى ١٥ نوفمبر .

ـــ أمعك نقود ؟!

ـــ سيصبح معى فى أول الشهر .. ألن نقبض مرتبنا ؟

ـــ هل تظنين أننا سنضيعه فى شراء الهدايا ؟

ـــ إن ثمن « الكرافتة » لن يضيع المرتب ولا بد أننا سنجعل من المرتب جزءاً لمصروفنا الخاص .

وعادت « منى » تنظر إلى « الفاترينة » ثم أشارت إلى إحدى « الكرفتات » قائلة :

ـــ ما رأيك فى هذه يا نادية ؟!

ـــ لطيفة ..

ـــ وهذه !!

ـــ أيضاً لطيفة .

ـــ وهذه ؟!

ـــ اسمعى يا منى .. تظنيننا سنقضى الصباح فى المقارنة بين « الكرافتات ».. عندما يحل أول الشهر تعالى واشترى أى « كرافتة » تعجبك .. هيا بنا .

وقبل أن تجذبها من يدها لتسير بها .. كانت تتسلل بعينيها إلى « الفترينة »

لتفحص الكرافتات .. أى واحدة منها تليق بعبقريها .. العريض المنكبين .. المتجهم السمات !!

لقد رأته مرة « بجا كتة انجليزى كاروهات » تليق عليها هذه « الكرافتة » المخططة بأحمر ، ومرة أخرى كان يسير فى حديقة النادى ببذلة لونها كحلى تليق عليها هذه الكرافتة المنقطة ، وهذه الكرافتة تليق ببذلته الرمادية . ولكن علامَ كل هذا التعب !

إن « منى » تختار .. لأنها سترسل لعصام .. هدية فى عيد ميلاده .

لماذا تشغل هى نفسها بالاختيار ؟

هل تجرؤ على أن ترسل له هدية ؟ باسم من ؟ باسمها ؟ أم باسم مجهول ؟

ونظرت إليها « منى » وقد شردت بنظرها فى « الفاترينة » وهتفت بها :

ـــ هاى .. كنت أظنك مستعجلة . من أجل الموعد ؟!

وأفاقت « نادية » وأجابت قائلة :

ـــ أجل .. أجل .. هيا بنا .

وحثت الخطا .. متجهة مع أختها إلى المدرسة .

ووصلت الأختان إلى المدرسة ، واجتازتا الباب الخشبى الضخم الذى توسط السور الأبيض المرتفع ، ولاح لهما بناء المدرسة العتيق يتوسط فناءها الرحب .

وكان الصبية قد انتشروا فى الفناء ، وبدت بينهم بعض المدرّسات ، وتلفتت « منى » حولها ، ثم اتجهت إلى باب البناء تتبعها « نادية »، وصعدتا بضع الدرجات أمام الباب ثم وقفتا فى دهليز غلبت عليه الظلمة .

وبرز إليهما عجوز يمسك مكنسة وسألهما عما تريدان ، وأجابت منى :

ـــ مسيو رينو .

ـــ إنه فى حجرته لم يهبط بعد .. تفضلا بانتظاره حتى أخبره .. من أقول له ؟

وأجابت منى :

ـــ بنات مدام لورا .. منى ونادية .

ووقفت « منى » تشاهد بضع لوحات معلقة على الجدارن ، تمثل الجبال والجليد ، والخيل .

وبعد لحظات سمعت وقع خطوات العجوز يهبط الدرج ، ثم بدأ مسيو « رينو » بجسده الضئيل وظهره المحنى وشعيراته البيض التى تعلو رأساً ملأه النمش .

و لم يكد يبصرهما حتى هتف بهما مرحباً :

ــ أهلا .. أهلا .. لقد أعد ت لك مكتبك يا نادية ، إنه فى الدور العلوى فى الحجرة لصعيرة المجاورة لحجرد الموسبقي .. أرجو ألا ترعجك الموسيقى ؟!

و'جابت « نادية » وهى تهز رأسها .

ــ أبداً .. أبدا .. إنى أحب الموسبقى .

وضحك العجور قائلا :

ــ أرحو ألا تحبيها بدرجة . تصرفك عن عملك ؟!

وأجاب « نادية » ضاحكة :

ــ على لعكس .. إنها تساعدنى على العمل .

وقالت « منى »:

ــ وأنا . ابن أذهب ؟!

ــ ستتولين الفصل الثالث نى الفرقة الأولى .. لقد كانت تتولاه « أجاث »، ولكنها تزوجت وتركتنا ، واضطررت أن أحيل أعمالها إلى « كرستين »، وأعتقد أنها قد بانت فى حاجة إلى منقذ ينقذها من هدا الفصل الشقى .. هل تقدرين علبه ؟

ــ وعلى شر مه .

ــ حسن .. كل ما أرجو ألا تتزوجى قريباً .. حتى لا نعود إلى إلقاء العبء مرة أخرى على أكتاف كريستين .

ــ لا تخف ، لن أتزوج قبل عام .. إن أمامه فترة حتى ينتهى من أعماله فى

الصحارى .. ويستقر فى القاهرة .

ـــ من هو ؟!

ـــ زوجى .. إنه ضابط بالفرسان فى الجيش المصرى .

ـــ هكذا ؟! بلغيه تحيتى لأنى أحب الفرسان .

ثم التفت إلى « نادية » قائلا :

ـــ وأنت يا نادية .. لعلك لن تتركينا بنفس السرعة .. هل هو ضابط أيضاً ؟!

وأجابت « منى » ضاحكة :

ـــ لا .. إنه جزّار .

وتساءل « رينو » فى دهشة وأجاب ضاحكا :

ـــ جزّار ؟..

ـــ أجل .. جزّار آدميين .. إنه طبيب جرّاح .. أبسط عملية عنده .. بتر الذراع .

وصاح « رينو » ضاحكاً :

ـــ مرّة واحدة . اللهم اكفنا شرّة . ومتى ستتزوجين ؟

وهمت « منى » بالرد ، ولكن « نادية » صاحت بها ناهرة بالعربية :

ـــ منى .. كفى عن هذه السخافة .

ثم عاودت الحديث بالفرنسية قائلة للرجل :

ـــ لا تصدق شيئاً مما قالت . إنها تمزح .

وضحك العجوز قائلا :

ـــ على أية حال .. إذا تحقق مزاحها .. فأرجو أن تبعدى عنا « جزّارك » فأنا فى حاجة إلى كل جزء فى بدنى .

ثم نادى على الفرّاش ليصعد مع « نادية » ليعد لها حجرتها .. قائلا :

ـــ سأعود إليك بعد برهة لأعرفك بالسيدة « كلود » التى ستعملين

معها .. إنها سيدة لطيفة .. ولا سيما إذا كانت على وفاق مع زوجها .

وصعدت « نادية » مع الفرّاش إلى أعلى ، وتحرك مسيو « رينو » مع « منى » إلى الفناء .

ووقفت « نادية » وسط حجرتها .. المطلة على المحطة.وبدا لها سقف المحطة المنحدر .. وجزء من الرصيف ، وسور المحطة الممتد بجوار القضبان .

وفوق كل هذا امتدت سنديانة ضخمة .. تهدلت بعض أغصانها فحجبت جزءاً من بناء المحطة ، واستقامت بقية الأغصان لتحجب جزءاً من السماء والسحب .

وتذكرت للسنديانة شبيهاً .. فى مكان بعيد .. تذكرت الكافورة القائمة بجوار نافورة النادى .. تحجب جزءاً من السماء وجزءاً من الأبنية المجاورة .

وسرى حفيف بين الأغصان .. خيل إليها أنه نفس الحفيف .. كأنما تهمس به الأوراق هناك لتردده الأغصان هنا .

وسمعت صوت موسيقى ينبعث من حجرة مجاورة .. كانت أصابع تعزف البيانو فى بطء حزين .

وأخذت تنصت إلى الحفيف والنغم ، وعيناها تسبحان وراء الأفق .. بعيداً .. بعيداً .. حيث الوطن البعيد .. والحبيب النائى الموهوم .

(٢٤)

اكتب إلى ...!!

مرت الأيام بالأسرة فى موطنها الجديد بالمدينة الصغيرة القائمة على سفح الجبل ، وملأ نفوسهم إحساس بالاستقرار النسبى ، وسادتهم حالة طمأنينة .. اطمأن فيها كل منهم إلى طريقة حياته .. فاستراحت الأم .. إلى استقرارها فى البيت الذى نشأت بين جدرانه .. وقضت صباها ترتع فى مراعيه وتمرح بين أحراشه ، وملأها عزاء أن تظل بجوار « أمها » حتى آخر أيامها .. واستطاع تشاغلها بالإشراف على الدار وإعداد الطعام ورعاية شئون المزرعة والعناية بالطيور والماشية أن يعيد إلى نفسهاالإحساس بالحياة .

وانهمكت « منى » بين الصبية ، واندمجت فى مشكلاتهم .. فإذا ما ضاقت بهم انطلقت لتتسلق الجبل أو لتشارك فى الحفلات الصغيرة الراقصة التى تقيمها إحدى زميلات المدرسة أو إحدى صديقات الجيرة .

واطمأنت « نادية » إلى عملها فى حجرتها الصغيرة المطلة على السنديانة الضخمة التى تحتضن مبنى المحطة بيد .. وتلوح باليد الأخرى بين السحب .

ولم يكن عملها بالعمل الشاق .. كانت أشبه بمدير أرشيف المدرسة .. أو رئيسة محفوظاتها .. كانت ترتب بطاقات التلاميذ وتحفظ ملفاتهم .. وتسجل فيها كل ما يجد من معلومات .. خاصة بالحالة الدراسية .. والصحية .. وكان أكثر ما يريحها فى عملها هو البعد عن الناس .. كانت فى مقرها ..أشبه بعامل المرصد .. يرقب ولا يُرى .. تبصر كل الناس ولا يبصرها أحد .

فمن وراء الزجاج الذى تتلاعب أوراق السنديانة على حافته .. كانت تبصر روّاد المحطة ، وكانت ترقب الراحلين والقادمين .. المودعين والمستقبلين ..

كانت ترى القطار يفرغ حمولته ويملؤها .. وهى قابعة فى مكمنها .. آمنـة مطمئنة .. لا تكاد تبصر فى يومها سوى وجه السيدة « كلود » الرقيق .. الذى يطل عليها بين آونة وأخرى ليسألها سؤالا .. أو ليمنحها ابتسامة .

وكانت السيدة « كلود » التى تعمل « نادية » فى معاونتها . كهلة ، رقيقة الحاشية ، ناعمة الصوت ، هادئة الخلق .. ولم تجد « نادية » موضعاً لحالة الاستثناء فى طبيعتها الهادئة التى حذرها منها مسيو « رينو » عندما لا تكون على وفاق مع زوجها .. فقد كانت السيدة دائمة البشاشة .. دائمة الهدوء ، وحتى عندما كانت تشكو من المستر « كلود ».. فى حالة سكره .. كانت شكواها لا تعدو المزاح والفكاهة

وكانت مدام « كلود ».. تعمل إلى جانب إشرافها على إدارة المدرسة .. مدرّسة للموسيقى .

كانت هى صاحبة العزف الذى سمعته « نادية » لأول مرة عندما وقفت فى حجرتها ترقب السنديانة والأفق وقمم الجبال البيض .

وكان العزف رقيقاً .. وكانت دقات الأصابع على السانو واضحة محددة .. ولكنها كانت تنساب إلى نفسها انسياب الماء فى أخاديد الجبل .. متصلة متدفقة .

ولم تسمع « نادية » العزف بعد ذلك .. لم تسمع النغم ذاته ، وإنما سمعت أناشيد غنى فيها التلاميذ .. وموسيقى رقصوا عليها .

أما هذه القطعة التى انسابت إلى نفسها .. فلم تتكرر ثانية .

ولم تحاول « نادية » أن تسأل مدام « كلود » أن تعيدها لها ، فلم تكن تعرف ما هى ، ولم تستطع حتى أن تحفظ بعض نغمها ، ومنعها الخجل من أن تسأل مدام « كلود » عنها ، وتذكرها بيوم عزفها .

وكانت « نادية » تجلس فى حجرتها ذات صباح ، وكان شهر نوفمبر قد أقبل والأمطار قد تدفقت .. والسحب قد تكدست فى أديم السماء ، وروّاد المحطة قد انكمشت أجسادهم تحت المعاطف الثقيلة .. وطأطأت رءوسهم تحت المظلات

التى يتساقط المطر من جوانبها .

وأخذت « نادية » تعيد ترتيب البطاقات .. عندما فتح الباب ، وأقبلت « منى » ضاحكة تلوّح برسالة فى يدها قائلة :

ـ رسالة من عصام ، تصوّرى .. لم أكن أصدق أبداً أن الرسائل يمكن أن تصل إلى هنا !!

وأجابت « نادية » ضاحكة :

ـ ولماذا لا تصل !. أتظنيننا فى مجاهل أفريقيا ؟!

ـ بل فى مجاهل « الألب ».. لقد كتبت له العنوان على البيت والمدرسة ، ومع ذلك لم يخيل إلىّ أن الرد يمكن أن يصل .

ـ ما دام قد كتب العنوان .. ووضع طابع البريد .. فهو واصل وصل .. بلا معجزات ، ولا خوارق .

ووضعت « منى » الرسالة أمام عينيها ، ثم قالت :

ـ تصوّرى .. لقد وصل فى أربعة أيام .. إن التاريخ الذى كتبت فيه الرسالة ٢٨ أكتوبر واليوم أول نوفمبر .. لا بد أنه قد كتب إلىّ فى نفس اليوم الذى وصلت فيه رسالتى ، فلقد بدأت كتابتها يوم ٢٠ وانتهت من كتابتها بعد أربعة أيام ، وقذفتها فى الصندوق المعلق بجوار المحطة يوم ٢٤ فلا بد أن تكون قد وصلت يوم ٢٧ .. أو .. يوم ٢٨ .. أو..

ولم تجد « نادية » فى نفسها رغبة فى متابعة تواريخ الإرسال والوصول .. فقاطعتها قائلة

ـ المهم ماذا قال لك ؟! ما هى أخبارهم ؟!

ـ كل شىء على خير ما يرام .. إنه ما زال فى القاهرة ، وهو يتوقع أن ينقل إلى الإسكندرية مع كتيبة السيارات الراحلة إلى هناك ، وهو يهديك أزكى السلام .. أنت والأسرة .. إن كتابته فى غاية الركاكة .. كلها سلامات ، وتحيات ، وهو يظن أننا نعرف كل شىء عن مصر .

ــ كيف ؟!

ــ إنه يقول ، وكل شيء عندنا كما هو .. لا شيء أكثر مما يكتب فى الصحف ويسمع فى الإذاعة .

وضحكت « نادية » قائلة :

ــ صحف ؟

ــ وإذاعة !! تصوّرى ؟!

وصمتت « نادية » برهة قبل أن تجيب :

ــ لقد حاولت أن أسمع إذاعة مصر بضع مرات ، ولكننى فشلت تماماً .

ــ طبعاً .. بمثل هذا الجهاز العتيق الذى يشبه صندوق البريد لا يمكن أن نسمع أكثر من إذاعة باريس .

ــ لقد سمعت مرة إذاعة لندن العربية .. فأثارت أعصابى .

ــ اسمعى .. لماذا لا نشترى راديو جديداً !!

ــ كيف ؟!

ــ نشترك فيه سوياً .. نخصم من مصروفنا مبلغاً كل شهر لكى نشتريه .

ــ لقد حيرتنى بمصروفك .. ماذا تنوين أن تفعلى به ، هدايا لعصام .. أم جهاز راديو ؟!

ــ هدايا لعصام ؟.. هل تظنينني سأشترى له كل شهر هدية .. إنها هدية واحدة سأشتريها له هذا الشهر وأنتهى ، وبعد ذلك نشترى الراديو وتستطيع « ماما وجدتى » أن تساعدانا فى ثمنه .

ــ لا تعشمى نفسك .. إنهما راضيتان تماماً .. بجهازهما العتيق ، ولا أظن إحدهما توافقة لسماع إذاعة مصر .

ــ على أية حال نشتريه نحن .. ما رأيك ؟!

ــ موافقة .

ــ ولكن هبى أنه لا يسمعنا صوت مصر ؟!

ــ كيف !. إننا لن نشتريه إلا إذا جرّبناه وسمعنا الإذاعة المصرية ...

ــ لا .. ناصحة .. هل ستذهبين معي لشراء كرافتة لعصام .

ــ ألم تشتريها بعد ؟! لقد ظننتك اشتريتها وأرسلتها ؟!

ــ إنى حائرة بين كرافتين .. وكلما هممت بشراء إحداهما .. تزوغ فى عينى الأخرى .. فأرجوك أن تأتى معى اليوم .. لكى تضطرينى إلى شراء إحداهما .

ــ ولماذا لا تشترين الاثنتين ، وتستريحين ؟!

ــ ليس معى إلا ما يكفى واحدة .

ــ سأعطيك ثمن الثانية .

ــ حقاً ؟

ــ أجل .. فلست أدرى ماذا سأفعل بمصروفى .

ــ سآخذه وأردّه لك فقد تحتاجينه يوماً لإرسال هدية .

ــ لا أظننى سأحتاجه أبداً .. لهذا الأمر .

وخيمت على وجه « نادية » سحابة خفيفة من الحزن سرعان ما انقشعت .

وتساءلت « منى » كأنما تحاول أن تغير الموضوع :

ــ هل كتبت إلى صبرى ؟

ــ أنا ؟

ــ أجل ..

ــ ولماذا أكتب إليه ؟!

ــ لتعطيه عنواننا .. ألم تعديه بذلك ؟!

وصمتت « نادية » برهة ثم أجابت :

ــ أجل . أظننى وعدته .

ــ لماذا لم تكتبى إليه إذن .. إنه إنسان طيب ، وسيسعده أن تكتبى إليه .. وأعتقد أنه سيسعده أيضاً أن يكتب إليك .. لا تتصوّرى مقدار فرحتى عندما وصلتنى رسالة عصام !

كادت « نادية » تضحك فى مرارة .. إن « منى » فى نشوتها لا تقدر أن قيمة الرسالة .. ليست فى الرسالة ذاتها ، وأنها لم تفرح لأن رسالة وصلتها ، وإنما لأن عصام كتب إليها .

ولكنها كبتت المرارة فى نفسها .

ما الفائدة ! ستعود « منى » إلى لومها ، والسخرية منها .

وقد تطلب « منى » فى سحريتها .. أن تكتب إليه .. إلى الذى لا يعرفك من تكون . ما دامت تصر على أن قيمة الرسالة .. مستمدة من قيمة صاحبها . وما دام .. لا يوجد هناك فى هذا الكون .. من له قيمة فى نفسها سواه

وعادت « منى » تقول وهى تمد يدها بالرسالة إلى نادية :

ـــ اقرئيها .. أؤكد لك أنها ستسعدك كما أسعدتنى .. إنى شممت فيها عبير مصر .. لقد ملأتنى إحساساً .. بأن الصلة بيننا لم تنقطع ، وأن رحيلنا لم يكن هجرة ، وإنما رحلة .. أو إجازة .

ووقفت « منى » ترقب « نادية » وهى تقلب الرسالة بين أصابعها ثم قالت :

ـــ لا تظنى أن فرحتى بها لأنها مجرد رسالة من عصام . إنى بالطبع سعيدة لأنه كتب إلىّ ، ولكن أؤكد لك أن فرحتى أعم وأشمل .. إنى أحسست بالفرحة لأن رسالة من مصر قد وصلتنى . وأعتقد أنك ستشاركيننى الإحساس بهذه الفرحة .. ومن أجل ذلك قلت لك اكتبى إلى « صبرى » . إنه يحبك يا « نادية » .. وسيكتب إليك من قلبه .

وكانت « نادية » تنقل بصرها بين سطور الرسالة حتى وصلت إلى آخرها .

وكست وجهها ابتسامة وهى تقول :

ـــ لماذا تقولين إن كتابته ركيكة .. لقد كتب كل ما يود أن يقوله ببساطة .. أكان من الواجب أن يكتب شعراً ، ويقول لك « مضناك جفاه مرقده » ؟

وخطفت « منى » الرسالة وهى تقول :

ـــ ولم لا ؟! ألا أستحق !! اكتبى إلى صبرى وسنرى كيف يكتب إليك .

— سيكتب إلىّ عن صفقة الأسلحة ، والميج ، ودبابات ستالين .

وضحكت « منى » وهى تقول :

— إذن اكتبى إلى المضنى الآخر .. المرابط فى جنيف . قطعاً .. هذا سيكتب شعراً .. فقد كان حبه لك خاطفاً .. لقد صرعته فى غمضة عين .. اكتبى إليه .. تسلى .. ألم تضيقى بجلستك هذه تطلين على المسافرين من هذا الجحر .. كالوطواط ؟

وغادرت « منى » الحجرة .. بضجيجها ، وثرثرتها .. وضحكاتها ، وساد السكون مرّة أخرى .. وعادت « نادية » تقلب فى البطاقات ، وبصرها .. يتخلل أعصان السنديانة ويطلق إلى الأفق البعيد حتى القمم الثلجية البيض .

ووسط السكون السائد والصمت المخيم نفذت من باب الحجرة دقـات بطيئة ، واضحة .. محددة ، ولكنها تنساب إلى النفس .. فى غزارة وقوة .. لتنفذ إلى الأعماق .. وتندفق تدفّق السيل الهابط من أعالى القمم فى أخاديد الجبل ، ليصل إلى الأغوار .

وأنصتت « نادية » إلى النغم .. المتقطع المتصل .. البطىء المتدفق . المتقطع فى دقاته . المتصل فى تأثيره . لبطىء فى عزفه المتدفق فى سريانه .

وأحست « نادية » بمشاعرها ترق ، وحواسها ترهف .

وأخيراً .. كفت الأصابع عن العزف .

وبعد لحظة .. أطلت مدام « كلود » وقد علت وجهها ابتسامتها الرقيقة قائلة :

— هل انتهيت من ترتيب البطاقات يا نادية ؟!

— رتبت ما يقرب من النصف .

وردت « كلود » فى تأنيب رقيق :

— النصف فقط !

وقالت نادية معتذرة :

ــ الواقع أن « منى » أضاعت نصف وقتى .

ــ والنصف الآخر ؟

ــ أضعته أنت ؟

ــ أنا ! كيف ؟

ــ بهذه القطعة التى عزفتها الآن .. إنها تستحوذ على مشاعرى استحواذاً تاماً ، بحيث لا أستطيع أن أعمل شيئاً وأنا أنصت إليها .

ــ إلى هذا الحد تحبينها ؟

ــ لقد سمعتها منك عندما أتيت إلى هنا أول مرة .. وتمنيت أن أسمعها بعد ذلك ، ولكنى لم أجرؤ على طلبها .. لأنى أجهل اسمها .

ــ تجهلين اسمها ؟.. عجيبة ! إنها إحدى مقطوعات « شوبان » المعروفة .

وتمتمت « نادية » فى حياء :

ــ الواقع أنى لست على دراية تامة .. بالموسيقى.إنى أحب موسيقانا المصرية التى تعوّدت أذناى عليها ، ولم أحاول أن أسمع من قبل .. شيئاً من الموسيقى العالمية المعروفة ، ولكن هذه القطعة بالذات أحسست أنها انسابت إلى نفسى بطريقة لم أكن أتوقعها .

ــ إنها فالس الوداع .

وأحست « نادية » بشوائب حزن ترسب فى أعماقها وردت قائلة :

ــ الوداع !!

ــ أجل .. إنى أحبها .. هل تجيدين العزف على البيانو ؟!

ــ إلى حد ما .

ــ سأعلمها لك إذا أردت .

ــ لا أظننى سأستطيع عزفها كما تعزفينها .. إنك مدهشة فى عزفها يا مدام كلود !

وضحكت « كلود » قائلة :

— أهذه القطعة فقط هى التى أعجبتك فى كل ما أعزف !

— إنى أحب كل ما تعزفين .. ولكنى أحب هذه القطعة أكثر ..

— لأنك تميلين إلى الوحدة .. لقد أحببتها لأنها تتجاوب مع ميولك الحزينة .. أنت تحبين الوداع يا نادية .. أليس كذلك ؟!

وأطرقت « نادية » برأسها وأجابت فى صوت خفيض :

— ما من إنسان .. يحب الوداع يا مدام كلود .. إنه يفرض علينا فرضاً ، لا نملك إلا أن نسلم به .

— وهل فرض عليك وداع آلمك .

— وداع الوطن .

— فقط ؟!

— ومن خلفناهم فى الوطن .

— أخلفت هناك أعزّاء عليك ؟

— لنا أصدقاء أعزّاء كثيرون .

— كثيرون !؟

وصمتت « نادية » .. وأردفت مدام كلود تقول :

— إن الوداع الذى يخلف فى نفوسنا اللوعة .. لا يكون لكثيرين .. إنه يكون لواحد فقط .

وأحست نادية بالدموع تتجمع فى مآقيها ، وحاولت جهدها أن تكبتها .. وكست وجهها ابتسامة باهتة وردت متسائلة :

— هل جرّبت هذا النوع من الوداع يا مدام كلود ؟!

ومدت السيدة كفها تتحسس رأس نادية فى رفق وقالت :

— من الذى لم يجرّبه ! إنه دائماً يكون جزءاً من حياتنا بل هو أبرز ما فى حياتنا من معالم .

وتذكرت « نادية » ليلة الرحيل ، وطوافها بالنادى ووقفتها فى المدخل الخلفى

تتطلع إلى ملعب « الكروكيه » وقد لفتها الظلمة ، وحاولت أن تتذكر الوداع .. أو ما سمته السيدة : بأبرز معالم حياتنا .. فوجدته شيئاً بلا معالم .

إنها قد حرمت حتى من أن تجعل وداعها .. شيئاً .. ينفع للذكرى .

وغادرت السيدة الحجرة الصغيرة ، وعادت « نادية » تعبث بالبطاقات وقد شرد ذهنها مرة أخرى فى الأفق البعيد .

وفى الليل عندما ساد السكون البلدة .. وخيم الصمت عليها ، وأوى أهل البيت إلى مضاجعهم .. جلست « نادية » فى فراشها تقلب كراسة فى يدها .

لقد كانت كراسة مذكراتها .

كانت الكراسة .. ملجأها الوحيد ، تنفث فيها همومها .. وتجتر ذكرياتها .

وأحست كأن السطور رجع الصدى .. كانت تقف بين صفحاتها وحيدة ، ومن حولها .. فراغ طويل عريض .

لماذا لا تكتب إلى أحد ؟!

لقد قالت لها « منى ».. اكتبى .. فسيسعدك الرد عندما يصل إليك .

أجل .. إنها فى حاجة .. إلى أن تكتب إلى أحد .. فى حاجة إلى أن يرد عليها إنسان .

فى حاجة إلى أن تسمع شيئاً غير رجع الصدى الذى تسمعه من كراسة مذكراتها .

لقد حثتها « منى » على أن تكتب إلى صبرى .. لأنه يحبها ، وسيجيبها من قلبه .

ولكن ماذا تستطيع أن تكتب إليه ؟

هل تكتب إليه عن مدحت ؟!

هل تسأله .. ماذا يفعل ؟! وكيف أصبح ؟!

هل تسأله أن يصفه لها وهو يرتدى ثيابه البيض ويسير متجهماً فى المستشفى ؟

هل تسأله عن خطيبته .. أخطبها حقاً ؟! أم أن المسألة لم تعد أن تكون مجرد أشاعة ؟!

هل تسأله عن زملائه وزميلاته فى النادى ؟!

وبأية حجة تسأله كل هذه الأسئلة ؟!

هل تقول له إنها تحبه ؟!

وهل سيكتب هو لها .. ليحدثها عن مدحت ؟!

عبث . فى عبث ، وحمق فى حمق .

هل تكتب إليه .. لتسأله عن صفقة الأسلحة .. والميج وال تى ٤٣ .

ومدحت .. من يحدثها عنه ؟!

هذه البلهاء « منى ».. التى تدعى أنها فرحت بالرسالة .. لأنها رسالة !.

كلام فارغ !

هل كانت تسر « منى » لو أن الرسالة حملت إليها أسعار البورصة فى مصر .. أو حركة تنقلات موظفى سكة الحديد ؟

لقد قالت لها اكتبى إلى هذا العاشق المرابط فى جنيف .

ماذا تكتب إليه ؟!.. أتكتب لتقول له .. إنها لا تحبه .. وإنه لا داعى لأن يأمل منها فى ود جديد ؟!

وماذا تنتظر أن يقول لها ؟!

سيحدثها عن بحيرة « ليمان »، وعن الجو فى جنيف .

وسيقول لها إنه ما زال ينتظر .

سخافة فى سخافة !!

ولكن لماذا لا تكتب إليه هو ؟

أجل .

إذا كان لا بد من الكتابة .. فلماذا لا تتجه إليه مباشرة ؟!

إنها تعرف عنوانه .. (مستشفى الدمرداش) بالقاهرة .

وأحست بنشوة غامرة .

أجل .. إنها تستطيع أن تكتب إليه .

ليس هناك أى شيء يمكن أن يحول بينها وبين الكتابة .. ولكن ماذا تقول

له !!. وهل سيجيب عليها ؟!

لتقل له .. إنها فتاة من مصر .. تعرفه أكثر مما تعرف نفسها ، وإن الظروف أبعدتها إلى مكان بعيد ناء فوق قمم الألب العالية .. وإن كل أملها فى الحياة هو أن يكتب إليها .. أن يرد على رسائلها .. ولو بكلمة أو كلمتين ، يشعرها أنه يعرفها .

ولن تقول له كلمة حب .. ستحدثه عن نفسها .. ما سمعته عنه .. وما رأته منه .. ستحدثه عن لعب « الكروكيه » والنادى وعن عملياته فى المستشفى .

ألا يحتمل أن يرد عليها ؟! لماذا لا تجرّب !!

إنها لا تريد أكثر من مجرد كلمات ستملأ عليها حياتها .

إنها لا تريد أكثر من ذلك .

إن هذا أكثر مما تطمع فيه .

وأمسكت بالقلم وبدأت تكتب :

« لست أدرى كيف أناديك وماذا أقول عنك ! فأنا لا أريد أن أفرض عليك نداء أو وصفاً .. إلا ما تسمح به أنت .

إن اسمى نادية .. وأعيش فى مكان بعيد جداً فوق أعلى قمم الألب ولا أظن هناك أى احتمال للقاء بيننا .

ومع ذلك أعرفك جيداً . أعرفك أكثر مما تتصور . أعرف كل شىء عنك .. عن حياتك ، وعن عملك ، وعن طباعك . لقد قضيت فترة من عمرى فى مصر . وكنت امل فى وقت ما أن تعرفنى وأن أعرفك ، وفقدت هذا الأمل ورحلت عن مصر بلا عودة .. عندما استقر بنا المقام .. فى هذا المكان النائى .. عاد الأمل يراود نفسى . وأحسست أن ثمة عزاء قد بقى لى .. هو .. أن تكتب إلىّ ، وأكتب إليك .. قد تثيرك رسالتى .. وقد تبعث فى نفسك الدهشة ، أو الضحك أو السخرية والتشكك .. ولكن لو عرفت مدى ما تمنحه إياى بردّك .. لأجبت رجائى ، ورددت علىّ .

لست أريد أن أطيل عليك .. لأنى أكره أن أفرض عليك سماعى .. حتى

أعرف أنك تقبله .

وإنما أكتب إليك لأسألك فقط : هل لك أن تمنح غريبة عن وطنها .. عزاء عن غربتها بالكتابة إليها !!

هل تقبل أن تقرأ لى .. وأن ترد علىّ ؟! إذا قبلت .. فاكتب إلىّ كلمة واحدة .. هى نعم .

وأؤكد لك أنى لن أثقل عليك أبداً ، وأنى سأكف عن الكتابة عندما تقول لى كفى ... »

وتوقفت « نادية » بقلمها قليلا .. ثم وقعت اسمها « نادية ».

وأعادت قراءة ما كتبت ثم أضافت :

« ملاحظة — إذا كنت تنوى الكتابة إلىّ فاكتب بسرعة حتى لا أعتقد أنك خذلتنى ».

ثم وضعت سن القلم على الملاحظة .. وشطبتها ، وأمسكت بالرسالة وطوتها ووضعتها تحت الوسادة .

وفى الصباح .. أعادت قراءتها .. وأمسكت بها .. وهمت بتمزيقها .. ولكنها لم تجرؤ .. فوضعتها فى جيبها .

وقبل أن يستيقظ أهل الدار .. كانت تتسلل ، وقد لفت رأسها بالإيشارب وضمت المعطف الثقيل على جسدها .

وقبل أن تفتح الحوانيت أبوابها .. وقبل أن يستيقظ حمالو المحطة .. كانت « نادية » تقف أمام صندوق البريد .

وبلاوعى .. مدت يدها إلى فتحته .. وتركت المظروف ينزلق إلى جوفه .

(٢٥)

خدعة أم حقيقة !؟

كانت الساعة قد قاربت التاسعة صباحاً ، عندما أقبل مدحت على غرفة العمليات في مستشفى الدمرداش . وقد سار بجواره « جاد الله » يتساءل ضاحكا :

ـــ ماذا تنوى أن تقطع هذا الصباح .. زوراً .. أو معدة ؟

وأجابه مدحت جاداً :

ـــ مثانة .

ـــ يا ساتر يارب .

ـــ هل تدرى أن نسبة السرطان فى مصر تزيد عن بقية بلاد العالم بثلاثين فى المائة نتيجة لزيادة سرطان المثانة ؟

ـــ ومتى تنوى أن تنتهى من عمليات الجزارة التى تباشرها فى المستشفى باسم الطب ؟.

ـــ عمليات الجزارة هذه قد أنقذت تسعة وتسعين فى المائة من حياة مرضى .. فقدوا الأمل فى الحياة .

ـــ مفهوم .. مفهوم .. أنقذت حياتهم .. ليعيشوا بنصف أجسادهم .. لماذا لا تتركهم يعالجون أنفسهم بالأشعة أو بأى وسيلة أخرى غير هذا التشويه الذى تجريه لهم ؟!

ـــ يا غبى .. هذا كله نصب .. وتضليل .. أنت وأمثالك من المضللين تجنون على المرضى بهذه الخدع .. وليس أحب إلى المرضى من الهروب من العمليات الجراحية ، والاسترسال فى علاج الأشعة .. وغيرها من المسكنات ..

حتى يستشرى الداء .. ويفوت الأوان .. وتتضاءل فرصة الشفاء بالاستئصال .. إن ثلاثة أرباع العمليات التى تأتى إلىّ ، تأتى متأخرة .. نتيجة محاولات الأشعة التى يقوم بها النصابون أمثالك .

ـــ أنا نصاب ؟! يا جزّار ؟!

ـــ أنت أكبر نصاب رأيته فى حياتى .. هل تذكر عندما كتبت على عيادتك « أخصائى البنسلين » !؟

ـــ وما فى ذلك ؟! ألم أكن أعالج المرضى بحقن البنسلين ؟!

ـــ وهل حقن البنسلين تحتاج إلى تخصص !؟

وضحك جاد الله قائلا :

ـــ طبعاً .. لأن أحداً غيرى لم يكن لديه بنسلين .. أنسيت أنى كنت آتى به من جيوش الحلفاء .

ـــ كان يجب عليك أن تكتب على عيادتك .. أخصائى فى سرقة البنسلين .

ـــ لم أكن أسرقه .. لقد كنت آخذه من « هيلين » كبيرة ممرضات مستشفى القصاصين .

ـــ إذن كان يجب أن يكتب على عيادتك بلطجى البنسلين ، لا أخصائى البنسلين !

ـــ أخصائى .. أو بلطجى .. ألم أشف الكثيرين من الحمى والأمراض السرية ؟ أتذكر ...

وكان مدحت قد وصل إلى باب غرفة العمليات حيث وقف مساعده ينتظره ، وقد أحاط به بعض الطلبة الذين سيحضرون العملية .

وقال مدحت مقاطعاً جاد الله :

ـــ لا أذكر شيئاً الآن .

ـــ متى سألقاك .. بعد العملية ؟

ـــ بعد العملية عندى محاضرة .

ـــ ألقاك إذن بعد المحاضرة . فسنتناول الغداء عند العميد .

ـــ عند العميد ؟!

ـــ أنسيت ؟!

ـــ كدت أنسى .

ـــ سآتى لآخذك من المكتب .

وبدا التردد على وجه مدحت وتوقف قليلا أمام باب الغرفة وقال لجاد الله :

ـــ اسمع يا جاد الله .. يبدو لى أن من الخير أن أعتذر .

وضحك جاد الله قائلا :

ـــ « تانى » .

ثم هز رأسه وأردف :

ـــ وددت أن أراك تذهب مرة .. بلا تردد .. سأمر عليك بعد المحاضرة .

ونظر الطبيب المساعد فى ساعته قلقاً وأجاب مدحت قائلا :

ـــ سنكمل المناقشة بعد المحاضرة .. سأبدى لك وجهة نظرى جيداً .

وهمّ بأن يخطو إلى غرفة العمليات عندما اعترضته إحدى الممرضات ، وهى تمد يدها برسالة من رسائل البريد الجوى قائلة :

ـــ رسالة لك يا دكتور .

وأمسك مدحت الرسالة وقرأ عنوانها بشىء من الدهشة ، و لم يستطع أن يميز خط العنوان .

وحاول أن يتذكر الأشخاص الذين يمكن أن يكتبوا إليه من الخارج ، وعاد يفحص ختم البريد المطبوع على المظروف ، فميز منه حروف فرنسا الستة .

وزادت دهشته .. فهو لا يذكر له أصدقاء فى فرنسا .

وطاف بذهنه .. « جمال عبد السلام » قريب الدكتور جاد الله .. الذى سافر فى الشهر الماضى إلى أوربا .. ولكنه يعلم أنه قد سافر إلى سويسرا .. وليس إلى فرنسا .

ربما قد أرسل رسالته ، وهو فى الطريق .

ولكن لماذا ؟ ليس هناك من وطيد العلاقة بينهما بحيث يكتب إليه .. وبهذه الصفة المستعجلة .. وهو فى الطريق .. قبل أن يصل إلى مقر عمله .

قد يكون هناك ما دعاه إلى الكتابة .

ولكن لماذا لم يكتب إلى جاد الله ؟!

ورفع الطبيب المساعد يده بالساعة مرة أخرى .

فأسرع مدحت بوضع الرسالة فى جيبه ، ثم اندفع إلى الغرفة .. حيث تمدد المريض على المنضدة تحت الضوء الساطع .

وبعد لحظة كان مدحت قد انهمك فى العملية .. وانمحى من ذهنه كل ما يتعلق بالرسالة .

وانتهت العملية .. وخرج مدحت من غرفة العمليات .. يستحث الخطا إلى مكتبه .. والطلبة يتبعونه ، ومن بينهم صبرى يلاحقه قائلا :

ـــ المحاضرة فى موعدها يا دكتور ؟

وهز مدحت رأسه بالإيجاب . واستمر فى مشيته الصارمة .

وقال أحد الطلبة :

ـــ لماذا لا نلغيها اليوم ؟

وتوقف مدحت ونظر إليه فى غيظ وأجاب :

ـــ لماذا ؟ هل أجهدتكم مراقبة العملية ؟

وأجاب صبرى :

ـــ بل أجهدك إجراؤها .

وأردف مدحت زاجراً طلبته كما يزجر عريف الكتاب تلاميذه :

ـــ اذهب إلى المدرج منك له .. بلا مياعة .. سآتى إليكم حالا .. هذه ليست عملية .. هذه مسح زور .

واندفع إلى مكتبه ليبدل ثيابه .. وهبط الطلبة ، متجهين إلى المدرج .

وعلى مقعد فى المدرج جلس صبرى .. يقلب أوراق كراسة فى يده .. ومن الصفحات المزدحمة بمحاضرات الطب توقف أمام صفحة كتبت بالعربية .. وأخذ فى قراءتها .. للمرة العاشرة فى هذا الصباح :

« عزيزتى نادية ..

ترددت كثيراً .. قبل أن أمسك القلم لأكتب إليك .. وحتى الآن ، وبعد أن قهرت ذلك التردد .. واندفعت أكتب إليك فى حماس .. أجد نفسى ، وقد عاودنى التردد فى إرسال ما كتبت .

لقد أعددت الظرف .. وألصقت عليه طوابع البريد ، وكتبت عليه اسمك .. والعنوان الذى أبيت أن ترسليه إلىّ ، والذى استطعت اختلاسه من رسالة « منى » إلى عصام .

أعرفت لماذا ترددت فى الكتابة إليك ؟

لم يكن عن انشغال .. أو إهمال أو عجز .. أو غير ذلك مما يمكن أن أتهم به .

فيعلم الله لهفتى الشديدة على الكتابة لك .. لهفة لا تقوى أشد المشاغل حتى مشاغل الامتحان .. على التغلب عليها .

ويعلم الله ما تزخر به نفسى من انفعالات مستمدة من باطنى .. ومما حولى .. من هذا الجو الصاخب الذى نعيش فيه .. والذى يملؤنا — نحن المصريين — إحساساً .. بأن علينا أن نخوض كفاحاً شاقاً من أجل حريتنا وكرامتنا .. إحساساً يملؤنا يقيناً بأننا نصنع مستقبل بلادنا .. ونثبت دعائم الرخاء للأجيال القادمة .. فى هذه الأيام التى نعيش فيها .

ومع ذلك .. ورغم ما بى من لهفة وانفعال .. وجدتنى أحجم عن الكتابة إليك .. حتى بعد أن عرفت عنوانك من عصام . فقد أحسست أنى يجب أن أنتظر حتى تكتبى أنت لى . لكى تذكرى عنوانك وتشعرينى أن بك رغبة فى أن أكتب إليك .. أو على الأقل أنك لا تكرهين أن أكتب إليك .

ولكن إحجامى لم يطل .. فقد وجدتنى أعجز عن صد رغبتى فى الحديث

إليك .. وأنا أعرف الطريق إليك .. وأمسك فى يدى بعنوانك .

فاعذرينى إذا ما كتبت .. بلا إذن منك .. واعذرينى إذا اقتحمت عليك خلواتك فى قمم الألب النائية .. واقرئى رسالتى كما تقرئين .. صفحة فى جريدة .. لا تكلفى نفسك مشقة الرد إذا ضقت به .. وأؤكد لك أنى لن أضيق بذلك ، فأنا أعلم مشقة الكتابة عند ما تعوزنا الرغبة فيها .. كما أعلم مشقة الصمت عندما نتلهف على الحديث .

وبعد هذه المقدمة الطويلة .. أبدأ بسرد أنبائنا عليك :

— أنبائى الخاصة ألخصها فى أنى أواصل الدراسة فى الكلية ، وأنى اشتركت منذ بضعة أيام فى عملية جراحية .. وعندما أقول اشتركت أعنى أنى حضرت عملية جراحية مع الدكتور مدحت .. لعلك تذكرينه .. ذلك العبقرى الذى يلقبونه عندنا « بالجزّار » .. والذى رأيته ذات مرة فى النادى فى أرض « الكروكيه » .

لقد أجرى عملية رائعة .. أنقذ بها حياة امرأة .. تخلى عنها جميع أطباء مصر .. حتى لا يتهموا بالفشل .. وقد قام بها هو .. ونجحت إلى أقصى حدود النجاح .

لا أريد أن أطيل عليك بأخبار العمليات .. رغم أنى غريق فيها فى أيامنا هذه .

إنى ألقى عصام بعض الأحيان .. وقد لقيت مرة عمك سليمان .. ولم يعرفنى .. وكدت أعرفه بنفسى . ولكنى خجلت .

أما عن الأنباء العامة فلست أدرى ماذا تعلمين منها .. إن صفقة الأسلحة قد مرّت بسلام .. لقد أخذ الرئيس « جمال عبد الناصر » الأسلحة رغم أنف العالم المستعمر .. ولست أدرى هل تعرفين معنى هذا !!

إن المسألة ليست مجرد أسلحة نأخذها من الشرق .. بل المعنى الأضخم للصفقة .. أننا تخلصنا نهائياً من براثن المستعمر ، أننا قد بتنا أحراراً نأخذ ما نأخذ وندع ما ندع .

وهل تذكرين يا « نادية » .. كيف كنا نسير فى ركاب المستعمر .. كنا نقول نعم عندما يريدنا أن نقول نعم .. وكنا نقول لا .. عندما ... » .

وأحس صبرى بوقع أقدام تطرق أرض المدرج .. ورفع بصره .. فوجد « مدحت » يجتاز الباب ، فأغلق الكراسة .. وثبت المنظار على عينيه وأخذ يرقب منصة المدرج .

وبدأ مدحت فى إلقاء محاضرته .. وكعادته فى إلقاء المحاضرات رفع سبابته اليسرى وحك بها أرنبة أنفه .. ثم نظر شزراً إلى الطلبة ، ومال إلى الأمام منكباً على المنصة بكفه اليسرى واضعاً كفه اليمنى فى جيبه .. وقبل أن ينطق بكلمة اصطدمت أصابعه بمظروف فى جيبه .

ومضت لحظة ، وهو يتحسس محاولا أن يتذكر ماهية المظروف .. وعندما خانته الذاكرة أخرج المظروف وألقى عليه نظرة خاطفة .. فتذكر رسالة البريد الجوى المرسلة من فرنسا .. والتى سلمتها له الممرّضة على باب غرفة العمليات .

وأحس برغبة تدفعه إلى فض المظروف، ومعرفة صاحبه ، ولكنه رفع عينيه إلى الطلبة فإذا كلهم قد أنصتوا وركزوا نظراتهم على المظروف .. فأعاده إلى جيبه بغير اكتراث واندفع فى إلقاء محاضرته .

وانتهت المحاضرة .. وغادر المدرج يحيط به الطلبة .. وقبل أن يصل إلى مكتبه أحس بخطوات تلاحقه وسمع صوت جاد الله يهتف به :

ــ ألم تنته إلا الآن من محاضرتك ؟! ما شاء الله .

ثم صاح بالطلبة :

ــ انتهينا .. فضوا الزفة .. ودعوا الرجل يستريح .

وتضاحك الطلبة ثم تفرقوا من حولهما وعاد جاد الله يقول :

ــ هيا بنا .. لقد جاوزت الساعة الواحدة والنصف ، وموعدنا الثانية .

ــ قلت لك إنى سأعتذر .

ــ لا تكن سخيفاً .. كيف تعتذر عن دعوة العميد؟! إنها جليطة .. وقلة ذوق .

— ليكن .. إنى لن أذهب .

— أمرك عجيب .. مدرّس .. سنكوح مثلك .. يرفض دعوة العميد إلى الغداء ؟!

— ولماذا يدعونى العميد ؟!

— لأنك .. لأنك زوج ابنته .

— اسمع يا جاد الله .. لقد قلت لك مائة مرة .. كف عن هذا المزاح !

— مزاح .. أما عبيط .. لِمَ تظنه قد دعاك إذن ؟.. من أجل سواد عينيك .. أم لنبوغك فى قطع أوصال الناس ؟!

— إذاً فهو دعانى لأنى زوج ابنته ؟!

— طبعاً .

— ولأجل هذا . لن أذهب . لأنى لن أكون زوج ابنته .

— يا أخى اعقل .. البنت لطيفة وتحبك ، وأبوها رجل ذو خلق وذو شأن .. وذو مستقبل .. إن نظرتى فيه لا تخيب . أتذكر عندما قلت لك إنه سيصبح عميداً .. أتذكر ؟

وأطرق مدحت وقال متسائلا فى ملل :

— ها .. وبعدين ؟

— لقد أصبح عميداً .. وأؤكد لك الآن .. أنه سيصبح مديراً للجامعة .. هذا إذا لم يصبح وزيراً .

وعاد مدحت يتساءل فى دهشة :

— يا أخى ليصبح ما يشاء .. إن شاء الله يصبح إمبراطوراً .. مالى أنا به !

— مالك به ؟! كيف ؟ إنه سيصبح حماك .. حماك يا أخى .

— جاد الله .. أرجوك .. « حل عنى » .. أنت رجل نصاب .. ومعتاد النصب .

— أنا !؟

— أجل أنت .

— وأنت مغفل ومعتاد التغفيل .. لست أدرى ماذا أعجبها فيك ! « يعطى الحلق للى بلا ودان » .. على أية حال ليس هذا وقت مناقشة .. هيا بنا الآن . فلم يعد هناك وقت حتى للاعتذار ، احضر ، هذه المرة من أجلى .. وبعدها يحلها ربنا .

— أنت تريد أن تأخذنى طعماً للخالة ؟!

— الخالة يا أخى لا تحتاج إلى طعم .. أنا أعتبرها كأختى تماماً .

— هكذا !! لماذا تريدنى إذاً ؟

— لأجل مستقبلك .. هيا أرجوك .. لقد بلغت الساعة الثانية إلا ربعاً .

— انتظر حتى أضع أوراقى فى المكتب .

— ليس لدينا وقت .. ضعها فى العربة .. هيا بنا .

وجذب جاد الله مدحت من ذراعه مهرولا إلى فناء المستشفى ودفعه فى العربة وانطلق به إلى بيت ميرفت .

وحول المائدة فى إحدى « فيلات » الدقى الأنيقة .. جلس الاثنان يحيط بهما الدكتور عبد الفتاح وأسرته .. الأم والخالة ، وميرفت ، وأخوها الطالب بإعدادى الطب .

وجرى الحديث عن السياسة والطب والأزياء والسينما والجو .. وعن كل شيء يخطر بالبال ، وشرد ذهن مدحت بضع مرات فيما قاله جاد الله .. وفيما يعيد قوله مراراً وتكراراً .. فى مسألة زواجه « بميرفت » .. واسترق منها بضع نظرات فاحصة .. وهو يضعها فى ميزان الزواج .

لماذا يصد عن نفسه فكرة الزواج بمثل هذا العناد والإصرار ؟! لماذا لا يحاول أن يفكر فى المسألة .. بشيء من الجدية والاهتمام ؟! إن الفتاة لطيفة .. وذكية .. وليس فى طباعها أو أخلاقها ما يضايقه .. وأسرتها طيبة .. وأبوها — كما قال جاد الله — ذو خلق ومال .. وشأن ومستقبل .. وهم مقبلون عليه مرحبون به ..

ماذا يريد أكثر من هذا ؟.

ولكن لماذا يريد هذا ؟!

تلك هي المشكلة .. إن ما ينقصه هو الدافع إلى الزواج .

إن لديه كل ما يحققه الزواج .. بلا زواج .

لديه البيت المنظم « النظيف » الذى تشرف عليه « أمه » .. لديه الرعاية التامة .. والطعام الجيد ، والمسكن المعد .

وهو لا يعدم فى أى وقت الصديقة التى تملأ له ما تبقى من فراغ ضئيل ، يتركه له عمله المتواصل .. فى غرفة العمليات وفى مدرجات الدراسة .. وفى العيادة .. وفى الدروس الخاصة وأخيراً لديه عمله .. الذى يشغل كل جهده .. وكل وقته .

أية زوجة تلك التى تقبل أن يشاركها حياتها معه .. هذا العملاق الضخم الذى يبتلع ، كل طاقته ؟!

أجل تلك هى مشكلته .

مشكلة الحاجة إلى الدافع .. أو المبرر . الذى يدفعه إلى المقامرة .. بوضعه المستقر الذى يهيىء له فرصة العمل .

إنها حقاً فرصة طيبة لزيجة مثالية .

ولكنه لم يطلب هذه الفرصة ، ولا يحس قط بحاجته إليها .

قد تكون فرصة طيبة لغيره .. أو لنفسه .. فى وقت آخر .. وظرف مختلف .. يضيق منه بالعمل .. أو بفقد فيه .. بعد عمر طويل .. هذه الرعاية التامة .. من « أمه » التى تهيىء له حياة منعمة مستقرة .. بلا قيد ولا متاعب .. حتى ولا ثمن .

ولكن من يضمن له أنه سيجد الفرصة ، عندما يحين الوقت ؟

أليس من الأفضل أن يغتنمها الآن .. لكى تنفعه فى الوقت الملائم ؟!

وإلا .. فلماذا يتزوّج الناس ؟!

وهزّ مدحت رأسه .. وعاد ينظر إلى « ميرفت » . وإلى أمها .. ليرى كيف

يمكن أن تصبح « ميرفت » عندما يحين الوقت .. بدينة مكتنزة الساقين .. « متختخة » الذراعين . ومرة أخرى عاد يصرف نفسه عن فكرة الزواج .

وأخيراً انتهى الطعام .. ونهض الجميع ، واتخذوا مجالسهم على المقاعد الوثيرة فى البهو .. ودارت فناجين القهوة .. وتعالى دخان السجائر .

وجلس مدحت يرتشف قهوته .. وعلى يمينه جلست « ميرفت » تتحدث بحماس عن حقوق المرأة قائلة :

ــ إن الدستور الجديد سيمنحها حقها كاملا .. فى الانتخابات وفى الترشيح لمجلس النواب مواجهاً لهما :

ــ يا ستى .. كفاية عليها الانتخابات .

ــ لماذا ؟! هل تظن أن « عم محمد البواب » أحق منى بعضوية مجلس الأمة ؟!

ــ ومن قال إن « عم محمد البواب » سيرشح نفسه للنيابة ؟!

ــ إن له هذا الحق .

واستمر الجدال بين الاثنين .. ومدحت يرقبهما فى صمت .. حتى أحس أنه يوشك أن « يسعل » .. فمد يده لكى يخرج منديله .. ومرة ثانية اصطدمت يده بالرسالة المنسية .. وفى هذه المرة .. لم يصعب عليه تمييزها .. وأحس بلهفة على أن يعرف حقيقتها وأجابها جاد الله وقد جلس وخشى أن يتركها فى جيبه فينسى أمرها مرة أخرى كما نسيها فى المرتين السابقتين .

وببساطة سحب الرسالة .. وصرف « السعلة » ثم مزق حافة المظروف .. وأخرج الرسالة من داخله .

وتوقفت المناقشة بين « ميرفت » وجاد الله وأخذا يرقبان حركة مدحت المفاجئة التى أخرج بها المظروف وفتحه .

وبالإبهام والسبابة سحب مدحت الورقة الزرقاء المطوية داخل المظروف .

وقبل أن يفتحها قال جاد الله متسائلا :

ـــ ما هذه ؟!

ـــ رسالة من فرنسا .

ـــ فرنسا !! ممن ؟.. هل تعرف أحداً فى فرنسا ؟!

ـــ أبداً .

ـــ إذاً من أدراك أنها من فرنسا ؟!

ـــ ختم البريد على المظروف .

ـــ ولكن من الذى أرسلها ؟!

ـــ لا أدرى .. إنى لم أفتحها إلا الآن .

ـــ أو تضعها فى جيبك دون أن تعرف ممن وصلتك !! يا صبرك يا أخى !! يا برودك !!

ـــ لقد وصلت إلىّ وأنا على باب غرفة العمليات .. بعد أن أضعت وقتى بمناقشاتك السخيفة فى الصباح وكان المريض تحت البنج .. فوضعتها فى جيبى حتى أفتحها بعد العملية .

ـــ ولماذا لم تفتحها بعد انتهاء العملية .

ـــ نسيتها .. ولم أذكر إلا وأنا فى المحاضرة .

ـــ وبعد المحاضرة نسيتها بالطبع ؟!

ـــ ولم أذكرها إلا الآن وأنا أضع يدى فى جيبى لإخراج المنديل .

ـــ وحتى الآن لم تقرأها ؟ اقرأها يا أخى .. اقرأها وكفى لكاعة .. لقد بت أكثر منك لهفة على معرفة صاحبها .

وفرد مدحت الورقة وأخذ فى قراءتها . وأخذت علامات التعجب تزداد فى وجهه ، كلما انحدر بصره من سطر إلى سطر .

وأخيراً هز رأسه فى حيرة ، ثم نفخ من أنفه نفخة ساخرة وأخذ يقلب الرسالة بين يديه ثم يعيد قراءة المظروف .

وقال له جاد الله يستحثه :

ـــ ها .. ممن ؟!

ـــ من .. من .. لا أدرى .. ولكنى أعتقد أنه مقلب سخيف .. من شخص فاضى .. وأغلب ظنى أنه قريبك الصحفى ، بإيعاز منك .. قل .. اعترف .. أليس كذلك ؟

وهز جاد الله رأسه قائلا فى دهشة :

ـــ ما هذا الهذيان !! مقلب من قريبى الصحفى ... بإيعاز منى .. أجننت ؟! إن قريبى فى جنيف .

ـــ لقد رماها من فرنسا حتى يسبكها .

ـــ يسبكها .. يا سلام على ذكائك .. سبحان من نجح عملياتك .. أتظن قريبى يهمه أمرك إلى الحد الذى يجعله يقف فى فرنسا ليرسل لك رسالة .. يعطيك بها مقلباً !

واحمر وجه مدحت ودفع بالرسالة إلى جاد الله قائلا له فى غيظ: ـــ إذن خذ .. اقرأها .. وقل لى من أين ؟!

وأمسك جاد الله بالرسالة يقرؤها ، وبدت عليه علامات الدهشة الشديدة وهو ينتقل بين سطورها .. وعندما انتهى منها هتف قائلا :

ـــ عجيبة !!

ـــ صدقت ؟!

ـــ صدقت ماذا ؟! إنى أؤكد لك أنها ليست من جمال . فهو لا يمكن أن يقدم على شىء من هذا .. ثم إن الرسالة ، لا يبدو بها افتعال .. أو عبث .. إنها .. إنى أعتقد .. أن ..

ثم مد يده بالرسالة ببساطة إلى « ميرفت » التى جلست ترقب الاثنين فى صمت ودهشة وقال :

ـــ اقرئيها يا ميرفت .. وقولى لنا .. ما رأيك ؟

ثم وجه الحديث إلى مدحت قائلا :

ـــ أظنك لا تمانع فى أن تقرأها ؟!

وكان مدحت أمام أمر واقع .. وهو يرى الرسالة تسلم إلى « ميرفت » فقال مؤكداً :

ـــ أبداً .. أبداً ..

وقرأتها ميرفت .. وتصاعد الدم إلى وجهها ولم تملك إلا أن تردد نفس الكلمة : ـــ عجيبة !!

وتساءل جاد الله : ـــ هل تظنينها مقلباً ؟!

وهزت ميرفت كتفيها : ـــ من يعلم !!

وقال مدحت :

ـــ أنا لا أشك فى أنها مقلب .. فلا أظن أن « نادية » هذه التى تعيش فى أعلى قمم الألب .. ولا عزاء لها سوى كلمة منى .. يمكن أن يكون لها وجود .

وانطلقت منه ضحكة ساخرة .. ومد يده فتناول الرسالة ودسها فى جيبه قائلا : ـــ دعونا منها .

وضحك جاد الله قائلا : ـــ لقد أصبحت عالمياً .. من قدك .. لك عشاق فى جبال الألب !!

وأجاب مدحت ضاحكا من أنفه فى سخرية :

ـــ كان يجب علىّ ألا أريك الرسالة .. لأنى لن أخلص من سخريتك .

ثم صمت لحظة وأردف قائلا :

ـــ على أية حال .. لا أجد من السهل أن أنتزع من ذهنى ، أنك وراء هذه الرسالة .. بطريقة ما .

وأجاب جاد الله :

ـــ أقسم لك بكل الأيمان .. إنى لا أدرى عنها شيئاً إلا وأنا آخذها من يدك .. ثم أنا نفسى .. غير مقتنع أنها مقلب .

وانتهت الزيارة ، وعاد مدحت إلى بيته .. وخلع ملابسه وأخرج محتويات

جيوبه فوضعها على المكتب كما تعوّد .

ووقع بصره على الرسالة .. وأعاد تلاوتها مرة أخرى ، وانتهى إلى خاتمتها :

« إذا قبلت .. فاكتب إلىّ كلمة واحدة هى : نعم » .

وقذف الرسالة على المكتب .

إنه لم يبلغ من البلاهة .. بحيث ينطلى عليه المقلب .. ويضع نفسه موضع السخرية .

وحتى لو كانت المسألة حقيقة . وكانت « نادية » هذه الساكنة فى أعلى « جبال الألب » ، والتى تعرف كل شىء عنه .. مخلوقاً حقيقياً .. لا أكذوبة ولا خدعة .

حتى لو كانت « نادية » هذه شخصاً حقيقياً .. فلن يعقل أن يجلس ليضيع وقته فى مكاتبتها .

وحتى لو رضى أن يكتب إليها .. فماذا يكتب .. وهو لا يعرف كيف يكتب سطرين من الإنشاء على بعضهما ؟

لا .. لا .. لن يشترك فى مثل هذا العبث .

وفى الليلة التالية .. جلس إلى مكتبه .

ومرة أخرى مد يده فتناول الرسالة .. وعاد يقرؤها .. وتوقف أمام جملة تقول فيها :

« قد تثيرك رسالتى .. وقد تبعث فى نفسك الدهشة أو الضحك .. أو السخرية والتشكك .. ولكن لو عرفت مدى ما تمنحه إياى ردّك .. لأجبت رجائى .. ورددت علىّ » .

وأحس .. بشىء حقيقى فى كلماتها .

لقد بعثت الرسالة فى نفسه الدهشة .. والضحك .. والسخرية .. والتشكك .

وصاحبة الرسالة قد توقعت كل هذا .. ومع ذلك فهى ترجوه بحرارة أن

يجيب رجاءها ويرد عليها .

أحقاً يمكن أن يمنح بردّه .. شيئاً .. إلى هذه المخلوقة ، بافتراض .. أنها كائن حقيقى .. لا خدعة .. ولا أكذوبة !!

إنها تقول إنه سيمنحها شيئاً كثيراً .. فلماذا يبخل بهذا الرد .. الذى لن يكلفه أكثر من بضع دقائق !!

ولكن هل هى حقيقة .. موجودة .. أم أنها مجرد عبث !

وهب أنها عبث .. فماذا يخشى ؟!

أيخشى أن يضع نفسه موضع السخرية !؟

ماذا يضيره من سخرية بعض السخفاء ؟

هل يتساوى الضرر الذى سيصيبه من السخرية . لو كانت المسألة أكذوبة مع الفائدة التى ترجوها صاحبة الرسالة .. لو أنها حقيقة واقعة ؟!

ومرة أخرى أعاد قراءة الرسالة .

وببساطة أمسك القلم وانتزع ورقة من إحدى الكراسات ثم حك أرنبة أنفه بسبابته ، وبدأ يكتب الرد إلى نادية ، المقيمة فى أعلى « قمم الألب » والتى لا يدرى ما إذا كانت وهما أم حقيقة ؟

(٢٦)

لن أخذلك ...

كانت الساعة قد بلغت الثانية عندما هبطت « نادية » من حجرتها الصغيرة ، ووقفت فى الشرفة السفلى المطلة على الفناء .. وكانت الشمس قد احتجبت نهائياً منذ أسبوع .. والبرد قد أخذ يتساقط فى خفة كالريش الأبيض أو القطن المندوف .. والصبية قد أخذوا يتواثبون فى الفناء متلقين نتف البرد بأكفهم فى فرحة ، محاولين تكويرها فى كرات يتقاذفونها و« منى » قد وقفت بينهم .. ولم تكد تلمح « نادية » واقفة فى الشرفة حتى هتفت بها :

— نادية .. ألا تنوين الانصراف ؟!

— أجل إنى جاهزة .

— إذن هيا بنا .. إنا مدعوتان للغداء عند جابى .

وغادرت « نادية » الشرفة وعبرت القاعة إلى حجرة زجاجية صغيرة أسفل السلم .. وفى تردد .. دفعت الباب ومدت عنقها فوقع بصرها على « بيتر » كاتب الحسابات العجوز ، وقد أكب على مكتب صغير يفحص بضع رسائل فى يده .

وتساءلت « نادية » فى استحياء :

— ألم تصل رسالة لى يا مسيو بيتر ؟

ورفع العجوز بصره من فوق المنظار ، ثم هتف قائلاً :

— مدموازيل نادية .. تفضلى .. تفضلى ..

— متشكرة .. إنى أسأل فقط عن رسالة لى ؟

وهز العجوز رأسه متسائلا :

ـ هل تنتظرين رسالة ؟!

وترددت « نادية » قبل أن تقول :

ـ يحتمل أن تصل إلىّ رسالة .

ـ عندما تصل سأسرع إليك بها .

ـ لا داعى لأن تزعج نفسك ، سآتى لأخذها .

ـ وكيف تعرفين أنها وصلت ؟!

ـ إنى أمر عليك كل يوم وأنا صاعدة إلى مكتبى .. وسآتى إليك لأحييك .

ـ أود أن تنتظرى كل يوم رسالة ، حتى أراك كل يوم .

وضحكت نادية :

ـ إذا كان الأمر كذلك فسآتى إليك بلا رسائل .

ـ إنى أحب سماعك عندما تعزفين .. فالس داديبه :

ـ تقصد عزف مدام كلود ؟!

ـ بل أقصد عزفك أنت .. إنى أستطيع أن أميز عزف « كلود » بسهولة .. إنى أسمعه منذ عشر سنوات .

ـ ولكنى مبتدئة .. إنى أتعلم عزفه .

ـ ومع ذلك فعزفك يعجبنى .. وعندما أقول لك يعجبنى ، فهو لا بد أن يكون عزفاً جيداً . إن لى أذناً موسيقية ، رغم هذه السنين الطويلة التى أمضيتها بين الدفاتر والحسابات .

ـ يسرّنى جداً إطراؤك .

ـ إنك تحسين بهذا الفالس .. تحسين جيداً بأحاسيس الوداع التى يشيعها .

ـ ربما .. لقد أحببت الفالس بمجرد أن سمعته .

وسمعت نادية صوت « منى » يهتف بها من الباب :

ـ نادية .. أين أنت ؟!

ـ إنى آتية .

ثم ودعت « بيتر » قائلة :

— أشكر إطراءك يا مسيو بيتر .. ولعلى لا أكون أزعجتك .

— بتاتاً .. عندما تصل الرسالة .. سآتى إليك بها تواً .

— لا تضايق نفسك بها .. إنها مجرد احتمال .. قد لا يتحقق ..

واتجهت « نادية » إلى الباب الخارجى حيث وقفت « منى » تتساءل :

— ما الذى أخرك ؟

— كنت أسأل مسيو بيتر .

— عن ماذا ؟

— عن .. عن شيء فى الدفاتر .

و لم تجسر « نادية » أن تقول إنها كانت تسأل عن رسالة . إذ لم تكن « منى » تعلم شيئاً عن الرسالة الطائشة التى أرسلتها .. والتى استجدت بها رداً .. من مدحت .. أو كما كانت تسميه « منى » الوهم الكبير .

كانت « نادية » تحس بالخجل من كتابتها .. والندم على إرسالها .

وكانت تسائل نفسها أحياناً .. كيف واتتها الشجاعة على كتابة ما كتبت ؟ ومن أين جاءتها الجرأة التى جعلتها تقدم على وضعها فى المظروف ، وكتابة العنوان ووضعها فى صندوق البريد ؟!

ولو كان الأمر بيدها لأوقفتها فى منتصف الطريق ، ولمزقتها إرباً .

ومع ذلك فهى تحس بسعادة .. إن الأمر لم يعد بيدها ، وإن الرسالة قد نجت بنفسها من ترددها ، وقد انطلقت لتحقق غرضها .. إنها لا بد أن تكون قد وصلته .. ولا بد أن يكون قد قرأها ، ولا بد كذلك أن يكون قد قرر شيئاً بخصوصها .

ويحتمل جداً .. أن يكون هذا الشيء الذى قرره فى صالحها .. فهو يحمل فى صدره قلباً كريماً .. وهو على صرامته البادية لا يخذل أحداً .. عندما يحس أن هذا الشخص ، يحتاج فعلا إلى ذلك الشيء الذى يطلبه .. تشهد بذلك تصرفاته مع

مدرّب التنس فى النادى ، وتصرفاته التى سمعت عنها من صبرى .

وهو لا شك سيحس من رسالتها .. مدى حاجتها إلى ردّه ، ومدى ما يمكن أن يمنحها بالكتابة إليها !

إنه سيشعر ـــ بلا جدال ـــ أنها لا تعبث ولا تهزل .

ولن يضيره أن يكتب إليها كلمة أو بضع كلمات .

لماذا بعد كل هذا لا تتوقع منه رداً ؟!

ومن أجل هذا أخذت تعد الأيام .. لقد حسبت لها « منى » مدة الرسالة بأربعة أيام .. عندما قرأت تاريخ وصول رد عصام .. وتاريخ إرساله الرد ، وهى قد أرسلت الرسالة فى يوم الجمعة الماضى .. واليوم السبت أى مضت ثمانية أيام على إرسالها .. أربعة أيام لوصول رسالتها وأربعة أيام لوصول رسالته .

هذا بفرض أنه سيكتب ردّاً فى نفس اليوم الذى تصل فيه رسالتها .

منتهى التفاؤل وحسن الظن !!

لم يكفها أن تقنع نفسها .. بأنه سيرد .. بل استطاعت أيضاً أن تفترض بأنه سيرد فى نفس اليوم .

كأن الصلة بينهما قد بلغت من شدة الوثوق والارتباط ، ما يجعله لا يطيق تأخير الرد لحظة ، أو كأن المسألة .. من الخطورة والإلحاح .. بحيث لا تحتمل أى تأجيل .

وأحست بالخجل ، وهى ترى نفسها قد انزلقت إلى مثل هذا الحد من التفاؤل ، و لم تجد بداً من أخذ نفسها بشىء من الشدة ، ونهيها عن الإغراق فى أحلامها الطائشة .. وأن تؤكد لنفسها أن صرامته وكرهه للعبث .. ستغلبان على رقته وكرمه .. وأن أصابعه ستتصرف فى الرسالة .. قبل أن يتصرف فيها قلبه .

ومع ذلك ، فلم تكد الأيام الثمانية .. التى حسبتها للذهاب والإياب تنتهى .. حتى انتابها شعور بالقلق واللهفة ، و لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تسأل

« بيتر » العجوز الذى يتسلم رسائل المدرسة .. عن رسالتها المنتظرة .

ولم تستطع أن تنزع من نفسها إحساس الانتظار .. فقد كان إحساساً ممتعاً .. خلق فى نفسها شيئاً آخر غير ذلك اليأس ، اللانهائى .. شيئاً ربطها بالوهم الكبير ، وجعل ثمة خيطاً بينهما تعلقت بطرف منه ، وألقت بالطرف الآخر .. عله يصله إليه .

واجتازت التوءمتان باب المدرسة .. وهمت « نادية » بالاتجاه من الطريق الموازى لسكة الحديد ، فجذبتها « منى » إلى الميدان حيث الطريق الرئيسى .

وقالت نادية :

ــ ألم تقولى إنك فى عجلة ؟!

ــ ولو .. إنى أكره هذا الطريق المقفر .

ــ لست أدرى ماذا يعجبك فى الازدحام ؟!

ــ لأنى أحب الناس .. أحب مغازلات الشبان .. ومعاكسات الصبية .. أحب الفواكه فى الحوانيت ، وأحب رنين أجراس الدراجات ، وأبواق العربات .. أحب كل هذا .. لأنه يشعرنى بالحياة .

ــ الحياة ليست فى صخب الناس وضجيجهم .. إنى أحس بالحياة فى سكون البحيرة ، وفى حفيف الشجر .. وفى اهتزاز الوردة على غصنها .

ونظرت إليها « منى » وقلبت شفتيها وأجابت فى سخرية :

ــ هذا كلام من عندياتك .. أم من ديوان أحد الشعراء ؟!

ــ إن هذا ما أقصده يا منى .. إنى حقيقة أكره صحبة الناس ، وأكره ازدحامهم .

ــ لأنك تخشينهم .. من يوم الحريق ، وقد أصابك هذا الخوف من الناس .. تتوهمين أن يفحص كل عابر وجهك ويشير إليك صائحاً : انظروا إلى هذه الفتاة المشوّهة . انظروا إلى عنقها المحروق .

وبلا وعى مدت « نادية » يدها إلى عنقها وأحكمت ربط الإيشارب حوله ،

ثم التفتت إلى « منى » ناهرة إياها :

ـ ما هذا الحمق .. اخفضى صوتك وإلا سمعك الناس ؟!

ـ أرأيت يا نادية يا حبيبتى !! أرأيت لماذا تخشين من الناس ؟! ترى متى تواجهينهم فى ثقة وشجاعة ؟! متى تكفين عن هذا الخوف ؟!

ـ لو أصابك ما أصابنى ، هل كنت تواجهين الناس ؟!

ـ وكنت أسب من لا يعجبه شكلى .

ـ واهمة . تقولين هذا لأنه لم يصبك شيء .

ـ ولكن ممن تخشين هنا ؟!

ـ ولماذا أزعج الناس بمنظرى !!

ـ إنه غير مزعج .

وتوقفت « منى » أمام محل للتصوير وأخذت تنظر إلى الصور المكبرة الموضوعة فى واجهته وقالت لنادية :

ـ أليست لك رغبة فى التصوير ؟!

وجذبتها « نادية » من يدها قائلة فى غيظ :

ـ أتسخرين ؟!

ـ أنا ؟..

ـ أتظنين حقاً أنى أرغب فى التصوير ؟!

ـ أنا شخصياً أرغب فى أن أرسل صورة لعصام .. لقد سألنى أن أرسل له صورة حديثة .

ـ إذن تصوّرى أنت .

ـ وأنت ؟!

ـ ليس هناك من يسألنى صورة حديثة .. ولا قديمة .

ـ احتفظى بها لنفسك .

ـ ليس فى صورتى الآن ما يستهوينى .. إذا أردت أنت صورة فادخلى ..

واذكرى أن حفلة « جابى » تنتظرك .

— أجل .. معك حق .. سأعود عندما يكون لدى وقت ، وعندما أكون مرتدية ثياباً لائقة .. الفستان القطيفة الأحمر مثلا .. ما رأيك فيه للتصوير ؟!

— لا بأس .. ولو أنى لا أظن قماشه أو لونه سيبدوان فى الصورة .

وعاودت التوءمتان سيرهما .. فى زحام الطريق بين عبث الصبية ومعاكسات الشبان والدراجات ذات الأجراس والعربات ذات الأبواق .

وبدأ الزحام يخف فى أول المنحدر .. وأخذت الفتاتان فى صعود الطريق الخلوى المؤدى إلى المزرعة .

و لم تكادا تسيران فيه برهة .. حتى أحستا بعربة تتوقف بجوارهما ، ثم سمعتا صوتاً يهتف بهما :

— اركبا قبل أن تتوقف العربة ، وتضطرا إلى دفعها معى حتى البيت .

ونظرت التوءمتان فإذا بجارهما مسيو « كيلى » .. والد « جابى » .. صاحبة دعوة الغداء .

واتخذتا مكانهما فى العربة .. التى توقفت برهة قبل أن تبدأ السير .. وتقهقرت بضع خطوات فى المنحدر ، ثم ما لبثت حتى عاودت السير .. وقال الرجل البدين ، الأحمر الوجه ، الذى استقرت عجلة القيادة على بطنه :

— ربنا يستر .. لست أدرى ماذا يمكن أن يحدث لى لو توقفت العربة .. إنى لا أتصوّر أن أصعد كل هذه المسافة على قدمى .. سأبيت فى كشك المحطة أو فى صالون السيدات ، أظن هذا يكون أكثر راحة ودفئاً ، على أحد مقاعد الحلاقة .

ثم انطلق الرجل يقهقه فى انشراح وصفاء .

وقالت « منى » ضاحكة :

— إذا توقفت العربة .. فنحن على استعداد لأن نجرها لك .. أنا ونادية وجابى وتونى .

وأردفت نادية قائلة :

ـــ فى النزول فقط .

وأجاب الرجل :

ـــ لست فى حاجة إلى مساعدة فى النزول .. إنى أستطيع أن أتدحرج .

ثم نظر إلى الساعة فى معصمه وأردف قائلا :

ـــ لقد تأخرت على « جابى » .. لا بد أن القلق أصابها .. لأن نصف حاجيات الوليمة معى فى العربة .

وأجابت منى :

ـــ لا بأس .. سأذهب معك لأساعدها فى إعدادها .

وقال الرجل :

ـــ جميل .. ستذهبان معى إلى بيتنا رأساً ؟

وردت نادية قائلة :

ـــ أنا أريد أن أذهب إلى البيت أولا .. لأنى أحس أنى متربة ، ولا بد أن أستحم وأبدل ملابسى .. فإذا سمحت أنزلنى أمام البيت وسألحق بكم .

وكانت العربة قد وصلت إلى باب البيت فهبطت نادية ، وانطلق الرجل ومعه « منى » لتساعد ابنته فى إعداد الوليمة .

واتجهت « نادية » إلى « الدار » ، وعبرت الممر المفضى إلى الباب الداخلى بين أحواض الورد والقرنفل وذهنها يغافلها ، ويشرد فى الرسالة المنتظرة .

ولم تجد أحداً فى البيت سوى « الجدة » . و« مارى » ابنة العجوز بول .. كانت الأم وجانيت قد ذهبتا إلى بيت جابى .

وصعدت نادية إلى حجرتها بعد أن حيت الجدة ، ونزعت الإيشارب عن رأسها ، ووقفت أمام المرآة .. تفحص عنقها وأسفل أذنيها وذقنها .. كعادتها فى كل مرة تنزع الإيشارب .

كانت تأمل أن تحدث معجزة .. تزيل من جلدها المحترق هذه البقع والتجاعيد .. وكانت تحاول تدليك عنقها كلما انفردت بنفسها .. وكانت

تستعمل بعض المراهم التى وصفها الطبيب لعلاج جلدها عقب الحريق .. ولكن الجلد بقى على حاله .. بكل ما فيه من تشويه .

وتذكرت قول « منى » : « متى تواجهين الناس فى ثقة وشجاعة !! متى تكفين عن هذا الخوف ». كيف تواجه الناس .. بهذا العنق المشوه والجلد البشع .. إنها تكره أن تبصره عيناها هى .. فما بالها بأعين الناس !!

ومدت يدها بالمشط تسرح شعرها .. ثم عادت تحكم الإيشارب مرة أخرى حول شعرها ، وتشد الياقة حول عنقها ، حتى لا يفلت جزء من العنق المحروق ليفضحها أمام الناس .

من أجل هذا عادت إلى البيت .. لتحكم الرباط حول رأسها وعنقها ، ولتتأكد أن كل شىء فى وجهها على ما يرام . فقد كانت تحس أن حركتها خلال اليوم .. قد تفلت وثاق الإيشارب حول رأسها .

ألم يحدث هذا فى السفينة .. عندما هب النسيم .. مجرد نسيم .. فأزاح الإيشارب ، وفضحها .. أمام جمال ؟!

وهبطت « نادية » الدرج إلى أسفل ، ولم تكد تعبر باب البيت إلى الطريق حتى أبصرت عربة المسيو « رينو » تتوقف أمام الباب .

ودهشت « نادية » .. ولم تدر ما الذى أتى بالرجل فى هذه الساعة .. وتوقفت لاستقباله لكى تعتذر له عن خلو البيت من أهله .

ولم يهبط « رينو » من العربة .. ولكن هبط بدلا منه كاتب الحسابات العجوز ، وقد أمسك برسالة فى يده . وتهللت أساريره وبدت على وجهه أمارات الفرحة .

ومد يده بالرسالة قائلا :

— وصلت الآن فقط .. لقد أتيت بها إليك كما وعدتك ، استأذنت مسيو « رينو » أن آخذ عربته ، فتفضل بإعطائها لى .

ومدت « نادية » يدها تتسلم الرسالة .. مشدوهة .. مأخوذة .. أخيراً

كتب إليها !

وبمثل هذه السرعة ؟!

غير معقول ، ولكن ها هى الرسالة .. فى يدها .. ولا بد أن تكون منه .. فرسائل عمها تصل إلى البيت ، وهى لم تعط عنوان المدرسة لأحد .

أجل .. لقد رد عليها .. ولا بد أن يكون قد رحب بالكتابة إليها .. فغير معقول أن يرد بهذه السرعة ليقول لا .

ووقف العجوز ينظر إليها فى دهشة ، وهى تمسك الرسالة كالمذهولة ، دون أن تنبس بكلمة ، وقال العجوز متضاحكا :

ــ لقد صممت أن آتى بها إليك بمجرد أن وصلتنى .. حتى لو لم يعطنى مسيو رينو عربته .. فقد كنت أنوى إحضارها سائراً على قدمى .. بعد الغداء .

وأحست « نادية » أنها يجب أن تفيق من دهشتها .. لتقول شيئاً للرجل الماثل أمامها .. ينتظر بضع كلمات شكر على جميله .

ابتسمت « نادية » قائلة :

ــ ما كان يجب عليك أن تتعب نفسك هكذا !

ــ كيف ؟ إنى أعرف لهفتنا عندما ننتظر رسالة من عزيز علينا .. لقد قرأتها فى عينيك وأنت تسأليننى عنها فى مكتبى .

ــ ولكنى لم أقصد أن أسبب لك هذه المشقة .

ــ أبداً .. أبداً .. لا مشقة هناك .. إنك لا تدرين كم سررت عندما وصلت الرسالة ، وكم أسعدنى أن آتى بها إليك .

ــ لست أدرى كيف أشكرك !؟

وضحك العجوز ، وهو يعود إلى العربة قائلا :

ــ لعلك لا تنسين أن تمرّى علىّ كل صباح كما وعدت ؟

ــ لن أنسى .

ــ وتعزفى لى .. فالس دادبيه .. كل صباح ؟!

ـــ سأعرفه لك .. إذا سمحت لى مدام كلود .

ـــ دعى لى مدام كلود .

وعاد الرجل إلى العربة و « نادية » ممسكة بالرسالة ، وهى ما زالت فى ذهولها ، ورفعت الرسالة لتقرأ العنوان على المظروف ، وميزت به طابع مصر .

و لم تحاول فتح المظروف .. فقد أحست أن الرسالة من الخطورة بحيث يتعذر فتحها على قارعة الطريق ، وأنها تحتاج إلى خلوة ، وإلى وقت .

ولكنها لم تكن تستطيع أن تصبر حتى تجد الوقت والخلوة .

لماذا لا نعود إلى البيت لتقرأها ؟!

أو على الأقل لتفضها ، وتتأكد من توقيعه .

إنها لا تستطيع أن تصدق أنه كتب إليها حقاً .. أجل . يجب أن تدخل ثانية لتفض المظروف ، وتقرأ الرسالة .

وقبل أن تستدير لتخطو داخل البيت أبصرت عربة مسيو « كيلى » وقد أقبل بها ابنه « تونى » مسرعاً ومعه بعض الصحاب من الفتية والفتيات وهم يصيحون بها :

ـــ هيا يا نادية ، ما هذا التلكع ! إن الجميع ينتظرونك .

و لم تملك « نادية » إلا أن تطوى الرسالة بسرعة ، وتخبئها فى جيبها ثم تركب العربة قائلة :

ـــ لقد كنت فى طريقى إليكم .

ورد تونى :

ـــ لقد قالت « منى » إنك قد تبقين فى البيت لأنك تكرهين الضجيج ، فأصررنا كلنا على أن نحضر لأخذك .

ـــ لقد قلت لجانى إنى سآتى ، وإنى لا أخلف وعدى .

ووصلت الشلة إلى البيت ، وانتهت الوليمة الصاخبة .

وانهمك الفتية والفتيات فى اللعب والرقص ، « ونادية » فى شرودها

تتحسس الرسالة بين الآونة والأخرى .. خشية أن تكون وهماً أو حلماً .

وعندما انتهى الصحاب من لهوهم قرروا الخروج بالعربة ليشاهدوا أحد الأفلام .

وهنا أحست « نادية » أن فرصة الفرار قد حانت ، وأنها تستطيع أن تنسحب عائدة إلى البيت .

وقال « تونى » وهو يضع يده فى يدها :

— هيا يا نادية .. أنت ضيفتى فى السينما .

— إنى آسفة .. لأنى لن أستطيع الذهاب .

— ولمه ؟

— إنى أحس صداعاً شديداً فى رأسى ولا بد أن أستريح .

— إنى سأضيع لك الصداع .. سأعطيك قرصاً .

— لا . لا . إن خير ما أفعله هو أن أعود إلى البيت وأرقد .

وتدخلت « منى » قائلة :

— لماذا يا نادية ؟! سنخرج كلنا سوياً ، وإذا أردت أن نذهب إلى أى مكان آخر غير السينما فسنفعل .

— إنى متعبة يا « منى » ولا بد أن أستريح .

وحاول البعض التدخل لإقناعها ولكن « منى » قالت :

— لا فائدة . دعوها .. إنها عنيدة ، وعندما تقول لن أذهب .. فهى فعلا لن تذهب .

حمدت « نادية لمنى » قولها .. فقد وفرت عليها مزيداً من الإلحاح ومزيداً من الاعتذار .

وانطلق الجمع الصاخب بعربة المسيو « كيلى » يقودها ابنه ، وعربة أخرى يقودها أحد الفتية ، وسارت « نادية » وحدها عائدة إلى البيت ويدها تتحسس الرسالة .

وبأصابع مرتجفة فضت الرسالة .

وأحست من الكتابة الكثيرة التى ضمتها سطورها أن خيبة أمل توشك أن تحدث .

لم تعقل أن يكتب إليها مدحت كل هذه السطور .

وبسرعة انتقل بصرها إلى السطر الأخير لتقرأ توقيع صبرى .

وأحست بشىء يعتصر باطنها .

شىء قاس أليم .

وأحست بالكره لصبرى .

لقد كان هو السبب فى خديعتها .

أجل .. لماذا كتب فى هذا الوقت بالذات ؟!

بل لماذا يكتب إليها ؟!

وقذفت بالرسالة فى ضيق .. والبكاء يكاد يخنقها .

وبعد برهة .. رفعت عينيها إلى النافذة .. فأبصرت البرد ما يزال يتساقط ولاحت لها قمم الجبال يلفها الضباب .

ورويداً رويداً .. عاودتها السكينة .

لماذا تظلم صبرى ؟

ألأنه سأل عنها وكتب إليها ؟!

ألأنه يحبها ؟!

ومدت يدها إلى الرسالة ، وأخذت فى قراءتها .

وعندما انتهت منها .. أحست بشىء من عزاء .

وفى الصباح ، وهى فى طريقها إلى حجرتها فى المدرسة ، وقبل أن تصعد الدرج .. أطلت على المسجل العجوز وأقرأته تحية الصباح .

ورد الرجل عليها فى بشاشة . ومد يده ملوّحاً برسالة فى يده :

— رسالة أخرى .. يا آنسة .. الظاهر أن الخير قد أتى مرة واحدة .

وذهلت « نادية » و لم تصدق أذنيها فى بادئ الأمر ، ولكنها دخلت غرفة الرجل ، وتناولت الرسالة .

و لم تحس لها بحماس شديد .. فلا يبعد أن تكون هى الأخرى من صبرى .

أجل لقد قال لها .. إنه سيكتب إليها .. حتى ولو لم ترد ، وليس من المستبعد أن يكون قد نوى ملاحقتها برسالة كل يوم .

وقرأت الظرف فرأت خطاً يختلف .

ودق قلبها بعنف ، و لم تستطع أن تصبر حتى تصل إلى حجرتها .. بل فضت المظروف وهى تصعد السلم .

و لم تكن الرسالة مزدحمة .. كانت بضعة سطور .. استطاعت أن تميز فى آخرها .. اسم « مدحت أبو العلا » .

وأحست « نادية » كأن السلم يميد من تحتها ، وأطبقت على الرسالة بأصابعها ثم انطلقت مسرعة إلى غرفتها .

وأغلقت الباب وجلست على مكتبها .

ومضت برهة وهى تحاولَ أن تتمالك نفسها ، وتهدىء من أنفاسها المتلاحقة .

وأخيراً فتحت الرسالة ، وأخذت تقرأ :

« أنا أيضاً لا أعرف كيف أسميك .. فإذا كنت عجزت عن تسميتى وأنت تعرفين عنى ما زعمت أنك تعرفينه .. فكيف أسميك أنا .. وأنا لا أعرف حتى ما إذا كنت أنتِ أنت أم لم تكونيه ؟

« أنا أكتب إليك لأن جملة فى رسالتك حتمت علىّ الكتابة وهى قولك :

« لو عرفت ما يمكن أن يفعله ردّك بى .. لأجبت رجائى ورددت علىّ » .

« وهأنذا أجيب رجاءك وأرد عليك .. رغم حشيتى من أن تكونى خدعة . وأن تكون رسالتك أكذوبة .. أكتب إليك رغم أنى أشك فى حقيقتك وأخاف من أن تكونى رجلا يهدف إلى التغرير بى والسخرية منى .

« ولكن إذا كنت .. كذلك .. فلا أظن سخريتك يمكن أن تضرنى بقدر ،

يضيرك عدم ردّى إذا لم تكونى كذلك .

ولهذا فقط رددت عليك .

« فإذا كانت رسالتك مجوناً وعبثاً .. فمن الخير أن تكفى عن الكتابة إلىّ .. وإذا لم تكن .. فاكتبى إلىّ مزيداً عن نفسك .. من تكونين ؟ وماذا تريدين ؟

« إنى بطبعى لا أستطيع أن أخذل إنساناً .. أياً كان .. وأؤكد لك أنك كإنسان فى هذا الوجود .. مهما كنت ومهما كان موضعك ، فإن قولى يشملك . إنى لن أخذلك ، وسأفعل من أجلك كل ما أستطيع .. إذا كنت حقاً أملك لك نفعاً .

« ليس عندى ما أقول أكثر من هذا .

« قد يكون حديثى جافاً ، ولكن عذرى أنى لا أعرفك ، ولست واثقاً من حقيقتك .. ثم إنى فوق كل هذا لا أجيد الكتابة .

« لك تحياتى أياً كنت .. » « مدحت »

(٢٧)

من أنا ؟!..

انتهت « نادية » من قراءة الرسالة وأحست وهى تمسك بها بين أصابعها أنها تود أن تضمها إلى صدرها .. وتشمها بأنفها وتمسها بشفتيها .

لم تحاول أن تفكر كثيراً فى محتوياتها .. أو تفحص معانيها وتزن مضمونها .. كانت تحس بها ـ فى جملتها ـ بورقها وسطورها ومدادها .. شيئاً عزيزاً .. بغض النظر عما تحتويه من معان وتهدف إليه من أغراض .

كانت « نادية » تحس أنها تمسك لأول مرة .. جزءاً منه ، من أوراقه .. ومن كتابته .. ومن أفكاره .

لقد ظفرت وهى فى غربتها النائية .. بما لم تستطع به وهى على بعد خطوات منه . لقد خاطبته من وراء الجبال والبحار .. وسمعت ردّه .. عبر آفاق وآفاق .

أياً كان ردّه .. ألا يكفى أنه أجاب ؟

ومرة أخرى عادت تقرأ الرد .. فى تمهل وإمعان .

إنه هو .. بنفس كبريائه وصرامته .. وباطنه الطيب .. وقلبه الكريم .. الذى يكره أن يخذل إنساناً .. مهما كان .

لقد كتب إليها رغم شكوكه فى حقيقتها .. ورغم خوفه أن تكون قد قصدت إلى التغرير به السخرية منه « فإذا كانت رسالتك مجوناً وعبثاً ، فمن الخير أن تكفى عن الكتابة إلىّ ، وإذا لم تكن .. فاكتبى إلىّ مزيدا عن نفسك . من تكونين ؟

وماذا تريدين ؟ » .

لقد طلب منها أن تكتب عن نفسها إذا لم تكن رسالتها مجوناً .. وعبثاً !

مجون وعبث ..!!

ليتها كانت كذلك .. إذن لأراحت واستراحت .

ولكنها ليست كذلك .. والمطلوب منها أن تقنعه أنها ليست كذلك .. وأن تكتب إليه .. لتقول له من تكون ، وماذا تريد !!

ولكن .. من تكون ؟!

أو على الأصح .. ماذا يمكن أن تكون بالنسبة إليه ؟!

وماذا تريد !!

يكتب إليها .. أهذا كل ما تريد ؟!

يكتب إليها عماذا ؟! ماذا يقول ؟!

وأحست « نادية » بالحيرة .. وتملكها الوجل والخشية .

وعادت تقرأ فى سطور الرسالة :

« إنى لن أخذلك .. سأفعل من أجلك كل ما أستطيع .. إذا كنت حقاً أملك لك نفعاً » .

وأحست .. شيئاً من الطمأنينة .

إنه لن يخذلها .. وهو حقاً يملك لها النفع كل النفع ..

إنها تريد أن يحدثها كصديق وأن ينبئها بأخباره .. ويسمع منها أخبارها .

ماذا بعد ذلك ؟!

ماذا بعد أن تتوطد الصداقة بينهما على بعد المسافة ؟! أتأمل فى شىء أكثر من هذا ؟!

فى لقاء مثلا .. أو فى إعجاب .. وحب !!

لا .. لا .. إنها لا تطمع فى شىء من هذا .. بل إنها تخشى اللقاء حتى لا يكشف أمرها .. ويهتك سترها الذى تحجب به ما بوجهها من تشويه .

إذن ما النهاية ؟!

ما نهاية كل هذا .. الذى تسعى إليه ؟!

ولكن لماذا تضايق نفسها من الآن بالنهاية ؟!

أكل شيء نقدم عليه فى حياتنا ، نتصرف فيه على أساس نهايته ؟! حياتنا مثلا ، هل نقيم تصرفاتنا فيها حسب نهايتها ؟!

لو كان الأمر كذلك .. لما أقدمنا فيها على شيء .. ولرقدنا على ظهورنا .. ننتظر النهاية .. فلماذا إذن تحاول أن تشكل تصرفاتها فى حبها .. على أساس نهايته .. لا .. لا .. إنها ستكتب إليه .. ستذكر له المزيد عن نفسها .. وستحدثه عما تريد .. وتسأله أن يكتب إليها .. دائماً .. دائماً .

ولتكن النهاية .. ما يمكن أن تكون .

ومدت « نادية » يدها إلى درج على يمينها وأخرجت منه كراسة رسائل زرقاء .

وأطلت ببصرها من النافذة ، ليتخلل فروع السنديانة إلى الأفق البعيد .. حيث قامت الجبال الشاهقة بقممها البيض ، كأنها سد ضخم يحول بينها وبين أرض الأحلام .. ووطن الأمانى .. الأرض الخضراء المنبسطة التى لا تحتجب عنها أشعة الشمس .. والوطن الذى يضم بين ربوعه عبقريها الطويل ، العريض المنكبين .. الصارم القسمات .. الرقيق القلب .

وعاد نظرها من الأفق ليعبر فناء المحطة .. وقد خلا إلا من « كلب » ناظر المحطة .. وحمّال يسير متثاقلا قد انكمش جسده تحت معطفه .. ثم استقرت عيناها على الكراسة الخالية .. وتملكها شعور بالرهبة وهى تضع سن القلم فى أعلى الورقة .. لتبدأ الكتابة .

كيف تناديه ؟! وماذا تقول له ؟!

إنها تحس أن مصير أمانيها .. وأحلامها .. يتوقف على ما ستخطه يداها .

إن عليها أن تقنعه .. بأنها حقيقة .. وليست خدعة ولا أكذوبة .. ثم تقنعه بعد ذلك ، بأنها فى حاجة إليه .. إلى كتابته . وإلى صداقته .. وإلى .. حبه .. إن أمكن ، وأنها لا تعبث به ، ولا تسخر منه .

كل ذلك يجب أن تؤديه ، السطور التى سيخطها هذا السن الرابض على حرف الورقة .

وأغمضت عينيها .. وهى تحس بعجز تام عن الكتابة .

وفجأة تعالى من ورائها ، النغم البطىء .. ذو الخفقات المنفصلة المتباعدة ، الذى ينساب إلى النفس متدفقاً متصلا ، وأحست بشىء جامد فى باطنها يذوب .

وتحرك سن القلم .. ليؤدى مهمته الخطيرة .

« سيدى الفاضل .

« لا أظنك تدرك .. أى شىء فعله ردّك بنفسى .

« هذا الرد الذى لم تفصح به عن شىء ، سوى أنك رددت علىّ لأنك تخشى أن تخذل إنساناً يرى نفسه فى حاجة إليك .

« ويعلم الله لم أكن أتوقع أكثر من هذا .. ولا آمل فى خير منه ، أن ترد علىّ .. مجرد رد .. كى تمنحنى بصيصاً من أمل ، يشجعنى أن أخبرك من أنا ، وماذا أريد .. وأن أكتب إليك بشىء من التفصيل ، دون أن أحس بأنى أفرض عليك نفسى وأكرهك على سماعى .

« أكتب إليك .. وفى نفسى شىء من الطمأنينة ..طمأنينة المستأذن ، يؤذن له .. أو الطارق ، يسمح له بالدخول .

« أكتب إليك ، وقد زال من نفسى ، وجل المتسلل ، ورهبة المقتحم .

« ومع ذلك .. ورغم ما أحسست به من طمأنينة المستأذن .. ورغم زوال وجل المتسلل .. ورهبة المقتحم .. أحس أنى قد استبدلت وجلا .. بوجل .. ورهبة برهبة .. وأنى لم أكن أواجهك ، لأقول لك من أنا وماذا أريد ، حتى أحسست بفمى يتلعثم ..ولسانى ينعقد .

« وإذا بى .. بعد كل ما كتبت .. لا أعرف كيف أقول لك من أنا .. وماذا أريد .

« ومع ذلك .. أحس أنى لا بد أن أجتاز الاختبار ، اختبار الثقة الذى عقدته لى .. ولا بد أن أقنعك بأنى ، لست خدعة .. ولا أكذوبة .. وأنى لا أغرر ولا أضلل ، وأنى حقاً أحتاج إليك . لا أعبث ولا أسخر .

« أنا .. كشىء مادى .. لا أظن وصفى بالشىء العسير .

« فلنبدأ بهذا الجزء السهل من المهمة .

« أنا .. كما قلت لك — « نادية » — فى الثامنة عشرة من عمرى ، شقراء ، خضراء العينين ، مقبولة الشكل ، ولعلى بهذا التعبير أستطيع أن أتجنب مبالغة الغرور ، أو إنكار التواضع .

« أبى مصرى وأمى فرنسية .. كنا نعيش فى مصر ، ومات أبى .. فاضطررنا أنا وأمى وأختى التوءم .. أن نرحل إلى « حاب » موطن أمى .. تجنباً لمتاعب المعيشة .

« وقد استقر بنا المقام فى بيت أمى .. وعملت أنا وأختى فى مدرسة للأيتام .

« هل هناك تفصيلات أخرى ؟!

« لا أظن .

« هذا هو .. كل ما فى « أنا » .. كشىء مادى ، لا أظن بى أكثر من ذلك من ناحية التفصيلات الرئيسية ، ولا أظن التفصيلات الثانوية ، يمكن أن تضيف إلىّ شيئاً كثيراً .. فى نظرك .

« بقى أن أقول .. من « أنا » .. كشىء معنوى .. المخلوقة .. المجنونة — كما لا أشك قد ظننتنى — التى تسكن جبال الألب ، والتى تكتب إلى طبيب فى مصر .. تسأله أن يكتب إليها ، زاعمة أن كلماته هى خير عزاء لها فى غربتها .

« بقى علىّ أن أقول .. من أنا كشىء معنوى .. لأقنعك كيف يمكن أن تكون هذه الصورة التى بدت فى ذهنك فى أول الأمر .. أكذوبة أو خدعة .. حقيقة واقعة .. حارة ، مخلصة .. لا عبث فيها ولا سخرية .

« أنا مخلوقة . قد شدّت نفسها إلى نفسك .. من حيث لا تدرى .

« لا تدرى أنت .. ولا تدرى هى .. ولا أظن أحداً يمكن أن يدرى غير هذا المدبر الذى يدبر أمرك وأمرى ، وأنا فى جانب من الأرض وأنت فى الجانب الآخر .

« والذى يعلم وحده .. كيف شددت إليك نفسى .. ولِمَه ؟!

« كان ذلك منذ بضع سنوات .. عندما أبصرتك فى النادى.. كمخلوق.. فظ .. قاس .. ونفرت منك .. بطبعى الرقيق .. وإحساسى المرهف .. عندما رأيتك » .

وتوقف قلم « نادية » ، وهى تحس بوقع خطوات تقترب من الباب ، وطوت رسالة مدحت ووضعتها فى جيبها ثم قلبت صفحة الكراسة ، وفتح الباب واندفعت « منى » تهتف قائلة :

ـــ نادية ؟!

والتفتت إليها « نادية » وهى تهز رأسها متسائلة :

ـــ ماذا تريدين ؟

واندفعت منى قائلة :

ـــ اسمعى .. سنخرج اليوم .. للانزلاق على الجليد .

ونظرت إليها « نادية » متسائلة فى دهشة :

ـــ انزلاق على الجليد ؟!

ـــ أجل .

ـــ مَنْ ؟!

ـــ أنا وأنت .

ـــ أتعرفين كيف تتزحلقين على الجليد .. أم تنوين أن تدق عنقك ؟!

ـــ هل سمعت عن أحد دق عنقه فى الجليد .. يا غبية !!

ـــ سأسمع غداً إن شاء الله .

ـــ اسمعى . أنا لا أمزح .. هل ستأتين معى .. أم لا ؟!

ــ معك إلى أين .. أيتها المجنونة ؟!

ــ سنخرج مع تونى وجابى .. وبقية الشلة .. وقد أعدوا أدوات الانزلاق .. الزحافات والعصى .. وسنصعد الجبل ونقضى اليوم فى الانزلاق على الجليد .

ــ تقصدين أنهم سيقضون اليوم فى الانزلاق على الجليد ؟

ــ بل أقصد نحن .. كلنا .

ــ أنا وأنت سننزلق على الجليد ؟! هل سبق لنا هذا ؟! كونى عاقلة !

ــ سنتعلم .. لقد قال لى « تونى » إنها مسألة بسيطة جداً وسيعلمنا فى نصف ساعة .. سنلتقى كلنا فى الساعة الثانيه عشرة عند ناصية الشارع أمام محل التصوير .

ــ الساعة الثانية عشرة .. والمدرسة ؟!

ــ لن يكون عندى عمل بعد الثانية عشرة .

ــ ولكنى ..

ــ لا تزعمى أن عندك عملا .. تستطيعين أن تخدعى كلود .. ومسيو رينو .. وتوهمينهما بمشقة ترتيب البطاقات وإعداد الملفات .. أما أنا فأعلم أنك تقضين نصف وقتك فى السرحان والحملقة من زجاج النافذة .. والتفكير فى ذلك السخيف الكشر .. الذى تتوهمين أنك تحبينه .

وحملقت « نادية » فى وجهها فى دهشة قائلة :

ــ منى .. ما هذا الهذيان الذى تقولين ؟!

وربتت « منى » ظهرها وهى تقول ضاحكة :

ــ أنا التى أهذى !! متشكرة .. أنت لا تسرحين ولا تحبين .. هذا الحيوان الطويل .. العريض .. الذى ...

ــ لا تقولى عنه حيوان .

ــ رجعنا !! ألم تزعمى أنك لا تسرحين فيه ؟!

— أسرح فيه أو لا أسرح .. لا داعى لأن تتكلمى عن الناس بمثل هذه الوقاحة .

— متأسفة .. انتهينا .. هل ستأتين معنا ؟!

— قلت لك .. لا .

— بل ستأتين .

— لا .

— إن لم تأت سأذهب وحدى .. وسأندفع فى الانزلاق حتى تدق عنقى .. وتكونين أنت مسئولة عن وفاتى .

— فى داهية .

— هكذا ؟!

— أجل هكذا .. ما دمت أنت لا يهمك نفسك .. فماذا يهمنى أنا ؟!

وهزّت « منى » كتفيها .. قائلة وهى تتجه نحو الباب :

— إذن سأذهب وأنزلق .. وأجهد نفسى حتى ..

ونادتها « نادية » قائلة :

— اسمعى .

— ها .

— تعالى هنا .. متى ستغادرين المدرسة ؟!

— فى الحادية عشرة والنصف .

— مرّى علىّ قبل أن تنصرفى .

— ولِمَه ؟! ألم تقولى إنك .. لن تذهبى !؟

— سأذهب .

— وتتزحلقين ؟!

— بل سأسير لمراقبتك .

— المهم أن تأتى .. وستتزحلقين رغم أنفك .

ولمحت « منى » كراسة الرسائل فهتفت متسائلة :

ـ ماذا كنت تفعلين !؟

وبدا على « نادية » الارتباك ، وأجابت قائلة :

ـ كنت .. كنت .. أنوى الكتابة .

ـ لمن ؟!

ـ لصبرى .

ـ لصبرى ؟

ـ أجل .. سأرد عليه .

ـ ستردين عليه .. هل كتب إليك ؟

ـ أجل .

ـ وكيف عرف العنوان !؟

ـ من عصام .

ـ الحمار .. هل يعرض رسائلى للناس ؟!

ـ ولِمَ لا يكون أعطاه العنوان دون أن يريه الرسالة .

ـ معقول .. ومتى وصلتك رسالة صبرى ؟!

ـ بالأمس .

ـ ولماذا لم تخبرينى ؟!

ـ نسيت .

ـ طبعاً .. لو كانت رسالة من حبيب القلب .. لما نسيت .. أين هى ؟! ماذا قال لك ؟!

ـ أظنها .. فى الحقيبة .

ومدت « منى » يدها إلى حقيبة « نادية » وفتحتها ثم سحبت رسالة صبرى وأخذت فى تلاوتها .

وقالت « نادية » محاولة التخلص من « منى » :

ـ ليس هذا وقت قراءتها يا منى .. عودى إلى فصلك .

ولم تجب « منى » بل استمرت فى تلاوة الرسالة بسرعة ، وهى تقفز السطور أربعاً فى أربع ، وأخيراً قذفت بها من يدها قائلة :

ــ مغفل .. مازال يتحدث عن صفقة الأسلحة .. ومؤتمر باندونج ، والتعايش السلمى ، والحياد الإيجابى .. متى ينوى أن يتعلم الحب ؟!

ــ دعيه هكذا .. فلست أدرى كيف يمكن أن أجيبه ، لو أنه كتب إلىّ رسالة حب .

ــ وكيف تنوين أن تجيبيه الآن ؟!

ــ سأنفخ فى روحه ، وأذكى حماسه .

ــ يا بنت الصرم !!

ــ « منى » اخفضى صوتك ، وكفى عن هذه البذاءة .

ــ لا تخافى شيئاً ، ليس هنا من يفهم العربى .. أنت تنوين إذن أن تنفخى فى روحه .. وتجاريه بمثل سخافته !!

ــ ليست هذه سخافة يا منى .. إنها حقائق . إن مصر الآن تمر بنقطة تحوّل فى تاريخها كله .

ــ وما لنا نحن بهذا ؟!

ــ كفى عن هذا الاستخفاف .. وإلا لن أتحدث معك .

ــ لا تغضبى . إنى أتساءل حقاً . مالنا نحن بهذا التحوّل !

ــ إنه مصيرنا .. مصير كل مصر .. وأجيالها القادمة . فعندما نملك حريتنا .. نستطيع أن نهيىء لأنفسنا مستقبلا أفضل ، وحياة أكرم .

وأجابت « منى » وهى تهز رأسها غير مقتنعة :ــ ها .

وبحركة غير إرادية .. مدّت يدها ، وتناولت كراسة الرسائل .. تقلبها فى يدها ، فى غير اكتراث .

وبلا أى قصد .. لمحت السطور الأولى من الكتابة .

وفى لمح البرق ، اختطفت « نادية » الكراسة من يدها .

ومضت برهة .. و « منى » تحملق فى دهشة ، وفجأة برقت لها الحقيقة .. فصاحت مشدوهة :

— يا بنت الإيه .. تكتبين إليه ؟!

وتصاعدت الدماء إلى وجه « نادية » وهتفت قائلة :

— لمن ؟!

— له .. للدكتور مدحت .

— من قال لك ؟!

— أراهنك .. مائة جنيه .. لقرش صاغ .

— لا ليست له .

— إذن أرينى الكراسة ؟!

— لن أريها لك .

— أرأيت .. « لا أظنك تدرك أى شيء فعله ردّك بنفسى ».. من يمكن أن تقولى له هذا ، صبرى ، أم جمال ، أم عصام ؟

صمتت « مى » فجأة وخيمت على وجهها سحابة من قلق ، وعادت تقول فى شك :

— اسمعى ! لماذا تخفين عنى الرسالة ؟!

وأدركت « نادية » ما ساور « منى » من شكوك ، فلم تملك أن تمنع ضحكة فلتت من شفتيها برغمها وتساءلت :

— أيتها البلهاء .. ماذا ظننت بى .. أظننت أنى أكتب لعصام .. أيمكن أن تفكرى بمثل هذه السخافة ؟!

وانقشعت الوساوس بسرعة من ذهن « منى » ولكن صممت على استغلال الفرصة فأجابت :

— من يدرى .. لماذا إذاً لا تريدين أن ترينى الرسالة ؟! ألم أطلعك أنا على كل أسرارى ؟!

وترددت « نادية » برهة .. ثم قالت :

— ولكن ، هذه الرسالة .. أقصد ..

— تقصدين ماذا ؟ أريني الكراسة ، وكفى عن هذه السخافة .

— سأريها لك فيما بعد ، يجب أن تنصرفى إلى فصلك .

وأجابت « منى » فى عناد وإصرار :

— لن أتحرّك من هنا حتى أراها .

ودفعت إليها « نادية » بالكراسة فى غيظ قائلة :

— خذى .. ولكن إياك والسخرية .

وهزت « منى » رأسها وهى تبتسم ، وتناولت الكراسة قائلة :

— أنا أسخر .. حاشا الله !!

— لو سمعت كلمة سخرية .. فسآخذها منك ولن أريك شيئاً بعد ذلك .

وقرأت « منى » بضعة أسطر من الرسالة ، ثم رفعت رأسها متسائلة :

— أقد ردّ عليك حقيقة ؟!

— أجل .

— ومتى كتبت إليه ؟!

— منذ أسبوع .

— ولماذا لم تخبرينى ؟!

— خشيت ألا يجيب علىّ .. فأعرض نفسى للسخرية .

— وأين رسالته ؟!

— ومدت « نادية » يدها فى جيبها ، ثم أخرجت الرسالة قائلة :

— اسمعى يا « منى » .. ليس هذا وقته .. وسيتضايق مسيو رينو .. إن وجد الفصل وحده .. ورآك تقفين معى فى الحجرة .

— إن التلاميذ فى الفسحة .

— لقد دخلوا الفصل منذ خمس دقائق .

— حقاً ؟!

وقبل أن تغادر « منى » الغرفة خطفت رسالة مدحت من يد « نادية » وقرأتها بسرعة ، ثم قلبت شفتيها قائلة فى سخرية :

— يخشى أن تكون أكذوبة أو خدعة . ماذا يظن نفسه .. جان كوكتو .. مغرور .. لو كنت منك .. لعرفت كيف أريه ؟

وسلمت « نادية » الرسالة قائلة فى تحذير :

— اسمعى إياك أن ترسلى الرد قبل أن أقرأه .. أنا أعرف .. إنك غشيمة .. فى الغرام .. وأخشى أن تندلقى فى الكتابة .

وهزّت « نادية » رأسها ، وهى تدفعها نحو الباب قائلة :

— حاضر .. سأريها لك .. اذهبى الآن قبل أن يخرج التلاميذ للبحث عنك .

وخرجت « منى » من الحجرة .

وجلست « نادية » وحدها ثانية .. وقلبت الكراسة على الصفحة التى كانت تكتب فيها ، ومرة ثانية شرد بصرها من النافذة .

وقبل أن تعاود الكتابة .. سمعت وقع أقدام أخرى .

وكانت السيدة « كلود » هذه المرة .. طوت « نادية » الكراسة ووضعتها فى الحقيبة ونهضت لاستقبال السيدة محيية .

— صباح الخير .

— صباح الخير يا نادية .. أعندك مانع أن تخرجى لعزف النشيد للتلاميذ فإن لدىّ موعداً هاماً يضطرنى للخروج ؟

— سأخرج إليهم حالا .

ولم تكد تنتهى من عزف النشيد .. ولم يكد التلاميذ يتفرّقون إلى الفناء حتى أبصرت « منى » تقفز صاعدة إلى السلم ، وهى تصيح بها :

— هيا بنا .. إن جابى تنتظر فى الفناء .

وبدا التردد على وجه نادية وأجابت :

ــ أمصرة على هذا التزحلق ؟!

ــ إنها فرصة هائلة .. كي تتعلميها .. كيف تنوين عندما نعود إلى مصر .. ألا نقص عليهم كيف تزحلقنا على الجليد !

ــ أمن أجل هذا تتزحلقين ؟!

ــ طبعاً .. سأصف لعصام .. أول رحلة خرجناها للتزحلق على الجليد .

ــ يمكنك أن تصفيها غيباً .. من الذاكرة .

ــ أنا لا أحب الكذب .

ــ أنت أكبر كذابة .

ــ أنا التى أرسل رسائل دون أن أقول .. وأكتب فقط لصبرى .. عن باندونج والتعايش السلمى. أنا التى ...

ــ انتهينا .. هيا بنا .. سأستأذن من مسيو رينو قبل أن أذهب .

ــ يا شيخة .. لا تدققى .. إن مسيو رينو .. فى غيبوبة . عندما يسألك هل استأذنت قولى له أجل .. هل تظنينه يتذكر شيئاً .. هيا .. هيا .

وانطلقت الفتاتان من المدرسة .. تصحبهما جابى .

وأمام محل التصوير كانت « الشلة » قد اجتمعت .. خليط من الفتية والفتيات .. وقد التفوا حول عربة تونى ، وعربة أخرى .

وبعد لحظة انطلقت العربتان إلى أعلى الجبل .. تحت رذاذ المطر .. ونتف البرد .

وأحست « نادية » بلسعة الصقيع ، عندما أخذت العربة تصعد بهم .. ونظرت إلى « منى » متسائلة :

ــ أتحسين بالبرد ؟

وأجاب تونى : ــ سندفأ حالا .. عندما نبدأ الانزلاق .

وعلى سفح الجبل هبطت الشلة وساروا يحملون أدوات الانزلاق .

وشرد ذهن « نادية » ، وهى تبصر مسطحات الجليد بيضاء رائعة .. كما كانت تراها فى الأفلام السينمائية .. وترى المدينة تبدو من أسفل الجبل ، وقد غشاها ضباب خفيف ، أشبه بغطاء من الدانتللا .

وكما تعوّدت فى كل متعة تحس بها .. بدأ ذهنها يرسم لها رفيق أحلامها .. وتصوّره أوهامها .. وهو يسير بجوارها .. حاملا العصى والزحافات .

أى متعة كانت تصيبها .. لو هيأ لها القدر صحبته على قمم هذه الجبال العجيبة !!

(٢٨)

لم أعرفها بعد !

عادت « نادية ومنى » إلى البيت قبل الساعة الثالثة ، واجتازتا باب البيت لتجدا المدفأة قد أوقدت وألسنة النيران تتلاعب حمراء فى جوفها .

وأقبلت « منى » على المطبخ لتصيح :

ـــ مارى .. أكاد أموت جوعاً .

وصاحت الأم من حجرة الجدّة :

ـــ طبعاً .. بعد هذا الجهد الذى بذلته .. ألم أنصحك بعدم الذهاب معهم ؟!

وقالت « نادية » وهى تصد عنها ما يحتمل أن توجهه إليها الأم لمطاوعتها لها فى الانزلاق :

ـــ لقد نصحتها أنا أيضاً .

وردت الأم ساخرة :

ـــ ثم ذهبت معها ؟..

ـــ لأتأكد أنها لن تجهد نفسها .

ـــ وهل فعلت ؟

ـــ بقدر المستطاع .

ـــ وتدخلت الجدّة قائلة وهى تضحك :

ـــ يا جماعة اتركوها تلعب ، إنها أدرى بطاقتها ، وجهدها .

واقتربت « منى » من الجدّة واحتضنتها قائلة :

ـــ أنت أعقل جدّة رأيتها .. لست أدرى لماذا لم تكونى أمى ؟

وقالت « نادية » وهى تنفض عن ثيابها نتف البرد :

ـــ لقد كان الانزلاق لذيذاً .. لم أتصور أنى سأتعلمه بمثل هذه السهولة .

وردت « منى » قائلة :

ـــ علماً بأنك خائبة بطبيعتك .. إنها المرة الأولى التى أراك تقدمين على المغامرة فى لعبة من الألعاب .

وأحست « نادية » بمدى ما فى قول « منى » من الصحة ، ولم يستعص عليها معرفة الدوافع التى دفعتها إلى خروجها عن طبيعتها الساكنة المنطوية ، والاشتراك مع الشلة فى العدو والانزلاق .

كان أول هذه الدوافع .. إحساس بالسعادة يبدد ذلك اليأس الذى تعوّدت أن تحيط نفسها به ، وشعور بأن هناك شيئاً جميلا ينتظرها .. أشبه بذلك الشعور الذى يحس به الصبية قبل ساعات النزهة .. أو أيام الأعياد .

يضاف إلى ذلك .. رغبتها فى أن تخلق لنفسها شيئاً تكتب عنه ، وتقص تفاصيله .. ثم تخيلها بأنها تقدم على شىء يحتمل أن يشاركها فيه .. ولو بالوهم .

ورصت صحاف الطعام ، وانتهت الفتاتان من تناول طعامهما بسرعة ، وصعدت كل منهما إلى حجرتها .

وقالت نادية لمنى وهى تغلق على نفسها باب الحجرة :

ـــ لا أريد دوشة ، ولا إزعاجات .

ـــ مفهوم .. يافندم .. مفهوم .

وقبل أن تغلق الباب سمعت صوت أمها تصيح بها :

ـــ لا تنسى أن تكتبى إلى عمك يا نادية ، قولى له إننا جميعاً بخير وهنئيه بخطبته .

وأجابت نادية :

ـــ حاضر يا ماما .

ثم وجهت القول لمنى :

ــ ستردّين على عمك سليمان هذه المرة ؟!

ــ حاضر يافندم .. هل تريدين أن أرد على صبرى ، وأن أكتب لجمال أيضاً ؟!

ــ لا تسخرى يا منى .. اكتبى لعمك فقط .. لأنك لم تكتبى له أبداً ، منذ وصلنا .

ــ وأنت .. ألا تنوين تهنئته بخطبته ؟

ــ سأكتب إليه بالطبع ، ولكن كتابتى لن تغنى عن كتابتك ، واذكرى أنك ستحتاجين إليه دائما .. من أجل عصام .

ــ أجل .. معك حق ، لقد كتب لى عصام . أن الفرسان رفضوا انتدابه لإدارة الجيش ، وأنه هو نفسه كتب إقراراً بأنه يفضل الخدمة فى القوات المدرّعة ، وأضاع كل دراسته للحقوق سدى .

ــ أنت السبب فى ضياع أربع سنوات من عمره ، لو دخل الكلية الحربية من أول الأمر لأضحى الآن يوزباشياً .

ــ وهل كنت أعرف أن الجيش سيقوم بثورة ؟. وأنه سيصبح بعد الثورة جيشاً حقيقياً ؟ على أية حال . إنه لم يخسر شيئاً .. لقد حصل على شهادة ثقافية ، وعندما يمل من القوات المدرّعة .. يستطيع أن يعمل فى المحاماة .

ــ عصام ، لا يصلح أبداً لأن يكون محامياً .

ــ إذن سأوصى عمى سليمان بأن يأخذه معه .

ــ أوصيه بما تشائين ، كل ما أطلبه منك هو أن تتركينى بلا إزعاجات .

ــ على أن ترينى الرسالة قبل إرسالها ؟!

ــ حاضر .

وأغلقت نادية الباب ، وأوت إلى حجرتها وحيدة ، وكان المطر قد أخذ يتثاقل وازدادت طرقاته على زجاج النوافذ .

وأخرجت « نادية » الكراسة الزرقاء ، وبدأت فى قراءة ما كتبت ، وشردت

ببصرها برهة ترقب قطرات المطر ، والسماء الملبدة بالغيوم .. ثم عـاودت الكتابة .

وفى الصباح .. كانت نادية تقف أمام صندوق البريد ، وتركت ثلاث رسائل تنزلق من بين أصابعها إلى فتحة الصندوق .. لتتخذ طريقها إلى القاهرة ، اثنتان إلى كلية الطب بجامعة عين شمس ، واحدة إلى مدحت ، وأخرى إلى صبرى . أما الثالثة ، فقد جاوزت العباسية إلى كوبرى القبة حيث البكباشى سليمان فى سلاح الفرسان .

وصلت الرسالة الأولى إلى مدحت .. لتستقر على مكتبة فى مستشفـى الدمرداش ، وتبقى فوق كوم من الأوراق ، لا تمسها يد ، وهو يمر بها فى لمحات خاطفة بقسماته الصارمة وملامحه المتجهمة ، بين عملية وعملية أو محاضرة ومحاضرة ، وهو يصيح بالطلبة ، وينهر الممرضات ، حتى جلس « جاد الله » فى ظهيرة اليوم التالى على حافة المكتب وأخذ يتسلى بالعبث فى الأوراق .

ولمح الرسالة ، فأمسك بها هاتفاً فى دهشة :

ـــ رسالة جديدة ، من مجنونة الألب ؟

ورفع مدحت حاجبيه الثقيلين ، وتساءل فى غير اكتراث :

ـــ ممن ؟

وعاد « جاد الله » يلوّح بالرسالة فى يده وهو يقول :

ـــ من مجنونة الألب .. التى تتلهف على ردّ منك .. لتنقذ حياتها .. هل كتبت إليها ؟!

وهز مدحت رأسه قائلا :

ـــ أجل .. كتبت .

وصاح جاد الله فى دهشة :

ـــ كتبت إليها ؟. عجيبة !!. ومن علمك كتابة رسائل الغرام ؟!

ـــ من قال لك إنى كتبت إليها رسالة غرام ياغبى !!

— أقل ما فيها .. إنها تسأل أن ترد روحها .. هل كتبت إليها روشتة .. أم طلبت إليها أن تحضر إليك لجز رقبتها ؟!

— أتستخف دمك ؟!

— إذن قل ماذا كتبت إليها ؟

— كتبت إليها بضع كلمات حتى لا أخذلها .. إن كانت حقيقة .

— ها .. لم يطاوعك قلبك على صدّها ، ولكن ألم تخش أن تكون خدعة ؟!

— خدعة .. خدعة !! هل تظنها أول أو آخر خدعة أصاب بها ؟!

وهزّ جاد الله الرسالة فى يده قائلا :

— لقد أجابت على ردّك .. سنعرف الآن .. حقيقتها ، ولا أظن الخدعة يمكن أن تنطلى مرتين .

وبإبهامه وسبابته فتح المظروف قائلا :

— لنر ماذا تقول ساكنة الألب !

وقبل أن يخرج جاد الله الرسالة مدّ مدحت يده واختطفها قائلا :

— من أذن لك ؟

وضحك جاد الله :

— لم أكن أظن بها شيئاً يستحق الاستئذان .. هل أضحت بينكما أسرار .. تخشى عليها ؟!

— أسرار ؟!! هكذا سريعاً ؟

— أم تخشى أن أطلع على خديعتك ؟

— لا هذا ولا ذاك .. إنها مسألة مبدأ .. لا أحب أن تهون الرسالة حتى أتركها فى يدك العابثة .

— إذن اقرأها لى أنت .. أسمعنا .

وفتح مدحت الرسالة وأخذ يتلو سطورها الأولى فى استخفاف ، وما لبث صوته أن خفت وبدت عليه علامات الاهتمام وهو ينتقل بعينيه من سطر إلى

سطر ، وعندما انتهى من الورقة الأولى وضعها على المكتب ، فاختطفها جاد الله وانهمك فى تلاوتها ، وظل يتابع القراءة وراء مدحت حتى وضع مدحت آخر ورقة على المكتب وهز رأسه ببطء وهو يقول فى دهشة :

ــ عجيبة !

و لم يجب جاد الله فقد كان منهمكا فى القراءة حتى أتم الرسالة ، و لم يملك إلا أن هز رأسه وقال بنفس اللهجة :

ــ إما أن تكون مخلوقة ماهرة جداً .. وذكية جداً .. أو .. أو تكون حقيقة .

وردد مدحت قوله متسائلا فى شرود :

ــ حقيقة !!

ــ ولِمَ لا ؟!

وفجأة رفع مدحت كتفيه ثم أزاح أوراق الرسالة فى ضيق وملل قائلا :

ــ حقيقة أو غير حقيقة .. مالى أنا بها .. بلا وجع رأس .. أنا فاضى ؟

وصمت برهة ثم عاد يهز رأسه قائلا :

ــ أنا لا أعرف كيف أكتب كلمتين على بعضهما .. ماذا أستطيع أن أفعل لها ..؟

وتناول جاد الورق الأخيرة من الرسالة وأخذ يتلو السطور التى ختمت بها الرسالة :

« .. ترى هل عرفت كيف أقول لك من أنا ؟!

« هل عرفت بعد كل هذه الصفحات .. أن أعرفك بنفسى ؟. بحقيقتى..؟

« هل استطعت أن أقنعك بأنى صادقة مخلصة .. وأننى لست وهماً ولا خدعة .

« ليتنى أكون قد استطعت .. فعلى اقتناعك .. تتوقف . ماذا أقول ؟.. هل أكون مبالغة .. لو قلت لك .. حياتى ؟

« فعلا .. ربما .. أكون مبالغة .. فلا أظن حياتنا المادية .. تتوقف .. إذا ما

حطم الناس معنوياتنا .. أجل لست أظن اليأس قاتلى ، ولو كان .. لقضيت منذ زمن بعيد .

« لكى أكون أكثر دقة .. أقول لك .. إن على اقتناعك .. بصدق وإخلاصى وحقيقتى .. يتوقف .. امتلاء حياتى .. بالأمل ، والصفاء والسكينة .

« بقى بعد ذلك .. أن أحدثك عما أريد :

— « إنى أريد صداقتك .. أريد أن تحدثنى عن نفسك ، عن أيامك .. كيف تنقضى .. ادعنى معك إلى حجرة العمليات لأشاهدك ، وأنت تقف الساعات الطوال تتصبب عرقاً .

« أؤكد لك أنى لن أخاف .. فإنى أحب أن أشاركك كل أعمالك .. حتى المخيف منها .. لأنى أحس بطمأنينة إلى جوارك .

« ادعنى .. إن لم أضايقك .. إلى بعض نزهاتك .. إلى فنجان من الشاى فى النادى .. مثلا ، أو بضع ضربات فى ملعب الكروكيه .

« صف لى حياتك .. بدقائقها وتفاصيلها ، لا تخش التزيد أو الإطالة .. إن كان لديك من وقتك فسحة للتزيد والإطالة .

« وسأدعوك أنا .. إذا لم يزعجك هذا .. لتقضى معى — على الورق وبين السطور — بضع جولات على قمم الألب .. ننزلق على الجليد أو نتنزه على شاطئ البحيرة .. ستسرّك النزهة كثيراً ، وستسرّنى أكثر .

« سأحس فى كل نزهة أخرج إليها .. أنك قد قبلت دعوتى ، وخرجت معى ، وسأعدو فى نزهاتى فى فرحة وحماس . لأنى سأحس أنى سأنقل إليك كل ما فعلت لتعيش معى فيه .

« هل طلبت منك شيئاً كثيراً ؟..

« قد يبدو كثيراً لأنك لا تعرفنى ، ولأنك لا تعرف مدى ما تفعله صداقتك من أثر فى حياتى .

« ويبدو كثيراً أيضاً .. إذا ما قيس بهنيهات فراغك .. التى تتخلل كثرة مشاغلك وأعمالك .

« ولذلك — فسأوطن نفسي .. إن قبلت صداقتى .. على ألا أطلب منك هذا الكثير .. بل سأكتفى .. بأى شيء يمكن أن يسمح به وقتك .

« مرة أخرى .. إذا اقتنعت بى .. فلا تعتذر بوقت ، ولا تقل إنك لا تجيد الكتابة .

« إنى أريد منك أية كتابة ، وبأى أسلوب .

« وأريد منك أيضاً — إن لم تتهمنى بالطمع — إحدى صورك ، وأؤكد لك أنها ستكون أثمن منحة وهبتها فى حياتى » .

وصمت جاد الله ثم قذف إليه بالرسالة قائلا فى لهجة جاده آمرة :

— اكتب لها .. اكتب لها أى شيء .

وطوى مدحت الرسالة فى جيبه وهو يقول فى ضيق :

— فاضى أنا لمثل هذا العته .. أدعوها للشاى وتدعونى للانـزلاق على الجليد !!

ثم أطلق ضحكة ساخرة من أنفه وأردف :

— إنها لا شك مجنونة .. تصوّر أنى أكتب لإنسانة لم أرها فى حياتى .. أتوهم أنى دعوتها لتناول الشاى .. ماذا يمكن أن يكتب فى هذا ؟!

— يا أخى لا ضرورة لهذا .. اكتب لها أى شيء ، وأرسل لها صورة .

— أنا أرسل صورة ؟!

— إذا لم ترسل أنت سأرسل أنا .

— إياك أن تفعل !!

— أؤكد لك أنى سأفعل ، وسأكتب لها رسالة غرام طويلة عريضة ، وسأدعوها أيضاً إلى الجرسونيرة .

— جاد الله . هل جننت ؟!

— وباسمك ، وتوقيعك ، والعنوان على هذا الظرف .

واختطف جاد الله الظرف من على المكتب ، وصاح به مدحت :

— هات الظرف .

— ستكتب لها ..؟

— ومالك أنت .. وكلتك عن نفسها !

— اسمع .. لا داعى للرغى الكثير .. إما أن تكتب أنت أو أكتب أنا ، وأؤكد لك أنى على أتم الاستعداد للأخذ والعطا معها .. كما تريد ، وأنت تعرف أن لدىّ فراغاً ، لمثل هذه الأشياء .. ما رأيك ؟

ومدّ مدحت يده وأجاب فى حنق :

— هات الظرف ، سأكتب .

وناوله جاد الله الظرف وهو يقول :

— وعد ..؟

— قلت لك سأكتب .. جاك بلا .. أنت وهى ..

— على أية حال أرنى ردّها عندما يصل .. لأتأكد أنك كتبت .

وصاح مدحت فى دهشة :

— اسمع ، ألا تكون أنت صاحب الرسالة ، ولأجل هذا تهتم بردّى كل هذا الاهتمام ؟

— يا مدحت لا تكن سخيفاً .. أتتصور أنى أجلس لأكتب لك رسالة من هنا ، وأرسلها لفرنسا .. لكى تعود إليك حتى تكتب لها ردّاً ، لماذا ؟! أتكتب الدرر أم تنطق حكما .. يا أخى ، بعض العقل .

— لماذا إذن كل هذا الحماس ؟!

— لأن البنت غلبانة ، وصادقة ، ولأنك لن تخسر شيئاً ، سوى بضع كلمات بأسلوبك السخيف ، وصورة من صورك التى تبدو فيها « كالعربجية » .. أتظن هذا كثيراً ؟!

— انتهينا .. سأكتب .

ووضع مدحت الرسالة فى جيبه ثم قال :

— ولكنى لن أرسل صورة .

— لماذا ؟

— لأنى لا أمتلك صوراً .. إلا صورة قديمة وأنا بالبنطلون الشورت .

— أرسلها . إنها ستكون أقل إرهاباً ، على الأقل ، شعرك ما زال برأسك ، وأنفك ...

— يبدو أنك قد حننت إلى علق زمان .. إنى لم أضربك منذ أن صرت طبيباً .

— اسمع إن لدىّ صورة لك .

— أى صورة ؟!

— التى صوّرناها سوياً لتحقيق الشخصية .

— يا ساتر يارب . إنها كالمشبوهين .

— لا تدعى أنك أجمل منها . أرسلها وتوكل .

— لا . لا . سأبحث عن صورة أخرى .

— ألست تريد أن تتخلص منها !! أرسلها إذن .. حتى تضيع آمالها فيك .

— هات الصورة ، وذنبها على جنبها .

وفى المساء عندما خلا مدحت إلى نفسه فى حجرته ، وقف برهة يطل من النافذة على الأفق الذى تراقصت فيه الأضواء الباهتة ، ومد يده يعبث بالرسالة المطوية فى جيبه .

أحقاً ينوى أن يرد ؟!

ولِمَ لا !!

بضع كلمات يطوى معها الصورة ويرسلها فى الظرف ، ويريح ضميره .

ولكن أحقاً ، يحس بالمسألة كمجرد إراحة ضميره ، أم أنه يشعر — ولو قليلا — بالرغبة ، فى الرد ؟!

إنه على الأقل لا يضيق به .

وجلس مدحت ليقطع ورقة من إحدى الكراسات ويكتب بها :

« عزيزتى :

« هذه المرة لا أشعر بالشك بقدر ما أشعر بالحيرة .

« لقد نجحت فى إقناعى — إلى حد كبير — بحقيقتك .. ولكنك لم تستطيعى إقناعى بالجزء الثانى من المشكلة ..

« وهى ماذا تريدين ؟!

« أو .. من وجهة نظرى .. ماذا أستطيع أن أفعل لك ؟!

« أحدثك عن حياتى ؟

« لست أرى بها شيئاً يستحق الحديث .. لا تفاصيل أكثر من الحلقة المفرغة التى أعيش فيها بين حجرة العمليات وقاعة المحاضرات .

« وإن كان الوهم قد هيأ لك ، أن بى شيئاً ، وأن فى حياتى أحداثاً تستحق أن توصف وأن يحكى عنها ، فأنا أؤكد لك .. أنى خلو من كل هذا ، وأنى لا أجد فى نفسى أكثر من إنسان مجرد من كل ما يستحق الوصف والحديث ؟.

« وإذا كان بى شىء مما تظنين فأنا ، بلا جدال ، عاجز عن معرفته وبالتالى عن وصفه .

« أما عما تسألينى إياه .. من دعوة إلى الشاى .. أو إلى الكروكيه فأنا أقدمها على الرحب والسعة ، إذا هيأ الله لنا لقاء أما أن أقدمها لك على الورق وبين السطور .. فأؤكد لك أنى لا أعرف كيف أفعلها ، وأكره من نفسى أن أفعل أشياء مضحكة ، كأن أتوهم دعوتك ، ثم أخاطبك وأجيب عنك .

« وأنا بعد ، لم أعرفك ، ولما أستطيع مجرد تصوّرك .

« ألا تجديننى على حق ؟

« أرسل إليك مع رسالتى الصورة الوحيدة التى استطعت أن أعثر عليها مع صديق لى ، ولست أملك إلا أن أعتذر عنها ، وأن أرجو ألا تخيب أملك فىّ ،

وتجعلى رسالتك السابقة آخر رسالة إلىّ .

« أما إذا لم تفلح ، وإذا كنت تنوين أن تكتبى ثانية ، فأظن أن من حقى .. أن أعرف عنك شيئاً أكثر ، وأن أتوقع منك ردًّا على صورتى .. صورة منك » .

وأعاد مدحت تلاوة الرسالة ثم دفع بها فى الظرف ومعها الصورة ، وأخذ فى كتابة العنوان على الظرف ، وفى نفس الوقت كان هناك ظرفان آخران كتب عليهما نفس العنوان .. الأول يكتبه سليمان بعد أن ضم رسالة كتب بها أخبار الأسرة والخطيبة ، ونقل عصام إلى المجموعة المدرّعة وبدء موسم المناورات ، وأرفق بها صورة للخطيبة طلبتها منه نادية .

والثانى كتبه صبرى بعد أن ضم رسالته عن الحياة ، والأمل ، ومستقبل مصر ، والدستور ، والديمقراطية . وأخيراً أمنيته فى أن تعود نادية ، لتعيش بجواره فى الأحداث الضخام التى تمر بها مصر .

وفى الصباح ألقيت الرسائل الثلاث فى ثلاثة صناديق بريد .. لتجتمع كلها وتتخذ طريقها معاً إلى « جاب » .. كى تصل إلى نادية ذات صباح وهى تطل برأسها فى مكتب الكاتب العجوز ، فتجده يمنحها ابتسامة واسعة ويقول لها متهللا :

— ثلاث .. مرة واحدة .

وتناولت نادية الرسائل وهى تحس برجفة سعادة وأخذت تفحص الرسائل بسرعة ، ثم تمسك بإحداها فى لهفة وتحس صلابة الصورة التى بها وتعدو إلى حجرتها وتغلق الباب ، ثم تجلس لتتحسس الرسالة مرة أخرى وتفتحها وتعيد قراءتها .. خمس مرات .. قبل أن تحاول فض الرسالتين الأخريين .

وفى البيت قذفت إلى أمها برسالة العم ، وإلى « منى » برسالة صبرى ، ثم انطلقت تصعد الدرج إلى حجرتها لتعيد قراءة الرسالة الثالثة مرة أخرى .

ولحقت بها « منى » صائحة :

— بنت يا نادية .. أهذا كل ما وصلك ؟

وضحكت نادية وهى تجيب :

ـــ أجل .

ـــ كذابة .. الابتسامة التى فى عينيك تجزم بأن رسالة أخرى وصلتك !

وهزت نادية رأسها فرحة وأجابت :

ـــ أجل .. وصلت .

ـــ بمثل هذه السرعة ؟!

ـــ أجل .. مع رسالة عمى ورسالة صبرى .

ـــ أرينيها .

ـــ ادخلى إلى الحجرة ، واقرئيها معى .

وقبل أن تقرأ « منى » الرسالة وقع نظرها على الصورة فصاحت ضاحكة :

ـــ وأرسل صورة أيضاً .. ما شاء الله .. الظاهر أنك ستفعلين به وأنت فى « جاب » .. ما عجزت عن فعله ، وأنت على بعد خطوات منه فى منشية البكرى !

وعادت تنظر إلى صورته وهى تبتسم قائلة :

ـــ عال .. عال ، وماله .. « مبوّز » هكذا .. كأن أحداً قد ضربه قلمين أو لعن أباه !

ـــ منى .. اختشى ، وكفى قلة أدب .

ـــ طبعاً .. ما دام قد رد عليك وأرسل لك صورة .. لك حق تدافعين عنه :

ثم عادت تحدق فى الصورة وتضحك قائلة :

ـــ وماله حاجباه ثقيلان هكذا !! لا تنسى أن ترسلى له ملقاطاً يساويهما به .

ثم وضعت الصورة جانباً وأخذت فى تلاوة الرسالة ، وبدا عليها الاهتمام شيئاً فشيئاً ..

وعندما انتهت منها وضعتها جانباً وبدا عليها الشرود ، فسألتها نادية قائلة :

ـــ مالك !. ألم تعجبك الرسالة ؟!

ـــ بالعكس .. أعجبتنى جداً .

ـــ إذن فيمَ شردت ؟

ـــ شردت فى اللعبة التى تنزلقين إليها ببساطة .. لست أدرى ماذا تتوقعين نهايتها !

وبدا الشرود على نادية وأجابت :

ـــ نهايتها ؟!

ـــ أجل .. لا بد لنا من أن نتوقع لكل شىء نهاية .. بطريقة ما .

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)

فهرست الجزء الأول

صفحة

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)

الأستاذ يوسف السباعى

- اثنا عشر رجلا
- اثنتا عشرة امرأة
- ست نساء وستة رجال
- السقا مات
- طريق العودة
- بين الأطلال
- لست وحدك
- جفت الدموع (الجزء الأول)
- جفت الدموع (الجزء الثانى)
- ليل له آخر (الجزء الأول)
- ليل له آخر (الجزء الثانى)
- هذه النفوس — هذه الحياة
- من العالم المجهول — خبايا الصدور
- ليالى ودموع — أطياف
- نفحة من الإيمان — صور طبق الأصل
- ليلة خمر — من حياتى
- مبكى العشاق — فى موكب الهوى
- سمار الليالى
- هذا هو الحب

- طائر بين المحيطين
- من وراء الغيم
- ابتسامة على شفتيه
- أغنيــات ــ الشيخ زعرب
- بين أبو الريش وجنينة ناميش ــ يا أمة ضحكت
- نائب عزرائيل ــ البحث عن جسد
- وراء الستار ــ أقوى من الزمن
- أم رتيبة ــ جمعية قتل الزوجات
- ناديــــة (الجز الأول)
- ناديــــة (الجزء الثانى)
- رد قلبى (الجزء الأول)
- رد قلبى (الجزء الثانى)
- نحن لا نزرع الشوك (الجزء الأول)
- نحن لا نزرع الشوك (الجزء الثانى)
- إنى راحلة
- أرض النفاق
- فديتك يا ليلى

رقم الإيداع ٤٠٦٨ / ٨٧

الترقيم الدولى ٣ ـــ ٠٣١١ ـــ ١١ ـــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

يوسف السباعي

نادية



الجزء الثاني



يوسف السباعي

نادية

الجزء الثاني

(٢٩)

دعوة فى الأوهام !

رفعت « نادية » رأسها ونظرت إلى « منى » وتساءلت فى صوت حزين :

ـ ولماذا أفكر فى النهاية منذ الآن ؟!

ــ لأنها آتية .. آتية .

ــ وهل تفكرين أنت فى نهاية حياتك ؟

ــ نهاية حياتى أحس بها بعيدة .. وقد أفكر فيها عندما تقترب .

ــ وأنا أيضاً .. أحس بالنهاية بعيدة .. إننى ما زلت فى بداية أمتع مراحل عمرى ، لم أتصور قط ، أنه يمكن أن يكتب إلى .. يكتب إلى وحدى .. ويسألنى صورتى .

ــ وهل تنوين أن ترسلى له صورتك ؟

وخيم على « نادية » سحابة غم ومدت يدها بلا إرادة تتحسس عنقها وتشد الإيشارب عليه وقالت هامسة :

ــ أرسلى صورتى ؟.. لم لا ؟.. إن عندى صوراً قديمة قبل الحادث ، والصورة التى صورتها عند « أرمان ».

ــ ذات الضفيرة المدلاة على كتفك ؟!

ــ أجل .

ــ التى تبدين فيها كطفلة صغيرة ؟

ــ ألا تعجبك ؟!

ــ بالعكس . إنها تعجبنى جداً .

ومدت « نادية » يدها إلى أحد أدراجها وأخرجت ظرفاً أخذت تقلب ما به

حتى أخرجت منه صورة فى مساحة « الكارت بوستال ».

ونظرت إليها « منى » وهى تقول :

ـــ جميلة جداً .. ولكنه لن يرد عليك بعد ذلك .. لأنه لا يمكن أن يتوقع أنه يراسل طفلة بضفائر .

ـــ ولكنى سأوضح له أنها صورتى منذ بضع سنوات .

وهزّت « منى » رأسها ، ثم تناولت رسالة صبرى .. وألقت نظرة على صفحاتها المكتظة بالكتابة وتساءلت :

ـــ ماذا يريد أن يقول بكل هذا اللت ؟!

ـــ اقرئيها .. ستفيدك جداً .

ـــ من أى ناحية ؟!

ـــ ستضيف إلى معلوماتك أشياء كثيرة .

ـــ ليس لدىّ وقت لهذه المعلومات .. لقد انتهيت من الدراسة .. هل قال إنه يحبك ؟

وضحكت « نادية » قائلة :

ـــ ليس بعد .. ولكنه يتمنى أن أكون بجواره فى مصر لأرقب الأحداث الضخمة التى تمر بها مصر .

ـــ مثل ؟!

ـــ إعلان الدستور .

وتناولت « نادية » رسالة صبرى وأخذت تقرأ لها :

« لو سمعت جمال عبد الناصر وهو يقف بين الشعب ليعلن سيادة الشعب لا سيادة الأمراء .. ولا سيادة الحكام .. ويعلن أن الثورة ثورة بناء وثورة تعمير .. لأحسست فى نفسك بمثل ما أحسست ، ولأفعم صدرك يا « نادية » ما أفعم صدرى من أمل فى أننا عن قريب سنصبح شعباً عظيماً .. ».

وهزت « منى » رأسها وقالت جادة :

ـ اسمعي .. عندما تكتبين الرد .. وجهيه مباشرة إلى « جمال عبد الناصر ».. لأن نصف رسالته من خطابه .. وأعتقد أن « جمال » أولى بالرد .

وردت « نادية » قائلة :

ـ إن « جمال » هو الذى يتحدث بلسان الشعب ولهذا يحس كل فرد بأنه هو المتحدث .

ـ اسمعي .. اسأليه .. باختصار .. متى ينوى أن يقول إنه يحبك ؟

ـ لا تسخرى منه يا منى .. إن لديه آمالا كباراً .. وبه وبغيره ممن تمتلىء قلوبهم بهذه الآمال ، سيتحدد مصير مصر ، وتتحقق حريتها .

وهزت « منى » رأسها وقالت :

ـ ربما .

ثم أردفت وهى تغادر الحجرة :

ـ أستحضرين حفلة مدام كلود ؟

وأجابت نادية :

ـ طبعاً .

ـ إذن اعتذرى لها عنى .. لأنى أكره هذه الحفلات الجنائزية .

ـ لا تكونى سخيفة .. إنها سيدة رقيقة وهى تجاملنا فى كل مناسبة .

ـ لو ذهبت فسأقلب لها حفلها المحترم .. إلى حفل راقص .

ـ أؤكد لك أنها لن تتضايق .

ـ سأذهب على أن تذهبى معى لنلعب « تنس ».

ـ أنا متعبة يا منى .

ـ سأسمح لك بأن تصحبى معك شريكا .

ـ من سيرضى أن يلعب معنا الآن ؟!

ـ صاحبك .. الذى قررت أن تدعيه إلى كل رحلاتك ونزهاتك . ألم تسأليه أن يدعوك إلى لعب الكروكيه ؟!

وضحكت « نادية » قائلة :

ــ ولكن لم يدعنى بعد .

ــ ادعيه أنت إلى « ماتش تنس ».. وسيستحى هو ويدعوك إلى الكروكيه .

وضحكت « نادية » .. ودب النشاط فى جسدها ، وهى تتخيل مدحت يسير بجوارها وقد أمسك بمضرب التنس .

وقالت وهى تنهض :

ــ معك حق .. سأريه كيف تكون الدعوة .. فى الأوهام ، بين السطور والكلمات ، حتى يتعلم كيف يدعونى .

وتناولت الفتاتان قطعتين من « الساندويتش » ثم أنطلقتا إلى النادى القائم عند المنحدر .

وفى المساء كانت « نادية » قد خلت إلى نفسها فى حجرتها ، وقد ساد السكون إلا من نباح متقطع للكلب الرابض بجوار حجرة « بول ».. وصفير الريح ، تقطعه طرقات شباك لم يحكم غلقه .

وجلست « نادية » أمام منضدتها الصغيرة التى تستعملها للكتابة ، وأزاحت الزهرية التى وضعت بها ثلاث قرنفلات جانباً ، حتى تفسح مجالا للكراسة الزرقاء وأعادت تلاوة رسالة مدحت .. وأخذت تزن فى رأسها كل كلمة منها .

ثم بدأت تكتب وبنفسها شعور الرهبة الذى يتملكها كلما همت بالكتابة إليه .. والذى يدفعه فى نفسها إحساسها بأن على كل رسالة تكتبها يتوقف مصير هذا الأمل الذى شع فى حياتها .

ونظرت إلى كلمة « عزيزتى » التى بدأ بها رسالته .

إن لها وقعاً حالماً فى سمعها .. إنها تشعر بالأثر الذى تركته فى نفسه .. والمدى الذى قطعته علاقتهما معاً ، فى تلك الرسائل الأربع .. ولكن هل تستطيع هى أن تناديه .. كما ناداها ؟!

بودّها لو استطاعت أن تفعل ، ولكنها لا تجرؤ .

إنها تحس بأنها تتجاوز حدودها لو فعلت .

تحس بأنها .. قد طمعت .. وتخشى أن يفقدها الطمع ما جمعت . كما يقول المثل .

وبلا إرادة .. خط قلمها « سيدى العزيز » .

وأحست للنداء .. بشىء من ارتياح .

أجل .. إن فى هذا الكفاية على الأقل هذه المرة .

وتمهلت لحظة ، ثم اندفع قلمها على الورق محدثاً صاحب الرسالة :

« كيف حالك .. وحال مرضاك .. وعملياتك وطلبتك ؟!

« أتسمح لى أن أنتشلك من بين هذا كله .. لأصحبك فى جولة سريعة فى بلدنا الصغير .. لا تقل ليس لديك وقت فأنا أعرف أنك تستطيع اختطاف بعضه .. للنادى .. وللكروكيه .

« دعنا اليوم من النادى ، وهيا بنا ننطلق بين المزارع ، ثم ننحدر على السفح وندفىء نفسينا ببعض ضربات «تنس »، ثم نذهب إلى منزل مدام كلود .

« من هى مدام كلود .. ألم أحدثك عنها أبداً ؟

« لا بأس .. إنى لم أحدثك عن شىء بعد .. لم أحدثك إلا عن نفسى ، وحتى حديثى عن نفسى لم يتعد لجلجة الخائف الوجل .. وارتباك المستحى المعتذر .

« سأحدثك عن أشياء كثيرة فيما بعد .

« ليس الآن ، لأنه لم يعد لدينا وقت .. إن « منى » تستحثنا وتصيح بصوتها الصاخب من أسفل السلم :

« منى .. من ؟ حتى هذه لم أذكرها لك .. عجيبة !! إنها أختى التوءمة الملاصقة لى .. منذ أن رأينا النور سوياً حتى الآن

« كان يجب أن أقدم لك نفسى بطريقة خير من هذه وأن أعرفك على الأقل

بهؤلاء الملاصقين لى : أمى الحنون الصامتة ، وجدتى الطيبة .. المترثرة ، وجانيت قريبة أمى .. التى تعيش معنا .. وبول العجوز .

« كان يجب أن أعرفك بكل هؤلاء .. وأن أعرفك كيف أعيش ، وأن أصف لك « جاب » التى أعيش فيها .. وأصف لك القمم البيض .. والمياه المنحدرة والأشجار المتكاثفة على سفح الجبل ، والبحيرة المنبسطة أعلى القمة ، والشمس المشرقة على المنحدر .

« أشياء كثيرة كان يجب أن أحدثك عنها ، قبل أن أندفع فى دعوتك معى كالبلهاء ، ولكننى لم أفعل .. قد يكون عذرى اعتقادى أنك تعرف كل هذا ، لأننى أعرف كل شىء عنك.أعرف هؤلاء المحيطين بك .. أعرف هؤلاء الذين يلعبون معك الكروكيه .. أعرف صديقك « جاد الله » الذى أرجح أنه هو بعينه صاحبك الذى قلت عنه فى رسالتك : إنه يحتفظ بصورتك .. حتى « ميرفت » خطيبتك أعرفها .

« أعرف كل هذا ، لأنى كنت أجلس أرقبك فى صمت من بعيد .. وأنت لا تشعر بوجودى ، وقد توهمت أنك تعرف عنى ما أعرف ، واندفعت أدعوك لصحبتى ، ناسية أنك لا تعرف عنى إلا بضعة الأسطر الوجلة التى بعثت بها إليك فى رسالتى .

« عذراً .. سأعرفك بكل هذا ، إذا أردت أن تعرفه طبعا . .. وإذا لم أثقل عليك به .. أما الآن .. فليس لدينا وقت .. هيا بنا .. إن « منى » قد بدأت تسب .. وهى إن لم تكن تعلم .. وقحة .. قليلة الأدب .. لا تتحفظ كثيراً فى ألفاظ سبابها ، وأخشى أن يصيبك منها ، ما يغضبك .. هيا بنا .

« هل المعطف معك .. إن الدنيا برد ، برد أكثر مما تتصوّره . ارتده ، فأمى لن تسمح لك بالخروج ، دون أن ترتديه ، ستلقاها فى القاعة أمام المدفأة ، هى وجدتى ، وجانيت وسيحاولن استبقاءك بالطبع للجلوس معهن أمام النيران ، ولكن دعهن وانطلق بسرعة من الباب .

« لا تخش من بول .. إنه لطيف .. ولن يعضك .

« أنا أعنى « بول » الكلب طبعاً ، وليس « بول » الخادم ، وإن كنت لن تستطيع أن أن تفرّق بينهما كثيراً .. لا شكلا ولا موضوعاً ..

« هل تعجبك هذه القرنفلة البيضاء التى تترنح على عودها ؟ سأقطفها لك .. إنى أحب القرنفل جداً .

« أنت لا تهتم كثيراً بالزهور .

« أكاد أعرف عنك هذا .. ليس لديك وقت لتأملها والتفكير فيها !!

« إنى لا أقرّك على هذا .. إن فى حياتنا أشياء كثيرة ، صغيرة .. تستحق أن نتوقف أمامها ونتأملها .. لا يجب أن نُركز حياتنا فى عمل معين ، نرى كل شىء تافهاً بجواره ، لأن حياتنا هى فى ذاتها ، مجموعة تفاهات .

« هل أتفلسف عليك ؟!

« أنت بالطبع تكره الفلسفة .

« أنا أيضاً لا أحبها ، ولكنى فى بعض الأحيان ، أحب أن أفكر ، ثم أعبر عن تفكيرى .

« هيا بنا .

« ما رأيك فى « منى » ؟

« إنها لطيفة جداً .. ومضحكة جداً . وهايفة جداً .

« لا تأخذ على كلامها كثيراً .. وإذا شتمتك .. فصهين .

« إن البرد شديد القسوة .. أتحب أن نعدو ؟

« هيا بنا .

« قف .. هذا هو النادى .. ليس كبيراً بالطبع كنادى مصر الجديدة .. ولكنه لطيف جداً .. وبه مدفأة تشبه مدفأة نادينا .. أعنى المدفأة الكبيرة التى تتوسط القاعة القديمة ، وبه نافذة زجاجية عريضة كنوافذ الشرفة المطلة على النافورة .

« ولكن المنظر الذى نطل عليه .. أجمل كثيراً من النافورة .. سترى منها منظر الجبال تمتد أمامك بسفحها الأخضر وقممها البيض .. وسترى منها من الجانب الآخر أسقف المدينة بمداخنها وشريط سكة الحديد يمتد أمامك .

« ستبصر منها المدرسة التى أعمل بها أيضاً .. والسنديانة الضخمة القائمة بجوار المحطة .

« أتريد أن تبدل ملابسك .. هذه حجرة الرجال .

« لن أغيب عنك أكثر من بضع دقائق .. حتى أبدل ملابسى .

« سنلعب أنا وأنت فى جانب .. و « منى » والممرّن فى جانب آخر

« خذ بالك .. لا تعتمد علىّ كثيراً .. أنا لا أجيد اللعب . لا تترك لى إلا الكرات السهلة وإلا أضعت عليك المباراة .

« أجاهز أنت ؟ هيا بنا . إن البرد يكاد يجمد الأطراف . ولكن اللعب سيدفئنا وسنشرب الشاى أمام المدفأة بجوار النافذة الزجاجية التى حدثتك عنها .. أو إذا شئت نتجه رأساً ، إلى منزل مدام كلود .

« أتدرى .. أى سعادة أحس بها لصحبتك .

« لم يخطر على بالى قط .. أن لعب التنس يمكن أن يكون ممتعاً بهذا القدر .. لماذا تقطب وجهك هكذا ! أهى تقطيبة العادة .. لا .. لا فك عقدة وجهك .. يجب أن نضحك نحن الاثنان ما دمنا معاً .. أجل .. هكذا .

« هل تدرى أن هذه أول مرة أراك تضحك ؟

« ارم أنت السيرف .

« خذ بالك لا تتكل علىّ .

« لقد بدأنا نحس بالدفء .

« لقد تعبت .. بدأت ألهث .. هذا الممرّن الماكر .. يأبى إلا أن يقذف كراته عندى .

« إنى لا أكاد .. أصدها . » .

وأتكأت « نادية » بظهرها على المقعد ، ورفعت رأسها وحركت ذراعيها ، وهى تحس كأن اللعب قد أجهدها

وفجأة فتح الباب وبدت « منى » على الباب بالبيجامة وهى تتثاءب متسائلة :

ــ أما زلت مستيقظة ؟

ثم نظرت إلى الكراسة ، وإلى صفحاتها المليئة وتساءلت فى دهشة :

ــ أكتبت كل هذا ؟! أوجدت كلاماً تقولينه ؟!

وأسندت يديها على كتفى « نادية » وانحنت فوقها محاولة أن تقرأ ما كتبت ، وهى تقول محذرة :

ــ إياك أن تكونى قد كتبت له عن الدستور

وضحكت « نادية » قائلة :

ــ لا تخافى . إنى لا أحسن الظن به بهذا القدر

ــ ماذا كتبت له إذن ؟

ــ عباطات .

ــ كيف ؟

ــ لقد دعوته لمرافقتنا إلى نزهة .

وضحكت « منى » قائلة :

ــ ما شاء الله .. ثم تتهميننى بعد ذلك بالهيافة .. أرينى ما كتبت .

وهمت بتناول الكراسة ، ولكن نادية أقبلت عليها قائلة :

ــ عندما أنتهى منها .

وكانت « منى » تجرى بعينيها بين السطور واستطاعت أن تلتقط اسمها .. فهتفت قائلة :

ــ ماذا قلت له عنى ؟!

ثم أخذت تقرأ :

« ما رأيك فى « منى » ؟ إنها لطيفة جداً .. ومضحكة جداً .. وهايفة جداً ».

وصاحت « منى » وهى تمسك نادية من عنقها :

ــ أنا .. أنا الهايفة ؟. أنا التى أدعو الناس فى القاهرة ، كى يلعبوا معنا « تنس » فى « جاب » !

ثم عادت تنظر إلى الكراسة لتقرأ :

« لا تأخذ على كلامها كثيراً .. وإذا شتمتك فصهين ».

وصاحت ضاحكة فى دهشة :

ــ ما هذا !! أجننت ؟

ــ ألم تشتميه !؟

ــ وماذا قلت عنى أيضاً ؟

ــ لقد لعبنا « تنس » .. أنا وهو ، وأنت مع المدرّب .

ــ وغلبتما ؟!

ــ طبعاً .

وضحكت « منى » قائلة :

ــ ولماذا لا تفعلين .. تستطيعين أنت وصاحبك الغشيم أن تتغلبا على أبطال العالم جميعاً .. ما دمتما تلعبان على الورق .

وربتت « منى » ظهر نادية وأردفت قائلة :

ــ عن إذنك . لا أريد أن أوقفك عن تكملة « الماتش » تفضلى .

وأجابت « نادية » ضاحكة :

ــ لقد انتهينا من الماتش .. ونفكر الآن فى الذهاب إلى مدام « كلود » أو فى تناول الشاى فى النادى .

وردت « منى » فى لهجة جادة :

ــ مدام كلود أرخص .. النادى سيكلفنا كثيرا .. وسيطير المبلغ الذى

ادخرته للراديو .

وضحكت نادية وهى تقول :

ـــ معك حق .. ليس لدينا وقت .. يادوبك .. مدام كلود .

وغادرت « منى » الحجرة وهى تهز رأسها قائلة :

ـــ أخشى عليك أن تُجنّى من هذه الدعوات الوهمية .. فقد تكفين عن الذهاب إلى المدرسة .. وتكتفين بدعوة المدرسة إليك .

وأغلقت « منى » الباب .. وعادت « نادية » تسترسل فى الكتابة .

وفى الصباح قبل أن تهبط للإفطار أعادت قراءة الرسالة .

وأحست بعد قراءتها أنها اندفعت ، فى كتابتها ، بطريقة حمقاء بلهاء ، وأمسكت بها بين أصابعها برهة وهى تهم بتمزيقها .

ولكنها .. بدل أن تمزقها .. طوتها .. ثم وضعتها فى الظرف .. ووضعت معها الصورة ذات الضفيرة .

ماذا تخشى .. بعد أن اندفعت كل هذا الاندفاع ؟!

إن المسألة برمتها ، حماقة كبرى .. فلم هذا التردد ؟!

إن الحماقات كلها تتساوى .

وخير لها أن تكون حمقاء شجاعة .. من أن تكون حمقاء مترددة .

وقبل أن تصل إلى المدرسة اتجهت إلى المحطة ومدت يدها بشجاعة .. ووضعت الرسالة فى صندوق البريد .. كأنها تقطع كل خيط للتردد والحيرة .

وبعد أربعة أيام .. كان الخطاب الأحمق ، قد انتقل من الصندوق المعلق فى محطة « جاب ».. ليستقر فى يد « زكية » الممرّضة .. وقد سارت تحمله إلى مكتب مدحت .. وقبل أن تصل إلى المكتب رآها « جاد الله » وهو يسير فى الممر ولمح فى يدها الظرف ذا الخطوط الحمر والزرق ، فصاح بها :

ـــ لمن هذا يا زكية ؟!

ـــ للدكتور مدحت .

وأمسك « جاد الله » الرسالة ووزنها فى يده ، ثم تحسسها بأصبعه .. وأحس بصلابة الصورة فى داخلها .. فاندفع إلى حجرة مدحت وهو يهتف به ضاحكاً :

ــ خذ .. أرنى شكلها بسرعة ، حتى أرى إن كانت تستحق كل هذه الهيصة .

ونظر إليه مدحت متسائلا فى دهشة :

ــ من هى ؟!

ــ صاحبتك .. ساكنة الألب .. افتح الرسالة بسرعة وأرنى شكلها

ــ وماذا يهمك من شكلها ؟

ــ لو كانت قبيحة . فسأخرب بيتها . لن أجعلك ترد عليها .

وضحك مدحت قائلا :

ــ ومن أدراك أن بها صورة ؟!

ــ افتح . وسترى .

وفتح مدحت الرسالة ، ومد أصابعه فسحب الصورة .. ونظر إليها .. وبدت على ملامحه علامات الدهشة ، ومضت لحظة ، وهو يحملق فيها دون أن يتكلم ، ولم يطق « جاد الله » فمد يده وخطف الصورة قائلا :

ــ ياأخى هات . مالك تنظر إليها كالأبله .

ونظر « جاد الله » إلى الصورة فى ذهول ، ثم هتف قائلا :

ــ يا بنت الإيه .

ثم صمت لحظة ، وهو يتأمل الصورة قائلا :

ــ جميلة جداً .. ولكنها صغيرة جداً .. غير معقول أن تكون هذه هى التى كتبت كل تلك الرسائل . إنها من كتابتها تبدو ذكية .. عاقلة .

وقلب « جاد الله » الصورة وقرأ التاريخ المكتوب عليها ــ نوفمبر ١٩٥٢ ــ وهز رأسه وعاد يتأمل الصورة قائلا :

ــ هكذا معقول .. إنها صورتها منذ ست سنوات ، لا بد أنها الآن نمت

واكتملت .

ثم سلم الصورة لمدحت ، وهو يردف قائلا :

ـــ حلال عليك يا عم . كنت ستضيعها بوجهك المعقد . عسى أن يثمر فيك .. خسارة فى جنتك .

ونظر إليه مدحت زاجراً ، وهو يقول :

ـــ ما هذا السخف !! ما هذه التى هي خسارة فى جنتى ؟!

ـــ بنت كاللوز .. إن لها عينين هائلتين ؟!

ـــ ماذا تظننى فاعلا بعينيها يا غبى ! إنى أكتب إليها مجرد عطف .

ـــ مفهوم .. مفهوم .. إنه أحياناً ، يبدأ عطفاً .

ـــ ما هو هذا الذى يبدأ عطفاً ؟!

ـــ الحب يا أستاذ .

ـــ حب .. أنت مجنون .. أنا أحب .. فتاة تسكن قمم الألب ؟!

ـــ ولم لا ؟! البعيد يقرب .

ونظر إليه مدحت فى غيظ وقال له :

ـــ اسمع يا « جاد الله »، أنت تعرف أنك أنت الذى دفعتنى إلى الرد عليها .. فإذا أصررت على هذه السخافات التى تقولها سأمزّق الرسالة والصورة .. مفهوم ؟

وضحك جاد الله واختطف الصورة والرسالة من يده قائلا :

ـــ أنت مجنون .. إنى أمزح . ما ذنب البنت المسكينة . أما مغفل صحيح

وأخذ جاد الله يقرأ الرسالة بصوت عال ، ولكن مدحت خطفها من يده ناهراً :

ـــ ما هذا أيها الغبى ! أتريد أن تلم علينا الممرّضات ، ماذا يقلنّ ؟!

ـــ لا مؤاخذة .. نسيت أنك راجل حشمة ووقور ومحترم .

وأخذ فى القراءة ، ومدحت ينظر إليه فى غير اكتراث وكأن الرسالة لا تهمه

حتى انتهى من قراءتها وسلمها إليه قائلا فى تأثر :

ــ بنتِ هايله .. تصوّر .. إنها تعرفنى ، وتعرف ميرفت . إنها لطيفة جداً وفى منتهى الذكاء .. وإن كانت أختها تبدو قليلة الأدب .

ــ أختها ؟

ــ أجل .. إنها دعتك إلى النادى وعرفتك بجميع أفراد العائلة . حلال عليك .

وتناول مدحت الرسالة وأخذ يقلبها بلا اهتمام وهو يقول :

ــ كلام فارغ ولعب عيال ، لن أجيب عليها الآن .

ــ أيها الغبى إن الرسالة فى منتهى اللطف ، والله لا تستحقها .

ــ إذا كنت تريدها فخذها .. اشبع بها .

ــ لو كانت ترضى أن أكتب إليها .. لفعلت .

ــ لماذا لا تجرّب ؟!

ونظر « جاد الله » إليه وقال له فى غيظ :

ــ اسمع .. اقرأ الرسالة أولا ولا تكن مغروراً . إن الغرور سيقتلك .. السلام عليكم .

وقبل أن يترك « جاد الله » الغرفة قال له :

ــ اسمع .. إنها تريد منك صورة كبيرة ، تضعها أمامها فى إطار .. وأنصحك أن تذهب من الآن لتصوّر صورة محترمة غير صورة المشردين التى أرسلتها إليها ، حتى لا تؤذى عينى البنت الرقيقة !! مفهوم ؟.

(٣٠)

رد على دعوة !

عندما غادر مدحت المستشفى ظهر اليوم كانت رسالة « نادية » ما زالت عالقة بذهنه .

لقد استطاعت الرسالة ، رغم تظاهره بالاستخفاف بها وادعائه بأنها عبط ولعب عيال .. أن تتسلل إلى نفسه .

لقد أحس بحرارتها ، وبساطتها وصدقها .

أحس بأنه يمسك يد صاحبتها ويعدو بها على المنحدر وسط البرد المتساقط ، وبأنه يصد عنها كرات « التنس » وبأنه يجلس بجوارها أمام المدفأة يحتسى الشاى .. وينصت إلى أصابع مدام « كلود » وهى تعزف البيانو فى دقات بطيئة متقطعة .. تنساب إلى النفس .

إنها حملته إلى جو روائى عجيب .. كذلك الذى كان يعيش فيه ، وهو يقرأ قصص « شارلس جارفس » فى صباه .

وأحس بأنه يتوق إلى أن يسمع أنغام « الفالس داديبه » الذى ينساب إلى أعماق الفتاة الشقراء ذات العينين الواسعتين والضفيرة المدلاة من وراء كتفها .

إنها تبدو صغيرة جداً فى صورتها تلك .

لماذا لم ترسل له صورة حديثة ليعرف كيف تبدو ؟ ولكن ما له بها !

لماذا يفكر فيها كل هذا التفكير .

لتبد كما تبدو !!

يجب أن يكف عن منحها مثل هذا الاهتمام ، وألا ينزلق معها إلى « عبطها » .. إنه لا يستطيع أن يكتب إليها بالطريقة التى كتبت بها .. إنه سيكون مضحكا جداً .. لو حاول أن يبادلها بدعوة .

ماذا يمكن أن يقول لها ؟ وإلى أى مكان يدعوها ؟

هل يستطيع أنِ يدعوها بنفس البساطة التى دعته بها ؟

يدعوها مثلا إلى « ماتش » سكواش .. ثم إلى الغداء فى النادى كما ينوى أن يفعل الآن ؟

هل يستطيع أن يقول لها .. لا تقلقى .. سأمر عليك بعد دقائق لأصطحبك معى إلى النادى .. ولا تتناولى الغذاء فسنتناوله معاً بعد الماتش .

لا .. لا .. لن ننتظر .. دعى « منى » تتناوله وحدها .

لتشتم وتنفلق .. إنى أعرف كيف أربيها ، عندما أراها .

وكان مدحت قد هبط إلى فناء المستشفى واتخذ مجلسه أمام عجلة قيادة السيارة وذهنه قد شرد فى دعوته الوهمية . وما يمكن أن يقول فيها .

هل يستطيع أن يصف لها الطريق ؟

لِم لا ؟

إنه حقاً .. لا يبدو رائعاً .. كالطريق الجبلى المنحدر . ولكن له خصائصه ، ومعالمه .

لِمَ إذاً لا يصفه لها .. بنفس الدقة التى وصفت بهاطريقها ؟لِمَ لا يعبر بها بوابة المستشفى وينحدر بها يساراً عند عسكرى المرور ؟

إن الجو ليس بارداً جداً .. لا يمكن بالطبع أن يصل للدرجة التى وصفت بها قمم الألب ، ولكنه مع ذلك بارد ، وكتل الغيوم السود تتزاحم لتقطع الطريق على أشعة الشمس .

هل تذكرين معالم الطريق .. أم أذكرك به ؟

هذا ضريح « أحمد ماهر » بقبته الضخمة المرتفعة ، والبناء العالى وراءه هو دار الشفاء ، وحول الضريح ينبسط المنتزه الصغير ذو الرقعة النجيلية الخضراء ، ازدحم بها أطفال ونساء العباسية .. واختلط النجيل الأخضر من حولهم بقشر « اليوسف أفندى » و « مصاصة القصب » .

أتحبين عصير القصب ؟!

إنى أحبه جداً .. وخصوصاً فى الشتاء .

سأتوقف بك عند أول بائع عصير . كوبتين من فضلك . ما رأيك فى لونه الكهرمانى ، وفى الرغاوى البيض التى تعلوه .. كأنها « الشمبانيا » ؟

لاتحبين الشامبانيا ؟! ولا أنا .. لا .. لا .. ولا أحب أى شىء به كحول .. أحب البرتقال والمنجة . والقصب ، والطماطم أحياناً .

أترين بائع « البطاطا » الذى يقف بعربته على الرصيف المقابل .. جلس على ذراع عربته والتف بالمعطف الكاكى ولف رأسه « بالتلفيعة » .. أترين الدخان المتصاعد من مدخنة الفرن ؟!

ما رأيك ؟

أتحبين منظره ؟. حقاً ؟!

وتحبين « البطاطا » أيضاً ؟

ولكن ليس هذا وقتها يا نادية لا داعى لأن تتخمى نفسك « بالبطاطا » قبل اللعب ، وقبل الغداء .

سأبتاع لك منها وقتاً آخر .. أى وقت .. لا داعى للهفة الآن .. لا بد أن نسرع إلى النادى .. حتى لا نجد الملاعب قد ازدحمت .

ما رأيك فى ميدان العباسية ؟! لقد تغير كثيراً .

هل مررت بالنفق ؟

إنه فى نظرى خير ما قامت به الثورة .. لى شخصيا .. لقد وفر علىّ ثلاثة أرباع وقتى وثلاثة أرباع أعصابى .

هل تصدقين أنى ما مررت بالمزلقان .. إلا وجدته مغلقاً !!

لقد ضربت خفير المزلقان ذات مرة

كنت على وشك أن أعبر المزلقان بالعربة عندما رن جرس المزلقان منذراً بمجىء القطار .

ولم يكن هناك أثر للقطار .. وكنت واثقا أنه لن يمر بالمزلقان قبل بضع دقائق ، فضربت « الكلاكس » للخفير علّه « يستذوق » ويتمهل فى إغلاق المزلقان حتى أمر ، ولكن الخفير نظر إلىّ باحتقار واستمر فى سحب المزلقان .

وصحت به أرجو :

— وحياة أبوك .. ثانية واحدة حتى أمر .

ونظر إلىّ الخفير ، ثم أشاح بيده بمنتهى الاحتقار قائلا :

— يعنى وراك إيه !! مجلس الثورة يا خى ؟!

ولم أطق صبراً ، وهبطت من العربة وأنا أغلى . ورفعت يدى وصفعته قلماً رن فى جميع أرجاء المزلقان . وقلت له ثائراً :

— ورايا .. أرواح الناس .. ورايا عملية .

ونظر إلىّ الرجل ، ولم ينبس ببنت شفة ، ووجدت عينيه تدمعان .. وبعد لحظة صمت قال لى :

— ما انا يا بنى كان ورايا أرواح ناس .. لو تركتك تمر .. لأضعتك وأضعت الأرواح التى تتعجل المرور من أجلها .

وهز رأسه وتمتم فى أسف :

— الله يسامحك .

وأحسست أن الرجل ردّ لى اللطمة مضاعفة ، وتملكنى ندم شديد على ثورتى وتسرعى ، ولم أعرف كيف أكفر عن ذنبى ، ومددت يدى فى جيبى فأخرجت خمسين قرشاً .. دسستها فى يد الرجل وأنا أقول :

— متأسف يا حاج .. متأسف جداً .

وانفرجت أسارير الرجل وقال وهو يبتسم :

— كتر خيرك يا بنى .. أنا خايف على أرواحكم .

وفى كل مرة كنت أمر بالمزلقان .. كنت أفقد ثلاثة أرباع وقتى .. أو ثلاثة أرباع أعصابى .. أو الاثنين معاً .

هل علمت سر إعجابى بنفق العباسية ؟!

هل أنا ثرثَار ؟

الثرثرة ليست طبيعتى ، ولكنى أجد فى نفسى ميلا إلى الثرثرة معك .

هل ترين جامعة « عين شمس » لقد كانت قصر « الزعفران » فيما مضى .

ماذا ؟! تعرفين كل هذا ؟

ظننتك لا تعرفين .

لا .. لا .. العفو .. لم أظنك سائحة أبداً ، إنما هى مجرد ثرثرة كما قلت .

وهذا بناء الأرصاد الجوية .. لقد قال إن الشمس اليوم مشرقة .. ويبدو أن بينه وبين الشمس ثأرا .. لأنها ترفض الشروق منذ علمت أن الأرصاد قد أرغمتها فى نشرتها على الشروق .

يبدو لى أن الأرصاد عندنا كقراءة الفنجان تتحدث عن الماضى .. أما المستقبل فهو فى علم الله .

على يمينك وشمالك .. كلها أبنية عسكرية .

أظن هذا هو سلاح الفرسان .. أما بقية الأبنية فلا أعرف عنها شيئا .. اللهم إلا المستشفى العسكرى .

فى هذا الشارع المتجه إلى المطار .. يوجد بيت الرئيس « جمال عبد الناصر » .

لا شك أنك تعرفين كل هذه المنطقة .. وتعرفين أيضاً الطريق إلى النادى .

ها قد وصلنا .

ما رأيك فى النادى ؟!

هل أصفه لك .. أم أنك تعرفينه خيراً منى ؟!

هيا بنا إلى الملاعب .

وكان « مدحت » قد وصل إلى الملاعب فعلا ، ووقف أمام منضدة الحجز وعندما سأله « بكر » :

ـــ ستلعب مع من ؟
كاد يقول له :
ـــ مع نادية .
من فرط ما شرد ذهنه طوال الطريق فى دعوته الموهومة .. ولكنه تدارك نفسه قائلا :
ـــ معك .. هل أنت فاضى ؟
ـــ فاضى يا دكتور .
وأبدل « مدخت » ملابسه .. واتجه إلى ملعب رقم واحد حيث وقف المدرب فى انتظاره ، وضمته جدران الملعب .. وهو مستمر فى تصوّراته ، يردد فى نفسه :
ماذا يمكن أن يقول فى دعوته لها للعب والغداء ؟
واتضح له أن هناك أشياء كثيرة .. يستطيع أن يقولها ، واتضح له أيضاً أنه لعب هذه المرة بطريقة أمتع .. وأنه ضحك كثيراً مع « بكر » .. وأنه لم يدخل الملعب بالتكشيرة إياها ، و لم يقض المباراة فى صمت و لم يغادر الملعب فى تجهم .
وانتهى من المباراة ، وهو يتصبب عرقاً فأسرع إلى الحمام ووقف تحت « الدش الساخن » يدلك جسده بيديه وهو يحس نشاطاً وسعادة .
يجب أن ينتهى بسرعة حتى لا يتركها تنتظر .. سيأخذها بعد الحمام .. إلى الشرفة الزجاجية .
كان يجب أن يوصى « الريس » بإعداد طعام فاخر شهى .
حقيقة إن معدته لم تعد تحتمل الطعام الشهى الدسم . فهى تكاد تهضم قطعة من اللحم المشوى مع الخضار المسلوق .
ولكنه اليوم يحس بشهية مفتوحة ، وهو يستطيع أن يهضم الزلط .. بدون رنى ، وبدون سترات .
أجل .. أجل .. يجب أن يتناسى معدته التالفة ويأمر « الريس » بأن يعد له

سمكة « بالمايونيز » ومكرونة بالفرن .. و « جنبرى » و « طبق فتة » بالكوارع والخل والثوم ، ويعد له طبق « كريم كرامل » .

هل تحبين الكريم كرامل »؟!

أنا أحبها جداً .

وأحب أيضاً الكميك قطايف بالقشدة ، رغم ما تفعله بمعدتى .

هل تصدقين أنى أكلت أنا وجادالله ذات مرّة بستين قرشاً كميك قطايف ؟ كنا نسير فى شارع قصر النيل .. ومررنا بالحلوانى عطبة .. قرب شارع شريف .. هل تعرفينه ؟

واقترح علىّ «جاد الله » أن أعزمه على « كميك قطايف » و لم أتردد .

ودخلنا المحل ، وطلب كل منا طلباً .. ونظر جادالله إلى طلبه وصاح بالبائع :

ــ القشدة مالها قليلة ؟

وانحنى البائع فى أدب وتساءل بابتسامة رقيقة :

ــ قشدة المحل كلها تحت أمرك يا سعادة البيه .. أتريد مزيدا من القشدة ؟!

ــ طبعاً .

وأخرج الرجل طبقاً من القشدة ووضع لى قطعة ولجادالله قطعة .

والتهم « جادالله » القشدة .

فعاد الرجل يتساءل بأدب :

ــ كمان يا سعادة البيه ؟.

وأجاب جادالله وهو يتلمظ :

ــ كمان .

وظل الرجل يضع القشدة ويتساءل : كمان ؟ .. وجادالله يلتهم ويقول : كمان .

وكلنا يعتقد .. أن القشدة ملحقة بالكميك قطايف .. وأنها جزء من الطلب الذى تناولناه ، والذى لا يزيد ثمنه بأى حال عن خمسة قروش .

وأخيراً غسلنا أيدينا ، وتناول كل منا كوباً من الماء المثلج ، وختم الرجل المهذّب حواره بيننا بالدعاء لنا « بالهناء والشفاء » . ثم قدّم لنا .. تذكرة الحساب بستين قرشاً .

ومن يومها .. وأنا أصر عندما أصحب جادالله معى ، أن أعرف بالضبط ثمن ما سيأكله قبل أن يفعل .

وبدأ « مدحت » يتناول طعامه .

طعام النادى العادى ، وحيداً فى الشرفة .

ونظر من النافذة الزجاجية إلى النافورة ، وإلى شجرة الكافور ، وسرعان ما حل أمامه منظر آخر .. جبال تمتد فى الأفق .. ذات سفوح خضر وقمم بيض ، وأسقف الدور الحمر المنحدرات ذوات المداخن .

و .. وماذا أيضا ؟

ماذا .. بعد كل هذه البلاهة والعبط ؟

منذ أن غادر المستشفى وهو يفكر فى الرسالة البلهاء ، وفى صاحبتها الطفلة الشقراء .. ذات الضفيرة .

أهناك جنون أكثر من هذا ؟

ماذا ينوى ؟ وفيمَ يفكر ؟

إنه يفكر فى أن يكتب إليها ، ويرد على دعوتها الوهمية . بدعوة مماثلة . بل لقد تصور ماذا يمكن أن تكون عليه الدعوة . بكل تفاصيلها وحذافيرها !

بل لقد دعاها فعلا .

إنه حتى الآن .. لم يفعل شيئاً بمفرده ، لقد صحبها فى كل ما فعل فى الطريق .

وفى ملعب الاسكواش .

وفى الغداء .

وأكثر من هذا .. قص عليها حوادثه ونوادره .

صفع خفير المزلقان قلماً ، وكيف أكل « كميك قطايف » هو وزميله

« الحيوان » بستين قرشاً .

أهذه أخبار تروى ، وحوادث تقص ؟

ماذا تقول عنه ، وهو يحكى لها كيف صفع خفير المزلقان قلماً ؟

متوحش .. أم همجى ؟

ثم ، يخبرها بعد ذلك أنه أكل بستين قرشاً « كميك قطايف » .

يعنى .. حيوان نهم .

لماذا لا يبحث عن شيء آخر فى ذهنه يمكن التفاخر به .. غير الخفير ، والتهام القشدة !

يحدثها مثلا عن عملية .. المعدة ، التى قطع ثلاثة أرباعها ؟ أهذا كلام ؟

إن الصبية ، سيغمى عليها قبل أن تكمل الرسالة .

أليس عنده أخبار .. ألطف من هذا !؟

ماذا ؟! أيخبرها عن نوادره مع الممرّضات ؟!

لقد ضرب إحدى الممرّضات بالأمس .. علقة ساخنة . عندما وجدها تسرق نصف اللبن ، وتخلط النصف الآخر بالماء ، ولمّا سألها أجابت عليه ببجاحة ، أنها قصدت أن تخففه ، لكى يسهل على المرضى هضمه

لا .. لا .. هذه فضائح لا ينبغى أن تروى ، ثم إنها تنتهى بأنه ضرب الممرضة علقة ، وهذا يؤكد وحشيته .

يجب أن يبحث عن شيء آخر .

ولكن لماذا يبحث .. إنه لن يكتب إليها شيئاً مما فكر فيه من سخافات .

سيكتب إليها رسالة مختصرة .. يشكرها على دعوتها . ويرجو لها الصحة ، ويتمنى لها أطيب التمنيات ، ويرجوها أن تبلغ سلامه إلى « منى » .

هذا أقصى ما يمكن أن يكتبه

أجل .. أجل

لن ينزلق .. إلى مثل هذا النزق ، والطيش .. عليه أن يكون متزناً .

ولن يرسل إليها صورة أخرى .

تكفيها جداً .. الصورة التى أرسلها إليها .

ليس لديه خير منها ، إنه ليس ممثل سينما .. حتى يجلس أمام المصور .. يلوى عنقه ويرفع وجهه ، ويفرج شفتيه ، فى ضحكة سخيفة بلهاء .

وغادر مدحت النادى ، وقد أقنع نفسه بكل ما قال . وفى طريقه إلى المستشفى قبيل الغروب .. لم يتجه إلى المستشفى رأساً بل استمر فى طريقة إلى المحطة .. ثم إلى ميدان مصطفى كامل .

وأوقف العربة . ثم هبط إلى الميدان ثم سار متلكئاً ، كأنه لا يبغى قصداً معيناً .. حتى وقف أمام باب علقت على يمينه بعض صور فوتوغرافية و كتب فوقها .. « أرمان » .

ونظر إلى الصور نظرة فاحصة .

ثم انثنى راجعاً إلى العربة ، وهو ينهر نفسه :

كفى سخافة .

وقبل أن يصل إلى العربة كان قد عاد إلى الباب مرة أخرى.سخافة .. لمه ؟

هل التصوير سخافة ؟

إنه سيصوّر .. لأنه لا بد له من ذلك .. لقد طلب النادى منه ثلاث صور .

فلم يجد غير هذه الصورة السخيفة التى تشبه الصور المعلقة فى قسم عابدين .

هل التصوير عيب ؟. أم حرام !

إنه لن يصوّر من أجلها !

أجل .. أجل .. لن يفكر أبداً فى أن يرسل إليها صورة .. إنه لم يبلغ من الحمق حد أن يصوّر من أجلها . كما طلب منه المغفل « جادالله »

سيصوّر من أجل نفسه .

إن أمه ، وأقرباءه ، يريدون أن يحتفظوا بصورة له .. و « ميرفت » أيضاً قد طلبت منه صورة .

دلف « مدحت » من الباب ، وقفز درجات السلم .

وبعد برهة . كان قد جلس أمام « الكاميرا » ، وقد أدار عنقه ورفع رأسه . وفتح فمه راسماً على شفتيه تلك الابتسامة البلهاء .. التى أصر عليها المسيو « أرمان » ، والتى يصر عليها كل مصوّر غيره .

وبعد بضعة أيام .. كانت الصورة .. تتخد طريقها بالطائرة إلى « جاب » داخل ظرف حوى رسالة طويلة .. كتبها « مدحت » فى ليلة .. خالية ساكنة .

وجلست نادية .. تمسك بالرسالة ، وتتحسس صلابة الصورة ، وتزن ثقل الأوراق التى بها .

وأحست بسعادة شديدة .. وهى تغلق باب مكتبها بالمدرسة ، ثم تتلفت حولها فى حذر خشية أن يكون هناك من يرقبها .. ثم رفعت الرسالة ، ومستها بشفتيها فى تبتل وعبادة ، كما تمس شفتا العابد أضرحة الرسل والأنبياء .

وفتحت الظرف ، وأخرجت الصورة بأصابع مرتجفة .. من فرط الفرحة .

ونظرت إلى الصورة ، وأجابت على ابتسامتها بابتسامة عريضة .

ومرة أخرى عادت تتلفت فى حذر وخشية .

ثم رفعت الصورة إلى شفتيها .. وقلبها يدق فى عنف ، ومضت فترة وهى تتأمل الصورة ، ثم تشرد ببصرها من النافذة .

وبعد أن تمالكت نفسها .. أخرجت الرسالة ، وبدأت فى القراءة .

وانهمكت فى القراءة .

والابتسامة تعلو شفتيها .

ابتسامة .. لا تلبث حتى تنقلب إلى قهقهة

لشد ما أحبت دعوته إلى الاسكواش ، وإلى الغداء .. ولشد ما أحبت وصفه للطريق .

ولشد ما استمتعت .. بكوب العصير الذى سقاها إياه .. إنها تحس « برغاويه » على شفتيها .

والبطاطا ! لماذا لم يشتر لها « بطاطا »

فى المرة القادمة ستصر على أن يشترى لها . إنها تحبها جداً ، ويمكن أن تؤجل تناولها إلى ما بعد اللعب ..

بل كان يمكن أن تأكلها قبل اللعب .

إنها على أية حال لن تفعل بها ما فعله به « الكميك قطايف » الذى أكله بستين قرشاً .

مرة أخرى .. وجدت نفسها تقهقه .

ولكنها قطعت القهقهة عندما أحست بالباب يفتح . وسمعت صوت مدام « كلود » يقول لها فى رقة :

ـــ ألا تنوين الرحيل يا نادية !! لقد مضى على وقت الرحيل نصف ساعة .

ودهشت « نادية » .. فقد سرقها الوقت ، وهى منهمكة فى الصورة والرسالة .

لقد قرأت الرسالة .. أكثر من خمس مرات .

وعندما هبطت إلى الفناء ، وجدت « منى » تهم بالصعود إليها قائلة :

ـــ ماذا أخرك إلى الآن ؟

وأجابت نادية فى عجلة :

ـــ شغل .. كان عندى شغل كثير .

وضحكت « منى » قائلة :

ـــ يا كذّابة .. إن فى وجهك .. أنباء مثيرة لطيفة .. قولى الحق .. شغل .. أم رسالة حلوة ؟!

وأخرجت « نادية » الرسالة من جيبها قائلة ، وهى تضحك :

ـــ رسالة حلوة جداً .. جداً

واختطفت « منى » الرسالة ، ثم أخرجت الصورة ونظرت إليها قائلة فى دهشة :

ــ ما شاء الله .. أخيراً ، بدا كالبنى آدم .

ــ وماذا كان يبدو من قبل ؟!

ــ كالثيران التى تتأهب للمصارع .

ــ مجرمة .

وعادت « منى » تتأمل الصورة ضاحكة ، وهى تقول :

ــ وما له يبتسم هكذا !. مبسوط !!

ثم فتحت الرسالة ، وهالتها الصفحات المزدحمة بالسطور .فتساءلت فى دهشة :

ــ كل ذا كلام ؟! لقد « تدردح » جداً .. ماذا يقول لك ؟

وألقت على الصفحة الأولى نظرة عابرة .. فاصطدمت عيناها بكلمة « البطاطا » فصاحت فى دهشة :

ــ « بطاطا » .. يخرب بيته .. أيصح أن يذكر سيرة البطاطا ، فى رسالة غرام ؟!

وخطفت « نادية » الرسالة من يدها قائلة فى نهر :

ــ من قال إنها رسالة غرام ؟!

ــ أمال رسالة إيه ؟! رسالة ، فى « شوى البطاطا » ؟!

وهزت « منى » رأسها مستمرة فى سخريتها الضاحكة وقالت :

ــ الله يكون فى عونك .. واحد يحدثك عن الدستور .. والثانى عن البطاطا .. من صبرى لمدحت يا قلبى لا تحزن

وقالت نادية غاضبة :

ــ الحق علىّ أنا التى أريتك الرسالة .. آخر مرة أطلعك على شىء .

ومدّت « منى » يدها فلفتها حول كتفى نادية وضمتها إليها قائلة :

ــ أغضبت ؟! إنى أضحك يا عبيطة .. هاتى الجواب .

وأخذت الرسالة وقبلتها قائلة :

ــ أموت فى البطاطا ، وبياعين البطاطا !

ثم وضعت كفيها على خدها مثل بائع البطاطة ، وهو يهتف :

ــ معسله قوى يا بطاطا .

وصاحت بها نادية :

ــ كفى عن هذا .. ماذا يقول الناس عنك فى الطريق .

ــ الذين سيفهمون العربى .. سيعرفون أنى أنادى على البطاطا ، والذين لا يعرفون .. سيظنونني أغنى .

وألقت « منى » نظرة على نهاية الرسالة فإذا بها ملحوظة يقول فيها مدحت :

« أرسل إليك صورة أخرى لى ، كما طلبت .

« ولا شك أنه يسعدنى .. أن أتلقى منك .. صورة أخرى » .

وهزت « منى » رأسها ، وهى تقول :

ــ مشكلة .. هل لديك صورة أخرى ؟!

ــ لدىّ « ألبوم » صورنا القديم .. أستطيع أن أرسل إليه ما شاء من الصور .

ونظرت « منى » إلى وجه « نادية » ، وإلى الإيشارب المحيط به ، وتملكها إحساس بالعطف عليها والقلق من أجلها ،

ولكنها أخفت مشاعرها بضحكة مرحة وجملة مازحة هاذرة

(٣١)

لن يراها ..

استمرت الرسائل بين « نادية » و « مدحت » .. تحمل دعوتهما الوهمية .. وصورهما المتبادلة ، وحاول « مدحت » فى أول الأمر أن يوهم نفسه ، أنه يباشر عملية ..إحسان ، وشفقة .. دفعته فيها الظروف

ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه قط من شعور المتعة الذى يغمره كلما تسلم رسالة من « جاب » .. أو كلما جلس ليكتب إليها رسالة .

وكانت العملية — عملية تبادل الرسائل — من أنسب عمليات المتع الحسية لطبيعة مدحت .. فهو مخلوق رقيق فى باطنه .. وإن كان يكسو رقته بمظهر عبوس متجهم يحاول أن يكتسب به هيبة فى عمله ، واحتراماً ممن حوله .

كان مظهره الجاد يقف حائلا أمام مشاعره الرقيقة .. وكان يكره أن يبدو محباً ودوداً .. إلا فى ضيق الدوائر المحيطة به ، والتى لا تتعدى .. صاحبه « جاد الله ».

ومنحته الرسائل .. دائرة أضيق .. ينفس فيها عن طبيعته المرهفة المحبة .. دائرة لا يكاد يكشفة فيها أحد .. سوى نفسه .. ومخلوقة مجهولة .. شبه وهمية .. تسكن فى أعالى جبال الألب .. كأنها إحدى أميرات الأساطير .

ومع ذلك فقد كان يصيبه أحياناً نوع من الحذر فى كتابته ، عندما ما يتذكر نفسه ، ومظهره .. وجدّه .. ويتذكر العملية العجيبة التى ينغمر فيها ، والكائنة — غير الكائنة — التى يصادقها ويمزح معها ، ويدعوها لمرافقته .. فى ثلاث أرباع نزهاته ، والتى يطلعها ببساطة على خبايا نفسه .

لقد استطاعت « نادية ».. أن تكتسب ثقة المخلوق الحذر المنطوى .. بصدق مشاعرها ، وإخلاص دعوتها .. وبساطة حديثها ، وأكثر من هذا .. بمقرها

النائى ، وعواقبها المأمونة ، وخطرها البعيد غير المحتمل .

وبمر الأيام .. أصبحت رسائلها .. شيئا حيوياً ، فى حياة « مدحت »، واحتلت قراءتها .. والرد عليها .. مكاناً من وقته .. يتساوى فى الأهمية .. مع عملياته ، ومحاضراته ، وبقية الأعمال الرئيسية التى تتركب منها حياته .

ورغم محاولاته المتعالية المترفعة فى صد مشاعر الحب من التسرّب إلى تفكيره وبالتالى إلى كتابته ، ورغم تأكيده لنفسه ، المرة .. تلو المرة .. أن العملية كلها لا تعدو .. عطفاً على غريبة نائية .. لا يحس لها بأكثر من إحساس الأخت الصغرى .

رغم كل هذا .. لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يؤكد لها ذات مرة ، وكأنه لا يقصد شيئاً .. أن « ميرفت » ليست خطيبته ، وأنه لم يكن بينهما أكثر من صداقة عابرة .

و لم يستطع كذلك أن يمنع إصراره على وقف تلك العلاقة المعلقة بينه وبين « ميرفت »، وعائلتها ، وأن يفهم جاد الله .. باختصار .. أنه لا يفكر فى الزواج أبداً وأنه فى غنى عن خدمات أبيها سواء أكان عميداً للكلية .. أم مديراً للجامعة ، أو حتى رئيساً للوزراء .

وأكثر من هذا .. لم يستطع أبداً ، أن يمنع نفسه من التفكير فيها ككائن حقيقى .. موجود .. لايمنع بعد مقرها من احتمال لقائها .

و لم يستطع أيضاً .. أن يمنع لهفته على صورها ، وضيقه عندما يحس من خفة الظرف .. خلوه منها .

وأخيراً لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يكتب إليها .. فى نهاية إحدى رسائله .. بعد أن انتهى من دعوته لها إلى جزيرة الشاى بحديقة الحيوانات :

« نادية .. أرسل لك مع رسالتى هذه صورة التقطها لى — وكنت أود أن أقول لنا — ولكن الظاهر .. أن الكاميرا لاتتسع عدستها .. لتصوراتنا ، ورغباتنا — التقطها لى مصوّر من مصورى الطريق .. أتعرفينهم ؟ هؤلاء الذين

يلتقطون لك الصورة ثم يقذفون لك بالتذكرة .. ويفرون هاربين

« لقد التقطها لى وأنا أجلس فى الجزيرة .. فى نفس المكان الذى دعوتك إليه ، والذى تناولنا الغداء فيه .

« ما رأيك فى الأشجار المحيطة بنا ؟ وفى البط السابح فى البحيرة !!

« ترى .. البحيرة .. هنا .. تشبه بحيرتكم ؟!

« لماذا لا ترسلين إلى صورة لك ، وأنت فى إحدى نزهاتك .. أعنى فى إحدى نزهاتنا ، على الأقل ، حتى آخذ فكرة عن هذه الأماكن التى تصحبيننى فيها .

« ترى .. « جاب » قد خلت من المصوّرين الخطافين ؟!

« وإذا كانت قد خلت .. أليس عندكم مصوّر . فى محل .. يستطيع أن يلتقط لك صورة حديثة !

« ألم تلاحظى أن كل صورك التى أرسلتها لى . قد مضى على أحدث صورة منها مالا يقل عن ست سنوات !

« هل من ذلك .. أن « موضة » التصوير قد بطلت ؟

« أم أن التصوير قد أضحى .. مسألة .. عيب ؟

« أم أفهم أن بلدكم قد خلا من المصورين !

« أم مفروض علىّ .. ألا أعرفك .. وألا أعرف شيئاً عن ملامحك بعد الثانية عشرة ، وأنك قد أخفيت نفسك بعد هذه السن تحت « التزييرة » وخلف « البرقع » .. فلم يعد يرى لك وجه أو تبصر لك صورة !

« أيتها . المتمنعة المحجبة .

« أيها الشبح المختفى .. منذ الثانية عشرة .. « اظهر وبان عليك الأمان » اختشنى ، وأرسلى صورة حديثة ، لأعرف على الأقل كيف تبدين الآن .

« وحتى أحس وأنا أصطحبك فى دعواتى أنى لا أمسك فى يدى صبية صغيرة ليست فقط لم تتعد الثانية عشرة .. بل تأبى أن تتعداها .

« إنى فى انتظار الصورة .

« صورة .. بلا ضفائر ، ولا « فيونكات ».

« صورة .. أستطيع أن أدعو صاحبتها .. إلى الأوبرا ، دون أن أخشى من نومها وسط السهرة ، ودون أن أعود بها محمولة على يدىّ .. أو على كتفى ».

وهكذا لم يستطع « مدحت » .. رغم ما به من تؤدة ، واتزان ، وعقل .. أن يمنع لهفته .. على أن يعرفها كما يجب أن تعرف ، وأن يقربها إلى ذهنه كواقع .. كشىء يعرف سماته وملامحه كما هو كائن .. لا كما يتوهم أن يكون .

ووصلت الرسالة إلى « نادية ».

حملتها إليها « منى » فى يوم من أيام أبريل ، وقد استلقت « نادية » فى فراشها تستريح من وعكة برد أصابتها ، ومنعتها من الذهاب إلى المدرسة .

وكان الربيع قد بدت طلائعه والثلوج قد أخذت فى الذوبان وانحدرت مياهها من أعالى الجبال .. متدفقة فى أخاديد السفوح .. وبراعم الأوراق الخضر قد كست الأغصان التى عراها الشتاء ، وزهور أشجار الفاكهة قد كللت فروعها بألوانها البديعة ، و « نادية » تجلس على فراشها ، وقد أطلقت بصرها متنقلا بين قمم الجبال فى أقصى الأفق والسحب المتتابعة على قرص الشمس تحجبه تارة وتخفيه تارة .. وهى تنصت فى لهفة إلى وقع أقدام « منى » تجتاز الممر الخارجى ، وتسمع صوتها طالبة الطعام .

ولم تطق « نادية » صبراً .. فنهضت من فراشها وأطلت من أعلى السلم صائحة :

— منى .

كان موعد الرسالة قد حل ، وكانت تعد ثمانية أيام من إرسال رسالتها ، ثم تبدأ لهفة الانتظار ، وقد حاولت اليوم الذهاب إلى المدرسة للتبكير فى تسلم الرسالة المنتظرة ، ولكن أمها أصرّتْ على منعها ، ولم تستطع « نادية » الإصرار على الذهاب .. لا سيما ، وهى تعلم أن حرارتها ما زالت مرتفعة ، وجَسدها ما زال

مجهداً .

ورفعت إليها « منى » وجهها من أسفل السلم ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامتها المرحة وتساءلت فى سخرية :

ـــ مالك مسروعة هكذا ؟

ـــ أريد أن أسألك .

ـــ عن ماذا ؟.

ـــ عن المدرسة .

ـــ مدام كلود تهديك أزكى السلام .

ـــ أهذا كل ما فى الأمر ؟

ـــ وجابى تسأل عن صحتك .

ـــ وبيتر . ؟

ـــ يسأل أيضاً عن صحتك .

ـــ فقط . ؟

ـــ وعن صحة جدتى .

وبدا الضيق على « نادية » وتساءلت فى صوت حزين :

ـــ ألم .. ألم .. يرسل لك شيئاً ؟

وهزت « منى » رأسها فى استخفاف متسائلة :

ـــ شىء ..؟ شىء مثل ماذا ؟

وهتفت بها « نادية » فى غيظ :

ـــ اسمعى .. كفى استعباطاً .. لماذا لا تصعدين إلى .. بدل هذا الصراخ من أسفل السلم !

وضحكت « منى » قائلة :

ـــ لا تشخطى هكذا .

ثم قفزت السلم صاعدة ، وهى تقول :

ـــ لو صبرت لحظة لصعدت إليك .

و لم تكد تصل إلى آخر السلم حتى مدت يدها فى جيبها وأخرجت الرسالة ، وهى تقول ضاحكة :

ـــ هاتى شلن أولا .

واختطفت « نادية » منها الرسالة ، وهى تقول مؤنبة « منى » وقد غمرتها الفرحة :

ـــ يا كلبة .

ـــ ومالك فرحة هكذا !! كأنك قد سلمت ألف جنيه . ترى أين دعاك هذه المرة ..؟

و لم تجب نادية فقد انطلقت عائدة إلى حجرتها .. لتنفرد بالرسالة ، وهبطت « منى » لتتناول طعامها .

وبعد برهة عادت إليها .. لتجدها قابعة فى الفراش والرسالة ملقاة فى حجرها ، وقد بدا عليها شرود حزين .

وهزت « منى » رأسها متسائلة ، وهى تقضم تفاحة فى يدها :

ـــ ماذا حدث !! كفى الله الشر ؟!

و لم تجب « نادية »، ومدت « منى » يدها تتناول الرسالة ، وهى تردف قائلة :

ـــ لعل الدعوة هذه المرة ليست على ما يرام .. أين ذهبتما ؟ إلى الأراجوز ..؟ لا بأس يا نادية .. نحن فى آخر الشهر ، وموسم العمليات قد كسد ..و ..

ورفعت « نادية » رأسها وقاطعتها قائلة :

ـــ اسمعى يا « منى ».. إن مدحت يريد منى صورة حديثة

ـــ صورة حديثة ؟!

ـــ أجل .. لقد لاحظ أن كل صورى قديمة ، وتساءل : لماذا أصر على إخفاء وجهى بعد الثانية عشرة ؟

وبدت الدهشة على وجه « منى » وتساءلت :

ـــ إخفاء وجهك .. هل .. تظنين ...

ـــ لا .. لا .. إنه فقط يتساءل .. وهو يريد صورة بلا ضفائر ، ولا « فيونكات ».

وضحكت « منى » قائلة :

ـــ معه حق .

وأطرقت « نادية » وتساءلت فى صوت خفيض يائس :

ـــ وما العمل ؟

ورفعت « منى » كتفيها ببساطة :

ـــ ولا شيء ! أهى معضلة ! تصوّرين .

وتساءلت « نادية » فى فزع :

ـــ كيف .. ؟

وردت « منى » بنفس البساطة التى تتحدث بها :

ـــ تذهبين معى غداً .. إلى المصوّر على الناصية أمام « الكوافير » .. ثم تسألينه أن يصوّرك .. وتقعدين أمام الكاميرا ، وتتركين الباقى عليه .

وصمتت « نادية »، وقد بدا عليها الوجوم واليأس .. ثم مدت يدها تتحسس الإيشارب الذى لا يفارق رأسها وعنقها وتمتمت كأنها تحدث نفسها :

ـــ كيف أقف أمام المصوّر .؟

ـــ كما تقفين أمامى .. وأمام أى مخلوق آخر .

ـــ وأظهر فى الصورة بالإشارب ؟

ـــ و لم لا ؟ إننا هنا فى عز البرد .

ثم صمتت برهة ، واستدركت قائلة :

ـــ وإذا لم تعجبك الصورة بالإيشارب ، فاخلعيه .

ـــ وأبدو فى الصورة كما أنا ؟!

ـــ لن يظهر شيء فى الصورة ، وإذا ظهر .. فستضيعه الرتوش .

ــ وكيف أقف أمام المصوّر .. بشكلى هذا ؟!

ــ وماذا يهمك من المصوّر .. إنه لن يخطبك .

وارتسمت على وجه « نادية » أمارات حزن عميق وقالت لمنى عاتبة :

ــ هل تظنين أنى أستطيع حقاً أن أخدعه بالرتوش الذى يصنعه المصوّر ؟!

ــ إنك لا تخدعينه يا حبيبتى .. إن هذا عمل المصور .. إن الندبة التى فى جبينى .. لا يتركها المصوّرون تظهر فى الصورة أبداً .. فهل تظنين هذه خدعة ؟!

ــ هل ندبة جبينك .. مثل حرق وجهى ؟!

ــ إذن تصوّرين بالإيشارب .. لن يكون به ما يدعو للعجب أبداً .. إنه إشارب وليس « ملاءة لف ».

وهزت « نادية » رأسها فى استسلام ، وضمتها « منى » إليها وهى تقول ضاحكة :

ــ وسأذهب معك لكى أصوّر أنا أيضاً .. إن عصام ما زال يصر على صورة حديثة يضعها فى حافظته .

وقبل أن تغادر « منى » الغرفة عادت تقول لها مؤكدة :

ــ اتفقنا ؟.. سنذهب للتصوير غداً !

وهزت « نادية » رأسها موافقة .

وفى اليوم الثانى .. كانت التوءمتان تطرقان باب المصوّر ، ونظر الرجل إليهما من وراء منظاره وتساءل ضاحكا :

ــ توءمتان ؟!

وأجابت « منى » ضاحكة :

ــ من أدراك ؟!

ــ الشبه .

وتساءلت « منى » وهى تنظر إلى وجهها فى المرآة المقابلة وتبتسم فى مرح :

ـــ أهي جميلة مثلي ؟

وضحك الرجل قائلا :

ـــ لو نزعت عنها الإيشارب ، وسرحت شعرها نفس التسريحة .. أعتقد أنه يكفيني أن أصوّر إحداكما ، وأخرج من صورتها عدداً كافياً لكلتيكما

وقالت « نادية » مازحة وقد بدد لطف الرجل ما تملكها من رهبة

ـــ إذن تصورين أنت نيابة عني .

وقال الرجل :

ـــ بل تصوّرين أنت نيابة عنها . إن وجهك أكثر طيبة .

وصاحت « منى » ضاحكةً :

ـــ هل يعني هذا أنني شريرة !؟

وأجاب الرجل :

ـــ حاشا لله .. إنها أكثر طيبة ، وأنت أكثر لطفاً

وقالت نادية :

ـــ وأنت أكثر رقة وأدباً .

ودفعتها « منى » أمامها وهي تقول :

ـــ هيا بنا .. فليس لدينا وقت لنتقارض المديح

وأشار الرجل إلى غرفة صغيرة وهو يقول لنادية :

ـــ تستطيعين أن تخلعي فيها الإيشارب وتعيدي تصفيف شعرك .

وهزت « نادية » رأسها في شيء من الخوف ورفعت يدها تحكم وثاق الإشارب على عنقها قائلة :

ـــ لا .. لا .. سأصوّر كما أنا .

ـــ برأسك مربوطاً هكذا ؟!

ـــ أجل .. أجل .

ـــ ولكنك ستكونين بدونه أجمل كثيراً .

وردت « نادية » فى إصرار وضيق :

ـــ إنى أفضل أن أكون هكذا .

وهز الرجل كتفيه قائلا فى استسلام :

ـــ أمرك .

وانتهى المصور من تصوير التوءمتين .. وبعد يومين ، كانت نادية تجلس فى مكتبها بالمدرسة ، وقد انتهت من كتابة الرسالة .. ووضعتها فى الظرف ، وأمسكت بصورتها .. تنظر إليها فى تمهل وإمعان ، وقد بدا عليها الضيق والقلق .

ترى .كيف ستبدو له الصورة !!

إنها تبدو بالإيشارب .. كاللاجئات ، والمهاجرات .

لماذا أصرت على ارتداء الإيشارب ؟

ولكن كيف تستطيع أن تصوّر .. بدونه ؟.. كيف تجرؤ ؟.

ألم تقل لها « منى » إن المصور كفيل بعمل ما يلزم من رتوش لإخفائه .. إذا ظهر ؟. ولكن ألا تكون تلك خديعة ؟

ألا تكون بذلك قد خدعته عن حقيقتها ، وأرسلت له وجهاً غير وجهها !

وهذه الصورة .. ألا تعتبر خديعة !

ألا تكون الخديعة .. إلا بالتغيير ، والتبديل ؟

والإخفاء .. ألا يعتبر خديعة ؟

أتعتبر الصورة ذات الإيشارب .. الذى أخفى ما بها من تشويه صورة حقيقية لها !

لماذا تورطت إلى كل هذا ؟

لماذا لم تقصر العلاقة .. على مجرد الرسائل ؟. لماذا زجت بها إلى تبادل الصور ؟

ألم تكن هى البادئة بطلب صورته !!

ماذا كانت تتوقع غير تلك النتيجة !

إنها جرؤت على الكتابة إليه .. لإحساسها بأمن البعد ، واستحالة اللقاء ، ولثقتها بأن الجانب المادى للعلاقة .. الذى قد يضطرها إلى عرض نقطة ضعفها وهو شكلها .. لم يعد له وجود .

ومع ذلك فهى تجد نفسها قد لفت .. لتواجه جزءاً من المشكلة التى ظنت أنها قد جاوزتها ، وأنه لم يعد هناك من سبيل لمواجهتها .

وهى مهما فعلت .. لا تستطيع أن تحلها إلا بالخداع .. بل إن ما فعلته حتى الآن يعتبر خداعاً .. بالتجنب ، واللف والدوران .. فكل ما أرسلته من صور لطفولتها كان تجنباً منها للواقع المرير .. واقع شكلها المشوّه .

وهى الآن تجد نفسها مضطرة إلى الاستمرار فى المزيد من الخداع ، بأية صورة من صوره .. وبأى شكل من أشكاله .

وإذا كان الخداع مسلماً به .. فلماذا لا تقدم عليه بصورة منصفة ؟!

لماذا تضطر إلى صورة الإيشارب التى تبدو فيها كاللاجئات والمهاجرات ، والخدم !؟

لماذا لا تصوّر بدون إيشارب .. وتسأل الرجل وهو كما بدا لها رقيق لطيف أن يقوم بعمل « الرتوش » اللازم ..

ومدت يدها لتتناول مجموعة ، وتقلبها بين أصابعها .

ووقع بصرها على إحدى صور « منى ».. بين صورها .

واستبقتها بين أصابعها تتأملها برهة .

كانت صورة جميلة .. رشيقة .. أنيقة فاتنة .. بدت بجانب وجهها وقد عقص شعرها فى صورة ذيل الحصان .. ليس بها شبه اللاجئات و المهاجرات .

أيمكن حقاً أن يكون هناك شبه بين الاثنتين .. وتذكرت ما قاله المصوّر :

« لو نزعت عنها الإيشارب ، وسرّحت شعرها نفس التسريحة أعتقد أنه يكفينى أن أصوّر إحداكما وأخرج من صورتها عدداً كافياً لكلتيكما ».

لو نزعت الإيشارب إذن .. فستبدو كهذه الصورة .. أنيقة ، رقيقة ،

أرستقراطية .. لماذا إذن لا تنزعه ؟

ولكن لماذا تنزعه ؟

لكى تحصل على صورة مماثلة ؟

ولماذا لا تأخذ نفس الصورة ؟

ألم يؤكد الرجل .. أنه يستطيع أن يصور إحداهما . ويخرج من الصورة عدداً كافياً للأخرى !

لماذا تتعب نفسها فى التصوير مرة أخرى !!

لماذا تفضح نفسها بخلع الإيشارب وبتسريحة الشعر .. ما دام أقصى ما يمكن الحصول عليه هو صورة أخرى طبق الأصل من هذه الصورة !!

ألم يقل هذا المصوّر نفسه !!

أليست المسألة من أولها خداعا فى خداع !!

فلماذا لا تقدم على ما يمنحها أطيب النتائج .. بأسهل الوسائل ؟!

هل تخشى أن تكتشف الخدعة ؟

متى ؟.. عندما يراها ؟

وهل تتصرف هى على أساس احتمال رؤيته لها ؟

إنه لو رآها لهدم كل شىء .

هل تخشى أن يكتشف الخدعة .. لو قارن الصور الحديثة بصورها القديمة ؟!

إن آخر صورة لديه منذ ست سنوات .. بالضفائر و « الفيونكات »

ومفروض أن تكون قد تغيرت فى السنوات الست .

ثم إن الشبه موجود .. كل من رآها يجزم بهذا ، ولن يشك أحد أن الصبية صاحبة الصورة ذات الضفائر .. ليست هى الآنسة صاحبة الصورة ذات ذيل الحصان بعد ست سنوات .

ولكنها ستكون خديعة كبرى .

وهل هناك فرق بين الخديعة الصغرى .. والخديعة الكبرى ؟!

وأمسكت صورة « منى » تتأملها . وتقارنها بصورتها ذات الإيشارب ..
وأحست بكره لصورة الإيشاربه ، وكره لما بها من تشويه يخفيه الإيشارب .
وبالسبابة والإبهام .. سحبت صورة « منى »، ووضعتها فى الظرف بجوار الرسالة .

إنها بلا جدال .. لن تخذله فيها !

وعندما يطلب صورة أخرى .. سترسل له صورة أخرى لمنى .

وكلما طلب صورة ستصور له « منى ».

ستصورها له بين الثلوج ، وعلى سفح الجبال ، وعلى شاطىء البحيرة .

وستشترى « كاميرا » بدل الراديو .. بالنقود التى جمعتها

أجل .. ستقوم هى بدور المصوّر الخاطف الذى يصوّر .. ويقذف بالتذكرة ، ثم يعود هاربا .

إن الخديعة تجر الخديعة .

ولن تكتشف خديعتها إلا إذا رآها .

وهو لن يراها .

(٣٢)

إنه يحبها

أمسك « مدحت » بالرسالة الزرقاء يتحسس بأصابعه الصورة الصلبة التى حواها الظرف ، وهتف « جاد الله » وهو يقف وراءه ويحس تردده :

ـــ افتح يا أستاذ .. أرنا آخر صورة .. لعلها تكون قد استحت .. وقصت ضفائرها .. وفكت فيونكاتها .

وفتح « مدحت » الظرف ، وأخرج الرسالة .. فسقــطت الصورة على المكتب .. وانطلق من شفتى « جاد الله » صفير طويل .. وصاح فى دهشة وإعجاب :

ـــ يا بنت الإيه !!

ولم ينبس « مدحت » ببنت شفة ، وأخذ ينظر إلى الصورة مأخوذاً .. ويتأملها ، وقد شرد فكره .

ومدّ « جاد الله » يده محاولا اختطاف الرسالة ، وهو يقول ضاحكا :

ـــ أظنك اقتنعت الآن أنها تستحق الكتابة .. ما رأيك ؟!

وتمتم « مدحت » قائلا ، وهو ما يزال ينظر إلى الصورة :

ـــ لطيفة !

ـــ لطيفة فقط .. إنى على استعداد لأن أذهب إلى قمم الألب من أجلها .. إنها هائلة .. ولكن ماذا كتبت هذه المرة ؟.. هل تعرف أن دمها خفيف جداً !

وأطبقت أصابع مدحت على الرسالة . ولم يدع « جاد الله » يتناولها منه بل أمسك بالصورة وأعادها إلى الظرف ، ثم وضع الظرف فى جيبه قائلا :

ـــ هيا بنا .

ـــ ألا تنوى قراءتها ؟!

ـــ بعدين .

وضحك جاد الله قائلا :

ـــ بعدين ؟.. أم هناك أسرار بينكما ؟! على أى حال ، حلال عليك .

و لم يجب « مدحت » وازدادت فى ملامحه علامات السرور فاستغرق « جاد الله » فى الضحك قائلا :

ـــ والله وقعت .. واللى كان ..كان .

ونظر إليه « مدحت » نظرة زاجرة وهتف به :

ـــ ما هذا السخف الذى تقول ؟!

ـــ أرهن أنك تحبها .

ـــ أنا ؟!

ـــ أجل أنت .

ـــ أحب ماذا ؟!.. أنت مجنون !

ـــ اسمع .. لا تدخل فى عبى .. وتكروتنى .. بذمتك ألا تتمنى أن تراها ؟!

ـــ يجوز .. من باب حب الاستطلاع .

ـــ جب الاستطلاع فقط ؟! أتعنى أنها تتساوى فى نظرك مع قوس النصر .. وبرج إيفل ؟!

وضحك مدحت وأجاب :

ـــ مع الفارق .. إن برج إيفل لم يكتب إلى ، و لم يرسل لى صورته .

وأردف جاد الله متمماً قول مدحت :

ـــ و لم يدعك فى لهفة .. و لم يخبرك أن حياته معلقة ، فى سطور منك .. و لم يلاحقك بالدعوات .. و لم يصحبك فى كل نفس يتنفسه .. أو حركة يتحركها .

وعاد السرور إلى وجه « مدحت »، وأردف « جاد الله » متسائلا :

ــ اسمع يا مدحت .. هل تشك أن الفتاة تحبك ؟!

ورفع كتفيه قائلا فى حيرة :

ــ تحبنى !.. كيف ؟!

ــ كما يحب الناس بعضهم .. ماذا تقصد بسؤالك كيف ؟!

ــ أعنى كيف تحبنى .. وهى لا تعتبرنى أكثر من وهم ، تحدثنى كوهم .. وتدعونى كوهم .. إنها لم تتحدث أبداً عن أى احتمال .. للقاء بيننا .. بل لم تبد لى أنها تأمل فيه .. أو تتمناه .. إنها تخاطبنى كما تخاطب الأرواح .

ــ ولكنها تعرفك جيداً .

ــ تعرفنى كشىء مضى ، ولكنها تتوهمنى كشىء آت.أتعرف كيف أحس من حديثها معى ؟!

ــ كيف ؟!

ــ أحس .. كأنى إنسان كان فى حياتها .. ثم خرج منها .. ولم يعد لها إليه من سبيل .. أحس كأنى ميت .. لا أمل لها فى لقائه .

ــ يا شيخ . « فال الله ولا فالك ». ما هذا الذى تقول !

ــ إنى أقول الحق .. إنها لا تتحدث أبداً عن أمل فى مستقبل . إنها تعاملنى ، باعتبارى شيئاً مستحيلا عليه أن يكون أكثر مما هو فى وهمها .. أتفهم ما أعنى .. إنها لا تأمل أبداً .. كما يأمل بقية الناس .. أنت تعرف أننا دائماً ، نأمل فى خطوة جديدة .. بعد كل خطوة نخطوها .. ولكن تبدو أنها قد جمدت آمالها عند حد معين .

ــ وهل تأمل أنت فى خطوة أخرى ؟!

وأحس « مدحت » أن « جاد الله » يتصيده ، فهز رأسه متسائلا وهو يحاول أن يمنح نفسه فرصة للتفكير :

ــ ماذا تعنى ؟!

ــ أعنى هل أنت نفسك .. تأمل فى خطوة أبعد ؟! هل تأمل مثلا فى أن

تراها .. وأن .. وأن ..

ـ ولم لا ؟!

ـ وماذا تأمل أيضاً ؟!

ـ آمل فى أن أصادقها .. وأن أحقق لها الدعوات الوهميه .. التى دعوتها إليها .

ـ وماذا أيضاً ؟!

ـ لست أدرى بالضبط .. ولكنى أحس أنى أود .. أن أجسدها أمامى .

ـ أنت واثق إذاً .. أنها شىء حقيقى ؟!

ـ طبعاً .

ـ وتخذلك .. أن تكون شيئاً وهمياً .. خدعة مثلا .. أو أكذوبة .

وبدت على وجه « مدحت » علائم الضيق والخذلان .. فأردف « جاد الله » قائلا :

ـ لا تكتئب هكذا .. أنا أقول مثلا .

ـ بالطبع أكره أن تكون أكذوبة .

ـ لقد باتت إذن شيئاً فى حياتك .. شيئاً واضح الملامح يشغل جزءاً من تفكيرك واهتمامك .

ـ أعتقد هذا .

ـ وإذا فقدته .. تحس أنك فقدت شيئاً ؟!

ـ لا شك .

ـ شيئاً عزيزاً ؟

ـ تستجوبنى ؟!

ـ أبداً .. إنما فقط .. أعرفك بمشاعرك .. أنت تضمر المسألة فى نفسك وترفض أن تحددها أمام عينك .. إنك تحبُّ الفتاة .

ـ كيف ؟!

ـ « تانى ! »

ـــ أعنى كيف أحب .. مخلوقة لم أرها .. مخلوقة كل معالمها .. مستمدة من السطور .. والصور .. هل يعقل أن يحب إنسان صورة .. ووصفاً ؟!

ـــ ولم لا ؟! إن الحب دائماً لا يكون إلا صورة ووصفاً .. نظل نحملها فى أذهاننا .. حتى نلتقى بأقرب الناس شبهاً بها وانطباقاً عليها .. فنرتمى فى أحضانه .. والفارق بين حالتك .. وحالات غيرك من المحبين .. أن المخلوقة وجدت ، أولا .. ثم رسمت فى ذهنك صورتها وأوصافها .. فإذا أحسست أنها قد لاءمتك .. وأغلب ظنى أنها لاءمتك فعلا ، فليس عليك إلا أن تمد يدك لتتناول الأصل .. إنها نعمة من الله أن أرسلها إليك ، لتوفر على ذهنك عملية خلق الصور والصفات التى تتمناها فيمن تحب .. إنك مخلوق ضعيف التصوّر .. باهت الخيال .. وكان يحتمل .. أن تستمر فى حياتك هكذا بلا شعور .. ولا حب .. لأنك أكسل من أن تفكر فيما تريد .. أو تحدده فى ذهنك وتصوّره لنفسك ، أليس هذا حقيقياً ؟!.. أجب !!

وهز « مدحت » رأسه .. وأجاب ضاحكاً :

ـــ أنت غلباوى .

ـــ وأنت حمار عنيد .

ـــ أنا !!

ـــ أجل أنت .. لماذا لا تعترف أنك تحبها ؟!

ـــ الله .. أما مجنون !! أحب من يا غبى .. إنها مخلوقة لطيفة .. أشفق عليها .. وأتسلى معها .

ـــ تتسلى ؟!

وهز « جاد الله » رأسه وأردف فى استسلام :

ـــ تتسلى .. تتسلى حتى تغرق لأذنيك .. ولا تجد من ينقذك .. مع السلامة يا أستاذ .. يا متسلى .

وافترف الصديقان .

وعندما عاد « مدحت » إلى حجرته فى « منشية الطيران » وتمدد على مقعده المريح فى الشرفة المطلة على المطار . ولاحت له أشباح الدور فى ضوء القمر الباهت تقطع خط الأفق وقد نتأت من بينها قباب « هليوبوليس بالاس ».. وبرج قصر البارون .. وبدت أشجار الكافور الضخمة .. بسور المطار ، ومن أسفل الشرفة تصاعدت رائحة زهر البرتقال الذى يملأ حديقة البيت .. تحملها نسمات مايو الدافئة لتشبع الجو بأريجها العطر .

ومرة أخرى عاد النقاش يدور حول .. ساكنة قمم الألب .. الشقراء المرهفة .. الرقيقة .. اللطيفة .. الذكية الحنون .. المحبة .. الودود .. ال .. ال .. التى لا يستطيع إلا أن يصفها بكل وصف طيب ، بلا مبالغة ولا تزيد .

عاد النقاش مرة أخرى يدور حولها .. المخلوقة التى لا يحدد وجودها سوى السطور والصور .. المخلوقة الكائنة بالوصف والرسم .

وفى هذه المرة كان النقاش ، بين مدحت ، وبين نفسه ، كان نقاشاً .. أصرح .. وأجرأ .

أهو حقاً ، يتسلى معها ، ويشفق عليها ؟!

جائز .

محتمل أن يكون هذا .. هو بعض ما يفعله معها ، ولكنه قطعاً ، ليس كل ما يفعله .

إنه يمارس معها عملية تسلية ، وشفقة .. ولكن هذا قد أضحى ضمن عملية .. أعم وأشمل .

قد تكون المسألة .. بدأت شفقة ، وامتدت تسلية .

ولكن الشىء المؤكد ، أنها لم تنته ، إلى هذا فقط .

إن هذه المخلوقة ، الرقيقة ذات العينين المتسعتين ، والشعر الذهبى .. المسترسل فى جدائل ، أو المعقوص على شكل ذيل الحصان ، قد أضحت — كما استدرجه جاد الله — جزءاً من حياته .

جزءاً .. فقط !!

إنه لم يحس باهتمام لمخلوق ، قدر ما أحس لها .

وهو يستحمق نفسه .. وقد يخجل أن يظهر هذا الاهتمام أمام أحد ممن حوله ، ومع ذلك ، فهو لا يستطيع أن يمنع نفسه منه .

وهو يسلم به لنفسه ، كنوع من أنواع الشذوذ ، الذى يحاول دائماً أن يلصقه بنفسه ، والذى يؤكد عنه من حوله .

إنه يعتبر شذوذاً من نفسة ، أن يمنح كل هذا الاهتمام ، وهو الإنسان المفروض فيه الترفع عن مشاعر الحب .. وغير هذا من السخافات — لإنسانة — أقرب وصف يمكن أن توصف به .. أنها غير كائنة .

إن أحداً .. من كل من حوله ، من معارف أو قريبات أو صديقات .. لم يستطع أن يستحوذ منه على مثل هذا الاهتمام .. أو التفكير

ولكن هذه المخلوقة قد استطاعت . وهى قد تسرّبت إلى نفسه .. لتكون جزءاً هاماً من حياته .. ومشاعره .. وتفكيره .

اعترف بهذا .. أم أنكر .. سلم بهذا أم خجل .

واهتمامه بها كان فى مظاهر ، إن أخفاها عن الناس ، فمن العبث أن يحاول إخفاءها عن نفسه ..

لهفته الشديدة على رسائلها .. وإحساسه الممتع بدعوتها واستغراقه معها فى كل ما تذهب إليه أو تعيش فيه ، ثم .. استمتاعه بالرد عليها وبدعوتها إلى كل ما يذهب .

بل أكثر من هذا ، يقينه بأنه قد بات يلبى دعوات السهرة والولائم من أجلها هى ، لكى يصفها لها .. ويمتعها ، ويسليها .

وهو يتصوّرها تصحبه فى كل ما يذهب إليه .

وأخيراً يتبلور كل هذا فى إحساسه بأنها باتت مخلوقة حية .. قريبة من نفسه ، وبأن لقاءها ، قد أضحى شيئاً محتما .. إن لم يحدث اليوم ، فسيحدث غداً ..

أو بعد الغد .

ومع ذلك ، فإن شيئاً من كل هذا لم يخرج عن دائرة تفكيره و لم يحاول أن يفصح لها عنه ، ولا حاول أن يبديه لأحد ممن حوله .

وجلس يكتب إليها ليلتذاك .. يصف لها مجلسه ، ويحمل إليها أريج البرتقال ، مع نسمات مايو الدافئة ، وينبئها بأنه قضى أول أمس يسير معها فى شوارع القاهرة .. محاولا شراء أسطوانتها المحببة ، « فالس الوداع » لشوبان .. والتى لا تفتأ تصف له دقاتها المنسابة .

ووصف لها شارع « عدلى » ودخولهما محل « بابازيان » وافتقاد الأسطوانة ، ثم المشوار الذى ساراه سوياً إلى شارع « سليمان » حيث دخلا ممر سينما « راديو » وكيف ابتاع لها « غزل البنات » من المحل القائم على اليسار أمام محل الأسطوانات .. وكيف خرجا من المحل بخفى حنين .. وذهابهما إلى المحل الكائن فى شارع « الأنتكخانة » .. بجوار « أفيرينو » .

وأخيراً حصولهما على الأسطوانة ، وسماعها معاً ، داخل « الكشك » الزجاجى الصغير .

إنها تدور الآن فى « البيك أب » الموجود فى حجرته . إنه يسمعها للمرة العاشرة فى يومه هذا ، فهو قد يترك « البيك أب » مغلقاً عليها ، وتعود الإبرة إلى الأسطوانة لتعيد إذاعتها بمجرد أن تنتهى .

إن موسيقاها المنسابة فى الأعماق .. لا تتوقف !

لم يكن يتصوّر قط أن مقطوعة من الموسيقى يمكن أن تصيب الإنسان بمثل هذا الأثر من النشوة .. والحزن .

لماذا يحس مع هذه المقطوعة ، كل هذا الإحساس ؟!

أمن فرط ما حدثته عنها ؟!

ألأنها تدفع بها فى نفسه ؟!

ألأنها تحمل إلى ذهنه صورتها ، وهى فى حجرتها الصغيرة أمام

المكتب ، تشرد ببصرها من النافذة ، إلى الأفق البعيد الذى بدت فيه القمم البيض .. وإلى السنديانة التى تحنو بيَدٍ على سقف المحطة المنحدر .. وترفع إلى السماء يداً أخرى .

من يدرى !!

قد تكون المقطوعة .. معجزة فى حد ذاتها ، أو تكون المعجزة .. فى أنها قد باتت قطعة منها .. من « نادية » العزيزة الغريبة .. الجالسة فى حجرتها تنظر إلى سد الجبال الذى يحجب عنها شمس الوطن المشرقة .

وظل « مدحت » مسترسلا فى الكتابة .. والأسطوانة لا تكف عن الدوران .. وموسيقاها ذات الدقات المتقطعة الهادئة .. المنسابة فى عمق .. لا تتوقف ، ولا تنى .

وأخيراً .. وعندما انتهى من الرسالة ، أحس أنه قد نسى شيئاً هاماً .. إنه لم يعلق على الصورة بعد .

وأمسك بالصورة فى يده ، وكتب « صورتك فى كفى أمام عينى . هل يجب أن أقول عنها شيئاً ؟ لو تركت لنفسى ، لما قلت شيئاً .. فأنت عندى .. أجل .. وأسمى من مجرد صورة .

«ورغم ذلك أحس — بعد طول إلحاحى فى طلبها — أنه يجب أن أقول رأيى فيها.

« الواقع أنك أجمل كثيراً ، مما كنت أتصوّر .

«إن صورتك ذات الضفائر لطيفة ، وهى تحمل فى مجموعها .. طابعك الهادئ ، اللطيف .

« أما صورتك الأخيرة .. فماذا أقول عنها ؟!

« إنى لست مغازلاً ممتازاً ، ولكنى مع ذلك أجرؤ فأقول إنها رائعة .. بأنفك ، وعينيك ، وشعرك المعقوص فى ذيل الحصان .. ورقبتك الفارعة .. و .. وماذا ؟ أظن هذا يكفى .

« فأنا لم أعتد أبداً .. هذا الغزل .

« أنت جميلة دائماً يا « نادية ».

« فى طفولتك .. وفى صباك .

« وأؤكد لك أنك ستكونين جميلة أيضاً عندما تصبحين عجوزاً .. شمطاء .. لك من الأحفاد ذرية ضخمة .

« إنى أشعر دائماً بالاعتزاز بك .. وبكل ما يصدر عنك .

« سأنهى الرسالة .. قبل أن أندفع لأقول أكثر من هذا .. فأنت تعلمين ما تفعله نسمات الصيف بنفوسنا .. تعلمين أثر زهور المشمش والخوخ .. وعبير زهور البرتقال .

« وقد تعلمين ما يمكن أن يفعل كل هذا .. إذا سرت فيه دقات الوداع .. لشوبان ».

ووصلت الرسالة إلى « نادية ».. بكل ما فيها من نسمات دافئات وأريج عطر .

وصلتها وهى هابطة من حجرتها بالمدرسة فى طريقها إلى البيت . وكانت تحس بالأمل ينبض فى كل ما حولها .. فى الأشجار والطيور .. والزهور .. والأطفال منطلقين فى فناء المدرسة .. وفى صوت عجلات القطار يغادر المحطة .. وفى نداء الباعة .. وفى هزّات ذيل كلب ناظر المحطة .. وفى غزل فتيان المدرسة ..و ..

وكانت هى التى أصرّت على أن تسلك الطريق الطويل المزدحم .. بعد أن كانت دائماً تفضل اختصاره بالسير بجوار سور سكة الحديد .

لم يكن بنفسها خوف من الناس .. و لم تفكر أبداً أن وراء الإيشارب الحريرى الذى تلف به رأسها وعنقها .. شيئاً يمكن أن تخبئه وتخشى أن يكشفه الناس .. وكانت تتوقف عند المحلات .. وكانت تعاكس المارة ، وتضحك بصوت مرتفع .. لقد نظرت إليها « منى » فى دهشة متسائلة :

— نادية .. ماذا بك ؟! أجننت ؟!

— لماذا !! لأنى أقلدك ..؟

ــ أكل هذا من أجل الرسالة التى تخفينها فى جيبك ؟!

ــ أبداً .. إنى أحس بسعادة عامة .. الربيع دائماً يدفع فى نفسى بهذا الإحساس .. كل شىء جميل يا « منى ».

ــ معك حق .. ما رأيك فى أن نتسلق الجبل غداً ..؟

ــ موافقة .

ــ على فكرة .. هل رددت على رسالة « جمال »..؟

ــ أجل .. إنه إنسان طيب جداً .. لقد رددت عليه ، وعلى عمى سليمان .. وعلى صبرى .. لقد كتبت بالأمس .ثلاث رسائل .

ــ ماهى أخبار صبرى !! أما زال منهمكا فى الدستور ؟!

ــ دستور إيه ..؟ لقد انتهى منه منذ مدة ، إنه الآن منهمك جداً ، فى بناء السد العالى .

وقهقهت « منى » قائلة :

ــ مرة واحدة .

ــ لقد قال لى إنه لا أمل لمصر بدونه .. وإنه لا رخاء لأجيالنا القادمة إلا به

ــ دعه أولا يحقق الرخاء .. لجيلنا الحالى .

وتوقفت « نادية » أمام محل لبيع آلات التصوير والأفلام وأخذت تنظر إلى « الفاترينة » فى تمعن .. وجذبتها « منى » قائلة :

ــ ياللا يا نادية .. حتى نتغدى ونلحق السينما .

واستمرت « نادية » فى مكانها تحدق فى « الفاترينة »، ثم هزت رأسها وبدت كأنها حزمت رأيها على أمر .. وقالت :

ــ اسمعى يا منى .. لقد قررت أن أشترى كاميرا .

ــ كاميرا !! ليه ..؟

ــ لأصورك بها .

ــ أنا ..؟

ـــ أجل . إنى معجبة بك جداً .

وابتسمت « منى » فى خبث وقالت :

ـــ تعنين معجبة بنفسك !؟

وضحكت « نادية » وردت قائلة :

ـــ أنا وأنت واحد .

ـــ ولكن .. ألا تنتظرين حتى ترى رأيه فىّ ! لماذا لا تفتحين الرسالة وتقرئينها !

ـــ الآن ..؟

ـــ ولم لا ؟!

ـــ لا .. هذه الرسالة لا تقرأ على عجل ، ونحن فى ضجة الطريق .. إنها تحتاج إلى خلوة ، وهدوء .

ـــ وموسيقى .. وزهور .. وسرحان .. و .. و .. أليس كذلك ..؟

ـــ طبعاً .. ليس هناك فارق بين السندوتش ، والديك الرومى . هل تستطيعين أن تأكلى الديك الرومى على قارعة الطريق ؟

ـــ طبعاً .. إذا وضعته فى ساندوتش .

ـــ لا .. لا .. أنا أحب أن آكله على المائدة ، وحدى .

ـــ الظاهر . أن بك اليوم لوثة !

ـــ يجوز .. هيا بنا نشترى « الكاميرا » . قبل أن أفيق .

ـــ والنقود ؟!

ـــ سأشتريها بثمن الراديو .

ـــ والراديو ..؟

ـــ يحلها ربنا بعدين .. إننا نستطيع أن نسمعه عند « جانى » .. لقد استطعت أن أسمع محطة مصر أول أمس .

ـــ حقيقة ؟!

ـــ لقد سمعت محطة تذيع .. أسطوانة جبل التوباد .. أعتقد أنها محطة مصر .

ـــ ولماذا لم تنصتى حتى النهاية .

ـــ السخيف « تونى » أدار المؤشر .. هيا بنا نشترى الكاميرا .

وبعد دقائق .. خرجت نادية من المحل والكاميرا فى يدها وقد وضع فيها فيلم .

وقالت « نادية » فى لهجة منذرة :

ـــ خذى بالك من نفسك جيداً .. أنت تعرفين .. من تمثلين بصورتك .. لا أريد .. مرقعة .

ـــ والله سأفضحك .. لن أصوّر إلا بالمايوه .

وفى تلك الليلة جلست « نادية » تستعيد قراءة رسالة مدحت . كانت للمرة العاشرة .. تعوّد إلى قراءتها فى نفس اليوم .

ثمة شىء .. أو أشياء .. فى هذه الرسالة ، يدفع فى نفسها خليطاً مضطرباً من المشاعر .

لأول مرة .. تحس أن روابط الأوهام .. قد تجسدت وأضحت شيئاً صلباً .. يمكن أن يبرز فى حيز الحقائق .

لقد بدت لها أوهامها .. كأنها أبخرة تكثفت .. لتصبح قطرات .. والقطرات قد تجمدت لتصبح شيئاً صلباً ملموساً .

وكانت سعيدة بذلك .

سعيدة جداً .

فمجرد الإحساس ، بأن « مدحت ».. طيف الأوهام .. وفارس الأحلام .. قد أضحى مخلوقاً حياً .. تشدّها وإياه ، روابط كتلك التى تشد المخلوقات الحية .

مجرد هذا الإحساس ـــ بصرف النظر عما يمكن أن يؤدى إليه من نتائج ـــ يدفع فى نفسها فرحة البعث ، ونشوة الحياة .. وكأنها مخلوق ولد ، ليواجه النور .. والهواء .. والشمس ..

ومع هذا الإحساس بالبعث .. وبالأوهام ، التى أضحت حقائق .. يداخلها شعور بالحذر ، والقلق .. والخوف .

الخوف .. من أثر الخديعة ، فى هذا البعث .

أيمكن أن تكون الصورة .. المخادعة ، سبباً فى تحقيق كل هذا ؟! لا .. لا .

إن أحاسيسه واضحة جلية فى كل رسائله ، قبل أن يرى الصورة .

فى دعواته الحارة .. وفى خوفه عليها ، وفى رقته نحوها ، فى كل حرف من رسائله كانت تحس ، بخفقة .. ونبضة .

لم تكن المسألة ، أبداً .. مسألة صورة ، بدليل أنه قال لها « أنت عندى أجمل وأسمى من مجرد صورة ».

ولا تكاد تدفع بالطمأنينة فى نفسها حتى يعود إحساس القلق والحذر والخشية ليهاجمها فى عنف ويعيد على أسماعها قوله فى الرسالة :

« الواقع أنك أجمل كثيراً .. مما كنت أتصوّر .

« إنك رائعة ، بأنفك .. وعنقك وشعرك . »

ولم تحتمل هجوم الصوت الحذر القلق ، وهزت رأسها فى ضيق وعنف .. كأنها تحاول طرده .

إنه قال ذلك مجاملا .. وحتى لو لم يكن مجاملا .. وكان ذلك رأيه الحقيقى .. فأى خوف فى ذلك ؟.

أترى قوله سيختلف لو أنها أرسلت صورتها هى ؟ إن لها نفس الأنف ونفس العينين ونفس الشعر !!

ألم يقل المصوّر بنفسه ذلك .. وأنه يستطيع أن يصوّر إحداهما .. ويخرج من الصور كمية مضاعفة تصلح للاثنتين !

هل لو صوّرت هى .. كانت صورتها تختلف عن هذه ؟ وهل كان قوله .. سيختلف عما قال ؟

لماذا إذن لم تصوّر ؟

هل كانت تستطيع ؟

والإيشارب ، والعنق ، والحريق ..و .. أف .. لكل هذا !!

إن رأسها يوشك أن ينفجر .. ولكن ما قيمة الصورة ، وهو يقول لها « إنك أجمل وأسمى من الصورة » ؟

أحقاً .. يعنى ذلك !!

أحقاً .. قد باتت شيئاً هاماً فى نفسه ؟!

وهب أنها قد باتت كذلك .. فماذا تريد ؟!

إلى أى نتيجة تريد أن تصل ؟. هل تجسر على لقائه ؟!

بشكلها هذا ؟

بالإيشارب !. أم بالعنق المحروق ؟!

ولكن لماذا تفكر فى هذا ؟

لماذا لا تستمتع .. بما حققته من نجاح ؟

إنها قد باتت تعنى لديه شيئاً .. أو على وجه أدق .. وأصرح .. إنه يحبها

فلماذا لا تستمتع بذلك ؟

أجل .. أجل ..

إنه يحبها .. يحبها .

ودفنت رأسها فى الوسادة .. وتركت جسدها ينتفض فى الفراش ، ودموعها تغرق غطاء الوسادة .

(٣٣)

فك قيد ..!!

غربت شمس ١٨ يونية ١٩٥٦ لتبعث فى مغربها بأضواء باهرة .. تشع فى قلوب المصريين .. فقد أفلت مع شمس ذلك اليوم شمس الاستعمار التى اصطلى المصريون سعيرها سبعين عاماً ، وانزاح عن مصر كابوس المستعمر الذى أثقل كاهلها وأنقض ظهرها .. وبدت مصر فى تلك الليلة وهى أشرق ما تكون ضياء .. وأبهى نوراً ، وكأن قطرات الدم والعرق التى بذلتها الأجيال المكافحة فى سبيل الحرية والكرامة .. قد صيغت فى حبات من النور تكلل جبين مصر الحرة المكافحة الناهضة .

وبدا الازدحام فى شارع « الزمالك » وقتذاك على أشده ، وتكدست العربات فى الطريق .. حتى كادت حركة المرور تشل .. وبدا « نادى الضباط » وقد غمرته الأضواء الكاشفة ، واحتشد به المدعوون من جميع طبقات الشعب الذين دعاهم رئيس الجمهورية .. لحفل أقيم ابتهاجاً بعيد الجلاء .

وامتدت الحديقة المواجهة لبناء النادى بعد أن أزيل بناء الاتحاد المصرى الإنجليزى الذى كان يجاور النادى ، ورصت آلاف المقاعد أمام المسرح المكشوف القائم فى نهاية الحديقة والذى يحجب وراء أستاره فرق الموسيقى والغناء .. والمجموعات القائمة بالاحتفال .

اتخذ المدعوون أماكنهم فى الحديقة ، وفى ركن على اليسار جلس مدحت وجاد الله بين أساتذة الجامعة ومدرسيها ، ومد جاد الله ساقيه وفرك كفيه وتجشأ ، ثم ضرب بكفه على بطنه قائلا :

— عشوة دسمة .

وأجاب مدحت :

ـــ لقد كنت تأكل .. كأنك تأكل فى آخر زادك .

ـــ ولِمَ لا .. إن لم آكل فى يوم جلاء الإنجليز .. فمتى آكل ؟!

ـــ كأنك أنت الذى أجليتهم ؟!

ـــ وهل لديك شك فى ذلك . ألم أشترك فى مظاهرات ١٩٣٥ .

ـــ أبهذا أجليتهم ؟!

ـــ وأبى اشترك فى ثورة ١٩ .

ـــ معقول !

ـــ وجدى كان فى جيش عرابى .

ـــ أصيل .. مجاهد أباً عن جد .

ـــ أتسخر ؟. ألم تسمع « جمال عبد الناصر » وهو يقول اليوم فى الإذاعة « إن جيلنا لم يصنع ذلك وحده . وإن أجيال شعبنا كانت تكافح وتناضل ، وإن الشهداء كانوا يسقطون على الأرض وبجوارهم أعلامهم مضرجة بالدماء ولكنهم لا يستسلمون أبداً ، وأن قوى المقاومة فينا ظلت تخفق وتنبض » .

ونظر مدحت إلى جاد الله فى دهشة ، وتساءل :

ـــ جاد الله !! ماذا حلّ بك ؟!

ـــ لِمَ !

ـــ أحقاً بت تؤمن بما تقول ؟!

ـــ ولِمَ لا !!

ـــ إنه كلام « جمال عبد الناصر» ؟

ـــ أعرف هذا .

ـــ ولكنك كنت تسخر من اتفاقية الجلاء !

ـــ يجوز .

ـ وكنت تقول إنها إحدى مناورات الإنجليز التى تعوّدوا أن يخدرونا بها منذ سبعين عاماً .

ـ أنا قلت هذا ؟

ـ ألا تذكر ونحن فى حجرة النواب فى المستشفى !

ـ ربما .. قلت .

ـ وقلت إنهم ضحكوا على جمال !

وزغد جادالله مدحت فى فخذه ، وقال زاجرا :

ـ اخفض صوتك يا غبى .

وابتسم مدحت وأردف هامساً :

ـ وقلت إنهم لن يجلوا .

ـ وبعدين !!

ـ ماذا حدث الآن حتى بت تحفظ كلام « جمال عبد الناصر » ؟!

ـ ماذا حدث ؟!

ـ أجل .. ماذا حدث .. حتى غيرت رأيك فيه ؟!

ـ أيها الغبى .. وماذا تريد أن يحدث أكثر من هذا .. لقد حدث الشىء الذى كان يبدو لى أنه لا يحدث أبداً .. لقد جلوا .. انكشحوا .. لقد باتت كلمة الجلاء التى كنا نرددها بلا وعى حقيقة واقعة .. لقد اتضح لى أنه هو الذى ضحك عليهم .. لقد شيعهم اليوم فى بورسعيد وكاد «يخرج لهم لسانه» ساخراً .

وفى الناحية الأخرى كانت هناك تتمة للحديث بين اثنين آخرين .. عصام ، وقد جلس فى ركن الضباط وبجواره صبرى وقد أخذ ينصت إليه فى لهفة وشغف متسائلا :

ـ وبعدين .. ماذا حدث ؟! صف لى كل شىء .. كم وددت أن أكون هناك .

— كنا نقف فى السرادق الكبير الذى أقيم فى مبنى البحرية ، كانت نسمات البحر تهب علينا عليلة رطبة .. كان السرادق مزدحماً .. وكانت الفرحة تفعم قلوبنا جميعاً . كنا نضحك ملء صدورنا .. لم نكن فى احتفال رسمى ، وإنما كنا فى عرس .. كانت مدينة بورسعيد تبدو كالصبى فى يوم عيد .. يعدو بالزمارة واليالون ، ويرقص ويغنى .. كانت المدينة كلها تضحك وتمرح ، كأنما أزالت عن نفسها كابوساً .. أو رفعت غمة ، وكان الناس يتبادلون التهانى على غير معرفة .. كان بنفوسهم إحساس الأهل .. وقد تخلصوا من غريب ثقيل ، وانطلقوا يمرحون بلا كلفة ولا خشية .. وكانت القطع البحرية قد اصطفت أمام منصة « الرئيس » وقد بدت هى والسفن الراسية فى الميناء مزدانة بالأعلام الملونة مكللة بالزهور .. كأنها فى سامر أو فى « زفة » .

وتساءل ضبرى فى لهفة :

— وأين كان جمال ؟!

— كان يجلس فى المنصة .

— وكيف كان يبدو ؟!

— كان يبتسم .. ولكنى كنت أحس وراء ابتسامته شيئاً من الرهبة .. رهبة الإحساس بجلال الموقف وضخامة العمل .. رهبة الشاب الصغير الذى كان يعدو منذ خمسة وعشرين عاماً وسط الطلبة فى ميدان « المنشية » ليهتف وسط المظاهرات بالحرية والاستقلال ، وينادى بجلاء الإنجليز عن بلاده ، والذى كان يرى مواطنيه من حوله يسقطون صرعى برصاص المحتل وعلى شفاههم نداءات الحرية التى توارثها المصريون جيلا عن جيل .. مع إرث الاحتلال والذل والعبودية .. كنت أبصر فى ملامحه وراء الابتسامة المشرقة ، رهبة الشاب الصغير الذى أمضى عمره يحلم بحرية وطنه .. ويهتف مع مواطنيه با ستقلاله ، يرى نفسه ، وقد تحققت بواسطته أحلام مواطنيه ، وتجمعت فى يديه قوى الشهداء والمكافحين منذ سبعين عاماً .. لتدفع فلول المحتل الغريب وتفلت أعناق

الوطن من أيديه ، وتزيح عن صدره كابوسه . وبقدر ما كنت أحس بفرحة الناس .. كنت أحس برهبته ، وعندما نهض .. ليرفع العلم على السارية .. كنت أحس بمدى انفعاله الذى تخفيه ابتسامته المشرقة ، وخطواته الثابتة ، وهامته المرفوعة .

ــ وكيف رفع العلم ؟!

ــ حمله مطوياً بين كفيه .. وبخضرته نضرة وإيناع ، وبياض هلاله .. نور وإشراق .. وكأنه قطعة من الحياة الخضراء اليانعة .. والنور الأبيض الناصع ، وانحنى « جمال » على قطعة الحياة والسلام والنور وقبّلها .. وفى عينيه اغرورراقة .. وفى قسماته اختلاج ورجفة .. ثم رفعه بيده ، ونظر إليه ، وهو يعلو ويرفرف .. وضج الناس بالهتاف . وأحسست أن الأرض تهتز تحت قدمى من فرط حماسهم .. وخيل إلىّ أن « جمال » لم يرفع علماً .. وإنما فك قيدا ، وحطم قضباناً ، وأطلق العنان لوطن حبيس .

وصمت عصام .. وبدا عليه كمن يغالب انفعالا .. وهز رأسه وبدا كأنما يحدث نفسه :

ــ كانت لحظة عجيبة ..

وتساءل صبرى فى لهفة :

ــ وماذا قال جمال ؟!

ــ لم يتحدث كثيراً .. لقد قال : « إن هذه اللحظة هى لحظة العمر .. بل هى العمر كله .. لحظة كافح من أجلها الآباء والأجداد .. وراحوا قبل أن ينعموا برؤيتها » .

وصمت عصام وعاد صبرى يستحثه قائلا :

ــ أهذا كل ما قال ؟!

ــ لست أذكر أكثر من هذا .. لقد رفع عينيه إلى العلم المرفرف ، وقال ، وكأنه يبتهل إلى الله : عسى ألا يرفرف على هذا الوطن وعلى هذه الأرض ، سوى

هذا العلم .

وبدا التأثر على ملامح صبرى ومد يده يتشاغل بمسح منظاره السميك ، وهو يقول :

— وددت لو فقدت نصف عمرى لكى أشاهد تلك اللحظة .. لقد سبق أن ذهبت إلى بورسعيد .. ذات صيف . وكان الإنجليز ما زالوا هناك .

— أنا أيضاً ذهبت إليها .. بضع مرات ، ولكنى أحسست بها اليوم شيئاً آخر .. ربما لم يكن هناك شيء عادى قد تغير بها ، ولكن إحساس الحرية ونشوة الاستقلال .. قد خلع عليها رداء عجيباً .. أظهرها كأنها .. عروس تزف ، وملأ ربوعها .. بالفرحة والبهجة والحب والسلام .

— ليتك دعوتنى

— كيف أدعوك .. لقد كنت فى طابور .

وصمت صبرى وهز رأسه قائلا :

— على أية حال ، سأدعوك أنا إليها .. بعد اثنى عشر عاماً لنحتفل بعيد جديد .

— عيد جديد ؟!

— أجل .. ما زال هناك فى القنال .. مزيد من الأعياد .

— لا أفهم ما تعنى ؟!

— عندما ينتهى عقد امتياز القناة .. وتجلو عنها الشركة الفرنسية ، وتصبح القناة لنا .

ورفع عصام كتفيه قائلا فى غير مبالاة :

— إنها لنا الآن .

— أنت عبيط .. ليس لنا فيها غير حثالة كأس .. لقد قرأت عنها كتاباً فى الصيف الماضى .. فذهلت .

— لم ؟!

ـــ لقد بدت لى كدولة داخل الدولة .. كضرع حلوب .. نلقى بها للغير .. ليَلْتهم خيره ، ويمن علينا ببضع قطرات ..

ـــ على أية حال .. مصيرها لنا .. متى قلت لى إن الامتياز سينتهى ؟!

ـــ بعد اثنى عشر عاماً .. سنة ١٩٦٨ .

ـــ هانت .

ـــ إذا لم يتلاعب المستعمرون .

ـــ أى مستعمرين ؟ لقد انتهينا من الاستعمار . يا أستاذ .. أنسيت بماذا نحتفل الآن !!

ـــ لقد انتهينا من عدة جولات ، ولكن هل تظن أننا انتهينا من الجولة الأخيرة !!

ـــ أى جولات تعنى !! إنها معركة كبرى خضناها معه وقد كسبناها بعد صراع سبعين عاماً .

ـــ اسمع يا عصام .. إنك ما زلت غشيما فى السياسة .. سأشرح لك الجولات التى خضناها مع المستعمر .. لقد كسبنا المعركة الأولى التى استمر الصراع فيها بيننا وبينه ـــ كما قلت ـــ سبعين عاماً ، وانتهت بتسليمه بالجلاء .. ولكنه لم يسلم به ، وهو يضمر الانسحاب فعلا ، وإنما كان يعد لجولة جديدة .

ـــ ماذا تعنى ؟!

ـــ أعنى جولة الأحلاف .. إنه لم يكد ينتهى من التسليم بالجلاء حتى رد إلينا الكرة .. فى صورة حلف بغداد .. فأعدناها إليه ، ورفضنا الحلف .

وضحك عصام وتساءل فى شىء من السخرية :

ـــ وماذا فعل هو أيها السياسى المحنك ؟!

ـــ أعادها إلينا مرة أخرى .. فى صورة الضغط .. ومنع السلاح .

وعاد عصام يضحك قائلا :

ـــ الكرة الآن فى أقدامنا ؟!

ـ أجل .. الكرة مع جمال .

ـ جمال شاط ؟

ـ شوطة جامدة .. فى مؤتمر باندونج .. استقرت فى المرمى محققة هدف الحياد الإيجابى والتعايش السلمى .

وازدادت ضحكة عصام وقال :

ـ الكرة الآن مع المستعمر ؟

ـ باصاها لإسرائيل .. إسرائيل شاطت فى الصبحة .

ـ خسارة .

ـ ولا خسارة ولا حاجة .. « جمال » خد الكرة .. جمال طلع بيها .. جمال شاط .. حتت دين شوطة .. رجت الملعب كله بصفقة الأسلحة .

ـ وبعدين ؟!

ـ الكرة مع المستعمر .. المستعمر جرى بيها .. المستعمر شاط ، وحلف ما يشترى القطن منا .

ـ خسارة .

ـ بالعكس .. « جمال » خد الكرة وحدفها مع القطن للصين الشعبية ، ومعاها اعتراف بالصين الشعبية ، والبقية تأتى .

وقهقه عصام قائلا :

ـ خسارتك فى الطب .. كان يجب أن تكون مذيعاً فى الكرة .

ـ الكرة السياسية فقط .

ـ إذن خذ بالك جيداً .. حتى تصف لى أولا بأول .. لأنه ليس لى جلد على متابعتها .

ـ يعطى الحلق للى بلا ودان .

ـ أى حلق تحسدنى عليه ؟

ـ وجودك فى الجيش .. وسط الدبابات ستالين .ومشاهدتك للجلاء

اليوم .

ـــ أما زلت تحسدنى على حفلة اليوم ؟!

ـــ طبعاً .. لو شاهدتها لا ستطعت على الأقل أن أصفها لنادية .

ـــ ولماذا لا تصفها لها كما وصفتها لك أنا .

ـــ سأحاول .. ولكنى أكره دائماً أن أكون مجرد ناقل .. إنى أحب أن أشارك فى شيء .. هل تصدق أن الشيء الوحيد الذى يضايقنى فى احتفال الجلاء اليوم .. هو إحساسى بأنهم جلوا فى سكوت .

ـــ يا أخى احمد ربنا .

ـــ الحمد لله .. ولكنى كنت أود أن أشاهد جلاءهم على الأقل لأضرب واحداً منهم « شلوتاً » .

ـــ لكى يضربك رصاصة ؟!!

ـــ سأضربه مثلها .. ماذا تظننى .. عاجزاً عن ضرب النار !! لقد ضربت فى التدريب العسكرى .

ـــ مفهوم .. مفهوم .. على أية حال .. ربنا رحم الإنجليز منك .. لقد نجوا بجلدهم .

ونظر عصام فى ساعته فى قلق ثم تساءل :

ـــ لقد بلغت التاسعة والنصف .. متى ينوون البدء .

وسمعت ضجة من الخلف والتفت صبرى ثم بدا عليه الحماس واللهفة ووقف قائلا :

ـــ لقد أقبل جمال .. سأرقبه جيداً حتى أستطيع وصفه لنادية ، وأنا أتخيله يرفع العلم .

وضحك عصام وقال :

ـــ أخشى من طول ما تكتب عنه فى رسائلك .. أن تحبه نادية ، وتتركك !!

وبدا الوجوم على وجه صبرى ثم انبطت أساريره .. وأجاب قائلا :

— إنها لن تتركني من أجله . إنها تحبه كما أحبه . وعلى أية حال ، لا داعى لأن أخاف أن تتركنى .. لأنها لم تأخذنى بعد .

— ولن تأخذك أبداً .. ما دمت تأبى أن تفتح فمك بكلمة حب .

— كلمة حب .. إنها لا تعطينى الفرصة .. إن طريقتها فى الكتابة آلية، كطريقتها فى الحديث .. تكبل فمى ، وتقتل ألفاظ الحب على شفتى .

وعبر « جمال » ومرافقوه الممر وسط ضجيج التصفيق ، وحماس الهتاف . واستقر فى صف المقاعد المواجه للمسرح وسط السفراء والوزراء، وبعد لحظات اعتلى المسرح .. وبدأ فى تسليم الأوسمة لأعضاء مجلس قيادة الثورة ، وسط الهتاف المدوى .

وانتهى تسليم الأوسمة ، وعاد الرئيس مكانه . وأطفئت أنوار الحديقة ، وسلطت الأضواء على المسرح ، وبدأ النشيد الافتتاحى ، وتوالى على المسرح نجوم السينما يحملون الأعلام ، ووقف « عبد الوهاب » بين نجوم الموسيقى ينشدون : « قولوا لمصر تغنى معايا فى عيد تحريرها ، تم النصر وصبحت حرة بإيد أحرارها» .

وخلال النشيد والناس يرددون فقراته فى حماس وفرحة . التفت جادالله إلى جواره ليرى مدحت محنيا إلى الأمام وقد وضع يده على بطنه وبدت على وجهه علامات الألم . وبدت الدهشة والقلق على وجه جادالله وهمس به :

— إيه يا مدحت !! مالك !

وهز مدحت رأسه قائلا :

— لا شيء .

— ما بك حقيقة ؟

— أبداً .. مغص كالمعتاد .

— ولكنك لم تتناول العشاء !

— ربما من أثر الغداء .

ــ هل أكلت شيئاً غير عادى ؟!

ــ ربما .. لقد أكلت قطعة كنافة .

ــ لا بد أنها هى التى أتعبت معدتك .. كان يجب عليك أن تحاسب .

ــ أحاسب أكثر من هذا !! لقد ضقت بها ذرعاً . إنى أشك أن بها قرحة .

ــ لم أر أجهل منك بالطب .. لست أدرى كيف يسمحون لك بهذه العمليات التى تقوم بها . أكلما أصابك هذا المغص .. اتهمت معدتك بالقرحة؟!

ــ أنا أدرى بنفسى .

ــ بل أنت أجهل بنفسك .. أنت وسواس كبير .. أتذكر عندما قمت بعمل أشعة منذ عامين ، واتضح أن معدتك ليس بها شىء ؟!

ــ الأشعة كلام فارغ .

ــ أتذكر ما قاله لك الدكتور سليمان من أن معدتك ليس بها قرحة ؟!..

ــ الدكتور سليمان لم يكن على حق .

ــ إذا ماهى أعراض القرحة التى عندك ؟! هل نزفت من معدتك دماً ؟!

ــ يا غبى .. أتظن ذلك من ضرورات القرحة ؟!

ــ أعتقد أن ذلك من أول مظاهرها .

ــ أبداً .. كلام فارغ

ــ إذا كنت واثقاً أن عندك قرحة .. فلماذا ...

ــ أنا لست واثقاً .. إن عندى شكا فقط .

ــ وما العمل إذن ؟!

ــ إنى أفكر فى السفر إلى إنجلترا لأعرض نفسى على الدكتور « تنر » .

ــ تنر ؟!

ــ أجل .. لقد قابلته هنا فى العام الماضى ، وهو نفسه الذى اقترح علىّ زيارته .

ــ ولكنك لم تخبرنى وقتذاك ؟!

— لأنى لم آخذ دعوته على محل الجد .

— والآن ؟!

— أفكر فيها جدّياً .

— من أجل قطعة الكناقة التى أتعبتك ؟!

— من أجل معدتى أولا ، ومن أجل رغبتى فى أن أسافر إلى أوروبا هذا الصيف .. لأنى فى حاجة قصوى للراحة

— من هذه الناحية معك حق .. وإن كنت أعتقد أن إجازة فى الإسكندرية أو بورسعيد كافية جداً .. وإلا أول ما تشطح تنطح .

— الإجازة فى الإسكندرية كعدمها .. لأنهم يستطيعون إعادتى إلى المستشفى ، بتليفون أو تلغراف .

— إذن اذهب إلى مرسى مطروح أو بورسعيد .

— يحصل بعضه .. سيعيدوننى بنفس السرعة .

وكانت فرقة « الريحانى » قد اعتلت المسرح .. ووقفت « مارى منيب » تمثل دور « الداية » التى تنتظر المولود .

ونظر مدحت إلى المسرح نظرة من لا يفهم شيئاً مما يجرى ونفخ فى ملل قائلا :

— اسمع يا جادالله .. ما رأيك فى الانصراف قبل أن يزدحم الطريق ويتعذر علينا العودة ؟!

— انتظر على الأقل حتى ينتهى فصل الريحانى .

وبعد لحظات كان الفصل قد انتهى .

وكان « مدحت » يتسلل بين الصفوف متخذاً طريقه إلى خارج النادى .. ووصل إلى عربته التى تركها فى شارع فرعى بجوار النادى .. ثم سار يشق طريقه بين المنادين والسائقين حتى وصل إلى شارع « الزمالك » .. وكان المفروض أن يتجه يسرة إلى كوبرى أبى العلاء .. ولكنه اتجه يمنة ثم دلف فى شارع شجرة الدر متجها إلى طريق النيل خلف نادى الجزيرة وقال جادالله :

ــ لماذا لففت هذه اللفة ؟

ــ لأنى أفضل هذا الطريق .

ــ لم ؟ .

ــ لأنى أحب أشجاره المتعانقة .. المكللة بالزهور الحمر ، وأحب منظر النيل على حافته .

وضحك جادالله قائلا :

ــ ما شاء الله .. لقد أصبحت شاعراً .. هذا شيء جد عليك . منذ بدأت تكتب الرسائل إلى « جاب »

ــ لا تكن سخيفاً .

ــ أشياء كثيرة .. تغيرت فيك .. لقد بت مخلوقاً مهذباً .. لو كنت أعلم هذا لسلطتها عليك منذ مدة.. على فكرة.. ما أخبارها؟!

ــ بخير .

ــ ألا تنوى المجيء إلى هنا ؟!

ــ لا أظن .

ــ أتنويان إذن الاستمرار على رسائلكما الولهى .. دون أن يفكر أحدكما فى رؤية الآخر ؟!

ــ كف عن قولك رسائلنا الولهى ، وإلا ضربتك .

ــ لا تزعل ، أقصد رسائلكما .. العلمية .. الاقتصادية .

ــ لا تسخر .

ــ ماذا أقول إذن .. المهم . أليس لديكما مشروع للقاء ؟

ــ حتى الآن .. لا .

ــ ومستقبلا ؟!

ــ من يدرى .

ــ ألاتدرى أنت ؟!

— ربما استطعت أن أراها وأنا فى طريقى .. إلى لندن.

وهنا انفجرِ جادالله مقهقهاً وصاح به :

— يا ابن الإيه . أتسرح بى كل هذه السرحة ، وأنا كالحمار لا أدرى شيئاً .

— تدرى شيئاً عن ماذا ؟

— تدعى أن بمعدتك قرحة ، وأن الدكتور « تنر » دعاك لزيارته ، وأنك تريد السفر إلى لندن .. وأنا أصدقك كالأبله !

— ولماذا لا تصدقنى ؟!

— لأن هناك شيئاً أهم من هذا كله يهيىء لك السفر .

— أولا أنا لم أجزم بعد بالسفر ، وثانياً .. إذا سافرت سأسافر من أجل معدتى .

— مفهوم .. مفهوم ، وبالصدفة .. ستمر فى طريقك « بجبال الألب » ولن يكون من الذوق أن تمر هناك دون أن تسأل عنها .. أليست هذه هى خطتك ؟!

— أنت سخيف .

— سخيف لأنى كشفت نواياك ؟

— قلت لك إنى سأسافر من أجل معدتى .

— ستسافر إلى لندن ؟

— أجلْ .

— بالطائرة !

— ولِمَ بالطائرة ؟

— لأن الناس كلهم يسافرون الآن بالطائرة .

— قد أسافر بالطائرة ، وقد أسافر بالباخرة إذا كان لدىّ وقت .

— وسيكون بالطبع لديك وقت ، وستنزل فى مرسيليا ، ثم تمضى بعض الوقت فى فرنسا .. أليس كذلك ؟

— ربما .

ــ بل مؤكد .. قل الحق !!

ولم يجب مدحت .. كان يشرد ببصره من خارج العربة ، وقد بدت الأرض تلمع أمامه ، وأخذت مصابيح الطريق تتواتر على وجهه ، وفروع البانسيانس المكللة بالأزهار الحمر تتكاثف فى مظلـة تمتد طوال الطريق .

والسكون سائد ، ونسمات الليل تهب رطبة من نافذة العربة ، وأخذ يفكر فى كل ما قاله جادالله .

إن فكرة السفر قد أخذت تقوى فى ذهنه ، وأخذت معالمها تتضح ، وسماتها تتأكد .

وكانت معدته .. هى العذر الواضح للسفر .

العذر الذى يطوى فى باطنه كل العلل والاتهامات التى قالها صاحبه .

(٣٤)

تفكير فى زيارة !

فى صباح أحد الآحاد .. جلست « نادية » على مقعد فى الحديقة وقد أمسكت رسالة مدحت الأخيرة بين أصابعها وبدا عليها الشرود

وأقبلت « منى » من الباب الخارجى تصيح بنادية :

— نادية .. هيا بنا .. سنصعد الجبل الآن .. سيمر علينا « تونى وجابى » بعربتهما وستتناول الغداء فوق الجبل مع بقية الشلة

وهزت نادية رأسها فى ضيق وقالت :

— لن أصعد معكم .. إنى متعبة.

— قلت لك سنصعد بالعربة .. أيتها الغبية .

وعندما ما اقتربت « منى » منها هتفت :

— ماذ بك ؟!

وأخفت « نادية » الرسالة قائلة :

— لا شىء .. صداع خفيف .

— صداع ؟

— أجل .

وهزت « منى » رأسها فى دهشة متسائلة :

— منذ متى كان الصداع يصاحب هذه الرسائل ؟!

ورفعت « نادية » حاجبيها مدعية أنها لم تفهم ، وتساءلت قائلة :

— ماذا تعنين ؟!

— أليست هذه رسالة مدحت ؟

-- أجل .

ـــ ماذا حدث إذن ؟

ـــ لا شيء .

ـــ هل تعوّدت أن تلقى رسائل مدحت بمثل هذا الشرود والقلق والانقباض ؟

ـــ قلت لك إن بي صداعاً .

ـــ كنت أعرف أن رسائل مدحت انجع الوسائل فى شفاء الصداع .. إنها خير بكثير من « الأسبرو » .

ـــ أتمزحين !

ـــ بل أقول جادة .. إنى أعرف تماماً مدى تأثير رسائله عليك .. لقد بعثتك من جديد .. انتشلتك من هوة اليأس ، وأحاطتك بسياج من الأمل المشرق .. لقد كنت فى أول الأمر أهزأ بها وأكره لك أن تتشبثى بخيوط واهية من الأحلام .. ولكنى بعد أن رأيت ما فعلته بك .. بت أحبها ، وأشاركك السعادة التى تغمرك بها .. فماذا حدث حتى تبعث فيك هذا الشرود والقلق ! ..

وصمتت «نادية» .. واستغرقت فى شرودها .

وعادت « منى » تسأل :

ـــ نادية لماذا لا تجيبين ؟! أرينى الرسالة !

وسمع صوت « نفير » عربة توفى يتوالى على باب الحديقة وصاحت جابى منذرة :

ـــ دقيقتين ، ثم تتحرك العربة .. ليس لدينا وقت . وجذبت منى نادية من ذراعها قائلة :

ـــ هيا يا نادية .. لن أتركك وحدك .. لقد أخذنا الجراموفون معنا وسنرقص أمام البحيرة فى حديقة بيت مسيوريتو ، وسنشوى اللحم على سيخ فوق النار .. وإذا كانت المياه دافئة سأنزل فى البحيرة . لقد أخذت المايوه . و ..

ونظر « نادية » إلى « منى » فى دهشة وقاطعتها قائلة :

ـــ تنزلين فى البحيرة ؟!

ـــ ولم لا ؟ إن الشمس ساطعة والجو دافىء .

ـــ إن مياه البحر مثلجة .. إياك ، وهذه الحماقة .

ورفعت « منى » كتفيها قائلة فى لهجة المنذر :

ـــ سأنزل إذا لم تأتى معنا .

ـــ أتهددينني ! إنها حياتك أنت يامغفلة وليست حياتى أنا .

وقالت « منى » فى إصرار :

ـــ إذا لم تأتى سأستحم فى البحيرة .

ـــ استحمى .. انفلقى .

ـــ وسأعوم ، وأجرى .. حتى أجهد ويحدث لى ما تخشيان حدوثه أنت وأمك .

و لم تتحرك « نادية » وعادت « منى » تقول :

ـــ سأنزف دماً من صدرى .. و ...

وقاطعتها « نادية » ناهرة ، وهى تحس بغصة فى حلقها :

ـــ ما هذا السخف الذى تقولين ! أتظنين نفسك صغيرة !

ورفعت « منى » كتفيها ، وهى تسير متجهة إلى الباب :

ـــ أنت وشأنك .. لقد أنذرتك .

ثم أردفت تقول ضاحكة :

ـــ إنى أحس اليوم بلهفة إلى الانتحار .

ونهضت « نادية » وهى تتبعها قائلة :

ـــ يا دمك !! أتظنين نفسك خفيفة !

وأمسكت « منى » بيدها ، وقالت وهما فى طريقهما إلى الباب :

ـــ لم تقولى .. ماذا ضايقك .. فى رسالة .. المحروس ؟

ـــ ليس هذا وقته .. سأخبرك فيما بعد .

— إذن أعطيني الرسالة أقرأها .

— الآن ؟!

— ولمَ لا !

— أمام هذا الحشد الذى ينتظرنا فى العربة ؟

— إنهم لا يفهمون العربية .. وسنقول لهم إنها رسالة من عمى .

— لا .. لا .. سأريها لك عند ما نعود .

— إذن أعطيني فكرة .. حتى لا ينتابنى قلق .. طوال هذه الفترة .

— فكرة عما ذا ؟!

— عما ضايقك فى رسالة مدحت . ماذا به ؟

— إنه مريض .

— مريض بماذا ؟

— بمعدته .

— وأى جديد فى ذلك .. ألم يقل فى رسائله من قبل . إنه يأكل طعاماً مخصوصاً لأن معدته متعبة ؟

— أجل ، ولكنها لم تكن متعبة إلى هذا الحد .

— أى حد !

— إلى حد الشك فى أن بها قرحة .

— من قال له هذا ؟

— هو نفسه .

— هو يشك فى أن لديه قرحة !

— أجل .

— وماذا قال له الأطباء ؟

— لم يقولوا شيئاً .

— لماذا ؟

ـــ لأنه لا يريد أن يستشير أحدهم .. لأنه يعتقد أنهم جميعاً لا يفهمون .

ـــ إذا كان الأمر كذلك .. لماذا لا يقطعها .. كما يقطع معدات بقية الخلق .. الذين يوقعهم القدر تحت رحمته ، ويريح نفسه .

وبدا الانزعاج على وجه « نادية » وقالت ناهرة :

ـــ ما هذا السخف الذى تقولين ؟

وضحكت « منى » وردت قائلة :

ـــ وبهذا القدر تخشين عليه ، وعلى معدته ؟!

وأجابت « نادية » فى غضب :

ـــ أنت تافهة .. لا يأخذ المرء منك غير « التريقة » ، والسخرية .. الحق علىّ أن قلت لك .

وربتت « منى » ظهرها فى حنان وردت :

ـــ أغضبت ! إنى أضحك يا نادية .. متأسفة .

وأقبلت التوءمتان على الباب الخشبى ، وبدت العربة لهما وقد اكتظت براكبيها الذين انطلقت منهم الصيحات الهاذرة والضحكات الماجنة

وردّت الفتاتان تحيات الشلة ، وقبل أن تتخذا مكانهما فى العربة تساءلت منى :

ـــ وماذا ينوى أن يفعل ؟!

ـــ إنه يفكر فى الذهاب إلى لندن .

وهزت « منى » رأسها وأجابت مازحة :

ـــ معقول ، ويمر علينا فى طريقه ليقضى معنا أسبوعاً .

وتمتمت « نادية » فى صوت خفيض ، وقد أطرقت وبدا عليها الشرود والقلق :

ـــ إن هذا هو ما يفكر فيه فعلا

وهتفت « منى » مأخوذة :

— إيه ؟

وفزعت الشلة المحيطة بها فى العربة من صيحتها المأخوذة ، وصاحوا بها :

— ما بالك !! ماذا حدث لك ؟

و لم تجب « منى » .. بل عادت تحملق فى نادية متسائلة :

— يفكر فى ماذا ؟!

— فى المرور علينا ، وهو فى طريقه إلى لندن

وهتفت « منى » صائحة :

— يا نهار أبوه أسود .

وصاحت جانى بالتوءمتين .. والشلة تنظر فى دهشة إلى انفعالهما فى المناقشة دون أن تفهم معنى ما يقولان :

— تحدثا بالفرنسية حتى نفهم .

وأردف تونى يحتج قائلا :

— تحدثا بلغة متحضرة

وزغدته « منى » فى خده بطرف أصابعها صائحة بالفرنسية :

— متحضرة يا غبى !! إن لغتنا هى أصل الحضارة .. عندما كنتم مغرقين فى بربرية القرون الوسطى وظلامها .. كنا نقول الشعر وندرس الطب والفلسفة بالعربية .. مفهوم أم تريد أن أفهمك أكثر ؟!

وصاح تونى :

— بلا زغد .. لم أر فتاة أطول منك يداً .

— فى المرة القادمة .. سأستعمل شيئا آخر غير يدى .. إياك والتحدث بسوء عن المصريين أو العرب .. ألاتعرف من أنا ؟!

وهز تونى رأسه وقال فى استسلام :

— كنت أحب ألا أعرف .

والتفتت « منى » إلى « نادية » وقد عاودت تساؤلها المأخوذ بالعربية :

ـــ قولى لى .. أحقاً ينوى هذا الحمار المجىء إلى هنا ؟!

ورفعت نادية كتفيها مجيبة فى شرودها القلق المنزعج :

ـــ إنه يفكر فى هذا .

ـــ إنه مجنون . يجب أن تمنعيه من التفكير فى هذا بتاتاً .

وقالت « نادية » كأنما تحدث نفسها :

ـــ لم يخطر ببالى قط .. أن هذا شىء يمكن أن يحدث .. أبداً .. أبداً .

ـــ لعله مجرد كلام .. إنه لا شك لا يعنى هذا .. غير معقول أن يذهب إلى لندن لمجرد أن معدته لا تهضم « الكنافة » و « الفتة بالثوم » .. إن المفروض ألا تهضم المعدات الآدمية ، هذه المفجرات ، وثلاثة أرباع المصريين معداتهم ليست خيراً من معدة .. « سى مدحت » .

وهزت « نادية » رأسها فى حزن وأجابت :

ـــ لا .. لا .. إنه دائماً يشكو من معدته .

ـــ صحيح أنه يشكو من معدته .. أهذا يدعو .. لأن يترك عمله وعيادته ومرضاه ويطير إلى لندن ؟

وصمتت « منى » برهة ثم أردفت قائلة كأنما تعدد فى مناحة :

ـــ وليته كان سيطير ! .. لهان الأمر وزال الخطر .. ولكنه بسلامته .. سيتسكع بمعدته المقروحة .. فى البحار وسكة الحديد ، ويصعد قمم الألب .. لمجرد المرور عليك .

ولم تجب « نادية » . كانت المشاعر والانفعالات تصطخب فى نفسها .. مشاعر متناقضة ، وانفعالات متضادة متباينة .

أيمكن أن يحس لها بما يدفعه إلى هذا ؟!

إنه يقول هذا فى رسالته .

ولكن ألا يمكن أن يكون مجرد كلام .. كما قالت منى !

ربما .. ولكنه أيضاً يمكن أن يكون حقيقة .

هل كانت تتصور فى يوم من الأيام .. أن يشعر لها « مدحت » بما يدفعه إلى زيارتها فى قمم الألب ؟!

ولكن هل يزورها .. هى ؟!

هل هى .. نادية .. بشخصها ، ودمها ، ولحمها .. التى يحس لها من المشاعر .. ما يدفعه إلى التفكير فى زيارتها ؟!

أم هى صاحبة الصور التى تعوّدت أن ترسلها له فى كل رسالة ؟

أهى نادية — صاحبة الرسائل — المقصودة بالزيارة ؟!

أم هى « منى » صاحبة الصور !

شىء يبعث على الحيرة والشك .

من هى المخلوقة التى يفكر « مدحت » فى زيارتها .. أهى هذه .. أم تلك .. أم خليط منهما معاً !!

على أية حال .. إنها قطعاً .. ليست « نادية » بكل تفاصيلها .. ليست « نادية » مائة فى المائة .

إنها جزء من « نادية » .. تضاف إليها أجزاء أخرى من صور « منى » ومن صنع أو هامه هو .

ومع ذلك ، ورغم أنها تعرف أن الصورة التى فى ذهنه ، والتى يحس لها ما يدفعه إلى التفكير فى زيارتها .. ليست صورتها هى .. فإن شيئاً ما فى باطنها .. قد يكون رغبتها فى الأمل والمقاومة والحياة .. يدفعها إلى الإحساس .. بأنها هى وحدها المخلوقة المستقرة فى ذهنه .. الراسبة فى نفسه .. والتى يتوق إلى رؤيتها ويفكر فى زيارتها !!

ولكن هب أنها كانت هى .. أم كان غيرها .

ما الفائدة ؟ ما دامت فى جميع الافتراضات .. عاجزة عن أن تلقاه ، لأنها لا تصلح للقاء ، كما وطدت نفسها من أول الأمر .

إنها تعجز عن لقائه .. بعنقها المشوّه .. الذى يحجبه إيشارب لا يفارق رأسها .

ثم إنها قد تكون هى صاحبة المشاعر التى يكنها لها .. وهما على البعد ، والصلة مقصورة على الرسائل والأحاسيس .

ولكن أتجسر على ادعاء ملكية هذه المشاعر .. عندما تواجهه ، وبجوارها أختها « منى » !

لا .. لا ..

إن اللقاء ، سيكون فجيعة . إن زيارته لها ، أمر مستحيل .

وأفاقت « نادية » من شرودها على صوت « منى » تقول وكأنما تتم تفكيرها من وجهـة نظرها هى :

ـــ غير معقول !! . غير معقول أن يجشم نفسه كل هذه المشقة .. لمجرد أن يراك !

وأحسـت نادية ـــ رغم انزعاجها من تفكير مدحت فى زيارتها ـــ بالضيق من قول منى وهمست متسائلة :

ـــ ولمه ؟

ـــ إنه لو فعل هذا يكون مجنوناً .. هل تتصورين أن مخلوقاً مريضاً بمعدته .. بدل أن يطير إلى لندن فى بضع ساعات .. يظل متسكعاً فى البحر أربعة أيام حتى يصل إلى مرسيليا .. ثم يظل يطوى القفار بسكة الحديد حتى « فين » ثم يترك طريقه ويصعد إلى « جاب » ثم يعود إلى « فين » مرة أخرى ، ويتجـه إلى « جرينويل » .. ثم باريس .. ثم « كاليه » ويعبر المانش إلى لندن .. لماذا يركب كل هذه المصاعب .. أمن أجل أن يلقى فتاة كتبت له بضع رسائل وأرسلت له بضع صور .. أمعقول هذا ؟!

وتمتمت « نادية » فى خليط من الأسف ، والارتياح . الأسف .. لأنه ليس لديه من المشاعر ما يدفعه إلى ركوب الصعب ، من أجلها .. والارتياح .. لأنه

غير معقول أن يحضر إليها .

تمتمت « نادية » قائلة :

ـــ طبعاً غير معقول .. إنه مجرد كلام .

وصمتت «منى» برهة ، ولكنها لم تلبث حتى لعب الفأر فى عبها .. وهزت رأسها قائلة :

ـــ ولكن هبيه فعل ؟

نظرت إليها « نادية » متسائلة فى شرود :

ـــ هه !

ـــ أقول .. هبيه فعل .. إنه كما يبدولى .. إنسان غير معقول ، فماذا يمنعه .. من أن يقدم على أشياء غير معقولة ؟

وزادت علامات الشرود فى وجه نادية .

وعادت « منى » تتساءل :

ـــ ماذا نفعل .. إذا كان تفكير هذا « المجنون » جاداً ، وإذا نوى فعلا أن يزورك !

وردت « نادية » قولها كالمأخوذة :

ـــ ماذا نفعل !

ـــ أجل ماذا نفعل .. ديرينا .. أنت السبب فى كل هذا !

وصمتت «منى» برهة ثم أردفت قائلة بعد تفكير :

ـــ لو أنك لم ترسلى له صورى .. لكان الأمر أسهل من هذا .

ـــ كيف !!

ـــ كان يمكنك أن تلقيه .

وبدا الخوف على « نادية » وأجابت :

ـــ أهذا معقول !! كيف ألقاه ؟

ـــ وأنت مرتدية الإيشارب .. إنه لن يمكث إلا يوماً ، أو يومين .. ثم

ينصرف إلى غير رجعة .

وتساءلت « نادية » بلا إرادة :

ــ إلى غير رجعة ؟

ــ طبعاً .. أم تظنينه .. ينوى أن يقيم معنا .. ليقطع أزوار ومَعِدات سكان « جاب » !

وهنا التفت « تونى » إلى « منى » وهز كتفيه قائلا :

ــ ألا تنويان أن تكفا عن المناقشة بلغتكما المتحضرة ، ماذا تقولان عن « جاب » !

والتفتت إليه « منى » قائلة :

ــ نقول إن نصف شبانها حمير .

ــ ولماذا لا تقولانها بالفرنسية ؟! كلنا نعرف هذا .

وكانت العربة قد وصلت إلى أعلى الجبل ،وأخذت تشق طريقها بجوار البحيرة ، وقد تهدلت الأغصان على الطريق من الجانبين .. وبدا البيت المهجور وقد ازدادت مظاهر الخراب به ، وتساقطت ضلف أبوابه .. وبدت الهوّة من ورائه وقد تكاثف بها ضباب خفيف .

وقفز الفتية والفتيات من العربة ، وانتشروا فى الحديقة المقفرة ، بعضهم يعدون الطعام ، والبعض يستمع إلى الجراموفون .

ولفت « نادية » حول البيت ، واستقر بها المقام أمام الكوخ المنعزل القائم وراءه .. والمطل على الجرف الذى تبدو المقابر فى أسفله كأنها نقط بيض .

وجلست « نادية » على المقعد الحجرى بجوار الكوخ ، وأطلقت بصرها فى الفراغ العريض الذى بدت فى آخره الغمامة البيضاء التى تعلو هام الأفق .

ومدت يدها فأخرجت الرسالة من جيبها ، وعاودت قراءتها .

وقبل أن تصل إلى نهايتها سمعت وقع أقدام خلفها ..وأبصرت « منى » تهتف بها :

— لم يخب ذكائى .. لقد توقعت .. لا بد أن تكونى هربت بالرسالة إلى هنا .

ومدت يدها قائلة :

— دعينى أقراها .

وحاولت « نادية » أن تعيد الرسالة إلى جيبها قائلة :

— بعدين عندما نعود إلى البيت .

وخطفتها « منى » من يدها قائلة :

— هاتى .. لأرى كيف يفكر المجنون .. فى زيارتنا .

وجلست « منى » على المقعد الحجرى بجوار « نادية » التى انهمكت فى قراءتها ، وأخذت « نادية » تنقل البصر بين « منى » وبين الوادى الممتد أسفل الجرف ، وأصوات الجراموفون وضجيج الشلة يأتى إليهما من وراء الدار .

وعندما انتهت من القراءة بدا عليها الشرود .. وسألتها « نادية » فى قلق قائلة :

— ما رأيك ؟!

— شىء محير .. ليس بمستبعد على هذا الأحمق .. أن يزورنا فعلا .

— وما العمل ؟!

— امنعيه .

— كيف ؟!

— اكتبى إليه ألا يحضر .

— أهذا معقول ؟!

— ولِمَ لا .. قولى له .. إنك ستسافرين فى هذا الوقت .

— إلى أين ؟!

— إلى أى مكان .. إلى جرينوبل .. إلى جنيف . اكذبى أى أكذوبة .

وصمتت « نادية » برهة مطرقة ثم قالت :

— معقول .

ثم أطلقت من صدرها تنهيدة حزينة ، ونظرت إليها « منى » بطرف عينيها ثم هزت رأسها قائلة :

ـــ عجيبة !

ـــ من ؟

ـــ الدنيا !! من كان يصدق أنك تحاولين الفرار عندما يفكر فى زيارتك !

ـــ على أية حال .. لا أظننى سأحتاج إلى الفرار .. لأنه لن يخرج تفكيره إلى حيز التنفيذ .. إنه مجرد كلام كما تقولين .

ـــ أرجو هذا .

وسمعتا من ورائهما صوتاً ينادى :

ـــ أيتها المصريتان .. مؤامرة ؟

والتفتت الفتاتان فإذا « بتونى » قد أقبل عليهما ومعه بعض الرفاق .

وأجابت « منى » قائلة :

ـــ أجل .. مؤامرة .

ـــ لأجل ؟

ـــ طردك من جاب .

ـــ معقول .. ألم تطردوا ملككم عن عرشه ؟

ـــ أجل طردناه ، لأنه كان فاسداً منحلا .

ـــ طرده ديكتاتوركم ناصر .

وتدخلت نادية قائلة فى غضب :

ـــ عبد الناصر ليس ديكتاتوراً .. أيها الغبى لقد حقق لنا كل أمانينا .. لقد منحنا العزة والحرية والكرامة .. وقد أعلن الدستور باسم الشعب ، وأجرى عليه استفتاء .. وانتخب « عبد الناصر » بأغلبية تزيد على ٩٩٪

وهمست « منى » لنادية متسائلة :

ـــ من قال لك كل هذا ؟!

وأجابتها « نادية » هامسة :

ـــ صبرى فى رسالته التى وصلتنى بالأمس .

ـــ لقد أضحت رسائله نشرات سياسية .. ألم يقل لك بعد إنه يحبك ؟!

ولم تجب « نادية » على سؤالها ، فقد شغلها عنه صياح تونى ساخراً :

ـــ كلام فارغ .. إنى أصر على أنه ديكتاتور .

وقبل أن ترد « نادية » مدت « منى » يدها وخلعت حذاءها من قدمها ورفعته منذرة تونى بقولها :

ـــ الظاهر أنى سأضطر لإسكاتك بسلاح جديد . ثم صاحت به :

ـــ تونى .. اسحب كلامك .

وأجاب تونى ضاحكا :

ـــ سحبته .. إنك تستعملين معى طريقة الديكتاتوريين العتاة .

ـــ لا ينفع معك غير هذا .

ـــ انتهينا .. لن أحدثك فى السياسة بعد ذلك .. أنت مخيفة ..

وتدخلت « جابى » قائلة :

ـــ هيا بنا .. لقد أعد الطعام .

ونهض الجميع متجهين إلى حديقة البيت على شاطىء البحيرة ، وطوت « نادية » الرسالة فى جيبها ، وذهنها ما زال شارداً فى صاحبها .. وهى تحس بحنين إليه .. إلى لقائه .. ورعايته .

وفى المساء .. عندما أوت إلى حجرتها جلست فى فراشها ممسكة بالكراسة الزرقاء لتكتب الرد لمدحت .. واختتمت ردها بالترحيب بزيارته .. وأنها لا تتمنى شيئاً قدر لقياه .. ولكنها تخشى أن يخونها الحظ لأن هناك احتمالا لسفرها مع أمها وأختها لقضاء الشهرين القادمين عند خالتهما فى « جرينوبل » .

وأحست وهى تطوى الرسالة بنوع من الأمن والطمأنينة . إنه بلا شك .. بعد هذا الاعتذار .. لن يكون هناك احتمال لأن يفكر مرة أخرى فى الزيارة .

(٣٥)

حق يسترد .. !!

مر أسبوع بعد أن أرسلت « نادية » ردها . وفى مساء ٢٦ يوليو كانت الشلة قد اجتمعت فى شرفة النادى الزجاجية حول مائدة الشاى .. بعد أن انتهوا من « التنس » .

وبدا مسيو « بيتر » كاتب المدرسة العجوز مقبلا على الشلة ، و لم يكد يبصر « منى » حتى مد يده فى جيبه هاتفاً :

ـــ رسالة لك يا مدموازيل « منى » .. لقد مررت عليكم فى المنزل فقالوا لى إنك هنا .. فقلت لنفسى أشرب فنجاناً من الشاى .. وأعطيها الرسالة .

ومدت «منى » يدها تتناول الرسالة قائلة :

ـــ شكراً يا مسيو « بيتر » .. لم يكن هناك داع لأن تتعب نفسك أبداً .إن رسائلى تستطيع الانتظار .

الواقع أنى لم أتعب نفسى .. فقد كان علىّ أن أمر على بيتكم لأحمل رسالة من المسيو « رينو » إلى والدتكم .. فلما أخبرتنى أنك فى النادى .. فضلت أن أمر عليك لأسلمها إليك .

ـــ شكراً لمجرد التفكير فى حملها إلىّ .

ـــ إنى أعرف قيمة رسائل الغريب .

وقالت جانى :

إنها لم تعد غريبة يا مسيو « بيتر » .. إنها تقيم بيننا .

وضحك « بيتر » وأجاب :

ـــ مهما أقامت بيننا فإن وطنها .. هناك .. هناك .. فى بلاد الشمس الساطعة

والنهر العريض .. والأهرام الشامخة ، وأبى الهول العظيم .. إن وطنها هناك .. هناك .. فى بلد « ناصر » .

ورفع العجوز يده بالتحية وانصرف .

وأمسكت « منى » بالرسالة وقرأت الخط على الظرف ، وقالت « لنادية » التى نظرت إليها نظرة مستفسرة :

— من عصام .

وفضت « منى » الظرف وأخرجت الرسالة .. وأخذت تقرءها وهى ترشف فنجان الشاى وتلتهم قطعة من الكيك .

وكانت تبدو عليها شتى الانفعالات وهى تقرأ الرسالة .. كانت تبتسم تارة .. وتتجهم أخرى ، وكانت «جابى » ترقب ملامحها فى شىء من الدهشة ، بينما أخذت « نادية » تنقل بصرها بين « منى » وهى منهمكة فى القراءة وتنظر إلى الأفق وقد أخذت الشمس تقترب منه ملقية ذيولها الحمر على أسقف الدور المنحدرة وقد بدا بناء المحطة من بعيد بشجرته الضخمة التى تكاثفت أوراقها حتى كادت تخفيه بفروعها التى تحنو عليه .

وكان « تونى » قد انحنى على الراديو الضخم الموضوع فى ركن النادى .. ينقل المؤشر من محطة إلى محطة وقد أخذ يصدر منه صفير وذبذبات منفصلة وكلمات متقطعة بشتى اللغات ، حتى استقر على محطة تصدر موسيقى صاخبة معربدة .

وصاح « تونى » فرحاً :

— روك آندرول .. من أمريكا بلد العجائب .

ثم رفع ذراعيه مفتوحتين هاتفاً :

— من يشاركنى الرقصة قبل أن تنتهى ؟! هيا يا منى .

وكانت «منى » قد انتهت من قراءة الرسالة وبدا عليها التجهم وهى تطويها وأجابته فى غيظ :

— أوقف هذه الموسيقى الهمجية التى تصدع بها آذاننا .

وصاح « تونى » فى لهجته المرتفعة التى حاول بها أن يغلب صوت الموسيقى الصاخبة :

ــ همجية .. يا همجية ؟ .. إنها من أمريكا .

ــ ليكن .. أرحنا من سماعها .. إنى لا أريد أن أسمع شيئاً من أمريكا !

والتفتت إليها « جابى » فى دهشة وتساءلت :

ــ عجباً ! لماذا ؟

ــ لأنها سحبت قرض السد العالى .

ــ وما هو السد العالى ؟

ــ الذى نبنى آمالنا عليه .. الذى سيحفظ لنا مياه نيلنا الضائعة البحر ، ويصلح منها بضعة ملايين من الأفدنة تزرعها ونجنى ثمارها .. لكى تهيىء لأنفسنا ولأبنائنا حياة أفضل .. حياة كالتى يحيونها .. ويحياها فلاحوهم ، وعمالهم .

وأردفت « نادية » قائلة :

ــ أجل .. إنه أملنا فى أن يحيا أربعة وعشرون مليوناً كما يحيا الآدميون .. يأكلون لقمة طيبة ويشربون ماء نقياً ، ويقطنون فى مسكن نظيف .. حقيقة .. إننا نرى فيه وسيلتنا إلى حياة كريمة .

وسألت جابى :

ــ ولماذا لا تقيمونه ؟

ــ لأننا فى حاجة إلى نقود .

ــ ولِمَ لا تقترضون ؟

ــ لقد عرضت علينا أمريكا وإنجلترا قرضاً لإ قامته .

ــ ولماذا لا تأخذونه ؟

وصاحت « منى » وهى تهز الرسالة فى يدها :

ــ لقد عادوا وسحبوا عرضهم .

وأجاب « تونى » وهو يحرك ساقيه على نغمة دقات الرقصة الصاخبة :

— هم أحرار فى نقودهم .

وأجابته « منى » صائحة :

— ولكنهم ليسوا أحراراً فى إهانتنا .

وتساءلت جابى :

— وكيف أهانوكم ؟

— قالوا إنهم لن يعطونا قرضاً .. لأننا فقراء .. ومفلسون .. واقتصادنا منهار .

ومدت «نادية » يدها وهى تأخذ الرسالة من « منى » وتساءلت فى دهشة :

— من قال لكِ هذا ؟

وأجابت منى :

— عصام .

— عصام كتب لك هذا ؟ لقد أصابته عدوى صبرى .

— لقد أصابت العدوى .. أربعة وعشرين مليوناً .. إن رسالته مليئة بالسخط على أمريكا .

وأجاب « تونى » وقد كف عن الرقص وأقبل يجلس على مقعد بجوار نادية :

— لأنكم شيوعيون .

وتساءلت « نادية » فى دهشة :

— من قال إننا شيوعيون !؟

— لأنكم اشتريتم أسلحتكم من روسيا .

— أكان علينا أن ننتظر حتى تعتدى إسرائيل بأسلحتكم ، التى أبيتموها علينا .. ولا نمد يدنا إلى الأسلحة المعروضة علينا .. لكيلا نتهم بالشيوعية ؟

— بل أخذتم السلاح لتقيموا إمبراطورية عربية موالية للشرق .

— الإمبراطورية العربية .. لن تقام أبداً بالسلاح .. ولكنها ستقام بالمشاعر الموحدة .. والمصالح المشتركة .. ولن يقيمها فرد .. ولكن ستقيمها شعوب ..

ترى بقاءها فى كيانها الموحد .. ونحن لن تكون موالين لشرق أو لغرب . إننا نحاول أن نكون كتلة محايدة .. تعمل للمحافظة على التوازن من أجل السلام .

— هذه خدعة شيوعية .

— بل تلك هى أغراض مؤتمر باندونج .. أغراض سليمة واضحة لا يمكن أن تشوبها الخديعة .. هل هناك خدبعة .. فى أن تكون العلاقات بين الدول قائمة على احترام حقوق الإنسان ؟

وهزت « جابى » رأسها بالنفى ، فعادت « نادية » تتساءل فى انفعال :

— وهل هناك خديعة فى أن تقوم هذه العلاقات على احترام سيادة الأمم وسلامة أراضيها ؟

وعادت « جابى » تهز رأسها بالنفى ، واستمرت « نادية » فى تساؤلها :

— وهل هناك خديعة فى الاعتراف بالمساواة بين جميع الأجناس وبين جميع الأمم ؟

وهزت « جابى » رأسها مرة ثالثة .. وقبل أن تعاود أسئلتها صاح بها « تونى » محاولا إسكاتها وهو ينهض متجهاً إلى الراديو :

— انتهينا .. لا تصدعى رءوسنا .. بمبادئك .. إننا لم نأت إلى هنا لسماع دروس فى السياسة والمبادىء .. من يريد أن يرقص ؟!

وقبل أن يصل إلى الراديو قفزت « منى » من مقعدها ولحقت به وهى تهتف :

— دع الراديو .

— لمه ؟

— لأنى سأسمع القاهرة .

— وماذا من المغريات يمكن أن تأتينا به القاهرة ؟!

— خطبة الرئيس « جمال عبد الناصر » .

ثم التفتت إلى « نادية » متسائلة :

— ألا تريدين سماعها يا نادية ؟! إن اليوم ٢٦ يوليو .. وقال لى عصام إنه

سيذهب إلى الإسكندرية هو وصبرى .. لسماعها فى ميدان المنشية .

وبدا على « نادية » الشرود .. ترى هل ينوى مدحت سماعها ؟!

إنه لم يبد قط اهتماماً بالشئون السياسية .

— لم يحدثها أبداً إلا عن عملياته ومرضاه ، وطلبته ، ورياضته .

إنه يبدو كأنه يعيش فى معزل عن الأحداث التى تحيط به .

ولكنه مع ذلك قد يسمع الخطبة .

— أجل .. قد يكون جالساً الآن مع صاحبه « جادالله » فى مكتبه فى المستشفى .. أو فى حجرته بالبيت .. قد انحنى على الراديو يدير مفتاحه .. إنه قد يشاركها فى الاستماع إلى نفس الصوت .. تحت نفس السماء وعلى نفس الأرض !

ولكن هل يستطيع الجهاز أن ينقل الصوت إلى هنا ؟ ولِمَ لا !!

لقد جرّبته بضع مرات .. فسمعت محطة القاهرة تارة .. وسمعت صوت العرب تارة أخرى .. ولكنها كانت فى المرات القلائل التى استطاعت أن تحصل على المحطة ، كان الصوت متقطعاً .. وكانت محطات أخرى تشوش عليه وتعلق فوقه .

على أية حال .. لِمَ لا تجرب هى و « منى » .. ليس لديهما ما يمنعهما عن الاستماع مهما طالت مدته .

ونهضت « نادية » تتبع « منى » إلى الراديو .

وكان « تونى » يصيح « بمنى » وهى تحرّك المؤشر يمنة ويسرة :

— ما هذا السخف ؟!

وأدارت « منى » رأسها وهى تنحنى على الراديو .. وصاحت به فى غيظ مكبوت :

— كف أنت عن هذا السخف .. وإلا جررت على نفسك الأذى .. أنت تعرف ما يمكن أن أصنع بك .

ـــ ولكنى أريد أن استمع إلى الموسيقى .

ـــ لديك « البيك آب » .. أو جهاز الأسطوانات . خذ بضعة فرنكات هبة منى .. واذهب لتسمع ما تشاء .. فقط اغرب عنا الآن .

وهز « تونى » كتفيه فى غيظ :

ـــ ولكن ما ذنب كل هؤلاء حتى تسمعيهم خطاب جمال عبد الناصر ؟!

ـــ إن أحداً منهم لم يشتك .

وهنا صاحت « جابى » تنهر « تونى » :

ـــ تونى .. دعها تسمع وكف عن مشاغبتها .. لو كنت بعيداً عن وطنك لقدرت لهفتها على سماع أى صوت من وطنها .

ـــ لو كنت بعيداً عن وطنى .. لما اشتقت أبداً إلى سماع .. بينو .. أو موليه .

وأجابت نادية ضاحكة :

ـــ لأنك لا تؤمن بهما .. أما نحن فتؤمن تماماً بجمال عبد الناصر

وهز « تونى » كتفيه ، ثم صاح فى الشلة :

ـــ من منكم يريد الرقص ؟!

ونهضت بعض « الشلة » وراءه إلى حجرة « البيك آب » ، وجلس البعض يتشاغلون بلعب الشطرنج والمناقشة .

وجرت « نادية » مقعداً بجوار الراديو ، وجلست بجوار « منى » التى انهمكت فى تحريك المؤشر ، وبعد لحظات اقتربت « جابى » بمقعدها وجلست بجوارهما .

وأخذ المؤشر يتحرك يمنة ويسرة ، « والوش » يتعالى .. « والطقطقة » تزداد .. واللغات المختلفة تتشابك ، والنغمات المتناقضة تتقاطع وتتضارب .

وهزت « منى » رأسها ، وهى منهمكة فى إدارة المؤشر وتساءلت موجهة الحديث إلى جابى ونادية :

ــ حقيقة لست أدرى لماذا يكرهنـا الأمريكان .. ويناصبوننا كل هـذا العداء ؟!

وأجابت « نادية » ببساطة :

ــ لأن هناك عداء بيننا وبين إسرائيل .. ولأن ثلاثة أرباع إدارات الدعاية والإذاعة والنشر فى يد اليهود .. ولما كان يتحتم على الأمريكان أن يساعدوا أحد الطرفين .. فهم يفضلون دائما مساعدة إسرائيل .

وهزت « منى » رأسها وأجابت :

ــ ولكن عصام يقول إن السبب فى رفض تمويل السد العالى بمثل هذه الطريقة الوقحة هو مؤتمر بريونى .

ــ طبعاً .. لأنهم يعتبرون أن من لم يسر فى فلكهم ، فليس منهم .. لقد قال لى صبرى .. إن العالم فى نظر الأمريكان ينقسم إلى قسمين لا ثالث لهما : قسم أمريكى ، وقسم شيوعى ، والذى ليس أمريكياً ، لا بد أن يكون شيوعياً .

ونظرت « منى » بطرف عينها إلى « جانى » ، ثم قالت بالعربية :

ــ وهل نحن شيوعيون حقيقة ؟

وأجابت « نادية » ،وهى تضحك من تشكك « منى » الدال على جهلها .. وأجابت بالفرنسية :

ــ طبعاً لا .. نحن غير شيوعيين مطلقاً

ــ إذن لماذا يحبنا الشيوعيون ولماذا يعطوننا الأسلحة ؟

ــ لأنهم يؤيدون موقف الحياد الذى نقفه .

ــ ولماذا يؤيدونه .. ولا تؤيده أمريكا ؟!

ــ لأن أمريكا تحاول أن تكتل الدول فى حزام يحيط بالدول الشيوعية .. كأنه درع يمنع تسرّب الشيوعية إليها ، أو واق يتلقى عنها الصدمة .

ــ من أنبأك هذا ؟!

ــ أنبأتنى إياه معلوماتى العامة ، يا جاهلة .. إن الحزام الذى أعنيه يتكوّن من

ثلاث قطع أو ثلاث حلقات .. الحلقة الأولى حلف الأطلنطى فى أوروبا .

— والثانية ؟!

— حلف بغداد فى الشرق الأوسط .

— والثالثة ؟

— حلف ما نيلا فى جنوب شرق آسيا .

— قلت لى .. وماذا تريد منا أمريكا ما دامت قد كوّنت هذا الحزام ؟!

— تريد أن نتخذ مكاننا فى الحزام .. لا تريد أن نسقط فتحدث به ثغرة ينفذ منها النفوذ الشيوعى .

— وهل يريد النفوذ الشيوعي حقاً أن يتسرّب من هذه الثغرة ؟

— حتى الآن .. يكفيه جداً .. ألا يلتئم حوله الحزام فى حلقات محكمة من دول معادية له أو تسير فى ركاب إحدى الدول .. يكفيه جداً أن تكون هناك ثغرات .. من دول لا تعادية .. بل تقف معه موقف المحايد .. الذى لا يشارك فى مهاجمته ويرحب بصداقته والتعاون معه ، كما يرحب بصداقة الطرف الآخر والتعاون معه .

— وهل ستكتفى الشيوعية بهذا الموقف من الدول ؟ ألن تحاول أن تتسرب إليها .. كما يتسرّب الماء فى الورق النشاف .. ببطء وبساطة ؟

— جائز أن تحاول هذا .. فتلك طبيعة الأمور .. وأظن مهمة الدول المحايدة .. مثلنا ومثل الهند .. أن تقاوم محاولات التسرّب وأن تحتفظ بحيادها حقيقة .. وإلا ذابت كتل الحياد .. وانهارت مبادىء التعايش السلمى .. والحياد الإيجابى .. وعاد العالم مرة أخرى إلى كتلتين متنافرتين لا وسط بينهما ، وأصبحنا « كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا » .

— ويصبح إحساس الأمريكان بالحذر من تصرفاتنا .. ومقاومتهم لا تجاه الحياد الذى نتجه .. إحساساً فى موضعه .

— على أية حال كان يجب ألا يبدءونا .. بالشك .. والعداء .. وأن يفرقوا بين

اتجاهات القومية واتجاهات الشيوعية .. إنهم يتوهمون كل محاولة للتحرر من نفوذهم ، ارتماء فى أحضان الجانب الآخر .

وكانت أصابع « منى » ما زالت تدير المفتاح والأصوات المتنافرة .. و « الطقطقة » و « الخرفشة » ما زالت تتوالى من الجهاز .

وفجأة سمع صوت يأتى متقطعاً من بعيد وميزت أذن « نادية » فيه بعض كلمات عربية فهتفت بمنى :

ـــ سمعت ؟!

واقتربت « نادية » من الراديو وتناولت من « منى » مفتاح الراديو قائلة :

ـــ دعيه لى .

وقرّبت « نادية » .. أذنها من الجهاز ، وأخذت تحرك المؤشر ببطء شديد حول المحطة التى صدر منها الصوت العربى .

وسمعت نبرات الصوت خافتة متقطعة .. وما لبثت حتى اتصلت .. وأدارت « نادية » المفتاح على آخره فعلا الصوت وازدادت النبرات وضوحاً .

ـــ واستطاعت أذن « نادية » أن تميز الصوت يهتف قائلا :

« أيها المواطنون .. حينما نتجه اليوم إلى المستقبل ، بعد سنوات أربع من الثورة . نتجه بقوة وإيمان .. نعتمد على الله ، ونعتمد على أنفسنا .. من أجل تحقيق الأهداف التى قامت من أجلها هذه الثورة ، والتى كافح من أجلها الآباء والأجداد ، من أجل إقامة دولة مستقلة استقلالا حقيقياً .. لا استقلالا زائفاً ، استقلالا سياسياً واستقلالا اقتصادياً . »

ـــ وهنا غطى صوت على الراديو فقد اندفع « تونى » يصيح بجانى :

ـــ جانى .. تصوّرى .. لقد أحضروا هنا أسطوانة « الفيس بريسلى » الأخيرة . أتتصورين هذا ! أترقصينها معى يا « منى » ؟

وصرخت فيه « منى » فى حدة :

ـــ هس ..

وانحنى تونى ساخراً وأجاب :

ـــ متأسف .. لم أكن أظن أن الوحى قد هبط .. عن إذنكم . إنى أفضل « الفيس بريسلى » و ..

وعادت « منى » تصيح به :

ـــ قلت لك صمتاً .

وعاد « تونى » من حيث أتى .

وحاولت « منى و نادية » معاودة الإنصات إلى الراديو ولكن الموجة .. كانت قد اختلطت بموجات أخر .. وعادت الطقطقة ، والأصوات المتقاطعة تتعالى من الراديو ، وعادت أصابع « نادية » تدير المفتاح فى بطء وحرص .. ومضت فترة والموجة ضائعة بين غيرها من الموجات .. وغادرت « جالى » مقعدها ، وأخذت ترقب لاعبى الشطرنج ، وبدا الملل على وجه « منى » .. وأخذ سمعها ينصرف إلى أصوات الجاز المتصاعدة من الغرفة الأخرى .

وقبل أن تهم بالنهوض ، عاد الصوت يهتف مرة أخرى فى حماس : « قناة السويس التى ضحينا فيها .. قناة مصرية .. هذه القناة ملك لمصر .. فهى شركة مصرية مساهمة ، حفرت بواسطة المصريين ، ١٢٠ ألف مصرى ماتوا أثناء حفرها .. وكان المفروض أن نأخذ ١٥٪ من الأرباح فوق ٤٤٪ من الأسهم ، ولكن مصر أدينت واضطرت إلى بيعها بمبلغ ٤ مليون جنيه ، وتنازل إسماعيل عن الأرباح ، فحصلت إنجلترا مجاناً على ٤٤٪ من الأسهم .

« إن دخل القناة ٣٥ مليون جنيه لا تأخذ مصر منها سوى مليون جنيه ، اليوم ستعاد حقوقنا فى قناة السويس .. ولن نلجأ إلى الاقتراض من تجار الحروب لكى نقيم السد العالى ونبنى بلدنا بل سنبنيه بسواعدنا ، ومن قطرات عرقنا ودمائنا نحن أغنياء .. ولكننا كنا متهاونين فى حقوقنا .

« أما اليوم فسنسترد هذه الحقوق خطوة خطوة .. و .. » .

ووصل أحد الجرسونات ومال على « منى » وهمّ أن يقول لها شيئاً

فصاحت :

ــ ابعد الآن .. لا أريد أن أسمع شيئاً .

وهز الجرسون كتفيه وانصرف فى دهشة .

وعادت « منى » إلى الإنصات ، وتعالى من الراديو هتاف كأنه بحر يجيش أو سماء ترعد .. وبعد برهة صمت الضجيج وعاد الصوت يهتف فى صوته الواثق :

« قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس :

باسم الأمة ــ رئيس الجمهورية :

مادة ١ ــ تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية إلى شركة مساهمة مصرية .. وينتقل إلى الدولة جميع مالها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات ، وتحل جميع الهيئات واللجان القائمة حالياً على إدارتها ويعوّض المساهمون وحملة حصص التأسيس عما يملكون من أسهم وحصص بقيمتها المقدرة عند صدور هذا القانون ويتم هذا التعويض بعد استلام الدولة لجميع مهمات الشركة المؤممة .

مادة ٢ ــ يتولى إدارة ...

ومرة أخرى ضاعت الموجة .. وغلبت عليها صيحات بلغة غير مفهومة .. ثم دقات موسيقى وحاولت « نادية » عبثاً أن تضبط الموجة .

وأقبلت « جابى » عليهما بعد أن انتهى دور الشطرنج وهتفت بهما قائلة :

ــ ما هذا الاهتمام العجيب ؟! كأنى بكما تستمعان إلى إعلان الحرب ؟!

وأجابت « منى » ضاحكة :

ــ إلى إعلان التأميم وأنت الصادقة .

ــ أى تأميم ؟

ــ تأميم قناة السويس

ــ لست أفهم .

وأجابت « نادية » ، وهى تحاول ضبط مفتاح الراديو :

وسألت « جابى » فى دهشة :

ـــ ولكن قناة السويس ملككم .

ـــ أبداً .. لقد كانت ملكنا اسماً ، ولكنها ملك الناس كلهم عدانا فعلا .. لقد كانت دولة داخل الدولة .

وقالت « منى » :

ـــ لقد جعلها « عبد الناصر » ملكاً للدولة المصرية بعد أن كانت ملكا للدول الأخرى .

وعادت « نادية » تدير المفتاح بأصابعها يمنة ويسرة حتى علا الصوت يهتف من جديد :

« اليوم ، وقد عادت الحقوق إلى أصحابها بعد مائة سنة إنما تحقق التحرير الحقيقى .. لقد بنيت القناة من أجل مصر ، ولكنها كانت منبعاً للاستغلال .. وليس عيباً أن أكون فقيراً ، ولكن العيب هو امتصاص الدماء .

وأقبل « تونى » ووراءه « الشلة » وهم يتصايحون ويتضاحكون .

ثم هتف فى ارتياع .. كأنما يسمع عن جريمة ارتكبت :

ـــ أمم قناة السويس !؟

ونظرت إليه « نادية » وتركت مفتاح الراديو من يدها وأجابت ببساطة وسخرية :

ـــ أجل أمم قناة السويس .. القناة المصرية .. التى تجرى فى أرض مصر .. أتراه قد ارتكب منكراً ؟

وصاح تونى :

ـــ هذه سرقة .. هذه همجية .

وهنا ارتفعت كف « نادية » بلا وعى .. وهبطت عليه فى صفعة مدوية ، وهتفت وهى تضغط على نواجذها :

ـــ السرقة هى ما تفعلونه منذ مائة عام .. والهمجية هى ما تفعلونه فى

الجزائر .

ومد تونى أصابعه يتحسس فى ذهول أثر الصفعة المفاجئة على وجهه ، وقد جحظت عيناه وفغر فاه وصاح مشدوهاً :

ــ متوحشة .. سأعرف كيف أؤدبك .

وهتفت « منى » بالعربية ، وهى تضحك ساخرة :

ــ اتنّيل .

ومدت « جابى » يدها فجرت « تونى » للخارج لتضع حداً للمعركة قائلة :

ــ أنت الذى بدأت بإهانتها ياتونى .

وسار « تونى » وراءها ، وهو يتحسس أثر الصفعة ويتلفت إلى نادية مذهولا ، وهو يتمتم :

ــ سوفاج .

وعادت « نادية » تضبط الموجة وعلا الصوت الهاتف يقول :

« والآن أيها المواطنون ، يتجه إخوة لكم من أبناء مصر لإدارة القناة ، والآن فى هذه اللحظة ، يتسلمون شركة القناة المصرية ويديرون ملاحتها ، وهى جزء من مصر ، نقوم بهذا العمل لنسترد حقنا المغتصب ، ونقيم السد العالى ونشيد صرح العزة والكرامة » .

(٣٦)

لا يمانع ...

لم تستطع رسالة « نادية » التي أشارت فيها لمدحت إلى احتمال رحيلها من « جانب » ، والتي حاولت أن تصده عن التفكير في زيارتها .. أن توقف تيار هذا التفكير ، وأخذت الفكرة تنمو وتتضخم في ذهنه ، وأخذ يهيىء لها نفسه ويدفع إليها بالمبررات والعلل .. وازداد إحساسه بتلف معدته .. وبإرهاق أعصابه ، وبضرورة السفر إلى لندن .. لفحص معدته وعلاجها .. وبقضاء فترة استجمام يستريح فيها من الجهد المستمر المتواصل .

وكثرت أشعاته التي أجراها على معدته ، وزادت تحاليله ، ورغم سلبيتها فقد أقنع نفسه أن شيئاً ما .. موجود بباطنه يستحق العلاج والسفر .

وهكذا استطاع أن يقيم لسفره حجة قوية مقنعة .. لنفسه ولمن حوله .. وأن يبدو إزاء نفسه ، وإزاء الناس جاداً صارماً كما تعوّد أن يكون ، وأن يكبت تماماً ذلك الميل الخفي المتواري الذي يكمن في قرارة نفسه .. كما تكمن البذرة التي أنبتت النبت وأظهرت فروعه وأوراقه .. وبقيت هي متوارية .. بجذورها المندفعة في باطن الأرض ، والتي تبعث الحياة في كل برعم في النبت ، وإن ظلت خفية مجهولة لا يحس لها وجود ..

وهكذا انتشرت في نفسه فكرة السفر كما ينتشر النبت بفروعه وأوراقه ، وكأن ساق النبت ومحوره ودعامته الظاهرة هي فحص معدته وعلاجها .. يقويه ويؤيده ما تسببه له من منغصات ومتاعب .. وإرهاقها الدائم في بضع السنوات الأخيرة .

أما البذرة الخفية .. التي لم يحاول هو نفسه النبش حولها ، فكانت

« نادية » .

« نادية » .. المجهولة .. النائية .. التى تسرّبت إلى أعماقه ، والتى بات يحس بأنها أشد الناس قرباً إليه وارتباطاً به ، والتى أصبح يعرف كل تفاصيلها ودقائقها .. كأنها لم تفارقه لحظة .

« نادية » .. التى يعرف كيف تحس وكيف تعيش ، وهو الذى لم يأبه لحظة أن يشغل نفسه بإنسان على وجه الأرض .. سوى نفسه .

« نادية » التى يعرف شكل حجرتها .. الفراش الخشبى العتيق .. الذى كانت تنام عليه أمها وهى فتاة .. بنقوشه وزخارفه ، والتسريحة العالية المستقرة فى ركن الغرفة .. المحفورة بالزهور « الأويما » ، والمقعد الكبير طراز « لوبكانز » والباب الزجاجى المؤدى إلى الشرفة الخشبية المطلة على حقول الكرنب والبنجر ، وحظيرة المواشى ، وقمم الجبال تبدو فى الأفق بيضاء مختلطة بالسحب ، والأشجار المتكاثفة على سفح الجبل .

« نادية » التى يكاد يعرف كل حركة من حركاتها ، وكل سكنة ، والتى يراها كل يوم تنحدر بحقيبتها فى المنحدر المؤدى من « روميت » إلى مدخل البلدة ، وتسير بجوار سور سكة الحديد حتى تصل إلى المدرسة المطلة على المحطة .

إنه يكاد يعرف منظر المحطة .. بكل ما فيه من تفاصيل . حتى هذا الحمال الذى تعوّد أن يرتدى المعطف الكاكي و « يكبس » القبعة حتى أذنيه ويدفع أمامه عربة الأحمال الحديدية الصغيرة .

« نادية » التى يعرف عنها .. أكثر مما يعرف عن أصدق أصدقائه .. وأقرب أقربائه ، والتى يحس بوجودها معه أكثر مما يحس بأمه التى تعيش معه تحت سقف واحد ولا يفصل حجرتيهما سوى جدار رقيق .

كانت بنفسه لهفة إلى رؤيتها ولقائها والحديث معها .. وإلى تحقيق الدعوات الوهمية التى دعته إليها .

كانت بنفسه لهفة إلى أن يصعد معها الجبل ، ليجلسا على شاطئ البحيرة ،

يوقدان النار ويطهوان الطعام .

كانت بنفسه لهفة إلى أن يذهب معها إلى النادى ، ليلعب التنس ويشرب الشاى .

كانت بنفسه لهفة إلى أن يجلس معها أمام المدفأة يناقش حديثها ، ويحدث أمها .. ويتلقى مشاكسات أختها .

ومع كل هذه اللهفات .. لم يحاول قط أن يبرز لنفسه أو لمن حوله .. فكرة زيارتها كعلة للسفر .. بل طواها .. كأنها شيء لا وجود له .. وكأن سفره .. لم يكن أبداً إلا للعلاج والاستجمام .

وبدأ يتخذ خطوات إيجابية للسفر .. على الأساس الواضح .. فاتصل بالدكتور « تنر » فى لندن ، وكتب إليه بضع مرات .. وأخذ يعد جواز السفر ، ويسأله عن ترتيباته ووسائله .. وحصل من شركة السياحة على بضع خرائط لجنوب أوروبا وإنجلترا .

وخلا إلى نفسه ذات عصر فى مكتبه بالمستشفى ، وأخرج إحدى الخرائط وأخذ ينظر إليها نظرة فاحصة .

وركز عينيه على المنطقة الجبلية فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا وبدأ يبحث عن منقطة بذاتها .

واستطاع أن يقرأ بالحروف الإفرنجية الكبيرة Hautes Alpes وأخذ يتتبع الحدود الرأسية التى تخترق الجبال فاصلة بين فرنسا فى جانب ، وسويسرا وإيطاليا فى جانب آخر .. وأخذ يتتبع الحدود من الجنوب إلى الشمال حتى وجدها تلتقى ببحيرة « ليمان » .. وهبط ببصره مرة أخرى يفحص الجزء الفرنسى من الجبال .. وبرزت أمامه مدينة « جرينوبل » .

لا بد أن تكون « جاب » قريبة من هذه المنطقة .. فقد حدثته عنها « نادية » فى عدة مناسبات ، ليهبط إذن مع خط سكة الحديد .

هذا تقاطع سكة الحديد جنوب « جرينوبل »

هذه بلدة « فين » . وهذه بلدة ..

وفجأة بدت له « جاب » بحروف صغيرة .

وتملكه إحساس بالسعادة ، وهو يرقب الحروف الثلاثة الصغيرة ، وأخذ ينظر إلى النقطة السوداء .. وانطلق خياله يجسد ما وعته ذاكرته من مناظرها .. قمم الجبال ، والأسقف المنحدرات ، والمداخن .. و .. و ..

وإنها ليست بعيدة عن طريقه .

أجل .. لو أنه سافر بالباخرة .. فسيهبط إلى مرسيليا .. لكى يذهب إلى جنيف أو باريس !

وهو لا بد أن يذهب إلى إحداهما أو كليهما .. لأنه يجب ألا يترك الفرصة تمر دون أن يرى هاتين العاصمتين الكبيرتين .

أجل .. إن المفروض عليه أنه ذاهب للعلاج ، والاستجمام .

وهو ليس مصاباً بمرض ملحّ عاجل يستدعى الطيران فوراً إلى لندن .. فلا شيء إذن يدعوه إلى الاستعجال ، بل إن مرضه قد يكون خير علاج له ، مجرد الاستجمام والراحة ، والتجوال فى هذه المناطق الجبلية الرائعة ، قد يغنيه عن العلاج نفسه .

والمدينة الصغيرة .. لا تبعد كثيراً عن طريقه من مرسيليا إلى جنيف أو إلى باريس .. فهو يستطيع أن يهبط فى « فين » ثم يذهب إليها يوماً أو بعض يوم .. ثم يعود مرة أخرى إلى طريقه الأصلى .. دون أن يبدو عمله .. غير طبيعى .

غير طبيعى ؟

لمن ؟!

أهو مسئول أمام أحد ؟!

أهناك من يحاسبه .. ويحدد له الطريق الطبيعى ، وغير الطبيعى ؟! إنه حر فى أن يذهب حيثما شاء ، وقتما شاء .

وفى أن يذهب ليستجم فى أى مكان.. فيشى.. أو جنيف أو زيورخ.. أو...

أجل . أجل . كل هذا معقول . معقول . ولكن ليس فى « جاب » .

إن « جاب » هذه لم يسمع أحد بها من قبل ، ولا عرف عنها أنها مكان للاستجمام أو الاستشفاء .

فأى علة يعلل بها سفره إليها !

ولكن من الذى يطلب التعليل ؟!

نفسه !

والناس من حوله !

بل « نادية » نفسها .. وأهلها !

إن المعقول أن يمر بها .. وهو فى طريقه إلى مكان ما .. أما أن يذهب خصيصاً إليها .. فشىء يبعث على الريبة .. والشك .

إن شخصيته ، وكبرياءه .. واستخفافه بالميول الحادة .. لا تقبل منه مثل هذا العمل .

لو أن « جاد الله » مثلا .. قد أقدم عليها .. لما لامه أحد ! بل لبدا .. ذلك منه .. حماقة طبيعية .. لا تستبعد من صاحب حماقات .

وكما يقول المثل .. « العيب من أهل العيب مش عيب » . فالحماقة من أهل الحمق ليست حماقة ، أما منه فهى حماقة كبرى .

ومع ذلك فهو سيسافر .

وسيسافر بالسفينة .

وسيهبط فى مرسيليا .

ويأخذ سكة الحديد المتجهة شمالا .

وسيهبط فى « فين » .

لأى سبب !! ولأية علة !!

وسيأخذ القطار إلى « جاب » ، وسيلقاها .

سيلقى « نادية » .. وسيسلم عليها ، ويضحك معها .. ويذكرها

برسائلها .

وأحس بسعادة غامرة ونشوة لذيذة .

إنها لا شك ستحس بنفس السعادة وبنفس النشوة .

ولكنها تقول إنها قد تسافر فى ذلك الوقت .

ما أغباها !.. ما الذى يضطرها إلى السفر فى هذه الفترة ! لماذا لا تؤجله ؟ ربما لأنها لا تملك التأجيل .

لا بد أن أمها ، وخالتها وجدتها .. دبرن أمر السفر فى هذا الموعد . فلماذا لا ترفض هى ؟

ولكن هل تستطيع ؟!

ولِمَ لا تتمارض مثلا .. أو تتذرع بأى عذر ؟!

مثل ماذا !

هل تجسر أن تقول إنها تنتظر زيارته ؟!

طبعاً لا ..

من يكون هو .. بالنسبة إليها .. حتى تؤجل سفرهم من أجله ؟

إنه فى نظرهم إنسان مجهول .

مجهول .. بقدر ما هى مجهولة .. ممن حوله .

والتعارف الباطنى الذى حدث بينهما .. لا يحس به أحد سواهما .

ولكنها تقول .. قد ..

أى أنها قد تسافر أو لا تسافر .

فلماذا يزعج نفسه .. بتأكيد الاحتمال الأول .. احتمال السفر !.

لماذا لا يتصرف على أساس الاحتمال الثانى ، وهو بقاؤها ؟

ولكن هب أنها سافرت !!

لتفعل ما تريد ...

لقد عرض عليها هو فرص اللقاء .. فإذا كانت قد رفضتها .. فلتنفلق .

وتملكه إحساس بالشفقة عليها .

وود لو كانت بجواره ليربت على ظهرها ويضمها إليه فى عطف .

ما ذنبها حتى تنفلق ؟!

على أية حال إن خير ما يفعله هو أن يسافر ، وليحدث ما يشاء .. إنها لا شك ستبذل كل ما تستطيع للبقاء .. إذا رأت منه تصميما على السفر .. وإذا لم تفلح فى البقاء .. فلن يمنعه ذلك من السفر .

إنه لن يخسر كثيراً إذا هبط فى « فين » ، وذهب ليقضى بضع ساعات فى « جاب » .

ليشاهد فيها جبالها ، وبحيرتها وشوارعها .. ويرى بيت « نادية » ومكتبها المطل على المحطة .

أجل .. إنها متعة .. أن يشاهد كل تلك الأماكن التى صوّرتها له ، ويطوف بها ويتنسم هواءها .. سيكون أقدر على تصوّرها .. إذا ما دعته إليها بعد ذلك ، وستدهش هى عندما يكتب إليها بعد ذلك عن بلدتها .. كتابة العارف الواثق .

وستضايق عندما تعرف .. أن الفرصة سنحت للقائها ثم ضاعت .

ولكنه سيطمئنها .. بأنه لا بد أن يلقاها ثانية .

أجل .. إن لقاءهما فى رأيه قد بات أمراً محتما .

إن ما بينهما من رباط وتفاهم ، وود وصداقة .. و .. و ..

ولماذا لا يقول حباً ؟

لماذا يحس بالخجل من هذه الكلمة !

لقد سبق أن اعترف فيما بينه وبين نفسه أنه يحبها ، فلماذا يحاول أن ينحى الكلمة عن شفتيه ؟

إن هذه المشاعر الجياشة العميقة التى رسبت فى نفسيهما لا يمكن أن تبدد فى الهواء .

لا يمكن أن تنتهى إلى لا شىء .

إلامَ يمكن إذن أن تنتهى ؟!
إلى .. إلى ..
هو نفسه .. لا يمانع .
لا يمانع أبداً .. من أن يشد نفسه إليها .. مدى العمر .
لا يمانع أبداً .. من أن يضعها ذلك الموضع الذى أبى أن يضع فيه أحداً .. موضع المكبل لحريته .. المسيطر على أوقاته .
إنه يحس أنها أكثر المخلوقات فى هذا العالم ملاءمة لهذا الوضع .
إنها لطيفة ذكية .. حساسة رحيمة .
إنه يحب كل ما بها .
كل كلمة ، وكل تصرف ، وكل تفكير .
يحب كل لمحة فى صبورها .. وكل لفتة .
وهو من أجل هذا لا يمانع أبداً فى أن يرتبط معها بوثاق دائم ، ورباط أبدى مقدس .
إنه لا يخشى منها على نفسه أبداً
بل هو يتوق إليها .
إلى هذه الصبية الشقراء .. التى لازمته فى أفكاره وغدواته وروحاته طوال الأشهر الماضية .
ولكن هل هى ترحب بهذا ؟!
ولِمَ لا ؟!
إنها لم تطرق قط هذا الموضوع من قريب أو بعيد .
والمفروض أنها لا تطرقه .. ما دام هو لم يطرقه .
ولكنها أيضاً لا تطرق أى موضوع عملى .. كل حديثها أوهاوم فى أوهام .
أيمكن أن تكون هى نفسها وهماً !!
وأحس بمرارة أليمة .. كأنما يوشك أن يفقد أعز ما عنده .

ما هذا السخف !!

أبعد كل هذه العلاقة .. يعود إلى التشكك فى حقيقتها ؟!

لماذا إذن لم تقل له في خطاباتها ما يؤدى إلى شىء ؟!

مثل ماذا ؟

إنه لا يعرف ماذا تقول الفتيات فى هذا الموضوع !!

ولكن لا بد أنهن يقلن شيئاً .. يدفع الرجل .. إلى أن يخطو خطوة عملية .

أما هى .. فتتحدث دائماً .. فى الهواء .

على أية حال .. عندما يلتقيان .. لا شك سيكون المجال أكثر ملاءمة ، والنفوس أكثر شجاعة ، وإقداما .

إنه لن يترك هذه الفرصة تمر .. دون أن يفعل شيئاً .

وهو لا شك سيراها عن كثب ، ويرى أسرتها .. وهو واثق .. أنه لن يخذله شيء .. لأنها أطلعته على كل دقائق حياتها

هذا إذا كانت لن تسافر .. وإذا كان سيلتقى بها .

فإذا حدث العكس .. فماذا تراه صانعاً ؟

أسينتظر إلى أن تحين فرصة للسفر فى الصيف القادم !

أسينتظر عاماً آخر ؟!

لا .. لا !!

سيكتب إليها بطريقة عملية أكثر من هذا .

وسيطلب منها زيارة القاهرة .

ومع ذلك فهو يحس أنه سيلقاها ، عند سفره إلى « جاب » .

إنه واثق أنها لن تخذله .

ليست هى النوع الذى يخذل أبداً .

ستبقى لتنتظره .. ولو أدى ذلك إلى أن تفعل المستحيل .

وإنها تحبه كما يحبها .

لم تقل هذا مرة واحدة .. ولكنه يستشف من كل كلمة تكتبها ، ومن كل سطر تضمه رسائلها .

لم تقل له مرة واحدة أنها تحبه .

ولكنه يعتبر حبها مسألة بدهية مسلماً بها .. لا تحتاج إلى قول .. أو تدليل .

إنه يحس من رسائلها .. أنه الإنسان الوحيد الذى يعنيها أمره .. والذى ربطت به حياتها .

إنها قد باتت تسأله .. أتذهب إلى هذه الحفلة أم لا تذهب ؟ وهل ترتدى هذه البلوزة أم تلك ؟! وهل هى محقة فى خصامها مع أختها .. أم مخطئة ؟

أبعد هذا يشك فى أنها تحبه .. وأنها تحس له نفس الإحساس وتكن له نفس الرغبة ؟!

سيسافر إليها .. لن يمنعه شيء من السفر .

وأمسك القلم ورسم دائرة حول البلدة وأخذ يجرى بالقلم على الطريق الموصل إليها حتى وصل إلى مرسيليا .

ولم يكد القلم يقف على نقطة مرسيليا حتى سمع صوتاً يهتف من ورائه ضاحكا : ـــ ما شاء الله .. أقد انتهيت من رحلتك وعدت ثانية إلى مرسيليا ؟.

ونظر مدحت ليجد « جاد الله » يقف وراءه مطلا على الخريطة مشيراً إلى الخط الأسود الذى رسمه بين مرسيليا وجاب ..

وعاد جاد الله يقول ساخراً :

ـــ ومعدتك .. هل أجريت عملية القرحة بواسطة أحد حلاق الصحة بجاب ؟

والتفت إليه مدحت وقطب ما بين عينيه حتى التقى حاجباه الكثيفان وصاح به :

ـــ ما هذا السخف !! أى عملية هذه التى سيجريها حلاق الصحة ؟

ـــ هل تظن أن هناك فى هذه القرية المرتفعة فى أعلى قمم الألب أكثر من خلاق

صحة ؟

— من قال إنها قرية .. يا حيوان .. هل ظننتها « منية السيرج » التى نشأ بها أهلك ؟!

— ماذا ستكون أكثر من ذلك ؟!

— إنها بلدة محترمة .. بها دور سينما ، ونوادى .

— مفهوم .. مفهوم .. وبها مستشفى من أكبر المستشفيات ، وبها أطباء عالميون سيفحصون معدتك .

— ومن قال إنى سأفحص معدتى هناك ؟!

— إذن لماذا ستذهب إلى هناك ؟!

— سأمر عليها فى طريقى .

— آه .. فهمت .

— سأنزل فى « فين » ثم أستقل القطار الذاهب شرقاً . هل تراه ؟!

— لا أرى شيئاً .. وماذا ستفعل ؟

— سأبقى يوماً .. أو بضع ساعات .. حسب الجو .

— ثم ؟!

— أعود إلى « فين » ، وأستقل القطار إلى جنيف .. أو إلى باريس .. ثم أذهب بعد ذلك إلى لندن .

— ومتى تنوى أن تقوم برحلتك البلهاء ؟!

— لماذا تقول عنها بلهاء ؟!

— لأنى لا أرى لها مبرراً أبداً ولا سيما فى مثل هذه الظروف .

— أى ظروف ؟!

— الظروف السيئة التى نمر بها .

— ومالى أنا ولهذه الظروف ؟!

— ألا تعرف أن إنجلترا دعت الدول المنتفعة بالقناة لإصدار قرار فى مسألة

التأميم ، وأن المؤتمر منعقد الآن فى لندن ؟!

ـــ لينعقد أو ينفض .. مالى أنا به .

ـــ هل تظن أن الوقت سيكون ملائماً لكى تذهب للعلاج فى لندن وسط هذه العواصف ؟!

ـــ ما دام الدكتور « تنر » لن يشترك فى المؤتمر ، وأغلب ظنى أنه لن يعرف أن هناك مؤتمراً سينعقد من أجل القناة ، فإنى أستطيع أن أذهب إليه كى يفحصنى فى أى وقت .

ـــ إن الجو السياسى ملبد بالغيوم ، والصحف تقول إن إنجلترا قررت أن تدعو الاحتياط ، وأن سفن إنزال الجنود وناقلات الدبابات تتحرك إلى جهة مجهولة .

ـــ وإيه يعنى .

ـــ وإن فرقة مشاة كاملة نقلت بالطائرات إلى قبرص .

ـــ لماذا كل ذلك ؟ أمن أجل .. أن شركة قناة السويس المصرية التى كان مفروضاً أن تكون ملكنا بعد بضعة سنوات .. قد أممناها !

ـــ وسندفع تعويضات لأصحاب أسهمها .

ـــ ما الذى يزعجهم إذن ؟

ـــ يزعجهم المبدأ نفسه .. يزعجهم أن يتقوّض نفوذ إنجلترا إلى الحد الذى لن تستطيع بعده أن تستولى على إدارة القناة .. التى ظلت إنجلترا ترفع عقيرتها وسط العالم .. بأنها شريانها الحيوى .

ـــ ولماذا يحركون كل هذه الأساطيل ، وينقلون كل هؤلاء الجنود ؟!

ـــ لأجل أن يستعيدوا القناة بالقوة .. إنهم لا شك يضربون أنفسهم بالنعال .. لأنهم جلوا عنها .

ـــ وهل تظنهم يجرءون على مهاجمتها فعلا ؟!

ـــ ولِمَ لا .

ـــ كلام فارغ .

— إن أى هجوم منهم سيغلق القناة .
— وسيضع كل بترولهم فى أيدينا .. لأن العرب يستطيعون تحطيم كل أنابيبه .
— كل هذا وتقول إنهم سيهاجمون القناة !
— أنا لم أقل إنهم سيهاجمونها ، وإنما قررت واقعاً وهو أن هناك حركات حشد .
— تهويش .
— ليكن .. المهم .. أنه ليس من المناسب أن تسافر فى هذا الجو الملبد بالغيوم ، والذى تجرى فيه على أقل تقدير .. حركات تهويش .
— ليس لى دخل بكل هذا .. إنها زوبعة فى فنجان .. وستنتهى إلى لا شىء .
— إلى هذا الحد قد أصررت على السفر .
— أجل .
— أحقاً من أجل معدتك ؟! قل الحق .
وتردد مدحت قبل أن يجيب وهو يعبث بقلمه فوق الخريطة :
— إلى حد ما .
ورفع جاد الله كتفيه مسلماً وقال :
— سافر .. ما دمت تحس بالرغبة فى السفر ، وإن شاء الله سينتهى كل شىء على خير .. لن تكون المسألة أكثر من زوبعة فى فنجان كما قلت .. إن إنجلترا تحاول أن تلعب بسلاح التهويش الذى كانت تلعب به فيما مضى .. هل تذكر بضعة الدبابات التى حركها « كيلرن » إلى القصر .. ليفرض بها الوزارة التى يريدها ..
— أجل .
— إن عقليتهم لن تتغير ، ولكنهم فقط يعتبرون أن الحاكم الآن أقوى .. فهم يحركون له .. قوات كبيرة .
— بالضبط .. هذا ما يفعلونه ، وستنتهى تحركاتهم إلى لا شىء .
— ومتى نويت السفر ؟

ــ عندما ينتهى جواز السفر ، وأعرف مواعيد البواخر ، وأجهز بعض لوازم السفر .

ــ ماذا تنوى أن تحضر لى معك ؟.

ــ من جاب ؟

ــ من لندن وباريس وجنيف يا غبى .. فأنا لا أريد عيش و « سلاطين لبن » .. إنى أستطيع أن أحضره من « منية السيرج » التى لا تعجبك .

ــ ماذا تريد أن أحضر لك .

ــ ساعة من جنيف ، وامرأة من باريس ، وإذا لقيت المستر إيدن .. فاسأله أين تعلم الردح والشرشحة .. إن خطبه التى شتم فيها « جمال عبد الناصر » تدل على أنه نشأ فى « حوش بردق » لندن .. لقد فقد سمعته كجنتلمان بعد هذه الشلقنة .

وانصرف الصديقان ، وفى الليل جلس مدحت يكتب لنادية ، ويؤكد لها قرب مجيئه .. سواء أكانت فى « جاب » أم لم تكن .

وفى الصباح أسقط مدحت رسالته فى صندوق البريد ، وبعد نصف ساعة .. سقطت رسالتان أخريان فى صندوق بريد مختلفين تحملان نفس العنوان .

إحداهما وضعها صبرى .. ينبىء فيها « نادية » أن التعبئة العامة قد أعلنت فى مصر ، وأن جيش التحرير قد أنشىء وأنه قد انضم إليه .. وهو يتدرّب يومياً على ضرب النار ، ويخبرها أن مصر كلها تقف لتشد أزر « جمال عبد الناصر » ، وتحافظ على أضخم ربح حصلت عليه مصر وهو قناة السويس .

أما الرسالة الثانية فقد كتبها « عصام » إلى « منى » ينبئها بأنه سيرحل غداً إلى القسيمة مع كتيبة السيارات .. بعد أن استكملوا معداتها ، وأنهم متخذون كل أهبة لصد أى محاولة لإسرائيل للصيد فى الماء العكر .

(٣٧)

تدبير لقاء !!

جلست « نادية » فى حجرتها تقرأ رسالة مدحت ، وقد وقفت وراءها « منى » .. ولم تكد تنتهى من قراءتها حتى سقطت الرسالة من يدها واستغرقت فى شرود شديد .. وهبطت « منى » فى استرخاء على المقعد الكبير ، ومدت ساقيها ، وتركت رأسها يسترخى على صدرها ، وقالت كأنما تحدث نفسها :

ـــ جالك الموت يا تارك الصلاة .

وطوت « نادية » الرسالة ، وهى تتساءل فى يأس :

ـــ وما العمل ؟!

وصمتت « منى » برهة وبدا عليها الاستغراق فى التفكير وأخيراً تساءلت قائلة :

ـــ اسمعى يا نادية .. هل تحبينه حقيقة ؟!

ورفعت « نادية » حاجبيها فى دهشة وتساءلت :

ـــ وماذا يجدى هذا الآن ؟!

وعادت « منى » تتساءل فى إلحاح :

ـــ أجيبى علىّ أولا .. هل تحبينه حقيقة ؟ أعنى هل تريدينه هو أم تريدين عملية الحب التى نسجتها أوهامك .. وخلقتها خيالاتك وأحلامك ؟!.. هل تتمنين أن تعيشى معه أم تفضلين أن تهيمى فى قصة حبه ؟!

ونظرت إليها « نادية » حانقة وأجابت فى امتعاض :

ـــ لست أدرى معنى لهذه الأسئلة السخيفة التى تسألينها .

ـــ إنها ليست أسئلة سخيفة .. إنها ستحدد طريقة تصرفنا معه .

— كيف ؟!

— إذا كنت تريدينه حقيقة .. فقابليه .. وضحى له كل شيء .. واعتذرى عن خدعة الصورة التى أرسلتها إليه .

وبدا الارتياع على وجه « نادية » وهتفت فى فزع :

— أقابله ؟

— أجل تقابلينه .. لِمَ لا ؟!

ونظرت « نادية » إلى المرآة المواجهة لها وجذبت عن رأسها الإيشارب بحدة وأخذت تتحسس آثار الحريق فى عنقها وقد اختلجت شفتاها وبدت فى ملامحها تقلصات بكاء وأجابت هامسة وهى تغالب دمعها :

— كيف أقابله ؟!

— إذا كنت تريدينه حقاً .. فيجب أن تقابليه .. يجب أن تعرضى نفسك للتجربة .

ودفنت « نادية » رأسها بين كفيها وهى تحاول أن تكبت رجفات بكاء توشك أن تهز جسدها ..

واستمرت « منى » تقول :

— إنها على أية حال .. خير من ذلك اليأس اللانهائى الذى تهيمين فيه. إن التجربة .. ستوصلك إلى شيء .. قد يكون فى صالحك .. ألا يحتمل أن يظل على حبك كما أنت ، فتربحين سعادتك وهناءك وحياتك .

وهزت « نادية » رأسها وأردفت فى نبراتها اليائسة :

— ويحتمل أن يفجع فىّ .. فأفقد كل شيء وأهدم كل ما شيدته من الأمانى وأبدد كل ما عشته من أحلام .

— وإلى متى ستظلين هائمة فى قصور أمانيك ؟!

— إلى ما لا نهاية .

— ليس هناك شيء بلا نهاية حتى أمانينا وأحلامنا .

وصمتت « منى » برهة ثم هزت رأسها وتساءلت فى عجب :

ــ أنت عاقلة يا نادية .. أعقل منى ومن كل البنات اللاتى نعرفهن .. فلماذا يقف عقلك خارج حدود أحلامك ! لماذا تسوقين النصح إلىّ وإلى كل من حولك .. وتأبين أن تسوقى النصح إلى نفسك ؟

وأجابت « نادية » متسائلة فى مرارة :

ــ وبم تريدين أن أنصح نفسى ؟.

ــ أن تكفى عن هذه الأوهام التى تعيشين فيها ، وتضعى نفسك فى الأمر الواقع .

وعادت « نادية » تتساءل فى نفس المرارة :

ــ وأفقد أعز ما ملكت فى حياتى .. أفقد أمتع إحساساتى .. وأجمل مشاعرى !؟

وضمت « منى » ركبتها إلى صدرها وهزت رأسها فى حيرة وقالت متسائلة :

ــ إذن ما العمل ؟! ألا تستطيعين إيقاف مجيئه ؟!

ــ لقد حاولت فى رسالتى السابقة .. ولكنه يصر كما ترين على المجىء .. حتى ولو لم أكن موجودة .

ــ إذن نسافر .

ــ إلى أين ؟!

ــ إلى أى ناحية .. إلى « جرينوبل » إلى « بزيانسون » .

ــ هل تظنين السفر بمثل هذه السهولة ؟. هل نستطيع أن نقنع « ماما » به ؟ وماذا نقول لها ؟ أنقول لها إننا نخشى مجىء مسافر من مصر ؟ ثم متى نسافر .. ومتى نعود ؟! وهو كما ترين لم يحدد موعداً معيناً ، لو أننا نعرف بالضبط موعده لاستطعنا أن ندبر الأمر .

ــ إنه قد يرسل تلغرافاً .

ـــ هبيه لم يرسل !

وساد الوجوم الفتاتين .. وبعد لحظة رفعت « نادية » رأسها وقالت في صوت خافت ولهجة تنم عن الخطورة :

ـــ اسمعي يا منى .. إن لديّ حلا .. لست أدرى ما رأيك فيه !

ـــ ما هو ؟

ولم تجب « نادية » .. وبدا عليها الشرود ، وقالت « منى » تستحثها :

ـــ لم تقولى ما هو ؟!

وتركت « نادية » مقعدها ، واقتربت من « منى » وجلست على حرف المقعد الكبير وقالت متسائلة في نبراتها الشاردة :

ـــ لماذا لا تقابلينه أنت ؟

وقفزت « منى » وهتفت « بنادية » متسائلة :

ـــ أنا ؟

وجذبتها « نادية » من ذراعها وأجلستها على المقعد وعادت تقول في هدوء :

ـــ أجل أنت .. لماذا لا تقابلينه ؟

ـــ أجننت يا نادية !!

ـــ لماذا يا منى يا حبيبتي .. ألست أنت نادية التي يعرفها من صورها ؟

ووقفت « منى » أمامها وأشارت بإصبعها محذرة وأجابت :

ـــ اسمعي يا نادية .. إلى هنا وكفى .. لقد وافقتك على مسألة الصور . وقلت إنها لا تقدم ولا تؤخر ، وإن صورتك وصورتى لا تفترقان كثيراً .. وإن المسألة كلها مجرد لعبة تملئين بها فراغك .. ومصيرها ينتهى . أما أن أنتحل شخصيتك وأمثل دورك .. فلا .

ـــ من قال إنك ستنتحلين شخصيتى .. ليست المسألة بمثل هذه الشناعة التى تصورينها .

ـــ ماذا تكون إذن ؟!

ــ إنك ستنوبين عنى فى لقائه .

ــ وأين تكونين أنت ؟!

ــ معك .. باعتبارى منى .

ــ ما شاء الله .. أتظنين الحيلة ستنطلى عليه ؟

ــ أية حيلة .. إننا لن نجهد أنفسنا فى شىء .. وأؤكد له أنه .. إذا حضر حقاً .. ولقينا نحن الاثنين .. فإنه ببساطة سيحدثك على أنك نادية .. لأنك أنت التى انطبعت صورتك فى ذهنه .

ــ وماذا ستفعلين أنت ؟!

ــ سأعرفه بنفسى على أنى « منى » .. وسأحاول أن أتصرف كما تتصرفين أنت .

والتفتت إليها « منى » رافعة أحد حاجبيها متسائلة فى خبث :

ــ وكيف أتصرف أنا ؟

ــ بخفة وطيش .. وشقاوة .

ــ أنا .. أنا التى أتصرف بخفة وطيش .. بعد كل هذا العبث الذى فعلته .. والطيش الذى تنوين فعله .. تتهميننى بالخفة والطيش ؟!

ــ إنه مأزق انزلقنا إليه ، ولا بد لنا من علاجه بطريقة ما .

وصمتت « منى » برهة وأخذت تقلب الأمر فى ذهنها .. وما لبثت حتى هتفت فى عناد :

ــ لا ياستى .. أنا لست مجنونة .. من يدرينى ماذا يفعل بى هذا الجزار المتجهم ؟!

ــ لا تكونى مجنونة .. ماذا يستطيع أن يفعل بك ؟!

ــ يقطع لى زوراً أو معدة

ــ يقطع لك زوراً أو معدة ؟. هل تظنينه يمسك « سكيناً » فى يده .. ويطوح به فى خلق الله .. إنه جرّاح وليس جزاراً .

— من يدرى .. ربما اكتشف بى سرطاناً وأصرّ على قطع أحد أعضائى .
— بعد الشر عنك .. كفى عن هذا المزاح السخيف .. إننا نتكلم حقيقة .
— إذا كنا نتكلم حقيقة .. فهى أنه حاول أن يمارس معى بعض مظاهر الحب .
— حب ؟..
— أجل حب ؟.. لماذا تنطقينها بمثل هذا الاستغراب والدهشة .. أليس المفروض أنه يحبك ؟!
— من قال هذا ؟
واستدارت « منى » لتواجه « نادية » وقبضت على ناصية شعرها وقالت منذرة :
— اسمعى يا « نادية » .. ماذا تظنينه قد دفعه إلى أن يصر على زيارة « جاب » ! ليرى الآثار الرائعة .. أم ليحضر المؤتمرات العالمية ؟! ماذا عندنا فى « جاب » يدفعه إلى أن يجشم نفسه لزيارتنا ؟!
— إنه لن يأتى إلينا خصيصاً .. إننا فى طريقه إلى لندن .
— كذاب .. كذاب .. إننا ليس فى طريقه إلى لندن أبداً .
— إنه يتنزه ويستجم .
— هناك أماكن للاستجمام والتنزه.. كثيرة.. غير « جاب ».. لماذا لم يذهب إلى « فيينا » ؟.
— ربما سيذهب .
— اسمعى .. إذا كنت ستصرين على هذا البلف .. والاستعباط .. فتفضلى قابليه وحدك .. تحمليه وحدك .. ودعينى فى حالى .
واقتربت « نادية » منها وضمتها إلى صدرها وقبلت رأسها وقالت تهدئها :
— لا تغضبى يا منى .. حقك علىّ ، قولى .. ماذا تريدين ؟
وصمتت « منى » برهة تفكر ، وقالت ، وهى تهز رأسها فى حيرة :

ــ نسيتينى ماذا كنت أقول ؟

ــ كنت تقولين .. هبى أنه حاول أن يمارس معك بعض مظاهر الحب .

وهتفت « منى » بلهجة المتذكرة :

ــ أجل .. هبيه قد فعل .

وهزت « نادية » رأسها مستفسرة وتساءلت :

ــ مظاهر الحب .. مثل ؟.

ــ مثل ؟! ألا تعرفين مظاهر الحب حتى الآن .. يا غبية تقبيل مثلا .. هبى أنه حاول تقبيلى .. ماذا أفعل ؟!

وأحست « نادية » بشىء يعتصر فى باطنها .

ماذا تفعل ؟!

إن مظاهر الحب ليست هى المشكلة وإنما جوهره هو المشكلة .

ماذا تفعل .. إذا أحب « منى » فعلا .. وهو لا شك فاعل ؟

ماذا تفعل إذا تعلق بها .. كصورة مجسدة ، للوهم الذى أحبه .. « لنادية » التى كتبت إليه .. ودعته .. وطافت به سفح الجبل ، وشاطىء البحيرة .. ومرحت وإياه فى دفء الشمس ، وناجته أمام المدفأة فى سكون الليل !

ألم يكفها أنها منحته صورة غير صورتها حتى تمنحه كائنة غيرها ؟!

ولكن .. هل كانت تملك غير ذلك ؟!

هل كانت تملك أن تمنحه صورتها هى .. وهل تجسر الآن على أن تلقاه ؟!

لقد سبق أن سلمت أن المسألة بوضعها المادى .. قد باتت مستحيلة بعد أن شوّه الحريق عنقها .. و لم تجد لها عزاء عن يأسها المطبق سوى الصلة الروحية .. واللقاء الوهمى الذى أضحت تمارسه فى رسائلها .

وكانت « منى » فى العملية كلها مجرد أداة معاونة .. بصورتها .. فى الرسائل السابقة .. وبكيانها فى اللقاء .. المتوقع .

فما الذى يدفعها بعد ذلك .. إلى الضيق .. والقلق .. والخوف .. و ..

والغيرة ؟

أحقاً .. باتت تغار من « منى » !

أبداً .

لا كانت .. ولا كانت حياتها .. ولا كان حبها .. لو أنها غارت من أختها الحبيبة الطيبة .

ومع ذلك ، كل التحليلات التى حللتها للموقف .. لم تستطع أن تمنع شعور القلق والخوف .. من الحل الذى توشك أن تقدم عليه .

ولكن .. هل هناك ، من حل سواه ؟!

إن التهديد بالرحيل .. لم يجد فى منعه من الحضور .

والرحيل نفسه ، عسير مستعص ، ثم إنها فوق هذا كله وفى أعماق نفسها ، فى أعماق الأعماق .. التى لا يسبر لها غور ولا يدزك لها قرار ، تتوق إلى لقياه ، بأى وضع وعلى أية حال .. حتى ولو كانت على هامش اللقيا .

حتى ولو لم تكن « نادية » ، وكان غيرها يحتل مكانها ، فى رؤيته واستقباله وسماع حديثه .

إنها على الأقل ستراه عن قرب .. وستسمع حديثه ...

وأكثر من هذا .. سترى كيف يتصرف حيالها ، وماذا يحس لها .

ليس لها هى .. ولكن « لنادية » .. التى تمثلها « منى » .

أجل .. ستمتعها ، لهفته عليها ، فى صورة « منى » .. فهى لن تعتبر « منى » ، غير صورة تمثلها ، لأنها لا تستطيع هى أن تحتل ذلك الموضع الذى تود أن تحتله .

لن تغار من « منى » أبداً .

لأنها ستعتبر كل لهفة على « منى » ، لهفة عليها .. وكل كلمة موجهة « لمنى » ، موجهة لها ، وكل ضحكة وكل ابتسامة وكل لفتة ، ستتلقاها هى .. وستستمتع بها هى

ولكن هل تستطيع « منى » ، أن ترد بالطريقة التى تحب أن ترد بها هى ؟

إن « منى » خفيفة عابثة وقد تصدمه بتصرفاتها الماجنة الضاحكة ، وهو لا شك قد كوّن لها فى نفسه صورة ، لا تلائم أبداً .. هذه الصورة التى ستبدو بها « منى » .

إن عليها أن تعلمها كيف تتصرف ، وكيف تتحدث .

أجل .. يجب ألا تخذله .

يجب أن تتصرف تماماً .. كما تتصرف « نادية » .

ولكن هل تستطيع ؟!

ولِمَ لا ؟! إن « منى » قد قرأت كل رسائلها ورسائله ، ولا شك أنها ستعرف ما يمكن أن تقول « نادية » ، وكيف يمكن أن تتصرف .

ولكن هل تستطيع أن تعرف كيف يمكن أن تحس ؟!

على أية حال .. تعرف .. أو لا تعرف ، ليس هناك مفر من هذا الحل .. إن المسألة كلها لن تعدو ، يوماً ، أو بعض يوم .. سيرحل هو بعده .

وإذا لم يرحل .. فليس هناك أسهل عليها من ادعاء السفر .

وكانت « منى » ترقب « نادية » فى شرودها .

وعندما انتهت « نادية » من سلسلة تفكيرها بتنهيدة راحة تساءلت « منى » ضاحكة :

ـــ ها .. لم تجيبى علىّ ؟!

وهزت « نادية » رأسها متسائلة ، فقد نسيت أن ترد على سؤال « منى » الذى دفع بها إلى هذا الشرود .

وعادت « منى » تردد سؤالها فى لهجة مرحة عابثة :

ـــ ماذا أفعل إن قبّلنى ؟!

وهزت نادية رأسها وأجابت مؤكدة :

ـــ لا تخافى .. لن يقبلك .

ــ ولِمَ لا ؟!

ــ أولا لأن العلاقة التى بيننا .. لا تسمح له بهذا .

ــ وثانياً ؟!

ــ لأن طبيعته لا تدفعه إلى مثل هذا النزق .

ــ نزق .. يا مغفلة ؟! التقبيل نزق .. ها .. ما علينا .

وصمتت برهة ، ثم أردفت متسائلة :

ــ وثالثاً ؟!

ــ وثالثاً .. إن التصرف الذى ستتصرفينه .. باعتبارك أنا .. لا يمكن أن يدفعه إلى مثل هذا .

وقلبت « منى » شفتيها وقالت :

ــ جائز .. جائز جداً .. لو أنى تصرفت فعلا .. كما يجب أن تتصرفى أنت .

ورفعت « نادية » إصبعها محذرة :

ــ وبالطبع ستتصرفين كما يجب أن أتصرف أنا ؟!

ــ طبعاً .. طبعاً .

وقفزت « منى » من مقعدها ، واختطفت إحدى زهرات القرنفل .. ثم قربتها من أنفها فى حركة تمثيلية ، وقالت ، وهى تسبل هدبها وتمد يدها بالزهرة :

ــ وامدحتاه ؟! واحر قلباه ؟!

ولم تتمالك « نادية » نفسها من الضحك وصاحت بمنى :

ــ أنا أفعل هكذا .. يا مهرّجة ؟!

ولم تجب « منى » .. واستمرت فى حركاتها التمثيلية صائحة وهى تركع فى وضع كليوبطرة :

هلمى الآن منقذتى هلمى   وأهلا بالخلاص وقد سعى لى
على نابيك من زرق المنايا   شفاء النفس من سود الليالى

ومدت « نادية » يدها فرفعتها من شعرها ناهرة :

ـــ انهضى وكفى استهزاء .. دعينا نتحدث بجد

ونهضت « منى » ، وهى تقول ضاحكة :

ـــ ألا تريدين أن أتصرف كما تتصرفين ؟!

وجذبتها « نادية » وأجلستها على المقعد قائلة :

ـــ اجلسى هنا .. يجب أن نتدبر الأمر جيداً .. ونضع خطة محكمة .. حتى لا ننكشف .

ـــ لا تخشى شيئاً دعى الأمر لى .

ـــ ماذا ستفعلين ؟!

ـــ عندما يحضر .. إما أن يرسل إنذاراً بحضوره .. تلغرافاً مثلا .. وفى هذه الحالة سأذهب وإياك لنلقاه على المحطة .. وسنراه بالطبع يقف فى النافذة ، برأسه المنحول ، وأنفه الطويل . وحاجبيه الثقيلين .

ـــ منى .. كفى عن الاستهزاء به .

ـــ هل قلت شيئاً من عندى ؟!

ـــ إنه ليس بمثل هذه الصورة القبيحة التى تصورينه بها .

ـــ متأسفة .. سنراه يقف فى النافذة .. بشعره الذهبى ، وحاجبيه الرفيعين .. وأنفه الدقيق .

ـــ منى .. كفى سخفاً .

ـــ حيرتني .. لا يعجبك هذا ، ولا ذاك !! كيف أصفه إذن ؟!

ـــ لا تصفيه .. إنى أعرفه جيداً ، فلا ضرورة لوصفه ، ادخلى فى الموضوع .

ـــ دخلنا فى الموضوع .. سنراه يقف خلف النافذة ، بعينيه .. هل أصف عينيه ؟

ـــ لا ضرورة .. أكملى حديثك ، ماذا ستفعلين عندما ترينه يقف فى النافذة ؟!

ـــ سأرفع يدى وألوّح له .. بتؤدة .

ــ ولماذا التؤدة ؟

ــ هل أندفع إليه وأقفز لأحتضنه من النافذة ؟!

ــ لا هذا ولا ذاك .

ــ ماذا أفعل إذن ؟!

ــ ابتسمى ابتسامة من قلبك .

ــ أبتسم .. أجل .. ولكن من قلبى .. شىء لا يستطيع أحد أن يطلبه منى

ــ ابتسمى وكفى .

ــ ثم ؟!

ــ هرولى إليه .

ــ كيف أهرول ؟!

ــ أعنى لا تجرى كالمجنونة .. ولا تتباطئى فى بلادة .. أعنى تقدمى ، وفى وجهك لهفة .. وفى ملامحك فرحة .

ــ مفهوم .. مفهوم .. شىء طبيعى .

ــ مدى يدك للسلام عليه .

ــ هل أحتضنه ؟!

ــ أمجنونة أنت ؟ مدى يدك فقط ولا بأس من أن تضغطى عليها .

ــ وأبقيها فى كفه ؟!

ــ قليلا .

ــ وإذا حاول هو أن يبقيها أكثر ؟

ــ دعيها .

ــ وماذا بعد !. أين نذهب به ؟!

ــ نذهب به إلى فندق الميدان .. بعد أن يرفض دعوتنا إلى النزول فى المنزل .

ــ هبى أنه قبل !

ــ لا .. لا .. لن يرضى .

ـــ افرضى !؟

ـــ تبقى مصيبة .

ـــ ولا مصيبة ولا حاجة ، نخبر « ماما » بالحقيقة .. وننزله فى إحدى الحجرات الخالية ، ونخبر أهل المنزل جميعاً بأن ينادوك باسم « منى » وينادونى باسم « نادية » .

ـــ أعتقد أنه لن يقبل النزول فى المنزل .

ـــ وبعد أن ينزل فى الفندق ؟!

ـــ نطوف به فى البلد .. نريه كل الأماكن التى دعوته إليها .. ثم ندعوه إلى الغذاء فى النادى ثم نصعد به الجبل .. و ... ونفعل أشياء كثيرة .

ـــ وماذا تفعلين أنت ؟!

ـــ سأتصرف كأننى « منى » .

ـــ هل تعرفين ؟!

ـــ أتظنينها مسألة عسيرة ؟

ـــ بالنسبة إليك .. أعتقد ذلك .

ـــ أبداً .. سأقفز وأتواثب ، وأضحك وأمرح ، وأقول كلاماً كثيراً فارغاً .

ـــ أما مجرمة .. أهذا كل ما ترينه فىّ ؟

وضحكت نادية :

ـــ وأبدو طيبة القلب ، صافية النفس .. أحب الناس والحياة .. ولا أضمر ضغينة لأحد .. ولا أعادى أحداً .. بشوشة ، رقيقة . أتريدين أكثر من ذلك ؟!

وضحكت « منى » وضمت إليها « نادية » وهى تتساءل :

ـــ أحقاً هذا رأيك فىّ ؟

ـــ رأيى أنا فقط ؟. إنه رأى كل الناس .

وسمعتا صوت الأم يناديهما من أسفل :

ـــ نادية .. منى .. ألا تنويان النزول للغداء ؟!

وأجابت « منى » :

ـــ حالا يا ماما ..

وبدت نادية وقد غيمت على وجهها سحابة همّ فسألتها « منى » :

ـــ ما بك يا نادية ؟!

ـــ أبداً .. أفكر فقط فى الزيارة المتوقعة :

ـــ ماذا تخشين منها .. ألم نحل مشكلة لقائه ؟!

ـــ أجل .

ـــ وسيمكث معنا بضع ساعات ثم يرحل .. وتعاودين الكتابة إليه كما تعوّدت ؟!

ـــ أحقاً سيرحل ببساطة وبلا عواقب ؟! وهل يمكن أن أعاود الكتابة إليه كما كنت أفعل ؟!

ـــ ولِم لا !! ما دمت أنت تريدين الكتابة إليه .. فإذا لم تريدى . فليس أسهل من أن تقولى له إنك ستسافرين . وإن عنوانك سيتغير وإنك سترسلين إليه بعنوانك الجديد .. ثم تتوقفين عن الكتابة إليه . وسيرسل لك بضع رسائل ، وعندما لا يجد رداً .. سييئس ويتوقف الأمر . معقول ؟

وهزت « نادية » رأسها وأجابت فى لهجة بائسة :

ـــ معقول .

وقبل أن تغادر « منى » الحجرة قالت « نادية » وهى تفتح درجاً صغيراً فى دولابها :

ـــ اسمعى يا « منى » .. إن رسائله كلها فى هذا الدرج .. وأعتقد أن من الأفضل أن تقرئيها كلها مرة ثانية حتى لا تخطئى فى المناقشة معه .

ونظرت « منى » إلى كومة الرسائل وبدا عليها الفزع وأجابت قائلة :

ـــ يا نهار أسود .. أنا أقرأ كل هذه .. لا يا ست نادية .. يفتح الله .

ـــ إنها لن تستغرق منك وقتاً طويلا .. إن خطه كبير .

ـــ ولماذا أقرؤها ؟!

ـــ لأنه قد يفيد لك بعض ما قاله فيها .

ـــ ليعيد أو ينفلق .. أتظنينني سأسمعها له كالمحفوظات !

ـــ أبداً .. تكون لديك فكرة عنها .

ـــ إن لدىّ فكرة جيدة .. عن كل ما بها من سخافات ، أعرف « عصير القصب » الذى اشتراه لك .. و « البطاطا » ، التى بخل عليك بها .. وأعرف « الستين قرشاً » التى لهف بها القشدة هو وصاحبه الحلوف « جاد الله » .. هل تظنين معدته تعبت من قليل .. من « البطاطا .. والعصير .. والكميك قطايف » .. ماذا تريدين أن أعرف عنه أكثر من ذلك ؟!

ـــ هل تعرفين أنه ترك ميرفت ؟!

ـــ وأنا مالى .

ـــ تركها من أجلك .

ـــ أجلى أنا ؟!

ـــ أعنى من أجلى أنا .

ـــ حلال عليك «

وتريثت « منى » برهة ثم رفعت حاجبيها واتسعت حدقتاها وهتفت فى شبه ارتياع :

ـــ اسمعى . هل تعنين أنه .. يجوز .. أن .. أقصد أنه يمكن .. أن يخطبنى ؟

وهزت « نادية » رأسها فى نفى بات وقالت :

ـــ لا . لا . غير معقول . إن ما بيننا لا يمكن أن يدعوه إلى ذلك . إنه لم يشر مرة واحدة إلى شىء من هذا . غير معقول مطلقاً .

وهزت « منى » رأسها وتمتمت :

ـــ والله يعملها .. مجنون .. مجنون .. لا يستبعد عليه أن يكون قد عمل كل هذه الرحلة لكى يخطب .. المجهولة التى تراسله من قمم الألب

وعادت « نادية » تهز رأسها نافية :

— غير معقول يا منى .. لا تكونى سخيفة .

— أنا السخيفة ؟ أنا التى أقوم بكل هذه الرحلة لمجرد أن فتاة كتبت إلىّ ؟.

وعاد صوت الأم ينادى الفتاتين :

— منى .. نادية .. الطعام برد .

وصاحت نادية :

— حالاً يا ماما .

والتفت « منى » متسائلة :

— اسمعى .. هبيه قد فعلها ، وخطبنى .

وأحست « نادية » بنشوة من وقع الكلمة .. ولكنها ما لبثت أن طردتها من نفسها وأجابت بطريقتها النافية المؤكدة :

— يا منى يا حبيبتى غير معقول أن يفعلها .

— لنفرض أنه فعل .. ماذا أفعل أنا ؟!

وصمتت « نادية » برهة .. وبدا عليها شرود ، وعادت « منى » تستحثها متسائلة :

— ماذا أفعل .. لو فعلها ؟.

وأجابت « نادية » فى صوت خافت يائس :

— اعتذرى . قولى أى شيء .. قولى إنك لا تستطيعين . تصرفى .

ومرة أخرى عاد صوت الأم ينادى فى غضب :

— هل ستنزلان .. أم أرفع الطعام ؟

وأجابت الفتاتان وهما تهبطان الدرج : « سننزل »

(٣٨)

محاولة هروب ...

جلست « نادية ومنى » على مائدة الطعام ومعهما الأم وجانيت ، وكانت الجدة قد زحفت بمقعدها حتى استقرت بجوار المنضدة ، وبدا الشرود على وجه « نادية » ، وهى تزدرد طعامها .. ولم تكن « منى » أقل منها شروداً .. فقد استبد بذهنيهما هذا الحديث الذى دار بينهما فى حجرة « نادية » حول زيارة مدحت المتوقعة .. وكيفية مواجهتها .

ورأت الأم الصمت الذى ساد ابنتيها والوجوم الذى علا وجهيهما وقلبت البصر بينهما قائلة فى تساؤل :

ــ ماذا بكما ؟

وهزت « منى » رأسها وهى تمضغ قائلة :

ــ لا شيء .

وعادت الأم تتساءل غير مصدقة :

ــ أتعاركتما ؟..

وتضاحكت « نادية » قائلة :

ــ ليس بعد .

ــ إذن مالكما صامتتين ؟!

ورفعت « منى » كتفيها وأجابت :

ــ أنا شخصياً أفكر .

وتساءلت جانيت ضاحكة بالتعبير الإنجليزى :

ــ بنس لأفكارك .

وأجابت « منى » بالرد المألوف :

ــ لا تستحق .

ــ إذن قوليها مجاناً .

ونظرت « منى » لنادية وتساءلت :

ــ أقول يا نادية ؟

ورفعت نادية حاجبيها متسائلة فى دهشة :

ــ تقولين ماذا ؟.

ــ ما أفكر فيه !

ونظرت إليها « نادية » محذرة .. ثم قالت وهى ترفع كتفيها فى غير اكتراث :

ــ أنت حرة .. قولى ما تشائين .

ومدت « منى » يدها إلى طبق الفاكهة فأمسكت بتفاحة غرست فيها أسنانها ونهرتها أمها قائلة :

ــ قشريها .

وأجابت « منى » :

ــ لا ضرورة .. إن القشر ملىء بالفيتامينات .

وأحست « نادية » بشىء من الارتياح وهى ترى الحديث يتجه اتجاهاً آخر .. غير أفكار منى .

ولكن « منى » ما لبثت حتى عادت تقول وهى مستمرة فى قضم التفاحة بقشرها :

ــ كنت أفكر أنا ونادية فى ..

وعادت تقضم التفاحة ، وتوترت أعصاب « نادية » وحملقت فى وجه « منى » واستمرت « منى » تقول :

ــ كنا نفكر فى أن نقوم برحلة .

وتساءلت الأم :

ـــ إلى أين ؟!

وفكرت « منى » برهة ثم قالت :

ـــ إلى « بريانسون » مثلا .. أو إلى « جرينوبل » .. أليس لك أقربـاء يستضيفوننا ؟! لقد مللنا « جاب » .

وهزت جانيت رأسها وقالت متسائلة :

ـــ كيف لا يكون لدينا أقرباء فى بريانسون وجرينوبل . إن لدينا أقرباء ومعارف فى كل بلدة فى فرنسا . إن أسرة ...

وقاطعتها « منى » قائلة :

ـــ لا نريد شرحاً لتاريخ الأسرة .. إننا باختصار نريد أن نغير مناظر .

وأجابت جانيت .

ـــ إن عمى ريمون وزوجته « سارة » يتمنيان أن تزوراهما فى أى وقت .

وتساءلت منى :

ـــ عمك ريمون من ؟ لم نسمع به من قبل .

ـــ إنه زوج عمتى .

ـــ هل سارة عمتك ؟

ـــ لا .. عمتى ماتت .. وقد تزوج بعدها سيدة من شابرى ثم ماتت .. وتزوج بعدها السيدة « سارت » وهى ..

وهزت « منى » رأسها فى يأس وقالت :

ـــ هل تظنين عمك ريمون .. بعد زيجاته الثلاث ما زال يذكر المرحومة عمتك .. حتى يتفضل بدعوتنا إلى منزله ؟.

وردت جانيت مستنكرة :

ـــ يذكرها !! إنه لم ينسها قط .. لقد قال فى آخر خطاب كتبه إلىّ ..

وضحكت « منى » وتساءلت فى خبث :

ـــ هل عمك ريمون هذا .. هو الذى يرسل إليك الرسائل الزرقاء ؟!

ـــ أجل ..

ونظرت « منى » إلى أمها وتساءلت :

ـــ ماما .. هل يجوز لزوج العمة أن يتزوج ابنة أخ زوجته ؟!

ورمقتها الأم بنظرة ناهرة وقالت :

ـــ كفى عن هذا المزاح السخيف .

وضحكت « منى » وأجابت :

ـــ إنى لا أمزح والله .. إنى فقط أتصور أن العم ريمون يعمل حساب عمتى جانيت .. فى مشروعاته المستقبلة .. بعد أن يأخذ الله السيدة سارة إلى جواره .

واحمر وجه جانيت وتصاعد الدم إلى أذنيها حتى أضحت « كالجزرة » وقالت لمنى » ناهرة :

ـــ يا خبيثة .. ألا تكفى عن تفكيرك الخبيث ؟!

وردت « منى » قائلة :

ـــ المهم .. هل عمك هذا .. على استعداد أن يستضيفنا ؟

وأجابت جانيت فى حماس :

ـــ طبعاً .. إنه يعرفكم جيداً .. إنى أكتب إليه عنكم فى كل رسائلى .. وهو دائماً يبلغكم السلام وآخر رسالة سألنى متى ننوى أن نزوره .

وتساءلت « منى » فى خبث :

ـــ نزوره ؟! أو تزورينه ؟!

ـــ بل نزوره كلنا .

ـــ هل لديه استعداد لأن يستضيفنا ، وأن يحتمل متاعبنا لمدة أسبوع ؟

وكانت « نادية » قد لزمت الصمت طوال المناقشة فقد كانت تعتبرها مجرد ثرثرة من « منى » .. فلما وجدتها تتساءل فى جد ، رفعت وجهها عن التفاحة التى انهمكت فى تقشيرها وتساءلت فى دهشة :

ـــ أسبوع ؟..

وأجابت جانيت :

ــ طبعاً إنه يحتمل .. لقد سبق أن دعانا عدة مرات ، وقد قلت لأمكما .. ألم أخبرك يا لورا ؟

وهزت « لورا » رأسها فى ملل ، وقالت « لمنى » ناهرة :

ــ منى .. كفى عن هذا السخف .

ــ لماذا لا نذهب ؟!

ــ إلى أين ؟

ــ إلى بريانسون .. لنتنزه .. إنهم يقولون إنها مدهشة .

ــ لن ترى فيها أكثر مما ترين هنا .

ــ المهم أننا نغير المناظر التى حولنا . إن جانى وتونى ..

وقاطعتها الأم فى ضيق :

ــ ليس لنا بأحد شأن

ــ لماذا يا ماما ..

ــ لأننى لا أكاد أتحرك .. من حجرة إلى حجرة . ماذا يدعونى إلى الشحططة والمرمطة ؟!

ــ إذن ابقى أنت ، وسنسافر مع عمتى جانيت .

وقالت جانيت فى حماس :

ــ أجل .. إنى على استعداد لمصاحبتهما .. لا بد أن يريا المنطقة كلها .. فغير معقول أن تظلا مرابطتين فى « جاب » . لا بد أن تتنزها .. إن بيت العم ريمون يقع على شاطىء البحيرة ، والمنظر هناك عجيب ، والجبل جميل .

وقفزت « منى » من مقعدها واتجهت إلى الأم تحتضنها وتقبلها مستعملة معها وسيلتها المعتادة فى الإقناع .. وأخذت ترجوها متوسلة كأنها طفلة صغيرة :

ــ والنبى يا ماما .

وكانت « نادية » مطرقة ، متشاغلة بالتفاحة فى يدها ، وقد بدا الوجوم على

قسماتها .

ونظرت إليها « منى » ودهشت من إطراقها ووجومها .. فقد كان مفروضاً أن كل هذه المحاولات فى سبيل الرحيل عن « جاب » من أجلها هى .

لقد بدأت « منى » المحاولة بمجرد مناقشة يائسة لا طائل تحتها ، ولكن ها هى توشك أن تثمر عن رحلة حقيقية تبعدها عن « جاب » ، وتوفر عليها عملية الخداع والتمثيل التى فكرتا فيها .. إذا ما وقعت الواقعة وأتى مدحت إلى « جاب » .. فلماذا تبدو « نادية » واجمة ؟. ولماذا لا تحاول أن تسهم فى عملية إقناع أمها ؟

ونظرت « منى » إلى « نادية » .. وهى منهمكة فى تقشير التفاحة ، وهتفت بها :

ـــ نادية .. مالك ساكتة .. ألا تريدين الذهاب إلى بريانسون ؟!

ورفعت « نادية » رأسها كأنها أفاقت من شرود بعيد .. وأجابت متسائلة :

ـــ بريانسون ؟!

ـــ أجل .

ـــ ألا تريدين أن نرحل عن « جاب » ؟

وأحست « نادية » أن خافقاً يدق فى حناياها ويكاد يهتف لا .. لا أريد أن أرحل عن « جاب » .. إن مدحت .. سيأتى .. سأراه .

إنه قد لا يميزنى ، ولكننى سأراه .

قد لا يعرف أنى أنا نادية .. نادية الحقيقية .. التى أحبته والتى كتبت إليه ، والتى تتلهف على رؤيته .

ولكن ماذا يهم إذا كان لا يعرفنى .. ما دمت سأعرفه ، وسأجلس إليه وأصحبه إلى الجبل .. وسأسير معه على الشاطىء البحيرة .. وأطل وإياه على الوادى الأخضر .. وأتطلع وإياه إلى القمم البيض !!

كيف أتركه وأفر ؟!

لأنه لن يعرفنى !

ومنذ متى قد عرفنى ؟!

لا .. لا .. إنى لا أريد الرحيل عن « جاب » سأبقى .. سأبقى حتى أراه ولو من بعيد .. يهبط من القطار وحده .. ويسير فى البلدة وحده .

وسأرقبه أيضاً ، وهو يرحل وحده .

سأجلس بعيداً لأودعه فى صمت .. كما ودعته فى النادى عندما رحلت عن مصر .. من بعيد ، ودون أن يحس بى .

لن يكون لوداعى .. معالم .. تماماً كما لم يكن لوداعى الأول معالم .

سأبقى .. سأبقى .

وعادت « منى » تكرر سؤالها فى لهجة مغيظة :

ـــ نادية !! لماذا لا تجيبين ؟! أيعجبك البقاء فى « جاب » ؟!

ألا تودين الرحيل إلى بريانسون ؟!

وأجابت نادية فى صوت خافت ، وهى ترفع رأسها ببطء :

ـــ ولِمَ لا !

و لم يعجب « منى » لهجتها الباردة فعادت تردد فى غيظ :

ـــ ولِمَ لا !؟ أنت لا يهمك الأمر كثيراً ؟!

وهزت كتفيها فى استخفاف وأردفت قائلة :

ـــ طبعاً ما دام العبء سيقع علىّ . ما دمت أنا التى سأ ..

وانتفضت « نادية » ونظرت إلى « منى » نظرة زاجرة وقاطعتها قائلة :

ـــ قلت لك إنى أحب الرحيل إلى بريانسون .. أقول لك أكثر من هذا ؟!

وهزت الأم رأسها وقالت ، وهى تحيط « منى » بذراعها :

ـــ يا منى يا حبيبتى .. ألا تخشعين ؟! ألا تهدئين فى مكان واحد ؟! كل هذه النزهات تقومين بها فى « جاب » .. ولا تكتفين !

ـــ أى نزهات ! لقد مللت الصعود إلى الجبل والذهاب إلى النادى .

ـــ إنى أخاف عليك يا منى .

ـــ ممن ..

ـــ من كل هذا الجهد الذى تقومين به .

ـــ « تانى » .. ألم نتفق على ألا نعود إلى هذا الخوف . لقد أثبت لك أنى أشد مائة مرة من ابنتك هذه التى لا تخشين عليها .. بالأمس تفوقت عليها فى « التنس » ، ومنذ يومين سبقتها فى الصعود فى الجبل .. وأنا على استعداد الآن لأن أدخل معها فى مصارعة أو ملاكمة .

ثم اتخذت موقف الملاكم وأردفت قائلة :

ـــ ها .. إنى مستعدة .

ثم أقبلت على أمها تضمها إليها مرة أخرى قائلة فى توسل الأطفال :

ـــ انتهينا يا ماما .. سنذهب إلى بريانسون ؟!

ـــ بشرط .

ـــ إنى أقبل كل شروطك .

ـــ أن تأخذى بالك من نفسك .

ـــ وألا أعرق وأجلس فى الهواء .. وألا أنهج .. وألا أعدو .. وألا أركب دراجة ، وألا .. وألا .. هل لديك شروط أخرى ؟!

ومالت على أمها تقبلها فى حنان وقالت متسائلة :

ـــ أتدرين يا ماما لو نفذت شروطك لانتهى بى الأمر إلى أى شىء .

وهزت الأم رأسها متسائلة .. فأجابت منى :

ـــ إلى أن يحملونى على نقالة فى كل حركة .

وأجابت الأم وهى تضمها فى حنان :

ـــ بعد الشر .. إنى فقط أريدك ألا تجهدى نفسك .

ـــ مفهوم ..

وقالت جانيت :

ــ لا تخشى عليها .. سأكون أنا المسئولة عنها .. لن أتركها لحظة ..

ونظرت « منى » إلى جانيت وتساءلت فى خبث :

ــ والعم ريمون ؟!

وضربتها جانيت على ظهرها بخفة وقالت زاجرة :

ــ يا خبيثة .

واتجهت « منى » إلى « نادية » التى كانت لا تزال فى جلستها المطرقة الواجمة وقالت كأنما تحاول أن توقظها من شرودها :

ــ هاى .. إلى أين وصلت ؟!

ولم تجب « نادية » .. فعادت « منى » تتساءل :

ــ إلى منشية البكرى ؟!

ثم جذبتها من ذراعها واتجهت بها إلى الباب الخارجى وقالت متسائلة :

ــ مالك يا نادية ؟!

ــ أبداً .. لا شىء .

ــ ألم تعجبك هذه المحاولة للزوغان ؟! أليس هذا ما كنت تتوقين إليه ؟

وأجابت « نادية » فى غير حماس :

ــ أجل .

وعادت « منى » تقول وهى تهز رأسها فى دهشة :

ــ أنت عجيبة يا نادية !! إنى لا أستطيع فهمك .

وانحنت « نادية » بطريقة غير إرادية لتقطف إحدى زهرات القرنفل التى تملأ الحوض القائم على مدخل الباب .

ونظرت إليها « منى » متسائلة :

ــ ألم تكونى أنت الراغبة فى الهروب ؟

ــ أجل .

ــ إذن ما بالك لا تتحمسين له عندما نجحت فيه ؟

ـــ لست أدرى ماذا سنعمل فى بريانسون ؟

ـــ هبى أننا لن نفعل شيئاً .. ألا يعجبك أنه مجرد فرار من صاحبك المصر على المجىء ؟

وأجابت « نادية » وهى مستمرة فى شرودها :

ـــ أجل .

وضغطت « منى » على ضروسها فى غيظ :

ـــ اسمعى يا نادية .. أنا أريد أن أعرف بالضبط .. هل ترغبين فى لقاء مدحت ؟.

ونظرت إليها « نادية » نظرة شاردة ، وأجابت وهى تطلق تنهيدة طويلة :

ـــ كيف أرغب فى لقائه ؟ كيف أجسر ؟

ـــ وأنا أيضاً .. لا يهمنى لقاؤه .. فماذا يضايقك من الرحيل ؟

ـــ أنا لم أتضايق .

ـــ بل تضايقت .. أو على الأقل لم تتحمسى له .. هل أنت راغبة أن تدفعى بى إلى المأزق ؟

ـــ أى مأزق ؟!

ـــ أن أقوم . بدورك وأقابله ، وأطوف به .. وأحدثه حديث الهائمة .

وأجابت « نادية » فى غضب وقد احمر وجهها :

ـــ إذا كنت لا تريدين هذا فأنا لم أكرهك عليه .

ـــ يا نادية يا حبيبتى .. أنا لا أكره أن أقوم بأى شىء من أجلك .. حتى الموت من أجلك لا أكرهه ، ولكن .. نستطيع أن نجنب أنفسنا هذه الخديعة التى نوشك أن نقوم بها ، وما دمت أنت كنت تتمنين فرصة للرحلة ، فلماذا لا تتحمسين لها بعد أن أتحتها لك ؟

ومدت « نادية » يدها فأمسكت بيد « منى » وضغطت عليه قائلة فى حنان :

ــ لا تتضايقى منى يا « منى » .. إنى لا أفهم نفسى .. إنى حقاً حائرة .

ــ لا داعى أبداً للحيرة .. سنقوم بالرحلة إلى « بريانسون » مع عمتى جانيت .. فإذا أتى ونحن فى السفر .. فبها ونعمت ، وإذا لم يأت فسنستقبله كما اتفقنا ، وسأفعل لك كل ما تودين .

وضمتها إليها وقبلتها فى عطف ثم تساءلت :

ــ اتفقنا ؟!

وأشارت « نادية » برأسها موافقة ، وعادت « منى » تقول :

ــ اضحكى إذن .

وقبل أن تضحك « نادية » سمعت صوتاً يتساءل من ورائهما :

ــ علام تضحكين ؟

ونظرت « منى » فإذا بجابى وتونى يقفان وراءها فأجابت « منى » :

ــ لأننا سنذهب إلى بريانسون .

وصاحت جابى فى فرحة ودهشة :

ــ حقيقة ؟!

ــ أجل لقد دعانا أحد أقرباء عمتى جانيت .. وسنذهب لقضاء بضعة أيام .

وصاح تونى :

ــ هائلة .

ونظرت « منى » متسائلة :

ــ ما هى ؟!

ــ سنسافر سوياً .. لقد اقترح أبى علينا أن نذهب معه . فلم نتحمس كثيراً لاقتراحه .. فإذا كنتما مسافرتين حقاً .. فسنصر على الذهاب معه .

وقالت « جابى » فى فرح :

ــ ستكون رحلة مدهشة .. هل سبق لك الذهاب إلى هناك يا نادية ؟!

وهزت « نادية » رأسها بالنفى ، وعادت « جابى » تقول فى حماس :

ـــ إنها مكان مدهش .. إنها أعلى قمة فى هذه المنطقة كلها والطريق إليها فى منتهى الجمال .

وتساءل تونى :

ـــ هل تسافران معنا ؟!

وأجابت « منى » :

ـــ إذا كان لديكم مكان لعمتى جانيت .. فسنسافر طبعاً .

وسألت جابى :

ـــ وماما ؟..

ـــ ستبقى مع جدتى .

وهز تونى رأسه .. وقال :

ـــ سنسافر كلنا معاً .. سنأخذ عربة « رالى » .. إنها لا شك سترحب بالمجىء معنا .

وفى صبيحة اليوم التالى ، وقبل أن ترسل الشمس أشعتها من وراء الأفق .. كانت العربتان تتحركان من « جاب » فى الطريق الصاعد إلى « بريانسون » ، وكان الكبار قد تجمعوا فى عربة ، وضمت العربة الأخرى نادية ، ومنى ، وتونى ، وجابى ، وبقية الشلة وقد تعالى ضجيجهم وغناؤهم .

وكانت الفرحة تبدو فى وجوه الجميع .. والمرح يتواثب فى قسماتهم .. وكانت المناظر الرائعة تترامى على جانبى الطريق .. وندى الصباح يتلألأ على صفحات الأوراق الخضر الناضرة المتهدلة على جوانبه .. وكانت مساقط المياه تتدفق منحدرة فى صخب عنيف أحياناً .. وفى خرير ناعم أحياناً أخرى .

وفى الوديان البعيدة تبدو الغدران وقد تجمعت فيها مياه المساقط .. وأخذت تتدفق بين الصخور والأعشاب .. تلتقى حيناً فى أنهر عريضة وتفترق حيناً فى جداول ضحلة كالشرايين الرفيعة .. والكبارى تبدو معلقة بين أطراف الجبال كأنها الأرجوحات تهتز فى مهب النسيم .

وأشعة الشمس تتسلل حمراء قانية لتصبغ كل هذا .. بلون الأرجوان ، وتبدى الكون فى روعة مذهلة .

و « نادية » .. تشارك فى الضحك ، وأسنانها البيض المنظمة تلمع بين آونة وأخرى فى انفراجة شفتيها .

وهى تحس بالجمال الرائع من حولها .

وتحس بالنشوة والفرحة التى تغمر الرفاق الضاحكين من حولها .

ولكنها مع كل هذا الضوء المحيط بها تحس بشىء قاتم فى باطنها .

ولم يكن هذا الشىء القاتم الكامن فى باطنها .. بالشىء الجديد عليها .. فقد كان يرسب دائماً فى أعماقها .. ولكن إحساسها به قد زاد وهى تحس بالعربة تحملها بعيداً عن « جاب » . عن البلدة التى طافت بكل قمة من قممها وذراعها فى ذراعه .. والتى جلست وإياه على شاطىء بحيرتها .. واصطلت وإياه بنار مدفئتها .. والتى تحس بعد كل هذا .. أنه سيحل بها ، ويطوف بربوعها .

وكانت بنفسها حيرة وقلق .

لماذا تطمع فى لقائه .. وهى قد وطنت نفسها على عدم اللقاء !! على البعد .. والأوهام والأحلام !

أليس من الخير أن تجنب نفسها هذه التجربة التى قد تطيح بكل أحلامها وأوهامها ؟

وهمت بأن تستمر فى دورة تفكيرها وحيرتها وتساؤلها عندما أحست بأصبعى « منى » تجذبانها من أرنبة أنفها وتصيح بها ضاحكة :

ـــ هاى .. نحن هنا .. فى الطريق إلى بريانسون .. فى الطريق إلى أعلى قمم الألب .. فى الطريق .. إلى الله .

ورفعت « منى » ذراعيها إلى أعلى فى طريقة تمثيلية وهتفت :

ـــ إنى صاعدة إلى الله .

وأحست « نادية » بانقباض من قول منى وهتفت بها :

ــ لماذا تقولين هذا الكلام السخيف ؟! تفى من بقك .

وتساءلت « منى » ضاحكة :

ــ سبع تفات ؟

ــ أجل .

ــ على وجهك ؟

ــ على وجهى .. على وجهى .. تفى قلت لك .

وأصدرت « منى » من شفتيها أصوات تف سبع مرات .

ثم هزت رأسها ضاحكة :

ــ لن تتقدمى أبداً .. ستظلين هكذا كالولايا .. أفى قمم الألب تقولين لى تفى من بقك ؟!

ــ لا تعودى إلى السخافات التى تقولينها .

ــ أتظنين السبع تفات ستقينى من الموت ، وتمنعنى من الصعود إلى الله ؟!

ــ قلت لك لا تكررى هذه السخافات إنى أتشاءم منها .

ــ انتهينا .. اضحكى .. إياك أن تسرحى .. وإلا عاودت الصعود إلى الله .

وصاح تونى بالأختين وقد ملّ حديثهما بالعربية :

ــ أيتها البربريتان .. كفا عن الرطانة بهذه اللغة .. وخبرانى ماذا تقولان .. أتتآمران علينا ؟.. ماذا تريدان بعد أن أخذتما قناة السويس .. وصفعتنى إحداكما قلماً .. كأنما نحن الذين لطشنا القناة .

وصاحت به « منى » :

ــ يبدو أنك تريد قلماً منى هذه المرة .. أحذرك من أن تعود إلى تسمية التأميم باللطش .

ــ تأميم .. لطش .. لن أعود إلى ذكر القناة بعد هذا . على ألا تتكلما بالعربية .

واندمجت الأختان فى الحديث والغناء مع « الشلة » .. حتى وصلت العربتان

أخيراً إلى مدخل بريانسون .

وأخذت جانيت تقودهم فى طريقها حتى وصلوا إلى بيت العم ريمون .. وبدا المسكن أقرب إلى الكوخ منه إلى المنزل .. بجدرانه الخشبية القديمة .. وسقفه المائل .. وشرفته العريضة المطلة على البحيرة .

و لم يكد العجوز صاحب البيت يتحقق من زوّاره حتى هتف فى حماس :

ـــ أخيراً جئت بقريباتك المصريات ؟

واندفع إلى الجمع مرحباً .. وهبطت نادية ومنى وجانيت من العربة .. ولحقت عربة تونى بالعربة الأخرى متجهين إلى فندق قريب من البيت بعد أن اتفقوا على موعد اللقاء .

ووقفت « منى » ترقب المنظر من حولها مأخوذة بروعته ، ولمحت قارباً على شاطىء البحيرة فهتفت فى سعادة :

ـــ مدهش .. كل شىء كما أحب .. سأجدف .. وأعوم ، وأتسلق الجبل ... وهذه دراجة .. بجوار البيت .. سأركبها أياً كان صاحبها .. ماذا بقى بعد ذلك ؟!

ونظرت إليها « نادية » وهزت رأسها وأجابت فى سخرية :

ـــ بقى أن ترقدى صريعة ، بعد أن تفعلى كل هذا الجنون .

وقلبت « منى » شفتها السفلى وقالت مقلدة نادية :

ـــ ما هذا الكلام السخيف .. تفى من بقلك سبع تفات .

وأسرعت « نادية » تنفذ الأوامر وقد بدا عليها الندم على ما قالته .. وأمسكت بذراع « منى » وقالت محذرة :

ـــ اسمعى .. إياك أن تفقدى عقلك وتدورى كالمطيورة . لتفعلى كل هذه السخافات التى قلتها ؟!

ـــ ماذا أفعل إذن ؟!

ـــ افعلى كما سأفعل .

ــ أجلس لأسرح فى جزّار الدمرداش ؟!

ــ أنا لا أسرح فى أحد .

ــ لا تغضبى .. أنا التى أسرح .. هل تريديننى أن أجلس أمام البيانو لأعزف .. القطعة الجنائزية التى لا تكفين عن عزفها ؟!

ــ اسمعى يا منى يا حبيبتى .. أنا لا أطلب منك سوى أن تكونى عاقلة .. لا تنطلقى كالمطيورة .. حتى تخرى من فرط التعب .

ــ لك علىّ هذا .

وكان العجوز ريمون قد انهمك فى الحديث مع جانيت ونظرت إليهما « منى » وقالت فى صوت خافت :

ــ أقسم لك .. أن جانيت ستكون الزوجة الرابعة للعم ريمون بعد وفاة العمة سارة .

وقبل أن تدخل الأختان الكوخ .. وثبت « منى » على الدراجة واندفعت تعدو بها على شاطىء البحيرة .

(٣٩)

لو ينسانا ...

عادت «منى» إلى الكوخ بعد جولتها بالدراجة .. وأخذ تقفز درجاته الخشبية .. فى خفة ومرح ، وانطلقت تتجوّل فى حجراته ، وهى تصفر بفمها ، وهتف العجوز ريمون ضاحكا :

ـــ لعل كوخنا المتواضع قد أعجبك أيتها المصرية الجميلة ؟

ـــ أعجبنى فقط ؟ إنه رائع .

وكان الكوخ رائعاً حقاً .. بقاعته الرحبة ذات المدفأة الضخمة التى علق فى صدرها رأس حيوان بقرونه الملتفة ، وعلق على جدرانها صور زيتية لرجال بأزياء رسمية .. وشوارب مبرومة ، ونساء كشيفات الحواجب واسعات الأفواه قد فرقن شعورهن من منتصف الرأس وتدلت ضفائرهن على الأكتاف ، وصور أخرى لمناظر صيد ومناظر طبيعية للجبال والبحيرات .. ومجموعة من السيوف والبنادق احتلت بقية الأماكن الخالية من الجدران .

كانت حجرات الكوخ تحيط بالقاعة ، وكانت « نادية » قد استقرت فى إحداها تمارس عمليتها المعتادة فى نقل الملابس من الحقائب إلى الدولاب .

ونظرت إليها « منى » وهتفت :

ـــ إن المكان مدهش .. لقد قمت بجولة سريعة بالدراجة ، على شاطىء البحيرة ، وفى الشوارع المحيطة بنا .. ألا تنوين الخروج ؟!

ونظرت إليها « نادية » فى غيظ وتساءلت :

ـــ وهذه الملابس المكدسة فى الحقائب .. من الذى سيعلقها ؟ .. خدامين أبونا !

ـــ يا ستي .. عندما نعود يحلها ربنا .

وانحنت فوق حقيبتها وأخذت تبحث بين الملابس المطبقة حتى أخرجت شورتاً كحلياً سرعان ما دست فيه ساقيها ووقفت تتلفت حولها متسائلة :

ـــ ألا توجد هنا مرآة ؟!

ثم وقع بصرها من فتحة الباب على العجوز ريمون وقد بدا وجهه كواد ملىء بالأخاديد ، وقد جلس على مقعد أمام المدفأة يملأ غليونه بالتبغ ، وأردفت « منى » تقول :

ـــ من مصلحة سكان البيت ألا يكون به مرايا .. حتى لا يروا أنفسهم .

ومدت « نادية » يدها وفتحت ضلفة الدولاب فبدت مرآة فى داخله ، وقالت لمنى :

ـــ إنهم يرون أنفسهم سراً ..

ووقفت « منى » تصلح « الشورت » والقميص أمام المرآة ..

ومدت إحدى ساقيها متخذة وضعاً استعراضياً وأطلقت بفمها صفير إعجاب ، وقالت مازحة :

ـــ يا سلام عليك يا منى .. زى اللوز .

وهمت بالخروج ، وهى تتحرك على أطراف أصابعها كما تتحرك راقصات الباليه ، وتساءلت « نادية » ، وهى تعلق أحد الفساتين على الشماعة :

ـــ إلى أين !؟

وفتحت « منى » ذراعيها ، وأخذت زفيراً طويلا ، وقالت فى لهجة ملؤها الجذل والابتهاج :

ـــ إلى الدنيا .. إلى الحياة الحلوة .

وأجابت « نادية » ، وهى تهز رأسها فى استخفاف :

ـــ ألا تعقلين ؟ ..

ـــ ألا تعقلين أنت ! .. إنك تضيعين نصف عمرك فى تطبيق الملابس

وتعليقها ، والنصف الآخر .. فى نزهات على الورق .. وجولات فى الرسائل .

ولم تجب « نادية » بل استمرت فى تنظيف الدولاب وتعليق الملابس به ..

وعادت « منى » تتساءل قبل أن تغادر الحجرة :

ـــ ألا تأتين معى للتجديف فى البحيرة ؟!

والتفتت إليها « نادية » وقالت مستنكرة :

ـــ أتنوين التجديف ؟!

وهزت « منى » رأسها قائلة :

ـــ أجل . مالك تقولينها باستنكار كأنى سأرتكب منكراً !

ـــ ألم تقل لك ماما ألا تجهدى نفسك ؟!

ـــ ومن قال إنى سأجهد نفسى .. إنى سأجدف .. بلا أى إجهاد .

ـــ هكذا !؟

ـــ أجل هكذا .. سأضرب بالمجدافين بمنتهى الخفة .. وبلا أى جهد .

وأطلقت « نادية » زفرة غيظ ، وقالت راجية :

ـــ يا منى يا حبيبتى .. اعقلى ودعى الرحلة تمر على خير .

وهتفت « منى » محذرة :

ـــ اسمعى يا نادية .. أرجوك أن تكفى عن اتخاذ موضع الأم منى .. إنك لست أكبر منى ، وأنا أعرف كيف ...

وقاطعتها « نادية » فى ضيق :

ـــ انفلقى .. افعلى ما تشائين .. أنت لست صغيرة .

وانطلقت « منى » من الحجرة .. وعند عبورها القاعة .. سألتها جانيت :

ـــ إلى أين ؟!

ـــ إلى البحيرة .

ـــ ألا تنتظرين حتى تأتى مدام ريمون ؟!

ـــ وأين هى ؟!

وأجاب العجوز ريمون :

ــ ذهبت إلى السوق .. إنها ستسر جداً بقدومك .. لقد ضقنا بالوحدة ذرعاً .

ــ سأعود بسرعة . إنى سأخرج بالقارب فى جولة قصيرة .

وتساءل العجوز :

ــ هل تستطيعين استعماله ؟

ــ وهل استعماله مشكلة ؟

ــ أبداً .. إنه خفيف جداً . وليس عليك إلا أن تفكى الوثاق الذى يشده إلى الشاطئ .. وتضربى بالمجدافين .

ولوّحت « منى » بيدها .. ثم انطلقت تعدو إلى الخارج .

وكان القارب قد ربط فى جذع إحدى الشجيرات المتكاثفة على الشاطىء ، ولم يصعب على « منى » فك الوثاق .. وقفزت إلى القارب فى خفة .. واتخذت مكانها على العارضة وأمسكت بالمجدافين ، ولم تكد تضرب بهما أول ضربة على سطح البحيرة حتى سمعت هتافاً يصيح بها :

ــ منى .

والتفتت لتجد جابى وتونى ينحدران من ربوة تشرف على البحيرة بجوار الكوخ .. وقد أخذا يلوّحان لها .

وانتظرت « منى » حتى وصلا إلى شاطىء البحيرة .. وهتفت بها جابى متسائلة :

ــ إلى أين ؟!

ــ جولة بالبحيرة .

ــ وحدك .. يا خائنة !

ــ وحدى لأنى لم أجد من يأتى معى .. إن « نادية » منهمكة فى ترتيب الملابس وتنظيف الدواليب .

ـــ لماذا لم تنتظرينا ؟!

ـــ ظننتكما ستتأخران .

واقتربت « منى » بالقارب من الشاطىء وأردفت قائلة :

ـــ هيا بنا .. اهبطا .

وقفز الاثنان إلى القارب .. وكاد توازنه يختل ، ومضت برهة ، وهو يتأرجح ويهتز حتى عاد إلى ثباته .. وقبل أن ترفع « منى » المجدافين لتضرب بهما الماء سمع صوت آخر يهتف ، وظهرت « سالى » تهبط من نفس الربوة وتشير إليهم بالانتظار . وقالت منى :

ـــ إن القارب لن يسع أكثر من هذا .. قل لها يا تونى أن تنتظر حتى نعود .. ونستطيع أن نخرج بها فى جولة أخرى .

ووضع تونى كفيه حول شفتيه كالبوق وصاح بسالى :

ـــ سنعود حالا .. القارب لا يتسع لأكثر من هذا .. سآخذك أنت ونادية فى جولة أخرى .

وضربت « منى » سطح الماء بالمجدافين فتطاير الرذاذ .. وأصاب بعضه تونى فصاح بمنى ، وهو يقف نصف وقفة :

ـــ ناولينى المجدافين سأجدف أنا :

وصاحت به « منى » آمرة :

ـــ اجلس مكانك .. أنا التى سأجدف .. ماذا تظننى ؟ غشيمة !.

وعادت « منى » تضرب سطح الماء بالمجدافين ، وفى كل مرة يتعالى الرذاذ فيصيب الراكبين ، ويحاول تونى أن يأخذ المجدافين فتهدده قائلة :

ـــ اجلس مكانك وإلا قلبت بك القارب .

واستمر القارب .. يجرى على سطح البحيرة ، واستمرت ذراعا « منى » فى حركتهما الدائرية بالمجدافين .. وأخذ صدرها يعلو ويهبط وبدأت أنفاسها

تتلاحق .

وقالت لها جابى متسائلة :

ـ هل تعبت يا منى ؟!

وأجابت « منى » بين أنفاسها المتلاحقة فى إصرار وعناد :

ـ ليس بعد .

وبعد فترة نظرت جابى إلى الساعة ، وقالت لمنى :

ـ أظن الوقت قد حان لنعود .

وكانت « منى » قد أحست بالتعب فعلا .. فقد أخذت عضلات ذراعيها فى التصلب وازداد تلاحق أنفاسها

واقترب القارب مرة أخرى من الشاطىء حتى توقف عند مرسى بجوار الشجرة ، وتركت « منى » المجدافين وأخذت شهيقاً طويلا ثم أطلقت زفرة أطول .. ومدت ذراعيها تحركهما حتى تزيل عنهما تصلب عضلاتهما ثم قفزت من القارب فى خفة وتبعتها جابى ، ووقف تونى فى القارب ينفض عن ثيابه الرذاذ الذى علاها من ضربات المجداف .

وقالت « منى » فى تفاخر :

ـ ما رأيك فى تجديفى ؟!

وأجاب تونى ساخراً :

ـ ممتاز .. ممتاز .. جعلنى أستحم وأنا فى القارب . ونظرت إليه « منى » وتساءلت :

ـ هكذا !

وبسرعة مدت قدميها ثم ضغطت بها على حرف القارب .. واهتز القارب ، وأحس تونى بأن توازنه قد اختل فجأة .. وحاول أن يميل ليحفظ توازنه .. ولكن الدفعة كانت مفاجئة .. ولم يجد هناك ما يتعلق به .. ووجد نفسه مضطراً إلى أن يقفز فى الماء .

وصاحت « منى » ضاحكة وهى تفر هاربة :

ــ تستطيع الآن أن تستحم فى البحيرة .. ما دام الاستحمام فى القارب لا يعجبك

وخرج تونى من البحيرة وقد أغرق بنطلونه بالماء .. وانطلق يعدو فى أثر « منى » .. وجرت جابى تتبعهما ضاحكة .

واندفعت « منى » تتسلق الربوة .. وانطلقت تعدو بين الدروب الملتوية التى تتخلل الشجيرات والأحراش .

وطال بها العدو حتى أحست بأنفاسها تتلاحق فى شدة وقلبها يدق فى عنف .. وفجأة أحست بأن شيئاً يخز صدرها وأصابها دوار جعل الأرض تميد بها .. والمرئيات تختلط فى ناظريها .

وتوقفت « منى » مكانها .. ومدت يدها تتلمس شيئاً تستند إليه وقد أحست أن ساقيها لم تعودا تقويان على حملها .

ومرة أخرى عاد الشىء يخزها فى صدرها وأحست بصدرها يتمزق .. و « بأكلان » يدفعها إلى السعال .. وسعلت بضع سعلات قصيرة جافة .

ووصل إليها تونى ومد يده فأمسك ذراعها وبدأ يلويها ولكنه لم يكد يشد عليها حتى وجدها تتهاوى بين يديه .. ونظر إلى وجهها فإذا به قد علته صفرة شديدة .. فخر بجوارها وهتف فى جزع :

ــ منى !! مالك ؟!

وكانت « جابى » قد وصلت إلى مكانهما وخيل إليها أن تونى قد أوقع « منى » على الأرض فصاحت به ناهرة :

ــ اتركها ياتونى . إياك أن تفعل بها شيئاً .

ونظر تونى إلى أخته وقد فغرفاه وملأ الجزع ملامحه .. وهتف فى ذعر :

ــ أنا لم أقربها .. أنا لم أفعل بها أى شىء ، إنها هى التى وقفت مكانها .. واستندت إلى الشجرة .. و لم أكد أمسك يدها حتى تهاوت على الأرض .

ونظرت « جابى » إلى « منى » فوجدتها قد أسندت كتفها اليمنى إلى جذع الشجرة ومالت برأسها عليه وقد أغمضت عينيها وبدا على ملامحها إعياء شديد .. ووضعت يدها اليسرى بالمنديل على فمها .. وقد أخذ جسدها يهتز من السعلات القصار التي يكبتها المنديل الملصق بكفها على شفتيها .

وركعت « جابى » بجوارها ومدت كفيها تتحسس جبينها وهمست بها فى رفق :

— ما لك يا منى ؟!

وهزت « منى » رأسها هزات خفيفة .. كأنما تحاول أن تنفى أن بها ألماً .

وعاد الشيء الذى يمزق صدرها .

وازدادت السعلات شدة .

ولم تقو يدها بالمنديل على كبت السعلات .. فانطلقت إحداها .. لتغرق المنديل دما .

وبدا الروع على وجه « جابى » .. وهتفت بمنى :

— منى .. لا بد أن نعود إلى البيت .. لقد جرح زورك .

وفتحت « منى » عينيها فى إعياء ونظرت إلى المنديل وأحست كأن قواها تتسرب منها كما يتسرب الماء من بين الأصابع وقالت فى لهجة ملؤها الاستسلام :

— إنه ليس زورى .. إنه صدرى . إنى أحس به يتمزق .

وهزت « جابى » رأسها وهى تنفى فى جزع :

— لا .. لا .. لا تقولى هذا .. لقد أجهدك العدو .. وجرح الصياح زورك .

والتفتت إلى « تونى » الذى بدا عليه الذهول وقالت :

— هيا يا تونى .. لا بد أن نعود بها إلى البيت .. إنها تحتاج لبضع ساعات راحة .

وأمن « تونى » على قولها :

— أجل .. إنها لم تسترح منذ أن غادرنا « جاب » .

ومد « تونى » يديه محاولا رفع « منى » ولكنها هزت رأسها قائلة :

— إنى سأسير بينكما ، وأتكىء على كتفيكما .. إنى أحس بأنى قد تمالكت قواى .

ومد «تونى وجابى» ذراعيهما وساعداها على النهوض.. واتكأت بذراعيها على كتفيهما وهى تحاول التماسك .. وسارا بها برهة حتى اقتربا من الكوخ .

ومرة أخرى .. أحست بالدّوار يعاودها .. وبقواها تتسرّب منها .. وكأن شيئاً يجذبها إلى أسفل .. وعادت السعلات المتقطعة تمزق صدرها .. وأخذ جسدها يتراخى ، وكادت تتهاوى إلى الأرض .. فأسرع « تونى » إلى رفعها بين ذراعيه .. وحث الخطا تجاه الكوخ .

وعدت « جابى » أمامه تفتح له الباب وتفسح له الطريق .

وكانت « نادية » قد وقفت فى القاعة تتلقى ترحيب العجوز البدينة زوجة ريمون بعد أن عادت من السوق .. وتجيب على سؤالها عن « منى » بأنها قد خرجت للتجديف فى البحيرة .. وأنها لا بد أن تكون فى طريقها إلى البيت .

ولم تكد « نادية » تنتهى من قولها حتى فوجئت باندفاع جابى .. وقد بدا على وجهها أمارات الجزع .

وقبل أن تستفسر « نادية » عما بها .. فوجئت بتونى يجتاز الباب حاملا « منى » بين يديه وقد تدلى رأسها وبدا وجهها فى اصفراره المروع .

وصرخت « نادية » واندفعت إلى أختها صائحة :

— منى !!حبيبتى منى .. مالك يامنى ؟!

وسار تونى فى خطاه المتثاقلة حتى وضع حمله على أقرب فراش .

وأجابت « جابى » محاولة أن تطمئن نادية :

— لا تخافى يا نادية .. لقد أجهدها العدو .. إنه مجرد إجهاد .. لا تجزعى هكذا .. إنها ..

وقبل أن تكمل « جابى » كلامها .. لمحت « نادية » .. بقعة دم على صدر « منى » فانطلقت منها صرخة حادة ، واندفعت تضمها إلى صدرها .. وتقبلها فى لهفة وجزع وتبلل وجهها بالدموع المنهمرة من مقلتيها ، وهتفت فى صوت متشنج باك :

— يا حبيبتى يا منى .

وفتحت « منى » عينيها وحاولت جهدها أن تتماسك .. ورسمت ابتسامة باهتة على شفتيها وأجابت :

— لا تخافى يا نادية .. ليس بى شىء .. إنه مجرد إجهاد . لقد عدوت كثيراً .

وخرت « نادية » على ركبتيها بجوار الفراش ، واستمرت تضم « منى » إليها وتقبلها ، ودموعها لا تكف عن الانهمار ، وهى تتساءل فى صوتها الباكى الأليم :

— يا منى لِمَ فعلت هذا ؟! لماذا لم تسمعى كلامى يا حبيبتى !

ثم وضعت رأسها فى كفيها وازداد نحيبها .. وقالت وهى تهز رأسها فى يأس :

— أنا السبب فى كل هذا .. كان يجب ألا أتركك تخرجين .. بل كان يجب ألا أوافقك على المجىء إلى هنا .

وكانت « منى » قد بدأت تستعيد قواها فمدت يدها تتحسس رأس « نادية » وتقول لها :

— لِمَ كل هذا يا نادية !؟ قلت لك إنى بخير .. وبعد أن أستريح برهة .. سأعود كما كنت .

ونظرت « نادية » إلى بقعة الدم على صدرها ثم عضت شفتيها حتى كادت تدميهما ، واندفعت فى بكائها .

واقتربت جانيت من نادية ، ومدت يدها ترفعها وتقول لها فى لهجة ناهرة :

— نادية .. ما هذا الذى تفعلين ؟! إن أختك بخير .. كفى عن هذا البكاء الأحمق .. يجب أن تكونى أكثر تجلداً . ما هكذا يفعل العقلاء ؟

وحاولت « نادية » أن تكبت بكاءها .. ورفعت يدها تكفكف دمعها وتمسح عينيها ، وقالت وهى تزدرد ريقها :

ـــ أنا متأسفة .. أنا فقط .. أنا .. أنا أعلم أنها بخير أجل إنها بخير .. ولكننى أخشى عليها .. أخاف ...

وأقبل العجوز ريمون .. يربت ظهرها قائلا :

ـــ لا تخافى يا بنيتى .. لقد أرسلت فى استدعاء الطبيب وسيصبح كل شىء على خير ما يرام .. ثقى بالله يا بنيتى .. إنها لا تحتاج إلى أكثر من الراحة .

وأحست « نادية » بشىء من السكينة ، وهى ترى « منى » تستعيد قواها شيئاً فشيئاً ، واستطاعت « منى » بقدرتها على المرح وبالأمل الزاخر الذى يقبض بنفسها ، أن تمنحها بعض الطمأنينة .

وحضر الطبيب .. ولم يغير حضوره من الأمر الواقع شيئاً .. إذ لم يكن هو نفسه .. بهيكله العجوز المتداعى .. وسمعه الأصم ، ويده المرتجفة .. يمنح فى النفس أى إحساس بالثقة .. وكان كل ما فعله هو أن نصح بأن تنقل إلى المستشفى وتعرض على أخصائى فى أمراض الصدر .

وعاود اليأس « نادية » .. بمجرد أن انصرف الطبيب .. وملأ نفسها حزن قاتم مقبض .. ولكنها كرهت أن تستلم للانفعال .. وأن تندفع مرة أخرى فى بكاء متشنج لا يجدى نفعاً .. وأحست أنها يجب أن تقاوم وتتجلد لأن عليها أن تتصرف بطريقة ما .

وتملكها الخوف وهى تجد نفسها وحيدة بعيدة عن أمها وعن بيتها .

وكانت « منى » ترقد فى فراشها .. وقد ذهبت عنها الآلام وانقطع السعال . وبدا عليها الهدوء والاستسلام .

وكان الجمع قد وقف فى القاعة يتدبر الأمر فى مناقشة تشبه التهامس .

وكان المسيو « كيلى » والدجانى وتونى ، قد وصل عندما أبلغه تونى النبأ وجلس مطرقاً فى حزن .

وقال العجوز ريمون وهو ينفض غليونه على حرف المدفأة :

ــ إن أقرب مستشفى نستطيع أن نجد فيه أخصائياً .. يبعد عن هنا مسافة ساعة على الأقل .

وقال « كيلى » وهو ينظر تجاه الحجرة التى رقدت فيها « منى » :

ــ ساعة أو أكثر .. لا بد أن ننقلها .

وتساءلت مدام ريمون :

ــ ولكن هل نستطيع نقلها الآن ؟

وقالت جانيت :

ــ لماذا لا نسأل الطبيب ؟!

ــ وقال « تونى » وهو ينفخ بأنفه ساخراً :

ــ أى طبيب ؟! إنه يكاد يعيش .

وهز كيلى رأسه .. وقال فى حزم :

ــ رأيى أنا أن ننقلها حالا .

وعقب تونى على قوله :

ــ والعربة موجودة على الباب .

وهزت العجوز مدام ريمون رأسها قائلة :

ــ اتركوها تستريح .. وستقوم مرة أخرى كالحصان .. لتلهو وتلعب .

ورفع زوجها حاجبيه وعقب ساخراً :

ــ وتسقط مرة أخرى ؟

ونهض « كيلى » وهو يقول :

ــ إذا كانت حالتها تحتمل الانتقال فسننقلها .. وإذا لم تكن ، فلننتظر حتى تتحسن حالها ثم ننقلها .

وأطرقت جانى وتساءلت :

ــ وإذا لم تتحسن ؟ أعنى .. إذا لا قدر الله حدثت مضاعفات جديدة ؟

ورفع العجوز ريمون كفيه قائلا :

— يدبر الله أمرها .

وأقبلت « نادية » من حجرة « منى » وكأنها تحمل عبئا أنقض ظهرها .. وقد بدت علامات اليأس والذهول فى وجهها .. وكانت قد سمعت الطرف الأخير من المناقشة .

وسألتها جانيت :

— ما رأيك يا نادية ؟

وأجابت « نادية » فى شرود :

— فى أى شىء ؟!

— لقد اتفقنا أن ننقل « منى » إلى المستشفى بمجرد أن تحتمل ذلك .

وعقب تونى قائلا :

— إن المستشفى يبعد عن هنا حوالى ساعة .

ورفعت « نادية » حاجبيها وتساءلت :

— ولماذا لا ننقلها إلى جاب ؟!

وتساءل العجوز ريمون فى دهشة :

— جاب ؟

— أجل .. إن الذى يجعلها تحتمل الانتقال ساعة .. يجعلها تحتمله ساعة ونصف الساعة .

— وماذا يوجد فى جاب ولا يوجد هنا ؟

وارتمت « نادية » على أحد المقاعد فى إعياء ووضعت رأسها بين كفيها وأطلقت تنهيدة حملتها كل ما بها من مرارة ويأس وخوف وألم :

— بها بيتنا .. وبها أمنا .

واختنق صوت « نادية » واهتز جسدها وربتت السيدة ريمون ذراعها وهى تقول فى لهجة مشجعة :

ـــ تجلدى يا بنيتى .. إن الله لا ينسانا .

وهز العجوز ريمون رأسه وقال كأنما يحدث نفسه :

ـــ تلك هى المشكلة .. لو أنه ينسانا !!

وقال « كيلى » وهو يقترب من نادية ويتحسس رأسها :

ـــ كفى .. كفى يا نادية .

ثم وجه الحديث إلى الجميع قائلا :

ـــ إن نادية على حق .. عندما تحتمل « منى » الانتقال ، فسنعود بها إلى جاب .

وقالت جابى فى أمل وحماس :

ـــ إن شاء الله ستبل « منى » .. وستستطيع العودة إلى « جاب » .. ولن تحتاج أبداً لكى ندخلها المستشفى .. إنها ستستريح وتقوم كالحصان .

وعقب تونى على حديثها قائلا :

ـــ أجل .. إن ما بها ليس أكثر من التهاب فى الزور .

وقالت العجوز ريمون :

ـــ جائز جداً .. فأنا لا أثق فى هذا الطبيب الخرف . لقد مضى علىّ خمسون عاماً .. وأنا أشكو له من غثيان يصيبنى .. وهو يؤكد لى أنه غثيان حمل .

وعلت من حجرة « منى » ضحكة عالية .. وأحس الجميع كأن ضحكتها نسمة منعشة .. سرت فى نفوسهم .

ورفعت « نادية » المنديل لتجفف عينيها وهمست وهى تضحك :

ـــ يا حبيبتى يا منى !!

(٤٠)

ليل بلا عويل ...

مرت الليلة الأولى فى « بريانسون » دون مزيد من متاعب .. فقد أغفت « منى » فى رقدتها الهادئة المستسلمة ، ورقدت « نادية » على فراش بجوارها ، مسبلة العينين ، مشدودة الأعصاب .. يقظة الذهن .. تتوهم فى كل صوت .. صرخة .. وفى كل همسة سعلة أو حشرجة .. لا تكاد « منى » تتقلب أو تتحرك حتى تنهض فزعة بجذعها الأعلى منصتة فى توتر .. مرتقبة فى خشية وجزع .

ولم يكد يبزغ أول شعاع حتى أخذت تفتح الحقائب وتجمع فيها ما رتبته فى الأدراج والأرفف .

وفتحت « منى » عينيها متسائلة :

ــ ماذا تفعلين يا نادية ؟

ــ أحزم الحقائب .

ــ لِمَه ؟

ــ لأننا سنعود إلى « جاب » .

ــ ولكننى قد استرحت ولم يعد بى شىء .

ــ من أجل هذا سنعود .. سنعود قبل أن يحدث لك شىء .. ونحار فيما نفعل .

ــ ولكننا سنتلف رحلتهم جميعاً .. إنى أعدك بألا أجهد نفسى بعد ذلك ، وأن أظل راقدة فى الفراش .. وأن ..

واقتربت « نادية » من فراش « منى » وركعت بجوارها وتحسست وجهها فى رفق وقالت فى حزام وإصرار :

ـ سنعود يا منى .. سنعود هذا الصباح .. أرجوك ألا تعارضينى .. كفى ما حدث لك بالأمس ..

وبعد ساعة كان الركب يقف أمام الكوخ على أهبة التحرك إلى « جاب » . وكانت « منى » تجلس بجوار « نادية » ، وقد بدا عليها الهزال والاصفرار .. وعلت شفتيها ابتسامة باهتة وهى تلوّح للعجوز ريمون وامرأته .

ورفع العجوز يده .. وأشار ملوّحاً .. وهو يرسم على شفتيه ابتسامة وقال فى مرح مفتعل :

ـ ستعودين مرة ثانية .

وأجابت « منى » فى ثقة :

ـ طبعاً سأعود . لقد أحببتكم جداً . أحببت الكوخ والبحيرة .. وكل شىء عندكم .

ورفعت مدام ريمون يدها ملوّحة وأخذ الركب يتحرك وقالت :

ـ ستعودين قريباً .. لن يحجزوك فى المستشفى طويلا ، فسيكتشف الأخصائى .. خطأ طبيبنا الخرف .. وسيصرح لك بالعودة حالا .

وهزّت العجوز رأسها .. وأردفت ساخرة :

ـ غثيان حمل .. خمسون سنة وأنا أنتظر !

وضحكت « منى » وأشارت ملوّحة للعجوز وهى تقول :

ـ عندما أعود فى المرة القادمة .. أرجو أن يكون الغثيان قد ذهب .. وأن تكونى قد وضعت طفلا .

ورفع العجوز ريمون يديه وصاح محتجاً :

ـ ليس منى .. على أية حال !

وانحدر الركب فى الطريق المجاور للكوخ .. وبعد بضع دورات .. حول الربا المجاورة .. اتخذ الطريق الأصلى المتجه إلى « جاب » .

وتحركت العربتان وقد خيم على ركابهما صمت ثقيل .. بعد أن انقشعت

سحابة المرح المفتعل الذى حاول العجوزان أن يلفا به مرارة الرحيل .. ووجوم العودة .

وعبثاً حاول الفتية والفتيات .. إزالة سحابة الحزن التى حطت عليهم .. وعبثاً حاولوا إشاعة المرح .. ومواصلة الحديث .. فقد كانت الكلمات تذوب على شفاههم .. وترتد فى أفواههم .

و لم يملكوا فى النهاية ، إلا الاستسلام للصمت والإغراق فى الشرود .

و كانت « نادية » ترقب وجه « منى » فى قلق وخشية .. وبين آونة وأخرى تسألها فى حنان :

ـــ أتحسين بتعب ؟

وتهز « منى » رأسها ضاحكة وتقول :

ـــ أنا مستريحة تماماً .. كل ما أرجوه أن تستريحى أنت .

وفى كل منحدر أو حفرة أو منحنى ، تمسك « نادية » بيد « منى » وتهتف بتونى راجية :

ـــ على مهلك يا تونى .. حاسب .

ويهز تونى رأسه مطيعاً :

ـــ حاضر .. لا تخافى .

وأحست « نادية » بطول الطريق .. كانت تتلهف على العودة إلى البيت .. وكانت تحس أنها ستكون أكثر أمناً على أختها وهى بجوارها .

وأخيراً لاحت « جاب » .. أنبأت عنها : شجرة السنديانة الضخمة التى تظل محطة سكة الحديد .. والمداخن المرتفعة الصاعدة من الأسقف الحمر المنحدرة .

وتوقفت العربتان فى الطريق الرئيسى « لجاب » .. قرب المعطف المؤدى إلى روميت ، وغادر مسيو كيلى عربته متجهاً إلى منى ونادية وتساءل قائلا :

ـــ أنتجه إلى المستشفى رأساً .. أم تفضلون العودة إلى المنزل أولا ؟

وهزت « منى » رأسها متسائلة فى دهشة :

ـ المستشفى لماذا ؟! لم يعد بى شىء .

ونظر الرجل إلى « نادية » يستطلع رأيها .. وضغطت « نادية » كفيها بين ركبتيها وقد بدا عليها القلق والحيرة .. وأخيراً قالت :

ـ أظن من الخير أن نعود أولا إلى المنزل .. حتى لا تصدم أمى بعودتنا إلى المستشفى مرة واحدة .

وعادت « منى » تهز رأسها وتقول فى إصرار :

ـ لن أذهب إلى المستشفى .. لا على مرة واحدة .. ولا على مرتين .. قلت لكم إنى أحس الآن أنى طيبة .

وربت مسيو كيلى على كتفها قائلا فى عطف

ـ طبعاً أنت طيبة .. إنها مسألة طمأنينة فقط .. مجرد كشف أشعة وتحليل .. وسخافات مما يفعلون فى المستشفيات .

ونظر إلى ابنه الجالس على عجلة القيادة يرقبه وقد بدا عليه القلق وقال له :

ـ هيا ياتونى .

ـ إلى أين ؟

ـ إلى المنزل .. لنسلم على مدام لورا .. ثم نذهب إلى المستشفى .

وقالت « منى » فى عناد :

ـ إلى المنزل فقط يا تونى .. وبعدها يحلها ربنا .. لن أذهب إلى المستشفى إلا عندما أحس أنى فى حاجة إليها .

ومرة أخرى تحركت العربتان .. صاعدتين المنحدر إلى روميت . واتجهت إحداهما إلى منزل كيلى .. واتجهت الأخرى بنادية ومنى إلى منزلهما .

ووقفت العربة أمام بوابة المنزل .. وانطلق الكلب ينبح ويدور حولها .. وأطل العجوز بول من كوخه بجوار البوابة وصاح متسائلا فى دهشة :

ـ هكذا عدتما بسرعة ؟!

وأحست الأم بوقوف العربة .. وسمعت صيحة « بول » المدهـوشة .. فخرجت إلى الشرفة السفلية .. وأبصرت ابنتيها تجتازان البـاب ، فصاحت ضاحكة :

ـــ لم يعجبكما الحال بالطبع .. قلت لكما .. احمدا اللّه على «جاب » .. لم تصدقاني .

وأحست الأم من طريقة دخول « نادية ومنى » أن فى الأمر شيئاً أكثر من مجرد عدم الإعجاب ببريانسون .

لم تكن « منى » تقفز ولا تصيح ، ولا تعدو وراء الكلب ولا تشاكس العجوز بول .. كانت تسير هادئة .. وقد أمسكت أختها ذراعها .. و لم يبد على الاثنتين .. الملامح الطلقة .. المرحة .. البهيجة .. كان ثمة شيء عجيب .. يحيط بهما .

ثم .. ما هذا الاصفرار بوجه « منى » ؟

وأحست الأم بشيء يفرى أمعاءها .. واستندت على سور الشرفة وهتفت متسائلة فى خشية :

ـــ ماذا بكما ؟

وكانت الأختان قد وصلتا إلى الشرفة .

وابتسمت « منى » وقالت ضاحكة :

ـــ لا شيء .. لقد مللنا بريانسون .. واشتقنا إليك .

ونظرت الأم إلى « نادية » وعادت تتساءل :

ـــ ماذا حدث يا نادية ؟!

وهزت « نادية » رأسها وقالت فى شيء من الاستخفاف :

ـــ أبداً .. لقد تعبت « منى » .

وقاطعتها الأم متسائلة فى حدة :

ـــ تعبت ! كيف ؟

وهزت « نادية » رأسها فى ضيق وقالت :

— تعبت كما يتعب الناس .

وأردفت « منى » :

— يا ماما لم يحدث شيء .. ألا ترينني أمامك ، كالجن ، لماذا تنزعجين ؟! لقد ...

ولم تستطع « منى » أن تتم قولها .. فقد شعرت فجأة بالرغبة فى السعال ، وحاولت جهدها أن تكبته .. واستحثت الخطا تحاول الصعود إلى غرفتها .. ولكنها لم تكد تضع قدمها على أول درجة حتى أصابها الدوار وأحست كأن يدا تعتصر قواها لتجذبها إلى أسفل .. واتكأت على درابزين الدرج .

واندفعت « نادية » إليها صائحة :

— منى !! ما بك ؟!

وقبل أن تصل إليها .. عاودها السعال الممزّق .. ولم تجد من قواها المتسرّبة ما يعاونها على كبته . فانطلق من شفتيها .

سعلة جافة !!

ثم سعلة أخرى .

ثم ثالثة .. تحمل معها .. سيلا من الدماء !!

وصرخت الأم ، واندفعت إلى « منى » لتضمها إلى صدرها .

وتهاوت « منى » على درجة السلم .. وأسندت رأسها على درجة أخرى ، ونزيف الدم يتسرّب من شفتيها .

وتهاوت « نادية » بجوار أختها على الدرج .

ومدت يداً مرتجفة لا تعرف ما تفعل ، وأحست بشيء من الذهول أمام الدماء المتدفقة التى أغرقت الدرج .

وهمست فى أنين متحشرج منادية :

— منى !! منى !.

واندفعت جانيت من الباب على أثر الصيحة واندفع وراءها جالى وتونى ، وخرجت الجدة العجوز تستند مذعورة إلى ضلفة الباب .

ومضت لحظة ذهول .. لم يسمع فيها سوى نشيج وبكاء .. واندفع تونى يعدو إلى الخارج صائحاً :

ـــ سأذهب وأحضر عربة المستشفى .

واقتربت جانيت من « منى » ورفعتها من الدرج فأسندتها فوق الأريكة .. وأحست بها تتهاوى فى يديها كالخرقة البالية ، لا مقاومة ولا جهد .. وبدا وجهها كالبفتة البيضاء ، ونبضها لا يكاد يحس .

وظلت الأم منهارة على الدرج وقد أصابتها نوبة من التشنج والأنين .. والهتاف باسم « منى » .. هتافاً يمزّق القلوب .. وتهاوت الجدة على أقرب مقعد وقد أخفت وجهها المجعد بكفيها وأخذت تتمتم بكلمات خافتة .

وبعد دقائق ، وقفت عربة المستشفى أمام المنزل ، وهبطت منها ممرضتان بلباسهما الأبيض وصليبهما الأحمر .

وبعد دقائق أخرى .. كان البيت قد ساده صمت القبور وخلا من كل من به .. إلا العجوز المتهاوية على مقعدها ، مخفية وجهها بكفيها كأنما تحجب عنه شراً .. وتحاول دفعه بدعواتها المبهمة .

وكان الكل قد انطلقوا فى إثر العربة البيضاء.. حتى الكلب النابح.. لم يكف عن عدوه حتى وقف معها أمام باب المستشفى .

واستقر الجميع فى حجرة الاستقبال ، وتشاغلت جانيت فى العناية بالأم المتشنجة الباكية .. وأصرت « نادية » على ألا تترك « منى » .. ودخلت معها فى حجرتها .. واندست بين الأطباء والممرضات .

وكانت « نادية » تحس بأن أعصابها قد شدّت ، وأن مشاعرها قد جمدت .. ولم تعد لديها القدرة على الإحساس بأى شيء .. لا ألم ولا حزن ، ولا قلق ولا ضيق ، وباتت كأنها تتحرك فى ضوء ساطع قد سلط على عينيها .. فهى لا ترى

غير الفراغ .

وكانت « منى » .. قد أخذت تفيق . وفتحت جفنيها فى تثاقل .. ولم تستطع أن تميز شيئاً من الأشباح البيض الملتفة حولها ، وأمسكت « نادية » يدها وضغطت عليها وهتفت بها :

— منى .. حبيبتى .. أنا نادية .

وبللت « منى » شفتيها بلسانها وحاولت الكلام ، ثم عادت فأطبقتهما .. وهمت « نادية » أن تقول لها شيئاً عندما سمعت الطبيب يسألها :

— أتستطيعين أن تقدرى الكمية التى نزفتها ؟

وأحست « نادية » بمرارة فى حلقها .

لقد نزفت كثيراً .

نزفت ما أغرق الدرج .

نزفت ما جعلها تحس أن وعاء من الدم قد سكب .

ولكن أنى لها أن تقدر كمية النزيف !!

وعاد الطبيب يسأل فى رفق :

— بالتقريب .. كم لتراً ؟!

كم لتراً ؟! إنها لا تعرف اللتر .

وهبها عرفت .. هل ستستطيع تقدير النزيف .. هل تتصور أن تضع دم « منى » العزيز فى أناء لتعرف .. كم لتراً !

واندفعت تنشج باكية .. وهى تتمتم فى نحيبها :

— لا أعرف .. لا أعرف .

وربت الطبيب ظهرها برفق :

— لا تنزعجى .. أنا متأسف .

وصمت برهة وهو يرقب دموعها المنسابة على خدها .

وعاد يسألها راجياً :

ـــ لماذا لا تذهبين ، لكى تستريحى فى غرفة الانتظار ؟!

وهزت « نادية » رأسها .. وأجابت فى إصرار :

ـــ لا .. لا . لن أتركها .. أبداً .. إننا لم نفترق لحظة واحدة .

وأحس الطبيب بأنه يحتاج لشىء من الجهد كى يقاوم الدموع التى تتصاعد إلى مقلتيه ، ومد يده وشد على ذراعها مشجعاً وهو يقول :

ـــ إذاً ابقى إلى جوارها ، سنبذل كل ما فى وسعنا .

ثم التفت الطبيب إلى إحدى الممرضات متسائلا :

ـــ أسرعى لإحضار نتيجة التحليل .

وقبل أن تخرج الممرضة كان أحد الأطباء قد أقبل وبيده ورقة .. بها عينة الدم .. والكمية التى نزفت .

ورفع الطبيب حاجبيه فى دهشة وتمتم فى نفسه قائلا :

ـــ كل هذا قد نزف ؟. عجيبة !

ثم وجه القول إلى الممرضة :

ـــ أخبرى الدكتور « مانر » أن يحضر لينقل إليها دماً وأعطيه نتيجة التحليل

وأسرعت الممرضة إلى الخارج .

وعادت « منى » تفتح عينيها .. وتبلل شفتيها بلسانها .. ثم التفتت حولها .. وعندما أبصرت « نادية » بجوارها .. همست فى صوت خافت :

ـــ أنت هنا يا نادية ؟

وحاولت « نادية » جهدها أن تكبت النحيب فى صوتها المختنق وقالت :

ـــ أجل يا حبيبتى .

ـــ أما زلت غاضبة منى .. أن لم أستمع إلى كلامك ؟

ـــ أبداً يا حبيبتى .

ـــ لن أجهد نفسى بعد الآن .. سأسمع نصيحتك دائماً .

ثم صمتت لتستجمع قواها .. وعادت تبلل شفتيها وتساءلت :

ــ أين ماما ؟

ــ في حجرة الانتظار .

ــ لم أكن أريد أن أتسبب لها فى كل هذا الإزعاج .. أخبريها أنى متأسفة جداً .. أخبريها أنى سأعقل ، وأنى لن أجهد نفسى أبداً .

ــ حاضر يا منى . إنى ..

ونظر الطبيب إلى « نادية » وهز رأسه مقاطعاً :

ــ لا داعى لإجهادها بالحديث .

ومدت « نادية » يدها وتحسست جبين « منى » برفق قائلة :

ــ استريحى يا منى .. لا داعى للكلام .

وأقبلت الممرضة .. بأنبوبة الدم وعلقتها فى الحامل .. وأمسكت ذراع « منى » فكشفته ، وبدا الذراع أصفر متخاذلا ، ولفت الخرطوم حوله كى تبرز العروق ، ثم دفعا الإبرة فى عرق نافر ، وكشت « منى » ذراعها ، ثم أرختها ، وامتد الخرطوم لينقل الدم من وعائه إلى عروقها .. نقطة .. نقطة .

ووقفت « نادية » ترقب فى شرود ، قطرات الدماء .. تقطر فى ذراع « منى » لتعوّض السيل الذى سكب منها على الدرج .

وانتهت عملية نقل الدم .

وبدت لنادية .. عملية طويلة مزعجة وبدت لها « منى » مسبلة العينين .. شاحبة الوجه ، وكأن الدماء التى تسكب فى عروقها .. تتسرب فى ناحية أخرى .

وأخيراً ساد السكون الحجرة .. ونظر الطبيب إلى « نادية » قائلا :

ــ من الخير ، أن ندعها تستريح .

وبدت « منى » كالنائمة .

وغادرت « نادية » الحجرة متسللة على أطراف أصابعها وذهبت إلى حجرة الانتظار وأقبلت على أمها تحتضنها باكية .

وتساءلت الأم فى صوتها المتشنج :

ـــ أين منى ؟. أريد أن أراها .

ـــ إنها بخير يا ماما .. لقد نقلوا إليها دماً ليعوض الدم الذى نزفته .

وعادت الأم تقول فى تشنجها :

ـــ أريد أن أراها .

ـــ إنها نائمة الآن ، وقد أمر الطبيب أن نتركها لتستريح .

ـــ أريد أن أراها يا نادية .. حرام عليكم !! أريد أن أرى ابنتى .

ـــ سترينها يا ماما .. بمجرد أن تصحو ، سآخذك إليها .

وتوقفت « نادية » عن الحديث ، فقد أحست بحركة غير طبيعية فى الممر المؤدى إلى حجرة « منى » . وأبصرت إحدى الممرضات تهرول ، ثم رأت الطبيب يغادر حجرته .

وأحست « نادية » بشىء يعتصر جوفها ، واندفعت تجاه الحجرة ولحقت بالطبيب وسألته فى خوف :

ـــ ما بال « منى » يا دكتور ؟!

وهز الطبيب رأسه قائلا فى ضيق :

ـــ لا شىء .

ثم وجه الحديث إلى الممرضة وأردف قائلا :

ـــ أبدلى الملاءة .. واطلبى من الدكتور « مانر » أن ينقل إليها كمية أخرى .

وأحست « نادية » أن قدميها ستخذلانها ، وأن جدران المستشفى تميد بهما ، ثم تعلقت بذراع الطبيب ، وقالت باكية :

ـــ هل نزفت ثانية ؟!

وربت الطبيب رأسها متسائلا :

ـــ لماذا لا تذهبين لتستريحى ؟

وعادت « نادية » تسأل فى أنينها المؤلم :

ـــ أحقاً نزفت ثانية ؟!

وأجاب الطبيب ، وهو يحس بقلبه يتمزّق من أنينها :

ـــ إننا سننقل إليها دفعة أخرى من الدم .. لا تنزعجي من النزيف ، لا بد أن يتوقف بعد هذه المرة .

ولكن النزيف لمن يتوقف .

لقد وضع وعاء الدم على حامله وامتد الخرطوم يستقطر الدم فى ذراع « منى » .. وعندما انتهى من عملة الإفراغ .

عاد السعال .. وعاد النزيف .

وبدت العملية كأنها إفراغ دم فى وعاء مثقوب .

دم يصب .. ونزيف يفرغ .

حتى منّ الله عليهم بفترة راحة .

وهدأ السعال .. واستقرت « منى » فى فراشها بضع ساعات وأقبل الليل .

وساد السكون ، حجرات المستشفى .

وبدت « منى » راقدة على فراشها .. هزيلة صفراء .. كأنها عود يبس أو ورق جف .. وعلى مقعد بجوارها استقرت الأم فاغرة الفم .. شاردة العينين ، وفى ملامحها أمارات ذهول .

وعلى مقعد آخر جلست نادية .

وحاولت « نادية » أن تغمض عينيها .. وأن ترخى أعصابها .. وأن تريح ذهنها من يقظته .

ولكنها أحست أن الضوء الساطع ما زال يغمرها ، وبدت لنفسها كأنها مخلوقة أخرى .. مشدودة .. متوترة .

ونبح كلب خارج المستشفى .

ودقت ساعة الميدان تعلن انتصاف الليل .

وأحست « نادية » بخوف من دقات الساعة ، ومن نباح الكلب .. بل

خوف من الليل كله .

وتذكرت .. صرخة .. أيقظتها ذات ليله .

وتذكرت العويل .. وتذكرت النواح .

وتذكرت أباها .. المسترخى على الأريكة فى حجرته .

وبرغمها .. اندفع الشريط المروع يطوف بذهنها .

الكبش المذبوح .

النعش المحمول على الأكتاف .. والموكب السائر .

وشواهد القبور ، والفقهاء يرتلون على حافتها ، والكل ينفض ، ولا يبقى ألا كلب ينبح وراء العربة الفارغة .

وعضت شفتيها .

لماذا تذكر نفسها بمثل هذا ؟!

ليس هناك أثر لهذه الأشياء .

لا يوجد فقهاء . ولا توجد « كباش » تذبح .

ولكن .. توجد حقيقة الموت .. إنها هنا وهناك .. وفى كل مكان .. والأمر لا بد أن يجرى ، بطريقة ما .

بلا كباش تذبح ولا صلاة تقام ، ولا فقهاء يقرءون .

أف !! ما لها تذكر كل هذا ؟!

إنه شىء مروع .. شىء مخيف .

وهذا الليل .. لماذا لا ينتهى ؟

لماذا لا تشرق الشمس .. قبل أن تسمع الصرخات .. والنواح ؟!

ومرة أخرى ، عاد الشريط يطوف بذهنها ، الكبش المذبوح ، والعويل ، والنعش المحمول ، والموكب السائر ، والقبور المقفرة ، العفراء المتربة .

وتذكرت القبور .. المصفوفة أسفل الهاوية ، التى تبدو من منحدر الجبل وراء القصر الخرب .

وأحست بيد تعتصر جوفها وتفرى عظامها .. وأسقطت رأسها على صدرها ، وراحت فى إغفاءة .

وعندما استيقظت ، كانت الشمس تتسلل من النافذة .. وأصوات العصافير تزقزق فى الأشجار المحيطة بالمستشفى .

ونظرت إلى « منى » فإذا بها راقدة كما هى فى شحوب واستسلام ، ونظرت إلى أمها فإذا عيناها شاردتان فى ذهول وقد قرّح جفونها البكاء والسهر .

وأحست « نادية » بنوع من السكينة .

لقد مرّ الليل المخيف .. بلا صراخ ولا عويل .

(٤١)

صلاة ...

فتحت « منى » عينيها فى ضعف ، ودارت بهما فى سقف الغرفة .. فى شىء من الدهشة والاستفسار .

وشيئاً فشيئاً بدت عليها سيماء الإدراك .. وكانت « نادية » قد اقتربت منها وأمسكت كفها بيدها وضغطت عليه برفق ، وأقبلت الأم من الجانب الآخر من الفراش ومالت على الجسد الواهن وضمته إلى صدرها فى لهفة وحنان وهمست فى دعاء يقطر أسى :

ــ يارب .. لا ترينى فى إحداهما مكروهاً .. يارب اجعل يومى قبل يومهما .

وضمت « منى » أمها ضمة واهنة وقالت فى استخفاف :

ــ لا يومك ولا يومنا .. هوّنى عليك .. فالمسألة لا تستحق .

ورفعت عينيها إلى « نادية » وقالت وقد رسمت ابتسامة منحتها كل ما استطاعت من مرح وسعادة :

ــ كنت أحلم أننا فى مصر .

وكانت « نادية » ترقب الوجه الذابل .. والابتسامة الباهتة .. وتحاول أن تطرد من نفسها الأسى واليأس .. وأن تستجمع قواها لتمنح أختها أملا وثقة .

وأجابت وهى تحاول أن ترد على أختها مرحاً بمرح وابتسامة بابتسامة :

ــ حقاً !! وكيف حالهم فى مصر ؟!

ولم تجب « منى » وإنما حولت عينيها إلى أمها وقالت فى لهجة جادة راجية :

ــ اسمعى يا ماما .. عدينى عندما أترك المستشفى أن نعود إلى مصر ؟

وتساءلت أمها فى لهجتها الحزينة اليائسة :

ــ إلى مصر ؟

ــ أجل . عدينى .. لا تتصورين كم كنت سعيدة فى الحلم . لقد رأيتهم جميعاً .. عمى سليمان يضحك معنا كما تعوّد أن يضحك ، ورأيت زوجته .. لم تكن تشبه الصورة التى أرسلها لنا .. كانت بدينة وبين يديها طفل جميل .. ورأيت عمتى كذلك .. « مجرمة » كما هى ، ولكننى شتمتها بما فيه الكفاية .

وكان صدرها قد بدأ يعلو ويهبط وأنفاسها تتلاحق .

وقالت « نادية » وهى تتحسس رأسها فى حنان :

ــ لا تجهدى نفسك بالكلام يا منى .

ولم تأبه « منى » باعتراض « نادية » واستمرت تروى حلمها فى اندفاع مرح :

ــ ورأيت الدادة ، تماماً كما تعوّدت أن أرها تغازل مرسى « بياع الكازوزة » ، ورأيت من أيضاً ؟ رأيتهم جميعاً حتى محمود صبى المكوجى ، لم أجد شيئاً قد تغير فى البيت ، وقفت فى الشرفة ، وقد تكاثفت حولها الياسمينة ، وذهبنا سوياً إلى النادى .

وصمتت برهة ثم هزت رأسها ومصمصت شفتيها فى إعجاب وأردفت قائلة :

ــ كان النادى جميلا ، وكانت الشلة كلها هناك . عصام .. وصبرى .. و ..

وتوقفت وقد اتسعت ابتسامتها ، ثم نظرت إلى أمها قائلة :

ــ ماما ! لقد تعبت من الوقوف .. لماذا لا تستريحين ؟!

وازدردت الأم ريقها .. وانحنت مرة أخرى تضم ابنتها إلى صدرها فى إشفاق شديد .. وعبراتها تنحدر من مآقيها فى صمت .

وأحست « منى » بالعبرات الساخنة على وجهها .. فمدت كفها ومسحت

برفق دموع أمها وقالت فى لهجتها المازحة :

— ألم نقل إن المسألة لا تستحق يا ماما .. وفرى دموعك وقت الحاجة .

وردت « نادية » وهى تحس بمرارة فى حلقها :

— إن شاء الله لن تكون لها حاجة .

واستدارت الأم تسير بخطواتها المتثاقلة متجهة إلى خارج الحجرة ، وقبل أن تبلغ الباب هتفت بها منى فى صوتها الضعيف :

— سنعود إلى مصر يا ماما .. بمجرد خروجى من المستشفى ؟

وهزت الأم رأسها وهى مستمرة فى خطواتها المتثاقلة :

وعادت « منى » تقول :

— عدينى .. قولى نعم .

والتفتت الأم إليها وسيل العبرات مازال ينهمر وقالت :

— نعم يا حبيبتى .. سنذهب حيث تشائين .

وخرجت الأم ، ونظرت « منى » إلى « نادية » وقالت بأوسع ابتسامة استطاعت أن ترسمها على شفتيها :

— ورأيت .. هل تدرين من ؟

وابتسمت نادية وتساءلت وهى تتحسس شعر « منى » :

— من ؟

— رأيت صاحبك .. رأيت مدحت .. تماماً كما هو .. بقامته الطويلة .. ومنكبيه العريضين ، وجبينه المتسع .. ورأسه الذى نحل من الشعر .. رأيته فى ملعب « الكروكية » هل تدرين مع من كان يلعب ؟

وهزت « نادية رأسها ، وأحست بأن أنفاس « منى » قد ازدادت تلاحقاً فربتت يدها قائلة :

— استريحى برهة يا « منى » .. لقد تعبت من الحديث .

ولم تأبه « منى » لها ، بل استمرت تتساءل :

— خمنى .. مع من كان يلعب ؟

وتساءلت « نادية » لتجاريها فى الحديث :

— مع من ؟

— معك .

— معى أنا ؟

— أجل .. كنت تسيرين بجواره على بساط النجيل الأخضر .. عارية القدمين .. بلا إيشارب .

ورفعت « نادية » يدها فى حركتها اللا إرادية تتحسس الإيشارب الملتف حول عنقها .. وتساءلت وهى تهز رأسها ساخرة :

— كان .. بلا إيشارب ؟.. كان يجب أن أغطيك جيداً قبل أن تنامى .

وضغطت « منى » على كف « نادية » بكل ما تملك من قوى خائرة .. وتساءلت فى دهشة :

— حتى فى الحلم .. ترين هذا مستحيلا ! لماذا يا نادية .. لماذا لا تقابلينه .. بلا خوف .. ولا حجاب .. أؤكد لك أنه سيحبك كما يحبك من رسائلك .. إنه يحبك أنت يا نادية .. أنت بشخصيتك .. التى يحس بها فى كل كلمة كتبتها ... إنه ...

وربتت « نادية » كتف « منى » وقالت مقاطعة :

— ليس هذا وقته يا منى .. دعينا من مدحت الآن .

— بل دعينى أتحدث كما أريد .. إنه يحب شخصك أكثر مما يحب صورتى .. ولن ينقص من حبه أن تكون بعنقك بعض آثار حروق .. أؤكد لك ...

— يا منى يا حبيبتى أرجوك أن تستريحى .. ليس هذا وقته .. سنتحدث فى كل هذا عندما تشفين .

— عندما أشفى .. سأكتب إليه أنا .. وأقول له الحقيقة وأرسل له صورتك .

وهتفت بها « نادية » متسائلة فى دهشة :

— منى ؟!

— وإذا أتى فسألقاه وأقول له إنك نادية .. وإنك أنت التى تستحقين حبه .. وسأنزع عنك الإيشارب ، رغم أنفك وأريه وجهك كما سيراه دائماً .

— لماذا تقولين هذا يا منى ؟

— وسيحبك كما كان يحبك .. وسيعجب بك كما أعجب بك « جمال » عندما أسقطت الريح الإيشارب على ظهر السفينة . هل تذكرين ؟!

وهزت « نادية » رأسها وتنهدت فى يأس .. وقالت فى صوت خافت :

— يحبنى أو لا يحبنى .. المهم أن تشفى أنت .

— على أية حال إنى أنذرك من الآن .. إذا قدّر الله وشفيت .

وردت « نادية » من قلبها :

— افعلى كل ما تشائين .

ورفعت « منى » عينيها إلى سقف الحجرة وتمتمت داعية :

— اللهم اشفنى .. لقد حصلت على وعدين خطيرين إذا شفيت .. وعد من أمى بالعودة إلى مصر .. ووعد من نادية بأن أصلح حالها .. وأردّها إلى صوابها .. اللهم اشفنى .. فإن شفائى سيحقق أحداثاً خطيرة فى الأسرة

ونظرت إلى « نادية » وابتسمت فى أمل وأردفت قائلة :

— سنعود إلى القاهرة .. وسأتزوج من عصام .. وستتزوجين من مدحت هل هناك أحداث أخطر من هذه ؟

وبدت « منى » فى حديثها كأنها تلهث .. وازدادت شدة كفها على يد « نادية » .. وبدأ وجهها يزداد شحوباً .. وأخرجت لسانها تبلل شفتيها ، وازدردت ريقها بصعوبة .

وأحست « نادية » أن شيئاً فى جوفها يعتصر قواها .. وهتفت بمنى :

— مالك يا منى ؟! مالك يا حبيبتى ؟

ولم تجب « منى » فقد منعتها سعلة قصيرة حاولت أن تكبتها كعادتها .. وسعلة أخرى .. انطلقت جامدة .. وثالثة .. اندفعت تحمل معها .. نزيفاً جديداً .

واندفعت « نادية » إلى الباب صائحة بالممرضة .. وقد روعها السيل القانى المتدفق فوق الأغطية البيض .

ومرة أخرى تكهرب الجو .. وأحست كأنها تدور فى دوامة عميقة . ممرضات يدخلن ، وممرضات يخرجن ، و أطباء يتهامسون ويتشاورون ، ووعاء الدم يعلق فى حمالته ، وخرطوم يمتد بإبرة تغرس فى ذراع « منى » لتقطر الدم فى عروقها .

وأحست « نادية » بأعصابها تتوتر حتى تكاد تمزّق .. وأخذت أصابعها تقبض على ثيابها فى عنف كأنما تريد أن تمزق شيئاً .. وخرجت من الحجرة .. ثم أطلت مرة أخرى . واندفعت إلى آخر الممر .. ثم عادت دون أن تدرى لماذا اندفعت .

وسمعت نحيب أمها فى غرفة الانتظار ، كأنه أنين المجروح .

وتذكرت نفس النحيب فى منتصف ليلة سوداء .. فى القاهرة .

وأحست به يمزق نياط قلبها .. وودت لو تكف أمها عن هذا الأنين .

ولكنها لم تجسر على الذهاب إليها . وعادت مرّة أخرى إلى الحجرة التى احتشد فيها الأطباء .. وتسللت من بينهم وألقت نظرة على « منى » ، فإذا هى فاقدة الوعى ، مسبلة العينين ، قد كست وجهها صفرة عجيبة .

وعادت كفا « نادية » تقبضان على ثوبها فى عنف كأنما تود أن تمزقه .

لماذا يتركونها هكذا ؟!

شىء ما لا بد أن يفعل .

شىء أكثر من هذه الدماء التى تقطر فى عروقها .

أليسوا أطباء ؟

لماذا يقفون هكذا يرقبون فى صمت وعجز ؟

لماذا لا يقول أحدهم شيئاً ؟

وفجأة نطق أحدهم .. نطق أحدهم بعد أن أمسك برسغ « منى » ثم ترك يدها تسقط على الفراش .

نطق وقد تقطب جبينه وزمت شفتاه واختلجت زاويتا فمه ، وبدا وجهه مكفهراً مربداً .

نطق ليقول للممرضة فى نبرات متبرمة يائسة .. وهو يشير للوعاء القانى الذى يقطر الدم :

ـــ انزعيه .. لا فائدة .. لقد انتهت الصبية .

نطق الرجل .. ليعلن فى كلماته القصيرة .. انطفاء الذبالة ، وجفاف العود .

وجثت « نادية » على ركبتيها بجوار الفراش .. وأطبقت بأسنانها على حافة الحشية .. ملقية رأسها على الجسد المسجى ، ومطبقة بقبضتيها على الأغطية فى استماتة .. كأنما تحاول أن توقف شيئاً .. أو تمنع شيئاً

وهتفت فى صوت متحشرج :

ـــ منى .. حبيبتى .. لن تذهبى يا حبيبتى .. ستشفين .. وستتحقق لك الوعود .. ستشفين ، ونفعل لك ما تشائين .. ستخرجين من هنا يا منى ، لكى نعود إلى مصر .. منى .. حبيبتى .

ونطق الطبيب مرة أخرى ، ووجهه يزداد إرباداً .. وملامحه تزداد تقلصاً وانفعالا ، ووجه القول إلى الممرضة مشيراً إلى نادية :

ـــ خذيها خارجاً .

ومدت الممرضة يدها تربت كتف « نادية » فى رفق .. محاولة إبعادها عن الفراش .. ولكن « نادية » ازدادت تشبثاً به .. وردت فى صوتها المختنق وهى تدفن وجهها فى الأغطية :

ـــ لا أستطيع تركها .. إنى لم أتركها أبداً .. أبداً .

وقال الطبيب المربد الوجه فى نبراته المقتضبة الحزينة :

— دعيها .

وتركتها الممرضة .. وتفرق الجمع الحاشد .. رويداً .. رويداً .. تفرقوا فى سكون وصمت .. بلا صراخ يشق أجواز القضاء ، ولا نحيب يدوى فى أنحائه .

انفضوا عن الحجرة .. كأن حدثاً لم يقع .. كأن كارثة لم تحدث ، وكأن الصبية الراقدة قد أغفت إلى حين .

وأحست « نادية » بالخوف الشديد يسرى فى أعماقها .

لقد كانت تخشى الضجيج الذى صاحب موت أبيها .. فإذا بها ترتجف من الصمت الذى حف برحيل أختها .

لماذ لا يصرخون ؟

لماذا لا يولولون ، ويضجون ؟

إن فى ضجة الصراخ .. أنساً من وحشة الموت .. وتمويهاً لصمته المخيف .

لماذا يتركونها هكذا .. بمثل هذه السكينة القاتلة !

— لعلها .. لم تذهب .

أجل .. الأمر كله خدعة وعبث .

أو لعل الأمر كله .. لا يعدو كابوساً أطبق عليها حين غفوتها .

ورفعت رأسها المدفون فى الأغطية ببطء .. فإذا بالغطاء الأبيض قد غطى الجسد كله .

ومضت لحظة وهى ترقب الغطاء الأبيض المشدود على وجه أختها فى ذعر شديد .. وهى تنتفض كريشة فى مهب الريح .

وقبل أن تمد يدها لتزيح الغطاء .. سمعت نحيباً يقترب من وراء الباب .. سمعت نحيباً يشبه أنين كلب جريح .

نحيباً لا تخطئه أذناها .

وفتح الباب ، وبدت أمها تترنح ترنح الذبيحة سرقتها السكين .

واندفعت « نادية » .. لترتمى فى أحضانها .. متشنجة صارخة ، وتعلقت بصدرها تعلق الطفل المذعور ، وهى تصيح بصوتها المختنق :

— ماما .. ماما .. لن نترك « منى » .. لم تكن تريد أن تموت .. كانت تريد العودة إلى مصر .. لقد وعدناها يا ماما .. ألا تذكرين ؟

وضمت الأم ابنتها إلى صدرها .

وتواترت الأحداث بعد ذلك .

وتزاحمت الأشباح فى الحجرة .. باهتة ، واهية .

وسمعت « نادية » أصواتاً معزية ، وأحست بربتات رقيقة .. سمعت صوت جانيت تبكى ، وصوت مسيو كيلى يأمرهم بالخروج ، ورأت وجه تونى محمر العينين ، وأحست بجابى تضمها باكية .

وأناس كثيرون .. راحوا وجاءوا ، وجاءوا وراحوا ، وأشياء كثيرة حدثت .

وهى تحس كأن دوّامة شديدة تدور بها .. لتتركها بلا وعى ولا إدراك ولا قدرة على التصرف .

لا شىء سوى الاستسلام العاجز .. اليائس .. الراضخ لكل ما يملى عليه وما يساق إليه .

وأخيراً .. انتهت بها الدوّامة إلى نفس المنظر المخيف .

منظر الركب .. السائر فى بطء وتثاقل ، وقد حمل العزيز الراقد فى صندوق خشبى ليواريه حفرة بباطن الأرض .. ثم يهيل عليه الثرى ، ويتفرّق عنه بعد أن ينفض منه يديه .

ولم يكن الطريق مقفراً فى هذه المرة .. كانت الخضرة تكسو جوانبه وقد بدت أسقف البلدة الحمراء على يمينه .. وعن يساره بدا سفح الجبل بأشجاره المتكاثفة .. ومياهه المنحدرة .. ومن أقصى الأفق بدت القمم البيض التى تناطح السحاب .

وبدت لها المقابر الرخامية المصفوفة فى سفح الجبل .. نفس المقابر التى كانت تطل عليها من أعلى الجبل .. عندما تجلس عند حرف الجرف وراء البيت المهجور .

وكانت رائحة الزهور .. تعطر الجو ، ورطوبة الأشجار والحشائش تبلل هبات النسيم .

وتوقف الركب بحمله العزيز .. كما توقف فى أرض الغفير .

وأحست بقواها تخور .. وبالأرض تميد بها .. ومدت يدها لتستند إلى شىء قبل أن تتهاوى ، وأحست « بجابى » تقترب منها وتضمها إليها .

وسمعت من القوم لغطاً ، وأحست أن شيئاً ما يعوق العملية الشاقة المخيفة .. عملية إيداع « منى » باطن الأرض .

ورأت التردد فى وجوه الجميع .

وسمعت أحدهم يسأل :

ــ لماذا لا تسألون الأم ؟

وأجاب آخر :

ــ حرام عليكم .. لقد فقدت وعيها مرتين خلال الطريق .

وأردف صوت ثالث :

ــ اتركوها فى حالها .. إنها لا تكاد تتنفس .

وسمعت صوت بول العجوز :

ــ وماذا تعرف هى عن شعائرهم .. افعلوا ما يحلو لكم إن إلهنا واحد .

وهز مسيو رينو رأسه وتمتم قائلا :

ــ أجل .. الإله واحد ، والمصير واحد .

وأبصرت « نادية » الصندوق الخشبى يحمل ثم يوضع على الأرض .

وأحست كأن شيئاً ينزع من جوفها .. ولم تستطع أن تكتم صرخة حادة انطلقت من شفتيها ، واندفعت تخر راكعة بجوار الصندوق وتحتضنه بين

ذراعيها ، وهى تهتف فى شبه حشرجة

ـــ منى .. منى .. يا حبيبتى .. كيف أتركك وحدك .. لماذا لا تجيبين يا منى ؟!

ثم نظرت إلى الجميع ، وهم واجمون من حولها .. وهتفت :

ـــ لا تتركوها .. إنها تخشى الظلمة .

وانحنت مدام كلود فوق « نادية » ، ورفعتها فى رفق قائلة :

ـــ تجلدى يا نادية .اذكرى الله .. اذكريه .. يشدد من أزرك .

وضمتها مدام كلود إليها ، وهى مازالت تتمتم :

ـــ اذكرى الله يا نادية .. إلهنا جميعاً .. اطلبى الرحمة لأختك .. أليست لكم صلوات .. إن لديكم القرآن .. لماذا لا تقرئين بعضه .. ألا تظنين أختك فى حاجة إليه الآن ؟!

ودفنت « نادية » رأسها فى صدر السيدة ، واندفعت فى نوبة من البكاء .. أحست بعدها بشىء من السكينة .

وعادت السيدة تربت ظهرها وتضمها فى رفق قائلة :

ـــ اذكرى الله يا نادية .. اذكريه يا حبيبتى .. اقرئى بعض صلواتكم .. ستريح نفسك كثيراً ، وستريح أختك .

وازدردت « نادية » ريقها ، وأحست من قول السيدة بمزيد من السكينة ، وأخذت تتمتم بلا وعى .. ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله رب العالمين .. الرحمن الرحيم .. مالك يوم الدين .. إياك نعبد وإياك نستعين .. اهدنا الصراط المستقيم .. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين ﴾ . آمين .

وعادت السيدة تضمها ، وهى تقول :

ـــ لا تكفى . قولى كل ما تعرفينه من صلواتكم وقرآنكم .

وعادت « نادية » تتلو كل ما تحفظه من آيات القرآن .. أخذت ترددها فى

أول الأمر بلا وعى .. والسكينة تدب فى صدرها شيئاً فشيئاً .

وكان الصندوق قد وورى الثرى .. ووقف الجميع ، وقد بدت عليهم الحيرة .

وهمت « نادية » بالتهاوى مرة أخرى .

وعادت السيدة كلود تشد أزرها قائلة :

ــ لماذا لا تصلين لأختك يا نادية ؟.. إنى أعرف أن عندكم صلاة للموتى .

والتفتت « نادية » حولها فى عجز ، وقالت وهى تهتز باكية :

ــ إنى .. إنى .. إن الصلاة لا تنفع بلا وضوء .

ــ الصلاة تنفع دائماً يا نادية .. إن الله لا يحاسبنا على الصغائر .. صلى يا نادية .. صلى يا حبيبتى .

وعادت « نادية » تنظر حولها مترددة وجلة وتمتمت قائلة :

ــ إنى لا أعرف أين القبلة

ــ الله موجود فى كل مكان يا حبيبتى .. صلى له .. إنه لن يحاسبك على اتجاه .. صلى يا حبيبتى .

وفى وجل وحيرة .. نظرت « نادية » إلى الجمع الواقف حولها .. يرقبها فى صمت كأن الطير على رأسه .

وكما تعوّدت « نادية » أن تصلى صلبت جسدها .. ورفعت سبابتيها إلى أذنيها .. ثم هبطت بكفيها مطبقتين أسفل صدرها .

وبدأت شفتاها تتمتم بالفاتحة وقل هو الله أحد .. ثم ركعت وسجدت .. وركعت وسجدت ، والجميع يرقبونها فى خشوع شديد ، وقد انحدرت الدموع فى مآقيهم .

وأخيراً تلفتت نادية .. يمنة وحيت .. ثم تلفتت يسره وحيت مرة أخرى .

وانحنت عليها السيدة الطيبة .. تضمها إلى صدرها فى حنان شديد .

ومرة أخرى.. عاد الركب إلى المدينة.. فى بطئه وتثاقله.. وصمته الحزين.

(٤٢)

لم يعد وهماً ....

كان مدحت قد أعد كل ترتيبات السفر ، وكانت عربة جاد الله تجتاز بهما نفق العباسية .. بعد أن حزم حقائبه .. وودع أمه مكفكفاً دمعها .. مؤكداً لها أن سفره ضرورى لنجاته من متاعب معدته .: وأنه سيعود لها سليما معافى .

ولمح جاد الله عقرب الساعة فى ميدان العباسية يشير إلى التاسعة .. فالتفت إلى مدحت متسائلا :

ـــ متى ستقوم الباخرة ؟

وبدا مدحت شارد الذهن .. مما جعل جاد الله يعيد سؤاله ساخراً :

ـــ إنت يا أخينا .: متى ستقوم الباخرة ؟

والتفت إليه مدحت .. وأجاب فى اقتضاب الكاره للحديث ، المحب للشرود :

ـــ الرابعة .

ـــ بعد الظهر ؟

ونظر مدحت إلى جاد الله مغيظاً .. ورد فى سخرية :

ـــ لا .. بعد منتصف الليل .

ـــ ولماذا إذن أقلقتنى بهذا التبكير ؟.. دعنا نعود إلى النادى .

وهز مدحت رأسه وقال فى استخفاف :

ـــ أنت فايق ورايق .

ـــ أنا ؟ أنا اللى فايق !. أنا الذى أرحل للنزهة فى جبال الألب فى عز المعمعة ؟

ـــ أى معمعة ؟

ـــ معمعة القنال .. ألا تحس بالأساطيل التى تتحرك والقوات التى تحشد ؟

ـــ ألم تعرض المسألة على مجلس الأمن ؟

ـــ أجل .

ـــ ألم يتفقوا على الاجتماع فى جنيف فى آخر هذا الشهر ؟

ـــ اتفقوا .. ولكنهم مستمرون فى هياجهم .

ـــ مسيرهم يخشعوا .

وكانت العربة قد اقتربت من مستشفى الدمرداش .. فأردف مدحت وهو ينظر إلى ساعته قائلا :

ـــ ادخل بنا على المستشفى .

ـــ أستمكث كثيراً ؟

ـــ المفروض أن نكون فى الإسكندرية قبلها بساعة .. من أجل إجراءات الجمرك .

ـــ أى نكون هناك فى الثالثة .

ـــ ومن هنا إلى الإسكندرية أربع ساعات .. بما فيها نصف ساعة غداء فى الرست هاوس .

ـــ يعنى نتحرك من هنا فى الحادية عشرة .

ـــ وساعة احتياطى للطوارئ .

ـــ يعنى تستطيع أن تمكث فى المستشفى ساعة إذا شئت .. ألا تكفيك ساعة ؟

ـــ تكفى جداً .. سأمر على بعض المرضى .. وأعطى بعض التعليمات للدكتور أنيس .

ـــ وإذا رزقك الله بعملية ؟

ـــ لقد قلت لهم إنى سافرت فعلا .. وقد وزعت كل العمليات على أنيس ، وإبراهيم زكى .

وتوقفت العربة فى فناء المستشفى .. وهبط الاثنان متجهين إلى الدرج .

وقال جاد الله محذراً .. وهما يجتازان المدخل :

ــ إياك أن تأخذك الجلالة وتضيع السفر .

ــ غير معقول ، لن يستغرق مرورى أكثر من ربع ساعة .. إنى أريد أن أطمئن على الرجل الذى أجريت له العملية أمس .

ــ الذى قطعت زوره .. أم الذى نزعت معدته ؟

ــ الذى قطعت زوره مات فى منتصف الليل .

ــ يا ساتر !

ــ كان مفروضاً أنه سيموت .

ــ لماذا لم تتركه يموت وحده ؟

ــ لأن المفروض أن أبذل كل ما فى وسعى .

ــ للقضاء عليه ؟!

ــ لإنقاذه يا حيوان .. أنا لست جباناً ، حتى أترك المريض يموت وحده لمجرد خوف من أن يقول الناس إن عمليتى كانت السبب فى موته .. مادام هناك أمل فى أن أنقذه ولو واحدا فى الألف ، فلا بد أن أجرى العملية .. إن ثلاثة أرباع الأطباء يتركون ..

وقاطعه جاد الله وهو يدفعه من ذراعه قائلا :

ــ مفهوم .. مفهوم .. أسرع بالمرور وسأنتظرك فى المكتب .. بعد أن أمر على « تيتى » .

ــ ألم تخرج بعد ؟

ــ ولماذا تريدها أن تخرج .. دعنا نتسلى معها .

وافترق الاثنان .. وبعد ربع ساعة التقيا مرة أخرى فى المكتب .. وأخذ مدحت يجمع الأوراق المتناثرة على المكتب ويضعها فى الأدراج قائلا لجاد الله :

ــ لا تدع أحداً يعبث فى المكتب .

— هل به شيء يخشى عليه ؟

— به محاضرات .. وبحوث

— إذن لن يقربه أحد .

ونظر جاد الله إلى الساعة فى يده وتساءل :

— أبقى لديك شيء تفعله ؟

ونظر مدحت حوله كمن يحاول التذكر .. ثم قال :

— أبداً .. هيا بنا .

وقبل أن يهما بالخروج . سمعا وقع أقدام خارج الحجرة ، ثم بدا بالباب بضع جنود يرتدون ملابس كاكية .. وقد وضعوا على رءوسهم الكاب وحزموا خصورهم بالقوايش الكاكية العريضة .

وبدت الدهشة على وجه مدحت وجاد الله . وهما ينظران إلى الحشد الكاكى الذى وقف بباب الحجرة .

وما لبث أن ميز مدحت تحت المظلات الكاكية وجوه طلبته .. ومن بينهم وجه صبرى النحيل بمنظاره السميك .

وهتف جاد الله ضاحكا :

— يخرب بيتكم .. ما الذى عملتموه فى أنفسكم ؟

وأجاب صبرى ضاحكا :

— تطوّعنا فى جيش التحرير .

وقطب مدحت جبينه .. وتساءل فى دهشة :

— جيش التحرير ! وماذا تفعلون به ؟

ورد أحد الطلبة :

— نتدرّب على ضرب النار ، وعلى الطوابير العسكرية .

وهز مدحت رأسه .. متسائلا فى استخفاف :

— ضرب نار ؟. أتجدون من وقتكم فراغاً لضرب النار ؟! هل انتهيتم من

دروسكم كلها ؟

ورد صبرى فى نوع من الاحتجاج :

— الدروس تستطيع الآن أن تنتظر يا دكتور .

— تنتظر !. وضرب النار لا يستطيع الانتظار ؟

— بالطبع لا .

— لأن العدو على الأبواب !!؟

— طبعاً على الأبواب يا دكتور .. لقد جئنا نحتج على سفرك فى مثل هذا الوقت .

ورفع مدحت حاجبيه فى دهشة .. وأطلق من أنفه نفخة سخرية وتساءل :

— ما لهذا الوقت ؟

وأجاب صبرى وقد بدت على وجهه سيماء الجد :

— نحن نحبك يا دكتور مدحت .. نحب رجولتك وشجاعتك .. ونود أن تكون إلى جانبنا تشد من أزرنا فى كفاحنا .

وتضاحك مدحت متسائلا :

— أى كفاح !! لقد انتهت الأزمة .. لقد اتفقوا فى مجلس الأمن على الاجتماع فى جنيف لحل المسألة . إنها فورة هدأت وزوبعة مرت بسلام .

وعاد صبرى يقول فى لهجة الواثق :

— لم تمر بعد .. إنهم مستمرون فى تحركاتهم وتجمعاتهم .

— مجرد تهويش ، فلم يكن من المعقول أن يتلقوا الصفعة على خدهم الأيمن ليديروا لنا فى استسلام خدهم الأيسر .. هل كان هذا معقولا ؟

ورد جاد الله قائلا :

— طبعاً لا .. كان لا بد لهم من الهياج والتلطيش والتشليق .. والتهديد بالويل والثبور وعظائم الأمور .

وأجاب مدحت :

ــ وهذا هو ما فعلوه .. ولا أظنهم سيجرءون على أكثر منه .

وتساءل صبرى :

ــ ولِمَ لا .. هل هناك ما يمنعهم من القيام بأكثر ؟!

ــ مثل ؟

ــ استعمال القوة .

ــ من أجل ؟

ــ احتلال القناة .

ــ هل تتصور هذا ؟

ــ ولِمَ لا ؟

ــ إنهم لن يفعلوها إلا إذا فقدوا عقولهم .

ــ أتظنهم لم يفقدوها بعد ؟

ــ ليس إلى الحد الذى يدفعهم إلى القضاء على مصالحهم وتعطيل القناة .

ــ ألم يحاولوا تعطيلها بسحب المرشدين ؟

ــ كانت مجرد مناورة .. لإظهارنا أمام العالم بمظهر العاجز المتعنت .

ــ ولو نجحت .. هل تظنهم كانوا سيقفون مكتوفى الأيدى .. أم كانوا سيتدخلون ؟

ــ ليس بالقوة .. لأنهم يعرفون معنى التدخل بالقوة .

ــ إنهم لن يكفوا عن خلق فرصة التدخل بأية وسيلة . لقد عقدوا مؤتمر لندن .. وأرسلوا بعثة « البغل الأسترالى » لعرض قرارات يعرفون سلفاً أنها مرفوضة ، لكى يظهرونا بمظهر المتعنت المتجبر ، الذى يحتاج إلى تأديب .. فلما فشلوا أقدموا على مناورة سحب المرشدين .. لكى نبدو بمظهر العاجز المفسد .. فلما فشلت .

ــ اضطروا إلى التسليم .. والشكوى لمجلس الأمن .. وقبول التفاوض فى جنيف .. أليس كذلك ؟

ـــ لا أظن .. إنهم يعتبرون جلاءهم عن القناة غلطة كبرى يجب إصلاحها .

ـــ بأى شيء ؟

ـــ بالعودة .

ـــ إلى هذا الحد ؟

ـــ أعتقد هذا .. لقد ظنوا جلاءهم رشوة لطاعتهم .. فلما عصيناهم ندموا على رشوتهم .. وأحسوا أننا لا نستحقها .

وتساءل مدحت ضاحكا :

ـــ وسيسحبونها منا ؟

وأجاب صبرى مؤكداً :

ـــ سيحاولون .

ـــ أنت متشائم جداً .. إن الزمن لا يعود القهقرى .. لقد مضى عهد القرصنة .. ولم تعد حريات الشعوب رشاوى تعطى وتسحب ، بل باتت حقوقاً لا تملك قوة أن تسلبها بعد أن كافح أصحابها فى الحصول عليها .

ورفع مدحت معصمه بالساعة .. فإذا بها قد قاربت العاشرة .. فقال للصبية المشدودين فى ثيابهم الكاكية :

ـــ لقد أزف الوقت .. لا بد أن نرحل الآن ..

ومد يده فربت بها كتف صبرى .. وقال فى ثقة :

ـــ لا تتشاءم هكذا .. إنها زوبعة فى فنجان ، لا تنسوا دروسكم .. فلن أرحمكم عندما أعود .

وهز صبرى رأسه وقال فى أسف :

ـــ خسارة .

وتساءل جاد الله قائلا :

ـــ ما هى هذه الخسارة ؟

ـــ كنا نود أن يبقى معنا .. إنه مقاتل بطبعه

وضحك مدحت وأجاب :

ـ إن شاء الله .. لن يكون هناك ما يستحق القتال .

ومد يده يشد على أيديهم مودعاً .. ثم أردف يقول :

ـ على الأقل حتى أعود .. إن لدينا فرصة أمان حتى آخر الشهر .. فلا أظنهم سيستعملون معنا القوة قبل أن نجتمع ثم نختلف .

ثم وجه القول إلى جاد الله ضاحكا :

ـ وإلا إيه يا جاد الله ؟

وأجاب جاد الله بطريقته المهرّجة :

ـ إيه !

وبعد لحظات كانت العربة تنطلق بهما .. متجهة إلى طريق الإسكندرية الصحراوى .

وفى الساعة الرابعة .. كان مدحت يقف على سور السفينة .. ملوّحاً لجاد الله . ووقف جاد الله يشير له ملوّحاً . وقبل أن تبدأ السمينة تباعدها على الرصيف .. صاح جاد الله :

ـ اكتب لى عن كل ما يحدث

وهز مدحت رأسه .. وعاد جاد الله يصيح مؤكداً :

ـ بصراحة .

وضحك مدحت وعاد يلوّح بيده .. ومرة أخرى انطلق صياح جاد الله من الرصيف قائلا :

ـ بلغها سلامى .

وهزّ مدحت رأسه ضاحكا .

وعاد جاد الله يقول :

ـ وعرّفها فضلى عليها .. فلولاى ما كتبت إليها .. ولا كنت الآن فى طريقك إليها .

وعاد مدحت يهز رأسه ضاحكا .

وعاد جاد الله يصيح متسائلا .. والسفينة تتباعد رويداً رويداً .. والصوت يتضاءل :

ـــ أستخطبها ؟!

وفغر مدحت فاه فى دهشة .. وبسط كفيه كأنما يقول لجاد الله :

ـــ ما هذا الجنون .. أهذه طريقة للسؤال ؟!

ثم لوّح بيده .. واختفى داخل السفينة حتى يوقف سيل أسئلة جاد الله الحمقاء .. التى اندفعت تتدفق منه فى اللحظة الأخيرة .

واستمرت السفينة تتباعد عن الشاطئ .. وعاد مدحت ليرقب مبانى الإسكندرية وهى تتضاءل وتنكمش ، وهبت نسمة من نسمات البحر الرطبة فى صدره .. وأحس بشىء من الانتعاش ، وأطلقها فى استرخاء .. حامله معها ما تبقى فى صدره من متاعب السفر ومشكلاته وتعقيداته .

واستلقى فوق مقعد طويل .. على ظهر السفينة ، وأحس وهو يلقى رأسه على حافة المقعد .. ويمدد ساقيه ويرخى ذراعيه ، أنه مخلوق سعيد بلا هموم ولا مشكلات ، بل أكثر من هذا .. إنه ينتظر أشياء جميلة .

لقد ملأه إحساس الطفل يلقى بكراساته وكتبه ، ويستلقى فى انتظار عيد .. أو نزهة .. أو أمنية توشك أن تتحقق .

وبدأ يتذكر .. كيف بدأ الأمر .. بقلم على خريطة .. يرسم طريقه من مارسيليا تجاه الشمال ، باحثاً عن المدينة الصغيرة .. ذات الحروف الثلاثة .. القائمة وسط التضاريس البنية اللون التى تناثرت عليها الأحرف الكبيرة « الألب العليا » .

لقد مارس الرحلة أياماً على الخريطة .. استقرت فى ذهنه .. وتأكدت فى نواياه .

وقبل ذلك .. كيف بدأت المسألة كلها .

رسالة من مجهولة فى بضع كلمات .. تخبره أن حياتها معلقة .. فى رده .
ردّ عليها .. ردّ إحسان .. كما تمنح السائل الذى تمر عليه بعربتك حسنة .. لا لأنه يستحقها .. بل لأنها لن تضيرك

وردت عليه .. ورد عليها .

وهز رأسه فى دهشة :

عجيبة !! كيف حدث كل هذا ؟

كيف باتت هذه المخلوقة المجهولة .. جزءاً من حياته ؟

كيف أضحت أعز أمانيه .. وأجمل آماله ؟

كيف أمكن أن يتجسد هذا الوهم .. هذا الطيف .. هذا اللاشىء .. المكوّن من حبر على ورق .

كيف أمكن أن يتجسد ليملأ قلبه .. ويملك مشاعره ؟

كيف باتت واضحة .. مثل هذا الوضوح ؟

كيف برزت ملامحها .. وتأكدت تفاصيلها .. حتى أضحت على بعدها أقرب من أقرب الناس إليه ؟

وفجأة .. مر بذهنه خاطر أحمق مجنون .. مر بذهنه كما تمر الطلقة الطائشة .. تصيبنا بالذعر .. دون أن نعرف من أين أتت ولا أين تستقر :

ترى ماذا يفعل .. إذا لم يجدها ؟

يعنى إذا لم يلق لها وجوداً !!

إذا ذهب إلى البلدة .. وإلى البيت .. ولم يجد هناك مثل هذه المخلوقة التى رسبت فى حناياه .. وتدفقت فى أعماقه ؟!

ونفض عن نفسه هذا الخاطر الطائش

نفضه تماماً .. كما ينفض ذرّة غبار .

ورفض أن يفكر فيه .

إن « نادية » موجودة .

موجودة .. كما هو موجود .

إن ثقته فى وجودها .. كثقته فى وجوده .. فإذا جاز له أن يتصوّر أنه مخلوق وهمى .. وأن كل هذه العمليات التى أجراها .. والمرضى الذين مزق أحوافهم .. شىء لا وجود له .. وإذا جاز له أن يعتبر أن هذا الكائن المسافر على ظهر السفينة .. والذى يسترخى على المقعد فى سعادة الطفل .. كائن من ابتكار الذهن .. وخلق الأوهام .

إذا جاز له هذا .. فله أن يتصور أنها مخلوقة غير كائنة .

وسمع دقات الساقى تؤذن بالعشاء .. وجذب من الهواء الرطب نفساً طويلا .. وأطلقه حاملا معه سخافة شكوكه .. وحمق ريبته .

ثم نهض هو ليتحسس صدره فى ثقة .. ويشد عضلات ساقيه فى قوة .

واتجه إلى حجرته .. ليبدل ملابسه .. ومرت أيامه الخمسة بالسفينة .. استمتع بها بقدر ما سمحت له لهفته على الوصول .. وفى بعض هنيهات القلق .. كان يتمنى لو اتخذ طريقه بالطائرة إلى مارسيليا .. أو باريس .. أو جنيف .. أو إلى أقرب مطار يوصل إلى « جاب » .. ولكنه كان يهدىء لهفته بأن هذا الطريق أسلم .. وأقرب إلى العقل .. فالمفروض أن أساس السفر هو علاج معدته فى لندن .. وأنه قد اتخذ طريق البحر ليستريح ويستجم .. وأنه فى طريقه — عفواً وبلا قصد — وجد نفسه قريباً من « جاب » .. فوجد من باب الذوق واللياقة أن يزور صديقته التى تراسله .

أجل .. إن هذا أمر معقول .. ولا يمكن أن يلومه عليه أحد .

وهبط فى مرسيليا .

وحدث له فيها ما يحدث لكل مسافر « جديد » .. تكأكأ عليه الحمالون .. وسائقو التاكسى .. وحصلوا منه خمسة أمثال ما يجب أن يدفع .

وبعد بضع ساعات .. كان القطار الصاعد إلى الشمال ينهب به الأرض ، وتملكه إحساس بالخشية .. والقلق .. وهو يجد نفسه وحيداً .. وسط الركاب

المتفرقين فى القطار .. الذين بدا عليهم الوجوم وخيم عليهم الصمت ، وتمنى لو استطاع أن يحدث أحداً .. أن يقول له كلاماً أو يسأله عن أمر .. ولكنه لم يحس فى لغته الفرنسية من الثقة ما يدفعه إلى المغامرة بجذب أطراف الحديث .

و لم يجد خيراً من النافذة يدفع فيها بوجهه .. ويركز كل اهتمامه .. و لم يجد فى أول الأمر من المناظر ما يثير اهتمامه .. اللهم إلا الأرض الحمراء .

ولكن القطار ما لبث أن بدأ صعوده وسط الجبال .. وما لبثت مناظر السفوح الخضراء .. ومساقط المياه .. أن أخذت بلبه .. وأضاعت وحشته حتى بدأت الشمس تنحدر . للمغيب .. ومضت برهة والكون يرفل فى كساء مغربها الأرجوانى .. ثم بدأت الرمادية الشاحبة تتسلل فوق المرئيات جارة وراءها كساء الليل الأسود تحجب به الكون . فلا تبقى من ملامحه إلا عيون المصابيح المتناثرة تنفذ من ورائه .

وأخيراً .. وبعد أن بدأ النعاس يلعب بأجفان بضعة الركاب الذين ضمتهم العربة .. وقف القطار

وبدت لافتة « فين » بجوار كشك المحطة .. فنهض مدحت واقفاً .. ومد يده فقذف إلى أحد الحمالين بحقائبه .. ثم هبط فى عجلة إلى الرصيف .

وبنفس الطريق الذى حمل به قطار « جاب » .. نادية وأهلها منذ عام مضى .. حمل القطار مدحت .. بعد أن أمضى بضع الساعة فى انتظاره وسط « الشابورة » الثقيلة .. وأشباح المحطة المتحركة فى صمت .

وأخيراً .. تحقق الحلم .

وهدأ القطار قليلا .. ليقرأ مدحت اللافتة ذات الحروف الثلاثة التى تكوّن أعز أسماء المدن إلى نفسه .. وأقربها إلى قلبه .. « جاب » .

وهبط مدحت إلى الرصيف .. وأحس بالبرودة تلسع أطرافه .. وهو يقف متلفتاً حوله فى حيرة .

وأشار إلى حمال عجوز .. نفس الحمال الذى تعودت « نادية » أن تصفه له

من نافذة حجرتها فى المدرسة .

أجل .. إنه هو بظهره المحنى .. ومعطفه الكاكى .. وقبعته على أذنيه .. ويديه فى جيبيه .

وأقبل الحمال .. يهز رأسه مستفسراً .

وكاد مدحت يمد يده إليه مصافحاً .. إنه يعرفه جيداً .. ويعرف كل ما حوله .. يعرف كشك المحطة .. والسنديانة التى تحيطه بذراع .. وترفع ذراعها الأخرى إلى السماء .

أجل .. إنها هى بلا شك .

لشد ما أجادت « نادية » وصفها .

وناظر المحطة البدين .. وكلبه الأعجف .

وعاد الحمال يرفع إليه عينيه مستفسراً .

وبدأ مدحت يحدثه بالفرنسية .. سائلا عن فندق .

وأجاب الحمال العجوز :

ـــ يوجد فندق فى الميدان .. وفندق آخر بجوار المحطة .

وكاد مدحت يقول له :

ـــ أعرف .

ولكنه هز رأسه قائلا :

ـــ أى فندق .. يقضى

وكانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل ، والضباب قد تكاثف حتى كاد يخفى أشباح الشجر والدور .

وقال الحمال :

ـــ لا ضرورة للتاكسى .. فالمسافة قريبة .

وهنا لم يملك مدحت إلا أن يجيب :

ـــ أجل .. أجل .. أعرف !.

ورفع إليه الحمّال عينيه من الدهشة .. ثم انحنى ليحمل الحقيبتين .. ولكن مدحت تناول إحداهما قائلا :

ـــ لنتقاسم الحمل .

وضحك العجوز ، وقال متسائلا :

ـــ ونتقاسم الأجر ؟

وربت مدحت ظهره ضاحكا .. ثم سارا سوياً يطرقان أرض الطريق الصامت بكعوب حذاءيهما .

وسار الحمال إلى الميدان .. وهو يقول لمدحت :

ـــ هذا الفندق أحسن .. وأهدأ ..

ودلف الاثنان من الباب الزجاجى .. ولكن قبل أن يضعا الحقائب من أيديهما أطل وجه امرأة من وراء الباب .. وقد غلبها النعاس .. وهى تقول :

ـــ لا حجرات خالية .

ورفع الحمال العجوز الحقيبة فى صمت .. وقال لمدحت :

ـــ لم يبق أمامنا إلا فندق المحطة .. إنه قديم .. ولكنه محتمل .

وعاد الاثنان إلى الفندق المطل على المحطة .. والملاصق للمدرسة .

وتساءل مدحت على سبيل التأكيد :

ـــ أهنا مدرسة بجوار الفندق ؟

وأجاب الحمال العجوز :

ـــ أجل .. مدرسة الأب رينو .

وأخيراً استقر مدحت فى حجرته بالفندق .. حجرة عتيقه سميكة الجدران .. ذات فراش نحاسى .. وحوض قديم فى أحد أركانها .

وأحس مدحت بأنه مجهد .. وأنه لم يعد له من سبيل .. سوى النوم ، وأبدل ملابسه والنوم يغالبه .

ولم يكد جسده يستقر على حشية الفراش .. ويتدثر بأغطيته .. حتى راح فى

سبات عميق .

واستغرق فى نوم طويل .. لم يفق منه إلا وشعاع من الضوء الأصفر يتسلل من النافذة .

وتمطى فى فراشه .. ورفع رأسه ليرقب النافذة المواجهة التى تسلل منها الضوء .. فإذا بمنظر يبهره .

منظر طالما حملته إليه « نادية » فى رسائلها .

منظر السفوح الخضر .. ذوات القمم البيض التى تبدو فى أقصى الأفق . .

وقفز من الفراش .. وفتح زجاج النافذة .. وأحس نسمة الصبح البليلة الباردة .. وأطل منها على السنديانة وسقف المحطة .. وبدت أمامه بقية الأسقف الحمر المنحدرات .. ومداخنها التى لم تلفظ بعد أنفاسها .

وبدا كل شىء لعينيه كما تعوّد أن يعرفه .. وأن يراه .

وبدا الطريق نظيفاً .. وأوراق الشجر يتساقط منها الندى .

وأشعة الشمس المشرقة تداعب قمم الدور وأطراف الشجر .

وكل عصفور يزقزق .. أو نسمة تهب .. تشعره بأن « نادية » هنا .. وأنها باتت منه على مد ذراع أو خطوة قدم .

إنه معها فى نفس المدينة .. لم يعد لقاؤهما وهماً ولا حلماً .

(٤٣)

ضمة على قبر ..

مرت الأيام القلائل الأولى بعد وفاة « منى » .. والبيت يسوده صمت القبور ، ووحشة الليل ، وسكينة الأطلال .

لا صراخ ، ولا عويل ، ولا أنين .. والحديث ـــ إذا تحتم ـــ يسرى همساً .. والحركة ـــ إن وجبت ـــ تجرى تسللا .

وسكان البيت .. يبدون كالأشباح المذعورة النافرة .

« الأم » منطوية فى حجرتها .. جسداً بلا حس ولا حراك ، ولا أثر فيها للحياة إلا زفرات حارة تنطلق من صدرها بين آونة وأخرى .. كأنها تنفس عنه ما تراكم به من حمم الوجيعة وسعير اللوعة .

و « الجدة » قابعة فى مقعدها .. شاردة الذهن ، جاحظة العينين ، فاغرة الفم .. تتمتم شفتاها بكلمات يفهم منها بين حين وآخر « يرحمنا الله » .

وبقية أهل البيت .. يتحركون فى وجوم وشرود ، وفى عيونهم ذهول من الضربة المفاجئة التى اختطفت الصبية اليانعة .. التى كانت تملأ البيت مرحاً وتغريداً

و « نادية » .. حبيسة فى غرفتها .. مستلقية فى انهيار ، أو متشنجة فى نحيب .. أو شاردة فى ظلمات من الكآبة والوحشة .

ولم تفلح محاولات « جابى » وبقية الشلة فى انتزاعها من سجن أحزانها ، والتخفيف من لوعتها .

كانت أحياناً لا تصدق أن « منى » قد فارقتها إلى غير عودة .

كانت تتوهم أن كل ما حولها كابوس مزعج لا تفتأ أن تفيق منه .. وكانت

تتوقع من آونة وأخرى أن تسمع نداءها ، وتبصر بسمتها وهى تدخل عليها ضاحكة .. لتدعوها للخروج ، وتؤنبها على انطوائها فى غرفتها ، وتخبرها أن الحياة جميلة .

كانت تملأ تفكيرها فى اليقظة ، وأحلامها فى النوم .. تارة تدعوها للحياة .. وتارة تستغيث بها من الموت .. تارة ناضرة يانعة ، وأخرى زاوية ذابلة .

ورأتها ذات ليلة تقبل عليها لاهثة وقد افتر ثغرها عن ابتسامتها المرحة .. لتنبئها أنها قد رأت مدحت مقبلا من المحطة .. وأنها قد أخبرته أنها « منى » .. وأن « نادية » تنتظره فى البيت ، وأنه قد أقبل لرؤيتها ، وأخذت تجرها من ذراعها لتهبط بها إليه ، وأخذت « نادية » فى المقاومة وهى تصيح بها حانقة ، وقد صممت ألا تراه .

وأفاقت « نادية » من نومها ، وهى تصيح « بمنى » أن تتركها وشأنها .. وفتحت عينيها على ضوء القمر يتسلل من النافذة ، وأحست أن ما مر بها أضغاث أحلام .. فدفنت رأسها فى الوسادة .. واندفعت فى نحيب أليم .. حتى أغرقت عبراتها الوسادة .

وعندما هدأت نوبة البكاء .. جلست فى فراشها ترقب الضوء المتسلل من وراء الأفق ، وعادت تفكر فى الحلم .

ترى ماذا يمكن أن تفعل .. إذا أتى مدحت !!

يأتى .. فى مثل هذه الظروف المليئة بالحزن واليأس والوجيعة !

هل يمكن أن يحدث هذا ؟!

هل يمكن أن تبلغ سخرية القدر بها .. إلى هذا الحد ؟!

أن ترسل إليها مدحت .. فى هذه الظروف البغيضة المشئومة !؟

وأطلقت من صدرها زفرة حادة .

لقد كانت « منى » .. الوحيدة التى تستطيع أن تنقذها من ورطة اللقاء .

وتذكرت دعابة « منى » . وكيف عرضت عليها أنها ستلقاه .. وماذا تنوى

أن تقول له .

وعاد الدمع ينهمر من عينيها فى صمت .. ومدت طرف لسانها ليلعق السائل الملح المنحدر على ملتقى شفتيها .

ثم مسحت عينيها وأنفها بطرف كمها .. وعادت تفكر مرة أخرى .

أحقاً ينوى مدحت الحضور ؟!

لقد أرسلت له رسالة تلمح له فيها بأن سفرهم محتمل فى وقت حضوره ، ولكنه أرسل إليها مازحاً ليقول إنه سيأتى حتى ولو كانت غير موجودة .. لمجرد أن يرى البلدة ، وكتب إليها لأول مرة فى حياته بيتاً من الشعر « أمر على الديار .. ديار ليلى » .

فحضوره إذن غير مستبعد .

ماذا يمكنها أن تفعل .. إذا فعلها هو وحضر ؟

أليس من الأفضل أن تكتب إليه الآن لتنبئه بطريقة قاطعة أنها قد سافرت إلى جنيف .. أو أى مكان .. لأنها مريضة ، وأنها ستكتب إليه من عنوانها الجديد ؟

أجل .. إن هذا خير ما تفعله .

أن تنبئه بأنها سافرت .. وأنها ستكتب إليه مرة أخرى ، وهو لا شك سينتظر حتى يعرف عنوانها الجديد .. فلعله يستطيع زيارتها فيه .

وعليها أن تكف عن الكتابة إليه .. حتى تستطيع أن تدبر أمرها معه .

إن كل ما تريده الآن .. هو الفرار من لقائه .

على الأقل حتى تلتقط أنفاسها ، وتهدىء من روعها .. أثر الكارثة المؤلمة .

ونهضت من فراشها ، وأحضرت كراستها الزرقاء .. وبدأت فى الكتابة .

وأنهت الرسالة فى بضعة أسطر .. رسالة مقتضبة تنبئه فيها بأنها ستسافر الآن إلى جنيف لأنها مريضة .. وستكتب إليه بمجرد وصولها .

وأطبقت الظرف على الرسالة .. وكتبت العنوان ، وأحست بشىء من الارتياح والطمأنينة .

ونظرت إلى ساعتها .. فإذا بها السابعة .

بعد نصف ساعة .. ستستدعى « بول » وتأمره بوضعها فى صندوق البريد ، وينتهى الأمر .

وستكف بعد ذلك عن الكتابة .. شهراً .. شهرين

وسيتوقف هو عن الكتابة ، وعن الحضور .. و .. وفجأة .. دق جرس الباب .

وعادت تنظر إلى الساعة .. فى شيء من الدهشة !!

من يكون الطارق المبكر ؟!

إن « بول » لا يدق الباب قبل السابعة والنصف .

وأحست أن عليها أن تنزل لتفتح الباب .. فأمها وجدتها لا تفتحان ، وجانيت لا بد أن تكون مستغرقة فى النوم .

وأسرعت تهبط الدرج .. بعد أن دق الطارق ثانية .

ومدت يدها تفتح الباب .. لترى الطارق .

وبدا لها الطارق طويلا ، عريض المنكبين ، غير مقطب الجبين ، ولا متجهم الوجه .. بل مبتسما فى رقة ، مطرقاً فى حياء .

وفغرت « نادية » فاها .. ووقفت لحظة ترقب فى ذهول ، كأنما قد رأت شبحاً مخيفاً .. ثم انطلقت من شفتيها صيحة ارتياع واندفعت تعدو هاربة إلى أعلى .

وبلا وعى ولا إرادة ، وقبل أن تفكر فى أى شيء ، أو تفعل أى شيء ، أمسكت بالإيشارب تشده حول رأسها ، ثم أبدلت ثياب نومها فى سرعة البرق بسويتر عالى الياقة .. وأحكمت الياقة جيداً حول عنقها .

ثم عادت تهبط السلم فى بطء ووجل .. مذعورة القسمات .. مرتعدة الأوصال ، لاهثة الأنفاس ، يكاد قلبها من فرط دقاته يقفز من ضلوعها .

وكان ذهنها يعمل بسرعة .

إنه يقف أمامها بالباب .. بلحمه ودمه

مدحت نفسه .. لا طيفه ولا صورته .

ماذا تقول له ؟

وماذا تفعل به ؟

إن المفروض أنها ليست « نادية » .

فهو يعرف « نادية » من صورها ، ويعرف أنها ليست « نادية » .

وحتى لو لم يعرف ، فهي لا تجسر أن تقول إنها « نادية » .

ولكنه قد أتى ليقابل « نادية » .

فأين « نادية » إذن ؟

أتقول له إنها سافرت ؟

أين ؟.. إلى جنيف للعلاج ؟.. كما كتبت له منذ لحظة . أين عنوانها ؟.. لا تدرى !

أمعقول هذا ؟

ولكن أين « نادية » فعلا ؟

« نادية » التي يعرفها من صورها .

لماذا لا تقول له الحقيقة ؟

لماذا لا تقول له إن « نادية » التي يتخيلها فى ذهنه .

« نادية » التي أتى ليراها ، والتي كان مفروضاً أن يلقاها .

قد ماتت .

لماذا لا تقول له الحقيقة ؟! وتنتهى !

ولكن أحقاً أن « نادية » قد ماتت !

أيمكن أن يقضى على حبها .. على مشاعرها، على إحساسها بالزوال والفناء !

إن « نادية » التي فى الصورة قد ماتت .

لم يعد لمخلوق على ظهر الأرض أن يريه إياها .

ولكن « نادية » التي تحبه ، والتي دعته ليطوف معها بقمم الجبال وشاطىء البحيرة .. لم تمت بعد .

إنها على قيد الحياة .. تحبه كما كانت تحبه دائماً .

ولكنها لا تجسر أن تلقاه ، وأن تخبره بأنها هي التي تحبه ، وهي التي كتبت إليه .

بل إنها تخشى ألا يعترف بها .. وأن تكون « نادية » قد ارتبطت في ذهنه وقلبه .. بصورتها أكثر مما ارتبطت بحبها ومشاعرها .

إنها لا تجسر .. إنها لا تستطيع .

ووصلت إلى الدرجة الأخيرة من السلم .

وبدا لها مرة أخرى يقف بالباب .. بشبحه الطويل ، وكتفيه العريضتين .. وملامحه التي تبدو فوقها الابتسامة الرقيقة ، والحيرة الوجلة .. نظرة عتاب ودهشة .. من هذا الاستقبال العجيب .

وتقدمت « نادية » تجاه الباب ، وهي تحس أن قدميها تلتفان إحداهما حول الأخرى ، وأنها توشك أن تتعثر في كل خطوة .

وقبل أن تفتح فمها لتقول شيئاً .

هز رأسه متسائلا في صوت رقيق :

ـــ أين نادية ؟!

وأحست « نادية » أن سؤاله قد اعتصر قلبها .

و لم يعد أمامها مجال للتردد .. فقد قطع سؤاله كل شك ، وأكد لها أنها ليست « نادية » .

وازدردت « نادية » ريقها .. وبللت شفتيها الجافتين بطرف لسانها ، وقبل أن تتمالك كي تقول شيئاً .. عاد مدحت يتمتم معتذراً :

ـــ آسف على هذا الإقلاق المبكر .. ولكني في الواقع لم أستطع الانتظار في الفندق.. و لم أعرف إلى أين أذهب، وخيل إلىّ أن حضوري لن يقلق « نادية » .

وساد الصمت مرة أخرى .. وبدت « نادية » عاجزة عن النطق ، وهى تنظر إليه فى ذهول .

وعاد هو يسأل فى شىء من القلق :

ــ أأستطيع أن أرى نادية ؟!

وفجأة رفعت « نادية » كفيها إلى وجهها ، وأجهشت بالبكاء .

وذهل مدحت ، وتملكه إحساس بالخوف .. وعاد يسأل الصبية المجهشة بالبكاء فى نبرة قلقة وجلة :

ــ هل .. هل حدث شىء ؟!

ورفعت « نادية » كفيها عن وجهها .. وبدا لها مدحت من خلال عبراتها ، وهو يتساءل فى إلحاح :

ــ هل حدث شىء لنادية ؟!

وأجابت « نادية » فى صوت مختنق :

ــ إنها ماتت .

وفغر مدحت فاه .. وهو يحس كأن شيئاً فى باطنه يلوى أمعاءه .. وتساءل فى همس مبحوح :

ــ ماذا تقولين ؟!.

وأجابت « نادية » فى لهجة يائسة مريرة .. وهى ترقب هيكله المترنح .. وقد استند بذراعه إلى الباب :

ــ نادية .. ماتت .

وأحس مدحت بأنه لا يريد أن يصدق أذنيه .

إن المسألة لا يمكن أن تنتهى بهذه الكيفية .

غير معقول أبداً .. أن تصل سخرية القدر إلى هذا الحد .

كل شىء كان محتملا .. إلا هذا .

لقد خطر بباله لحظة ، وهو فى السفينة .. أنها قد تكون خدعة ، وأنها بعد كل

ما تركته من أثر فى نفسه قد تكون غير ذات وجود .

ولكنه لم يطف بذهنه أبداً .. أن يجدها ، وفى اللحظة التى يجدها .. يعرف أنها قد أصبحت شيئاً غير موجود .. أنها ماتت .

وعاد يردد فى ذهول ، وهو يحس بالأرض تميد تحت قدميه :

ــ ماتت ؟! ماتت ؟

وأحست « نادية » بحركة فى الداخل ، وتملكتها حيرة شديدة ، و لم تعرف ماذا يمكن أن تفعل بعد أن قالت ما قالت . بعد أن أصابت أعز ما عندها .. فى أعز ما عنده .

وتمنت لو استطاعت أن تضمه إليها .

أن تتعلق به ، وتمسح دموعها فى وجهه .. وتخبره أنها « نادية » .. وأنها لم تمت .

ولكنها أحست أن هذا آخر ما يمكن أن تفعله .

وبدا لها أنها يجب أن تتصرف بطريقة ما .

أن تدعوه إلى الدخول مثلا .. بدل أن تظل واقفة أمامه وهو يترنح مشدوها أمام الباب .

ولكن ماذا يفعلان فى الداخل ؟

يجلسان فى صمت .. لتقدم إليه فنجاناً من القهوة !

وقد يخطىء أحد من البيت ويناديها « نادية » .

ثم ما الفائدة من إدخاله ؟.. أمها لا تلقى أحداً ، وجدتها لا تحدث أحداً

ولكن الواجب أن تدعوه إلى الدخول .. غير معقول أن تتركه يرحل فى نفس الدقيقة التى رأته فيها .

ولكن أمعقول أنه سيرحل ؟!

وأحست أنها لا بد أن تقول شيئاً .

فتراجعت خطوة مفسحة له الطريق ، وقالت فى صوت يملؤه الأسى :

ــ تفضل .

وأجاب مدحت وهو يرفع كفه ويضغط به على جبينه فى شيء من العنف .. كأنما يحاول أن يفيق من صدمته :

ــ متشكر .. أظن من الخير أن أعود إلى الفندق .. لآخذ أول قطار .

وردت « نادية » فى مرارة :

ــ ولكن .. ألا تمكث برهة .. ألا .. أعنى .. ألا تريد أن تعرف .

ــ أعرف ماذا ؟!

وهز رأسه كأنه غريق فى دوامة ، وأردف يقول :

ــ لا أستطيع أن أصدق أبداً .. غير معقول .

ثم رفع رأسه وقال فى حدة ، وهو يضغط على نواجذه كأنما يبذل جهداً لكى يمنع نفسه من الانهيار :

ــ كيف حدث هذا ؟! كيف ؟.. لقد أتيت لألقاها ، وأحدثها .. كنت أنوى أن أقول لها أشياء كثيرة .

وصمت مرة أخرى وهو يحاول أن يكبت دمعه .. ويوقف اختلاجة وجهه الباكية .. ثم أردف يقول :

ــ وكنت أحس أنها تود أن ترانى .

وعاد مرة أخرى يردد كالمأخوذ :

ــ كيف !! كيف !!

واستدار فى بطء . وسار فى تثاقل متجهاً إلى باب الحديقة ، وقد بدا وجهه مكفهراً مشدوهاً .

وسارت « نادية » وراءه .. وهى تحس أنها لا تستطيع تركه ، وهتفت متوسلة :

ــ تفضل .. استرح برهة .. غير معقول أن تتركنا هكذا .. ابق قليلا من أجل « نادية » .

واستمر مدحت فى خطواته المتثاقلة ، وقد تهدلت كتفاه ، وانحنى ظهره كأنما حط عليه فجأة عبء أثقل كاهله .. وهد قواه .

وعادت « نادية » تقول له فى لهجة بين الدموع والرجاء :

ــ إذن أسير معك حتى أوصلك .

والتفت مدحت إليها ، وزفر زفرة حارة .. ثم سألها فى صوت مختنق :

ــ أأنت منى ؟

ــ أجل .

ــ كانت تتحدث عنك كثيراً .. كانت تحبك .

وبلغ مدحت باب الحديقة الخارجى .. وقبل أن يجتازه التفت وراءه ، وألقى على البيت نظرة شاملة استقرت على أحواض القرنفل المستقرة على جانبى المدخل .. ثم تمتم كأنما يحدث نفسه :

ــ كل شىء كما وصفته .

وهز رأسه فى أسى ، وهو يرفع بصره إلى الأفق .. حيث بدت سفوح الجبال تعلوها القمم .. ثم أردف فى مرارة :

ــ كان مفروضاً .. أن نصعد الجبل سوياً .

وأطلق زفرة ، ثم تمتم فى يأس :

ــ كان مفروضاً أن نفعل أشياء كثيرة .

وهمّ مدحت بالسير . ولكنه توقف فجأة .. وتساءل فى لهجة مترددة :

ــ هل .. هل .. أستطيع ...

ثم توقف ، وبدا كأنه يغالب نوبة بكاء .

وعندما سيطر على خلجات وجهه وكبح دمعه .. عاد يقول :

ــ منى .. هل أستطيع أن .. أن أزورها ؟!

ولم تستطع « نادية » أن تكبح نحيبها .. كان منظره ، وهو يكبت دمعه .. مثيراً مروعاً .

وأجابته فى صوت يقطعه النشيج :

ـــ سأذهب معك إلى هناك .

ورفع مدحت عينيه وأخذ يرقبها فى أسى وقال :

ـــ لست أريد أن أزعجك .. صفى لى الطريق .

وردت « نادية » فى إصرار :

ـــ بل سأذهب معك .

وسارا برهة وسط الحقول ، ومدحت مطرق .. شارد الذهن .. حتى بلغا الطريق .. وتوقفت « نادية » برهة ثم قالت ، وهى تنحدر إلى طريق المقابر :

ـــ إن الطريق طويل بعض الشىء .

ولم يجب مدحت ، ولكنه أطلق تنهيدة مريرة ، وهز رأسه هزة المشدوه ، وتمتم لنفسه قائلا :

ـــ عجيبة هذه الدنيا .. كان مفروضاً أن نطل سوياً على هذا الوادى من فوق الجرف .

والتفت إلى « نادية » ، وتساءل قائلا :

ـــ ألا تقع هذه المقابر فى أسفل الجرف ؟

وهزت « نادية » رأسها بالإيجاب .

وعاد مدحت يتمتم قائلا :

ـــ كانت دائماً تطيل تأملها من حافة الجرف ، وراء البيت المهجور ، وكانت تقول لى إن شيئاً ما يجذبها إلى هناك .

وصمت برهة .. ثم أردف فى صوت خافت ، وهو يرفع قدميه فى تثاقل :

ـــ ولم أتصور أبداً .. أن هذا الشىء سيجذبها قبل أن أصل .

ولاحت المقابر أسفل المنحدر .. وأحست « نادية » عند رؤيتها بما يشبه الغثيان .. وخيل إليها أنها توشك أن تسقط .. ولكنها حاولت التجلد .. لأنها كانت تود أن تطيل السير معه .

كانت تحس بشيء من العزاء ، وهى تسير بجواره .. و لم ترد أن تفقد هذا العزاء .

وتمنت لو طال الطريق .. إلى المقابر .. إلى ما لا نهاية .. فبنهايته ينتهى سيرها إلى جواره .. وهو أقصى ما استطاعت أن تصل إليه .

سخرية عجيبة !!

أن يمنحها القدر أعز ما ترجو .. وأقصى ما تتمنى .. بهذه الطريقة المذهلة .

أن يجعل أول نزهة لها بجواره .. زيارة لقبرها .

أن تكون المرة الأولى والأخيرة التى تصحبه فيها .. لا يكون لها وجود إلا كمخلوقة ميتة .. لم يبق منها سوى قبر يزار .. و لم يعد لها من أمل سوى دمعة تسكب .. أو آهة تصعد .

وانتهى الطريق .

وانتهت آخر رحلتها معه .

وانتهى معه آخر أمل لها فيه .

حتى الأمل الموهوم .. الذى كانت تعدو وراءه .. لم يعد لها فيه مطمح ولا مرتجى .

حتى الكتابة .. حتى الأمنية السرابية التى كانت تتعلل بها .. قد باتت عليها مستعصية .

كيف تكتب إليه .. بعد أن ماتت ؟

وبدا لها قبر « منى » .. أو قبرها .

وانحنت عليه تبكى الاثنتين .. أختها ونفسها .

ووقف مدحت فترة يحاول التجلد .. والتماسك .. وبدا المكان من حوله ، وقد تكاثفت به الأشجار .. وكسته الخضرة .. وهبت نسائم الصباح رطبة تهز فروع الزنبق الأبيض التى أغرقها ندى الفجر .. وتحمل عبيره فى كل هبة من هباتها الرقيقة العليلة .

ولم يحس مدحت بوحشة المقابر .. وبدت الطبيعة من حوله وكأنها تؤنس وحشة الموتى ، وتملكه حنين إلى الجلوس بجوار الراحلة الموهومة .. التى أحبها وهماً .. وفقدها وهماً ، ولم يعرف منها إلا وهماً فى وهم ؟.

ماذا يضنيه الآن أن يجلس إليها .. ويؤنس وحشتها ؟.

إنها على الأقل أقرب إليه منه فى أى وقت مضى .. إنها منه على بعد خطوات .. ولو صدق حديث الناس عن الروح الباقية .. لكانت الآن تراه .. وتحس به .. وتسمعه .

فلماذا لا يناجيها .. ويدللها .. ويقول لها ما لم يجرؤ من قبل على قوله .. يقول لها إنه يحبها .. وإنه جاء لخطبتها .. وأنه سيأخذها معه إلى مصر .

وازدرد مدحت ريقه .. وبلل شفتيه .

وأحس بنفسه ضعيفاً .. متخاذلا .. لا يقل ضعفاً وتخاذلا .. عن هذه الصبية الجاثية فوق القبر .

وهز مدحت رأسه .. كأنما يحاول أن ينفض عنه خذله وضعفه .

وانتفض فى وقفته .. كعصفور بلله القطر .

جنون .. فى جنون .. وحمق .. فى حمق .

ألم يكفه كل ما فعل .. من سخافات وتفاهات ؟

يغرق فى حب موهوم .. ويقطع كل هذه المسافات من أجل مخلوقة .. لا يعرف عنها إلا تصورات وخيالات .

من أجل طيف .. أو خيال .

وبعد هذا يقف منهاراً متخاذلا .. فى هذا المكان الموحش القصى .. ليهرف كالمخبولين .. ويهذى كالمجاذيب !

عد من حيث أتيت ، وانس كل ما كان من أمرها وأمرك .

إنها تجربة فى وهم .. فكن أشد من التجربة ، وكن أقوى من الوهم .

رفع رأسه .. وأطلق زفرة حارة ، وهمّ بالتراجع .

وأحست « نادية » بحركة قدميه على الحشائش .. فرفعت إليه رأسها .

والتقت عيناه بعينيها .

وأبصر مدحت الدمع المنساب على وجنتيها .. المنزلق على زاويتى شفتيها .

وأحس بوجهها شيئاً حبيباً .. إلى نفسه .

شيئاً أذاب تجلده .. وفكك تماسكه .

وتملكته رغبة جارفة فى البكاء ، واختنق صوته .. وامتقع وجهه .. وتصاعد الدمع إلى عينيه .

وعاد يجد نفسه ضعيفاً .. عاجزاً .

أضعف وأعجز .. من الفتاة الرقيقة الراكعة أمامه .. وانساب الدمع فى سكون على خديه .

وتصلب فى وقفته ، وعيناه تحدقان فى عينيها .. والدمع ينهمر من مقلتيه فى صمت .

وفجأة ، أحس بها تندفع إليه لتدفن وجهها فى صدره ، وتنكمش فيه كأنما تحمى نفسها من خطر داهم ، أو تقى نفسه من عاصفة عاتية

ومد ذراعه يحيط به كتفيها فى عطف ويتحسس رأسها فى حنان ، وسيل دموعه ما يزال يتدفق من مآقيه فى سكينة وصمت .

وبعد فترة ، أحس كلاهما بالهدوء .

ورفع ذراعه بهدوء عن كتفيها ، وانسحبت من صدره فى رفق ، وبنفسها إحساس عجيب بالقناعة .

لقد ضمها إليه .

لقد أحست برأسها على صدره .

حسبها هذا ، فقد فاق كل ما كانت تحلم به .

لقد حنا عليها ، وكفكف دمعها .

ورفعت إليه عينين تفيضان بالشكر والامتنان .

ومد يده فأمسك كفها ، وباليد الأخرى قطف أحد أعواد الزنبق ووضعه فوق القبر ، وهمس لنادية :

ـــ سأعود كل عام لأضع زهرة على قبرها . وعندما أعجز عن العودة .. ضعى لى أنت الزهرة .

(٤٤)

وداع له معالم !..

غادر مدحت المقابر وكفه مطبقة على كف « نادية » .

متخذين طريقهما صوب البلدة ، وقد خيم عليهما الصمت ، وكسا ملامحهما الأسى والوجوم .

وكان الطريق يمتد أسفل الجبل .. وقد انبسط الوادى على يساره ، وقام السفح المنحدر على يمينه .

ورفع مدحت بصره إلى أكداس الأشجار المتكاثفة فوق السفح .. ووصل إلى أذنيه خرير المياه تتدفق بين أخاديده وتتساقط على رباه .

وتذكر جولاته مع « نادية » على السفح .. وانزلاقهما على الجليد ، وجلستهما على شاطىء البحيرة ، وتملكه حنين شديد لأن يطوف بكل تلك الأماكن التى دعته إليها ، وأن يراها رأى العين .. لا رأى الوهم والخيال ، وأحس بأنه سيطفىء برؤيتها بعض شوقه ويروى بعض غلته .

وأكثر من هذا .. أحس بأنه سيحقق لها بعض أمانيها ، سيطوف بكل ما دعته إليه ، وسيرى كل ما كانت تود أن تراه . سيجلس فيه ، ويتحسس حصاه وأحجاره ، ويشم نسائمه ، ويجعل منه فى نفسه حقيقة ملموسة .. لا تبهت صورتها من ذاكرته ، ولا يمحى أثرها من ذهنه .

سيطوف بالسفح .. ويمشى على شاطىء البحيرة ، ولن يحس بنفسه وحيداً ، فسيدعوها هو هذه المرة ، سيدعوها إلى موطنها ، إلى شجيراتها وأزاهيرها .. وسيجلس معها على المقعد الحجرى .. وراء المنزل المهجور ليطل وإياها على الوادى .. وعلى صفوف المقابر المنتظمة ، حيث كانت تحس بشىء يجذبها إليها ،

والتى لا شك سيحس هو إليها بنفس الجاذبية .

والتفت نصف التفاتة إلى الصبية المطبقة على كفه .. وبدا له رأسها وقد لفه الإيشارب ، وخصلة من الشعر تتدلى على جبينها ، وياقة « السويتر » قد أحكمت حول عنقها ، وبدت له مخلوقة قريبة إلى قلبه ، وأحس لها بشعور عجيب من السكينة والارتياح .

ولمح جانب وجهها ، فأحس برجفة تسرى فى أطرافه ، لشد ما كانت تشبه أختها .. بأرنبة أنفها الدقيق ، وحواجبها المقرونة ، وخصلة الشعر المدلاة على جبينها .

لولا هذا الإيشارب الذى شد حول وجهها ، ولولا هذا الشحوب حول عينيها ، و« الحسَنة » التى فى جانب ذقنها .

ولولا أنه يعرف أن « نادية » العزيزة قد ماتت

لظن أنها هى التى تسير بجواره .

وعاد صوت الخرير المتدفق فوق السفح يصل إلى مسامعه وزاد به الحنين إلى مراتع ذكريات « نادية » ، وملاعبها .. وسفوحها وشواطئها

والتفت إلى السائرة بجواره و« تنحنح » ليجد صوته ، ثم قال فى شبه تمتمة :

ـــ هل .. هل .. أستطيع أن أصعد الجبل ؟

وأحست « نادية » برجفة تهزها من أخمصها إلى أعلاها . ومضت فترة قبل أن تتمالك نفسها لتستطيع الرد .

وعاد مدحت يتمتم فى شبه اعتذار :

ـــ أنا أعرف أن هذا ليس وقته ، ولكنى أحس بحنين شديد إلى أن أطوف بكل ما دعتنى إليه « نادية » .

وازدرد ريقه كالطفل المذنب ثم عاد يقول :

ـــ لقد تعوّدنا أن ندعو بعضنا دعوات وهمية فى رسائلنا . كنت أدعوها إلى النادى للغداء ولعب الاسكواش ، وكانت تدعونى للصعود معها إلى الجبل

والسير على شاطىء البحيرة ، إنى أكاد أعرف منها كل بقعة هنا . وأحس بأنى ..

وعاد مرة أخرى ليزدرد ريقه .. ثم صمت برهة . وأردف يتمتم راجياً :

— إنى أحس بلهفة إلى أن أرى هذه الأماكن التى دعتنى إليها . أحس بحنين شديد إليها ، كأنى سأرى نادية فيها .

وصمت مرة أخرى ، وغلب انفعال « نادية » قدرتها على الرد . أحقاً يجب أن يرى مراتع نزهتهما معاً ؟! أحقاً سيمنح لها القدر فرصة اصطحابه إليها ؟!

وعاد مدحت يتمتم فى لهجة المعتذرة :

— لو كنت تسمحين باصطحابى إليها .. إنى لا أريد أن أضايقك .. ولكن ..

يضايقها !!

يضايقها .. باصطحابها إلى كعبة أوهامها !!

يضايقها .. بمنحها فرصة العمر التى كانت تتوق إليها !!

يضايقها .. بإطالة أول وآخر لقاء ينعم القدر به عليها !!

إنها لم تحس بحاجتها إلى شىء .. قدر هذا الشىء الذى يطلبه منها .. وأن تطوف به .. مرة واحدة . مرة واحدة .. قبل أن يتبدد كل شىء .. حتى الأمل السرابى الذى كانت تحيا من أجله .. والأمانى الوهمية التى كانت تعيش بها فى رسائلها إليه .

ورفعت « نادية » رأسها إليه وهى تمد يدها الخالية لتحكم الإيشارب حول رأسها وتمتمت بقدر ما سمح لها انفعالها :

— لن يضايقنى أبداً .. ليس لدىّ ما أفعله .

واشتدت ضربات قلبها وهى تردف قائلة بعد فترة صمت :

— ليس أحب إلى نفسى من اصطحابك ، حيث شئت .

وبدا الارتياح على وجه مدحت وهو يتمتم قائلا :

— لست أدرى كيف أشكر لك .. إنى بلا شك قد سببت لكم إزعاجا ،

وأعتقد أن لديكم ما يكفيكم .

وأطلقت « نادية » تنهيدة .. وأجابت قائلة :

ــ بالعكس .. لقد منحتنا زيارتك كثيراً من العزاء .

ــ كانت زيارة مفاجئة .. كنت أريد أن أفاجىء بها « نادية » .. ولكن القدر كان أسبق منى بالمفاجأة .. مفاجأة قاصمة قاضية .

ــ قاصمة لنا جميعاً .

ــ لقد كانت تعرف أنى سآتى .. وقالت لى فى آخر رسائلها إنها ربما سافرت .

وتمتمت « نادية » قائلة :

ــ أجل .. لقد كنا على وشك السفر .. قبل أن يفاجئنا مرضها .

ــ لم تقل لى أبداً أنها مريضة .

ــ كان أمراً مفاجئاً .. نزيف فى الصدر ، لم يمهلها سوى بضعة أيام .

ــ بلا أى سبب ؟

ــ إجهاد .. تجديف فى البحيرة . وعدو .. و ..

وأطلق « مدحت » تنهيدة أليمة .. وتمتم قائلا :

ــ لو عجلت بالمجىء .. لاستطعت أن أمنعها .. ولما تركتها تجهد نفسها أبداً .

وكانا قد وصلا إلى مفترق الطريق حيث يتفرع الطريق إلى طريقين : أحدهما يؤدى إلى الجبل ، والآخر إلى البلدة .

وتوقفت « نادية » قائلة وهى تشير إلى الطريق المتجه إلى اليمين :

ــ هذا هو الطريق الصاعد إلى الجبل .

وبدا عليها التردد برهة .. ثم أردفت قائلة :

ــ أتحب أن نصعد الآن ؟

ــ إذا لم يكن فى ذلك ما يعطلك .. أو يجهدك .. أو يضايقك .

ــ أبداً .. أبداً .

ومرة أخرى بدا عليها التردد .. ثم قالت وهى مطرقة :

ــ ليس أحب إلىّ من الصعود معك .. ولكن يخيل إلىّ أنى كان يجب أولا أن أقدم لك فنجاناً من القهوة .. لقد أذهلتنى زيارتك ، إلى الحد الذى أفقدنى القدرة على التصرف . كمخلوقة .. رشيدة عاقلة .. والأيام التى مرت بنا كانت أياماً سوداً .. تركتنا جميعاً بلا وعى ولا إدراك .

ــ كان الله فى عونكم .. لا داعى للكلفة .. أنا لست غريباً .. لم أكن قط غريباً عن « نادية » وبيتها وأهلها .. لقد كان ما بيننا شيئاً عميقاً وثيقاً .. لقد كانت كل شىء فى حياتى .

وأحست « نادية » برعدة تسرى فى كيانها ، وبدا الخفقان فى صدرها كأنه يوشك أن ينفذ من بين الضلوع .. وهمست فى صوت مختنق :

ــ وكنت كل حياتها .

وخطت تجاه الطريق الصاعد .. وكفها فى كفه .. وكأن طيراً يحملها على أجنحته .. وينساب بها فى يسر ولين .

ووصلا إلى منحنى فى الطريق ، وتوقف « مدحت » وهو ينظر إلى درب بين الأحراش يختصر المنحنى ويصعد مباشرة إلى الجبل .

وتساءل قائلا :

ــ أليس هذا الدرب يؤدى إلى القمة مباشرة ؟

وهزت « نادية » رأسها .. وعاد « مدحت » يتساءل :

ــ وعلى يمينه صخرة تبدو كأنها توشك أن تنقض .

وتمتمت « نادية » كأنها تكمل قوله :

ــ وعلى يساره شجرة بجذعها ثنية كأنها المقعد .

وردد « مدحت » فى صوت خافت كأنما يحدث نفسه :

ــ أعرفها جيداً .. طالما دعتنى إلى الجلوس عليها لنلتقط أنفاسنا .. وفوقها

شلال كان يبلل ثيابنا .

وأشاحت « نادية » بوجهها .. حتى لا يرى الدموع فى مآقيها .. وخطت تجاه الدرب قائلة :

ـــ هيا بنا .

واستمرا فى الصعود .

ومدحت يتفقد بعينيه كل بقعة فى الدرب .. ويتلمس كل فرع وكل ورقة .. كأنما يختزنها فى ذهنه ، ويحفرها فى ذاكرته .

و« نادية » تسير كالمأخوذة الحالمة .. وبنفسها إحساس الذى يعيش فى معجزة لا يصدق إمكان حدوثها .. فهو أقرب إلى المذهول منها .. منه إلى المستمتع بها .

وإحساس المبهور بسنا برق .. غلب يأسه من الظلمة الموشكة بعده .. انبهاره بسناه الخاطف البرّاق .

إحساس المغمور فى الشفق الأحمر .. الذى يعرف ما وراء الحواشى الأرجوانية الرقيقة من ليل معتم .. لا مفر من سواده ، ولا منجاة من وحشته

ومع ذلك .. فهو يحس بالسكينة إليه .. ولا يستطيع أن يمنع نفسه من العيش فيه .. حتى آخر ضوء ، وحتى يجد نفسه ولا شىء حوله ، سوى الظلمة المعتمة ، والفراغ الموحش .

وبهذا الإحساس كانت تسترق النظر إلى الشبح الطويل السائر بجوارها ، القابض بكفه على كفها .

وكان يملؤها نحوه خليط عجيب من مشاعر الحزن والرضا ، والقلق والخوف .

الحزن على حزنه واللوعة على لوعته .

والرضا والطمأنينة .. مما أحسته من لهفته عليها ، وحنينه إليها .

والقلق الدائم الذى كان يحيرها فى مشاعره نحوها .

لمن كانت اللوعة التى أصابته ؟!

لأية نادية ؟

« نادية » التى راحت ، والتى ستنعم بحزنه ولوعته . كما نعمت بحبه ولهفته !

أم « نادية » الكائنة .. الحائرة .. التى لا تعرف موقعها عنده ، ومركزها فى قلبه ؟!

لمن كانت هذه الدموع الصامتة المحرقة ؟!

لأية « نادية » فيهما ؟

لها هى !!

إنها قطعاً .. لا تستحق منها قطرة واحدة .

حتى دموعه عليها ، لا تستطيع أن تنعم بها .

حتى موتها ، عندما قررته ، لم تجسر على أن تأخذ ما منحها من آهات وأنات .

كل إحساس نالته .. كانت فى شك من ملكيتها له .

حتى أحاسيس اللوعة والحزن ، لا تجسر على أن تتلقاها فى ثقة ، بلا حيرة أو شك .

وكيف تثق فى إحساس تتلقاه ، وهى لا تثق فيمن تكون هى بالنسبة لصاحب الإحساس ؟!

ولا تملك إلا أن تطلق إحدى زفراتها ، وهى تعلل نفسها بحقيقة قائمة ، هى الشىء الوحيد الذى لا تستطيع الشك فيه .

وهى أنه موجود بجوارها .

وأن كفها ، هى ، فى كفه .

وأنها تطوف معه كعبة حبها .

تتسلق وإياه الجبل . وتسير بجواره على شاطىء البحيرة ، وتجلس معه كما تعوّدا أن يجلسا سوياً فى رحلتهما الوهمية .

كل هذه حقائق لا جدال فيها .
أما من تكون هي بالنسبة إليه ؟
وإلى متى يمكن أن يدوم هذا ؟
فأمر لا معنى لمناقشته .
إنها هي .. هي .
وأما إلى متى تدوم . .
فإن لحظات دوامة أقصر من أن تضيعها فى التساؤل عن نصيبها من الدوام .

ووصلا إلى قمة الجبل ، وبدا شاطىء البحيرة ، أملس ساكناً ، قد انعكست فيه صور الأشجار المحيطة ، تهتز فى خفة ، كلما هبت نسمة ، أو سقطت فيه ورقة .

ووقف « مدحت » يرقب المنظر فى صمت المأخوذ . واسترق البصر إلى خصلة الشعر المطلة من الإيشارب وأرنبة الأنف الدقيقة التي بدت من جانب الوجه .

وأحست « نادية » بنظراته المسترقة ، ومدت يدها فى حذر تشد الإيشارب على عنقها .

وتساءل « مدحت » فى صوت خافت ، وهو يرنو إلى البيت المهجور فى الناحية الأخرى من البحيرة :

— أنستطيع أن نطوف حول هذا البيت ؟

وهزت « نادية » رأسها بالإيجاب .

وأردف « مدحت » قائلا وهما يسيران تجاه البيت :

— أريد أن أرى الكوخ ، والمقعد الحجرى .

وأردفت « نادية » تتم قوله :

— والوادى الأخضر ، والمقابر البيض المصفوفة .

ووراء الدار بدا الوادى ممتداً أسفل الجرف العميق .

ووقف الاثنان يرقبان الوادى الفسيح ، وقد بدت منه الدور والأشجار كأنها دمى الأطفال .

وأحس « مدحت » بالغثيان ، وهو ينظر إلى الهوة العميقة ، وقد بدت المقابر الصغيرة مصفوفة فى أسفلها ، وشد على يد « نادية » هو يتراجع ، وقد بدا فى عينيه حزن عميق ويأس مرير .

وهمس بها قائلا :

— كانت تخاف منها . كانت دائماً تحس بشىء يجذبها إليها وكانت دائماً تحدثنى عن الفارسة التى ألقى بها الجواد من هذه الهوة .

وهز « مدحت » رأسه ، وهو يكبت دموعه وأردف يقول :

— ولم يخطر ببالى قط .. أنى عندما أقف ، سأجد الهوة ابتلعتها ، وأجد خوفها قد تحقق .

ودار الاثنان حول البيت وطافا بشاطىء البحيرة مطرقين حزينين . قد أغرقهما الأسى واليأس .. ثم أخذا فى الانحدار إلى الطريق المؤدى إلى بيت « نادية » ، ووقف الاثنان ، وخيم عليهما الصمت . وبدا « مدحت » فى انفعاله وأساه كأنما يبحث عن كلمات يقول بها معنى للشكر والوداع .

وقبل أن يفتح شفتيه ليتكلم . قالت « نادية » فى تردد ووجل :

— أما كان يجب أن أدعوك إلى البيت ، لتتناول فنجاناً من القهوة ؟

وشد على يد « نادية » قائلا :

— لا .. يكفى ما فعلت من أجلى .

— لست أشعر أنى قد فعلت شيئاً .

— كل هذا أجهدتك به ، ولم تفعلى شيئاً ؟!

— كنت أود أن أفعل شيئاً أكثر ، ولكنى أحس بنفسى عاجزة ، ولست أعرف ماذا يمكن أن أفعل .

— عودى إلى البيت ، واستريحى .. لقد دفعتنى لهفتى على لقائها ، إلى حماقة

الأطفال .. فحضرت إليكم ، وخدم الفندق ما زالوا نياماً ، والبلدة كلها لم تستيقظ بعد .. لا شك أنى قد أخرجتك بلا إفطار .

ـــ وأنت أيضاً لم تتناول إفطارك . كان يجب أن أدعوك إلى الإفطار فى البيت ، ولكن البيت يبدو مزعجاً ومشوشاً ، ولقد تركتنا الكارثة أشبه بالعجزة .. لا نستطيع أن نستقبل إنساناً . إنى أشعر بالأسف لأنى ...

وقال « مدحت » وهو يهز رأسه :

ـــ ليس هناك ما يدعو أبداً للاعتذار .. أنا أقدر جيداً ظروف الصدمة ، وسأعود إلى الفندق لآخذ حقائبى ، وأرحل فى أول قطار .

وأحست « نادية » بشىء يعتصر قلبها وقالت فى شىء من التردد والوجل :

ـــ أظن أول قطار إلى « فين » لن يقوم قبل ساعتين .. أستطيع أن أدعوك إلى تناول الإفطار فى النادى . ثم أوصلك إلى المحطة بعد ذلك .

ـــ لا .. لا .. لست أريد أن أثقل عليك أكثر من هذا . أرجوك . كفى كل ما فعلت .

ـــ ليس هناك أبداً ما يثقل علىّ .

ـــ ولكنى أستطيع أن أتناول الإفطار فى الفندق . ثم أرحل من هناك إلى المحطة . فلماذا أسبب لك كل هذا الإزعاج ؟

وأطرقت « نادية » وقالت فى صوت مختنق :

ـــ ليس هناك إزعاج . إنى أحس أنى أفعل شيئاً من أجل « نادية » .

وصمتت برهة تحاول خلالها كبت دموعها ثم أردفت تقول :

ـــ شيئاً كانت « نادية » تتمنى لو فعلته لك .

ورمق « مدحت » الوجه الصغير الملتف بالإيشارب ، وقد ملأ الأسى ملامحه ورفع عينين بهما نظرة رجاء وتوسل .

وملأ « مدحت » ذلك الشعور العجيب بالألفة نحو الصبية الراجية ، وأبصر بوجهها ذلك الشىء الحبيب الأليف ، الذى يحس به كلما رنت إليه بعينيها .

و لم يملك إلا أن يطرق ثم يجيب :

ــ هيا بنا .

وجلس « مدحت » فى النادى أمام « نادية » ، وبدا له المنظر من وراء النافذة الزجاجية العريضة .. محبباً مألوفاً .. كأنما قد تعوّد الجلوس إليه فى كل يوم .. الأسقف الحمر المنحدرة ، والمداخن التى بدأت أنفاسها تتصاعد ، والأشجار الملتفة المتكاثفة ، ووراء كل هذا جدار ممتد من الجبال ذات القمم البيض .. الجدار الذى كانت تحس « نادية » أنه يقف حائلا بينها وبينه ، والتى كانت تتخيل من ورائه النيل العريض ينساب فى هدوء ، والمزارع الخضر تنبسط ممتدة بلا حدود إلا التقاء الأفق بالسماء .

وتمتم « مدحت » وهو ينظر من الشرفة :

ــ كانت « نادية » تحب هذه الجلسة ، كما كانت تحب الجلسة المماثلة فى نادى مصر الجديدة . كانت دائماً تقارن بين شجرة الكافور القائمة بجوار « النافورة » ، وشجرة السنديانة القائمة وراء هذه الشرفة .

وردت « نادية » بنفس اللهجة الشاردة :

ــ كانت « نادية » ...

وصمتت و لم تقل شيئاً ، وعادت تردد فى أسى وحزن :

ــ كانت « نادية » .. كانت .. وكانت ..

وأحس « مدحت » أنه قد نكأ فى نفسها جرحاً .. فتمتم فى أسف :

ــ لم أكن أحب أن أولمك .

وهزت « نادية » رأسها ، وهى تكبت دمعها :

ــ أبداً .. إن هذا لا يؤلمنى .

وانتهى الإفطار ، ووقف « مدحت » ليمد يده مودعاً « نادية » ولكنها هزت رأسها قائلة :

ــ سأذهب معك إلى المحطة .

ـــ لا داعى أن تتعبى نفسك .

وقالت « نادية » فى إصرار حزين :

ـــ سأذهب معك .

وسار الاثنان فى صمت ، منحدرين فى الطريق المؤدى إلى الفندق .. وعندما عبرا سكة الحديد . تساءلت « نادية » :

ـــ أتسير فى الطريق الرئيسى ؟

وقال « مدحت » متنهداً :

ـــ كما تشائين :

ـــ مازال أمامنا متسع من الوقت . هل لديك شىء تريد أن تعمله ؟!

ـــ أبداً لم يكن لدىّ هنا من شىء .. سوى « نادية » .

وكانت البلدة قد استيقظت والحوانيت قد فتحت أبوابها .

ووصلا إلى الميدان ثم انحدرا فى الطريق المؤدى إلى المحطة .

وبنادية إحساس .. السائر فى جنازة .. المشيع لنعش .

وكانت الجنازة هذه المرة . جنازتها هى .

والنعش .. نعشها .

كانت تحس أن الحواشى الأرجوانية تنقرض ، وأن كل خطوة تخطوها إلى المحطة .. تحملها إلى الليل المعتم الموحش الذى لا فجر له .

كان الشىء الباهر البرّاق يوشك أن ينطفىء ، كأنه الذبالة تترنح فى مهب الريح .

كانت الحقيقة الوحيدة التى استمتعت بها .. توشك على الانتهاء .

الحقيقة المؤكدة . أنها هى .. هى .. وأنه هو .. هو .. وأنهما يسيران معاً .. جنباً إلى جنب .. ليطوفا بجنة أحلامهما .. وكعبة أوهامهما .

وبعد ذلك .. لا شىء

لا حقائق ولا أوهام .

لن تعود هى .. هى ..

لأنها هى .. قد ماتت .

ولن يعود هو .. هو .. لأنها قد انمحت من عالمه .

ولن يعود بينهما شيء .. لا كتابة .. ولا دعوات .. ولا آمال سرابية .. ولا أحلام برّاقة .

لا شيء إلا أحزانه .. على .. على من ؟

عليها !؟ أبداً ..

فالراقدة فى القبر .. هى الأحق بأحزانه .. وهى الأحق بزهرته .. التى سيأتى كل عام كى يضعها على قبرها .

يا للقدر العجيب !! يحرمها حتى نعمة الرثاء والبكاء !!

يحرمها .. حتى من زهرة على قبرها !!

وبلغ الاثنان الفندق ، وانتظرت « نادية » فى وجومها الشارد وصمتها الحزين ، حتى هبط الخادم بالحقائب .

وقبل أن يطلب منه مدحت حملها إلى المحطة .. مدت « نادية » يدها فحملت الحقيبة الصغيرة .. قائلة :

ـــ لا داعى للحمّال .. سنحملها إلى المحطة معاً .

وحمل مدحت الحقيبة الأخرى ، وسار الاثنان إلى المحطة .

ورفع مدحت عينيه ليرقب بناء المدرسة ، وأشار إلى إحدى النوافذ وتساءل فى أسى :

ـــ أهذه هى نافذتها المطلة على فناء المحطة ؟!

وأطرقت « نادية » وهى تغالب دمعها .

وعاد « مدحت » يتساءل وهو يشير إلى السنديانة :

ـــ وهذه السنديانة التى تحنو على المحطة بذراع ، وتبتهل للسماء بأخرى ؟!

وعلى المقعد الخشبى بجوار « كشك » المحطة ، استقر الاثنان وقد خيم عليهما

سكون عجيب .

وفجأة علا صفير .

وأحست « نادية » من صفيره .. بما يشبه طَرقات المعول .. على فتحة القبر .

وأقبل القطار يتهادى حتى وقف فى فناء المحطة . وأقبل الحمّال العجوز يحمل الحقيبتين ليضعهما فى القطار ، ونظر إلى « مدحت » رافعاً حاجبيه الأشيبين الكشيفين فى تساؤل ودهشة :

— لم تمكث سوى سواد الليلة .. ألم تجد ما جئت من أجله ؟!

وهز « مدحت » رأسه وقال كأنما يحدث نفسه :

— وجدته رحل .

ووقف مدحت .. بقامته الطويلة ، ومنكبيه العريضين ، والأسى يملأ وجهه .. والحزن يفيض من عينيه .

وشد على يد « نادية » فى صمت .. وازدرد ريقه وهو يحاول أن يكبت انفعاله .

ولم يعرف ماذا يقول .

وأحست « نادية » أن الثوانى القادمة هى خاتمة المطاف ، وأن أنفاس القطار اللاهثة ستحمل معها كل شىء .

وتركت يدها تستقر فى راحته فى سكينة يائسة .

ومدحت و « نادية » .. واقفان فى صمت عاجز ، وكل منهما يحاول التماسك والتجلد .

وفجأة .. علت دقات .

لم تكن دقات جرس المحطة ، ولكنها دقات ، تنبعث من بعيد .. دقات واضحة .. محدودة ، تنساب إلى النفس انسياباً متصلا عميقاً .

وأحس كلاهما من الدقات البعيدة المنسابة .. بشىء يذيب قلبه .. ويفتت

فؤاده .

لقد انبعث اللحن العجيب من نافذة المدرسة .. ليصهر كل ما حاولاه من جمود ، ويهزم كل ما استعانا به من مقاومة وتجلد .

ومرة أخرى انساب الدمع من عينى مدحت فى صمت وهو يقول فى صوت مختنق :

ـــ أتسمعين فالس الوداع ؟ كانت دائماً تطلب منى أن أسمعه .

واندفعت « نادية » فى نشيج هز كل بدنها .

ودق جرس المحطة مرة أخرى .. وعلا صفير القطار .. وصاح الحمّال بمدحت :

ـــ اصعد القطار قبل أن يرحل بحقائبك .

وسار مدحت إلى القطار محنى الهامة مهدل الكتفين .

ووقف من النافذة يلوح « لنادية » .

ووقفت « نادية » ترقبه يتباعد من خلال دموعها .

وتلوح له مودعة .

وانساب اللحن المتقطع الحزين يختلط بصفير القطار ..وطرقات عجلاته على القضبان .. والقطار يتباعد .

وأخيراً اختفى القطار .. وخفتت الأصوات .

وانتهى كل شىء .

وعادت كأنها الشبح السارى ، وهى تحس أنها قد ودعت حياتها .. وكان وداعها هذه المرة .. وداعاً له معالم .

(٤٥)

امر تكليف !..

انساب القطار بمدحت من المحطة الصغيرة واستمر يلوّح للفتــاة ذات الإيشارب .. وقد بدت ، وهى تلوّح بيدها كتمثال للأسى والحزن واليأس .

وأخذ شبحها يتضاءل رويداً رويداً .. ومدحت يرقبه فى ذهول .. وهو يحس أن الحوادث مرت به بطريقة خاطفة مذهلة .. وكأن المسألة كلها حلم مروع .. وود لو يتمهل القطار فلا ينتزعه من البلدة العزيزة بمثل هذه السرعة والعنف .

وود لو يتوقف القطار ليعود إلى الفتاة الحزينة الرقيقة .. ليقول لها شيئاً أكثر مما قال .. ويعبر لها عن حزنه وأسفه .. بأوضح مما فعل .

لقد فاجأها بزيارته كأنه شبح .. ثم مضى بها فى صمت ووجوم بين المقابر .. وأخذ يجوب معها الجبل والمدينة .. ثم انساب منها إلى المحطة ، واختفى به القطار كأن لم يكن .

وتباعد شبح المحطة بالسنديانة الضخمة ، وأخذت الأسقف الحمر المنحدرة تنكمش وتتضاءل .. واتسع الأفق وانبسط صدره ، حتى ضاعت فيه معالم البلدة .

واستقر مدحت على المقعد مجهداً ، ومضت به فترة ذهول ، كأن ذهنه قد أصابه شلل أعجزه عن التفكير ، ثم أحس بشبح يقف أمامه ، وبدا له كأنه يسأله شيئاً ، ورفع إليه عينيه ، وبدا فى زيه مفتش التذاكر .

وأحس مدحت كأنه عاجز عن التصرف .. لا يريد أن يسأله أحد شيئاً أو يكلفه بشىء .

وطالت وقفة الرجل ، ومدحت مغرق فى عجزه المشلول ، لا يتمنى شيئاً أكثر من أن يتركه الناس فى صمته ووحدته .

وتحدث الرجل .. وأحس مدحت أن عليه أن يجيب .. وأن يتصرف ، وأن يقاوم هذا اليأس المشل ، فهو يتحرك فى قطار فى بلد غريب ، وما زالت أمامه رحلة طويلة .. عليه أن يجابه كل ما فيها من التزامات ومشكلات ما بين مواصلات وإقامة وإبدال عملة ، و .. و ...

ومد يده فى جيبه فأخرج دفتر تذاكر حصل عليه من مكتب السياحة فى القاهرة ، وسلمه للرجل .

وقلب الرجل الدفتر ، ثم سأله :

— إلى أين ؟

إلى أين ؟.. لقد كان فى ذهنه برنامج لرحلة طويلة ممتعة مليئة بالأمانى الرائعة ، والآمال العريضة .

ولكنه أحس أن دعامة الأمانى ، قد تقوّضت ومحور الآمال ، قد زال .

والبرنامج الممتع قد بهت فى ذهنه حتى انمحى .

إلى أين ؟

كان المفروض أن يذهب إلى لندن لعلاج معدته .

ولكن هذا لم يكن إلا إطاراً لبرنامجه وتبريراً لرحلته .

أما الغرض الرئيسى فكان « نادية » .

كان قد صمم فى ذهنه .. على أن يخطبها .. ثم يسألها ماذا تريد منه أن يفعل .. يبقى معها فى « جاب » .. يرحل بها إلى سويسرا . يذهب إلى لندن ، ثم يعود إليها ، ليرجعا إلى القاهرة .

أشياء كثيرة كان يمكن أن يفعلها ، بعد أن تقرّها هى .

ولكنها هى نفسها ، لم يعد لها كيان .

وعليه أن يقرر ، إلى أين يحمل نفسه .

لو استطاع .. لبقى حيث رقدت .

ولقد كان عليه أن يفعل ذلك .. أو يبقى على الأقل بضعة أيام .. ولكنه وجد نفسه يفر من البلدة خائفاً مذعوراً .

والآن عليه أن يجيب ، إلى أين ؟

إلى لندن ؟

ليعالج معدته ؟!.

أحقاً ، هو يريد علاجها ؟!

أيحتمل بقية الرحلة ، وملل العلاج . ورقدة المستشفى ؟!

لا .. لا .

إنه يستطيع أن يعيش بمعدته كما عاش دائماً ..

ولكن ماذا يقول لهم فى القاهرة ؟!

يقول لهم إنها ماتت ؟!

من هى ؟

الطيف الذى لم يره مرة واحدة .

ساكنة الألب التى كانت حياتها معلقة بكلمة منه .. فلما أقبل عليها وجد حياتها قد ضاعت ، وأحلامه قد تبددت !

وكان الرجل ما يزال يقف أمامه ممسكاً بالدفتر فعاود السؤال :

— إلى أين ؟!

ورفع مدحت كتفيه قائلا فى نبرة يائسة :

— إلى جنيف .

أجل .. ليس أمامه الآن سوى هذا ينزل فى « فين » حيث هبط أول مرة .. ثم يأخذ نفس القطار الذى هبط منه .. حتى يصل إلى جنيف ،ومن هناك يأخذ الطائرة إلى أى مكان يستقر عليه رأيه .. إما إلى لندن .. أو القاهرة .

وانصرف عنه الرجل بعد أن أعاد إليه الدفتر

ومرة أخرى عاد إلى شروده اليائس ، وذهوله الحزين .

واستمر القطار ينهب به الأرض .. دون أن يعى شيئاً مما حوله .. ودون أن يميز وجهاً من الوجوه المحيطة به .. أو منظراً من المناظر الأخاذة التى يمر بها القطار وسط الجبال .

ووصل إلى « فين » .. ولم يطل به الانتظار حتى أقبل القطار المتجه إلى جنيف .

وتحرك القطار مرة أخرى بمدحت تاركا محطة « فين » .. وهو مستلق فى مقعده فى جلسته اليائسة العاجزة .. وعيناه قد شردتا بعيداً بين القمم البيض التى تلوح وراء النافذة الزجاجية .

ولم يعد مدحت يحس بتفاصيل المرئيات .. أو يأبه لمر الزمن .. كان يجلس فى صمته الكئيب ونظره معلق بالأفق .. لا يأبه لوقفة القطار أو لسيره .. ومرت به المحطات .. وهو يحملق فى لافتاتها بلا وعى .

واجتاز القطار « جرينوبل » . عبر الحدود الفرنسية .. ومد مدحت يده بالجواز فى حركة مستسلمة عاجزة .. وفحصه البوليس ثم أعاده إليه .. واستغرق مدحت بعدها فى سكونه المطبق .. وشروده التائه .. حتى توقف القطار به أخيراً .. فى جنيف .

وأيقظه الضجيج من شروده ، وبدت له المحطة متسعة .. صاخبة .. وتمنى لو بقى فى مقعده .. وأحس بالعجز عن التصرف وسط هذا الخضم المتلاطم من البشر .. الحافل بكل جنس .. الناطق بكل لغة .

ومضت برهة وهو ينظر إلى الأفواج السائرة فى المحطة .. نظرته اليائسة المكتئبة .. وهو يتمنى لو أغمض عينيه وفتحهما ليجد نفسه .. على فراشه فى البيت .. أو أمام منضدة العمليات فى المستشفى .

أجل .

لقد أحس بحنين إلى مرضاه ، وإلى أدوات جراحته .

إنه سيجد فيها شيئاً يملأ نفسه اليائسة الحزينة ، وذهنه المكدود العاجز .

وتسللت إلى نفسه بعض الحياة .. وأحس بالرغبة فى المقاومة .. مقاومة ذلك الشلل المعنوى الذى تركه عاجزاً مقهوراً .

ونهض من مقعده وحمل الحقيبتين بكلتا يديه .. ثم اندفع إلى باب القطار وهبط على الرصيف .

وتناول منه أحد الحمَّالين الحقيبتين فوضعهما فوق عربة صغيرة .. كدّست فوقها الحقائب ثم أعطاه تذكرة برقميهما ، وتركه وسار بالعربة .. واجتاز مدحت فناء المحطة ، ووقف فى الصف ليستبدل بعض أوراق النقد بفرنكات سويسرية .

وبعد لحظات كان يقف أمام أحد « التاكسيات » بحقيبتيه على الرصيف وقد توقف الحمّال بجوارهما .

وسأله سائق التاكسى :

— إلى أين ؟.

... إلى أين ؟

كلهم يسألون إلى أين ؟

إلى القاهرة .. إلى حجرة العمليات بمستشفى الدمرداش .

هل يستطيعون نقله إلى هناك فى الحال ؟!

إن مرضاه فى حاجة إليه .. ليدفع عنهم خصمه وخصمهم الذى لا يجرؤ على مواجهته سواه .. خصمه المروّع الذى تعوّد الأطباء أن يهربوا منه ، ويعللوا مرضاهم عن مكافحته .. بالأشعة ، والكهرباء ، أو الرمال التى يدفنون فيها رءوسهم ، وجثث مرضاهم .

ومرة أخرى سأله سائق التاكسى :

— إلى أين ؟

— إلى أقرب فندق .

ـــ أقرب فندق لا يحتاج إلى عربة .

ثم رفع سبابته مشيراً إلى بناءين يواجهان المحطة ، وقال :

ـــ عليك أن تختار أحدهما :

ـــ ورفع الحمال الحقيبتين قائلا :

ـــ سأحملهما إلى هناك .

وسار الحمال يتبعه مدحت حتى وصل أمام باب أحد الفندقين ، وتسلم الخادم الحقيبتين واتجه مدحت إلى مكتب الاستعلامات .

وحياه الرجل الواقف وراء المكتب فى رقة .. ثم مدّ يده بورقة مطبوعة ليملأ مدحت ما بها من بيانات .

وتردد مدحت لحظة قبل أن يملأ البيانات .. ثم سأل الرجل :

ـــ هل أستطيع أن أعرف بعض المعلومات عن مواعيد الطائرات ؟!

ـــ إلى أين ؟

مرة أخرى إلى أين ؟!

وأجاب مدحت فى تردد :

ـــ إلى القاهرة .. أو لندن .

وأشار الرجل إلى مقعد بجوار المكتب قائلا :

ـــ تفضل .. لحظة واحدة ، وسأخبرك بما تريد .

وقال مدحت وهو يجلس على المقعد فى قلق :

ـــ وأريد أن أعرف هل يمكن الحجز ؟!

وهز الرجل رأسه وهو يرفع سماعة التليفون .

ولم يطل حديث الرجل حتى وضع السماعة قائلا :

ـــ إلى لندن .. ستقوم إحدى طائرات « السويس إير » فى منتصف الليل . ويمكن الحجز فيها . على أن تنبئهم خلال نصف ساعة .

ومرت بمدحت لحظة وجوم وتفكير .. وما لبث أن تساءل :

ــــ والقاهرة ؟!

ــــ القاهرة .. ستقوم طائرة بعد ساعة ، ولكنها كلها محجوزة .

ــــ والتي تليها ؟!

ــــ غداً فى نفس الموعد .

وصمت مدحت ، وأشار الرجل إلى النموذج المطلوب ملؤه وأخرج مدحت قلمه .. ليكتب البيانات .

إلى أين يذهب ؟

إلى لندن ؟

هل لديه الصبر على الرقاد ، والقدرة على الاستسلام للعلاج ؟ لا .. لا .. إنه لا يستطيع .

إن الوحشة ستقتله .. قبل أن تشفى معدته .

إنه يريد أن يفعل شيئاً يشغله عن التردد والتفكير ، ويوقفه عن الاستسلام العاجز اليائس .. القاتل .

إنه فى حاجة إلى المقاومة .

ورقدته المريضة لن تمنحه أية مقاومة .

أما الشيء الذى يمنحه أياها .. فهو النضال ، والكفاح .

لو استطاع أن يرتدى إحدى تلك البدل الكاكية ، ويمسك بالسلاح ، ويفعل كما فعل هؤلاء الطلبة .. الذين لقيهم قبل سفره ، لكان ذلك خير علاج له .

أو .. إذا لم يستطع .. فليمسك سلاحه ، وليستأصل خصمه التقليدى .. السرطان .

ودق جرس التليفون بجوار الرجل الواقف وراء المكتب ينتظر فى أدب :

ورفع الرجل السماعة وأجاب متسائلا :

ــــ الذاهبة إلى القاهرة .. انتظر . سأرد عليك حالا .

ثم وجه الحديث إلى مدحت قائلا :

ــ مكتب « السويس إير » يقول إن أحد ركاب الطائرة التى ستذهب إلى القاهرة قد أعاد التذكرة ، ويسأل هل تريد أن يحجزوا لك المحل ؟!

القاهرة ؟!

بهذه السرعة ..!!

أيمكن أن يشرق عليه أول شعاع للشمس .. بين ربوع القاهرة ؟!

ماذا يقولون عنه !.. وماذا يقول لهم .. و ...

ونظر إليه الرجل نظرة استفسار متعجل .

وبلا إرادة .. أجاب :

ــ أجل .

ومعدته !! لقد باتت أسوأ مما كانت .. إن الصدمة التى تلقاها ، والأحزان التى أغرق فيها .. لا شك قد جعلت القرحة الموهومة .. قرحة حقيقية .

واستمر جدله مع نفسه .. جدلا داخلياً سلبياً .

واستمرت إجراءات السفر .. عملية إيجابية .. حجزت التذكرة ، ووضعت الحقيبتان فى العربة ، وانطلقت العربة إلى المطار ، واتخذت إجراءات السفر بطريقة سريعة خاطفة .

وأخيراً وجد نفسه قد استقر على مقعده فى الطائرة .. والجدل الداخلى السلبى ما زال دائراً .

أى حمق أعاده إلى القاهرة ؟

لماذا لم ينتهز الفرصة ليطير إلى لندن ؟!

لماذا تركته الصدمة عاجزاً خائراً ؟!

ولكن لماذا يستمر فى السفر ؟! إنه يعرف أن أصل السفر .. كانت هى ، هى وحدها .. التى دفعته إلى هذه الرحلة .

لقد بدأت.. على الخريطة.. بالخط الذاهب من مرسيليا إلى « جاب ».. ذلك

هو الخط الأساسى فى رحلته ، وبعد ذلك رسمت بقية الخطوط .. لتعطى الرحلة شكلا مستساغاً ، ومظهراً معقولا .

ثم .. كيف يسافر فى هذه الظروف الدولية القلقة ؟!

الظروف الدولية !!

ومنذ متى كان يعترف هو بالظروف الدولية .. أو يحس بها ؟!

أترى هذه الظروف الدولية القلقة ، لم تظهر له غير الآن ؟

ألم يقولوا له جميعاً : إن هذه ليست ظروفاً ملائمة للسفر ؟!

ولكنها كانت موجودة ، ومن أجلها كان يمكن أن يصبح كل شىء ملائماً .

ودار محرك الطائرة ، وأحس مدحت بالأرض تنزلق تحتها .. بدأت الطائرة ترتفع فى تؤده ، وأبنية المطار تنكمش وتتضاءل .. كما انكمش بناء المحطة فى « جاب » وتضاءلت شجرة السنديانة .

ولم يتسع الأفق وحده هذه المرة ، وإنما اتسعت رقعة الأرض كلها .. مبرزة آفاقاً جديدة وراء حافة الأفق .

واسترجع مدحت بصره من النافذة الزجاجية .. بعد أن بهت ما وراءها من معالم ، واختلط ما بها من مرئيات ، وأضحت لا تطل العين منها إلا على مساحات ضخمة من الزرقة والخضرة والبياض .

واسترخى مدحت فى مقعد الطائرة ، وأسند رأسه إلى حافته اللينة .. ثم أغمض عينيه .

وتواترت فى ذهنه .. حوادث اليوم .

اليوم !.. اليوم فقط !!

أيمكن أن يكون كل هذا قد حدث اليوم فقط ؟!

أيمكن أن يكون يومه هذا .. هو نفس اليوم الذى أشرق فيه أول شعاع عليه .. فى « جاب » .. الشعاع الذى ملأ نفسه بالأمل ، والتفاؤل ؟!

أهذا اليوم هو الذى وقف فيه ليرقب من نافذة الفندق ، أول منظر تقع عليه

عيناه فى « جاب » .. منظر الجبال الرائعة .. بسفوحها الخضر ، وقممها الناصعة ؟!

أيمكن أن يكون صباح اليوم .. هو نفس الصباح الذى لم يطق من فرط ما به من سعادة وفرح .. أن يصبر فيه حتى تستيقظ البلدة .. فانطلق كما ينطلق الأطفال فى يوم عيد .. ليطرق بابها فى طيش وخفة .. حتى يفاجئها .. بزيارته ، وحتى يكون أول شىء تقع عليه عيناها فى هذا الصباح ؟!

غير معقول أن يكون ذلك قد حدث هذا الصباح .

إنه يبدو كأنه قد حدث منذ شهور أو سنين .

إن حوادث كثيرة قد حدثت بحيث لا يمكن أن يتسع لها يوم واحد .

واستمرت الحوادث تترى على ذاكرته .

واستمرت الطائرة تشق الفضاء ، وأخيراً .. أغفى .

ومرت به رحلة الجو .. بين إغفاءة .. يقظى بأحلام النوم ، ونوم مثقل بأحلام اليقظة ، وهو فى نومه ويقظته .. لا تفارقه اللوعة ، ولا ترحمه الفجيعة واليأس .

وأخيراً هبطت الطائرة فى مطار القاهرة .

وغادر المطار دون أن يحس به أحد .. أو يميزه مخلوق .

وبعد برهة كان يطرق باب البيت ، ويقف أمام « أمه » التى شهقت مشدوهة ، وأقبلت عليه تضمه ودموعها تنساب على خديه .

وتضاحك وهو يربت ظهرها ، وينبئها أنه قد عاد فجأة لأن الطبيب الذى كان سيعالجه قد أبرق إليه فى جنيف ليخبره بأن ظروفاً قاهرة قد اضطرته إلى السفر إلى أمريكا .

وحمدت الله أمه على عودته ، وسألته ألا يعاود السفر مرة أخرى .. حتى يأخذها الله إلى جواره ، لأنها لم تعد تحتمل وجيعة فرقته بعد هذا .

ولم يمكث مدحت فى البيت إلا بقدر ما استحم وأراح جسده المرهق

المكدود ، وقبيل الظهر كان يصعد درج المستشفى متجهاً إلى مكتبه .

وقبل أن يستقر على مقعده وراء المكتب .. اندفع الباب وبدا « جاد الله » منه وعلى وجهه علامات الدهشة والذهول ، وهو يهتف متسائلا :

ـــ ما هذا ؟! ما الذى جاء بك ؟! وكيف حضرت ؟! ولماذا لم تكتب لى ؟! ماذا حدث ؟!

واندفع سيل الأسئلة يتدفق من شفتيه ، ومدحت ينظر إليه فى وجوم .

وأحس « جاد الله » خيفة من شرود مدحت وصمته ، وأحس من ابتسامته الباهتة التى توشك أن تفر من شفتيه .. أن حدثاً لا بد أن يكون قد وقع .

هذه العودة المفاجئة ، والوجه الذابل ، والسيماء الحزينة . لا يمكن أن يكون وراءها خير .

وتوقف سيل الأسئلة ، وخبا حماس جاد الله ، واقترب من مدحت فى خطوات بطيئة ، وتساءل فى صوت خافت :

ـــ ما بالك .. ماذا بك ؟

ورفع مدحت كتفيه فى شىء من الاستخفاف ، وأجاب وهو يحاول إعادة الابتسامة إلى شفتيه :

ـــ لا شىء .. لقد عدت .

ـــ حمداً لله على السلامة .

ثم صمت لحظة ، وأردف معيداً تساؤله :

ـــ ولكن .. لماذا عدت ؟

وهبط مدحت مسترخياً على مقعده ، وعاد يرفع كتفيه بنفس الحركة المستخفة وقال :

ـــ عدت .. لأنى أردت أن أعود .

ـــ ولماذا أردت أن تعود ؟

ولم يجب مدحت ، وبدا من خلجات وجهه كأنه يقاوم انفعالا يوشك أن

يفيض به ، ويغلب هدوءه ، ويقهر مقاومته .

وانحنى جاد الله أمامه فوق المكتب ، وتساءل فى شيء من السخرية :

— لماذا أردت أن تعود ؟. إنك ذهبت لكى تذهب .. لا لكى تعود .. أم تراك قد ضللت الطريق إلى جاب ؟

واستمر مدحت يقاوم انفعاله ، وهو ينظر فى شرود إلى جاد الله ، وأحس جاد الله أن شيئاً يضطرم فى باطنه .. فازدادت انحناءته .. وتساءل فى لهجة أكثر جدة .. وأشد حناناً :

— ما لك يا مدحت ؟! لماذا لا تنطق ؟

و لم يجب مدحت ، وعاد جاد الله يتساءل فيما يشبه الهمس :

— هل رأيتها ؟

وهز مدحت رأسه فى شرود بالنفى ، واستمر جاد الله فى تساؤله الخفيض :

— لماذا ؟! أكانت قد سافرت ؟

وعاد مدحت يهز رأسه بطريقته الذاهلة .

وازدادت دهشة جاد الله ، وأخذ يلح فى تساؤله :

— إذن لماذا لم ترها ! أرفضت لقاءك ؟

وانطلقت نفخة ممرورة من أنف مدحت ، واستمر صمته الواجم الحزين .

وأخذ جاد الله يرقب ملامحه ، وقسمات وجهه .

ثم طاف بذهنه خاطر جعله يبدو كأنه قد وجد الإجابة ، وانحنى على مدحت وهو يتساءل فى حذر :

— ألم تجدها ! أعنى وجدتها خدعة ؟

ورفع مدحت عينيه ، وأطلق زفرة حارة ، ثم خرجت الكلمات من شفتيه تقطر أسى ، وهمس كأنما يحدث نفسه .

— بل وجدتها ، حقيقة ، ولكنها حقيقة زائلة .

— ماذا تعنى ؟

ـــ وجدتها ، ماتت .

ولم تستطع مقاومة مدحت أن تحجب طبقة لامعة من أن تكسو مقلتيه ، وهو يحدق فى وجه جاد الله .

وهتف جاد الله كالملسوع :

ـــ ماتت ! غير معقول !

وأطرق مدحت ، وأخفى جبينه وعينيه فى كفه ، وبدأ رأسه يهتز .

وذهب جاد الله فأغلق الباب . وجذب مقعداً وجلس بجوار الجسد القوى ، والملامح الصارمة ، التى رآها لأول مرة تنتحب فى ضعف وخور .

وهز جاد الله رأسه كالمذهول ، وهو يحدث نفسه :

ـــ عجيب ! غير معقول .. غير ممكن .

وطرق الباب ، وربت جاد الله على كتف مدحت المهتز قائلا :

ـــ مدحت ، لا فائدة من هذا ، لقد كنت دائما تكره البكاء ، والضعف .. تجلد .

وعاد الباب يطرق ، ونهض جاد الله ليفتح .

وجفف مدحت عينيه بكفه ، وضغط على جبينه فى شيء من العنف .

وبدا أحد الكتبة بالباب ، وتسلم منه جاد الله خطاباً ، ثم أغلق الباب وعاد إلى مدحت .. وعيناه تجرى بين سطور الخطاب بطريقة خاطفة .

وهز كتفيه ثم قلب شفته السفلى .. وقذف بالرسالة على المكتب وهو يقول :

ـــ أمر تكليف من القوات المسلحة .

وأطلق مدحت زفرة .. ثم أخرج منديله وجفف به عينيه وأنفه ، وتساءل وهو ينظر إلى الخطاب الملقى على المكتب :

ـــ لمن ؟

ـــ لنا جميعاً .. أنا وأنت ورشاد ومحمود .

ـــ وماذا سنفعل ؟

ـــ نقدم أنفسنا لرئاسة الخدمات الطبية .

ـــ وبعد ؟!

ـــ أظنهم سيحوّلوننا إلى مستشفى الجمعية الخيرية بالعجوزة ، فقد استولى عليه الجيش .

وهز مدحت رأسه فى ضيق وملل ، وتساءل :

ـــ لماذا ؟ لِمَ كل هذه اللخبطة ؟

ـــ تنفيذاً لأوامر التعبئة .

وأطلق مدحت زفرته .. وعاد يتساءل فى حدة :

ـــ تعبئة لأجل من ؟! ألم تنته المسألة ؟! أليس مفروضاً أن يجتمعوا بعد بضعة أيام ؟

ـــ أجل .

ـــ إذن لماذا كل هذه الاستثارة ؟! لماذا لا نهدأ .. ونترك أمورنا تجرى فى هدوء ؟! لماذا يستولى الجيش على مستشفى كمستشفى العجوزة ، والبلد فى حاجة إلى سرير فى مستشفى ؟

وأزاح مدحت الخطاب بطرف أصابعه فى ضيق وقال :

ـــ لن أذهب .

ـــ غير معقول .

ـــ لماذا ؟! المفروض أنى مازلت مسافراً .. إن إجازتى لم تنته بعد .

ـــ لقد ألغوا جميع الإجازات .

ـــ وكيف كان يمكنهم أن يلغوا إجازتى ، وأنا فى « جاب » !

ـــ الذى حدث أنك الآن فى القاهرة ، ولست فى « جاب » ..

ـــ إن لدينا مرضانا وعملياتنا .. ليس لدينا وقت نضيعه .

وربت جاد الله ذراع مدحت ، وقال فى رفق :

ـــ على أية حال .. يجب أن تعود إلى البيت لكى تستريح ، إن أعصابك لاشك

مرهقة ، وأنت فى حاجة فعلا إلى الراحة .

ورد مدحت بعصبية وحدة :

ـ إن الراحة تقتلنى .. لقد عدت إلى القاهرة .. لأنى أريد أن أهرب من الراحة والتفكير الذى يصحب الراحة .. أريد أن أفعل شيئاً

ـ انتهينا .. إذن اذهب معنا إلى الجيش .

ـ لن أجد ما أفعله هناك .

ـ من يدريك !!

ـ ماذا يمكن أن أفعل فى الجيش ؟

ـ تفعل ما يفعله أطباء الجيش .

ـ أحرر تذاكر لصرف الدواء .

ـ ألا يفعل الأطباء فى الجيش سوى هذا ؟

ـ فى وقت السلم .. ليس لديهم أكثر من هذا .

ولم يملك جاد الله أن يكتم ضحكته قائلا :

ـ إذن ادع الله أن يدخلنا حرباً .. حتى تجد عملا يريح أعصابك .

ومد جاد الله يده فجذب مدحت من ذراعه قائلا :

ـ هيا بنا .. وكف عن هذا اليأس والانهيار .. قل لى ماذا حدث ؟!

(٤٦)

جريح !..

مرت بضعة أيام بعد صدور أمر التكليف حتى استقر مدحت وجاد الله فى مستشفى العجوزة .. وفى مساء ٢٩ أكتوبر جلس مدحت فى مكتبه بحجرة الأطباء وقد بدا عليه الوجوم الطبيعي الذى كان يلازمه ، والحزن الدائم الذى كان يغرق فيه .

وهتف جاد الله ضاحكا وهو يدخل الحجرة :

— وحدوه .

و لم يجب مدحت ومد ساقيه واسترخى فى مقعده بعد أن فك أزرار سترته الكاكية التى استقر النسر على كتفيها .

واستمر جاد الله يثرثر وهو يرتكز على حرف المكتب وقد ألقى الكاب على طول ذراعه فاستقر على ظهر الدولاب .

قال جاد الله متسائلا فى سخرية :

— ماذا يحزنك ! ألم تجر اليوم أربع عمليات أعور ؟!

ونفخ مدحت من أنفه نفخته القصيرة الساخرة وتساءل :

— أعور !!

— شوية ؟! الحق عليك ، لماذا لم تنزع معه نصف المصارين ، والكلى ، والمرارة ، حتى تشعر أنك فعلت شيئاً .

و لم يجب مدحت وتثاءب فى ملل ، ومضت فترة صمت قبل أن يقول فى غيظ :

— وإلى متى تنوى أن تستمر هذه الطوارىء ؟

— احمد الله على أنك تبيت نصف الأسبوع فى البيت ، إنها ليست طوارئ ، إنها تكاد تكون نوبتجية .

— ومالى أنا والنوبيجية ؟!

— إنك رجل عسكرى .. أنسيت أنك « صاغ » ، على سن ورمح . إن الجيش فى حاجة إلى خدماتك .

— لا أظنه يحتاج إليها كثيراً .. فلديهم كثيرون يستطيعون عمل الأعور .

— إذا دخلنا فى حرب ..

وقاطعه مدحت صائحاً فى حنق :

— حرب .. حرب .. فلقتمونا .. أين هى هذه الحرب ؟! لا أكاد أرى أحداً إلا وقد ارتدى البدلة الكاكى .. حتى الوزراء .. قد ألبسوهم « الكاكى » وحملوهم السلاح .. وصوّروهم يطلقون النيران . لِمَ كل هذه الهيصة ؟!

— رداً على هيصتهم .. كل يوم يحركون سفناً ويحشدون قوات .

وهز مدحت رأسه ورد فى غيظ :

— تهويش فى تهويش .

وجذب ساقيه ثم نهض وهو يتمطى قائلا :

— سأذهب لأنام .. لا تدع أحداً يقلقنى .. لقد مررت على مرضاى جميعاً .. ولا أحد منهم يحتاج لشىء .. إلا البكباشى الذى رقد فى الحجرة رقم ٩ .. إنه دائم الصراخ .. يتوهم أنه مصاب بسرطان فى الزور .

— ولماذا لا تقطع زوره ؟!

— لأنه ليس عنده سرطان .

— اقطعه من باب الشبرقة .. أنظن أن كل ما تقطعه من أزوار الناس كان حقاً به سرطان ؟

ونظر إليه مدحت فى غيظ .. ثم قال مؤكداً :

— المهم .. لا تدع أحداً يوقظنى .

— حتى ولو قامت الحرب ؟!

— لن تقوم . غداً سيجتمعون فى جنيف ، وينهون المسألة .

واتجه مدحت إلى حجرة النوم .. وفى دقائق خلع ثيابه واستلقى على الفراش .

وكعادته كلما خلا إلى نفسه ، انطلق به الذهن إلى « جاب » ليطوف بربوعها فى حزن ومرارة .. حيث المحطة الصغيرة ذات السنديانة .. والسفوح الخضر .. والقمم الناصعة .. والقبر الأبيض الذى ضم الأمنية الراحلة .. وقد جثت أمامه الفتاة الرقيقة ذات الإيشارب .

والدقات الحزينة التى انبعثت .. والقطار يوشك أن يتحرك .. دقات الوداع .. التى كانت تحن لها .. وترجوه أن يشاركها فى الإنصات إليها .

وأخيراً .. راح فى إغفاءة .

و لم يدر كم طالت .. وإنما أحس بدقات ملحة على باب الحجرة .. وصوت يهتف به :

— دكتور مدحت .

وفتح عينيه ثم ضغط على زر « الأباجورة » .. ونظر إلى الساعة الملقاة على « الكومودينو » فوجدها ما زالت الرابعة .

وأحس أن الطارق قد حرمه من غفوة .. كان فى أشد الحاجة إليها ، فصاح به حانقاً :

— من ؟

— أنا محمود .

— محمود مين ؟

— التمورجى .

— اذهب من هنا .. لعنة الله عليك .. لو عدت لإيقاظى فسأكسر لك رقبتك .. لقد قلت لكم لا أريد أن يوقظنى أحد .. حتى ...

وقبل أن يكمل حديثه .. دفع الباب .. وبدا منه جاد الله وهو يصيح :

ـــ حتى ولو قامت الحرب ؟

وأحس مدحت أن سيماء جاد الله تحمل شيئاً ، فنهض متسائلا :

ـــ ماذا حدث ؟

ـــ لقد وقعت الحرب .

ـــ كيف ؟

ـــ هجم اليهود .

ـــ يهود ؟!! أتسمى هجومهم حرباً ؟!

ـــ اسمع يا مدحت ليس هناك وقت أن نختار لهجومهم أسماء. إن المستشفى يعج بالجرحى .

ـــ غير معقول ؟

ـــ الذى حدث !

ـــ كيف ؟ ومتى ؟!

ـــ وصلوا بالطائرة منذ ساعة . لقد بدأ هجوم اليهود من الساعة الحادية عشرة .. نفس الساعة التى كنت تسخر منى فيها .

ـــ وما زلت أسخر .. وما زلت أقول إن هجوم اليهود ليس حرباً .. فالذى أعرفه من الضباط أنهم لا يجرءون على الهجوم علينا .. لأن لدينا تفوّقاً فى الجو ، وفى المدرعات .

ـــ اسمع يا مدحت إنهم ينطلقون الآن فى الطريق الجنوبى صوب القتال .

ـــ غير معقول .

ـــ لا تقل غير معقول .. لأنه حدث فعلا ، هذه أنباء المرافقين للجرحى . لقد هجم اليهود فى الكونتيلا . وانحدروا فى الطريق الخالى ، وهم ينزلون قوات بالمظلات عند ممر « ميتلا » .

ـــ ولكن كيف يجرءون على ذلك ؟! ألا يخشون من عزل قواتهم فى الجنوب والقضاء عليها ؟!

وأتم مدحت ارتداء ثيابه وخرج متعجلا بجوار جاد الله الذى أجاب قائلا :

ــ هذا هو ما يريب فى الامر كله .

ــ كيف !؟

ــ لا بد أن يكون وراءهم سند .

ــ مثل ؟!

ــ الإنجليز والفرنسيون . غير معقول أن يقوم اليهود بهذا العمل الجرىء .. فى هذه الظروف من تلقاء أنفسهم .. إنهم مخلب قط .

ــ وماذا يستفيد الإنجليز من حركتهم هذه ؟

ــ أى شىء .. ولو مجرد إثارة اضطراب وقلقلة .. يضعف مقاومتنا لهم .. ويلهينا عن كفاحهم .. وتجعلنا أميل إلى أرضائهم .. وتجعلهم أقدر على كلفتنا .

ــ على أية حال ، سنقضى على اليهود قبل أن ينالوا مرامهم ، فأغلب الظن أننا قد تعوّدنا على هذه الألاعيب الإسرائيلية .

واتجه مدحت إلى حجرة العمليات . وهو يحس بالضجيج والصخب من حوله ، وقد بدا المستشفى أشبه بالسوق .. وقد اختلطت فى ردهاته الأنات بالصرخات .. وبدا كل إنسان يتحرك فى عصبية وعجلة .. وكل إنسان يطلب شيئاً أو يرجو شيئاً .. ولا أحد يعرف بالضبط ماذا يفعل .. ولا لمن يفعل .

وعلى طول عهد مدحت بالجراحة .. وعلى فرط تعوّده منظر الدماء والجراحات .. فقد أحس بدوار وهو يرى منظر الأجساد المرصوصة .. بوجوهها المعفرة وجلدها الممزق .. وأطرافها المبتورة .

ونفض مدحت عن رأسه دواره .. وأقبل على عمله .. بطريقته الجبارة ، وقدرته الخارقة ، وجلده العجيب .

ومضت به الساعات الطويلة فى عمل متواصل .. حتى أحس أن قدميه لم تعودا تقويان على حمله .. وأن يديه توشكان على التصلب .. وطلب مقعداً ،

ليجلس عليه فى غرفة العمليات كى يواصل إخراج الشظايا ورأب الجروح .. ورم الأشلاء .

وعندما غادر حجرة العمليات ، كانت الساعة قد بلغت العاشرة صباحاً ، وكان العرق يتصبب من جبينه ، وعلامات الإعياء قد بدت على وجهه .

وفى الردهة ، التقى بجاد الله .. وقد كسا الجد وجهه وبدا مهموماً محزوناً .

وحاول جاد الله أن يغلب طبيعته المرحة على الجو المشحوب بالجروح والأنات والكد والإرهاق ، فقال متضاحكا :

ــ مبسوط .. أظن ليس مثل هذا شغل !

واتجه الاثنان إلى حجرة الاستراحة ، وقال جاد الله :

ــ أقرأت الصحف ؟.

وهز مدحت رأسه وأجاب :

ــ لم أترك غرفة العمليات من الساعة الرابعة حتى الآن . ماذا بها ؟

ــ كل الأنباء التى رويتها لك .. وزاد عليها ، أن قواتنا الجوية .. دقتهم بعنف ، وأن هجومهم على « أبو عجيلة » قد صد بعد أن كبدهم خسائر فادحة .

ومد مدحت يده فتناول إحدى الصحف الملقاة على المنضدة وقرأ العناوين الرئيسية ، ثم ألقاه جانباً واسترخى فى إعياء .

وقال جاد الله :

ــ ألا تريد أن تتناول الإفطار .؟

وهز مدحت رأسه بالنفى ، ثم قال :

ــ لا أريد إلا أن أستلقى على ظهرى .

ــ ولكن لا بد أن تأكل .. سآمر « بيومى » أن يعد لنا إفطاراً .

وقبل أن يدق جاد الله الجرس أقبل ممرض يطلب الدكتور مدحت .. ونظر إليه جاد الله قائلا :

ـــ قل لهم إنه عاجز عن الحركة ، وإنه يريد أن يستريح .

ولكن مدحت قال للمرض :

ـــ لا تقل لهم شيئاً . انتظر .. سآتى معك .. إن الراحة تستطيع أن تنتظر .. ولكن الموت الذى يقف بباب غرفة العمليات لا ينتظر أبداً .

ثم وجه الحديث إلى جاد الله :

ـــ لقد أجريت عمليات لعشرة جرحى .. ثلاثة منهم قد يموتون .. ولكن السبعة قد أبعدت عنهم موتهم مؤكداً .

واتجه مدحت إلى غرف الجرحى .

وقبل أن يجتاز الباب أبصر جثة الجريح الذى استدعوه من أجله . وقد رقد على النقالة وغطى بملاءة بيضاء عليها بعض بقع الدماء .. وأبصر وجه الجريح ، وجهاً وسيما ، لم تشوّهه حروق .. ولم تمزقه شظايا .

ورفع إليه الوجه عينين مجهدتين بدت منهما نظرة صداقة وألفة . وابتسمت الشفتان الجافتان ابتسامة باهتة .. وسمع مدحت من فم الجريح تحية خافتة :

ـــ صباح الخير .

وأجاب مدحت نظرة الجريح بابتسامة رقيقة لم يألفها منه مرضاه .. ورد عليه تحيته فى وداد قائلا :

ـــ صباح الخير .

وأحس مدحت أن الوجه الوسيم مألوف لذاكرته .. ولكنه لم يجد هناك من وقته أو من فراغ ذهنه ما يساعده على التذكر .

واستقرت النقالة وسط الغرفة .. وعاد الجريح يرفع عينيه الذابلتين ويهمس بصوته الخافت :

ـــ أنا أعرفك يا دكتور مدحت .. أعرفك من نادى مصر الجديدة .

ـــ أهلا وسهلا .. أنا أيضاً أحسست أننى قد رأيتك من قبل .

ـــ أنا اليوزباشى عصام الشافعى من سلاح الفرسان .. لقد كنت فى القسيمة

عندما هاجمنا اليهود .

ورفع مدحت الملاءة البيضاء الملوثة بالدماء .. وبدت ساق عصام ، وقد لفت بكوم من القطن والشاش .. وقد مزّق عنها « البنطلون الكاكى » .

وبدأ مدحت فى فك الأربطة .. وعصام يعض على نواجذه ويزدرد ريقه .. ويقول فى محاولة للتجلد :

ــ أظنها شظية مورتار . لقد أحطنا بالداورية اليهودية ، وأوشكنا نفتك بها .. عندما أحسست بانفجار قريب .. فاستلقيت على وجهى .. وظننت نفسى تجنبت الشظايا . ولكنى أحسست بشىء كالسكين يمزق ساق .. ووجدت الدم ينزف .. لقد نزف كثيراً .. حتى كدت أفقد وعيى .

وكشف مدحت عن جرح عميق طويل .. وأخذ عصام يبلل شفتيه ، وهو يقول متسائلا فى نبراته الضعيفة :

ــ أظن الشظية ما زالت موجودة ؟

وهز مدحت رأسه ، وهو يقول :

ــ سنرى .

وعاد عصام يتساءل فى شرود :

ــ هل .. هل .. هل ستعطينى بنجاً ؟

ــ طبعاً

ثم أردف مدحت ضاحكا :

ــ إنى لست جزّاراً .

وابتسم عصام ابتسامته الباهتة .. وهو يقول :

ــ إنهم يدعونك كذلك .. لقد عرفت هذا من صبرى محمود .. إنه تلميذك وهو صديقى جداً .

وأجاب مدحت :

ــ لقد رأيته مرة بالبذلة « الكاكى » .. لقد تطوّع فى الحرس الوطنى ..

وترك الطب .

وأعاد مدحت الغطاء على الجريح .. والتفت إلى طبيب البنج متسائلا :

— جاهز ؟!

— أجل .

وقبل أن يقترب الطبيب بالحقنة المخدرة .. مد عصام ذراعه ودفع يده فى جيب قميصه الكاكى .. وأخرج محفظة صغيرة .. وقال وهو يخرج منها بضع وريقات :

— لى عندك رجاء يا دكتور مدحت .. لو استطعت أن تبلغ النبأ إلى أمى بطريقة سهلة مخففة تكون قد أسديت إلىّ جميلا لن أنساه .. إنى أخشى أن تبلغها بطريقة مفاجئة مزعجة ، والأمر كما ترى ليس به ما يزعج .. وهى مصابة بالذبحة .. وقد يقضى عليها .

وصمت برهة ثم قال :

— أنت تعرف الأمهات يا دكتور .

وأطرق مدحت .. وتذكر أمه وهى تضمه باكية عندما عاد .. تسأله ألا يتركها قبل أن يأخذها الله إلى جواره .

وقال مدحت فى صوت خافت :

— أعرفهن جيداً .

— ليس لى فى الحياة غيرها .. وغير خطيبتى ، وخطيبتى لحسن الحظ .. لا توجد الآن فى مصر .. لأنها تقيم فى « جبال الألب » بفرنسا .. ولا أظنها ستعود إلا بعد أن أكون قد استطعت السير .

ومد عصام يده ببطاقة وصورتين .. وأردف قائلا :

— هذا هو عنوانى .. إنه لا يبعد كثيراً عن منزلك .. فى نفس المنطقة وراء النادى .. وهذه صورة أمى ، وخطيبتى إنهما سبب حرصى على الحياة .

وتناول مدحت الأوراق من عصام .. ولم يحس فى نفسه رغبة للتطلع إلى

الأوراق والصور .. ولكنه ألقى عليها نظرة حتى يرضى الجريح المتطلع إليه فى رجاء .

وكادت صرخة دهشة تفلت من شفتيه عندما أبصر صورة الخطيبة .. وأمسك بها كالمشدوه ، فاغراً فاه ، جاحظاً عينيه .. وقبل أن ينطق حرفاً كانت إبرة المخدر قد دفعت فى ذراع عصام .. وفى ثوان كان عصام قد أطبق عينيه وسقطت ذراعه إلى جانبه .

وأحس مدحت بالممرضة وطبيب البنج يرقبان دهشته .. وحملقته فى الصورة .. فدسها فى صمت فى جيب المريلة واتجه إلى غرفة العمليات .

ولم تغادر الصورة مخيلته .. وهو يجرى مبضعه فى ساق الجريح .. كانت نفس الصورة الجانبية التى صوّرتها « منى » أول مرة عند مصوّر « جاب » .. والتى أرسلتها نادية لمدحت على أنها صورتها .. عندما سألها أن تكف عن إرسال صور الطفولة التى تعوّدت إرسالها .

ولم يستطع مدحت أن يوقف تفكيره المذهول .

إنها هى « نادية » بعينيها .

« نادية » التى كتبت إليه كل تلك الرسائل .

« نادية » .. التى أرسلت إليه أول مرة لتقول إن حياتها معلقة بردّه .

هل كانت طوال ذلك الوقت ، خطيبة هذا الجريح الذى يعتبرها السبب الأول فى حرصه على حياته ؟!

لماذا لم تخبره عنه ؟!

ترى أيهما المخدوع .. هو .. أم الخطيب ؟!

غير معقول أن تكون قد خدعته .

وغير معقول أيضاً أن تكون قد خدعت الآخر .. لأنه لا يتصوّر أن مثلها يمكن أن يعبث أو يخدع .

ولكن .. ما فائدة كل هذا ؟!

ما قيمة أن يعرف من يكون المخدوع فيهما ؟!
إذ كانت هى قد تركتهما وولت .
ولكن هذا الجريح الراقد .. لا يعرف أنها ماتت .
أجل .. إن أنباء موتها لم تبلغه بعد
وخرج مدحت من حجرة العمليات .. يسير فى الردهة ذاهلا مشدوهاً .. ويده تتحسس الصورة فى جيبه .
وعندما وصل إلى حجرته .. أخرج الصورة مرة أخرى ليتأكد من أن بصره لم يخدعه .. وأن الصورة الراسخة فى ذهنه لم تفرض ملامحها على الصورة التى سلمها إليه عصام .
وكانت الصورة هى . هى .. الشعر المعقوص .. والأنف الدقيق .. والوجه الساحر .
وأمسك جبينه بأصبعه .. وضغط عليه كأنما يحاول منعه من الانفجار . .
وأقبل عليه جاد الله ، فروّع من منظره ، وسأله فى فزع :
ـــ ماذا بك ؟
ـــ لا شيء :
ـــ إنك مجهد جداً .. لا بد أن تستريح .
ـــ لست مجهداً .
ـــ ماذا بك إذن ؟
ومد مدحت يده بالصورة .. قائلا :
ـــ إنى أكاد أجن .
ودهش جاد الله من الصورة وتساءل :
ـــ ما هذه ؟
ـــ صورة نادية .
ـــ ما الذى أحضرها ؟

ــ وجدتها فى جيب الجريح الذى ذهبت لأنزع الشظية من ساقه .

ــ فى جيب الجريح ؟

ــ أجل .. إنه يعرفنى من النادى .. وقد سلمها لى هى وصورة أمه .. . وسألنى أن أبلغ نبأ إصابته لأمه بطريقة مخففة .. خشية أن يصدمها النبأ .

ــ وما دخل صورة نادية بالموضوع ؟

ــ إنها خطيبته .

ــ خطيبة من ؟

ــ خطيبة الجريح .. يوزباشى بسلاح الفرسان .

ــ غير معقول !!

ــ لقد قال هو هذا .

ــ ربما كان يهذى .. ألم يكن محموماً ؟

ــ لا .. لقد كان فى وعيه .

ــ ولو .. هل تستكثر على جريح فى معركة أن يهذى ، حتى ولو كان فى وعيه !

ــ ولكن كيف وصلت إليه الصورة ؟

ــ من أى طريق .. من صديقة لها .. أو من إحدى قريباتها .. هل تظن صورتها قد حرّمت إلا عليك ؟

وهز مدحت رأسه فى تشكك .. قائلا فى يأس ومرارة :

ــ لا .. لا .. إن المسألة ..

وقبل أن يتم قوله .. دفع الباب ، ودخل أحد الممرضين يحمل رسالة .. ومد بها يده إلى الدكتور مدحت .

ونظر إليه مدحت فى ذهول .

كان نفس الظرف اللبنى ذى الخطوط الزرق .. الذى تعوّد أن يتسلمه من « نادية » .

وقرأ العنوان بنظرته الذاهلة .

فوجد نفس الخط الذى تعوّد أن يقرأه .

وهز جاد الله رأسه متسائلا :

— ما بك ؟

— رسالة من « جاب » .

— وماذا فى ذلك ؟! لا شك أنها من أختها « منى » .. تشكرك على زيارتك .

وأطرق مدحت هامساً فى لهجة خذلان :

— أجل .. أجل .. كان يجب أن أتوقع ذلك .. ولكنى ظننتها رسالة منها هى .. إن إعصابى لم تعد تحتمل . إنى فى حالة غير طبيعية .

وأمسك بالرسالة بعد قراءة عنوانها .. وعاد يقول فى صوت خافت متشكك :

— ولكنه .. أعنى أنه نفس الخط ؟

— ولِمَ لا ؟! أليستا شقيقتين .. إن كل عائلتنا خطوطها متشابهة .

وصمت جاد الله ثم أردف متضاحكا :

— عدا أمى طبعاً .. لأنها لا تعرف الكتابة .

ولم يضحك مدحت ، فقد كان ينظر إلى الرسالة مشدوهاً ، وقال جاد الله :

— لماذا تنظر إليها كأن بها عفريتاً !. لماذا لا تفضها ؟

وأمسك جاد الله بالرسالة .. وهمّ أن يفضها .. ولكن مدحت أطبق عليها .

ونظر إليه جاد الله فى دهشة قائلا :

— إن بك فعلا شيئاً غير طبيعى ، فضها يا أخى واسترح .

وأمسك مدحت بالظرف . فقطع حرفه .. ثم أخرج الرسالة الزرقاء الرقيقة من داخله .. وهز رأسه وهو يلمح خطها .. وهمس قائلا :

— نفس الخط .

ثم قرأ أول جملة « مدحت العزيز » .

وأحس برجفة تسرى فى بدنه .

نفس النداء الذى كانت تبدأ به « نادية » رسالتها .

وقبل أن تفحص عيناه ما تلاها من كلمات ، قلب الرسالة وقرأ الإمضاء .

وهتف مشدوهاً :

— إنها من نادية .

وأجاب جاد الله وهو يهز رأسه :

— ربما أرسلتها لك قبل موتها .

وقرأ مدحت التاريخ . فإذا به ٢٦ أكتوبر .. نفس اليوم الذى غادر فيه « جاب » .

وفى ذهول بدأ مدحت يقرأ الرسالة !

(٤٧)

فى موضعها

مدحت العزيز ... آجل .. أنا « نادية » يا مدحت .

أعرف أنى أذهلك بقولى .. كما لا شك قد أذهلك خطى على الظرف وتوقيعى فى نهاية الرسالة .

أنا نادية .

« نادية » الأصيلة .

« نادية » التى كتبت إليك أول مرة تتلهف منك على كلمة ترد غربتها وتؤنس وحشتها .

« نادية » التى أحبتك .

أقولها بلا تردد ، ولا حياء .

أقولها وأنا أحس بمتعة فى ترديدها .

أقولها بلا خوف من لوم .. أو خشية من تأنيب .

أنا « نادية » التى أحبتك بكل جارحة ، وفى كل لحظة .

فى يقظتها .. وفى أحلامها .

فى أحلك ساعات يأسها ، وفى أبهى لحظات آمالها .

« نادية » التى أحبتك .. بأقصى ما يملك الإنسان من قدرة على الحب ، وأشد ما يختلج بين جوانحه من أحاسيس .

« نادية » التى ركزت فى شخصك كل أمانيها ، وأحلامها .

منذ أن بدأت تتمنى ، وتحلم ، وترجو .

« نادية » التى وضعتك دعامة .. لقصور أوهامها . وشيدت على حبها

لك .. كل ما يأمل الإنسان فى حياته .. من سعادة ، ونعيم

« نادية » .. التى كانت ترقبك ، وهى قائمة فى مقعدها فى النادى .. فى صمت حالم وسكون ممتع .

« نادية » .. التى مارس فيك قلبها .. أول تجارب حبه ، وآخرها ، والتى أطلق قلبها من أجلك .. أول خفقة ، وظل لا يخفق إلا لك ، ولا يهتف إلا باسمك ، ولا يهفو لغير طيفك .

أنا « نادية » الحقيقية .

أكتب إليك رسالتى الأخيرة .

والتى كان مفروضاً علىّ ألا أكتبها .. لأنى بت فى نظرك ميتة ، والموتى .. لا يتحدثون ، ولا يكتبون .

أكتبها إليك .

لم تدفعنى إليها لهفة عليك .. رغم وجودها .

ولا أمل فى عودتك ، رغم تمنيه .

وإنما .. أكتب .

لأنصف نفسى ؛ ولأضعها فى موضعها الحقيقى عندك ، ولأمنحها منك الإحساس الحقيقى الذى تستحقه .

لست أدرى من أين أبدأ !

فلا أظن من السهل علىّ فى جلستى هذه ، أن أركز ذهنى ، وأهدئ مشاعرى وأرتب أفكارى .. بحيث أشرح لك كل ما أود شرحه ، وأبرره لك التبرير الصادق الذى يقنعك به ، وينصفنى منه .

أتدرى كيف أكتب إليك ؟!

هل تعرف شاطئ البحيرة ؟!

تعرفه بالطبع ، وتعرف البيت الخرب ، والكوخ المطل على الهاوية .. تعرف كل ذلك .. معرفة الرائى لا معرفة المستمع .

وتعرف أيضاً .. ذلك المقعد الحجرى .. القابع وراء الكوخ ، والـذى جلست عليه بجوارى .

أجل بجوارى أنا .

أنا « نادية » ، ولست « منى » .

جلست بجوارى .. وفى الحقيقة .. لا فى دعوة واهمة .

من يصدق هذا ؟!

من يصدق أنى جلست وإياك فعلا على هذا المقعد الحجرى ؟!

وأننا حدقنا سوياً .. فى هذا الفراغ الهائل .. الذى تبدو فيه المرئيات كأنها الدمى ، والتى تصطف فى أسفله القبور كأنها رقعة شطرنج .

ولكن لماذا أخلط فى كتابتى ؟!

لماذا أبدو كالمجموعة الهاذية ؟!

لماذا أتحدث إليك كأنك تعرف كل شىء ، وكأنك قد اقتنعت ببساطة .. أن التى صحبتك فى جولتك البائسة بالجبل والتى ضممتها إلى صدرك فوق المقبرة .. هى « نادية » ؟!

لماذا لا أتمهل وأشرح لك جلية الأمر فى سكينة وهدوء !!

ترى من أين أبدأ ؟!

من بعيد .. بعيد .

مذ كنت فى القاهرة .

عندما قرر أبى السفر إلى « جاب » ، وحضرت مع « منى » إلى النادى .. لأودعك .. أودعك من بعيد ، وداعاً كما وصفته للعجوز « بيتر » .. بلا معالم ، ولا تفاصيل ولا ذكريات .

وعدنا إلى البيت لنتم حزم الحقائب ، وتناول الغداء .

وفى تلك الظهيرة .. وقع الحادث المشئوم .. حادث الحريق ، والذى كانت نتيجته .. تشويه عنقى ، وموت أبى .

هل تعرف .. أننى فى الليلة السابقة الحريق كنت أجلس مع « منى » .. واتهمتنى بالعجز ، والسلبية .. وكادت تطلبك لكى تعودنى .. مدعية أنه قد أصابتنى نوبة أعور !

وأنى تمنيت فى تلك الليلة لو أصبت فعلا « بالأعور » لكى تمنحنى العملية فرصة رؤيتك والحديث إليك .

هل تعلم أننى فى اليوم التالى كنت أرقد فى إحدى حجرات المستشفى .. بعد إصابتى فى الحريق، وكنت أنت تقف أمامى فى نفس الحجرة !! ومع ذلك لم أتمن شيئا فى حياتى .. كما تمنيت أن يبعدك الله عنى .. واستجاب الله دعائى .. ولم يطل بقاؤك أكثر من ثوان ، ثم استدعوك لتعود أحد مرضاك وتركتنى لمساعدك .

وتنفست الصعداء يومذاك .. وأنا أرقد أمامك والأربطة البيض تحجبنى عنك .

لقد كنت أكره أن يقع علىّ بصرك لأول مرة وأنا مسلوخة الوجه ، محروقة الجلد .

وفى اليوم التالى هربت من المستشفى .

نجوت من الطامة الكبرى .. وهى رؤيتك لى .

ترى هل تذكرنى ؟

هل تذكر تلك الفتاة المحترقة الملفوفة بالقطن والشاش .. التى وقفت أمامها بضع ثوان .. ثم تركتها ؟!

إذا كنت تذكر الفتاة .. فهى أنا. أنا « نادية » .

« نادية » التى كانت تتلهف على أن تتخلى عن نصف عمرها كى تراك وتتحدث إليك .

وعدت إلى البيت .

ومات « أبى » .

وزالت آثار الحريق من وجهى .. بفضل عملية نزع الجلد التى أجراها لى مساعدك والتى كان مفروضاً أن تقوم بها أنت .

لولا أن أزاحك القدر .. أو أزاحنى .. من طريقك .

زالت آثار الحريق من وجهى ، ولكنها بقيت فى عنقى . وأخذت أرقب نفسى فى المرآة ، وأتخيل كيف يمكن أن أبدو لك .

وخشيت نفورك منى .. من عنقى المحترق .. وجلدى المشوه .. ووضعت الإيشارب حول عنقى أخفى ما به من تشويه ، وأحسست بأن خيط الأمل الواهى .. الذى كنت أتعلق به قد قطع .. وأنه قد تحتم علىّ .. أن أجعل منك .. مجرد طيف ، لا أمل فيه .. إلا كأمنية مستحيلة .. جل غايتى منها .. أن أعيش بالتفكير فيها .. زمناً رغداً .

ورحلنا من القاهرة .

وكنت أول الراغبين فى الرحيل .

كانت بنفسى رغبة فى الفرار .. الفرار من أمنيتى المستعصية .. وأملى الضائع .

ووصلنا إلى « جاب » .

وبدأت أحيا حياتى المنطوية اليائسة ، حتى خطر لى ذات مرة أن أكتب إليك .

وكتبت رسالتى الأولى .. دفعنى إلى كتابتها .. فرط الحنين ، وشدة اليأس ، وطول الوحشة .

وكتبت إليك أقول إن حياتى معلقة بردّك .

ولقد كانت فعلا كذلك .

ولو لم تكن لما جرؤت أن أكتب إليك .

ووصلنى ردّك الأول

وأحسست بعد ذلك .. أنى بدأت مرحلة جديدة من عمرى .. مرحلة

عشتها كالفراشة الطائرة .. أهيم بين أنضر ورود الأماني ، وأعطر أزاهير الأحلام .

كنت أحيا .. في أمل بلا حدود .

كنت أتوهم أني يمكن أن أظل وإياك .. كما نحن .. بعلاقتنا الهوائية الحالمة .. التي لا تقف في سبيلها عراقيل أو سدود ، وكنت أحس بأني قد بت أعنى في نفسك شيئاً .

أجل .. لقد أضحى لي .. مع الزمن .. موقع في نفسك . فانطلقت أهيم في نعيمي الجديد .. بلا أي تفكير في نهايته ، أو تحديد لغايتي منه .. أو أملي فيه .

وكنت طوال تلك المدة .. صادقة مع نفسي .. صادقة في كل ما يربطني بك .

ولم يكن هناك ما يؤلمني .. سوى الإحساس في بعض الأوقات بأني أحيا .. بطريقة الهيمان .. أو كما قلت لك أحلق كما تحلق الفراشة .

لم أحس أبداً .. أني أقف على قدمي ، وأني أستقر على أرض صلبة ، يمكن أن يحدد فيها طريق ، وأن يوصل الطريق إلى شيء .

أبداً .. كانت كل حياتي .. هياماً وأحلاماً .

وفي معظم الأوقات لم أكن أضيق بحياتي .. بل كنت قانعة بها .. راضية عنها .

عدا هنيهات متقطعات .. من اليأس .. أرتطم فيها بصخور الحقائق .. فأفكر .. وأحزن .. ثم لا ألبث حتى أهيم مرة أخرى .

ثم خدعت أول خديعة

انسقت إليها .. بطريقتي .. الهادئة المتسللة .. التي تتجنب كل المقاومات .. حتى تصل إلى غرضها .

لقد طلبت مني صورة حديثة لي .

أتذكر ؟!

إذا كنت لا تذكر فأنا أذكر جيداً .

عندما قلت لى . هل بطلت موضة التصوير عندكم ؟!

لماذا لا تكفين عن صور الأطفال التى ترسلينها .. وترسلين لى صورة لأراك كما أنت .. حتى أستطيع أن أصحبك إلى الأوبرا دون أن أخشى أن تنامى منى وأن أعود بك على كتفى .

و لم أكن أستطيع أن أرفض طلبك .. لأنه لم يكن هناك فى رفضه عذر .

و لم أكن قد صوّرت منذ الحريق .

وكنت أكره أن أصوّر .

ووجدتها مشكلة فى بادئ الأمر .

ولكنى صحبت « منى » ، وصوّرت .

صوّرت بالإيشارب الذى رأيتنى به .. والذى عدوت لأشد به عنقى عندما فوجئت بك على الباب .

وصوّرت « منى » يومذاك .

وعندما جلست لأرسل إليك الصورة .. كرهت منظر الإيشارب .. وبدا لى أنك ستسألنى .. عما وراءه .. إذا استمررت على ارتدائه فى كل صورة .

بل لقد بدا لى كأنك ستكشف ما وراء الإيشارب فى الصورة ، وأنك سترى عنقى المشوّه ..

وأنك قد لا تكتب إلىّ .

وأحسست بأنى أوشك أن أختنق .

وببساطة .. مددت يدى وأمسكت بصورة « منى » .. ووضعتها مع رسالتى فى الظرف

ومن يومها .. بدأت خديعتى لك .. وبدأ شكوكى فى نفسى .

وكتبت لى بعدها لتقول لى إنى جميلة .

وساءنى هذا . وأحسست بالغيرة من « منى » .

ولكن لم يكن هناك بد من الاستمرار فى الخديعة .. وابتعت آلة تصوير .. وبدأت هوايتى فى تصوير « منى » .

وكنت أكره كل مديح لك فى شكلى .

لأنى كنت أعلم أنه لا يخصنى .

وأنى شىء ، وشكلى شىء آخر .

وأخذت تتصارع فى نفسى كل الأحاسيس وأنا أحس أنى دفعت بإنسان آخر ليشاركنى فى حبك .

ومع ذلك فقد بدأت أعتاد المسألة .

وأقنعت نفسى بأنى أنا .. فى نظرك .. هو أنا .

وأنك تحبنى أنا .. صاحبة الرسالة .. التى تناجيك وتناجيها .. وأنى ما دمت لا آمل فى لقاء .. فلن يكون هناك خوف من أن ينافسنى أحد .. لأنى سأظل أمامك .. مجرد روح أو حلم .

وكان يمكن أن يستمر الحال .. كما هو .

فأنا نفسى قد رضيت عنه ، ولم يعد به ما يقلقنى .

فما دمت قد استبعدت شكلى من أول الأمر .. فلا داعى لأن أدخله فى منافسة .. أو أجعله سبب غيرة .

حتى كتبت إلىّ لتقول لى .. إنك قادم .

وهنا أحسست أن المسألة قد أضحت خطيرة .

وأنه قد بات علىّ أن أواجه أحد أمرين :

إما أن أعترف بالخديعة .. وأريك شكلى الحقيقى .. وأفقدك .

وإما أن استمر فى الخديعة .. فأجعل « منى » تلقاك .. وتقوم بنفس الدور الذى قامت به صورتها .. وتمثل أمامك دور « نادية » ، حتى ترحل .

ثم نعاود بعد ذلك .. علاقتنا الأصلية معاً .. علاقة الكتابة .. والأحلام والأوهام .

وكنت حمقاء فى تفكيرى .

ولكن الأنانية أحياناً تدفعنا .. لأن نشكل كل شىء حسب رغباتنا . حتى رغبات الغير .. ومشاعره .. وأمانيه .

كنت أتخيل أنك يمكن أن ترضى .. عن علاقتنا بالطريقة التى رضيت أنا بها .

كنت أتوهم أنه يمكن أن تأتى إلينا .. وترانى .. أعنى ترى « منى » ، ثم تعود لتكتب إلىّ ببساطة .. كما كنت تكتب :

لم أتصورّ قط .. أن العلاقة الهوائية كأى علاقة فى الدنيا لابد أن تنتهى إلى شىء .

لابد أن تنتهى .. إلى حقيقة .. أو تتبدد .

لم يخطر لى هذا ببال قط .

كنت أتعلق بك .

وكنت أعرف .. أن فى تحقيق الأوهام .. ضياعك منى

ولذلك .. كان علىّ أن أشكلك حسب ما أهوى .

واتفقت مع « منى » على أن تلقاك .. كأنها « نادية » .

ولكن خذلتنى .. وماتت .

وأظنك تعرف جلياً .. كيف أوجعنى موتها ، لقد كانت جزءاً منى .

أتدرى كيف يحس الإنسان .. عندما يقتطعون نصفه .. ويتركونه نصف إنسان ؟! .

لقد أحسست بهذا الإحساس عندما رَحَلَت .

ولست أريد مرة أخرى أن أحرّك أشجانك .. وأهمى مآقيك .

لقد رحلت « منى » .

ووصلت أنت .

وكان علىّ أن أواجهك .. وأواجه فيك .. خديعتى .. وحيدة .. بلا عون من « منى » .

واضطربت فى أول الأمر ، ولم أعرف كيف أواجهك ، ولا ماذا أقول لك..

كانت مفاجأة .. مذهلة ، أن أستيقظ من النوم ، لأجدك تقف أمامى .

ومنحتنى أنت .. فرصة للنجاة ، عندما سألتنى :

ـــ أين نادية ؟

وأحسست أنك لم تميز فىّ « نادية » وأن « نادية » التى فى ذهنك .. هى « نادية » الصورة ، أو بمعنى أصح هى « منى » .

وكان علىّ أن أجاريك فى تصورّك .. وأن أخبرك بموت « نادية » التى هى فى ذهنك .. « نادية » الشكلية .

وقلت لك إنها ماتت .

وسرت معك .

وصحبتك فى جولتك .

ولا أكتمك .. أنى ـــ رغم كل ما أحاط بى من اليأس والفجيعة ـــ كنت سعيدة .

أجل .

كنت سعيدة ، وأنت تمسك يدى وتسير بى على سفح الجبل ، وشاطئ البحيرة .

كنت سعيدة ، وأنا أجلس معك ، وقد شرد كل منا ببصره من الشرفة العريضة .

كنت سعيدة .. بيأسك ، ولوعتك .

وفى بعض اللحظات كانت تتملكنى .. نوبات غيرة .. من أختى « منى » عندما أفكر فى أن أحزانك .. تخصها هى

وأنا .. كمخلوقة على قيد الحياة .. ليس لها نصيب من مشاعرك .

وانتهت جولتنا .

وكان علىّ أن أودعك

أن أودّع .. نفسى .
أن أودّع .. حياتى .
أن أودّع .. كل ما بقى لى من أمل فيك .
ومن العبث أن أشرح لك مشاعرى .
وقد تكون أحسست ببعضها .

فلا أظن وداعى لك ، كان الوداع الذى يمكن أن تودعك به « متى » .. لو كانت هى أنا .

ووقفت أرقبك وأنت تلوّح بيدك . والقطار يتباعد بك ، حتى اختفيت ، واختفى القطار .

واختفى كل شىء من أمامى .
وعدت إلى البيت ، وكأنى أسير فى ضباب كثيف .
وأحسست وأنا أقبع فى حجرتى ..
أنى قد بت لا شىء .. بت جسداً ، بلا روح ، ومخلوقاً بلا كيان .
وأنى قد حرمت نفسى .. من كل شىء .
لقد فقدتك نهائياً .
وأحسست أنى ظلمت نفسى .
وأنى أصبت نفسى .. بنقمة الموت .. دون أن أستمتع بنعمته .

حرمت نفسى أهم أسباب الحياة .. من صلتى بك .. وأصبحت إنسانة ميتة بالنسبة لأعز الناس عندى .

وذقت .. مرارة فراقه .. ولوعة وداعه .. بلا أمل فى عودة .. ولا رجاء فى لقاء .

ومع ذلك .. فأنا ما زلت حية .
أمارس كل متاعب الأحياء .. وأحرم كل نعم الموتى .
أنا لا أنعم .. برقدة « متى » .

لا أنعم باستقرارها وراحتها .

لا أنعم بالسكينة التى تنعم بها ، وتبعد عنها صخب الحياة ومرارة العيش .

أنا ما زلت أفكر .

لم ينعم الله علىّ براحة ذهن « منى » .

وما زال علىّ أن أواجه الناس .. وأحدثهم ، وأن أذهب إلى المدرسة .. وأن أفعل كل ما يفعله الأحياء .

ما زالت بى خصائص الأحياء ، التى لم يعد بى إليها حاجة .

ما زلت .. مثلا .. أحبك .. وأهفو إليك .

وأنت لا تشعر بى إلا كمخلوقة ميتة .. لا تكن لى سوى الحزن .. والدموع .

وحتى حزنك ودموعك .

حتى الشىء .. الذى بقى لى منك .

لا أجسر على الاستمتاع به .

لأنى لا أستحقه .

ولأنى أحس إذا ما حاولت .. الاستمتاع ببعضه .. أنى مخادعة .. مخاتلة .

لأنى .. مازلت حيَّة .

لماذا إذاً .. أبقى .. بعد كل ذلك حيّة ؟

ما فائدة حياتى ؟!

من على وجه الأرض .. يمكن أن تفيده حياتى ؟!

لماذا لا أضع نفسى موضعها ؟!

أعنى موضعها الذى وضعتها فيه أنت .

فى ذلك القبر الأبيض الذى تحيط به أعواد الزنبق البيض .. والذى وقفت أمامه ، والدمع يهمى من مآقيك .. فى صمت موجع جعلنى أكاد أنفتت .

لماذا لا أضع نفسى موضعها ؟!

حتى يكون لى الحق .. فيما تبقى لى من مشاعرك .. وألا أحس .. أن دموعك .. من أجلى .. لا تخصنى .. وأن لوعتك علىّ .. لا أستحق منها شيئاً .

لماذا لا أضع نفسى موضعها ؟

حتى أنعم على الأقل .. بالزهرة التى سنضعها .. على « نادية » .

إن العملية لا تحتاج إلى جهد ولا مشقة .

يكفى أن أترك نفسى .. لهذا الشىء الذى يجذبنى من أعماق الهوّة .. وسأهوى معه .. إلى رقعة القبور البيض المتراصة كأنها حجارة الشطرنج .

أجل .. إن هذا هو موضعى .. وذلك هو مصيرى .

وقبل أن ألقاه .

أحب أن أصدقك .. وأن أنبئك الحقيقة ، وأن أنصف نفسى عندك .

وأن أقول لك من أنا .

على الأقل حتى .. تذكرنى .. أنا .. « نادية » الفتاة التى لقيتها بالإيشارب والتى ضممتها إليك أمام القبر .. والتى صعدت معها السفح ، وسرت بجوارها على الشاطئ .

إن « نادية » هى أنا

أنا التى أحبتك .. وأنا التى .. منحتك أول خفقات قلبها .. وستمنحك آخر خفقاته .

إنى أرجو بعد ذاك .. ألا أكون قد خذلتك .. وأن أستحق مشاعرك ، وحزنك .

وأن تحبنى أنا .

وإذا ما عدت مرة أخرى .. لتزور القبر الذى ضممتنى أمامه

فلتجعل . زهرتك .. زهرتين .. حتى أختص نفسى ، بواحدة منهما .

المخلصة « نادية » .

(٤٨)

إنذار ..

مضت برهة ومدحت يحملق فى السطور الأخيرة من الرسالة مشدوهاً مأخوذا ، وسقطت الرسالة من بين أصابعه وهو يتمتم فى شبه هذيان :

ـــ كانت هى ـــ كانت هى « نادية » !!

ورفع كفه إلى جبينه يعتصره بأصابعه .. وهو مستمر فى لهجته الهادئة :

ـــ كان يجب أن أدرك ذلك .. كنت أحس بشىء يشدنى إليها .. كان يجب ألا أتركها .

وعادت عيناه تحملقان فى السطور الأخيرة :

« يكفى أن أترك نفسى لهذا الشىء الذى يجذبنى من أعماق الهاوية .. وسأهوى معه .. إلى رقعة القبور البيض المتراصة كأنها حجارة الشطرنج

« هذا هو موضعى ، وذلك هو مصيرى »

وأحس مدحت بشىء يعتصر جوفه .. وهتف فى حدة :

ـــ لا .. لن أتركها .. لن أدعها تموت ثانية .. إن مصيرها هنا .. بجوارى

ونهض من مقعده فجأة ونزع عنه « المريلة » البيضاء .. وهو يردف فى حزم :

ـــ سأذهب لأعود بها . لن أتركها ترتكب هذا الجنون .

وكان جاد الله قد مرّ بناظره عبر سطور الرسالة مرّاً سريعاً .. واستطاع أن يفهم ما تضمنته ، وبدت عليه دهشة شديدة ، وهتف بمدحت متسائلا :

ـــ تذهب لتعود بها ؟

ـــ أجل سأذهب الآن . .

ونظر جاد الله إلى تاريخ الرسالة ، وهز رأسه فى شبه يأس وقال :

ــ لقد مضت أربعة أيام على إرسالها .

وعض مدحت على نواجذه .. وبدت عروق جبينه نافرة وهو يهز رأسه كأنه يبعد عنها خاطراً بغيضاً ، وقال فى إصرار وعناد :

ــ سأذهب إليها على أية حال .. لن أستطيع أن أجلس جلسة العاجز المستسلم .. إنى أكاد أجن .

واتجه مدحت إلى الباب فى عصبية وشرود .. ولحق به جاد الله فأمسك بذراعه قائلا وهو يحاول تهدئته :

ــ إلى أين ستذهب ؟

ــ إلى المطار .

ــ إنك لن تستطيع أن تفعل شيئاً بحالتك هذه .. اهدأ . ودعنا نفكر معاً .

وصاح به مدحت فى ضيق .

ــ أفكر ؟ أنا أستطيع أن أفكر !؟

ــ إذن دعنى أفكر لك .. إن المسألة تحتاج إلى تدبّر ورويّة .

وأجاب مدحت فى عناد المجانين :

ــ سأسافر .. الآن .. لن تستطيع قوة أن تمنعنى من السفر .

ــ ومن قال لك إنك لن تسافر .. اجلس واسترح ، ودعنى أقوم لك بترتيبات السفر .

ــ ليس هناك ترتيبات .. سأذهب إلى المطار لآخذ أول طائرة .

ــ إلى أين .. ؟

ــ إلى جنيف .

ــ وبعدها .. ؟

ــ سآخذ القطار إلى « جاب » .

ــ إذن انتظر حتى أعرف لك موعد الطائرة ، ثم تحجز مكاناً بها .

ـ لا أستطيع أن أنتظر .

ـ لا تكن أحمق .. إن ذهابك إلى المطار لن يجديك نفعاً .. أنت تعرف أن الحالة مضطربة ، وقد نجد الخطوط الجوية توقفت .. فدعنا نسأل لنتأكد من موعد الطائرة .. اللهم إلا إذا كنت تريد الإقامة بالمطار .

ووقف مدحت وقد بدت عليه الحيرة والذهول .. وقال فى لهجته المصرّة :

ـ ولكننى لا أستطيع أن أتركها .. لن أدعها مرة أخرى .

ـ أجل .. أعرف ذلك .. وستسافر إليها .

ـ الآن ؟!

ـ أجل الآن .. ولكن دعنى أدبر لك الأمر .. أنت تعرف أنه لابد من الحصول لك على إجازة وتصريح بالسفر . إنك لم تعد الآن مدنياً .

ـ سأسافر بلا تصريح .. مهما كانت النتائج .

ـ اسمع .. سنبذل كل ما فى وسعنا .. تعال معى .. نسأل أولا عن مواعيد الطائرات فهى أهم ما فى المسألة .. تعال واهدأ فى حجرتك .. فإن منظرك مروّع .. تعال .

وجذبه من ذراعه .. فانساق معه كالطفل .

واستقر به فى الحجرة مرة ثانية .. ورفع سماعة التليفون وبدأ يسأل عن مواعيد الطائرات .

وقبل أن يأتيه الرد .. بدت إحدى الممرضات وقالت لمدحت :

ـ الدكتور رشاد يطلبك فى غرفة العمليات .. لقد دخلت دفعة جديدة من الجرحى .

ونظر إليها مدحت فى شرود ويأس ، ولم يجب .

وعادت الممرضة تكرر قولها .

وأجاب مدحت فى حنق :

ـ قولى للدكتور رشاد أنى مرهق .. ولا أستطيع أن أفعل شيئاً .

وهمت الممرضة بالانصراف ، ولكن مدحت ضغط على نواجذه وهفض رأسه فى ضيق ثم صاح بها :

ـــ اسمعى .. لا تقولى له شيئاً .

ثم نهض وارتدى مريلته مرة أخرى ، وقال لجاد الله فى حزم وإصرار

ـــ لا تترك السماعة حتى تعرف موعد الطائرة .. إنى مسافر .. مسافر .. سآتى إليك بعد الانتهاء من العمليات .

ـــ لا تحمل هماً .. سأعد لك كل شىء .

ومضى الوقت ومدحت منهمك فى غرفة العمليات ، وأحس كل من حوله بتوتر أعصابه وارتجاف يديه .

وانتهى من العملية ، وهو يحس أنه يكاد يختنق .

واندفع من غرفة العمليات إلى حجرته .. وقبل أن يصل إليها التقى بجاد الله فصاح به :

ـــ ماذا فعلت ؟.

ـــ وجدت طائرة على خطوط « السويس إير » ...وحجزت لك مكانا عليها .

ـــ متى ستقوم ؟

ـــ الساعة الحادية عشرة مساء .

ـــ الحادية عشرة ؟!

ـــ احمد الله أنى استطعت أن أجد لك بها مكاناً .. إنها قد تكون آخر طائرة تقوم من مصر .

ـــ آخر أو أول طائرة .. المهم أن تسافر .

ـــ وكيف تعود ؟

ـــ يحلها ربنا

ـــ ولكن يجب أن تعود بسرعة . إننا نحاول أن نحصل لك على تصريح خاص

بالسفر .. لقد أفهمتهم أن الأمر حيوى بالنسبة لك ، قلت لهم إنك ستنقذ حياة .

وأطلق مدحت زفرة وقال كأنما يحدث نفسه :

ــ ليتنى أستطيع .

ونظر فى قلق إلى ساعته وكانت قد جاوزت الثانية وقال فى ضيق :

ــ ما زال أمامنا تسع ساعات .. إن كلّ دقيقة لها قيمة .

ــ لا تجزع .. إن شاء الله ستجدها ، وتعود بها .. إن من السهل علينا أن نفكر فى الانتحار ، ولكن من أشق الأمور أن نقدم عليه .

وهز مدحت رأسه فى حزن وقال :

ــ إن رسالتها مفعمة باليأس .

ــ على النقيض .. إن مجرد كتابتها أمر يبعث على الأمل . لقد أقدمت على مغامرة .. ولابد أن تعيش على الأقل حتى تعرف نتائجها .. هل تتصور أنه من السهل أن تغادر الحياة .. قبل أن تعرف وقع اعترافها فى نفسك .. لابد أن تمنح نفسها فرصة .. إن الأمل أقوى من الموت .

وصمت برهة وهو يفكر فى مدى إيمانه بما قال .

ثم جذب مدحت فى ذراعه قائلا له :

ــ هيا بنا .. نتناول « لقمة » وإلا سقطنا جوعاً .. إنك لابد أن تعود إلى البيت لتجهيز حقائبك . وتوديع والدتك .

وهز مدحت رأسه فى مرارة وقال :

ــ لست فى حاجة إلى حقائب .. سأذهب كما أنا .

ورفع جاد الله بصره إليه قائلا فى غيظ :

ــ اسمع يا مدحت . كف عن هذا التداعى . إذا كنت تنوى أن تسافر فيحسن لك أن تتجلد ، وتتمالك قدرتك على تصريف شئون نفسك .. إنك فى حاجة إلى غيارات ، وفى حاجة إلى ملابس مدنية ، وفى حاجة إلى أشياء كثيرة تعد بها نفسك للسفر .

— لقد سبق أن سافرت ، والسفر ليس معضلة ، ولست أريد أن أفزع « أمى » بوداع جديد .. إنها تعرف أنى أبيت فى المستشفى ، وأن هناك حالة الطوارئ ، وسأتحدث إليها قبل السفر ، وعليك أنت طمأنتها من وقت لآخر .. حتى أعود .

ومرت الساعات التسع بمدحت .. استطاع خلالها أن يسوى مشكلات صغيرة.. ويعد ما يلزمه . وقبيل العاشرة كانت عربة جاد الله تنهب به الأرض فى طريقها إلى مطار القاهرة .

ووصلت العربة إلى المطار واجتاز مدحت الباب بحقيبته الصغيرة فى يده .. وبدت الحركة فى مبنى المطار قلقة مضطربة.. وأحس مدحت بعلامات دهشة ووجوم على وجوه الناس .

ووقف الموظف المختص بمراقبة الجوازات يهز رأسه قائلا :

— إنه أمر خطير .. خطير جداً .

ولم يجد مدحت فى نفسه قابلية للثرثرة .. فقد كان يريد أن ينتهى فحص جوازه بسرعة ، ولكن جاد الله تساءل بطريقته المازحة :

— ما هو هذا الأمر الخطير ؟

— الإنذار البريطانى الفرنسى .

ورفع جاد الله حاجبيه فى دهشة ، وزم مدحت شفتيه .. فى انتظار مزيد من الشرح .

واستمر الرجل يقول :

— لقد أرسلت إنجلترا وفرنسا إلينا إنذاراً .

— لماذا ؟

— للنزول فى موانى القناة .

— أقصد لماذا أرسلت الإنذار ؟

— لأنها تخشى تعطل الملاحة نتيجة القتال بيننا وبين إسرائيل .

ـــ ولكن الملاحة لم تتعطل .. وقد ضربت طائراتنا القوات الإسرائيلية ضربة قاصمة ، ومدرعاتنا تحتشد لكى تقضى على البقية الباقية منها وتلقنها درساً قاسياً .

ورفع الرجل كتفيه وقلب شفتيه فى حيرة قائلا :

ـــ هكذا قال الإنذار .

وهز مدحت رأسه قائلا :

ـــ غير معقول .. لابد أنها إشاعة .

ولكن الأمر لم يكن إشاعة .

وسرعان ما علا صوت الراديو ليعلن نص الإنذار البريطانى الفرنسى الذى وجهه إيدن إلى الحكومة المصرية والذى يطلب وقف القتال الدائر بين مصر وإسرائيل وسحب جميع قواتهما إلى مسافة ١٠ أميال من ضفاف القنال ، وأن توافق مصر على مرابطة القوات البريطانية والفرنسية فى المواقع الرئيسية ببور سعيد والإسماعيلية والسويس ، وحدد الإنذار مهلة قدرها اثنتا عشرة ساعة تالية لتقديمه ، تنتهى فى الساعة السادسة والنصف من صباح ٣١ أكتوبر .

وعض مدحت على نواجذه ، وهو يقول فى صوت مغيظ :

ـــ غير معقول .. غير معقول أبداً .. لقد أعلنت بريطانيا أنها لن تستغل الفرصة .

وهز جاد الله رأسه ، وقد بدا عليه الشرود والتفكير وقال ساخراً .

ـــ لن تستغلها إذا استطاعت إسرائيل أن تحقق الغرض منها .. إذا استطاعت أن تصل إلى القناة وتعطل الملاحة بها .. أما وقد سيطرت مصر على أرض المعركة .. وسيطر سلاحنا الجوى على سمائها ، وبدت إسرائيل عاجزة عن تحقيق مهمتها . فكيف يقف الطرفان الآخران مكتوفى الأيدى .. كيف لا يستغلان اللعبة ، وهما أصحابها .. إنها مؤامرة مدبرة .. لم أشك فى ذلك لحظة واحدة .

وتساءل موظف الجوازات قائلا :

— ولكن هل وصلت إسرائيل إلى القناة ؟
وهز مدحت رأسه مؤكداً :
— بالطبع .. لا .
— إذن .. كيف تبعد قواتها عشرة أميال عنه.. إذا كانت لم تصل إليه ؟!
وأجاب مدحت ساخراً :
— أظن يتحتم على مصر أن تجرها إلى القناة .. حتى يمكن تنفيذ الإنذار
وعاد الرجل يتساءل :
— ولكن لماذا تريد إنجلترا وفرنسا وضع قواتهما فى بور سعيد والسويس والإسماعيلية ؟!
— لماذا تريدان ؟ لأننا أممنا القنال ؟ لأنهما نادمتان على الجلاء الذى مكننا من امتلاك أراضينا ، واسترجاع حقوقنا ، والتصرف بحرية فى ممتلكاتنا .. لقد كان المفروض أن يعقد اجتماع اليوم فى جنيف لتسوية المشكلات الناتجة عن التأميم .. ولكن يبدو أن إنجلترا وفرنسا .. وجدتا أن عودة قواتهما هى أفضل طريقة للتسوية .
وهز الرجل رأسه فى يأس وهو يمد يده بجواز السفر إلى مدحت قائلا :
— ولكن ماذا يمكننا أن نفعل الآن ؟!
وأجاب مدحت ببساطة
— لا شىء .. نرفض الإنذار .. أم ترانا قد فعلنا كل هذا .. من أجل أن نعود لنقبل ببساطة احتلال بريطانيا وفرنسا لقطعة من أرض مصر ؟!
وضحك جاد الله وهو يقول :
— إنه مجرد تهويش .. مجرد « هبهبة » .. على طريقة دبابات ٤ فبراير .
واتجه مدحت وجاد الله إلى البوفيه ، واستقر جاد الله على مقعده أمام المنضدة وشرد ذهنه برهة ثم تساءل قائلا :
— أما زلت مصراً على السفر ؟

ورفع مدحت إليه عينيه فى غيظ وأجاب ؟

ـــ مصر .. طبعاً مُصرّ .

ـــ بعد هذا الذى سمعت ؟

ـــ ماذا سمعت ؟!

ـــ الإنذار البريطانى .

ـــ ألم تقل إنه مجرد « هبهبة » ؟

ـــ هب أنه لم يكن .

ـــ ليكن أو لا يكن .. سأسافر .. سأسافر

ـــ أتعلم أن الطريق قد يغلق ، وأنك لا تستطيع العودة ؟

ورفع مدحت كتفيه قائلا :

ـــ المهم ألا يغلق قبل أن أسافر

وعاد جاد الله إلى شروده برهة ، وما لبث أن رفع رأسه متسائلا :

ـــ اسمع .. أتعرف أنك قد لا تستطيع أن تدخل فرنسا ؟

وبدت الدهشة على وجه مدحت وتساءل قائلا :

ـــ كيف ؟!

ـــ أليس المفروض أن تنتهى مدة الإنذار الساعة السادسة والنصف صباحاً ؟!

ـــ أجل .

ـــ هل تظن أن « جمال عبد الناصر » سيقبل الإنذار ؟!

ـــ بالطبع .. لا

ـــ والنتيجة ؟!

ورفع مدحت كتفيه قائلا :

ـــ لا أعرف !

ـــ النتيجة .. أننا سنصبح فى حالة حرب مع فرنسا وإنجلترا ، ومعنى ذلك أنك لن تستطيع أن تدخل فرنسا .. أو إنجلترا .

وبدا الوجوم على وجه مدحت ولكنه عاد يقول فى إصرار :

ـــ اسمع .. لن يثنينى شىء عن السفر .

ورد عليه جاد الله فى غيظ قائلا :

ـــ أيها الغبى .. لست أحاول أن أثنيك ، ولكن لابد لنا أن نفكر فى كل الاحتمالات .

وأجاب مدحت وهو يزفر فى يأس :

ـــ اسمع .. سأسافر ، ويحلها ربنا .

ـــ على أية حال إذا احتجت إلى أى شىء فى جنيف .. فاتصل بجمال .. أتذكره ؟!

وهز مدحت رأسه بالإيجاب ثم تساءل فى غير اكتراث :

ـــ وكيف أتصل به ؟

ـــ فى سفارتنا فى برن .. اتصل به تليفونياً ، واذهب إليه .. أو اطلب منه أن يحضر إليك .. إنه إنسان خدوم جداً .

وأجاب مدحت وهو يلقى رأسه إلى الخلف فى كلال :

ـــ أرجو ألا تحوجنى الظروف إلى خدماته .

ودوى صوت الميكروفون يستدعى ركاب الطائرة .

ووقف جاد الله يودع مدحت عند الحاجز الشبكى . وسمع أحد الطيارين وهو يهرع من الباب ويشير إلى إحدى المضيفات قائلا :

ـــ وداعاً لك ، وللقاهرة .. قد تكون آخر مرة نعود إليكم .

وضحكت المضيفة قائلة :

ـــ وقد تكونون آخر طائرة .. ترحل عنا .

وعلق جاد الله على قولها بقوله لمدحت :

ـــ سامع ؟!

ـــ لا يهمنى .

ــ طبعاً .. أنا شخصياً لو فى صحبة هذه المضيفة .. لفضلت ألا أنزل إلى الأرض أبداً .

وسار مدحت متجهاً إلى الطائرة ، وجاد الله يهتف به :

ــ مع السلامة .. إذا حدث شيء فاكتب إلىّ .

وارتفعت الطائرة فى الظلمات .. وتباعدت حتى أضحت كأنها نجمة تتحرك فى بطء .

واستقر مدحت فى مقعده .. واسترخى .. وأغمض عينيه وبدا ذهنه يغرق فى دوامة أفكاره .

وسط هذا الخضم من الأحداث .. كان مدحت يحس بشعور من الاستقرار والسكينة ..

كان أهم حدث فى كل هذا الخضم الحافل .. هو حياة .. « نادية » .

إن « نادية » لم تمت .

« نادية » الحبيبة .. العزيزة . موجودة .

إنها هى نفسها التى رآها ، وأحس فى وجهها الحزين شيئاً حبيباً ودوداً .

إنها هى نفسها التى ضمها فوق القبور ، وصحبها إلى البحيرة وجلس وإياها فى شرفة النادى .

هى نفسها التى ودّعته .. باللوعة فى قسماتها .. والدمع فى مآقيها .

هى نفسها التى كتبت إليه .. لتقول له إنها تحبه .. وإنها تود أن يحبها هى

هى نفسها المخلوقة الرقيقة .. التى أحكمت الإيشارب حول وجهها .

إنه يحبها بكل ما فيها .

ويحبّ أكثر .. ذلك الشيء الذى تخشاه فى نفسها .. ذلك الحرق فى عنقها مهما كان منظره .. فهو جزء منها .

جزء من المخلوقة الرائعة .. التى أحس بروعتها منذ أول كلمة كتبتها .. إلى آخر حرف نطقته .

المخلوقة الرائعة .. التى أحبها .. لذاتها .. لشخصيتها .. وإحساسها .. والتى يحس أنه قد أحبها أكثر .. عندما لقيها .. وودّعها .

المخلوقة .. الرّائعة وهماً ، وحقيقة ..

إن « نادية » كائنة .. وهو قد رآها ، وسيراها .

سيراها !

أيستطيع أن يجزم بهذا ؟!

أواثق هو أنها ما زالت تنتظر ؟! وأنها لن ترحل حتى تعرف نتيجة رسالتها إليه ؟

من يدرى ؟!

واستمر مدحت فى هواجسه .. حتى غلبه النعاس .

وقبيل الفجر هبطت الطائرة إلى مطار جنيف ، وغادر مدحت المطار بحقيبته الصغيرة إلى ميدان المحطة ، وتوجه للسؤال عن أول قطار ليتجه إلى جرينوبل ثم إلى « فين » ومنها إلى « جاب » نفس القطار الذى حمله آخر مرة عند عودته من « جاب » .

وكان الوقت ما زال مبكراً .

واضطر مدحت إلى الانتظار حتى يحين موعد القطار .

وتنفس مدحت الصعداء وهو يستقر على مقعد القطار .. وأحس بالسكينة والقطار ينساب به من مبنى المحطة ، ويندفع بين السفوح الخضر

وبعد فترة توقف القطار فى أول محطة على الحدود .. بين سويسرا وفرنسا ، وأقبل البوليس الفرنسى يفحص جوازات الركاب ، وقد مد مدحت يده بالجواز فى شىء من الاسترخاء .

ووقف الرجل يفحص الجواز ، ثم قلب شفتيه ورفع كتفيه وأجاب ببساطة :

— هذا جواز مصرى ؟

وأشار مدحت برأسه علامة الموافقة وأعاد الرجل الجواز إليه وهو يقول له

بنفس البساطة :

ـ ممنوع .

ورفع مدحت حاجبيه فى دهشة متسائلا :

ـ ما هو هذا الممنوع ؟!

ـ دخولك إلى فرنسا

ـ لمه ؟!

ـ الأوامر .

ـ أية أوامر ؟!

ـ أوامر حكومتنا

ـ لمه ؟!

ـ سل حكومتك .. سل « عبد الناصر » .

ونفخ مدحت نفخة قصيرة من أنفه .

هذه سخرية جديدة !!

لقد بدا جاد الله مازحاً وهو يقول له إنه قد يمنع من دخول فرنسا .. وقد أضحت مزحته جداً .

وها هو يقف على الحدود الفرنسية ، لا يستطيع تجاوزها .

وتذكر « جمال عبد السلام » .. الملحق الصحفى بسفارة سويسرا .. الذى نصحه جاد الله بأن يلجأ إليه وقت الحاجة .

ونفخ نفخة ساخرة أخرى .

ماذا يملكه له « جمال عبد السلام » ؟

بل ماذا يملك له « جمال عبد الناصر » نفسه ؟!

وجذب مدحت حقيبته .. وهبط من القطار ، وقد أثقل اليأس كاهله . وأنقض الهم ظهره .

ماذا يفعل الآن ، وهو يقف على الحدود كاليهودى التائه .

ونادية ؟!

نادية العزيزة .

تجلس فى انتظار ردّه .

إن كان ينوى أن يرد .

ولكن لماذا لا يرد ؟!

لماذا لا يُرسل لها تلغرافاً .. لتنتظره حتى يأتى إليها .. إن كان هناك أمل فى مجيئه إليها .

بل لماذا لم يرسل لها من القاهرة .. بمجرد أن وصلته رسالتها ؟!

لقد أعماه تصميمه على الذهاب إليها .. عن أى حل آخر .

ولو أنه أرسل إليها تلغرافاً من القاهرة .. لكان الآن فى طمأنينة .

ولكن أتراها .. ما زلت تنتظر حتى الآن ؟!

إنه يتعلق بتعليل جاد الله .

وهو تعليل معقول .

ولو لم يكن معقولا .. لقضى يأساً وحزناً .

واتجه إلى مكتب التلغراف .

ووقف أمام المكتب وقد أمسك بالقلم وبدت عليه الحيرة .

ماذا يكتب لها ؟!

أيقول لها إنه يحبها ؟!

إنه يود أن يكتب إليها رسالة كرسالتها .

ولكن ليس هذا وقته .

يكفى أن يرجوها انتظاره .

وبدأ مدحت يخط البرقية :

« نادية .. إنى أحبك .. حاولت أن آتى إليك .. ولكنى أوقفت على الحدود وأنا فى طريقى إليك من جنيف .. انتظرينى .. حتى أجد طريقة للقائنا » .

« مدحت »

(٤٩)

عملية تهريب ! ..

أرسل مدحت البرقية إلى « جاب » ثم عاد فى أول قطار من الحدود إلى جنيف ، واتجه بحقيبته إلى الفندق الذى كان يوشك أن ينزل به فى المرة السابقة .

وكان رغم ما به من قلق وتوتر .. يحس بالأمل يملأ جوانحه .. وبأن اليأس المظلم الذى أطبق عليه فى المرة السابقة قد انقشع وتبدد .

ووقف أمام مكتب الاستعلامات يحيى نفس الرجل الذى حجز له مكاناً فى الطائرة عند العودة إلى مصر . وردّ عليه الرجل التحية وقد بدت عليه علامات الدهشة وهو يسائله فى أدب :

— لعل سيدى لا يكون فى عجلة هذه المرة ؟!

وأطلق مدحت ضحكته الساخرة من أنفه وأجاب :

— بل فى عجلة أشد .

— أتريد العودة إلى القاهرة مرة أخرى . ؟

— ليس الآن .. إنى أريد أن أتصل بسفارة مصر فى برن .

— حالا يا سيدى .

ورفع الرجل السماعة وطلب السفارة .

بعد بضع ثوان مد يده بالسماعة إلى مدحت قائلا :

— السفارة المصرية معاك .

وأمسك مدحت بالسماعة منادياً :

— آلو .. السفارة المصرية ؟!

— نعم .

ــ الأستاذ « جمال عبد السلام » الملحق الصحفى .

ــ انتظر .

وبعد لحظة أجاب الصوت :

ــ الأستاذ جمال غير موجود .

وأحس مدحت بالضيق والحيرة وعاد يتساءل :

ــ أين أستطيع أن أجده ؟

ــ معك مكتبه .

وسمع مدحت صوتاً يجيب عليه :

ــ أفندم ؟

ــ أين الأستاذ جمال ؟ .

ــ فى جنيف .

ــ إنى أتكلم من جنيف .. أين أستطيع أن أجده ؟

ــ من الذى يتكلم . ؟

ــ أنا الدكتور مدحت .. وصلت الآن من القاهرة .. وأريده فى مسألة هامة .

وصمت الصوت برهة ثم أجاب فى تردد :

ــ والله لا أعلم بالضبط .. ولكننى أعتقد أنك تستطيع الاستدلال على مكانه من مكتب القنصلية .

ــ سأحاول أن أسأل عنه هناك .. وإذا حضر إليكم أو اتصل بكم قبل أن أستطيع الاتصال به .. فأرجو أن تطلبنى فى فندق ..

ثم هز رأسه سائلا موظف الاستعلامات عن اسم الفندق .. وأجاب الرجل :

ــ سافوى .

وأردف مدحت مردداً الاسم فى السماعة .

ــ فندق سافوى .. وسأمكث هنا حتى أستطيع الاتصال به .

ووضع مدحت السماعة ثم سأل الرجل الواقف أمامه ينتظر فى أدب :

ــ هل أستطيع أن أتصل بالقنصلية المصرية ؟.

ــ طبعاً .

وبعد لحظة كان مدحت يسأل عن جمال عبد السلام .

ولم يطل سؤاله هذه المرة . ففى اللحظة التالية كان صوت جمال يجيب متسائلا :

ــ هالوا .. أنا جمال .

ــ أنا الدكتور مدحت .

ــ من ؟.

ــ الدكتور مدحت .. صديق جاد الله .

وهتف « جمال » مرحباً فى دهشة :

ــ دكتور مدحت ؟! من أين تتحدث ؟

ــ من هنا .. من جنيف .

ــ متى وصلت ؟ .

ــ اليوم .

ــ كيف وصلت ؟

ــ بالطائرة .

ــ ألم تنقطع خطوط الطيران من القاهرة ؟ ألم تقفل المطارات بعد ؟!

ــ أظن أنها قد انقطعت بعد سفرى .. لقد سمعت وأنا أركب الطائرة أنها آخر طائرة تقوم من مطار القاهرة .

ــ حمد الله على السلامة . كيف الحال عندكم فى مصر ؟!

ــ الحمد لله .

وبدأ سيل من الأسئلة يتدفق من جمال .. ولكن مدحت أوقفه بقوله .. متسائلا :

ــ ألا أستطيع أن أراك ؟.

ــ طبعاً .. من أين تتكلم ؟.

ــ من فندق سافوى .. بجوار المحطة :

ــ بعد بضع دقائق . سأكون عندك

ووضع مدحت السماعة ، ووقف شارداً .

لقد شعر ببعض الراحة عندما عثر على « جمال »

ولكن ماذا يستطيع أن يفعل « جمال » .. إذا كانت الحدود مغلقة ؟!

أيستطيع أن يجتازها .. بجواز دبلوماسى ؟.

إنه لا يفهم فى هذه الأمور .. بل هو لا يفهم حتى لماذا منعوه أن يدخل ؟

لقد انقضت مهلة الإنذار فى الساعة السادسة والنصف .. ولكن هل معنى هذا .. إنذار بحالة حرب ؟!

وهل يستطيع « جمال » فى هذه الحال أن يدخل ؟!

ولكن ما قيمة أن يدخل « جمال » وحده ؟

إنه قد يستطيع أن يقنع « نادية » .. بحقيقة مشاعره .. وصدق نواياه وحرارة رغبته .

ولكن أيستطيع أن يقنعها بحيث تقبل أن تعود معه إلى القاهرة ؟! وإذا أقنعها ! هل يستطيع أن يقنع أمها ؟!

إنه هو نفسه .. يستطيع .

إنه يثق فى قدرته .. وفى مشاعره .

بشرط أن يجدها .

وهو يعتقد أنه سيجدها .

إنها لن ترتكب تلك الحماقة التى كتبت عنها فى رسالتها ، أنها مجرد خواطر دفعها اليأس فى نفسها .

وهى لابد من أن تنتظر نتيجة .. رسالتها .

وسيؤكد لها التلغراف الذى أرسله الآن .. هذه النتيجة .. وسيمنحها من الأمل .. ما يبدد بأسها .. ويوقف أفكارها المظلمة .

لو أنه أرسل هذا التلغراف مبكراً !!

ولكنه كان عاجزاً عن التفكير .

كان كل ما يريده .. هو أن يطير إليها .

وطال شروده حتى بدأ الرجل الواقف أمامه يقلق .. وسأله موقظاً :

ــ سيدى . هل أحجز لك غرفة ؟

وأجاب مدحت معتذراً :

ــ أجل .. أجل .. سأصعد إليها الآن .. وعندما يحضر الأستاذ « جمال » الذى كنت أتحدث معه .. اطلبنى كى أهبط إليه .

وصعد مدحت إلى الحجرة . وأراحته بساطتها ونظافتها .

ووقف مدحت فى الشرفة المطلة على الميدان .. وأحس ببرودة الهواء .. وشم فى نسماته .. عبير الجبال .. والبحيرات .. وأحس بأنه غير بعيد عن مواطن أحلامه ومرتع أمانيه .. وبأن « نادية » .. باتت منه على قيد خطوات .. وأن هذه القمم البيض التى تلوح فى الأفق .. هى نفسها التى تطل على بيتها .

واغتسل مدحت فى الحمام الملحق بالغرفة ، وأبدل ملابسه و لم يكد يستلقى على الفراش حتى دق جرس التليفون .. ثم سمع صوت « جمال » مباشرة يصيح به :

ــ دكتور مدحت ؟

ــ سأهبط إليك حالا .

ووضع السماعة .. وأسرع إلى بهو الفندق .

وتعانق الرجلان فى شوق ولهفة .. رغم أن أحدهما لم ير الآخر إلا مرة واحدة .

ولكن إحساس مدحت بالغربة والوحشة ، وإحساس « جمال » .. بأنه يرى

مواطناً من بلده المكافح .. جعل كلا منهما .. يشعر نحو الآخر .. بألفة شديدة .

وروى مدحت لجمال خلاصة الحال فى مصر .. وحدثه عن الهجوم اليهودى والجرحى .. وعن الإنذار الذى تلقته مصر .

وهز جمال رأسه قائلا :

— لقد سمعت الإنذار فى الساعة السابعة مساء أمس .

— لقد سمعته وأنا فى المطار .

— لقد رفض جمال الإنذار .

— كنا نعرف جميعاً ذلك .

— رفضه بقوة وحزم .. لقد أعلن أن مصر لا يمكن أن تسمح أو توافق على احتلال بور سعيد والإسماعيلية والسويس بقوات أجنبية بريطانية فرنسية .. لقد أعلن باسم مصر أن هناك انتهاكا لحريتها .. واعتداء على سيادة الشعب المصرى وكرامته .. وقد أعلنت إسرائيل موافقتها على شروط الإنذار .

— طبعاً توافق .. كيف لا توافق على الانسحاب عن القنال عشرة أميال .. وهى بعيدة جداً عنه .. إنها توافق لأنها معتدية .. ولأن قواتنا منتصرة .. وهى ترغمها على الارتداد .

— وماذا تظن إنجلترا فاعلة ؟ هل ستقف مكتوفة اليدين أمام رفضنا للإنذار ؟

— أعتقد أنها يجب أن تفعل ذلك .. يجب أن تكف عن الاندفاع أبعد من هذا .

— لا أظن .. إنها لا تستطيع أن تتراجع بعد هذا الإنذار .

— إذن عليها أن تخوض حرباً .. لأننا لن نسلم بلادنا أبداً .. إذا كان « إيدن » لا يستطيع التراجع فى عملية اعتداء ، فلا أظن « جمال » يستطيع التراجع فى عملية دفاع .. عن سلامة الوطن .. وحرية الشعب .

وأطلق جمال تنهيدة قلق .. قائلا :

ـــ ربنا يهديهم .. إن أى اعتداء يمكن أن يقوموا به .. قد يطلق الشرر فى العالم كله .. ومن أجل هذا أعتقد أنهم لن يغامروا بتنفيذ الإنذار .

ورفع مدحت كتفيه قائلا :

ـــ أرجو ذلك .. ليس هناك من يتوق لإشعال حرب جديدة

ونظر جمال إلى مدحت ، وقد بدا عليه الشرود وتساءل :

ـــ لم تخبرنى بعد ؟ . ماذا أتى بك فى هذه الظروف العصيبة .. ؟ لقد ألهانا الحديث .

وأحس مدحت بحيرة شديدة .

ماذا يمكن أن يقول له .. ؟

وسط هذه الأحاديث عن الإنذار .. والاعتداء .. والحرب الموشكة .. والموقف المتأزم ، والظروف العصيبة !

هل يجسر أن يقول له ، لماذا أتى ؟

أيقول له .. قد أتى .. ليأخذ فتاة تحبه .. ويمنعها من الانتحار .. من أجله ؟!

وأحس بتفاهته .

وساد الصمت .. واستغرق فى الشرود والتفكير .

وأخذ « جمال » يرقبه فى شىء من الدهشة .. ثم تساءل فى صوت خافت :

ـــ ألا أستطيع أن أكون موضع ثقتك ؟

وهز مدحت رأسه قائلا :

ـــ بل يجب أن تكون كذلك .. إنى فى حاجة إليك .

ـــ لماذا لا تتحدث إذن ؟ ماذا أتى بك هنا ؟! وماذا يقلقك ؟

وأطرق مدحت وقال فى صوت خافت كأنما يحدث نفسه :

ـــ المسألة فى الواقع تحتاج إلى شرح طويل .. يجب أن تفهم كل الظروف المحيطة بها .. والدوافع التى خلقتها .. حتى تلتمس لى بعض العذر .. وحتى

لا أبدو أمامك مخلوقاً تافهاً .

وهز « جمال » رأسه وقال مؤكداً :

ـــ إنك آخر من يتهم بالتفاهة . إنى أعرفك من جاد الله جيداً .. وإنى معجب بك جداً .. كل ما أرجوه أن تضع ثقتك فىّ .. وسأفعل من أجلك كل ما أستطيع .

ورفع مدحت بصره وزم شفتيه .. ثم اعتصر جبينه .. وقال فى صوته الخافت الذى يبديه كأنما يحدث نفسه :

ـــ إنى أريد منك أن تجد لى سبيلا للدخول إلى فرنسا .

ورفع « جمال » حاجبيه فى دهشة وتساءل :

ـــ وهل منعك أحد .. ؟

ـــ أجل .. حاولت اليوم أن أعبر الحدود فى القطار ، فمنعونى .

ـــ وإلى أين تريد الذهاب ؟!

ـــ إلى بلدة فى جبال .. الألب العليا ، تسمى « جاب » .

وبدت الدهشة على وجهه وهتف متسائلا :

ـــ جاب .. ولماذا « جاب » بالذات ؟! من تعرف هناك . ؟

ـــ فتاة مصرية تعيش هناك .

ونظر جمال إلى وجه مدحت نظرة طويلة فاحصة وتساءل فى صوت خافت :

ـــ مصرية فى « جاب » !! لا أعتقد أن هناك غيرهما ، وترى من تكون منهما .. منى .. أو نادية .

ورفع مدحت رأسه مأخوذاً وتساءل وقد تلاحقت أنفاسه :

ـــ هل تعرفهما ؟!

ـــ عرفتهما على ظهر السفينة .. فى طريقى إلى هنا .

وصمت « جمال » برهة وتساءل فى لهجته المأخوذة الحائرة :

ــ ولكن كيف عرفتهما ؟! وماذا يدفعك إلى الإصرار على زيارتهما .. فى هذه الظروف العصيبة ؟

وصمت مدحت برهة .. وقد بدا عليه الشرود واستبدت به الحيرة .

ومرة أخرى لا يدرى كيف يشرح !!

وهز رأسه فى حيرة وقال فى لهجته الخافتة :

ــ لست أعرف كيف أوضح لك .. إن المسألة تحتاج كما قلت لك .. إلى شرح طويل .. فإن .. مجرد ذكرها لن يشعرك بمدى أهميتها وخطورتها فى نفسى .. ولكنى ...

وصمت مرة أخرى .

وعاد « جمال » يقول مستحثاً :

ــ ولكنك ماذا ؟ لماذا لا تتكلم ؟ إنى أفهمك جيداً . قل كل ما تريد .. من منهما تهتم بأمرها ؟.

وأطلق مدحت نفخته الساخرة وقال :

ــ الباقية منهما .. ألا تعرف أن « منى » قد ماتت ؟

وهتف « جمال » مرتاعاً وردد قوله كالمأخوذ :

ــ منى .. ماتت .. ؟ غير معقول .. الفتاة المرحة اللطيفة التى لا تهدأ لحظة ولا تكف عن المزاح والضحك .. ماتت .. لقد رأيتها هى ونادية على ...

وقاطعه مدحت فى قلق وأسى :

ــ اسمع .. يجب أن أذهب الآن إلى « نادية » . إنى أخشى ..

وصمت مدحت وعاد جمال متسائلا :

ــ تخشى ماذا !. لماذا لا تنطق .؟

ــ لا أدرى كيف أشرح لك ، ولا من أين أبدأ .

وتوقف مدحت عن الحديث فجأة ومد يده إلى جيبه فأخرج رسالة « نادية » . وأردف قائلا وهو يتنهد فى يأس :

ـــ اقرأ هذه .. أعتقد أنها ستكون أقدر على إفهامك كل شيء .

وأمسك جمال الرسالة وانهمك فى قراءتها .. وقد بدت عليه أقصى علامات الدهشة .

وعندما انتهى من قراءتها طواها فى رفق ، وهو يتمتم قائلا :

ـــ إذن فهو أنت ؟

وتساءل مدحت مردداً قوله :

ـــ هو أنا .. ؟

ـــ أجل .. أنت الوهم الكبير ، الذى وقف فى سبيلى ، والذى وعدتنى بأن أكون أول من تفكر فيه إذا ما زال !؟

وصمت جمال ثم أخذ يطرق المنضدة بأصبعه قائلا :

ـــ لماذا تتوقع أن أسخر منك .. ؟ لقد أحببتها أنا كما لم أحب فى حياتى .. أحببتها بعنقها المقروح .. عنقها الذى أقامت منه حاجز يأس .. يقف فى سبيلها إليك .. وإلى كل أمل .. أحببتها .. بكل ما أملك من مشاعر .. أحببتها ، وهى مستلقية على مقعدها فوق ظهر السفينة ، وقد أطارت الريح .. الإيشارب . فكشف رأسها وعنقها .. ولم أجد به ما يستحق الإخفاء .. لم أجد بها ما يشوّهها قط .. وأصابها الجزع .. وظنت حبى لها شفقة بها .. وحاولت أن أقنعها عبثاً .. لأنك كنت تقف فى سبيلى .. وهماً كبيراً يسيطر على مشاعرها .. وسداً ضخماً يقوم بينها وبين كل طارق لقلبها .. وكنت أنتظر أن يزول الوهم .. ولكنى أجده الآن قد تجسد ليصبح حقيقة واقعة .. لا تزول .. ولا تقاوم .

وصمت جمال ثم مد يده بالرسالة إلى مدحت ، وهو يقول :

ـــ إنى سعيد من أجلها .. شقى من أجل نفسى .

ثم نهض فجأة ، وهو يقول فى حزم :

ـــ قم .. سأفعل المستحيل .. لكى أوصلك إليها .

وخرج الاثنان من الفندق .. وتساءل مدحت قائلا :

ـــ إلى أين ؟ .

ـــ سنحاول أن نعبر الحدود بواسطة الترام .

ـــ الترام !!

ـــ أجل .. سنذهب إلى « أنماس » وسنعبر الحدود بها فى الترام .. وقد تستطيع أن تمر من الحراس الفرنسيين .

ـــ بمثل هذه السهولة ؟!

وذهب مدحت وجمال إلى « أنماس » .. وتحرك الترام بهما عبر الحدود ، وقد بدا القلق على وجه مدحت وأحس بأعصابه مشدودة متوترة .

وقال جمال مستضحكا :

ـــ لا تحمل هماً .. أنا مسئول عن إدخالك الحدود .

ـــ وإذا منعنا ؟.

ـــ سنأخذ قارباً ونهرب من البحيرة إلى « أفيان » .. وهناك نستطيع أن نأخذ القطار إلى « بلجارد » حتى جربوبل . وأظنك تعرف طريقك بعد ذلك .

ـــ أتظن العملية ممكنة ؟!

ـــ جداً .. ليس أكثر من أصحاب القوارب المهربين فى بحيرة ليمان .. المهم أن تعرف طريقك أنت بعد ذلك إلى « جاب » .. ولست أظن فى ذلك مشقة .. كل ما عليك أن تذهب إلى المحطة وتأخذ القطار المتجه إلى جرينوبل .. وبعدها تهبط فى الطريق فى « فين » .

وتوقف الترام .. وصعد جنديان فرنسيان .. وأحس مدحت بقلبه يدق فى عنف .

ومر الجنديان بصفوف الركاب وهما يلقيان نظرة عابرة على الجوازات .

حتى وصلا إلى مدحت .

ونظر أحدهما إلى « الباسبورت » وهمّ بتجاوزه ، ولكنه عاد وتوقف ثم ألقى

عليه نظرة أخرى .. وحدث زميله .. ثم ناوله « الباسبورت » ونظر إلى مدحت قائلا :

— ممنوع .

وهز جمال رأسه مستفسراً :

— ما هو الممنوع ؟.

— المرور .

— لماذا ؟.

— هذه هى الأوامر .

ولم يكن هناك جدوى من المناقشة فهبط الاثنان واتجها إلى الترام العائد وجمال يقول ضاحكا :

— لم يبق أمامنا إلا البحيرة . سأهرب بك . كالممنوعات .. هل سبق لك أن قمت بعملية تهريب ؟.

وهز مدحت رأسه ، وهو شارد مهموم .

وأردف جمال يقول :

— علينا أن ننتظر حتى يسقط الظلام .. سأتركك فى الفندق وأذهب للاتفاق مع أحد أصحاب القوارب .

ووصلا إلى الفندق وقبل أن يفترقا تساءل مدحت قائلا :

— أتظن العملية ستكون ممكنة ؟

— طبعاً ممكنة .

ولم يبد على مدحت الاقتناع فأردف جمال قائلا :

— سأبقى معك حتى نصل إلى « جاب » . هل يريحك هذا ؟! وأحس مدحت بشىء من الطمأنينة وتساءل :

— وعملك ؟

— لن يضيرهم أن أتركهم يوماً ! وأظننا لن نتأخر أكثر من ذلك . لأننا

سنكون مرتبطين بموعد مع صاحب القارب لكى يعيدنا مرة أخرى .

وهز مدحت رأسه وقال مؤكداً :

ـــ لا .. لا .. لن نتأخر أكثر من مسافة الطريق .

ومضى اليوم بمدحت وهو قابع فى حجرته بالفندق .. مستلق على الفراش مفتوح الجفنين .. منطلق الذهن .. وقد أقدم بتفكيره .. على كل ما يحتمل أن يقدم عليه .

وعندما بدأ الضوء يبهت .. وتسللت خيوط الليل .. سمع مدحت طرقات على باب الحجرة ، ثم فتح الباب ودخل جمال وهو يقول فى عجلة :

ـــ ها .. أجاهز أنت ؟.

ـــ جاهز منذ الصباح .

ـــ لقد أعددت القارب .. إن الرجل ينتظر على الشاطىء فى طرف المدينة .. هيا بنا .. خذ معطفك .. ارتد كل ما تملك من « بلوفرات » .. فبرودة الليل لا تحتمل وسط البحيرة .

وارتدى مدحت معطفه وهبط مع جمال .

وفى الطريق قال جمال :

ـــ أسمعت آخر الأخبار ؟

ـــ لم أسمع شيئاً . إنى مستلق فى الفراش منذ أن تركتنى .

ـــ لقد أذاع صوت بريطانيا أن قيادة بريطانية فرنسية مشتركة قد تكونت فى نيقوسيا ، وأن الجنرال تشارلس كيتلى البريطانى قد عين قائداً لها ، وأن الفيس أميرال « باربو » الفرنسى قد عين نائباً له .

ـــ وماذا يعنى هذا ؟.

ـــ يعنى أن إنجلترا وفرنسا مصرتان على السير فى حماقتهما حتى النهاية .. لقد بدأت الغارات على القاهرة والإسكندرية والقنال .. وقد أبلغت مصر مجلس الأمن .. وعقد مجلس الأمن جلسته ، ولكن بريطانيا وفرنسا استهانتا بجميع

القوانين الدولية واستهانتنا بميثاق الأمم المتحدة . واستهانتنا بالرأى العام العالمى .. واعترضنا على قرار وقف القتال .. وقال « إيدن » إن بريطانيا لا تعترف بقرارات مجلس الأمن وستعمل كل ما فى وسعها كى لا تعد إسرائيل معتدية، لأن عملها من أحسن الأعمال .. وأغلب الظن أن مجلس الأمن .. لن يستطيع الوصول إلى قرار .

ـــ إنها إذن مؤامرة .. وإنجلترا وفرنسا .. تصرّان على أن تبلغا الهدف منها .. وهو احتلال القتال ؟

ـــ طبعاً .. إن وزارة الدفاع البريطانية تقول إنها ستضرب المطارات المصرية لأن مصر رفضت سحب قواتها ..

ولكن يبدو أن الغرض هو إعجاز سلاح الطيران المصرى الذى تفوّق تفوقاً تاماً على إسرائيل .. وكذلك لعزل القوات المصرية التى تحشد لرد قوات إسرائيل .. إن بريطانيا وفرنسا لا يمكن أن تتركا إسرائيل .. تتلقى الضربة وحدها .

ـــ لست أظن هناك عملا أحط من هذا ولا أحقر .. من كان يصدق أن إنجلترا وفرنسا .. الدولتين الكبيرتين .. تطعنان مصر .. الدولة الصغيرة .. فى ظهرها .. وهى تتوجه لحماية حدودها من عدوان إسرائيل .. إن هذا العمل سيكون سبة فى تاريخ إنجلترا .. كان أكرم لها .. أن تتجه رأساً لاحتلال القنال .. وتعلن أنها تدافع عن مصالحها .. بدل ذلك الغدر والختال والخديعة التى لا تنطلى على أحد .

ـــ على أية حال لا أظن المسألة يمكن أن تنتهى بسهولة . إن مصر ستقاوم .. ونحن لم نعد فى القرون المظلمة .. التى يمكن أن تغتال فيها الشعوب خفية .. عن أبصار العالم .

ووصل الاثنان إلى ساحة البحيرة .

وكانت الظلمة قد سادت ، وصقيع الليل وبرودة البحيرة ، تلسع الوجوه

والأطراف .

وبدا القارب تحت إحدى الأشجار .

وتحقق صاحبه من وجه « جمال » .

وفى صمت هبط الاثنان إلى القارب .

وأخذ القارب يشق طريقه فى سكون الليل وسط البحيرة .

ولم ينبس واحد من الثلاثة ببنت شفة .. حتى وصل القارب إلى الشاطىء مرة أخرى .

وكانت أضواء مدينة « أفيان » تتلألأ من بعيد .

وهبط مدحت وجمال .

وقال جمال لصاحب القارب :

ـــ سنعود إليك فى مثل هذه الساعة غداً .

وهز الرجل رأسه .

وهبط مدحت وجمال يشقان طريقهما بين الأحراش .

وبعد نصف ساعة كان القطار يتجه بهما من « أفيان » إلى « بلجارد » .

وفرك جمال يده وهو مسترخ فى مقعده قائلا :

ـــ ما رأيك فى عملية التهريب هذه ؟

وقبيل الصبح وصل الاثنان إلى « جاب » . واتجه مدحت بجمال إلى النادى .. ثم تركه .. وسار إلى بيت « نادية » .. وقلبه يدق بين جوانحه .. ورجفة القلق تسرى فى كيانه .

(٥٠)

أحقاً عدت ؟!..

هبطت « نادية » سفح الجبل بعد أن أتمت رسالتها الأخيرة إلى مدحت .. وقد عزمت على أن تلقى بها فى البريد ثم تمر بالبيت لتودع أمها .. وتعود إلى الجبل مرة أخرى لتلقى بنفسها من الهاوية .. أو لتضع نفسها — كما قالت لمدحت — فى موضعها حتى تستحق زهرته على قبرها .. وتنعم بحزنه عليها .

وعندما عادت إلى البيت تلقتها أمها بالباب فى لهفة وقد بدا عليها القلق وهتفت بها :

— أين كنت يا نادية ؟! لقد أصابنى القلق عليك .

— لقد صعدت فوق الجبل منذ الصباح .

— وحدك ؟!

— أجل .

— ومكثت فيه حتى الآن ؟!

وأطرقت « نادية » وهى تنظر إلى أمها فى إشفاق وحزن .. وقد تجلت مدى الفجيعة التى يمكن أن تصيبها إذا ما أقدمت على تنفيذ خطتها .. ولحقت بأختها .

وضمتها الأم إليها وهى تقول :

— كدت أجن خوفاً عليك .

— لماذا ؟! إنى لم أفعل شيئاً غير عادى .

— لم أتعوّد منك هذه الغيبة وحدك .. وخشيت أن يكون قد أصابك مكروه .

وكان الأب « رينو » يجلس أمام الجدة التى استرخت على مقعدها الكبير فى

حجرتها .

وتمتمت الجدة قائلة :

ــ إنى أخشى على الفتاة الصغيرة أن يصيبها شىء .. من فرط الحزن والوحدة ، لا بد لها أن تبدل هذا الجو القاتم .. وتخرج من هذه الوحشة المعتمة .

وتساءل الأب رينو :

ــ ولماذا لا تفعل ؟

ــ لقد حاول أصحابها أن يخرجوها من انطوائها .. وزاروها بضع مرات .. ولكنها كانت تضيق بهم ، وتصعد هاربة إلى حجرتها .

ــ إذن سأجرّب أنا معها .. إن مدام كلود .. ستذهب إلى قريتها لبضعة أيام . وأعرف أنها لا يسعدها شىء كصحبة « نادية » . وأعرف أن « نادية » تحب كلود ، وتطمئن إلى صحبتها .. وسأحاول إقناعها الآن بالذهاب معها .

ونهض الرجل ليلقى « نادية » مرحباً :

ــ أهلا بفتاتى الهاربة . لقد حضرت فى الوقت الملائم ، لقد كنت أتآمر مع جدتك على خطفك .

وشدت « نادية » على يد الرجل مرحبة وتساءلت :

ــ إلى أين ؟!

ــ إلى قرية مدام كلود .

ــ قرية مدام كلود ؟!

ــ أجل .. لقد قررنا أن بقاءك هنا .. وانطواءك فى حجرتك .. أمر غير معقول .. وستسر مدام كلود بصحبتك إلى قريتها .

ــ ولكن ..

وقاطعها مسيو رينو قائلا :

ــ ليس هناك لكن .. لقد قررنا أنا وجدتك أن تذهبى معها .. وأظن أمك لن تعارض .

وأجابت الأم فى حماس :

ـــ أبداً .. إنى أتمنى أن تخرج من عزلتها .. لترى الناس .. وليس هناك أدعى إلى الاطمئنان عليها من صحبة مدام كلود .

وأجابت نادية :

ـــ ولكنى لم أشك لأحد . إنى لم أعد أطيق صحبة الناس .

ورد مسيو « رينو » فى شيء من الحدة :

ـــ ومن أجل هذا يجب أن تخرجى إلى الناس .. يجب أن تكونى أكثر جلداً وأقوى تحملا .. يجب عليك ألا تفقدى إيمانك بالله .. وبالناس .. وبالحياة.. لقد أصابتنى نفس الضربة التى نزلت بكم .. وكدت أقضى من اليأس وأفقد الإيمان بكل شيء .. ولكنى تحاملت على نفسى وتجلدت .. وخرجت إلى الحياة .. لأفعل شيئاً أفيد به الناس ، ونزلت من دارى فوق الجبل .. وشيدت مدرسة لليتامى .. ورحت أبذل فيها كل ما أملك من جهد ومال .. حتى استطعت أن أصل بها إلى ما ترينها الآن .. ولقد بدد العمل من نفسى اليأس .. وأضاع الجهاد فى سبيل الناس والخير كل ما أحاط بى من وحشة وكآبة وحزن .. وهأنذا الآن كما ترينني .. أحيا وأعمل .

وصمت رينو برهة ثم ربت على ظهر نادية وأردف قائلا .

ـــ هيا يا بنيتى .. هيا .. جهزى حقيبتك وتعالى معى .. لن تغيبى أكثر من بضعة أيام تغيرين خلالها ذلك الجو القاتم الذى تعيشين فيه .. وتكسرين ذلك الملل الذى تجرى عليه حياتك .. هيا .. إنى سأقدم بك إلى مدام كلود .. أجمل مفاجأة .. هيا يا « نادية » .

ووقفت « نادية » مترددة .. وهى لا تدرى بم ترد على إلحاح الرجل الذى يوشك أن يعرقل خطتها المرسومة .

وهتفت بها الجدة قائلة :

ـــ هيا يا نادية .. لا تكونى عنيدة .

وربتت الأم ظهرها فى رقة راجية :

— هيا يا نادية . إنى واثقة أنك ستكونين أحسن حالا .

وأحست « نادية » أنها لا بد أن تؤجل خطتها حتى تعود من صحبة كلود .

وتسلل إلى نفسها .. خيط رفيع من الأمل .

من يدرى .. ربما تعود من القرية لتجد رداً على رسالتها .

ومن يدرى أيضاً .. ربما يكون رداً جميلا .. يبعد عنها تيار اليأس الذى يجرفها إلى الدمار .

من يدرى ؟!.. من يدرى ؟!

ولكن أمعقول أن يحدث ؟

معقول أم غير معقول .. إنه مجرد أمل .. مجرد بصيص من أمل .. يضىء الظلمات المكدسة فى حناياها .

لماذا لا تنتظر ؟!

لماذا لا تمنح نفسها .. فرصة الأمل ؟

حتى ولو كانت فرصة كاذبة .. لا طائل تحتها ؟!

ما الذى يدفعها إلى التعجل ؟!

أهى الرغبة فى الراحة .. والهروب من اليأس ؟!

ولكن .. إذا كان هناك بصيص من أمل .

فلماذا لا تنتظر من أجله ؟!

بصيص من أمل ؟

من الذى منحها هذا البصيص ؟!

أوهامها ؟

أما زالت تحاول مرة أخرى .. أن تتعلق بالأوهام ؟!

وهزت « نادية » رأسها فى ضيق ثم اندفعت إلى أعلى .

وبعد لحظات كانت عربة المسيو « رينو » تنطلق بها إلى بيت كلود .. و لم

يطل بها الوقت هناك .. حتى رحلت الاثنتان إلى القرية .

واستقرت « نادية » مع كلود فى قريتها .. ونجح تبديل المكان والخروج من الوحدة .. فى إزالة بعض ما بنفسها من يأس معتم ووحشة قاتلة .

ولكن لم تمض بضعة أيام .. حتى تملكها إحساس بالقلق والرغبة فى العودة إلى البيت .

وكان مبعث القلق .. ذلك الخيط الرفيع من الأمل .. الذى تسلل إلى نفسها .

والذى يجعلها .. تتوهم .. احتمال .. وصول رد من مدحت .

ردّ — إن وصل — سيكون الحاسم فى أمرها .. المقرر لمصيرها .. وشىء خفى فى باطنها ، يمسك بذلك الخيط ويثبته ويؤيده .. شىء يجزم لها أن مدحت لن يخذلها .. وأنه يحبها هى .. هى ..

لا الصورة ..

ولا القبر .

وإنما هى . بكيانها . وشخصها . فى أية صورة على أي وضع فإن كانت واهمة .. وإن خذلها .. فهى تعرف مقرها

إن لها فى رقدتها فيه ، خير راحة وأجمل عزاء .

***

وصل مدحت إلى البيت .

ومرة ثانية ، وجد نفسه . يقف بالباب ليطرقه ، وشتان ما بين طرقة وطرقة .

كانت الأولى طرقة أمل .

وكانت الثانية : طرقة تردد وخوف .

وفتح الباب ..

وأطل منه وجه جانيت .

وأحس مدحت بشيء من الخيبة . كان يتمنى لو كان الوجه المطل . الوجه ذا الإيشارب ، والملامح الرقيقة . وهز مدحت رأسه محيياً .. ثم تساءل فى لهجة مترددة :

ـــ أأستطيع أن أرى نادية ؟

وهزت جانيت رأسها بالنفى ، وأحس مدحت بشيء يفرى أمعاءه . أترى قد نفذت وعدها ؟!

أترى الوقت قد فات ؟!

وأحس بأنه عاجز عن النطق .. عاجزِ عن الاستفسار .. لقد خشى مرة أخرى أن يسمغ .. ما سمعه أول مرة .. من « نادية » نفسها أن « نادية » قد ماتت .

لقد روّعه أن يتلقى الصدمة ثانية .

ومضى الوقت به ، وهو يحملق فى صمت ، وبدا القلق على الوجه المطل من الباب .

وأحس أنه لا بد أن يسأل . فقال فى لهجته المترددة الخائفة :

ـــ هل .. هل .. أعنى .. هل أستطيع أن أعرف . أعنى ...

وضاقت جانيت بتردده وسألته فى شيء من نفاد الصبر :

ـــ هل أستطيع أن أعرف من أنت ؟

ـــ أنا .. أنا .. الدكتور مدحت .. لقد أرسلت إليها تلغرافاً بالأمس .

وقاطعته جانيت لتسأله فى شيء من الدهشة :

ـــ أنت .. الدكتور مدحت .. لقد وصل التلغراف .. ولكنها لم تتسلمه لأنها رحلت .. من بضعة أيام .

ومرة أخرى أحس بالشيء الذى يفرى أمعاءه .

رحلت !؟

ما معنى رحلت ؟!

هل يمكن أن تكون المرأة البليدة ، تعنى برحلت ، أنها ماتت ؟ ولكن لماذا تقولها بمثل هذه البساطة ، والبلادة !؟

إنها لا يمكن أن تعنيها .

وكان عليه أن يلم أطراف شجاعته ويسأل ، ودقات قلبه تكاد تعلو على نبرات صوته :

ـــ رحلت .. إلى أين ؟

ـــ إلى قرية مدام كلود .

وتنفس مدحت الصعداء .

الحمد لله . إنها ما زالت كائنة .. لم تخذله وتذهب .

ولم يستطع مدحت أن يمنع التهلل من الانبساط على أساريره ، وقال متسائلا :

ـــ ومتى ستعود ؟!

ورفعت جانيت كتفيها قائلة :

ـــ لا أعرف بالضبط ، وإن كنت أعتقد أنها لن تغيب . قد تعود غداً ، أو بعد غد .

غداً .. أو بعد غد ؟!

ولكنها على أية حال أهون كثيراً .. من ألا تعود مطلقاً .

ماذا يفعل بجمال ؟ وبالقارب المنتظر ؟!

إن المفروض أن يعودا هذا المساء .

إن الفرصة ضيقة أمامهما .

إن على جمال أن يعود إلى عمله .

وعليه هو أيضاً أن يعود إلى القاهرة . فليس مفروضاً ـــ والمعركة يحتدم أوارها فى مصر ـــ أن يبقى هو متسكعاً فى جبال الألب .

على أية حال . إنه يستطيع أن يترك لها رسالة يشرح فيها كل مشاعره ونواياه .
ثم هو أيضاً يستطيع أن يحدث أمها . ويقنعها .
وقبل أن يفتح شفتيه ليرد على التساؤل ملأ وجه جانيت بالقلق ، سمع صوت عربة تقف بالباب الخارجي للحديقة .
وفتح باب العربة ثم أغلق .
وسمع صوتاً يقول :
— إلى اللقاء .
واستدار ليواجه المفاجأة العجيبة .
يواجه « نادية » .. تعبر الممر فى طريقها إلى الباب .
ورفعت « نادية » عينيها.. لتجد مدحت يحملق فيها مشدوهاً ، فجمدت فى مكانها بلا حراك .
ودون أن ينبس بكلمة واحدة ، مدّ ذراعيه وضمها إليه .
ومضت برهة ، وهو يحيطها بصدره وذراعيه ويمسح رأسها بشفتيه وأنفه
واستسلمت هى لضمته ، وهى تهتز مرتجفة ، كالصادية أهلكها الظمأ ، وأحرقها الهجير .
ووقفت جانيت ترقب المنظر مشدوهة . ثم هزت رأسها فى حيرة ، ودلفت إلى الداخل .
وخفت ضمة ذراعى « مدحت » عن جسدها .. ورفعت « نادية » رأسها ، والدموع الصامتة تهمى من مآقيها .
ومد مدحت يده فانتزع الإيشارب الذى تحيط به رأسها وعنقها ، وقذف به بعيداً .
ثم انحنى على عنقها ، يمسه بشفتيه فى أقصى آيات الحنان والحب وهو يهمس قائلا :
— إنى أحبك أنت . بكل ما فيك . على أية صورة ، وفى أى وضع . أحب

« نادية » التى أحبتنى ، وكتبت إلىّ .

ومدت « نادية » يدها إلى عنقها تتحسسه فى خوف .

وهتف بها مدحت فى لهجة تأنيب :

ـــ ماذا ظننتنى « يا نادية » ؟! أظننتنى تافهاً .. يضيع حبى .. مجرد آثار أعتقد أنى أنا المسئول عنها ، فلو كنت قد بقيت معك حتى أجريت لك العملية لما تركت هذه الآثار التى تركها هذا الأحمق فى عنقك .

وكانت « نادية » تنظر إليه مشدوهة ، دون أن تنطق بكلمة. وعندما استطاعت أن تتحدث .. هتفت ، وهى تتحسس ذراعيه كأنما تحاول التأكد من أنه حقيقة واقعة :

ـــ أحقاً عدت ؟!

وعاد مدحت يضمها إليه ضاحكاً ، وهو يقول :

ـــ طبعاً عدت . ماذا كنت تظنيننى فاعلا إزاء رسالتك العجيبة ؟ أكنت أتركك ترتكبين حماقتك وأرسل تلغراف تعزية إلى « ماما » ؟

وضحكت « نادية » ، وقالت ، وهى تمسك بيده وتقوده إلى الداخل :

ـــ ألا تنوى التعرّف بماما هذه المرة .

ـــ بل أنوى أخذك أنت وهى إلى مصر الآن ؟

ـــ الآن ؟!

ـــ أجل .

ـــ غير معقول .

ـــ ليس هناك شىء غير معقول ، ولا مستحيل ، بعد أن وجدتك .

ـــ ولكن لماذا نرحل الآن ؟!

ـــ لأن مصر قد أصبحت فى حالة حرب مع فرنسا ، وقد دخلت إلى الحدود متسللا ، فى قارب مع صديق يعرفك .

ـــ يعرفنى أنا ؟!

ــ أجل .. جمال عبد السلام .

ــ جمال . الملحق الصحفى فى سويسرا ؟!

ــ أجل . لقد كان له الفضل فى إدخالى عبر الحدود ، وقد أتى معى حتى « جاب » ، وهو ينتظرنى فى النادى .

ــ حقاً ؟! إنه مخلوق نبيل .

ــ لا تمدحيه أكثر من ذلك . لأنى أغار .

ونظرت « نادية » إليه ضاحكة . ثم همست قائلة :

ــ لا أستطيع أن أصدق أنى أعيش فى الحقيقة .. أبداً . إن هذا فوق ما كنت أحلم به .

ونظر إليها مدحت ضاحكا ، وهو يهز كتفيها قائلا :

ــ دعينا الآن من الأحلام .. أفيقى .. يجب أن نعود حالا إلى « إفيان » فالقارب ينتظرنا هناك .

وبدا الشرود على وجه « نادية » وأجابت :

ــ ولكن .. ماما ؟!

ــ مالها ماما .. ستأتى معنا

ــ غير معقول .

ــ دعى أمر ماما لى .. أين هى ؟

ودخلت « نادية » إلى حجرة أمها هاتفة ، وقد بدا عليها القلق والحيرة :

ــ ماما . لدينا ضيف من مصر .

ــ من مصر ؟

وأطرقت « نادية » وأجابت فى حياء وتردد :

ــ أجل . الدكتور مدحت .. الذى .. أعنى .. أننا ..

وتمتمت الأم قائلة :

ــ لا داعى للشرح .. إنى أعرف كل شىء . إنى أعرفه جيداً من أختك

« منى » .

وازدردت نادية ريقها وقالت :

ـــ لقد عاد ليأخذنا .

ـــ يأخذ من ؟

ـــ أنا وأنت ..

وأطلقت الأم تنهيدة حارة . وضمت « نادية » إلى صدرها وهمست قائلة :

ـــ منذ سنوات طوال .. أخذنى أبوك أول مرة إلى مصر .. وكنت سعيدة .. سعيدة .. كان ذلك منذ زمن سحيق .. أما الآن .. فأحس أن مكانى هنا .. إن فرصتنا فى الحياة لا تتكرر مرتين .. فعودى أنت معه .. أنا أعرف مدى سعادتك بعودته .. وبعودتك معه .. وأحس من سعادتك .. عزاء لى عن فرقتك .. أين هو ؟!

وخرجت الأم إلى القاعة .. ونظرت إلى مدحت نظرة عطف وحنان .. ثم مدت يدها وضمته إليها .

وانحدرت الدموع من مآقيها .. وهى تهمس :

ـــ خذ بالك من نادية .. ما كنت لأتركها .. لولا يقينى من حبك لها .. وحبها لك .

وقال مدحت مؤكداً :

ـــ ولكنك ستأتين معنا .

وهزت الأم رأسها فى صمت .

وتساءل مدحت فى دهشة :

ـــ لماذا ؟!

ـــ لقد فات العمر .. وهنا أرضى وأرض آبائى . وهنا ترقد حبيبتى الأخرى .. إن فى هذا الوطن شيئاً يشدنى إليه ، نفس الشىء الذى يشدكم إلى مصر ، أرضكم الحبيبة ، وموطنكم العزيز .

وهتفت « نادية » راجية :

ـــ ولكنى لن أتركك وحدك .

ـــ بل ستتركينني الآن ، وتعودين إلىّ .. تعودين إلىّ مع مدحت .. ومع أولادكما .. وأدعو الله أن تكونى أحسن منى حالا .. وأسعد حظاً .. و ..

وقاطعها مدحت قائلا :

ـــ ولكن فرصة العودة قد لا تسنح .. إن الحرب قد نشبت بين فرنسا ومصر .

وهزت الأم رأسها قائلة فى نبرات ملؤها الثقة والسكينة :

ـــ الحرب أجلها محدود .. والسلام أبقى وأثبت .. إن شعور المودة بين البشر أقوى من أحقاد الساسة .. الحب أقوى من كل شىء .. النيران ستخمد .. والدوى سيتبدد ، وتهب نسائم السلام على الأرض دائماً .. وسنعود مرة أخرى ليعانق بعضنا بعضاً .. إن فى أرضكم المحبة .. وفى أرضنا المحبة .. والمحبة أقوى من كل مشاعر الحقد والضغينة .

ومد مدحت ذراعيه فضم المرأة الطيبة الوادعة .. وقد سرى إليه من روحها الوادعة شعور فياض من السكينة والمحبة والسلام .

ولم تمض الساعة حتى كانت « نادية » قد أعدت حقيبتها ووقفت الأم تودع ابنتها والدموع تنهمر من مآقيها .

وأشارت لها « نادية » وملء نفسها الحزن والأسى وهى تهتف :

ـــ سنعود إليك قريباً .. قريباً جداً .

والتفتت إلى مدحت وهى تسأله مؤكدة :

ـــ سنعود إليها قريباً .. أليس كذلك ؟

ـــ بالطبع يا حبيبتى ، سنفعل كل ما يرضيك ويريحك .

وقبل أن يذهبا إلى النادى لأخذ « جمال » .. مرّا بالمقابر البيض المنضدة وسط الخمائل ، ووضعا على أحدها عودين مكللين بأزهار الزنبق الأبيض .

وأخيراً عادا إلى المحطة مع جمال .. وحملهم القطار إلى « إفيان » .

وفى الموعد المحدد ، سار بهم القارب يشق سطح البحيرة ، فى سكون الليل .

وأخيراً وصلا إلى جنيف .

ونزلت « نادية » فى حجرة مجاورة لحجرة مدحت .

وفى الصباح كانت إحدى الطائرات تقلهما إلى بيروت ، حيث يأخذان طائرة أخرى إلى الخرطوم ، ليعودا إلى القاهرة عن طريق سكة الحديد .

ووقف مدحت ونادية يودعان جمال .

وقالت « نادية » فى صوت ملؤه الشكر والعرفان بالجميل :

ـــ لست أدرى كيف أشكر لك .

وهز جمال رأسه :

ـــ تشكرينني علامَ .. لقد سرّنى أن استطعت أن أجعل من السد الوهمى الذى كان يحول بينى وبينك حقيقة واقعة .. إنى الآن أحس بشىء من الراحة .. راحة اليأس .. فقد كنت أكره أن يحول بينى وبين سعادتى .. حاجز من الأوهام .

وضحك مدحت قائلا :

ـــ آسف جداً .. لم أكن أحب أبداً أن أحول بينك وبين سعادتك .

والتفت مدحت إلى « نادية » فوجدها تحكم الإيشارب حول عنقها .

وقال لها فى حزم :

ـــ ارفعى هذا الإيشارب .. لا أريد أن تضعيه على رأسك أبداً .

وترددت « نادية » برهة .. ونظر إليها مدحت نظرة صارمة جعلتها تمد يدها فى سكون لتنزع الإيشارب .

وصاح بها جمال :

ـــ أجل .. هكذا أجمل .. مع السلامة .

(٥١)

معركة شعب !..

بدأت الغارات الجوية على مصر بعد أن انتهت مدة الإنذار فى يوم الأربعاء ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ ، وشهدت القاهرة أولى تلك الغارات فى الساعة الخامسة بعد الظهر .

وكان أهل القاهرة قد تعوّدوا منذ يومين عويل صفارات الإنذار المتقطع . ثم سماع بضع طلقات من المدافع المضادة للطائرات .. ثم انطلاق الصفارات فى عويل مستمر لتعلن أنتهاء غارة بيضاء .. انقشعت من سماء القاهرة من غير سوء .

وسمع الناس فى تلك الغارة طرقات تدك الأرض .. واختلط عليهم أمرها .. فمن قائل إنها طلقات مدافع ، ومن مؤكد أنها دكات قنابل .. ثم غلب عليهم الاستخفاف بأمرها ليقينهم بأن طائرات إسرائيل .. لا يمكن أن تتطاول إلى سماء القاهرة .

لم يكن هناك من يصدق .. بأن إنجلترا وفرنسا .. يمكنهما حقاً .. أن تقدما على ذلك الجرم الأحمق والخيانة الطائشة الرعناء .

لم يخطر ببال أحد .. أن إنجلترا وفرنسا .. الدولتين الكبيرتين .. يمكن أن تتآمرا مع إسرائيل .. بمثل هذه الطريقة المفضوحة .. المزدراة .

وكان بالناس .. بقايا حسن ظن بالدولتين الكبيرتين .

حتى أقبل المساء .

وأطلقت الصفارات المتقطعة مرة أخرى .

وأغمضت القاهرة عيونها المضيئة وسحبت على بدنها كساء الليل الأسود ، وكتمت أنفاسها لترقب طارق الليل الجديد .

وخيمت الظلمة وساد السكون .. إلا من صيحات المراقبين « طفى النور » ومن انطلاق بعض عربات الجيش المارقة .. ذات المصابيح الزرق .

ووسط الصمت المخيم .. سمع أزيز يحلق فى الجو .

وفجأة .. أبصر سكان مصر الجديدة .. صوتاً يخطف الأبصار .. وحلقت فى السماء مصابيح يشع منها ضوء أغرق الحى .. وكشف عن ستار الظلمة ، وبدا الحى كأن جلاداً قد حسر عنه ثوبه .. ثم هوى عليه بالسياط ، فلم يكد يكشف الضوء الغامر .. بدن الحى .. حتى هوت الطرقات .. شديدة متتالية ، تدك الأرض وتهز الجدران ، وترج القلوب .

وتعالت ألسنة اللهب .. وتصاعدت أعمدة الدخان .. وتوالت الضربات العنيفة .. والأصوات المدوية .. وأحس الناس كأن السماء قد تحولت إلى قطعة من جحيم .

واستمر جلاد الليل الأحمر يدق الأرض بطرقاته المحرقة وضرباته الموجعة . وقد حوّل سكون الليل .. إلى ظهر أحمر صاخب ضاج .. حتى أفرغ حمولة الدمار .. تاركاً وراءه آثاره من خرائب وأطلال وأشلاء .

وأدرك الشعب المصرى ليلته .. أن معركته .. لم تعد هينة ، وأن القتال فيها لم يعد مع إسرائيل وحدها ، وإنما مع دولتين كبيرتين أفقدهما الحمق صوابهما فاندفعتا .. كمجنون ضاع رشده فجعل يدمر ويحطم .. بلا عقل ولا روية .

وأدرك الشعب أيضاً .. أنه يخوض معركة حياة أو موت . وأنه مقبل على كفاح شاق مرير .. سيقرر مصيره ، ومصير حريته ، ومصير مستقبل أجياله القادمة .

وفى اليوم التالى .. تتابعت الغارات .. وتوالى الضرب والدوى ، وفى عصر ذلك اليوم .. فى إحدى حجرات مستشفى العجوزة .. رقد عصام على فراشه مشدود الساق ، وجلس صبرى أمامه بجسده النحيل الطويل .. وحلته « الكاكية » وعلى رأسه الصغير قد وضع « الكاسكتة الكاكية » تحجب جزءاً

من منظاره السميك وقد وضع بندقيته عمودية بين ساقيه ، وأسند مرفقيه إلى ركبتيه ، وكفيه إلى فوهة البندقية .. وأسند ذقنه إلى ظهر راحتيه وبدا واجماً شارداً .

وامتدت أصابع عصام تدير مفتاح الراديو وهو ينظر إلى ساعته قائلا :

ـــ أظن جمال سيتحدث الآن .

وهز صبرى رأسه فى أسف وقال كأنما يحدث نفسه :

ـــ لم يخطر ببالى أن خلق الدول يمكن أن ينحط إلى هذا الدرك .

وضحك صبرى قائلا :

ـــ بل وينحط إلى أكثر من هذا .. إن المثل والأخلاق تنهار أمام المطامع .

ـــ كانت هناك وسائل أخرى .. أكرم لهما .. لتحقيق مطامعهما .

ـــ مثل ؟!

ـــ مثل الغزو الصريح المباشر .. لو أنهما ..

وقطع حديث صبرى صوت « جمال عبد الناصر » يعلو من الراديو .

وأرهف صبرى وعصام .. أذنيهما .

كان الصوت ينطلق عميقاً ، متهدجاً .. كانت به رنة أسى .. ولأول مرة .. يغلب حزنه .. ثورته ، وحماسه .

لأول مرة ، يبدو الثائر العميق .. فى صوت الشاب الثائر الذى غير مجرى التاريخ ، وقفز بأمته إلى ذرا المجد .

وانطلق الصوت الهادئ الحزين يقول :

« بدأت المؤامرة بهجوم إسرائيل المفاجئ يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر ، وأعلنت إنجلترا فى أول الأمر أنها لن تستغل الفرصة ، ولكن لم يكد يتبين لها أن قواتنا قد سيطرت على أرض المعركة ، وأن سلاحنا الجوى قد سيطر على سمائها .. حتى أرسلت إنذارها باحتلال القناة من أجل حماية الملاحة فيها .

« حدث هذا فى وقت كانت الملاحة فيه مستمرة و لم تهدد إطلاقاً ، والقوات

المصرية تحتشد لمقابلة القوات الإسرائيلية المعتدية وتردها على أعقابها .

« ورفضنا الإنذار لأننا لا نقبل مطلقاً أن نوافق على احتلال جزء من أراضينا بقوات أجنبية .

« وفى الساعة السابعة مساء أمس أصدرت وزارة الدفاع البريطانى بلاغاً بأنها ستضرب المطارات المصرية نتيجة لرفض مصر للإنذار .

« وبدأ الضرب فعلا .. فى القاهرة والقناة والإسكندرية .

« وكان الغرض هو تدمير السلاح الجوى المصرى ، وسحب قواتنا إلى داخل سيناء وعزلها وتدميرها .. ثم احتلال مصر بلا أية مقاومة .

« وكان لا بد من اتخاذ قرار خطير » .

وأحس عصام كأن يداً تقبض على عنقه وتكتم أنفاسه .

وخلع صبرى منظاره فى حركة عصبية ثم مد يده وأدار مفتاح الراديو ليعلى صوته .

وعاد الصوت الهادىء الحزين يقول :

« كان لا بد من اتخاذ قرار حاسم حتى يمكن إحباط خطط إنجلترا وفرنسا وإسرائيل والمحافظة على قواتنا الرئيسية .. حتى يمكن أن تبقى دائماً مساندة للشعب .

« وكلفت القائد العام اللواء عبد الحكيم عامر بحماية قواته المسلحة والعمل على أن ينضم أكبر جزء منها إلى الشعب حتى لا تتمكن القوات المعادية من عزلها وتدميرها فى صحراء سيناء .

« ولقد بدأ أمس تنفيذ هذه الخطة » .

ومد عصام يده فضغط على جبينه .

وشرد ذهنه فلم يستطع تمييزا لصوت المتحدث إلى جـواره .

أيمكن هذا ؟!

أحقاً .. سنسحب قواتنا من سيناء .. أمام قوات إسرائيل ؟!

أيمكن أن نترك أرضنا للكلاب النابحة ؟!

وتجمعت الدموع فى مآقى الجريح الراقد .. وعض على شفتيه حتى يرد عن نفسه نوبة بكاء .

والتفت إلى صبرى ليجده شارداً واجماً وعاد يستمع إلى الصوت .. وقد أخذ يزول عنه الأسى .. وارتدت إليه قوته ، وحماسته وهو يقول :

« لقد أعلنت مصر أنها ستقاتل دفاعاً عن سيادتها وعن حريتها وعن كرامتها .. سنقاتل كما كنا دائماً .. فى حرب شاملة جنودها الشعب جنباً إلى جنب مع القوات المسلحة .

« أيها الإخوة .

« إن كل فرد منكم جندى فى جيش التحرير الوطنى .

« لقد صدرت الأوامر بتوزيع السلاح .. وعندنا منه الكثير ، وسنقاتل فى معركة مريرة ، سنقاتل من قرية إلى قرية ومن مكان إلى مكان .

« ليكن شعارنا أننا سنقاتل ولن نسلم .

« إننا اليوم نكتب صفحة جديدة فى تاريخنا .

« إننا اليوم نريد الصبر والإيمان حتى ننتصر .

« وأنا أعاهدكم أنى سأقاتل معكم من أجل حريتكم ، كما عاهدتكم من قبل لآخر قطرة من دمى » .

وبدأت المعركة المريرة .

معركة أحس فيها كل مصرى بأنها معركته الشخصية .

بدأت المعركة المريرة .. بلا مرارة .. وإنما بحرارة وحرقة .. وحماس .

وأمست مصر كلها كأنها معسكر مسلح .

وشقت الخنادق فى الحدائق الخضر .. وربضت الدبابات فى زوايا الدور ، ومنحنيات الطرق .

ولم تعد صفارات الإنذار تثير فى النفوس ذعراً .

لا .. ولا عاد الدوى .. الذى يزلزل الأرض .. يهدم الدور .. بقادر على أن يزلزل الأفئدة أو يرج القلوب .

لم يكن الناس يسألون عن ضحايا الغارة من الشعب .. وإنما يتلهفون على ضحايا الطائرات المغيرة .

كانت الرغبة فى القتال ، وفى صد العدو الظالم المعتدى المغير ، أقوى من كل خوف .

لم يكن الناس ينزوون فى المخابىء ، خوفاً من الشظايا وإنما يتطلعون فى الشرفات .. ليرقبوا الطائرات تتهاوى .

وواجهت مصر .. غارات العدو على مدنها .. ببسالة فائقة وإيمان عجيب .

واستمر جلاد الجو الأحمر .. يبذر الدمار فى الأرض الطيبة الخضراء .

ووسط هذا الجحيم وبين الحمم المتساقطة من السماء .. والأرض المزروعة بالسلاح والجو الذى لا يهدأ فيه دوى .. ولا يصمت فيه عواء إنذار .

وصل قطار سكة الحديد من الخرطوم يحمل مدحت ونادية إلى محطة القاهرة .. عقب رحلة شاقة طويلة .. وسارت بهما « عربة الأجرة » من المحطة .. تشق طريقها بين المدافع المتناثرة .. فى الميادين .. والمركبات المتحركة فى الطرقات .

ونظر مدحت إلى نادية متسائلا :

— إلى أين ؟

ورفعت نادية كتفيها فى حيرة وأجابت :

— لست أدرى .. وأنا أكره الذهاب إلى بيت عمتى .. ولا أعرف زوجة عمى ، ولا أدرى هل ما زال فى بيته .

وفكر مدحت برهة ثم قال لها :

— لماذا لا تذهبين لتقيمى مع والدتى .. سأمر الآن بالمستشفى ثم أذهب بك إلى البيت .. وأعود إلى المستشفى مرة أخرى .

وتساءلت نادية :

ــ ولماذا لا أبقى معك فى المستشفى ؟ ألا أستطيع أن أفعل شيئاً .. إن لدىّ فكرة عن التمريض ؟!

ــ أنت متعبة وتحتاجين إلى راحة .

ــ لا أظننى أحتاج إلى راحة أكثر منك .. فإذا كنت ستذهب إلى المستشفى فإنى أحب أن أكون بجوارك .

ونظر إليها مدحت وقال ضاحكا :

ــ ألديك فكرة عن طريقة معاملتى للممرضات .. أتعرفين أنى أضربهن !

وأجابت نادية ضاحكة :

ــ ربما .. ولكننى أعتقد أنى سأرغمك على ترك هذه العادة السيئة .. وسأعلمك .. كيف تعامل الناس .. بطريقة أرق .

ووصلت العربة إلى مستشفى العجوزة وهبط الاثنان ، واتجها إلى حجرة مدحت .

وفى أحد ممرات المستشفى .. سمع مدحت صوتاً يصيح به :

ــ مدحت .

والتفت ليجد جاد الله مقبلا عليه فى حماس ولهفة .

وقبل أن يفتح ذراعيه ليضمه .. وقف ينظر إلى نادية ماخوذاً مشدوهاً .

وقال له مدحت ضاحكا :

ــ ألا تنوى أن تسلم .. الآنسة نادية .

وهز جاد الله رأسه قائلا وهو يطلق تنهيدة حارة :

ــ أخيراً .. لقد دوختنا .

وابتسمت « نادية » فى حياء ، وأردف جاد الله ضاحكا :

ــ لم يكن يخطر ببالى أننى سأراك حقيقة .. كنت أتوهمك عفريتة تسكن قمم الجبال .. كأنك « لولية بنت مرجان » .

ومدت « نادية » يدها مصافحة ولكنه فتح ذراعيه ضاحكا :

ـــ بالحضن .. أقل ما فيها .

ثم ضمها إليه فى لهفة .

ومد مدحت يده ليجذب ذراعه قائلا فى صرامة :

ـــ كفى . « لا تسق الهبالة على الشيطنة » .

ـــ الحق علىّ . لولاى ما كنت استطعت حتى رؤيتها . اسمع .. قص علىّ ما حدث من « طقطق لسلامو عليكم » .

ـــ ليس هذا وقته .. إنى أريد أن تفرد إحدى حجرات الممرّضات لنادية .

ـــ هكذا مرة واحدة ؟ .

ـــ أجل ستعمل معى .

ـــ وستضربها ؟

ـــ ليس لك بها شأن .

ونظر مدحت إلى نادية قائلا :

ـــ أظنك تستطيعين أن تذهبى الآن لتستريحى ؟!

وترددت « نادية » برهة وتساءلت :

ـــ أأستطيع أن أرى عصام ؟

ـــ سترينه بعد .

ـــ إنى أحب أن أراه الآن .

ـــ هل ستحدثينه عن « منى » ؟

ـــ ما رأيك ؟!

ورفع مدحت كتفيه .. وقال :

ـــ أظن أنه لا بد أن يعرف فى يوم ما .. لست أدرى ما إذا كان يستطيع الآن احتمال الصدمة .

وأجاب جاد الله :

ـــ إنه فى تحسن .

وهز مدحت رأسه قائلا :

ـــ على أية حال لا داعى لأن تخبريه مرة واحدة .. قولى له إنها مريضة .. وبعد بضعة أيام .. يمكن أن نسوق له النبأ .

واتجه مدحت إلى غرفة عصام .. وفتح الباب وأطل عليه .

وبدت الدهشة على وجه عصام وهتف به :

ـــ أهلا دكتور مدحت .. لقد طالت غيبتك عنا .. أين كنت ؟

ـــ على سفر .

ـــ فى هذا الوقت ؟

ـــ أجل .. لقد ذهبت فى مهمة خطيرة .. وأحضرت معى أثمن ما يمكن الحصول عليه .. أحضرت معى شخصاً تعرفه .

ورفع عصام حاجبه فى دهشة وتساءل :

ـــ أعرفه أنا ؟

ـــ أجل .

وتنحى عن الباب ثم دفع نادية قائلا :

ـــ لقد أحضرت نادية .. خطيبتى .

وهتف عصام مأخوذاً :

ـــ نادية .. لا يمكن .. غير معقول .. كيف حدث هذا . ومتى عرفتها ؟ ولماذا ذهبت إليها فجأة ؟ وكيف أحضرتها ؟

وقال جاد الله :

ـــ حيلك .. حيلك .. هذه أسئلة تحتاج إلى سنة للإجابة عليها .. المهم أنه قد أحضرها ، وخطبها .

وصاح عصام فرحاً :

ـــ إذن لقد أصبحنا عدايل .

وأحس الثلاثة بلسعة أسى ، وخيم على وجوههم صمت رهيب .. وعاد عصام يقول لمدحت :

ـــ لقد قابلت « منى » طبعاً . لماذا لم تحضر معكما ؟

وأجابت نادية :

ـــ لأنها مريضة .

ـــ مريضة ؟. بم ؟

وازدردت نادية ريقها وأردفت قائلة :

ـــ لقد أصابها التهاب رئوى .

وبدا الفزع على وجه عصام :

ـــ التهاب رئوى ، وكيف تركتماها ؟

ـــ أحسن .. أحسن .

ـــ من أجل هذا لم تكتب إلىّ ؟.. كيف وجدتها يا دكتور مدحت ؟.. قل الحق .

وأحس مدحت أنه من الخير أن ينهى الموقف فأجاب مردداً كلمات نادية :

ـــ أحسن .. أحسن . هيا بنا الآن ، يجب أن تستريحى يا نادية .

وهمّ عصام بالسؤال ، ولكن مدحت أسكته بإشارة من يده قائلا :

ـــ انتهينا .. كفى هذا الآن .. يجب عليك أن تستريح أنت أيضاً .

ـــ ولكن ...

ـــ سنعود عندما نستريح كلنا .

واستدار مدحت ليخرج من الغرفة عندما بدا صبرى بالباب .

وهتف صبرى مرحباً :

ـــ دكتور مدحت .. أهلا وسهلا .

ومد يده يشد على يد مدحت فى شوق .

ولم يكن فى غمرة حماسه لمدحت قد أبصر نادية فأشار مدحت يعرفه بها :

ـــ نادية .. خطيبتى .

وفغر صبرى فاه ، ووقف مكانه مشدوهاً ، ثم هتف متمتما :

ـــ نادية .. نادية .

ومدت نادية يدها تصافحه قائلة :

ـــ كيف حالك يا صبرى ؟

واستمر صبرى يردد فى ذهول ، وقد جثمت على وجهه سحابة أسى ولوعة ويأس :

ـــ نادية . نادية . خطيبته !

وضحك مدحت متسائلا :

ـــ خطيبتى أنا . أية غرابة فى ذلك ؟!

وأجاب صبرى وهو يهز رأسه كأنما يحاول أن يفيق من صدمة :

ـــ أبداً . أبداً .. إنى لم أكن أتوقع .. أعنى ....

ثم مد يده يشد على الدكتور مدحت وهو يتمتم فى اضطرابه :

ـــ مبروك . مبروك يا دكتور مدحت . مبروك يا نادية . متى أتيت ؟

ـــ الآن .

ـــ الآن ! وأين « منى » ؟

ومرة أخرى بدا الاضطراب على نادية ، وأجابت وهى تحاول أن تتمالك أعصابها :

ـــ فى جاب .

ـــ ولماذا لم تحضر ؟

ـــ لأنها مريضة .

وقبل أن يسترسل صبرى فى أسئلته ، سحب مدحت نادية من ذراعها قائلا :

ـــ عن إذنكم الآن .. سنراكم مرة ثانية .

وخرج الثلاثة من باب الحجرة مخلفين صبرى وعصاماً مغرقين فى دهشتهما .

(٥٢)

متعة جزاء ...

فى فجر اليوم التالى .. يوم الاثنين ٥ نوفمبر ، بدأ غزو القوات المعادية لبورسعيد ، وركزت القوات الفرنسية والإنجليزية هجومها بالقنابل والصواريخ على المدينة الباسلة .. وحلقت الطائرات فى الشوارع لتصب رصاصها من ارتفاع خفيض على الأهالى الوادعين .

وفى السابعة والنصف بدأ هبوط أول موجة من موجات المظلات فى سماء بور سعيد ، وشاهد الشعب المكافح ، المعتدين يحلقون بمظلاتهم فوق مطار الجميل والجبانة وبور فؤاد .

واندفع الأهالى .. بكل ما يملكون من أسلحة .

اندفعوا « بأيادى الهون » .. وبالسواطير والسكاكين .

اندفعوا فى حماس جنونى .. ليدفعوا المعتدى .. عن أرضهم .. وعرضهم وكرامتهم .

اندفعوا ليخوضوا معركتهم المريرة .. إلى جانب القوات المسلحة .. فى عزم وحزم .. وشجاعة وإيمان ..

وفى أربع ساعات .. كانت الموجة الأولى .. قد قضى عليها ..

وقبيل الظهر عاد العدو إلى إنزال موجة أخرى استطاعت أن تعزز بعض المراكز فى بور توفيق ومطار الجميل .

وكان الهجوم من القوة بحيث أعلن إيدن فى مجلس العموم أن بور سعيد قد سقطت

وأقبل صبرى فى المساء على عصام وقد بدا متجهم الوجه .

وقال له عصام فى أسى وحزن :

ـــ أسمعت ؟!.. لقد أذاعت الإذاعة البريطانية أن بور سعيد سلمت ..

وصاح صبرى فى حنق :

ــ أبداً .. لم تسلم .. لقد كذبت محطتنا هذا .. لقد حاولوا تدمير محطتنا .. لإسكات صوتها .. حتى يستطيعوا نشر أكاذيبهم .. ولكن محطتنا تعلن فى كل مكان .. أن بور سعيد لم تسقط .. إننا سنقاوم حتى آخر رجل .. سنقاتل كما قال « جمال عبد الناصر » .. من قرية إلى قرية ، ومن مكان إلى مكان .. سنقاتل لآخر قطرة من دم كل مصرى .

وصمت برهة ثم أردف قائلا :

ــ اسمع يا عصام .. سأذهب إلى بور سعيد .

وعلت الدهشة وجه عصام وتساءل :

ــ أنت ؟!.. لم ؟!

ــ إنهم فى حاجة إلى كل سلاح ، وكل قطرة من عرق .

لا بد أن أقوم بواجبى فى المعركة .

ــ ولكنك تستطيع أن تقوم به هنا .

ــ أبداً .. إن جبهتنا فى بور سعيد يجب ألا تتصدع .سأذهب من الليلة .. إن لدىّ موعداً مع بعض الفدائيين وستحملنا عربة عن طريق المطرية .

وتنهد عصام فى أسى وقال :

ــ كما تشاء !

ونقل صبرى بندقيته إلى يده اليسرى ثم شد على يد عصام فى حرارة قائلا :

ــ لن نهزم أبداً .

وأجاب عصام والدموع تترقرق فى عينيه :

ــ أبداً .. أبداً .. إن شعبنا يستطيع أن يفعل المعجزات .

وخرج صبرى من الحجرة وهو يثبت منظاره على عينيه . ولم يتجه إلى

الخارج .. وإنما عرج فى ممرات المستشفى حتى وصل إلى حجرة « نادية » ، وطرق الباب .

ووصل إليه صوت « نادية » الرقيق يقول :

ـــ ادخل .

ودخل صبرى .

ورفعت « نادية » عينيها فى دهشة وقالت مرحبة :

ـــ أهلا صبرى .. تفضل .

وقال صبرى وهو يقف منتصب القائمة وقد ارتجفت شفتاه ، وسلاحه فى يده :

ـــ إنى آسف لإزعاجك .. ولكننى فقط أردت أن أودعك .

ـــ لمه ؟!

ـــ لأنى سأسافر إلى بور سعيد الليلة .

ـــ أنت ؟!

ـــ أجل .

وقبل أن ترد عليه « نادية » دفع يده فى جيبه وأخرج ظرفاً مغلقاً وقال لها فى صوت خافت أشبه بالهمس :

ـــ لقد كتبت لك رسالة .. وسأعطيها لك بشرط ...

وهزت « نادية » رأسها مستفسرة وقد بدا عليها التأثر والدهشة

وأجاب صبرى :

ـــ بشرط ألا تفتحيها .. الآن .

وصمت ، برهة .. وعادت « نادية » تهز رأسها مستفسرة .

وأجاب صبرى فى لهجته الهامسة :

ـــ لا تفتحيها إلا .. إذا .. سمعت نبأ استشهادى .

وأحست « نادية » برجفة وهتفت به :

ــ لماذا تقول هذا ؟! إنك ستعود سالماً .

وأجاب صبرى قائلا فى إصرار :

ــ إذا عدت سالماً .. فأرجوك ألا تفتحيها .. عدينى

وتساءلت « نادية » فى حزم :

ــ لماذا تقول هذا يا صبرى ؟! إنك ستعود سالماً .

ــ عدت سالماً أو لم أعد .. هذا لا يهم .. المهم أنك لا تفتحينها إلا إذا عرفت أنى استشهدت .

وأجابت « نادية » فى لهجة حزينة وصوت متهدج :

ــ أرجو ألا أفتحها أبداً .

ومد صبرى يده فسلمها الرسالة ، ثم شد على يدها ورفعها فى رفق إلى شفتيه قائلا :

ــ أتسمحين ؟!

وهزت « نادية » رأسها ، فمسها بشفتيه ثم استدار خارجاً .

وهتفت « نادية » من أعماقها :

ــ مع السلامة .. ستعود .. إن شاء الله .. لنقرأ الرسالة سوياً .. مع السلامة .

واختفى صبرى .. فى ممرات المستشفى .

وفى صباح اليوم التالى عاود الطيران البريطانى والفرنسى هجومه العنيف على بور سعيد .. ليترك المدينة حمماً وأطلالا . وقبل الثامنة والنصف انطلقت مدافع الأسطول تدك بيوت الأهالى ودمرت « حي المناخ » ومعظم المبانى القائمة على شاطئ بور سعيد فى ثلاثة صفوف تقريباً ، واستمر الضرب حتى الساعة العاشرة .

وفى الساعة العاشرة بدأ العدو إنزال دباباته وعرباته المصفحه وقواته من المشاة .. تحت ستار كثيف من الدخان .

وخاض شعب بور سعيد معركته المريرة من شارع إلى شارع ، ومن بيت إلى بيت .. تحت قنابل الطيران ونيران الأسطول .. وأخيراً استطاعت القوات الهابطة على الشاطىء الاتصال بالقوات التى هبطت بالمظلات فى اليوم السابق عند كوبرى الرسوة ...

وبرغم الطيران والأسطول والمدرعات استمرت المقاومة الشعبية تزداد عنفاً .

وفى يوم وليلة تحوّل القطر كله إلى معسكر واحد كبير حتى بلغ عدد الذين يحملون بنادق خمسة ملايين ونصف مليون رجل وامرأة .

ووقف العالم يرقب الشعب الباسل المكافح فى معركته ضد القرصنة والطغيان والظلم .

وأعلن الرأى العالمى سخطه على العدوان الآثم وتأييده للشعب المكافح .

وأرسل الروس إنذارهم .

ووقفت أمريكا فى الأمم المتحدة لتعلن معارضتها للاعتداء وتؤيد الشعب المناضل ضد قوى العدوان .

وفى يوم الأربعاء ٧ نوفمبر .. اضطر الباغى المعتدى للرضوخ لقرار الأمم المتحدة بوقف القتال .

وفى ٩ نوفمبر وقف « جمال عبد الناصر » .. فى الأزهر ليعلن للشعب :

« إن موقفنا بعد عشرة أيام من المعركة أقوى مما كان .. إن القومية العربية تحققت وأصبحت عملا بعد أن كانت قولا .

الشعب قوة متحدة .. الجيش والطيران والبحرية قوة متماسكة .

اثنتان من الدول الكبرى ضد العدوان .

روسيا هددت فعلا أنها ستسحق هذا العدوان

وأمريكا ستعمل على القضاء عليه .

هذا هو الموقف .

الأمم المتحدة قامت بعمل مستمر .. ووقف العالم كله ضد إنجلترا وفرنسا ، وظهرت الحرب العالمية فى الأفق .. وافقت إنجلترا وفرنسا على وقف إطلاق النار .

ولكن المعركة لم تنته بعد .

إننا سنكون على حذر دائم حتى لا نؤخذ بالخديعة والغدر .

إننا نريد السلام .. ولن يفرض علينا الاستسلام .

إن العالم يساندنا فى كل مكان .

سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل .. دفاعاً عن أراضينا ، وعن سيادتنا وعن حريتنا » .

وهكذا أوقف العدوان .. وأحبطت المؤامرة .

وانتصر الشعب المصرى المكافح فى سبيل كيانه وحريته .

ولم يكن النصر سهلاً .

ولم تكن المعركة هينة .

ووقفت المدينة الباسلة .. لتؤكد .. وجراحها تنزف .. ودخان الحرائق يتصاعد من أطلالها ، وجثث ضحاياها تتكدس بين خرائبها .. ودماء شهدائها تجرى فى ميادينها .. أنها لن تكف عن المقاومة .. حتى تتطهر أرضها .. من آخر جندى .. من جنود الطغاة .. وأنها على استعداد لمزيد من البذل ومزيد من التضحية .. ومزيد من عرق المكافحين .. ودماء الشهداء .

وبين هذا المزيد من الشهداء ، الذى قدمته المدينة الباسلة ، كان صبرى .

ووصل نبأ استشهاده فى نفس الليلة .

وتلقته « نادية » فى ذهول .

ومدت يدها تتحسس .. رسالته .. فى صمت موجع .

وبدا لها طيفه ، بجسده النحيل الطويل . ورأسه الصغير الذى حجبته « الكاسكتة الكاكية » وقد أمسك بالسلاح فى يده .. وهمس بها فى صوت رقيق

متوسل : « لا تفتحيها إلا إذا سمعت نبأ استشهادى » .

وبأصابع مرتجفة فتحت « نادية » الرسالة .

ومن خلال الدموع المرتجفة فى مآقيها قرأت سطوره الأخيرة :

« حبيبتى نادية .

« لأول مرة .. أجسر على أن أناديك مما أحس لك .. وبما أحب أن أناديك به

« لأول مرة أجسر على أن أناديك .. بحبيبتى .

« وأنت حبيبتى .. منذ سنوات طوال .. منذ أن عرفت كيف أحس .. وكيف أحب .

« ومع ذلك لم أجرؤ يوماً على أن أصارحك بشىء مما أحس .

« حتى بعد أن سافرت .. وظننت أنى أستطيع فى رسائلى أن أكتب لك فى بعدك ما عجزت عن قوله فى مواجهتك .

« ولكنى لم أكن أجرؤ .

« كنت أحس بالخشية ..

« والتردد .. والعجز ..

« لست أدرى لمه .

« ألأنك كنت أول حبى .. وأول تجربتى !!

« ألأنى .. كنت أخشى ألا أكون كفئاً لك .. وألا يكون .. نصيبى منك .. سوى الصد والسخرية !!

« جائز هذا .. وجائز ذاك .

« لقد ظللت .. طيلة هذه السنين .. أتحدث إليك .. وأكتب لك .. دون أن أجرؤ .. مرة واحدة .. على أن أقول لك .. إنى أحبك ..

« ولكنى أحس الآن ، وأنا أكتب إليك .. أن إحساساً جديداً فى باطنى ، يمنحنى الجرأة على قولها .. إحساساً يمنحنى الشجاعة ، والقدرة ، على أن أهتف

بك .

« إنى أحبك .. أحبك .. أحبك .

« أقولها ، وبنفسى جرأة عليها .. لأنى لن ألقاك بعد .. حتى أواجه ما قد ألقاه منك ، من إيلام صد ، ومرارة وسخرية .

« أقولها ، وبنفسى جرأة عليها .. لأنها لن تصل إليك .. إلا .. وأنا شهيد .

« والإحساس بالاستشهاد يمنحنى إحساساً بالجرأة .

« ويملأ نفسى ثقة بأنى قد أصبحت كفئاً .. إن لم يكن لحبك .. فعلى الأقل لتقديرك .

« هل تدرين السعادة التى أحس بها .. عندما أتخيل أنى ساستشهد .. وأنك ستفتحين رسالتي ، وأنك ستسمعين هتافى بك « إنى أحبك » ؟

« بل هل تدرين المتعة التى أحس بها الآن .. وأنا أجد فى نفسى الجرأة على ترديدها .. والإحساس بأنها عندما تصل إليك .. لن تكون محل سخرية ، لأنها ليست من محب عابث ، بل من محب شهيد ؟

« الاستشهاد ؟؟

« ما تصوّرت قط أن يكون للاستشهاد .. مثل هذا الإحساس الممتع .

« إنى أحس له بمتعتين : متعة البذل .. ومتعة الجزاء .

« متعة البذل .. من أجل مصر .

« من أجل وطننا .. الجريح . المظلوم . المعتدى عليه .

« وطننا .. الذى استكثر عليه الطغاة حريته .. وكرهوا له أن يأخذ حقه فى الحياة ، وأن يسترد أرضه ، ويستعيد موارده .

« متعة البذل .. من أجل كفاح المعتدى . وصد الباغى

« البذل من أجل صيانة أرضنا ، وعرضنا ، ومستقبلنا ، من قيود استعماره ، وذل طغيانه .

« وإذا لم نبذل نحن أبناءه .. فمن الذى يبذل من أجله ؟!

« إن صد العدوان .. يحتاج عرقاً ، ودماء .

« فإذا لم نبذل نحن من جباهنا العرق ، ومن عروقنا الدماء .

« فمن الذى يبذل له ؟ ومن الذى يقيه الشر ويصد عنه الأذى ؟!

« هذه هى متعة البذل التى أحس بها .

« أما متعة الجزاء .. فهى جرأتى على مناجاتك .. وعلى أن أقول لك : حبيبتى « نادية » :

« وإحساسى بأنى لن ألقى منك صداً ولا سخرية .

« ولهفتى على تقديرك لى ، وثنائك علىّ ، وحزنك من أجلى .

« وطمعى فى عبرتين تسكبينهما .. على قبرى إن كان لى قبر ، وعلى رسالتى إن حرمته » .

« صبرى »

وتكاثفت طبقة الدمع فى مآقيها .. حتى حجبت رسالة الشهيد .. وانحدرت عبرتان . لتستقرا بين السطور وتمتزجا بالكلمات ، وتحملا لروح الشهيد ، متعة الجزاء ، بعد أن منح الوطن متعة البذل .

الخاتمة

أقبل مدحت على « نادية » يكفكف دمعها .. وضمها إلى صدره وهو يتحسس شعرها وعنقها قائلا فى صوت رقيق :

ـــ أظنك الآن تستطيعين العودة إلى البيت !

ـــ أى بيت ؟!

ـــ بيتنا .. لقد تركته أمى خلال الغارات لأنه ملاصق للمطار وذهبت إلى بيت أخيها فى شبرا . وسنمر عليها اليوم لكى نعود بها إلى البيت . إنها فى حاجة إلى معونتك .

وصمت برهة ثم تمتم فى حيرة :

ـــ لست أعرف شيئاً عن إجراءات الزواج .. ولكن لا شك أن أمى تعرف كل شىء .. وسنتصل بعمك سليمان .. ليحضر إلينا .

وتنهدت « نادية » وانحدرت عبراتها من عينيها وكفكفها مدحت ضاحكا وهو يقول :

ـــ انتهينا .. لا عبرات بعد الآن .. بل حياة .. وأمل .. وبسمات .. وسلام لنا .. ولوطننا .. ولكل الناس .

(تمت)

فهرست الجزء الثانى

صفحة

صفحة

رقم الإيداع ٤٠٦٩ / ٨٧

الترقيم الدولى ١ ـــ ٠٣١٢ ـــ ١١ ـــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٨٥٠ قرشا